دير القديس أنبا مقار

حياة الصلاة الأرثوذكسيّة

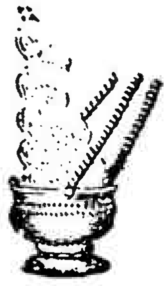

الأب متى المسكين

كتاب: حياة الصلاة الأرثوذكسية.
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: ١٩٥٢.
الطبعات اللاحقة: ١٩٦٨-٢٠٢١
الطبعة الخامسة عشرة:٢٠٢٢
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٦/٢٢٦٧
رقم الإيداع الدولي: ISBN 978- 977-448-025-6
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر.

يُطلب من:

دار مجلة مـــــرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

لوحة رقم (١)

أيقونة قبطية من القرن السادس تمثل الرب يسوع المسيح والقديس مينا، ويلاحظ كيف يضع الرب يده على كتف القديس اليمنى بمودة فائقة. وهكذا يكشف الفنان القبطي عن عمق الوجدان القبطي في تفهم العلاقة التي تربطنا بالله. وقد وُجِدت هذه الأيقونة في دير باويط بالقرب من ملوي بصعيد مصر. وهي من روائع الفن القبطي الخالص ومن الأيقونات الفريدة المحبوبة لدى فناني الغرب...وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر بفرنسا.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٩
الباب الأول	
طبيعة الصلاة	١٧
الفصل الأول: تعريف بالصلاة وفاعليتها	٢١
أولاً: ماهي الصلاة	٢٣
أقوال الآباء في ماهي الصلاة	٢٨
ثانياً: يالعظمة الصلاة	٣٣
أقوال الآباء في عظمة الصلاة	٣٦
ثالثاً: ضرورة الصلاة	٤١
أقوال الآباء في ضرورة الصلاة	٤٥
رابعاً: فاعلية الصلاة	٥١
أقوال الآباء في فاعلية الصلاة	٥٧
الفصل الثاني: درجات الصلاة	٦٥
أولاً: الهذيذ	٧١
أقوال الآباء في الهذيذ	٨١
ثانياً: التأمل	٨٩
أقوال الآباء في التأمل	١٠٩
الفصل الثالث: ما فوق حدود الصلاة	١٢٣
أولاً: الدهش	١٢٩
الدهش أي الجذب الإلهي ومايلازمه من انفعالات نفسية	١٣٥
أقوال الآباء في الدهش	١٤٤
ثانياً: رؤية الله	١٥٥
أقوال الآباء في رؤية الله	١٧٤
ثالثاً: الاتحاد بالله	١٨٩
أقوال الاباء في الاتحاد بالله	١٩٦

الفصل الرابع: ثمار التأمل ٢٠٧
أقوال الآباء في ثمار التأمل ٢١٦

الفصل الخامس: حياة التأمل وحياة العمل ٢٢٥

الباب الثاني
نواحي النشاط الداخلي للصلاة ٢٥١

المفهوم الكنسي لمعنى النسك ٢٥٤

الفصل الأول: تحرير النفس ٢٥٧
أقوال الآباء في تحرير النفس ٢٦٥

الفصل الثاني: تنقية القلب ٢٧٩
أقوال الآباء في تنقية القلب ٢٨٦

الفصل الثالث: إنسحاق الروح ٢٩٩
أقوال الآباء في انسحاق الروح ٣٠٦

الفصل الرابع: الإيمان والمثابرة ٣٢١
أقوال الآباء في الإيمان والمثابرة ٣٣٦

الفصل الخامس: الاجتهاد والتغصب ٣٥٣
أقوال الآباء في الاجتهاد والتغصب ٣٦٠

الفصل السادس: ضبط الفكر ٣٧٩
أقوال الآباء في ضبط الفكر ٣٨٤

الفصل السابع: الصمت المقدس ٣٩٩
أقوال الآباء في الصمت المقدس ٤٠٣

الفصل الثامن: صلوا كل حين ٤٠٩
أقوال الآباء في الصلاة الدائمة ٤١٩
إختبار الصلاة الدائمة: صلاة يسوع ٤٣١

الفصل التاسع: الدموع ٤٣٧
أقوال الآباء في الدموع ٤٥١

الفصل العاشر: الصوم ٤٥٧
أقوال الآباء في الصوم ٤٦٧

الباب الثالث

معوقات الصلاة ٤٧٥

الفصل الأول: الجفاف الروحي ٤٧٩

الفصل الثاني: الفتور الروحي ٤٨٥
أقوال الآباء في الجفاف والفتور الروحي ٤٩٤

الفصل الثالث: ضياع الهدف ٥٠٥
أقوال الآباء في أهداف الصلاة ودوافعها ٥١٨

الباب الرابع

نواحي النشاط الخارجي للصلاة ٥٣١

الفصل الأول: بيت الله ٥٤١
أقوال الآباء عن بيت الله ٥٤٦

الفصل الثاني: إشارة الصليب ٥٥٣
أقوال الآباء عن إشارة الصليب ٥٦٣

الفصل الثالث: الأيقونات ٥٦٩
أقوال الآباء في الأيقونات ٥٨٨

الفصل الرابع: الشموع ٥٩٧
أقوال الآباء عن الشموع ٦٠٥

الفصل الخامس: البخور ٦٠٧
أقوال الآباء عن البخور ٦١٤

الفصل السادس: التسبيح بالمزامير ٦١٧
أقوال الآباء عن التسبيح بالمزامير ٦٢٤

الفصل السابع: السجود ٦٣٣
أقوال الآباء عن السجود ٦٤١

ملاحق الكتاب

سير شخصيات أهم الآباء الواردة أقوالهم في الكتاب ٦٤٣

فهرس أقوال الآباء التي جاءت بالكتاب ٦٥٩

مراجع الكتاب ٦٦٣

أشهر الأيقونات القبطية ٦٦٥

مقدمة الطبعة الثانية[١]

نشكر الله الذي أبقانا حتى نرى بداية النهضة الآبائية في الكنيسة القبطية، الأمر الذي كنا نتوق إليه حينما أخرجنا طبعتنا الأولى لكتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية منذ ستة عشر عاماً، وهو الكتاب الذي زرع روح الآباء وكلمتهم في قلب الجيل السالف بغنى وفيض حتى أتى بثمار روحية كنا نظنها حلماً فإذا هي حقيقة تُشاهَد.

فقد انبثقت من هذه النهضة الآبائية الروحانية الصرف حركة التكريس الرهباني، كما امتد أثر هذا الكتاب في خارج المحيط القبطي إذ تلقينا رسالة من الأمين العام لحركة الشبيبة للروم الأرثوذكس في لبنان الأرشيمندريت چورچ خضر الجزيل الاحترام[٢] يقول فيها عن كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية: «ولأول مرة يتتلمذ الروم على كتاب قبطي».

فعرفنا للتو أن الله اختار هذا الكتاب ليكون فيه كلمة مصالحة ونقطة تقابل، لا على صعيد الحوار الفكري أو الجدل اللاهوتي، بل على مستوى وحدة الحياة الروحية وتجليات الإيمان الذي يتجاوز العجز اللفظي إلى نور الحق الإلهي المعاش.

ولعل من أصعب ما واجهناه في تصنيف هذا الكتاب هو تجريده من الروح التحيزية تجريداً يكاد يكون كاملاً ومنسجماً، ولا يخفى على القارئ أن النزاع التقليدي في اللاهوت النسكي والتصوفي سواء بين الإسكندرية وأنطاكية أو بين الشرق والغرب عموماً، أمر يطول شرحه وقد انحرف به العلماء حتى جعلوه خصومة، مما أدى إلى تحطيم وحدة الروح المسيحية وتفتيت العبادة والصلاة في أنحاء العالم. هذا الخطر جعلناه في اعتبارنا الأول وتحاشيناه بكل انتباه روحي، لأننا نؤمن إيماناً وثيقاً أن وحدة الروح النسكية والتصوفية في العالم كله منبثقة من الإنجيل، ودليلنا على ذلك هذا الإنسجام الرائع الذي يجده القارئ بين كافة الأقوال المدوَّنة تحت فصول هذا الكتاب. هذا وفي تعمقنا المستمر لتراثنا القبطي طوال هذه السنين، تيقنّا أن الأفق الروحي عند آباء «طيبة» و «نتريا» و «الأسقيط»[٣] متسع وبسيط في آن واحد

---

(١) صدرت عام ١٩٦٨.

(٢) الآن المطران چورچ خضر مطران الكورة والجبل وتوابعهما بلبنان.

(٣) أشهر براري مصر التي كانت ولا زالت موطن النسك والعبادة.

كاتساع حضن المسيح، وقد استطاع يوماً ما أن يحتضن نساكاً عديدين من سوريا وفلسطين واليونان وروما وفرنسا وأسپانيا وإثيوبيا وكافة الأرجاء البعيدة مع ما كان بينهم من تفاوت هائل في المزاج اللاهوتي والنسكي والاستعداد العقلي والجسدي، فلا عجب يا إخوة أن يشمل هذا الكتاب، كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية، أسماء من كل قطر، فهو برهان متفائل على أن الروح الواحد الذي توزَّع يمكن أن يتجمع إن لم يكن على صعيد المكان فلا أقل من أن يكون على صعيد الكتاب دون أي نشاز أو تحيز إن كان الضمير صالحاً.

لذلك نحن نتوسل لدى الله القدير أن يجعل هذا الكتاب «أسقيطاً» جديداً يجمع إليه الأقطار كما انجمعت فيه، تمهيداً لاستعلان عهد الوحدة والمصالحة.

ونحن نقدم هذه الطبعة الثانية متيقنين أن الله الذي استخدم هذا الكتاب لتوجيه الجيل السالف إلى أهمية التمسك بالروح الآبائية في بناء النفس، قادر بنعمته أن يجعل من هذا الكتاب في طبعته الجديدة قوة دفع جديدة نحو الأعماق الروحية حتى تخرج الأرثوذكسية من جمودها إلى مستوى الحركة والشهادة، ليس على مستوى الوعظ بل على مستوى السيرة كما كان الآباء.

فالعالم اليوم متعطش لشهادة إيمان حي بشخص يسوع المسيح، لا ليسمعها ولكن ليعيشها. فالكتب التي تتكلم عن المسيح ما أكثرها، والمعلمون الذين يتكلمون عن المسيح ما أكثرهم أيضاً، ولكن الذين يعيشون مع المسيح ويتكلمون مع المسيح قليلون جداً.

❁ ❁ ❁

والكنيسة لا يمكن أن تعيش على حقائق إيمان تدرس، فالإيمان بالمسيح ليس نظرية بل قوة قادرة على تغيير الحياة، وكل إنسان في المسيح يسوع لابد أن تكون له هذه القوة، أي يكون قادراً على تغيير حياته وتجديدها بقوة المسيح.

ولكن إيماننا بالمسيح سيظل بلا قوة حتى نتواجه معه وجهاً لوجه داخل أنفسنا بكل صبر وطول أناة وشجاعة، محتملين الخزي العظيم الذي سيغطينا حينما تنكشف أنفسنا وتقف عارية أمام عينيه الطاهرتين الفاحصتين، لأننا حتماً سنخرج ولنا خبرة خاصة وتجديد لأنفسنا ومعرفة حقة ودراية بقداسة المسيح ولطفه.

كل مواجهة مع المسيح هي صلاة تجديد، وكل صلاة هي خبرة إيمانية، وكل خبرة إيمانية هي حياة أبدية.

ولكن ليس معنى هذا أن حقائق الإيمان والعقيدة واللاهوت يمكن أن تتشكل أو تتغير تبعاً لخبرات الإنسان الداخلية، فحقائق الإيمان ثابتة ثبوت الله نفسه، وإنما خبراتنا تزيدها وضوحاً واستعلاناً. فالله إنما يُستعلن في قديسيه.

فعلى قدر خبرات القديسين والأتقياء على مدى الدهور عرفنا الله وسنعرفه.

غير أن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها، وهي أنه بالرغم من أن خبرات القديسين الإيمانية تنير أمامنا طريق المعرفة، إلا أنها يستحيل أن تمدنا بالإيمان الحي دون شهادة خاصة تنبثق من عمق خبرتنا وحياتنا، فالمسيح ينبغي أن يكون لك كما هو لكل قديس، لأنه مات عنك شخصياً.

إن المسيح أعطانا لا أن نعرفه أو نؤمن به فقط بل أن نحيا به، وأعطانا الروح القدس لا ليعلمنا فقط بل ليسكن في داخلنا، يغير شكلنا ويجدد ذهننا ويأخذ كل يوم مما للمسيح ويعطينا.

فالحياة في المسيح حركة وخبرة وتجديد ونمو بالروح لا يتوقف.

ولكن كل هذه الحركة النامية المفروضة في خبرة الإنسان الفرد يلزم أن تكون في نفس الوقت مطابقة تماماً لخبرة الكنيسة العامة، ولا تخرج عن إطار عقيدتها الثابتة المحددة!

ودعوة المسيح لنا أن نصلي أمام الله، ثم إلحاحه علينا أن نصلي ولا نملّ ثم نصلي بلجاجة، هذه الدعوة في الحقيقة تشير إلى المصدر الذي ننال بواسطته قوة على التغيير والتجديد والنمو، لذلك أوضح المسيح ضرورة الصلاة، لأن بواسطتها يتم أخذ شيء لا يمكن أخذه بأية طريقة أخرى إلا بالصلاة وحدها. أما هذا الشيء الذي يُعطى لنا بالصلاة فقط فهو يختص بالله نفسه: «يعطي الروح القدس للذين يسألونه»(٤) (لو ١١: ١٣)، لأن الصلاة هي اتصال روحي بالله.

(٤) يقول أول قديس ناسك مصري، وهو أنبا أنطونيوس، أن اقتناء روح الله في القلب هو غاية الإنسان المحب لله: [لأجل اللاهوتية التي فيكم أنا أحبكم بكل قلبي، لأنه بسبب اقتنائكم الله في قلوبكم قد صرتم عندي في مكانة عظيمة، لذلك أنا أطلب من الله أن تزيد وتنمو اللاهوتية في قلوبكم بمحبة.] الرسالة ١٣.

وبنفس هذا المعنى يقول الأب صاروفيم آخر قديس روسي: [إن غاية الإنسان المسيحي هي أن يقتني الروح القدس.]

أما كثرة الصلاة بدون ملل فغرض الله منها هو أن الصلاة تُحدث فينا تغييراً جوهرياً متواتراً يوماً بعد يوم.

أما كون الصلاة يلزم أن تكون بلجاجة، فذلك لكي نتحول إلى شيء أعلى من طبيعتنا. وهذا يتحقق لنا بالفعل حينما نحس بأننا أصبحنا شيئاً أكثر من أنفسنا، وهذا ما يدعونا إلى توسل كثير وإلحاح حتى تُقبل صلاتنا لأننا ننال بها ما هو ليس من استحقاقنا أصلاً.

لذلك ينبغي لنا أن ندرك أن الصلاة بحد ذاتها عمل جوهري يتم خلاله تغيير وتجديد ونمو للنفس بواسطة الله نفسه، دون أن يشعر الإنسان.

فلا المسرة ولا السلام الداخلي ولا الإحساس بالاستجابة ولا أي شعور آخر، يمكن أن يساوي فعل الروح القدس السري في النفس لجعلها لائقة للحياة الأبدية. فالصلاة أقوى عمل روحي ناجح يحمل جزاءه التلقائي دون برهان من الشعور. والصلاة لا يمكن أن يكون لها غاية أو هدف أعظم منها هي نفسها، فهي أعظم هدف لأعظم عمل.

الصلاة انفتاح على قوة الله الفعالة غير المنظورة وغير المحسوسة. فالإنسان لا يمكن أن يخرج من أمام الله بدون تغيير جوهري وبدون تجديد وذلك بضمان وعد المسيح، ولكن لا يكون التغيير على أساس الطفرة بل على أساس البناء الدقيق غير الملحوظ.

والذي يصبر لله ويداوم على تسليم نفسه له بالصلاة بدون ملل، يأخذ في النهاية أكثر مما كان يشتهي بل وأكثر مما يستحق. فكل من عاش بالصلاة، تتجمع لديه في النهاية حصيلة هائلة من الثقة بالله تبلغ حد القوة واليقين على مستوى المنظور والمحسوس، لأن النفس تتشبع بالله في كل كيانها حتى إلى الأعماق فيحس الإنسان بالله إحساساً يقينياً يبلغ حد القوة حتى يشعر بنفسه أنها أصبحت أكثر مما هي وأقوى مما هي، ويثق بوجود آخر أعلى من وجوده الزمني وفي نفس الوقت لا يجهل ضعفه ولا يمكن أن ينسى نقائصه.

وهذا الإحساس اليقيني بوجود الله وبقوته ينشئ داخل النفس اتساعاً في مجال الإدراكات والحقائق الإلهية واتساعاً في القدرة على التمييز والرؤيا، وهكذا تشهد النفس في داخلها ميلاداً جديداً لأفق جديد لعالم جديد، هو عالمها الحبيب، عالم يسوع، الذي يصدر عن الله وليس عن الحواس والذات، يتلقن الإنسان التعرف عليه حسب مشيئة الروح وليس حسب مشيئة العقل دون تدخل من الإرادة أو الجهد أو الحكمة البشرية.

وحينما ترتقي النفس إلى عالم النور الحقيقي الذي داخلها تبتدئ تتوافق النفس مع الله بالصلاة الدائمة حتى تفقد كل انقسام داخلها وكل شك وكل قلق، وذلك عندما يتحكم الحق في كل إحساسها وتحرُّكها وتنصهر كل خبراتها الماضية والحاضرة في حرارة المحبة الإلهية التي تستطيع أن تلغي كل تحيز الذات ومخاوفها، وتلغي كل أخطاء الأنانية وشكوكها ولا يتبقى في إحساس النفس إلا الشعور الكامل بسيادة الروح ومنتهى المسرة في طاعة مشيئته.

❁ ❁ ❁

والمسيح حينما يناشدنا أن نداوم على الصلاة باسمه لدى الآب، فهو إنما يكشف لنا تدخله العجيب كوسيط نتلقى من اتحادنا به في الصلاة قوة تدفعنا للدخول في مستويات عالم الروح الذي يفوق طاقتنا ويفوق إدراكنا وحواسنا وكل إمكانياتنا.

فكل صلاة نقدمها باسم يسوع المسيح لدى الآب، هي بمثابة دفقة روحية تنسكب من قلب المسيح إلى قلوبنا ومعها قوة حياة مقدسة غير منظورة وغير محسوسة تسري فينا وتستقر في أعماق روحنا وترفعنا فوق أنفسنا حتى توصلنا إلى الآب.

والسر في توسط المسيح في كل صلاة تُرفع باسمه لدى الآب، يكمن في شفاعته ككاهن أعظم وفي ذبيحته الدموية الكفارية التي جعلته «قادراً أن يخلِّص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم» (عب ٧: ٢٥).

والمسيح إذ يأمرنا أن نصلي ثم يعود فيضمن استجابة الصلاة، يجعلنا مسئولين ومُدانين إذا لم نصلِّ وإذا لم نثابر حتى ننال الجواب الذي يرضي مشيئته.

وبهذا تصبح الصلاة من أهم وأقوى أعمالنا التي يمكن أن ندخل بواسطتها في شركة مباشرة مع المسيح وتُسمع طلباتنا في الحال لدى الله الآب!

ولكن الأمر الذي ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا قط هو أن الصلاة في غايتها النهائية ليست إلا لتمجيد الله، ولتذوُّق رحمته وأمانته وصدقه العجيب في كافة مواعيده. لذلك أصبح من المحتم علينا أن نختبر أنفسنا ونحن نصلي حتى تكون الغاية النهائية من الصلاة هي إعلان مجد الله وحده.

وتحت هذه الغاية المباركة تدخل في الدرجة الأولى كافة الصلوات التشفعية التي تقدمها

الكنيسة من أجل النفوس المتعبة والمريضة والضالة، هذه الصلوات التي جعلتها الكنيسة واجباً عاماً ملزماً على كل فرد في الشعب بلا استثناء حينما يهتف الشماس بالكنيسة كلها في كل «أوشية» حتى يقدم كل إنسان صلاته وتوسلاته لخلاص كل نفس باعتبار أن الكنيسة كلها أصبحت بحضور المسيح «ملوكاً وكهنة لله» (رؤ ١: ٦) فعلى كل فرد إذن أن يتشفع ويتوسل عن القريبين والبعيدين كضرورة موضوعة وليس عن اختيار.

ولكن خبرة الصلاة ليست كلها مسرات وقوة ومنفعة منظورة، فالإنسان لكي ينضج تحت يد الله يدخل في مراحل لا حصر لها من التهذيب والتأديب. فالمعروف عن الله أنه يميت ليحيي، ويكسر ليعصب، ويجرح ليشفي، ويضرب ليقبِّل، وينفي ليردَّ إلى أحضانه. ولابد أن يمر كل مختاريه تحت العصى، ولابد أن يذوق كافة محبيه مرارة الهجران وعلقم الصدود، ويعاني أبناؤه من غضب أبوته وانتهاره.

فكل من يدخل في عهد الصلاة مع الآب باسم المسيح عليه أن يسلم نفسه أولاً لروضة التهذيب، ثم لمدرسة الآلام الإبتدائية، ثم لمعهد الآلام العليا. فإن كان ينبغي «أن يُكمَّل رئيس خلاصهم بالآلام» (عب ٢: ١٠)، فيستحيل أن ندخل في شركة مجده دون أن نجوز شركة آلامه.

ولكن كل من تكمَّلوا في مدرسة آلام الرب، صاروا أقوياء في الإيمان: «بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا برًّا، نالوا مواعيد، سدُّوا أفواه أسود، أطفأوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقووا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء ... وآخرون عُذِّبوا و لم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل ... تجربوا في هُزء ... في قيود أيضاً وحبس، رُجموا نُشروا، جُرِّبوا، ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا ... معتازين مكروبين مُذلِّين ... تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض ... مشهوداً لهم بالإيمان ...» (عب ١١: ٣٣ - ٣٩).

هكذا كل من أراد أن يتكمل بالإيمان لابد أن يسبق ويتكمل بتهذيب الروح بأنواع وصنوف التقويم والتأديب المختلفة ليكون لائقاً للشهادة للإيمان بالله في وسط الآلام والمحن وتحت أشد تهديدات الموت، لكي يكون له من آلامه شهادة مماثلة من الله لاستحقاق مجده: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» (مت ٢٥: ٣٤).

إذن، فخبرات الصلاة ليست هي فقط لحساب الإنسان الذي يتجدد بها وينمو، بل إنها

تنعكس في النهاية لتنير على الآخرين «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس» (مت ٥: ١٦).

لذلك، أصبحت قيمة الصلاة فائقة وبلا حدود تتجاوز صاحبها إلى كافة الناس، وبمقدار عمق الاختبار يمتد النور ليضيء على كل الأجيال ويشهد لله في كل الأقطار.

لذلك، فإن نقص الشهادة الذي يعانيه الناس بسبب عجز الكارزين المحترفين، لا يمكن أن يَجْبِرَه إلا رجال الصلاة بشهادة حياتهم وقوة إيمانهم ويقين رجائهم. كذلك فإن شدة طغيان الباطل والظلم ومحبة المال التي انضرب بها العالم لا يمكن أن يرفع أثرها ويبطل حدتها إلا وجود هؤلاء الرجال والسيدات والشبان والشابات الذين يعطون بحياتهم وصلواتهم معنى جديداً للعالم ورجاءً جديداً للحياة، يتجدد بقدر الشهادة الرائعة التي يعطونها بزهدهم في كل شيء وتكريسهم الحياة كلها لله والحق.

لذلك أصبحت لهفة العالم اليوم إلى شهادة إيمان حية - صادرة من نفس لها صلة حقيقية بالله - شديدة للغاية لأنها تفوق في وزنها وأثرها ألف كتاب عن العقيدة والإيمان والصلاة!

وأمام شؤم القنابل الذرية وتهديدها بتدمير العالم لا يوجد أمامنا منفذ للسلام والرجاء والطمأنينة إلا في رجال الصلاة الذين يستطيعون بالقوة الإلهية المذخرة فيهم أن يخلقوا فينا رؤية فائقة لعالم لا يمكن أن يفنيه الشر.

هكذا أصبحت الضرورة تلح علينا بأن ندخل مخادع الصلاة، لا لكي ننعزل عن العالم الهالك فننجو بأنفسنا ونخلصها، بل لكي نقتحم الهلاك الذي في العالم ونفديه، لأنه عندما نموت عن أنفسنا وعن العالم يحيا العالم ويتجدد! فالركب المنحنية يمكن أن تغير ليس النفوس فقط بل ومصير العالم كله.

والنفس التي تحمل صليبها لا تنجذب وحدها للمسيح ولكنها دون أن تدري ينجذب خلفها كثيرون: «اجذُبني وراءك فنجري» (نش ١: ٤)، لأن النفس البشرية ليست أبداً في عزلة عن النفوس الأخرى، فبلوغ أي نفس إلى ملكوت الله هو مكسب للعالم بصورة سرية. والطريق المطروق يسهل المسير فيه! ورجال الصلاة علامات ثابتة على الطريق تنير إلى أبد الدهور.

الأب متى المسكين

وادي الريان - عام ١٩٦٨

مقدمة خاصة للطبعة الثالثة[1]

عن الصلاة:

مهما تكلمنا عن الصلاة تظل الصلاة في أشد الحاجة إلى خبرة، فالصلاة في حقيقتها اختبار الوجود في حضرة الله. فخارج حضور الله ليس صلاة! وقد علمنا أن حق الدخول في حضرة الله أصبح بدخول المسيح طريقاً دشّنه يوم صُلِبَ، وافتتحه يوم قام وصعد، طريقاً حياً حديثاً بجسده وهو بعينه الحجاب الذي كان في الهيكل يفصل ما لله عن الإنسان، الذي انشق من فوق بيد الله إلى أسفل حيث نحن، فاندفقت علينا الحياة الأبدية التي كانت مخفية في الآب فأُظهرت. فإن أصبح لنا بجسده صعودٌ سريٌّ إليه، فبدمه الثمين لنا دخولٌ إلى الأقداس العليا. والروح القدس يقدِّمنا إلى الآب شاهداً ببنوتنا له متكلماً فينا وبنا كلاماً يعرفه من خبروه، كلاماً ملتهباً حاراً يُوقد الجسد كله ناراً فينسى الإنسان عجزه وحقارته ويكاد يرتفع إذ يتبدد ثقله الذي كان بخطاياه التي تربطه بالأرض وهذا العالم ربطاً.

لذلك نسمع من القديسين الذين اختبروا قوة الصلاة أنها تعطي للإنسان أجنحة ترفعه يطير بها طيراناً، وما هذه الأجنة في حقيقتها إلا نشوة الإحساس بقرب المسيح وخلاصاً من ثقل ضمير الخطايا الذي ينكِّد علينا صلاتنا. فالصلاة الحارة إن تلامست بالروح أعطت في الحال خبرة موت عن خطايا، وقيامة بالروح وصعوداً سرياً محدوداً وموقوتاً، ثم دخولاً إلى الآب بجراءة الذي يقدِّمنا إلى أبيه ممسوحين بدمه، والنعمة تلفُّنا لفاً فلا يظهر من عوارنا شيء. فالذي يقوله لنا القديس بولس عن الدخول إلى الآب ليس هو مجرد انفعال رسول اختاره الرب وأذاقه نعمة القُربى ورؤية الجوهر الذي لا يُرى، بل هو ميراث الابن الوحيد وقد توزَّع على الأبناء بسخاء كيلاً ملبَّداً مهزوزاً. فما كان للقديس بولس صار لنا: وهذا هو ختمنا وشهادة حق من ضمير. وتسندنا في ذلك شهادة التلميذ الذي كان يحبه يسوع: «أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح» (١يو ١: ٣)، شركة حياة وحب في سخونة الصلاة بالروح، الذي يُخيِّم علينا ليبتلع عتامتنا قليلاً حتى نحس ونلمس ونرى ما لا يُرى، هذا الذي ملأ قلبه فرحاً فأراد أن يطرحه علينا لنشترك في فرح مثل هذا يكمِّل غنى ميراثنا في المحبوب.

متى المسكين
ليلة الأحد ١٩٩٥/١٠/٢٨

(١) صدر الكتاب في ٣ طبعات: ١٩٥٢ و ١٩٦٨ و ١٩٨٦. وتعتبر الطبعة الحالية (١٩٩٥) الإعادة الرابعة للطبعة الثالثة.

الباب الأول

طبيعة الصلاة

في هذا الباب نقدم شرحاً مستفيضاً لطبيعة الصلاة ودرجاتها والحدود التي يمكن أن تتجاوزها الصلاة العادية لتدخل في مواهب الصلاة؛ ثم نتعرض في نهاية الباب لمشكلة واجهت الآباء في مدى شرعية التفرغ لحياة الصلاة وقيمة التعمق في الصلاة بالنسبة لذوي الأعمال والخدمات الكثيرة.

ويلزم أن نوجه نظر القارئ أن حياة الصلاة الأرثوذكسية هي، في مفهومها الأول، تطبيق عملي لوصايا المسيح، أو هي تحويل البشارة بالإنجيل إلى سيرة. فالأقوال التي نسمعها من الآباء عن الصلاة هي في حقيقتها اختبار عملي للإنجيل، لذلك نحن نعطيها أهمية كبيرة وننظر إليها كأقوال مقدسة، وذلك بالنسبة للمصدر الإلهي الذي كان يغذي سيرتهم المقدسة هذه.

فإذا كنا نقرأ في الإنجيل عن عظمة النعمة المجانية ومجد الخلاص المجاني، فنحن نقرأ عن حتمية الجهاد والسهر وضرورة التجنُّد للمسيح والركض في ميدان الإنجيل والتسلح بأسلحة البر وقمع الجسد واستعباده والاستعداد الدائم لمواجهة عدو شديد مراوغ يجول باستمرار ويزأر كالأسد ليبتلع المتوانين.

ويصور لنا القديس بولس الرسول الصراع الروحي أنه صراع خطر، ليس مع قوات منظورة يمكن رؤيتها، بل مع رؤساء الظلمة المتسلطين على فكر العالم ومع جنود الشر المهيأة لحرب الشهوات والإغراءات وإسقاط النفوس في غوايات الإثم والتعدي. كل هذا استطاع الآباء أن يكتشفوه ويتمموه: نالوا **النعمة** المجانية وحاربوا **حروب** البر؛ **انتصروا** بنعمة الله على أعداء البر **وخلصوا** ونالوا المجد المجاني، وبذلك أكملوا الإنجيل بالحق والعمل.

لذلك أصبحت سيرة هؤلاء الآباء القديسين وأقوالهم نوراً حقيقياً يضيء قدام الناس، من جيل إلى جيل، كإنجيل مطبَّق وبشارة حية تشرح **قيمة النعمة المجانية في كسب معركة الجهاد** ضد الشر؛ وتوضح بالسيرة العملية **حقيقة الخلاص المجاني** الأكيد لإنسان **يطبق الوصية ويستميت** في تنفيذها.

لذلك حينما نقرأ لهم عن ما هي الصلاة، فنحن في الحقيقة نتحسس خبرة إنجيلية ونتصور مبدئياً وقفة جهاد لجندي مسلح استجاب لصوت القائد وجعل الصلاة آلة خلاص يحملها بيده الضعيفة المرتعشة ويترك للنعمة القوية إحكام الرماية وإصابة الهدف. كما نتصور حتماً منظر الخلاص واستعراض توزيع الجوائز والنياشين، ونلمح الأفراح والأكاليل وتكميل المجد كالمواعيد.

وحينما نقرأ لهم عن الترقي في درجات الصلاة العليا، فنحن نتكشف، في سر، انتقال النفس من مجد إلى مجد بقوة الروح على قدر ترقيها من جهاد لجهاد ومن نصرة لنصرة بل من جرح لجرح وتجربة لتجربة.

فالتقدم الروحي لا يتم إلا عبر وادي الآلام والدموع.

وحينما يتكلم الآباء عن مواهب ما فوق الصلاة، فلا نتصور أنهم يتكلمون عنها وهم نائمون أو حالمون مستريحون، بل قالوها وهم في حضيض الضعف والألم والمرض وقد فارقتهم قوتهم ونضارتهم وصارت نفوسهم ملتصقة بتراب الأرض: «ورأيت هذه الرؤيا العظيمة و لم تبقَ فيَّ قوة، نضارتي تحولت فيَّ إلى فساد و لم أضبط قوة» (دا ١٠: ٨)؛ «فلما تكلم معي بمثل هذا الكلام جعلت وجهي إلى الأرض وصمتُّ، وقلت للواقف أمامي: يا سيدي، بالرؤيا انقلبت عليَّ أوجاعي فما ضبطت قوة... ولم تبقَ فيَّ نسمة» (دا ١٠: ١٥ - ١٧). وحتى القديس بولس الرسول نفسه لم تسمُ روحه بالرؤيا إلى السماء الثالثة (الروحية) إلا وهو واقع على الأرض بين الموت والحياة بعد أن رجمه أهل «لسترة» وجرُّوه خارج المدينة ظانين أنه قد مات! فعسير جداً أن يتذوق الإنسان شيئاً من المجد المجاني دون أن يمزج له العالم خلاًّ بمرارة، ولا يمكن ولا يستسيغ أن يقول أحد «قد أُكمِل» أو «إني خلُصتُ» إلا وهو يلفظ النسمة الأخيرة على صليب العالم!

الفصل الأول

تعريفٌ بالصّلاة وفاعليتها

أولاً: ما هي الصلاة
ثانياً: عظمة الصلاة
ثالثاً: ضرورة الصلاة
رابعاً: فاعلية الصلاة

أولاً: ما هي الصلاة

«يا رب علمنا أن نصلي»

(لو ١١: ١)

لقد حاول المؤلف التعبير عن فصول الصلاة بصور رمزية ذات معاني حتى تنطبع في ذهن القارئ لتذكّره بموضوعها.

«حينما قلتَ اطلبوا وجهي!! لك قال قلبي وجهك يا رب ألتمس»

(مز ٢٧: ٨)

الصلاة إذا كانت روحية صادقة فهي نداء واستجابة: نداء إلهي واستجابة بشرية.

هذا التفسير لماهية الصلاة يعتمد على حقيقة ذات أهمية، وهي أن الصلاة لا تبلغ قوتها وحقيقتها كاتصال فعلي بالله، إلا إذا بلغ الإنسان أثناءها إلى أعلى حالات إدراكه لنفسه، متيقناً أن نفسه مخلوقة على صورة الله وأنها تستمد كيانها منه، وأن أهم ما في كيانها هو وعيها وإدراكها لذاتها، هذا الذي حينما تتحقق منه تكون قد بلغت إلى مصدره الذي هو الله فتدرك وتعي وتحس بذات الله.(٢)

ويستحيل أن يبلغ الإنسان إدراكه لنفسه إدراكاً صادقاً واقعياً أميناً دون أن يدرك الله، لأن الله هو خالق النفس، والنفس مخلوقة على صورته، فبمجرد أن يتحقق الإنسان من نفسه يصبح في الحال في مواجهة شَبَه الله. وأكثر من ذلك فإن الوعي الذاتي، الذي هو إحدى قوى النفس الموهوبة لها، هو أيضاً صورة لوعي الله لذاته. لذلك فإن الطريق إلى وعي الإنسان لذاته وعياً حقيقياً صادقاً أصبح هو نفسه الطريق السهل والوحيد المؤدي إلى إدراك الله، خصوصاً وأن في تجديد الخلقة بالروح القدس في المعمودية يصبح هذا الوعي الذاتي على نفس صورته الإلهية الأولى تماماً بعد رفع تشويه الخطيئة.

فالصلاة، إذن، أصبحت هي وقوف النفس تجاه خالقها بتوسط وعي تجديد الروح القدس لها، حيث تستمد النفس من المسيح صورة بنويتها الأولى التي كانت قد فقدتها بالخطيئة وتتقدم إلى الله الآب بجرأة كمدعوة كل حين، كخليقة منجذبة باستمرار نحو خالقها أو كابن لا يستريح إلا في حضن أبيه بمناداته وباستجابة دعوته في آن واحد.

---

(٢) يقول القديس أنطونيوس الكبير: [الذي عرف ذاته فقد عرف الله... أما أريوس الهرطوقي فإنه ضُرب ضربة لا شفاء منها، فلو كان عرف ذاته حقاً ما كان نطق بما هو غير الحق، فظاهر أنه لم يعرف ذاته ولذلك تجاسر على سر الابن الوحيد.]

(الرسالة الرابعة)

فالصلاة سر مغروس في كياننا ووعينا النفسي. وبحسب طبيعتها السرية، هي نداء الله الداخلي المستمر في كيان الإنسان حتى يبلغ الإنسان غاية قصد الله من خلقته وهي الاتحاد به، أما بحسب ظاهرها فهي استجابة حرة للإرادة الصالحة حينما تفيق من حين لآخر وتلبي الدعوة الإلهية للمثول أمام الله والحديث معه. وفي كلا الوضعين، أي في النداء المستمر المبهم والإستجابة العلنية المتقطعة، تكمل الصلاة كفعل إلهي بشري، كنداء وجواب، وكمناجاة كما يسميها القديس غريغوريوس النيسي، ولكنها مناجاة نشيطة من جانب الله بطيئة دائماً من جانبنا. وفي الواقع، فإن كلا الطرفين ينادي وكلا الطرفين يستجيب، غير أن الله يكون دائماً البادئ: «بسطت يديَّ طول النهار...» (إش ٦٥: ٢).

أما الغاية الزمنية من هذا الحوار الإلهي البشري فهي بقاء الإنسان تحت عناية الله ضماناً لحياته على الأرض وتأكيداً لنموه، وأما الغاية النهائية فهي قبول الإنسان في شركة محبة الله مرة أخرى وإلى الأبد.

وبهذا يظهر الله صاحب فضل في كل صلاة، لأنه هو المنادي كخالق وكأب، لذلك وجب أن نبتدئ الصلاة بالشكر الكثير! وكم يظهر الله متواضعاً إذ يتنازل ويطلب الحديث معنا بالرغم من خطايانا!

لذلك لزم بالضرورة لكي نرفع الله إلى مكانه اللائق أن نعطيه المجد ونعترف بخطئنا ونتوب إليه، لأنه بقدر طهارة قلوبنا يرتاح الله فينا.

وفي هذا يظهر كيف أن الله يرضى أن يكون شريكاً في حياة الإنسان الزمنية بكل ما فيها من ضعف متحملاً معه مسئوليات نقائص النظام الزمني وتعسف الطبيعة «التي أُخضِعت للبُطْل» (رو ٨: ٢٠).

هذا التنازل العجيب من جانب الله في دعوته لنا بالمثول أمامه وقبول حديثنا إليه راضياً أن يشترك معنا في كل أتعابنا: «في كل ضيقهم تضايق» (إش ٦٣: ٩)، حينما ندركه بالصلاة ونختبره فعلاً في حياتنا اليومية ينفتح أمامنا سر عظمة الله وسر إتضاعه معاً، ومن خلال إحساسنا بعظمة الله تتكشف لنا حقيقة أنفسنا كخطاة وما نستحقه من دينونة فنتوب، أما من خلال اتضاعه معنا فتحترق فينا كل ميول الكبرياء وننسحق في حضرته بتذلل كثير فتكمل ذبيحة اتضاعنا وحبنا له! وبهذا تتكشف لنا طبيعة الصلاة كاتصال فعال بالله ينشئ نتائج حتمية.

وهكذا تبدأ الصلاة كدعوة سرية من الله للمثول أمامه، تكمل من جانبنا بإستجابة حرة مشتاقة للحديث إليه، ثم تدخل الصلاة في مقصدها الإلهي كفعل توبة وتطهير، ثم تبلغ إلى غايتها العظمى كذبيحة محبة واتضاع إعداداً للشركة مع الله!

وبالرغم من أن الصلاة حاسة روحانية مغروسة في النفس في صميم وعيها بذاتها، إلا أن كثيراً من الناس لا يستخدمونها فتصبح في ركود دائم ربما يدوم كل حياة الإنسان فيموت وهو لم يعِ حقيقة نفسه ولم يعِ علاقتها بالله! هذه النفوس شبَّهها يهوذا الرسول: «كنجوم تائهة محفوظ لها قتام الظلام إلى الأبد» (يه: ١٣).

هذا أمر خطير، لأن الصلاة ليست حاسة موجودة لتدبير الحياة في هذا الدهر فقط، بل هي مغروسة في طبيعتنا حتى أيضاً نرتقي بواسطتها إلى الله وننتهي إلى الاتحاد به، فننتقل من هذه الحياة الزمانية الفانية إلى الحياة الأبدية معه.

فكأنما نحن مخلوقون للصلاة...
والصلاة هي الرباط الوحيد الذي يربطنا بالله.
وهي تمثل أمام قلبنا الحياة الأبدية التي نرجوها.
والصلاة هي الحالة التي نكتشف فيها صورتنا الإلهية المنطبع فيها رسم الثالوث الأقدس.

حينما نفقد الصلاة نفقد كرامة صورتنا ولا نعود نشبه الله في شيء.
الله يجذبنا إليه بالصلاة، ونحن بالصلاة نسير نحوه بسر عميق لا يُدرَك.
وفي الحقيقة نحن بالصلاة نجذب الله نحونا، لأنه إلينا يأتي ويصنع فينا منزلاً.

المحبة عند الله ليست عاطفة بل عطاء ذات، وفي الصلاة الله يعطينا نفسه.
الله أعطانا نفسه لما خلقنا على صورته، وأعطانا بالصلاة أن نتحد به فيصير كله لنا وكلنا له!

الصلاة تفتح حياتنا على الله: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم» (إش ٦٣: ٩).
الصلاة تفتح حياة الله علينا: «الروح نفسه (أثناء الصلاة) يشفع فينا بأنّات لا يُنطَق بها» (رو ٨: ٢٦).

في هذا الفصل نقدم لك ما قاله القديسون عن الصلاة. فقد عرَّفها كل واحد كما رآها وتذوقها، ليس عن فهم أو معرفة عقلية، وإنما عن اختبار وحياة.

فواحد رآها رفع العقل وحصره مع الله، والآخر رآها مصالحة مع الله، وثالث اختبرها دموعاً وتوبة، وآخر سلاحاً ضد العدو، وآخر مصدراً للنعم والبركات، وآخر تحوُّلاً في القلوب، وآخر خلوة مع الله وآخر رآها أعظم من أن يحدَّها لفظ أو تعبير وهكذا... فكل جملة من هذه الجمل تحمل اختباراً بل تحمل لك جزءاً من حياة كل قديس!

إذن، فجدير بك أن تقف عند كل منها لتتأمل في حياة هؤلاء الأبطال كيف اتخذوا الصلاة لهم كل شيء حتى صارت حياتهم صلاة وصلاتهم حياة. قارن بين حياتك وحياتهم واختباراتك عن الصلاة واختباراتهم؛ فإن التهبت روحك، ضَعْ الكتاب أمامك واسجد وصلِّ، وهكذا امزج قراءتك بالصلاة.

أقوال الآباء في ما هي الصلاة:

١ – يجب علينا أن نصلي ليس فقط بعادة الجسد أو بعادة رفع الصوت أو بعادة الصمت أو بإحناء الركب، بل ينبغي أولاً أن نراعي العقل مراعاة مضبوطة، وننتظر الله حتى يكون معنا ويطّلع على النفس ويشرف على مداخل الفهم ويعلمنا متى يجدر بنا السكوت ومتى يليق رفع الصوت أو الصراخ نحوه، على شرط أن يكون العقل منتبهاً انتباهاً شديداً نحو الله.

فلتكن النفس بكليتها مستسلمة للرب في الصلاة بمحبة لا تسرع ولا تتوه ولا تتزعزع بمشاغل فكرها، بل بكل اجتهاد مخلص تعمل كل ما بطاقتها حتى تجمع ذاتها مع أفكارها أمام المسيح تلازمه بانتظار، حتى يشرق عليها ويعلمها حقيقة قانون الإبتهال ويلهمها الصلاة الروحانية النقية اللائقة بالله والسجود أمامه بالروح والحق.

فالله هو الذي يعلمنا كيف نصلي بالروح والحق لأن الرب يحل على نية النفس الصالحة ويقيمها أمام كرسي مجده ويستريح فيها.

أبا مكاريوس الكبير (عظة ٣٣)

٢ – الصلاة هي **رفع العقل** إلى الله.

الأب يوحنا الدمشقي

٣ – الصلاة من **حيث طبيعتها**: هي حديث الإنسان واتحاده مع الله.

ومن حيث مفعوليتها: هي سند وعضد العالم، مصالحة مع الله، أم وبنت الدموع، كفارة الخطايا، قنطرة لعبور التجارب، سور للتحصن ضد البلايا والمحن، مُبطلة الخصام، عمل الملائكة، طعام غير الجسدانيين، سعادة المستقبل، نبع الفضائل، فيض النعم، نجاح خفي، طعام النفس، استنارة العقل، مِعْوَلٌ فعال لهدم اليأس، مشير الأمل ضد الحزن المفسد... هي غِنى الرهبان، وكنز المتنسكين، مذلِّلة لطبع النفس، إعلان المستقبل، علامة المجد... الصلاة لمن يصلي بالروح والحق تكون له بمثابة محكمة وقيام في قفص الإتهام واجتياز المحاكمة أمام الله قبل الدينونة العتيدة.

الأب يوحنا الدرجي

٤ - إن كان أحد عرياناً من الملابس الإلهية السمائية التي هي قوة الروح القدس كما قيل، إن كان أحد ليس فيه روح المسيح وعدِمَ أن يكون من خاصته، فليبْكِ متوسلاً بالصلاة إلى الرب حتى يهبه اللباس الروحاني السمائي ليستر نفسه العارية من القوة الإلهية. لأنه عارٌ أن يكون غيره مكسواً بالروح وهو مكسو بعيب الشهوات الدنية.

أبا مكاريوس الكبير (عظة ٢٠)

٥ - **الصلاة** سلاح عظيم، كنز لا يفرغ، غِنى لا يسقط أبداً، ميناء هادئ وسكون ليس فيه اضطراب. الصلاة هي مصدر وأساس لبركات لا تُحصى، هي قوية وقوية للغاية ... الصلاة مقدمة لجلب السرور.

يوحنا ذهبي الفم

٦ - ليست الفضائل بأجمعها بعيدة عنكم بل هي لكم وفيكم، وإن كنتم مختفين في هذا العالم الوقتي فأنتم ظاهرون لله، ولكن روح الله لا يسكن في إنسان خاطئ، لذلك أكتب إليكم كأناس لهم استطاعة أن يعرفوا ذواتهم، فالذي يعرف ذاته يعرف الله ويسجد له كما ينبغي... وأنا لا أملُّ من الطلبة عنكم لكي تعرفوا النعمة التي صارت لكم من الله. لأن الله برحمته ينبّه كافة الناس بأسباب من نعمته، فلا تملُّوا ولا تتكاسلوا عن الصراخ للرب نهاراً وليلاً مستعطفين صلاح الله الآب حتى ينعم عليكم بمعونة من العلاء فتعلموا ما يجب عليكم...

ومن يعمل هكذا فإن ربنا يتراءف على أتعابه وينعم له بالنار غير المرئية لتحرق كل أسقام نفسه وتطهر عقله، وعند ذلك يسكن فيه الروح القدس ويكون معه على الدوام وحينئذ يستطيع أن يسجد للآب كما ينبغي.

أبا أنطونيوس الكبير (رسالة ٤ و ٥)

٧ - الصلاة هي **رجوع التائب إلى الله**، هي بكاء الساقط النادم أمام الله، هي انسكاب شعور القلب في طلبات وتضرعات وتنهدات الإنسان الساقط الذي قتلته الخطية.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٨ - حينما تصلي ألا **تتحدث مع الله**؟ أي امتياز مثل هذا؟

٩ - الصلاة **تحوِّل القلوب** اللحمية إلى قلوب روحانية، والقلوب الفاترة إلى قلوب غيورة، والقلوب البشرية إلى قلوب سماوية.

يوحنا ذهبي الفم

١٠ - اعتاد الآباء القديسون أن يشيروا إلى الانفعالات الخيِّرة والأعمال الروحية بلفظة الصلاة، وحتى المستنيرون بالمعرفة يعدُّون الأعمال الحسنة صلاة؛ مع أنه واضح أن الصلاة تختلف عن الأعمال التي هي أشياء

تُعمل، هذا لأن التعاريف المضبوطة لا يمكن إحكامها إلا للأشياء المادية المحسوسة الموجودة في هذا العالم. أما الأمور المختصة بالحياة القادمة فليس لها أسماء محققة وإنما يحوط بها تعريف مبسط إذ أنها **تفوق الأسماء والإشارات** والأشكال والألوان والعادات وطوائف المسميات جميعاً.

مار إسحق السرياني

١١ - الصلاة هي **شعورنا الدائم بفقرنا** وضعفنا الروحيين. هي رجوع الإنسان إلى نفسه للتأمل فيها وفي الخليقة التي هي من أعمال حكمة الله الفائقة ورحمته وقوته القادرة على كل شيء. الصلاة حالة شكر دائم.

الأب يوحنا ك.

١٢ - أحياناً يطلقون كلمة «الصلاة» على ما هو ليس صلاة بالمرة، فمثلاً إنسان يذهب إلى الكنيسة ويقف هناك وقتاً ما يتفرس في الأيقونات أو في وجوه الناس وملابسهم ثم يخرج من الكنيسة وهو مقتنع أنه كان يصلي! أو آخر يقف أمام الأيقونة في ركن غرفته، يحني رأسه ويتمتم ببعض كلمات قد حفظها عن ظهر قلب بدون معرفة أو شعور ثم يقتنع في ذاته أنه صلى! ليست هذه صلاة بأي حال لأن الصلاة إنما تكون من الفكر ومن القلب معاً. ولكن مثل هؤلاء إنما يقضون أوقاتهم مع الناس في الكنيسة أو مع الصورة في البيت ولكن ليس مع الله في الصلاة.

وآخرون يصلُّون بشفاههم وقلوبهم باردة لا تشعر ولا تهتم بما يسألون. يلزم هؤلاء جميعاً أن يتعمقوا أكثر في ذواتهم، ويندموا من قلوبهم، ويفكروا بفحص فيما هي الصلاة وما هي الشركة المقدسة.

برودة القلب نحو الله في الصلاة إنما هي من تقدمة الشيطان إذ هو البرودة كلها التي للهلاك، أما نحن **فلنقدِّم قلوبنا لله محترقة حباً.**

١٣ - الصلاة هي رفع العقل والقلب معاً إلى الله، وهي تأمل في الله، هي حديث جريء مقدَّم من المخلوق للخالق، وذلك حينما تقف النفس خاشعة أمامه كما تكون أمام ملك عظيم، في نسيان كامل لكل ما هو حولها، مغتسلة من خطاياها بحملها نير يسوع الهين وحمله الخفيف.

الصلاة هي تقديس النفس، تذوُّق لبركات المستقبل، وتذوُّق لسعادة الملائكة، هي المطر السماوي الذي ينعش ويروي ويخصب أرض النفس وينقي وينعش العقل، هي فرح الروح، الشريط الذهبي الذي يربط المخلوق بالخالق، هي شجاعة ومعونة في كافة المحن والتجارب، مصباح الحياة الذي يضيء الطريق نحو السماء، ضامن النجاح في كل المهام، كرامة مساوية للملائكة، مشدِّدة الإيمان والأمل والحب.

الصلاة هي حياة عِشرة ومشاركة مع الملائكة والقديسين الذين أرضوا الله منذ بدء العالم، هي **إصلاح الحياة التي انحرفت**، أُم الخشوع والدموع، القوة الدافعة لعمل الرحمة، طمأنينة الحياة، مبددة الخوف من الموت، إزدراء بالكنوز الأرضية، رغبة مِلحَّة لا تهدأ نحو البركات السماوية، ارتقاب الدينونة بثقة، وانتظار

القيامة العامة بفرح، وتعطُّشٌ لحياة الدهر الآتي، هي جهد وعزم لخلاص نفوسنا من العذاب الأبدي، بحث لا ينقطع عن طلب الرحمة والإلحاح في طلب عفو الحاكم، شرف الوقوف في حضرة القدير، الكفُّ عن تطويب النفس وعن العطف على الذات وعن التماس الأعذار لها. الصلاة هي توسيع القلب لحمل كافة الناس بالحب، حلولية السماء بالنفس، ثبوت متبادل في الثالوث الكامل القداسة «إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤: ٢٣).

الأب يوحنا (ك.)

١٤ – الصلاة بالنسبة للنفس كنسبة النفس في أهميتها للجسد.

الأب يوحنا (ك.)

١٥ – أهو واجب علينا أن نصلي دواماً وبدون انقطاع؟ «صلوا بلا انقطاع» (١تس ٥: ١٧)، وهل ذلك في الإمكان؟ إن الوصول إلى قوة الصلاة ودوامها لفي استطاعتنا لو شئنا **وهي ليست شيئاً نستحدثه أو نخلقه خلقاً**، وإنما يمكن ممارستها في كل عمل نقوم به مدى الحياة وفي كل لحظة من لحظاتها.

١٦ – حينما تأخذ مكانك على المائدة ابدأ بالصلاة. لماذا التسرع؟ هل الطعام سيفرُّ من أمامك؟

١٧ – حينما ترتدي ملابسك في الصباح، أُشكر الخالق عليها.

١٨ – عندما تأوي إلى فراشك لتلتف بأغطيتك لتنعم بالدفء، استشعر الحب نحو الله الذي أحبنا هكذا فأعطانا ما يناسبنا في الصيف والشتاء.

١٩ – هل ابتدأ النهار؟ قم اعطِ شكراً لمن وهب لنا نور الشمس بالنهار لنؤدي عملنا اليومي، ونوراً بالليل لنخدم بقية احتياجات الحياة.

٢٠ – عندما تتطلع نحو السماء لتتفرس في جمال النجوم، صلِّ لإله العالم المنظور.

٢١ – وإذا رأيت الطبيعة قد غرقت في ظلمة الليل وآوت الخليقة صاغرة إلى السبات والنوم العميق، حينئذ قُم أنت اعبده إذ أعطانا بالرغم من إرادتنا خلاصاً من ذلك الجذب المستمر نحو الكدِّ والنَّصَب ليجدد فينا نشاطنا ويردنا إلى شدة قوتنا.

لا تجعل الليل يطغى عليك بظلامه الممل الطويل، ولا تدع نصف حياتك يمر فارغاً في ذلك النعاس اللاشعوري. قُم اقسم الليل وانتزع من ظلامه نوراً ومن تراخيه صلاة، بل اجعل حتى من نعاسك تداريباً للتقوى. أليست أحلام نومنا هي في غالب الأمر صدى لمشاغل واهتمامات النهار؟ فكما كان سلوكنا وجرينا وتفكيرنا هكذا مما لا مفر منه تكون أحلامنا! فإذا كانت يقظتنا في الفضيلة، كانت أحلامنا فاضلة، وهكذا نصلي بلا انقطاع!

الصلاة التصاق بالله في جميع لحظات الحياة ومواقفها، فتصبح الحياة صلاة واحدة بلا انقطاع ولا اضطراب.

باسيليوس الكبير

٢٢ – **الصلاة يسبقها خلوة، والخلوة يمكن التمرن عليها بالصلاة**، ومن الإثنتين نكتسب حب الله لأن في كلتيهما أسباباً تدعو لحبه، والحب ثمرة الصلاة.

يا أحبائي، إن العِشرة السرية والانشغال في الأمور الروحية يُشار إليها بكلمة «الصلاة» سواء كانت **تلاوة أقوال مقدسة** عن ظهر قلب ولكن بتمييز وإدراك، أو كانت ترتيلاً وتسبيحاً لله، أو **تذكُّراً دائماً لعنايته أو سجوداً أمامه، أو مزامير التهليل والتمجيد. فالصلاة، إذن، هي نبضات الإرادة الحية بالله، الميتة عن الحياة اللحمية**؛ لأن من يصلّي بالحق هو حقاً مائت عن العالم. فدوام الصلاة يعني دوام إنكار النفس وميتوتة النفس.

مار إسحق السرياني

٢٣ – صلاة البار **مفتاح السماء**، وبقوتها يستطيع كل شيء. هي حِمَى نفوسنا، مصدر لكل الفضائل، السلم الذي نصعد به إلى الله، هي عمل الملائكة، هي أساس الإيمان.

أوغسطينوس

٢٤ – يا من وقفت لتصلي **اعطِ قلبك لله**، قلبك الحقيقي الذي تحب به، الذي تحب به أولادك وتحب به أباك وأمك، وتحب به أصدقاءك ومريديك الذي به تحس بحلاوة الحب الطاهر بغير رياء.

الأب يوحنا (ك.)

٢٥ – تمر علينا في صلاتنا الطويلة دقائق قليلة نشعر فيها أن صلاتنا تُسرُّ الله، هذه تكون قوام الصلاة الحقيقية والخدمة الصادقة لله.

إن أهم شيء في الصلاة **أن يكون القلب قريباً من الله**، وهذا ندركه بحلاوة الشعور بحلول الله في النفس.

الأب يوحنا (ك.)

٢٦ – إن علامة الصلاة الناجحة هي ارتسام فكرة واضحة عن الله في النفس، ودليل سكنى الله فينا هو ثبوت الفكر فيه وبذلك نصير هيكلاً لله.

باسيليوس الكبير

ثانياً: يالعظمة الصّلاة

«طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها» (يع ٥: ١٦).

«فلتأتِ قدامك صلاتي» (مز ٨٨: ٢).

«لتستقم صلاتي كالبخور قدامك» (مز ١٤١: ٢).

«قدوس قدوس قدوس رب القوات السماء والأرض مملوءتان من مجدك» (إش ٦: ٣).

هذا هو جوهر الصلاة الفائق يعلنه السيرافيم في الرؤيا لإشعياء النبي.

الصلاة في جوهرها الحقيقي شركة مع جند السماء لتمجيد الخالق، وهي ستنتهي حتماً إلى ذلك حينما يخضع الكل لله الآب.

فالصلاة ليست أصلاً من اختصاص الإنسان فقط، ولا هي لتعزيته أو لتكميل حاجاته ومطالبه، ولكن الصلاة عظيمة لأنها من اختصاص الروحانيين عموماً، وهي ليست من هذا الدهر ولا لهذا الدهر، فإذا حصرناها فقط في حدود الطلبات والإحتياجات وسد أعواز الإنسان في هذا الزمان ضاعت عظمتها وفقدت جوهرها.

الإنسان في تقديسه لاسم الله وتقديم الخضوع والشكر والكرامة له في تسبيح خالص، يصير روحانياً شريكاً للقوات السمائية في هذه الخدمة الفائقة.

ولكن نحن نسأل أيضاً الأمور الزمنية من الله بسبب سقوطنا من درجتنا الروحانية الأولى التي كنا فيها بلا عوز، وهذا ليس من طبيعة الصلاة أصلاً، ولكن الله تنازل من أجل جوده ووعد أنه سيسمع أيضاً لصلواتنا حينما نبثُّه أعوازنا وشكوانا، مع أنه يسبق ويعرف كل حاجتنا، وذلك لكي يُدخل إلى قلب الإنسان الاطمئنان أنه لا يتخلى عنا بسبب خطايانا وأن ضيقاتنا تهمه.

ولكن حينما نتعمق في حياة الصلاة نبلغ في النهاية إلى التحقيق من أنها فعل تمجيد وخدمة إلهية فائقة الكرامة، هكذا استقر جميع القديسين في نهاية فهمهم وممارستهم للصلاة.

لأن الأصل في الصلاة هو أن يكرم الإنسان مشيئة الله تكريماً مطلقاً: «لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض». ولهذا تستلزم الصلاة بالضرورة أن يفرِّط الإنسان في مشيئة

نفسه: «لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو ٢٢: ٤٢)، وفي هذا تمجيد وتقديس لله يماثل خدمة السيرافيم، علماً بأن مجد السيرافيم ناشئ من خدمتهم لا من طبيعتهم!!

أي أن فساد طبيعتنا لا يعطل مجد خدمتنا، إذا كانت خدمتنا مدفوعة بقوة المحبة، مخلصة نقية طاهرة من عيب الذاتية والأنانية. والتسليم الكلي لمشيئة الله هو بحد ذاته دخول في عهد شركة مع الله تمهيداً للإتحاد النهائي بمشيئته. أما فساد طبيعتنا، فالله نفسه يتكفل برفعه من الوسط بدم ابنه: «وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين» (إش ٥٣: ١١).

لذلك فالصلاة، كتمجيد للخالق، تتجاوز حدود نقائصنا وعدم استحقاقنا لأنها هي بحد ذاتها فعل كامل وقادرة أن تجبر كل نقص وتغطي كل عجز!! وعندما نُخلص في أدائها لتقديس اسم الله، تتكفل هي بتوسط النعمة أن تجعلنا قديسين: «لأن المقدِّس والمقدَّسين جميعهم من واحد» (عب ٢: ١١)! فعندما نقف في حضرة الله لتمجيده ترفرف حولنا الملائكة بفرح عظيم مع أن ثقل خطايانا لم يفارقنا، لأنه معروف أن الملائكة تفرح بالخاطئ عندما يأتي تائباً، ونحن مدعوون كخطاة للتوبة كل يوم!!

فالصلاة بحد ذاتها عندما تتجه رأساً نحو الله لتقديسه تهب الإنسان قداسة وتطهيراً فتنفتح عين الإنسان من جديد ليرى بالروح شجرة الحياة التي هي المسيح بالحقيقة: «القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢: ١٤).

لذلك، فبالصلاة النقية تمتد يد الإنسان القلبية التائبة ويقطف كلمات الإنجيل ويأكل من شجرة الحياة كل حين فيتجدد ويحيا ولا يموت.

لذلك وبهذا المعنى تماماً يقول مار إسحق أسقف نينوى، إن الصلاة هي الملكوت!!

ولأجل هذا يلحُّ علينا المسيح كثيراً أن نصلي: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُمَلّ» (لو ١٨: ١)، لأن في الصلاة الدائمة سر انكشاف الملكوت في داخلنا كما يقول القديس أنطونيوس الكبير: [أنا أحبكم بكل قلبي وروحي، لاقتنائكم الله فيكم] (رسالة ١٣).

أقوال الآباء في عظمة الصلاة:

٢٧ - إن حزقيال النبي المبارك رأى من الله رؤيا جليلة، فقصَّها وكتبها. وهي رؤيا مشحونة بالأسرار الفائقة، لأنه رأى الشاروبيم بهيئة أربعة مخلوقات روحانية حاملة الرب الجالس فوقها.

فهذا الذي رآه النبي من حيث صحة الوجود كان حقاً أكيداً، ولكن الشيء الذي يدل عليه هو سر إلهي كان معناه مخفياً عن الدهور السالفة ثم ظهر بمجيء المسيح. هذا السر هو سر النفس البشرية الحليمة لكونها ستقبل مولاها فيما بعد وتصير كرسياً لمجده. لأن النفس الإنسانية التي تستحق شركة الروح القدس في النور تصير كلها ممجَّدة بحسن مجد نور المسيح الراكب والجالس عليها، بحيث يكون المسيح نفسه قائدها ومدبرها وساندها. ولكن النفس في ذاتها ليس اللاهوت من طبيعتها ولا الظلمة أيضاً من طبيعتها، بل هي مخلوقة عاقلة جميلة عظيمة عجيبة شريفة كصورة الله ومثاله، ولم يدخلها ميل الفساد وظلمة الشهوات إلا بالمعصية، فإذا قبِلَت الروح القدس تصير متحدة معه في كل حركات إرادتها، وإذا عاشت بالفضيلة ودخلها نور الله فإنها تستريح في النور.

أما إذا قبلت النفس ظلام الخطيئة فإنها ترث العقاب...، فالنفس التي تشتهي أن تعيش مع الله وتستريح بنوره الأبدي عليها أن تأتي إلى المسيح الحَبْر الحقيقي لتنذبح وتموت عن حياتها الأولى وعن العالم وعن ظلمة الخطيئة والخبث حتى تنتقل إلى الحياة الأبدية...

فلنصلِّ، إذن، حتى ننذبح بقوته ونموت عن العالم وعن الخطية والخبث حتى يموت فينا روح الخطيئة وننال حياة الروح السمائي وننتقل من ظلمة الشرير إلى نور المسيح وننتعش بالحياة كل الأيام...، والذي يهتم بنفسه باجتهاد ويفتش ويصلي إلى الرب بلا انقطاع ينال الفداء ويقبل هذا الغِنى السمائي.

أبا مكاريوس الكبير (العظة الأولى)

٢٨ - الصلاة يجب أن تُفضَّل على كل شيء: مرثا تهتم بالضيافة والمقابلة ولكن مريم تجلس عند قدميه. في كلتا الأختين نرى غيرة سامية، ولكن هل لك أن تميز بين العملين؟ الرب استحسن غيرة الأختين ولكنه فضَّل مريم على مرثا. مرثا رمز الخدمة العاملة، ومريم رمز وقفة التأمل الهادئة أمام الله في الصلاة! لك أن

تقتدي بمن تحب، لأن بكلتيهما سواء بهذه أو بالأخرى سوف تنال ثمرة الخلاص، **غير أن الأخيرة أفضل من الأولى... «مريم اختارت النصيب الصالح»** (لو ١٠: ٤٢).

باسيليوس الكبير

٢٩ – ليس شيء أقوى من الصلاة، لا شيء يعادلها: ملك مزين بالأرجوان، ليس بهياً كرجل يصلي متزيناً بحديثه مع الله! أُشبِّه ذلك بإنسان دخل ليحدث الملك بحديث خاص معه في حضرة كافة أفراد الجيش من ضباط وقواد وذوي الرتب الرسمية المختلفة، فالجميع سيرمقونه بنظرة إكبار وإجلال. هكذا الذين يصلُّون! تصور إنساناً يدخل في شجاعة وإقدام ويتقدم، في حضرة الملائكة والساروفيم والشاروبيم وكل القوات غير المتجسدة، ويقترب من ملك هذه القوات جميعاً **ويتحدث معه، أي شرف هذا؟**

يوحنا ذهبي الفم

٣٠ – قمة كل سعي صالح وتاج كافة التدبيرات المتقنة هو الإدمان على الصلاة، لأن بواسطتها ننال باقي الفضائل إن طلبناها من الله بصبر كل يوم.

وقوة الصلاة تبتدئ في الذين حُسبوا مستحقين لشركة قداسة الله ودخلوا تحت عنايته الروحانية، حتى يصير عقلهم ملتصقاً بالرب بمحبة لا توصف.

لأن الذي يغصب نفسه على الصلاة كل يوم حتى يدمن عليها ويكرم محبة الله في كل شيء، فإنه يحصل على حرارة المحبة الإلهية حتى يتَّقد بها ويوهب نعمة الروح القدس.

أبا مكاريوس الكبير (عظة ٤٠)

٣١ – عمل الصلاة مقدس ومرتفع جداً وهو مبدأ كل الفضائل. يقول فيها القديس مكاريوس الكبير إنها «قمة كل سعي صالح»، ورأس الأعمال الفاضلة هو المداومة على الصلاة.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٣٢ – أيها المسيحيون الأحباء «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز ٣٤: ٨). هو ليس فقط يدعنا ندخل إليه سواء كنا خطاة أو غير مستحقين، بل إنه يجذبنا نحوه ويعلمنا كيف نقترب إليه ونصلي له، **وندعوه أباً**. ومن نحن؟ بنو البشر الذين أغضبناه، عبيد بطالون، خطاة كلنا، تراب ورماد ... آه يا الله العظيم الرحمة في كل شيء، أينما نلتفت رحمتك تقابلنا! ولما نتطلع إليك ونجد فرصة للصلاة نصلي واثقين من وعدك الكبير أن **صلاتنا تُسمع عندك!**

الأب تيخون (ز.)

٣٣ – الصلاة في المبتدئين **تشبه ناراً**، ومن الفرحة تندفق من القلب، ولكن في الكاملين **تشبه نوراً يفيح عطراً يملأ القلب**. هي بشارة الرسل، عمل الإيمان، أساس الرجاء، تجديد الحب، حركة الملائكة، قوة غير

المتجسدين الدائمة، بشارة الرب، علامة القداسة، رمز الطهارة، وجود الله، إظهار المعمودية، إغتسال وتجديد في جرن التوبة المفتوح على الدوام، خطبة النفس للروح القدس، فرح يسوع، سرور النفس، رحمة الله، علامة الصلح، ختم المسيحية، شعاع الشمس الروحية، نجمة الصبح المنيرة للقلب بعد ليل الخطية الحالك، دعامة المسيحية، معرفة الله. آه يا لعظمة الصلاة! هي عمل الآب والابن والروح القدس.

الأب غريغوريوس (من سينا)

٣٤ – «لا يرضي أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد... **أما نحن فنواظب على الصلاة** وخدمة الكلمة» (أع ٦: ٢ و ٤)!!! عظيم هو عمل الصلاة.

الأسقف إغناطيوس ب.

٣٥ – أيوجد شيء أعظم من الصلاة؟ أيوجد شيء أنفع منها لحياتنا أو أحلى منها لقلوبنا؟ إنها أسمى **علامات العبادة المقدسة.**

أوغسطينوس

٣٦ – يا لعظمة وسمو الصلاة! سعيد هو من يصلي بحرارة **فالشيطان لا يقربه قط،** على شرط أن يتطهر من كل غش. يا لسمو الصلاة!

مار أفرآم

٣٧ – وكما أن تاج بنيان كل الفضائل هو إتقان الصلاة، كذلك أيضاً إذا لم ترتبط كل فضيلة بالصلاة فإنها لا يمكن أن تقوى أو تدوم.

لذلك فإن هدوء الصلاة ودوامها لا يمكن التوفر عليهما أو الاستدامة فيهما بدون ممارسة الفضائل.

وكذلك الفضائل، التي تُعتبر الأساس الأول للصلاة، لا يمكن تكميلها بدون الاستمرار في الصلاة.

لذلك، فإننا في هذا الحديث القصير لا نستطيع أن نشرح آثار الصلاة ومفاعيلها أو نحيط بأهدافها الرئيسية التي لا يمكن بلوغها إلا بالتوفر أولاً على ممارسة الفضائل.

غير أنه يلزمنا على كل حال أن نحصر ونوضح ما ينبغي حفظه وما ينبغي التخلي عنه من أجل إتقان الصلاة، كما يعلمنا المثل المذكور في الإنجيل فيما يختص ببناء البرج الروحي العالي وما ينبغي من حساب النفقة له مقدماً.

لأن كل ما نستعد به ونستحضره لبناء البرج الروحي والإرتفاع به يصبح بدون أية قيمة ولا يصلح أن نبني أو نرتفع عليه بشيء، إلا إذا تخلصنا أولاً من العيوب والأخطاء وحفرنا وعمّقنا حتى نزيل كل وساخة النفس وشهواتها المتعفنة الميتة، وحينئذ نرسي أساساً متيناً من البساطة والتواضع على أرضية قلوبنا الحية

الصلبة كصخرة الإنجيل، ونرتفع بعدئذ ببرج الفضائل الروحانية - بالصلاة - فينمو غير متزعزع ويرتفع حتى يتصل بالسماء في أمان ووثوق، لأنه حينما يستقر على مثل هذا الأساس فإنه مهما ثقلت عليه عواصف الشهوات ومهما صادمته موجات الإضطهادات ومهما هاجمته قوات الأعداء لا يسقط قط بل ولا يصيبه حتى مجرد الضرر.

أبا إسحق[1] في حديثه لكاسيان

٣٨ - آه يا للقوة غير المنطوق بها التي ملَك بها الرب على قلوبنا ... حتى أمهاتنا لا يقدرن أن يستدرجن قلوبنا تماماً إليهن، في حين أن الرب يستميلها إليه بالتمام بواسطة الصلاة.

الأب يوحنا (ك.)

٣٩ - **ما هو رأس كل أعمال النسك** التي إذا ما بلغها إنسان يشعر أنه قد بلغ قمة الطريق؟

إنه الوصول إلى الصلاة الدائمة! فحينما يصل إلى هذا الحد، يكون قد لمس نهاية كل الفضائل وصار مسكناً للروح القدس.

مار إسحق السرياني

٤٠ - وذلك الروح الناري العظيم، هذا الذي قبلتُه أنا، اقبلوه أنتم أيضاً. أما إذا أردتم أن تقبلوه ويسكن فيكم، فقدِّموا أولاً أتعاب الجسد وتواضع القلب؛ وارفعوا أفكاركم إلى السماء في الليل والنهار؛ واطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري، وحينئذ يُعطَى لكم بالصلاة. أديموا الطلبة باجتهاد من كل قلوبكم فإنه يُعطَى لكم، لأن ذلك الروح يسكن في القلوب المستقيمة، وهو يكشف لكم الأسرار العلوية وأشياءَ أُخر أُمسك عن قولها. ويكون لكم فرح سماوي ليلاً ونهاراً.

أبا أنطونيوس الكبير

---

(١) في الطبعة الأولى لم نكن قد عثرنا على المصدر الذي استقى منه كاسيان أقواله عن الصلاة، والتي نُسِبت له خطأ. وكانت مترجمة عن اليونانية بدون تدقيق.

وبالبحث وجدنا أن أقواله مستقاة كلها من آباء نتريا العظام، وبالأخص القديس إسحق تلميذ أبا أنطونيوس الذي بعد نياحة معلمه استقر في إقليم نتريا. وقد عدنا إلى النصوص وأعدنا ترجمتها.

ثالثاً: ضرورة الصلاة

«بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً» (يو ١٥: ٥).

«صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة» (لو ٢٢: ٤٠).

«ادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني» (مز ٥٠: ١٥).

«لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له»
(يو ٤: ٢٣)

إن صلة النفس بالله وتشوُّقها إلى الحديث معه وُضعت كفعل صميمي في كيان الإنسان كما وُضعت الخدمة والتسبيح في صميم طبيعة الملائكة. وكما وُضع في الشجرة أن تثمر ثمراً كجنسها، فالإنسان الذي يستجيب لروح العبادة في داخله يكون كالشجرة التي تثمر ثمراً جيداً في حينه.

وكما تبدو الشجرة في نظر البستاني كريمة وجيدة عندما تثمر ثمراً كأصلها المرجو منها، هكذا ينظر الله إلى الإنسان الذي يصلي إليه في الحين الحسن.

وكما أن الثمرة التي تقدمها الشجرة هي غاية رجاء البستاني من زرعها وسقيها والعناية بها، والصلة التي تربط الشجرة بقلب البستاني وفكره، والعلة الأساسية التي تدفعه إلى الاهتمام بها وإبقائها في حقله، هكذا الصلاة. فالله هو الكرَّام الصالح، وقد اشترانا بدمه، واقتنانا في حقله، أي غرسنا في ملكوته وهو ينتظر ثمرنا لأنه غاية عمله وتعبه وآلامه على الصليب. فصلاتنا هي الثمرة الناضجة للدم المسفوك والاستجابة الواعية لعمل محبته وآلامه.

أما ضرورة الصلاة بالنسبة لوجودنا في هذا العالم، فينبغي أن نعلم أننا نعيش الآن في عالم قد ارتد إلى عبادة الأصنام التي هي المال والطمع وملذات الجسد، عالم تقهقرت منه مخافة الله وصار السباق فيه إلى جمع الأموال واستخدام القوة والدهاء والغش والرشوة في الوصول إلى المراكز الأولى والالتجاء إلى الكذب لتزكية الذات والسطوة والظلم لتحقيق السيادة كلها أموراً عادية في العالم والكنيسة على حد سواء.

أما كيف «أُخلِّص نفسي» وسط هذا العالم فأصبحت مشكلة حرجة للغاية، تحتاج إلى جهاد كثير وانزواء عن هذه الأجواء الفاسدة والإلتجاء إلى الصلاة كسلاح أول وأخير!

لم تكن الصلاة في زمن من الأزمان ضرورة شديدة تتوقف عليها خسارة النفس أو خلاصها مثل هذا الزمان الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان بلا إله ولا يشعر به أحد بل ويمكن أن يُمدح ويُزكَّى.

فالصلاة بالنسبة لنا الآن جميعاً - وسط هذا العالم الذي يموج بالإلحاد والخطيئة والمظالم - تذكِّرنا أن لنا إلهاً حياً، وملكوتاً مُعدًّا، وحياة أخرى مجيدة، ودينونة لابد أن نجوزها.

كما تذكرّنا الصلاة يوماً بيوم أننا لسنا من هذا العالم، وأننا أبناء نور، وأنه لا ينبغي أن تكون لنا شركة مع المستهترين أو الفاجرين أو بني الخلاعة والإثم.

الصلاة تمسك قلبنا عن أن نشتهي نصيب الظلم، وتحفظ رجلنا من أن ننزلق في طريق الخطيئة، وتحفظ لساننا من الممالأة والكذب.

الصلاة تمدنا ببصيرة نَيِّرة حتى نتفادى التورط في المجاراة في الباطل والمجاملة في الخطأ واستحسان العمل المعوج الشرير.

الصلاة تهبنا كل يوم سلاماً قلبياً جديداً عوض ما نفقده من جراء الإثارات والمظالم التي نواجهها في العالم، والتي لولا نعمة الله لكانت قادرة على أن تورثنا المرض والقلق.

الصلاة نور داخلي نكتشف عليه عيوبنا وأخطاءنا في سلوكنا اليومي، حتى لا تجري بنا الأيام والحوادث إلى هاوية الجحيم.

ولكن الله لا يطلب مجرد مؤمنين، بل هو طالبٌ «مثل هؤلاء الساجدين الحقيقيين الذين يسجدون له بالروح والحق» (يو ٤ : ٢٣). هنا يُعبِّر المسيح عن حالة الصلاة القانونية المعترف بها عند الآب:

فالله حق، ولا يقبل صلاة إلا بالحق، أي صلاة تعرفه وتؤمن به تماماً.

والله روح، ولا يقبل صلاة إلا بالروح، أي صلاة تدرك الحياة الأبدية وتخضع لروح الله.

فالصلاة التي بالحق والروح هي الصلاة الوحيدة المقبولة لدى الله، وهي بذلك تعبير عن اتصال حقيقي روحي بالله!!

وهذا التعريف في الواقع هو خلاصة المفهوم اللاهوتي الكامل والمحدد عن الصلاة الحقيقية أو الصلاة الروحية.

ثم إن قول المسيح إن الله **طالبٌ** مثل هؤلاء الساجدين، أي المصلِّين، يكشف عن قيمة الصلاة وضرورتها وأهميتها من وجهة نظر الله نفسه: «**الله طالبٌ**». فكلمة «**طالبٌ**» تفيد أن الله يسعى لصلاة الإنسان ويشترك في تهيئة ظروفها وإمكانياتها ونجاحها! وكأنما خلقة الإنسان تتوقف في النهاية في نظر الله على وجود ساجدين له بالروح والحق!! هنا تظهر الصلاة الحقيقية كواسطة أو كصلة وحيدة بين الإنسان والله، بدونها يفقد الإنسان معنى وجوده والغاية من خلقته!

آه لو تذكرنا دائماً أن الله طالب سجودنا؛ وكأنما هو ينتظر ساعة صلاتنا!!

أقوال الآباء في ضرورة الصلاة:

٤١ – الذي يفتقر في الجسديات وليس له حيلة، يمد يده ليسأل، هكذا في الروحيات، **إذا أفقرتنا الخطية، يتحتم علينا أن نطلب ونسأل بالصلاة.**

٤٢ – الله ليس محتاجاً لصلواتنا، فهو يعرف ما نحتاجه حتى قبل أن نسأل، لأنه عارف بكل شيء ورحوم ويسكب من جوده الطبيعي حتى على الذين لا يسألون، ولكن الصلاة ضرورية لنا لأنها تجعلنا **مفرزين ومخصصين لله.**

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٤٣ – إذا لاحظت أن إنساناً لا يحب الصلاة فاعرف في الحال أن ليس فيه شيء صالح بالمرة. **فالذي لا يصلي لله هو ميت بالروح وليس فيه حياة.**

٤٤ – لكي تحتفظ بقليل من الماء دافئاً لا يكفي أن تقربه من النار مرة، ولكن يلزم أن تكون له صلة متكررة أو مستديمة بالنار وإلا فَقَدَ دفئه وأدركته برودته الأولى. هكذا القلب أيضاً يجب أن يُشعل أثناء اليوم بنار الحب الإلهي، وذلك بالصلاة، لكي **يحتفظ على الدوام بحرارة عواطفه فتدوم غيرته ولا يعود سريعاً إلى برودته الأولى.**

٤٥ – لا شيء يقدر على أن يجعلنا ننمو في الفضيلة مثل المداومة على الصلاة بكثرة، فهي تهيئ لنا حياة العِشرة مع الله... **بالصلاة يكتسب القلب الشرف والأمانة ويترفع عن أمور الدنيا** ليتحد مع الله بالتدريج فيصير روحانياً مقدساً.

٤٦ – ليتنا نقتنع بضرورة الصلاة وندرك أن **في تركها فقدان حياة النفس** إذ هما شيء واحد لا ينفصل.
يوحنا ذهبي الفم

٤٧ – الصلاة هي أُم كل الفضائل. فالصلاة **تحفظ العفة** وتربيها في حضنها، **تُبطل الغضب** وتوبخ عليه، **تمنع ميول الكبرياء والحسد**، تستدعي الروح القدس ليحلَّ في النفس، وتسمو بالنفس لترتفع إلى السماء.
مار أفرآم السرياني

٤٨ - الجسد لا يستطيع أن يبقى حياً بدون غذاء، **هكذا الصلاة هي غذاء النفس** وقوام حياتها.

٤٩ - نحن نؤمن أن ليس أحد من المدعوين يقدر أن يفوز بخلاصه بدون معونة الله، **ولا أحد أيضاً يستحق هذه المعونة إلا بالصلاة.**

أوغسطينوس

٥٠ - الصلاة **هي دعامة الواجبات الثلاثة على الإنسان المسيحي**: الأول صلته بالله، الثاني صلته بنفسه، والثالث صلته بالقريب. فواجبنا نحو الله نقوم به في الصلاة، فندعو باسمه ونُظهر حبنا وأمانتنا له وإيماننا به ونعترف به كمنبع لكل البركات. نرجوه كما نرجو أباً حقيقياً ونلتجئ إليه كأطفال.

أما واجبنا نحو أنفسنا: فبالصلاة نفتش ذواتنا، ونقيس إنساننا الروحي، ونسعى لنكون أهلاً لبنوة الله.

وأما نحو القريب: فبأن نسأل ونطلب له كما لأنفسنا.

أبا إسحق، في حديثه لكاسيان

٥١ - كل العطايا المادية يعطيها الله من ذاته، أما كل العطايا الروحية فهي نازلة من فوق من عند أبي الأنوار. ولكن **علينا أن نسألها من الله**. نُظهر احتياجنا إليها ونؤمن أنه هو معطيها.

٥٢ - **الله يأمرنا أن نصلي**: «أدعُني يوم الضيق... اسألوا... اطلبوا... اقرعوا... صلوا...» لأن احتياجنا، جسدياً كان أو روحياً، فهو إنما يقودنا إلى الصلاة.

فالمحن والشدائد والعوز والضيقات التي تحل بنا لا نستطيع أن **نحتملها أو أن ننتصر عليها أو نتخلص منها إلا بمعونة الله** التي تُعطَى للذين يسألونه في الصلاة. ربح كثير يأتي بواسطة الصلاة المتضعة.

٥٣ - إن سر **دوام النعمة** والفضيلة هو في دوام الصلاة.

٥٤ - كل من يتوكأ على عكاز الصلاة لا تزل قدماه... وحتى إذا زلت فهو لن يقع تماماً، لأن الصلاة **سند للسائر في طريق التقوى.**

٥٥ - إذا قدمتَ للملك شكايتك المستمرة ضد أعدائك فحينئذ لا تفقد شجاعتك إذا هاجموك، فأنت لن تجاهد طويلاً لأنهم سريعاً يرحلون من تلقاء ذواتهم. لأن هذه الأرواح النجسة إنما تخشى أن تأخذ عليها فرصة بالصلاة، لأن **الصلاة هي تاج الجهاد الذي إذا شعرت به تفر كما من عذاب النار.**

الأب يوحنا الدرجي

٥٦ - الصلاة الحارة التي بالدموع، **لا تغسل فقط الإنسان المنسحق** من خطاياه بل **وتشفى ضعف الجسد وأمراضه أيضاً**... الصلاة تجدد الإنسان بجملته وتجعله إنساناً جديداً... أنا أكلمكم من اختباراتي.

الأب يوحنا (ك.)

٥٧ - أظن أنه واضح لكل إنسان أنه **بدون صلاة يستحيل تماماً أن تكون للنفس فضيلة، لأنه** كيف يتسنى لإنسان أن يجاهد من أجل فضيلة ما دون أن يسأل ويتضرع ويسجد أمام واهب الفضائل؟

٥٨ - كل من يريد أن يعمل **عملاً ناجحاً ويضمن رضى الله**، سواء في البحث عن زوجة عفيفة أو في السير بلا لوم في طريق البتولية أو في حفظ الإنسان نفسه نقياً من الحسد، أو في أي عمل صالح آخر، فيمكنه أن يتممه بسهولة إذا اتخذ الصلاة مرشداً له. لأن كل من يسأل عفة أو استقامة أو وداعة أو رحمة فمستحيل أن تُرفض مسألته: «اسألوا تُعطَوا...» يقول الرب (مت ٧: ٧)، وهكذا يحثنا الله على المثابرة على الصلاة ونحن خاضعون لمشيئته.

٥٩ - ربما يظن بعض الكسالى الذين يُعرِضون عن الصلاة الحارة أنه يمكن لهم أن يبرروا ذواتهم باستخدامهم آية السيد الرب: «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات» (مت ٧: ٢١).

أُجاوب هؤلاء أنه إذا كان ادعاؤهم حقيقياً، فصلاة واحدة تكفي للخلاص، ولكن الله يقول: «صلوا في كل حين» «صلوا بلا انقطاع» «اسهروا وصلوا» «صلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، فالصلاة هي رأس كل الأعمال الصالحة، فلا العفة وحدها ولا عنايتنا بالفقراء، أو رحمتنا لهم، ولا خدمتنا للآخرين تكفي وحدها، لأن **الصلاة هي أساس هذه جميعاً**.

يوحنا ذهبي الفم

٦٠ - الصلاة **تشجع الضمير، وتُلبس العقل قوة، وتقوّي الرجاء** الذي يُلهب الضمير، فيتجلد الإنسان تجاه الضيقات ويصبر على شرور الأرض. لأنه يوازن كل حين بين هذه الأتعاب وبين الخيرات العتيد أن يرثها، فيستهين بالعذابات وأنواع الآلام.

٦١ - الصلاة الكاملة ترشد إلى السماء وترذل محبة هذا العالم، بالصلاة نستدرج النعمة إلينا التي تسمى الملكوت، لكي إذا أحسسنا بها ننسى الأرض وما فيها، **ونتذكر كل حين أن لنا معيناً قوياً غير منظور**.

٦٢ - بواسطة الألفاظ ندخل إلى الأسرار، فالصلاة **تقرِّب العقل إلى الله**.

٦٣ - ليس لأجل سؤالنا يعطي الله مواهبه وإنعاماته بل إنما جعل سؤالنا وطلبتنا واسطة كلام يوصل العقل إلى تفرُّس أزليته **لإدراك مقدار اهتمامه بنا**.

٦٤ - الصلاة التي لا تلازمها أفكار عالية فاضلة هي كلام ساذج ليس لها قوة عند الله.

أما إذا اقترنت الصلاة بحسن السيرة، **تكون مثل لهيب نار في حركتها**، لأن عظيمة هي قوة الصلاة التي يصليها البار. أما القوة فهي ليست في الألفاظ وإنما في البر. فهوذا موسى ويشوع وأليشع كانوا يفعلون

المعجزات من غير صلاة (هذا استثناء لمن وصلوا لدرجة النبوة وعمل المعجزات).

٦٥ - الصلاة هي عمل مرتفع متعالٍ على جميع الفضائل.

٦٦ - الذي يتهاون بالصلاة ويظن أن له باباً آخر للتوبة فهو مخدوع من الشياطين.

مار إسحق السرياني

٦٧ - عندما يشرق نور الشمس تهرب الوحوش الضارية وتختبئ في أوجرتها، وهكذا حينما نبتدئ في الصلاة. **فهي** شعاع يشرق علينا فيستضيء العقل بنورها وحينئذ **تهرب كل الشهوات** الوحشية الجاهلة وتتبدد. فقط علينا أن نصلي بشجاعة وفكر مضبوط، **فإذا كان الشيطان قريباً منا يُطرد، وإذا كان هناك روح نجس فإنه يهرب.**

يوحنا ذهبي الفم

٦٨ - الصلاة حلقة ذهبية تربط الإنسان المسافر في طريق الأرض بالعالم الروحي وفوق الكل بالله. روحنا هي من الله والصلاة التي بالروح ترفعنا إليه. في الصلاة ربح وفير لمن يصلي بالحق فهي تعطي راحة للنفس والجسد **وتمتد حتى تعمَّ من هم حولنا، بل وتشمل الآتين بعدنا**... انظروا مقدار أهمية الصلاة!

الأب يوحنا (ك.)

٦٩ - تهتف الصلاة أُم الفضائل: «هلم إليَّ أيها الأولاد اصغوا إليَّ **فأعلمكم مخافة الرب**» (مز ٣٤: ١١)، «افتحوا لي قلوبكم لأدخل وأسكن فيها فأعلمكم كيف **تحيدون عن الشر**»، أعلمكم «أن خوف الرب زكي ثابت إلى الدهر» (مز ١٩: ٩)، وأنه مرهوب على كل من حوله، عند الشاروبيم الممتلئين لهيباً والساروفيم الممجَّدين جداً ذوي الستة أجنحة... أصغِ إليَّ واترك الاهتمامات الباطلة وافطم نفسك ولو رغماً عن هواك، أُترك غواية المسرات والملذات، اترك الكلام الهزؤ والعبث وكثرة الكلام التي تترك النفس فارغة... أُذكر واعتبر أنك غريب على الأرض، أما السماء فهي بيتك الحقيقي وبلد سكناك... استمع إليَّ فليس لك مرشد سواي. أنا الصلاة أُم الفضائل... كل القديسين الذين غادروا الأرض منتصرين واستقبلتهم السماء بالفرح كنتُ لهم **مرشدة الطريق**... كل من يأتمني على سره **أكشف له سقطته وخطيته**، فإذا مدَّ لي يده **أرفعه وأنتشله من الهاوية... أكشف له مكامن الشيطان وأُحطم له شراكه وأُلزمه بالفرار**... أنا الصلاة **أُصالح الإنسان بالله**، أكشف لتلاميذي ومحبيَّ الخالق غير المدرك وأقودهم إلى العبادة الحقة والخضوع الذي يليق بالمخلوق أمام الخالق... أبذر في القلب تواضعاً، وأفيض فيه ينبوع دموع غزيرة، وأجعل من مريديَّ شركاءً للنعمة الإلهية... كل من سلَّمني مقاليد أموره لا أتخلى عنه لحظة، بل في كل لحظة أُحضره أمام الله وأُقرِّبه إليه وأُشبعه من عِشرته، حتى يجد في الله لذة لا يجدها في الحياة حاضرها ومستقبلها.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٧٠ – الصلاة المسيحية **تمد بالصبر هؤلاء الذين يرزحون تحت عبء الآلام** فتخفف أحزانهم وتهبهم نعمة وشجاعة... بالصلاة وحدها يُغلَب الله من تحننه! لقد جعل الله الصلاة ليس فقط لتدفع عنا الشر، بل منحها لتكون أيضاً سبباً لكل صلاح!

الصلاة تسترد النفوس التي ذهبت في طريق الموت! تقيم الضعيف وتشفي المريض، تفتح أبواب السجن لتطلق الأسرى أحراراً... وتفك أغلال البريء لينعم بالحرية... تغسل الخطايا، وتدفع التجارب، تطفئ الاضطهاد، وتُبطل الظلم والعسف... تعزِّي صغيري القلوب، وتُبهج ذوي الأرواح العالية، تعود بالمسافرين، وتهدئ الأمواج، تلجم قُطَّاع الطريق، وتضبط طريق الأغنياء... تغذي المسكين وتشفي المريض، ترفع الحجر وتقيم الساقطين وتسند الواقفين...

الصلاة سور الإيمان، وسلاح ودرع ضد العدو الذي يراقبنا من كل ناحية، لذلك ليتنا لا نسير قط غير مسلحين بالصلاة، بالنهار متيقظين لحالنا، وبالليل ساهرين، حافظين على الدوام قوام جنديتنا بأسلحة الصلاة.

كل مخلوق يصلي: الملائكة يصلون، وحتى بهائم الحقل ووحوش الغاب تصلي وتحني الركب حينما تخرج من أوجرتها ومغائرها، ثم تنظر إلى السماء وهي مبتهجة، ليس بأفواه صامتة وإنما كل واحد منها يُخرج صوته برعشة ريح زفيره حسب ما وُهب من صوت... حتى طيور السماء حينما تغادر أوكارها ترتفع نحو السماء باسطة أجنحتها كشبه صليب في السماء وهي تُخرج من حناجرها ما يمكن أن يكون صلاة... وماذا يمكن أن يكون أكثر من هذا ليُشعرنا بأهمية الصلاة؟ **الرب نفسه صلى!** هذا الذي له القوة والكرامة والمجد إلى أبد الدهور كلها آمين.

العلامة ترتوليان

رابعاً: فاعلية الصلاة

«فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه»

(لو ١١: ١٣)

إن كل مواهب الحياة المسيحية الفائقة سواء كانت عامة مثل تجديد الميلاد الثاني أو الفداء لغفران الخطايا أو التبرير بالنعمة أو التقديس بدم المسيح، أو كانت خاصة مثل موهبة المحبة أو الاتضاع أو التقوى أو التهاب الروح في عشرة ثابتة مع الرب، هذه جميعها لا يمكن أن تُستعلَن قوتها وفاعليتها إلا بالصلاة.

فبالصلاة تُستَعلن فاعلية طبيعة المسيح فينا، وبالصلاة تظهر قوة موته وحياته في أعمالنا وسلوكنا، وبالصلاة تُشتمُّ رائحة المسيح الزكية في أقوالنا وأفكارنا بل وفي هدوئنا وصمتنا. وهكذا لا يمكن أن يُستعلَن عمل الفداء المسيحي، ولا يمكن أن تظهر قوة الخلاص من الخطيئة وغلبة الإثم، أو تتم الشهادة الحية للميلاد الجديد، إلا بواسطة حياة الصلاة. وبدون حياة الصلاة تصبح كافة المحاولات لإعلان هذه المفاعيل الإلهية في طبيعة الإنسان زائفة ونظرية ومن فعل الذات والإرادة الشخصية، حيث يكون الإنسان العتيق باقياً كما هو بميوله وشهواته وطبيعته الترابية.

فلو قبلنا هذه الحقيقة التي للصلاة ووضعنا قلبنا عليها وعزمنا على تطبيقها بكل قوتنا مهما كلفنا الأمر من تضحية وجهد، فلابد أن نبلغ إلى كل أسرار المسيح الفائقة التي كنا نسمع عنها سمع الأذن.

وهذا يكون حينما تصبح الصلاة هي شغلنا الشاغل وهمنا الأول الذي يفوق كل همٍّ وواجبنا الذي يتحدى كل واجب ومسرتنا التي تبتلع كل مسرة. نصلي في كل وقت، ولكل ظرف، وفي كل مكان، وعلى كل حال... في شهوة لا تخمد للاتصال الدائم بالمسيح مقتدين بأقواله وأعماله وحركاته وصفاته كما قال: «تعلموا مني» (مت ١١: ٢٩)، حيث تكون غايتنا من كل أعمال الحياة وظروفها أن يصبح كل شيء لمسرة الآب في طاعة شخص يسوع المسيح، الذي ينبغي أن يملأ حياتنا وتفكيرنا. نتمثله في رقادنا ويقظتنا وفي كلامنا وصمتنا حتى يصير المسيح هو الحي فينا حقاً وبالفعل وليس ذواتنا، وحينئذ سوف نحس بيقين كيف يولد

المسيح في داخلنا وكيف نتغير يوماً فيوماً ونتجدد كخليقة جديدة لنكون على صورته كشبهه حسب مشيئته؛ وحينئذ أيضاً سوف نرى كيف يعمل فينا كل ما نشتهيه بالروح ولا يؤخِّر لنا شهوة ولا طلباً إطلاقاً مما نشتهيه ونطلبه في الصلاة.

كما نحس في أعماقنا كيف تتغير حياتنا وتجف ينابيع تَزُّف الخطيئة وتخمد حركات الشر، وكيف تنفتح لنا أذن جديدة كل صباح نتعلم بها أسرار الإنجيل التي يكشفها الروح لأذهاننا بانفتاح وقوة لنستلهم بها كل الحق.

وكلما تقدمنا في حياة الصلاة ورسخت قلوبنا في شهوة العِشرة مع المسيح، كلما تذوَّقنا معنى الاتحاد بالرب وتحسسنا السلاسل الأبدية التي أصبحت تربطنا بشخصه والتي أصبحت تتحكم في كل حواسنا وتفكيرنا. وما كنا نطلبه بدموع وكآبة ونجاهد من أجله بالعرق والحزن، مشتهين أن تنضبط أفكارنا وأقوالنا وحركاتنا وشهواتنا حسب إرادة المسيح، نجده كله حاضراً معنا وكأنه حلم أو رؤيا، فالفم والشفتان يقيم الله عليهما حارساً، والعينان يصير عليهما رقيب، والأذنان يصبحان كباب حصن إلهي لا ينفتح إلا لكل ما هو طاهر، والقلب لا يشتهي إلا مسرة الله ومحبته.

وفي حياة الصلاة ينتبه الإنسان وإذا به قد عثر فجأة على الجوهرة الغالية الثمن في حقل الإنجيل بعد أن يكون قد فلَّحه بهمة ونشاط ومثابرة. إذ أن المكاسب الروحية والنفسانية والجسدية التي تهبط على الإنسان فجأة وهو مثابر على الصلاة تجعله يتيقن أنه قد عثر على جوهرة الإنجيل بالحق، فيهون عليه في فرحته الشديدة أن يبيع كل شيء بالفعل ليحتفظ بمواهب المسيح التي تفوق العقل والوصف.

وكل ما يكون قد تعلق بالقلب والفكر والجسد من شهوات وأمجاد العالم تسقط قيمته في عين الإنسان، سواء كان غِنىً أو علماً أو كرامة أو شهرة أو مجداً أو قوة أو صحة أو رئاسة أو لذة، فتصير كلها كأنها حفنة تراب أو نجاسة يشتهي الإنسان أن يتخلص منها... حتى نفس الإنسان تصبح عنده كلا شيء...

وسر فاعلية الصلاة تنكشف حقيقته في إلحاح الرب يسوع علينا أن نصلي: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُمَلّ» (لو ١٨: ١)، «اسهروا وصلوا» (مت ٢٦: ٤١)، «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه» (مت ٢١: ٢٢).

وهذا لأن في الصلاة فقط تتقابل مشيئتنا مع مشيئته الخاصة، ومعروف أن مشيئة المسيح تتركز بشدة في خلاصنا وتجديدنا ونجاتنا... ولا يمكن لأي شيء في العالم أن يعطل مشيئة المسيح نحونا إلا عدم صلاتنا!!

وعلينا أن نلاحظ أن كل المرضى والعمي والعرض والشُلّ الذين صلُّوا وطلبوا إلى المسيح أن يشفيهم هم الذين شفاهم، وقط لم يرد المسيح إنساناً آمن به وسأله...

ذلك لأن إرادة المسيح، وهي حاضرة كل حين، مستعدة كل حين وقادرة أن تخلِّص إلى التمام كل الذين ينفتحون عليها بالصلاة بإيمان. وفي الصلاة تصير إرادتنا مثل إرادة المسيح لأننا بالصلاة ننال روحه ونصير حسب مشيئته فتحل علينا قوته.

بدون صلاة لا يعرف الإنسان ما هي مشيئة المسيح بالنسبة لنفسه، والروح أيضاً لا يقبل أن يعرف ما هي مشيئة الإنسان إلا بالصلاة «لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلَم طلباتكم لدى الله» (في ٤: ٦).

لذلك فالذي لا يصلي لا ينتظر إطلاقاً أن ينال شيئاً من قِبَل الرب، لا خلاصاً ولا تجديداً ولا تدبيراً ولا نعمة، بل إنه يُترَك لهوى قلبه ومشيئة نفسه وتدبير عقله، ويكون كمن يرفض تدخُّل الرب يسوع أو كمن يخفي نفسه عن روح الله.

الذي لا يصلي هو إنسان اقتنع بحاله ورغب أن يبقى كما هو دون تغيير ولا تجديد ولا خلاص، تزداد حالته سوءاً دون أن يشعر، ويتقهقر يوماً عن يوم، وتزداد روابطه بالأرض والجسد دون أن يدري، حيث تبقى ذاته هي منبع كل شهواته وآماله.

أما علاقته بالمسيح فتظل ظاهرية صورية فقط ليس لها قوة على تغيير شيء ولا إصلاح شيء قط حيث يمكن إنكار المسيح نفسه وقت الخطر أو التجربة أو المرض أو العوز.

وهكذا إذا لم يصلِّ الإنسان لا يمكن أن يتغير أو يتجدد، والذي لا يتغير ولا يتجدد لا يمكن أن تكون له صلة حقيقية فعالة مع المسيح، حيث تصبح عبادته مهما كانت ناشطة عبارة عن نتوء خارجي ونمو سطحي يسقط في النهاية بلا أي ثمرة.

نحن لا نجذب إلينا المسيح من السماء بالصلاة بل نكتشفه في داخلنا، لأن المسيح سُرَّ أن يحل في إنساننا الجديد بسر المعمودية حسب منتهى رحمته ومحبته ومبادرته لتقديم نفسه لخلاص

حياتنا. ففي الصلاة نكتشف أنه واقف داخلنا على باب قلبنا يقرع باستمرار حتى نفتح له، فإذا استجبنا فهو يدخل حياتنا فتبدأ في الحال قيامتنا من الموت وخروجنا من عالم الظلمة. الإنسان الجديد المخلوق على شبه المسيح لا يعيش ولا ينمو ولا يتقوى إلا بحلول المسيح في صميم القلب بالصلاة والإيمان والإرادة: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧)، لأن المسيح هو كلمة الحياة التي يمكن أن يحتويها الإنسان داخل قلبه بالصلاة وبالإنجيل.

والمسيح هو الحياة الأبدية نفسها التي تصير ملكوتاً حقيقياً داخل الإنسان، عندما يقبل شخص يسوع المسيح في القلب بالصلاة وبسر الجسد والدم.

والمسيح هو النور الحقيقي الذي يضيء ذهن الإنسان، عندما يقبل الإنسان بالصلاة حق المسيح ووصيته ليحيا بهما.

والمسيح هو قاهر للشيطان، الحية القديمة، فهو القادر أن يسحق رأسه ويبطل مشورته ويوقف غوايته للإنسان، إذا صارت للإنسان عِشْرة ثابتة حقيقية معه بالصلاة.

إذن، فبدون حياة الصلاة مع المسيح لا يكون للإنسان حياة ولا ملكوت ولا نور ولا نصرة على الشيطان.

الصلاة قوة فعالة توصلنا إلى المسيح الموجود داخلنا مصدر كل قوة وبركة وحياة: «الذي صار لنا حكمةً من الله وبراً وقداسةً وفداءً» (١كو ١: ٣٠).

فالذي لا يستخدم قوة الصلاة، لا يصل إلى المسيح الذي فيه، وحينئذ يعيش غريباً عن حكمة الله محروماً من بر الله وقداسته وفدائه.

ومهما حاولنا أن نتعرف على المسيح بدون الصلاة، فنحن سنعرفه مخلِّصاً للناس وفادياً للآخرين ومقدِّساً للقديسين ومبرِّراً للخطاة، ونبقى نحن محرومين من كل هذه النعم والمواهب، ذلك لأننا لا ننالها إلا إذا قبلنا المسيح بالصلاة شخصياً داخل حياتنا وأَرحْناه داخل قلوبنا ليعيش معنا يشاركنا كل شيء ويدبر لنا كل شيء.

والمسيح لا يتحد بالفكر أو العواطف أو الإرادة أو الحواس إلا إذا اتحد بأعماق النفس أولاً، أي أنه يلزم أن يفتح الإنسان كيانه كله في الصلاة ليستقر المسيح في أعماق النفس التي خلقها لنفسه على صورته ويكون مالكاً لها تماماً، حتى يصبح قادراً أن يدبر حياة الإنسان ويقود

أفكاره وعواطفه ومشيئته وحواسه.

وعندما يملك المسيح على النفس بتواتر الصلاة والانسكاب ويصير مركزاً حقيقياً لوجودها وحركتها، حينئذ لن يستريح الإنسان في شيء سوى في المسيح وحده حيث يستريح المثيل على المثيل. ولأن النفس خُلِقت لتكون خالدة فإنها تجد في المسيح، عندما تتحد به، منتهى سعادتها لأنه يحقق بوجوده وجودها وخلودها.

أقوال الآباء في فاعلية الصلاة:

٧١ - تأمل حكمة الله... وصلاحه، كيف يتشبه بنا ويتجسم في النفوس القديسة المستحقة الأمينة، فبعد أن كان غير منظور لها يصير منظوراً، وبعد أن كان فائقاً على كل حس يصير ملموساً ومحسوساً وتُذاق حلاوته، بقدر لطافة النفس؛ فتختبر صلاة نوره ورضاه غير الموصوف. ومتى شاء صار فيها ناراً آكلة تحرق منها كل خبث، ومتى شاء صار لها راحة تفوق كل نطق فتنعش النفس براحة اللاهوت، ومتى شاء صار فرحها وسلامها ومعزياً معانقاً لها ...

فليسعَ كل واحد في إرضائه حتى يرى خيرات السماء بالحق ويختبر بالفعل بهجة اللاهوت وغناه الذي لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، أعني روح الرب الذي هو للنفوس القديسة راحة وفرح وبهجة وحياة أبدية...

والنفس التي تُحسَب أهلاً لنوال تلك القوة من العلاء باشتياق زائد وبانتظار وإيمان ومحبة وتناول النار السمائية نار الحياة الدائمة فإنها تنفك حقاً من كل محبة عالمية وتنحل من كل رباط الخطيئة.

إن حياة النفس وانشراحها يكونان بالعِشرة الخفية مع الملك السمائي لا غير، لأنه إن كان من أجل محبة الشركة الجسدية يترك الرجل أباه وأمه ليلتصق بزوجته فكم بالحري الذين يُحسَبون أهلاً لشركة الروح القدس الذي هو المحبوب السمائي، فإنهم بدون نزاع يتجردون بالكلية من حب العالم، حيث يظهر لهم كل شيء فيه نفاية نظراً لكونهم يمتلئون من الشهوة السمائية ويألفون دوام فعلها.

وإن ظهر لنا أنه أمر صعب أن نرجع عن كثرة خطايانا التي يبدو وكأنها تملَّكت فينا، فلنتذكر ونعتبر كيف أن ربنا في سلوكه بين البشر أعاد البصر للعميان رحمة منه، وشفى المشلولين وكل أنواع الأمراض الصعبة، وأقام الأموات، وأخرج من إنسان واحد لجئون من الشياطين وردَّ للمجنون عقله، فكيف لا يُهدي بالحري النفس حينما ترجع إليه ملتمسة منه الرحمة وهي في حاجة إلى معونته، فإنه لابد يأتي بها إلى حالة الحرية وفرح الانعتاق من الشهوات وإلى تجديد الذهن، ويردها إلى صحة الفضيلة ونور البصيرة، ويرفع عنها عمى الفكر وصمم عدم الطاعة وموت الجهل وقلة التقوى، ويعيد إليها حكمة الفضيلة ونقاوة القلب، لأن الذي خلق الجسد هو بعينه الذي خلق النفس، فكما أنه في سعيه على الأرض كان كل الذين يأتون إليه

ويطلبون منه العون والشفاء يمنحهم بكرَمه وصلاحه كل ما يحتاجون إليه كطبيب صالح ليس له مثيل، كذلك أيضاً في حال النفس والروحيات سواءً بسواء. لأنه إن كان قد تحرك بالشفقة إلى هذا الحد على الأجساد التي تنحل وتموت وقضى لكل واحد مطلوبه برضى وإحسان فكم بالحري يصنع للنفس الخالدة التي تأتي إلى الرب بالصلاة ملتمسة عوناً متطلعة إلى رحمته لنوال نعمة روحه لأجل فدائها وخلاصها ونجاتها ألا يبادر ويهبها الفداء والشفاء عن رضى طبقاً لكلمة وعده؟؟

فهذه التعاليم كلها قد نصحتنا أن نلتمس منه عطية النعمة بجسارة بلا انقطاع ولا فتور، فإنه جاء إلى العالم من أجل الخطاة ليرجعهم إلى نفسه ويشفي المؤمنين به... إذن، فلنلتصق به دائماً وبأقصى طاقتنا، فهو مستعد لمعونتنا لأنه رحيم وشافي العلل التي لا دواء لها ويفتدي الذين يدعونه ويرجعون إليه ويتعلقون به بتأمل واشتياق على قدر استطاعتهم.

أبا مكاريوس الكبير (العظة الرابعة)

٧٢ - إن النفوس التي تحب الرب حباً حاراً لا ينطفىء فإنها تستأهل الحياة الأبدية وتُحسب أهلاً للافتداء من الأهوال الشريرة، وتنال نور الروح القدس وحضوره الفائق للوصف وتصير معه في شركة سرية وملء النعمة.

وأما النفوس الخالية من الهمة والجراءة ولا تطلب شيئاً من هذا فإنها لا تزال باقية كأنها في الجسد لأنها لم تحصل على رجاء قداسة قلبها بالصبر وطول الأناة.

أبا مكاريوس الكبير (العظة العاشرة)

٧٣ - لهذا ينبغي لنا أن نصلي إلى الله من كل القلب باجتهاد وإيمان ليهب لنا في قلوبنا «كنز» المسيح الحقيقي وقوة الروح وفاعليته حتى نجد فائدته فينا نحن أولاً التي هي الخلاص والحياة الأبدية والرب نفسه، وعندئذ نستطيع أن نفيد غيرنا أيضاً لاقتدارنا على التداخل فيهم فنُخرج لهم من كنز المسيح الذي فينا كل صلاح بالأقوال الروحانية ونكشف لهم الأسرار السماوية. لأن إرادة الآب الصالح ارتضت أن يحل المسيح في كل من يؤمن به ويحبه، فالمسيح قال: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤: ٢١ و ٢٣).

هذا هو إحسان مشيئة الرب غير المتناهي، وهذا ما ارتضت به محبة المسيح الفائقة للوصف، وهذا ما وعد به صلاح الروح القدس غير المنطوق به، فالمجد للثالوث القدوس من أجل مراحمه، لأن كل الذين حُسبوا أن يصيروا بني الله المولودين من فوق من الماء والروح يحل المسيح فيهم وينيرهم ويريحهم والروح يقودهم ويهديهم، والنعمة تعمل في قلوبهم سراً وتكون لهم راحة روحية.

أما طرائق عمل الروح في النفس فهي مختلفة حسب مشيئة الروح وحال الإنسان: فالنفس تارةً تسمو

بالروح كأنها في وليمة الملك وتكون في فرح وسرور لا يوصف؛

وتارةً تكون كالعروس في مؤالفة عريسها متنعمة باللذات الإلهية؛

وتارةً تكون في خفة وسمو وغيرة كالملائكة التي لا يحجبها عن الله هذه الكثافة الأرضية؛

وتارةً تكون كالثمل من الخمرة عندما تسكر بالروح وبالأسرار الإلهية؛

ثم تعود وكأنها في همٍّ وتأسُّف على جنس البشر تتشفع في ذرية آدم كلها، وتولول وتنوح على البشرية، وتضطرم فيها محبة روحانية على طبيعة بني آدم؛ وأحياناً يتَّقد فيها الروح من جهة الآخرين في محبة فائقة المقدار، حتى أنها تشاء لو تخطف كل إنسان وتضعه في قلبها دون أن تفرِّق بين الجيد والرديء؛

وأحياناً تصير في اتضاع شديد وتضع نفسها تحت كل شخص محتقرة نفسها بالروح حاسبة ذاتها أدنى من الكل؛

وأحياناً تصير كالبطل اللابس السلاح والدروع، تهجم على الأعداء وهي متسلحة بأسلحة الروح وتقاتلهم بجراءة حتى تدوسهم تحت رجليها؛

وأحياناً تستريح النفس في هدوء وسكون وصمت إذ تكون منهمكة في لذة روحانية وسلام وأمان؛

وأحياناً تكون مشغولة بالفهم والحكمة حينما تضبطها النعمة لتعلمها معرفة الروح في أمور لا يستطيع أن ينطقها لسان؛

وأحياناً تصير عادية كأحد العوام.

هكذا تختلف طرائق عمل النعمة في النفس وهي تقودها حسب إرادة الله ورضاه، فتتمرن وتنضج إلى أن تصل في النهاية إلى الآب السماوي تامة نقية وبلا دنس.

وهكذا فإن تنعمات النعمة التي سردناها مختلفة، ولكن ليس لفاعليتها انقطاع بل فاعلية تلي أخرى، وهكذا إلى أن تصل النفس إلى كمال الروح، فعندما يتم تطهيرها من أهواء الفساد تتحد بالروح المعزي بألفة لا توصف، وتُحسَب أهلاً أن تصير روحانية في ذاتها بهذا الاتحاد... وإذ تنغمر بالروح القدس تصير شبه المسيح نفسه وتملك في باطنها فضائل الروح (أي ثمار الروح السبعة).

فلنتوسل، إذن، إلى الله في إيمان المحبة والرجاء الوافر لكي يمنحنا النعمة السماوية، نعمة موهبة الروح القدس، حتى يتولانا هذا الروح نفسه ويقودنا إلى إرادة الله الكاملة، لكي بمفاعيل هذه النعمة وتأثيرها نتهذب روحانياً فنُحسَب أهلاً لإدراك ملء المسيح، كما نص الرسول قائلاً: «حتى تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩). لأن الرب قد وعد كل الذين يؤمنون به أنهم إذا سألوه بالحق فإنه يعطيهم أسرار شركة الروح القدس.

إذن، علينا أن نَنذر نفوسنا كلها للرب، ثم نجتهد على قدر طاقتنا متعبدين بالنفس والجسد، مسمِّرين

أنفسنا في صليب المسيح لعلنا نصير أهلاً للملكوت السمائي، ممجدين الآب والإبن والروح القدس إلى مدى الدهور.

أبا مكاريوس الكبير (العظة الثامنة عشرة)

٧٤ – من يشاء أن يأتي إلى الرب، ويُحسَب أهلاً للحياة الأبدية ويكون مسكناً للمسيح ويمتلئ بالروح القدس، ويكمل وصايا الرب بطهارة وبلا عيب، عليه أن يبتدئ أولاً بالإيمان بالرب مسلِّماً نفسه كلها لهداية وصاياه، مودِّعاً نفسه من العالم وداعاً نهائياً حتى لا يثقل قلبه أو فكره بشيء من الأشياء. وبعد ذلك عليه أن يواظب على الصلاة بإيمان، منتظراً افتقاد الرب ومعونته في كل وقت، رابطاً عقله بالمسيح في ثبات، وأخيراً عليه أن يغصب نفسه على كل الأعمال الصالحة والوصايا، وغصب النفس هنا لازم بسبب الخطيئة الماسكة فيه.

فعليه أن يغصب نفسه أن يكون ذا عقل متضع قدام جميع الناس فلا يطلب كرامة من أحد أو مديحاً أو افتخاراً، بل يجعله نفسه أقل الناس وأردأهم، جاعلاً الرب مثلاً أمام عينيه على الدوام كما قال الرب نفسه: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت ١١: ٢٩)؛ و «ملكوت السموات يُغصَب والغاصبون يختطفونه» (مت ١١: ١٢)؛ و «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق» (لو ١٣: ٢٤)، واضعاً في باله على الدوام تواضع ربنا ولا يتعداه، متمثلاً كيفية معيشته وحلمه وسيرته، جاعلاً هذا قانوناً لنفسه لا يسهى عنه أبداً.

وعليه أن يغصب نفسه على الصلاة ويُدمن عليها بلا فتور بإيمان، لعل الرب يحل فيه ويصيِّره كاملاً ويقويه في جميع وصاياه ويجعله مسكناً لنفسه.

وكل الأشياء التي يفعلها في البداية بالاغتصاب وبنفور قلب فإنه سيفعلها بعد ذلك بإرادته إذا تعوَّد الصلاح، جاعلاً الرب أمامه على الدوام مقيماً على انتظاره وحبه.

فإذا رأى الرب شدة تشوُّقه واجتهاده الحسن وكيف أنه يغصب نفسه إلى تذكار الرب وكل الأعمال الصالحة بتواضع عقل ووداعة ومحبة ويغصب قلبه ويدفعه إلى ذلك رغماً عن مشيئته، ويجهد نفسه ويأمرها ويغصبها، فحينئذ يُظهر الرب له رحمته وينقذه من أعدائه ومن الخطيئة الماسكة فيه ثم يملأه بالروح فيصير بعد ذلك قادراً أن يفعل أوامر الرب بالحق بلا تعب أو صعوبة لأن الرب نفسه يكون هو العامل فيه وحينئذ يُخرج ثمار الروح بطهارة.

هكذا كل من يأتي إلى الرب، عليه في البداية أن يغصب نفسه إلى كل عمل صالح حتى ولو كان قلبه مخالفاً لذلك منتظراً رحمة الرب بإيمان لا يتزعزع.

يغصب نفسه إلى المحبة إن كان خالياً من المحبة.

يغصب نفسه إلى الحِلم إن كان ناقصاً من الحِلم.

يغصب نفسه إلى الشفقة وإلى اقتناء قلب حنون.

يغصب نفسه إلى تحمل الذل والهوان بصبر جميل، وإن رُذل أو فُضح فلا يتحرك بالغيظ على ذلك كما هو مكتوب: «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء» (رو ١٢: ١٩).

يغصب نفسه إلى الصلاة إذا لم تكن له صلاة روحانية، فإذا رآه الله في هذا الجهاد معذِّباً نفسه في هذا الاغتصاب فإنه يهب له روح الصلاة الحقيقية وينعم عليه بالمحبة والوداعة والرحمة والحِلم الحقيقي ويملأه من كل ثمار الروح.

وأما إذا غصب أحد نفسه إلى الصلاة فقط حتى ينال موهبتها من الله ولا يغصب نفسه إلى بقية الفضائل اللازمة المتقدم ذكرها ولا يجتهد في غصب نفسه عليها، فإنه لا يمكنه أن يحصل عليها بنقاوة ويعتاد فعلها بطهارة.

لذلك على كل من يأتي إلى الرب بالصلاة أن يميل قلبه نحو كل صلاح بقدر طاقته، ويسأل الله الصالح والمحسن لأن النعمة الإلهية تحل عليه في ساعة الصلاة والتضرعات بالذات والذين يسألونه يمنحهم طلباتهم.

أما من كان خالياً من الصفات السابقة و لم يحاول أن يغصب نفسه عليها ويتعودها و لم يمل بقلبه إليها، فإنه حتى وإن نال درجة من النعمة فإنه يعدمها لا محالة ويسقط في الكبرياء ولا يتقدم أو يترقى في النعمة الموهوبة له.

فكل من شاء أن يُرضي الله بالحق وينال منه النعمة السماوية وأن ينمو ويكمل في الروح القدس، فعليه أن يغصب نفسه إلى وصايا الله كلها ويُخضع قلبه لها مهما كانت ضد مشيئته كما هو مكتوب: «لأجل هذا بإزاء كل وصاياك قوَّمت نفسي وكل طريق ظلم أبغضت» (مز ١١٩: ١٠٤).

فكما أن الإنسان عليه أن يسير بالغصب والحصر حتى يثبت في الصلاة إلى أن يتعود عليها، كذلك هو الحال في جميع أفعال الفضيلة، عليه أن يغصب نفسه إليها بعقل مطيع ويعوِّد نفسه العادات الصالحة، ولا يكفّ عن مداومة الطلب والصلاة إلى الله في كل وقت حتى وبعد أن ينال كل مشتهيات نفسه ويذوق الله ويصير شريكاً في الروح القدس، إذ يلزم أن يجتهد في تربية الموهبة المعطاة له حتى يجعلها منيرة ويتأصل في التواضع والمحبة والوداعة.

والروح القدس نفسه يعلمه كل ذلك، ويعلمه الصلاة الحقيقية والمحبة والوداعة الصحيحة.

فلنجذب إذن أنفسنا بالحزم والغصب... بانتظار وأمل أن يرسل الله روحه إلى قلوبنا حتى نصلي إلى الله ونسجد له بالروح والحق، حيث الروح ذاته يصلي فينا ويعلمنا ما ينبغي أن نصلي من أجله بالحق.

أبا مكاريوس الكبير (العظة التاسعة عشرة)

٧٥ - إن كان أحد عرياناً من الملابس الإلهية السمائية، التي هي قوة الروح القدس، كما قيل؛ إن كان أحد ليس فيه روح المسيح وليس هو من خاصته، فليبكِ متوسلاً بالصلاة إلى الرب حتى يهبه اللباس الروحاني السمائي، ليستر نفسه العارية من القوة الإلهية. فعار أن يكون غيره مكسواً بالروح وهو مكسو بعيب الشهوات الدنية.

الإنسان الأول لما رأى نفسه عرياناً خجل، فما أعظم فضيحة العري، فإن الجسد إذا تعرّى هكذا يعرِّضنا لفضيحة كبرى، فكم تكون النفس العارية من القوة الإلهية التي لم تكتسِ باللباس الأبدي الروحاني، الذي هو الرب يسوع نفسه.

لذلك فكل من كان غير مكتسٍ بذلك المجد الإلهي، يجب عليه أن يستحي ويقر بفضيحته كما استحى آدم من عري جسده... ويطلب من المسيح ليكسوه بالمجد والنور. ومع أن آدم ستر نفسه بورق التين إلا أن خجله لم يفارقه لعلمه بفقره وعريه، هكذا ينبغي أن لا تنخدع النفس بزعمها أنها بارة وأن عليها لباس الخلاص وهي في الحقيقة قد عملت لنفسها غطاءً من الأفكار الباطلة.

فإن استند أحد على برِّه ولم يطلب بر الله البر الحقيقي الذي هو يسوع المسيح الذي جعله الله لنا براً وقداسة وفداء كما قال الرسول (١كو ١: ٣٠)، فإن تعبه يصبح باطلاً ولا تكون له فيه ثمرة لأن كل بر الإنسان يصير في اليوم الأخير بمنزلة خرقة نجسة كما قال النبي (إش ٦٤: ٦).

فلنطلب، إذن، من الله بتوسل وصلاة لكي نلبس لباس الخلاص الذي هو الرب يسوع المسيح النور الفائق الوصف الذي إذا لبسته النفس لا يُنزَع منها قط.

وكما أن المرأة التي كانت معتلة بنزف الدم لما آمنت بالحق ولمست طرف ثوب ربنا شُفيت حالاً ونشف ينبوع دمها النجس، كذلك كل نفس فيها جرح الخطيئة الذي لا دواء له، والذي تنبع منه الأفكار الخبيثة النجسة، فإن هي أتت إلى المسيح بالصلاة بإيمان حقيقي فإنها تسترد صحتها وتخلص من ينبوع الشهوات الفاسدة الذي كان لا علاج له. لأن ينبوع الخطيئة الذي يُخرج أفكاراً نجسة، لا ينقطع ولا يجف إلا بقوة المسيح فقط. وليس لأحد غيره قدرة على شفاء هذه البلوى... لأنه الطبيب الحقيقي الذي يشفي مجاناً، والذي بذل نفسه وسفك دمه وصنع فداءً للنفس وحررها من العبودية وأخرجها من الظلمة. لأن أفعال نفس الإنسان البارة وحدها هي بمثابة أدوية أرضية لا تقدر أن تعالج أو تشفي هذه الضربة العظيمة غير المنظورة، أما شفاؤها فقد صار من قِبَل الطبيعة الإلهية وبموهبة الروح القدس، هذا هو دواؤها الذي أعاد إليها الصحة والطهارة والحياة.

ولكن لو لم تأتِ المرأة بنفسها إلى الرب ما كانت شُفيت. والأعمى أيضاً، فمع أنه لا يستطع أن يمشي ويأتي إلى الرب بنفسه، إلا أنه صرخ صرخة أشد - في قوتها - من المسير إلى الرب مستنداً على ذراع رسول، لأن الرب أتاه بنفسه وأعطاه البصر؛

هكذا النفس التي جُرِحت بشهوات الفساد والتي عميت بظلمة الخطيئة، فهي لا تزال على كل حال لها إرادتها حتى تصرخ إلى يسوع وتناديه ليأتي إليها بنفسه ويصنع لها فداءً أبدياً.

فإن كان الرب عند مجيئه على الأرض اعتنى بالأجساد الفاسدة، فكم بالحري يعتني بالنفس غير المائتة المخلوقة على صورته؟

فلنؤمن به، إذن، ولنأتِ إليه بالحق ليُتم فينا عمله الشافي لأنه وعد بأن يعطي روحه القدوس للذين يسألونه، ويفتح للذين يقرعون، وأن كل الذين يطلبونه حتماً يجدونه والذي وعد لا يكذب، له المجد والقدرة إلى الأبد آمين.

أبا مكاريوس الكبير (العظة العشرون)

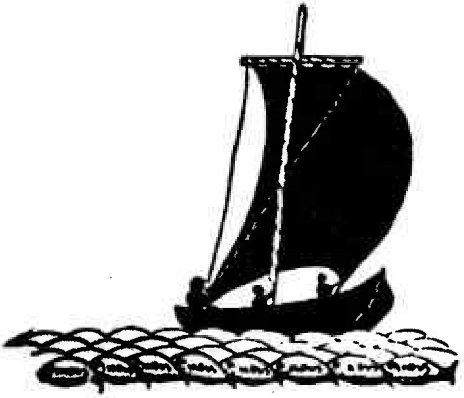

الفصل الثاني

درجات الصلاة

أولاً : الهذيذ.

ثانياً : التأمل.

+ «فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجهاً لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عُرِفت»

(١كو ١٣: ١٢ و ١٣).

+ «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الروح»

(٢كو ٣: ١٨).

وكل درجة يتعالون بها نحو المجد يظنون أنهم قد وجدوا الانتهاء، فإذا ارتفعوا أيضاً واستناروا بنور أكبر نسوا درجتهم الأولى وظنوا أن هنا نهاية المنتهى!
هذا لأنهم ليسوا هم المتحركين نحو المجد إنما هو فعل الروح القدس فيهم.

(الشيخ الروحاني)

كثير منا لا يعرف عن الصلاة إلا أبسط صورة لها وهي التي نقوم فيها بتلاوة بعض الكلمات أمام الله سواء كانت من ترتيبنا الارتجالي الخاص حسب ما توحيه إلينا الظروف، أو من ترتيب القديسين، أو كانت قطعاً مختارة من الكتاب المقدس كالمزامير أو الأناجيل أو خلافه... ولكن هذه كلها لا تخرج عن كونها تمهيداً للصلاة الحقيقية التي بالروح والحق... ويقيناً لو عرف الناس ما تحويه بقية درجات الصلاة من الروعة والسمو وما تجلبه من نعم وبركات لما توانوا لحظة في البدء بممارستها.

وإن كان ليس من السهل تقسيم الصلاة إلى درجات منفصلة لما بين هذه الدرجات من وحدة وترابط متين، إلا أنه من الممكن توضيح كل نوع منها.

فالنوع الأول:

هو الصلاة **الصوتية** التي نستعمل فيها تلاوة الألفاظ والجمل كما سبق وشرحنا سواء كانت هذه الألفاظ من ارتجالنا أو من محفوظات الكتاب أو من ترتيب الآباء، وهذا النوع يُعتبر أساساً لأنواع الصلاة الأخرى أو تمهيداً للدخول مع الله في حديث واقعي... ولكن يُشترط فيها أن يلازمها مجهود ذهني لمتابعة معاني الألفاظ التي نقولها مع اهتمام داخلي بموضوعها، فلا نتلو الكلام كأنه من الآخرين لله بل نحوِّله لأشخاصنا فنقدمه منا مباشرة...

ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن الصلاة، سواء كانت بتلاوة الصلوات الفردية أو في وسط الكنيسة أو كانت بالترنيم الفردي أو وسط خورس التسبيح، يمكن أن تنفتح فجأة على حالة تأمل وانخطاف العقل للوجود في حضرة الله. لأن وقفة الصلاة في حد ذاتها سواء كانت داخل المخدع أو في الكنيسة هي في حقيقتها مثول لدى الحضرة الإلهية ودخول فعلي في مجال القوات الروحانية المسبِّحة والخادمة.

فإذا تقدم الإنسان إلى الصلاة الصوتية بانسحاق قلب واتضاع العبادة بشعور الخدمة أمام الثالوث القدوس، فإنه يؤهَّل من خلال الصلاة الصوتية عند بدء انفتاح فمه للدخول في معرفة وتأمل الأسرار الإلهية، وحينئذ تمتزج صلاته وتسبيحه بحرارة ونقاوة ومسرة فائقة الوصف.

ولكن ليس هذا معناه أن كل صلاة صوتية يلزم أن تنتقل إلى صلاة عقلية تأملية، فالصلاة الصوتية درجة خاصة بحد ذاتها لها قيمتها كخدمة إلهية، ولها فعاليتها في حياة الإنسان الروحية، وهي ليست بأقل قيمة من الصلاة التأملية.

والنوع الثاني:

الصلاة **العقلية**، وتسمى أحياناً بالصلاة الداخلية لأنها تكون من عمق القلب، وهذه يشترك فيها العقل مع القلب فيرتبط التفكير مع الشعور، وأحياناً يفصح عنها ببعض الكلمات، ولكنها في الغالب تُقدَّم في صمت وهدوء.

وأولى درجات الصلاة العقلية هي **الهذيذ**، ويمكن تعريفه بأنه حديث مع الله يتذاكر فيه الإنسان بعض أعمال الله مع خليقته ويشرح أحوال نفسه أمام الله، فيندم على تقصيره وعلى خطيته في موضع الندم، ويقدم عبارات الشكر في موضع الشكر ويعزم على إصلاح سيرته حسب مسرة الله.

وهذا النوع يسمونه «التنقل في الصلاة»، فهو يشمل أشياءً كثيرة متعددة أحياناً لا يوجد بينها رباط، وأعظم مثل لهذا النوع هو المزامير فهي قطع مختارة من هذيذ داود مع الله: تارة في الخليقة الصامتة وتارة في الخليقة الناطقة، ومرة في الناموس وأخرى في النفس، أو ربما هذه كلها في مزمور واحد، ولكنها لا تخرج عن كونها حديثاً واقعياً شجياً فيما تشعر به النفس نحو الله.

أما الدرجة الثانية في الصلاة العقلية فهي صلاة **التأمل**، وهنا الصلاة تدخل في حالة تركيز،

ليس من جهة موضوعها فحسب كأن يركز الإنسان صلاته في محيط التأمل في وصية من الوصايا المحددة أو عمل من أعمال المسيح التبشيرية أو الفدائية، بل من جهة الإنسان نفسه، إذ يكون تحت تأثير قوي من المحبة تجعله في تيقظ ذهني كامل، وتكون كل حواسه مضبوطة وإرادته متركزة في الصلاة وقلبه مستعداً روحياً لتقبُّل أي توجيه من الروح القدس.

لذلك فإن صلاة التأمل يتحتم تقسيمها إلى درجتين متلازمتين:

الدرجة الأولى: درجة التأمل الإرادي:

ونجاحها يتوقف على مقدار ما يحمله الإنسان في قلبه من محبة نحو المسيح مع استعداد الإنسان لتركيز نفسه في موضوع معين يتأمله في أعماق فكره وقلبه ويكون في نفس الوقت في أتم استعداد لتقبُّل أي توجيه روحي.

ولكن لا تخلو هذه الدرجة من معونة خفية من النعمة تلازم إرادة الإنسان وتمنحه قدرة علي المتابعة والاستمرار والتعمق في موضوع الصلاة مع فتح مجال الاستنارة أمامه، فيخرج الإنسان بحصيلة روحية كبيرة من صلاته.

الدرجة الثانية: درجة التأمل بالروح:

وهي انفتاح قلب الله للإنسان بالمحبة رداً على مشاعر الإنسان وحبه التي يتقدم بها في الصلاة أمام الله. وهنا يدخل على الصلاة عنصر إلهي يُخرجها عن حيز الإمكانيات البشرية والإرادة، لذلك يصعب أن يقال عن هذه الدرجة إنها صلاة بل هي «نعمة الصلاة».

وبالرغم من أن هذه الدرجة تبدو خاصة وعالية في البداية، ولكن بمجرد أن يُنعَم على الإنسان بالدخول فيها فإنه يعتادها أو إنها تعتاد عليه حتى تصبح سهلة وعادية وعندما يطلبها غالباً يجدها، وذلك بسبب بساطة الروح القدس وسهولته واستعداده المدهش للإجابة عن كل سؤال للمحبة. ولا يُطلب من الإنسان في هذه الدرجة ليدوم فيها إلا أن يكون موافقاً دائماً لمشيئة الروح القدس من جهة المحبة والبساطة والطهارة القلبية، وعدم الانشغال بالأمور الأرضية وهمومها، والقدرة على تنفيذ الوصية والمشورة الروحية، ولكن يلزم أن يفهم الإنسان أنه لا توجد أية استعدادات تجعله **مستحقاً** للدخول في درجة التأمل بالنعمة أو انفتاح قلب الله له بالمحبة، لأنها هبة خالصة.

فعلى الإنسان أن يطلبها بدموع وتوسل، كما يقول مار إسحق: «أحببني يا رب ولو أني غير مستحق لحبك»، ولكن لا ينبغي أن يعتقد أنه أهل لها حتى ولو دخل فيها كل يوم؛ بل حتى ولو استؤهل لكافة الفضائل الأخرى من طهارة ونسك وتواضع وصلاة دائمة، لأن موهبة التأمل بالروح وانفتاح قلب الله بالمحبة للنفس البشرية، شيء يفوق كافة الفضائل.

ولكن ليس هذا معناه أن درجة التأمل بالروح معجزة، ولكنها نعمة، والدليل على أنها نعمة هو ما يلازمها غالباً من عطية التمييز والحكمة، فدرجة التأمل الروحي هي في الواقع كمال الصلاة وكمال كافة النعم والمواهب.

والذين يؤهَّلون للمداومة في هذه الدرجة فإنهم يُستأمَنون على المواهب الأخرى التي تُعتبر فوق حدود الصلاة كالدهَش، أي الاستغراق في التأمل في الله في شبه غيبوبة روحية حيث يعاينون حقائق إلهية لا يُنطق بها.

هذه وغيرها من المواهب التي تُعتبر فوق حدود الصلاة سوف نفرد لها فصلاً خاصاً.

ويمكن أن نتباسط فنسمي أولى درجات الصلاة، التي هي الصلاة الصوتية، بالوقوف أمام الله بخوف؛ والدرجة الثانية، التي هي الهذيذ، بالمسير نحو الله باشتياق؛ والدرجة الثالثة، بالوجود في أحضان الله بالحب.

ويمكن أن نتباسط أيضاً فنميز هذه الأنواع الثلاثة من كلام الرب يسوع: «اسألوا تُعطَوا» وهذه هي الصلاة الصوتية؛ «أُطلبوا تجدوا» وهذه هي الهذيذ؛ «اقرعوا يُفتح لكم» وهذه هي التأمل أو درجة الوصول.

وقد اصطلح الآباء في كتاباتهم على تسمية درجات الصلاة بثلاثة أنواع من التاوريا. (والتاوريا كلمة يونانية الأصل وترجمتها الحرفية: «النظرة الروحية»، وهي ما يقابل اصطلاح التأمل الروحي من حيث المعنى):

التاوريا الأولى: وهي تاورية الطبائع المادية المخلوقة، ويطلقون عليها أيضاً الهذيذ بالمخلوقات.

التاوريا الثانية: وهي تاورية الطبائع المعقولة أي الأرواح والملائكة والله فوق الكل.

وهو ما يقابل التأمل بالروح بدرجتيه المكتسبة والموهوبة.

التاوريا الثالثة: وهي درجة الدهش المطلق في الثالوث الأقدس لا من حيث التأمل والفحص في طبيعته بل الاتحاد بنوره والذهول في عظمته وجلاله.

وسوف نبدأ مباشرة في هذا الفصل وما يليه بالصلاة العقلية ودرجاتها وتداريبها، مرجئين الحديث عن الصلاة الصوتية ومتعلقاتها إلى الباب الأخير من هذا الكتاب في موضوع «نواحي النشاط الخارجي للصلاة»، إذ أن الصلاة الصوتية هي في مجموعها نشاط خارجي.

أولاً: الهذيذ

μελέτη Meditation

+ «لتكن أقوال فمي وهذيذ قلبي مرضية أمامك دائماً أيا الرب صخرتي وفاديَّ» (مز ١٩: ١٤).

+ «طوبى للرجل... في شريعة الرب هواه وفي شريعته يهذُّ نهاراً وليلاً» (مز ١: ١ و ٢).

+ «تكلمت بشهاداتك... وهذذت بوصاياك التي أحببتها جداً» (مز ١١٩: قطعة ٦).

+ «وفي هذيذي تتَّقد النار فيَّ» (مز ٣٩: ٣).

+ «اهتم بهذا وهذّ فيه μελέτα ليكون تقدمك ظاهراً في كل شيء» (اتي ٤: ١٥).

«الهذيذ» اصطلاح تقليدي قديم متصل اتصالاً وثيقاً بقراءة الكتاب المقدس قراءة قلبية عميقة تترك طابعاً لا يُمحَى في الذاكرة والعاطفة واللسان.

والهذيذ حسب التقليد الآبائي مفتاح كل النعم لأنه يجعل الإنسان الذي يمارسه بشغف، إنجيلي الفكر والنطق والإحساس، ويجعله متقدماً دائماً في كل موهبة، مملوءاً من الفهم الإلهي، فإذا فتح فاه انسابت كلمات الإنجيل منه بدون تصنُّع أو تنميق ومعها الأفكار الإلهية، فكراً يتبع فكراً، كموجات من النور تجعل عقل السامع يُغمَر في نور المعرفة الإلهية والقلب يتحرك والعواطف تشتعل.

وكلمة «الهذيذ» في الأصل اللغوي العبري «هاجا»، وفي الأصل اليوناني: μελέτη والفعل هو: μελετάω تفيد معنى التدارس والتعمق في الفهم والتمرين الفكري والقلبي. فالهذيذ بالحكمة μελετάν σοφίαν، يعني درسها باجتهاد وتعمق مع الممارسة العملية.

وحسب التقليد الآبائي، اقتصرت هذه الكلمة على كيفية تسليم العقل والقلب لكلمة الله بكل اجتهاد حتى يتغير بواسطتها الفكر والقلب، واعتبر الآباء أنه لا يصح أن ينفتح الإنسان للهذيذ إلا فيما يختص بكلمة الله المكتوبة في الكتاب المقدس فقط، لأن الهذيذ القلبي قادر على طبع الوجدان الإنسان والفكري، والإنسان لا ينبغي أن ينطبع إلا بكلمة الله المباركة فقط وحسب مشيئته وفكره.

من هنا ارتبطت كلمة «الهذيذ» بقراءة الكتاب المقدس ارتباطاً خاصاً، وأصبح استعمالها مقصوراً على درس كلمة الله بتعمق وجداني ينتهي إلى التشبُّع والانفعال الروحي.

وأول درجة من درجات الهذيذ، حسب التقليد الآبائي، هي القراءة التي تكون بمنتهى الهدوء وعلى مهل وبصوت مسموع، مع تذوُّق للكلمات ثم ترديد القراءة عدة مرات، علماً بأن عادة القراءة عند الآباء كانت دائماً بصوت مسموع وكانت تسمى «الترديد». والحاصل أن الهذيذ بترديد أقوال الله بصوت مسموع وبتذوُّق ووعي قلبي كفيل بأن يجعل الكلمات تستقر

في الأعماق حيث يرددها الإنسان بعد ذلك (وكأنه يجترُّها) إلى أن تصير كلماته هو، ويكون الإنسان في نفس الوقت قد صار مخزناً أميناً لكلمة الله وصار قلبه بيتاً للكنز الإلهي «يُخرج منه جُدداً وعتقاء» (مت ١٣: ٥٢). وهذا هو المقصود أصلاً من كلمة «حفظ الإنجيل» أو «حفظ الكلمة». فالإنجيل أو الكلمة يكون قد صار محفوظاً في أمان داخل القلب كأنه في كنز صالح، أو حسب تعبير داود النبي: «خبَّأتُ أقوالك في قلبي» (مز ١١٩: ١١). وكأن الإنسان ينعكف وينطوي على كلام الله كخزنة من حديد لا يمكن أن ينفذ إليها اللصوص.

ولهذا، فإن الصلوات الارتجالية في التقليد الآبائي كانت ذات صبغة إنجيلية محضة بسبب امتلاء القلب حتى إلى الفيض من أقوال الله. فكانت الصلوات الارتجالية، أو حسب اصطلاح مار إسحق: «التي يركِّبها الإنسان من نفسه»، عبارة عن ترديد متكامل وملتحم لأقوال الله المحفوظة، وتعبِّر عن مقدار انفعال النفس وانطباعها بكلام الله وبمشيئته.

ومن هنا ارتبط الهذيذ بالصلاة ارتباطاً وثيقاً كأول درجة من درجاتها الرسمية، التي يستطيع الإنسان أن يعيش بها وينمو أمام الله بمنتهى الثقة والأمان، لأنها تكون صلاة من جوهر الإنجيل. وهي قادرة بهذه الكيفية أن تغير كثيراً وتجدد كثيراً في وجدان الإنسان وتفكيره وتعبيره. لذلك لا يمكن احتساب الصلاة الارتجالية في التقليد الأرثوذكسي إلا إذا كان الإنسان ممتلئاً من كلمة الله، أي متمرِّساً بالهذيذ الصحيح، وإلا فإن الكلام سيخرج غير إنجيلي والأفكار تكون غير معبِّرة عن مشيئة الله وفكره.

والهذيذ لا يعني مجرد القراءة المسموعة بعمق، ولكن يمتد ليشمل معنى ترديد القراءة في الصمت بعمق أكثر كل مرة، حتى يشتعل القلب بالنار الإلهية. وهذا واضح بأجلى بيان من قول داود النبي في مزمور ٣٩: «وفي هذيذي تتَّقد النار فيَّ».

ومن هنا يتضح الخيط السري الدقيق الذي يربط التمرين والاجتهاد بالنعمة وبالنار الإلهية.

فإن مجرد الهذيذ بكلمة الله في منتهى الهدوء وعلى مهل مرات متعددة ينتهي، حسب رحمة الله ونعمته، بإشتعال القلب! وبهذا يكون الهذيذ أول صلة رسمية بين الجهد المخلص في العبادة والصلاة، وبين مواهب الله ونعمته الفائقة. ولذلك اعتُبر الهذيذ أول وأهم درجات الصلاة القلبية التي يستطيع أن يرتقي بها الإنسان إلى حالة حارة بالروح، ويمكن أن يعيش فيها كل حياته.

ولا يخفى أن كلمة «الهذيذ» في الأصل اللغوي في اللغة العبرية الأصلية التي تنطقها: **«هاجا»**، مأخوذ منها طريقة الفهم والنطق البدائي «يتهجَّا»، فهي تعني محاولة اجتهادية جادة للفهم والتعلم فيما يختص بمشيئة الله وأسراره المخفية في كلمته ووصاياه، لذلك نسمع داود النبي يقول في مزموره الأول أنه: «طوبى للرجل الذي يتهجَّا (يهُذ) في ناموس الله نهاراً وليلاً»، لأنه قطعاً سيصبح رجلاً حسب مشيئة الله، كما كان داود نفسه!!

ونتيجة هذا الهذيذ أو الهجاية في ناموس الله يعلنها داود، أن الإنسان يصبح ناجحاً في كل ما يصنعه، وكأنما الهذيذ نافع لأن يكون درجة للكاملين روحياً. كذلك يتبين من مفهوم كلمة «هاجا» العبرية (أي يتهجا الشريعة أو الناموس) أن الهذيذ هو الدرجة اللائقة بالمبتدئين لتكوين حياة عِشرة صادقة مع الله.

ومعنى هذا أن الهذيذ يصلح لأن يكون بحد ذاته بداية ونهاية، وهذا حق لأن كلمة الله هي كذلك بداية ونهاية، بها يدخل الإنسان إلى الحق وفيها ينتهي إلى كل الحق.

لذلك كان الهذيذ تجارة رابحة لدى الآباء، عاشوها ومارسوها حتى آخر يوم من حياتهم: فنسمع من بالليديوس كاتب بستان الآباء، أن القديس مرقس الناسك سرد أمام بالليديوس الأناجيل الأربعة وكان عمره آنذاك مائة سنة!! وأن القديس أهرون كان يحفظ المائة والخمسين مزموراً ورسالة بولس الرسول إلى العبرانيين وسفر إشعياء بأكمله وجزءاً من سفر إرميا وإنجيل لوقا وسفر الأمثال. وقد رأى مثل هذا الرحالة روفينوس أيضاً وشهد بذلك.

ولكن ليس معنى هذا أن الهذيذ كان عند الآباء مجرد الحفظ عن ظهر قلب، وإنما كان نتيجة حتمية له، لأن التلذذ المستمر بالأسفار المقدسة مع ترديدها اليومي لابد أن ينطبع على الذاكرة فيجري على اللسان بسهولة.

ونلاحظ دائماً أن القدرة على المداومة في الهذيذ القلبي بالأسفار المقدسة تعبِّر عن الحياة التي تسري حقاً في القلب، لأن كلمة الله روح وحياة كما عرَّفها لنا الرب، لذلك فإن مداومة الهذيذ فيها تكشف حتماً عن اتصال سري وبالتالي عن حياة حقيقية تسري في القلب. أما القلب الذي ينصدُّ عن الهذيذ بكلمة الله، فهو يكشف عن توقف وجمود. ونسمع داود النبي يوضح هذه المقارنة العجيبة بين القلب الذي يهذ في ناموس الله والقلب الذي يتوقف عن الهذيذ بقوله: «تحمَّد قلبهم مثل اللبن المتجبن، أما أنا فهذذت بناموسك» (مز ١١٩: قطعة ٩). بمعنى

أن الهذيذ بناموس الله يحفظ القلب حياً دافئاً متدفقاً بنار الكلمة الإلهية. وذلك لأن الهذيذ يشمل في صميم معناه التعمق المستمر في روح الأسفار والجري وراء الحقيقة تلو الحقيقة التي تكون مختبئة وراء الوصية. وهذا من شأنه أن يجعل أفكار الإنسان دائماً متجددة، وعواطفه إنجيلية رقيقة، وسلوكه سهلاً متحركاً ومنعطفاً نحو كل الاحتمالات بنجاح.

لذلك نجد أن الهذيذ في درجاته المتقدمة ينسلخ قليلاً قليلاً عن القراءة، ليدخل في تصور الحقائق الإلهية ومداخل ومخارج الوصايا وتدبير الله. وهنا يبدأ الهذيذ ينفتح على أولى درجات التأمل، أي ينتقل من التعمق في الكلمة إلى التعمق في الحق الذي تحويه الكلمة.

وذلك لأن مداومة الهذيذ في كلمة الله الحية لابد أن يملأ القلب والفكر بأفكار وتصورات مقدسة، وهذه بدورها تُعتبر المادة الأولى التي يصنع منها التأمل أجنحته الخفيفة ليطير في سماء الروح بدون واسطة القراءة.

ولكن يستحيل أن تتكون عندنا أفكار وتصورات مقدسة تملأ القلب والفكر وتفيض منه، بدون الهذيذ الدائم في الكلمة الإلهية وفي وصايا الرب ومواعيده.

علماً بأن الحصيلة الهائلة من الأفكار والتصورات المقدسة التي سنحوزها بالهذيذ الدائم في الأسفار الإلهية، فوق أنها تُعتبر نعيماً بحد ذاتها تُغني الإنسان بغنى الروح، وفوق أنها تكون له كسيف من لهيب نار متقدة يقطع كل أسباب الأفكار والتصورات الشريرة، فهي تُحسَب للإنسان كذبيحة عقلية مرضية ومقبولة أمام الله دائماً: «لتكن أقوال فمي وهذيذ قلبي مرضية أمامك دائماً أيها الرب صخرتي وفاديَّ» (مز ١٩: ١٤).

يُحكى أن راهباً ذهب إلى معلمه في الصباح حزيناً بعد ليلة طويلة قضاها في الهذيذ في تعداد فضائل أحد إخوته الرهبان قائلاً: «يا أبي قد أضعتُ الليلة سدىً إذ جلست طول الليل أعدُّ فضائل أخي فلان فوجدتها ثلاثين فضيلة، وحزنت إذ وجدت نفسي لا أملك ولا فضيلة واحدة منها»، فقال له معلمه: «ولكن حزنك على خلوِّ نفسك من الفضائل وهذيذك في فضائل غيرك هو أفضل من ثلاثين فضيلة».

هذه صورة عملية لانطباع وصايا الرب التي تحض على الفضائل في ذهن الإنسان وضميره، فيجعله يذهب بالروح ليفتش عليها أين توجد وأين لا توجد. هذا في الواقع يبين كيف أن

الهذيذ في ناموس الله يولِّد الهذيذ في فحص الفضائل والجري وراءها، ويدفع النفس ويقرعها قرعاً شديداً مستمراً لكي تفتش ذاتها وتقيس نفسها على مقياس الإنجيل، ولا تجد راحتها إلا في الحق الذي تهذ به، ولا تهنأ ولا تسعد إلا بتطبيق ناموس الله. فالهذيذ معلِّم الفضيلة الذي يمسك بيد الإنسان ليرفعه فوق نفسه، ومصباح ينير البصيرة ويقود رجل الإنسان ليخطو خطواته العظمى نحو الأبدية.

ولكن لعل أعلى درجات الهذيذ هو الهذيذ في تدبير التجسد الإلهي، وما يتعلق به من الفداء الذي كمل على الصليب والقيامة التي أعطتنا قوة الحياة. هذا يسمى «الهذيذ بسر التدبير»، الذي يصفه الإنجيل بكلمات واضحة سهلة إذا وقف عندها الإنسان طويلاً تنفتح معانيها السرية على القلب وتنسكب منها قوة مشعلة قادرة أن تهب الإنسان حياة جديدة: «لأعرفه وقوة قيامه وشركة آلامه متشبهاً بموته» (في ٣: ١٠)، «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٧ - ١٩). حيث يلتزم الهذيذ هنا بنفس الكلمات والعبارات وينحصر في حدود معناها الواضح في الإنجيل، وهذا يميز الهذيذ عن التأمل حيث يكون التأمل في هذه الأسرار حراً غير مقيد بالكلمات المكتوبة، وإنما يعتمد على مجموعة المدرَكات الشخصية واتساع أُفق البصيرة والمعرفة.

لذلك كان الهذيذ في أسرار التدبير، كما دوَّنها الإنجيل تماماً، هو الأساس الحتمي للتأمل القانوني لاستعلان قوة هذه الأسرار ونورها، فالهذيذ الناجح المستمر يجعل التأمل ناجحاً قوياً نامياً باستمرار.

فالهذيذ، إذن، عمل روحي شيق من صميم العبادة وواجباتها، وهو مفروض على الجميع بلا استثناء، إذ يتعذر على أي إنسان أن يغتذي بكلمة الإنجيل إلا إذا رددها في قلبه وذهنه، وهذا هو معنى الهذيذ. كما يصعب على أي إنسان أن يدخل في صلاة حارة حقيقية مع الله بدون أن يردد أمامه كلمات مواعيده ويتمسك بها ويشرح موقفه منها، وهذا أيضاً معنى الهذيذ!

فالهذيذ صلاة تعتمد على ترديد كلمات الله ووعوده في القلب والذهن، حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ من إيمان الإنسان ورجائه، وقوة حقيقية يستند عليها عند اللزوم: «خبأتُ كلامك في قلبي لكي لا أخطئ إليك» (مز ١١٩: ١١).

(١) الهذيذ كفيض داخلي وصلاة:

حينما يكون الإنسان حاراً ملتهباً بالروح تكون صلاة الهذيذ عنده بسيطة جداً غير متكلفة لا تحتاج إلى تركيز أو جهد ذهني أو أي انفعال فوق الإرادة، لذلك تسمى في هذه الحالة بالصلاة البسيطة أو ذات الاتجاه البسيط، فهي تكون مناجاة حارة تتحدث فيها النفس مع الله خالقها بحب حسب ما تشعر به، سواء كان تمجيداً من نحو أعماله وصفاته وحكمته أو شكراً وحمداً بسبب رحمته وعنايته الفائقة المتضعة. وهنا قد تلتهب النفس أثناء هذا الهذيذ الصامت، فلا تطيق سكوتاً، وحينئذ تبتدئ تصلي بكلمات تنطلق بلا قيود تعبِّر عن الحب والعبادة والخضوع كما يعبِّر الطفل بكلماته الضعيفة عن شعوره القوي، حيث يكون القلب مفتوحاً أمام الله يحس بكل ما يختلج فيه من لمسات يد الله الخفية.

(٢) الهذيذ كعمل إرادي وصلاة:

أما إذا أراد الإنسان الدخول في الهذيذ دون أن تكون لديه حرارة سابقة تدفعه إلى مستوى الصلاة القلبية مرة واحدة، فالأمر هنا يحتاج إلى شيء من الجهد النفسي والتركيز العقلي حتى يمكن للنفس أن تتحرر من جمودها ويستطيع العقل أن يتخلى عن انشغاله بالأمور الخارجية، ليدخل في قراءة واعية روحية ترفعه إلى حالة صلاة. هنا، يلزم أن تتحرك أعماق الإنسان وأن يتأهب الضمير بحركة حرة مضادة لكل المشاغل النفسية والذهنية التي جعلت الإنسان في جمود وانشغال عن العبادة والصلاة والاتصال بالله.

وحركة الضمير تعتمد على المحبة في تغلُّبها على الجمود والانشغال الظاهري. فالإنسان عندما يتحرك قلبياً بالإرادة لمحبة الله، ولو تغصُّباً في البداية، فإن المحبة الإلهية تسري فيه في الحال لأن العمل الإلهي يؤازر دائماً العمل البشري ويتحد به في النهاية.

لذلك، على الإرادة أن تظل ناشطة صابرة منتظرة حتى تحل القوة الإلهية وتسري الحرارة الروحية، فينطلق الإنسان نحو الأعماق ويبدأ صلاته وهذيذه بكل فرح وسهولة.

هذا العمل الروحي أثناء القراءة الروحية، الذي ينقل الإنسان من حالة الجمود النفسي والانشغال العقلي بالأمور المنظورة إلى حالة تعمق داخلي وحرارة وصلاة، يُعتبر في الحقيقة أهم وأدقَّ عمل روحي في حياة الصلاة كلها، فهو الباب الوحيد الذي يفتح على كل أسرار الحياة

الروحانية، وهو أول درجة في السلم السمائي الذي يصل بين النفس وخالقها.

في هذه اللحظات قد يواجه الإنسان بعض عناد من النفس التي تكون مشتتة في اهتمامات أو هموم كثيرة بلا قيمة وبلا معنى، وقد يواجه الإنسان مراوغة من العقل في تنقُّله من صورة إلى صورة ومن فكرة إلى فكرة وهو طائش في أمور غاية في التفاهة. هنا، على الإرادة المتسلحة بنيَّة داخلية صادقة أن تقف موقف الإصرار؛ متشبثة بالمحبة منطلقة إلى وجه المسيح في توسل وانتظار حتى تفتقدها النعمة الإلهية وتحررها وتبثها حباً بحب.

والمنبع الخصب الذي يلقن الروح القدس منه دروس الهذيذ لتلاميذه، هو الكتاب المقدس، فهو المدرسة العظيمة حقاً التي لا نهاية لدروسها والتي مهما استوعبنا منها فلن نستوعب إلا اليسير... وهي غنية بمناهجها الثلاثة: **المنهج التاريخي**، ويشمل من بدء الخليقة حتى نهاية الدهور فيما يحيط بالخليقة الصامتة والناطقة من كل ناحية؛ **والمنهج الناموسي**، ويشمل كل وصايا الله وشرائعه ونواميسه التي وضعها لبني البشر؛ والمنهج الثالث، ويشمل **معاملات الله** مع أحبائه وحديثه معهم وحديثهم معه. هذه المناهج الثلاثة كفيلة بأن تغطي كل احتياجاتنا في هذيذنا مع الله، لا كأنها أشياء مضت، بل كأشياء حاضرة معنا؛ ولا كأنها حقائق لذاتها بل تصير حقيقة نفوسنا نحن.

وأعظم مثل للهذيذ الحر المتسع والذي يشمل كل هذه المناهج، هو الإنتاج الرائع الذي خلفه لنا داود النبي في مزاميره التي هي في حقيقتها قطع فنية للهذيذ، فهي تشمل حديثاً شجياً متصلاً بين داود والله.

فمن حيث الخليقة لم يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها مستحسناً صُنعها. فحدَّث الله عن صُنعه للسماء والأرض وما تحت الأرض والجبال والتلال والبحار والأنهار والينابيع والوديان والحقول والبقاع والأشجار والغابات والعشب والثمار؛ وتغنَّى بالشمس والقمر والنجوم والكواكب والسحب والضباب والجليد والصقيع والحر والبرد والأمطار والعواصف؛ وتحدث عن حيوانات البحر السالكة في البحار، وطيور السماء وحيوانات البر ووحوش الغاب وبهائم الحقل والدبابات التي تدبُّ على وجه الأرض؛ وتحدث عن الشعوب والأمم والألسنة وكل خليقة على وجه الأرض؛ ومن فرط غُلُوِّه في الروح، هتف بها جميعاً واحدة فواحدة لتسبِّح معه وبارك الخالق وترنم لله العلي.

ثم يعود داود في مواضع كثيرة من مزاميره، وبالأخص في مزموره الخالد ١١٩، يحدث الله عن ناموسه ووصاياه: يصف له اتساعها وجمالها وحلاوتها، يشهد أمام خالقه أنها أشهى له من العسل والشهد في فمه وأنها تنير عينيه، وأنها فرحة قلبه وغِنى نفسه وهذيذه بالليل والنهار حتى صارت سراجاً لرجله ونوراً لسبيله؛ ويشهد للشباب أنها قوام طرقهم، وللأطفال أنها تفهمهم؛ ثم يحدِّث الله عن الكآبة التي ملكته حينما رأى الخطاة يهملون ناموسه والمتكبرين يتجاوزون الشريعة، فيحتدّ أثناء حديثه مع الله على الذين يحيدون عن الناموس ويلعنهم؛ ثم يشكر الله أنه علَّمه وصاياه أكثر من أعدائه وأعطاه بها فهماً أكثر من الشيوخ.

ثم يعود داود ليحدِّث خالقه عن نفسه فيرى نفسه دودة لا إنسان، حقيراً ومرذولاً أكثر من كل الناس، يُرجِع بصره إلى أيام صباه فيذكر خطاياه التي اقترفها في جهل، فيصرخ طالباً الرحمة؛ ويرى آثامه الحاضرة ماثلة أمام عينيه، فتغتم نفسه، فيصرخ مسترحماً محدثه كيف كلَّت عيناه من الدموع وانكسرت نفسه من الحزن وبليت عظامه من التنهُّد حتى غارت عيناه وذبل لحمه فالتصق بعظمه، حتى شابه البومة والعصفور الفريد على سطح موحش!!! ثم يرجو خالقه أن لا يؤدِّبه بغضبه فهو مستعد للأدب وإنما بالحب والرحمة من أبٍ شفيق؛ ويتوسل إليه أن لا يميته وهو في منتصف أيامه بل يتمهل عليه حتى يوفيه حقه من التسبيح والتمجيد والشكر. وبذلك يكون داود قد استوعب مدرسة الروح القدس بأكملها، حتى حاز شهادة الله: «إن قلب داود كان حسب قلب الله» (١صم ١٣: ١٤)، وفاز بقول المسيح: «قال داود بالروح» (مت ٢٢: ٤٣).

وهكذا وضع لنا داود بالروح نموذجاً حياً خالداً للهذيذ الكامل حسب مسرة الله. فكل مزمور هو قطعة هذيذ رائعة تقوم بذاتها وتكفي لتكون درساً كاملاً، وتكوِّن مع بقية المزامير صورة ناطقة لحياة العِشْرة التي قضاها داود في حديثه مع الله.

إن سر تقدُّم داود كان اطلاعه المتقن على أسفار الكتاب المقدس ومواظبته على الهذيذ بها. وإذن، فحينما نتقدم إلى الروح القدس ليعلِّمنا دروساً جديدة في الصلاة علينا أن نطالع دروسنا جيداً بل ونتقن حفظها وتلاوتها، حتى من مادة حفظنا يرشدنا الروح إلى نواحي القوة والجمال فيها. ويوضح لنا ما يخصنا فيها وما يطابق حالنا منها فتصير كلمات حفظنا وسائل لتهذيبنا وتبكيتنا وتوبتنا.

واعلم أن الهذيذ فن، ويحتاج إلى زمن لإتقانه، ولكن التقدُّم فيه هيِّن وسريع، وإن لم يظهر بوضوح شأن جميع الفضائل الروحية. فكلما تقدمنا شعرنا بنقصنا وعجزنا، حتى إذا بلغنا إلى درجة عالية ننظر وكأننا لم نتقدم خطوة واحدة، وهذا من فعل النعمة فهي تخفي تقدُّمنا عن أعيننا لئلا نسقط في الغرور والكبرياء. فكلما استولى علينا شعور بالنقص يكون ذلك دليلاً - كما يعلِّمنا الآباء الملهَمون بالروح - على أننا قطعنا مرحلة طيبة وأمامنا مرتفَع يحتاج إلى تحفُّز لقفزة واسعة.

أقوال الآباء في الهذيذ:

٧٦ – الهذيذ في الكتب المقدسة ينير العقل ويعلِّم النفس **الحديث مع الله**.

٧٧ – الذين يعرفون الكتب المقدسة **يسهل عليهم التضرُّع** في صلاة حقيقية.

٧٨ – توجد قراءة تعلمك كيف تدبر أمورك، وتوجد قراءة تشعل النفس بحلاوة الفضيلة. كن مداوماً الهذيذ في الكتب الإلهية وسير القديسين، لأن من دوام التفكير فيها تنمو فيك **أفكار حارة** وتسهل عليك الصلاة وتجعل الضيقات هيِّنة في عينيك.

٧٩ – **عمل القراءة مرتفع جداً** لأنه هو الباب الذي يدخل فيه الذهن إلى الأسرار الإلهية، ويأخذ قوة حسب نقاوة الصلاة، ومنه يتقوى أيضاً **التدريب على الهذيذ**.

٨٠ – بدون **القراءة في الكتب الإلهية**، لا يمكن للذهن أن **يدنو من الله**.

٨١ – الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى **الحكمة هو الهذيذ في الكتب**.

٨٢ – صلاة الهذيذ هي **أفهام من جهة الحياة، ومعرفة فاضلة عن الحياة غير المائتة**. هي ربوات أفهام تختلج في قلوبنا: كيف جُبلنا من الأرض من حيث طبيعة الجسد وبيد من ارتفعنا ... وكيف تجنَّسنا بجنس اللاهوت! وبأي أَسرار تحكَّمنا ... وهكذا يستقيم الضمير ويتَّعظ ويتحرر إلى الأمور المرتفعة، ويصير هذيذه في الروح.

٨٣ – الصلاة التي يشير بها الآباء لا تكون بالكلام فقط ولا يمكن تعلُّمها بالألفاظ، لأنك لا تصلي أمام إنسان، بل إنك ترسل صلاتك قدام الذي هو روح. والصلاة الروحانية أعمق من الشفتين واللسان، وأعمق في التلاوة. فإذا ما أراد الإنسان أن يصلي بها غطس إلى **داخل قلبه** بعيداً عن الفم واللسان، هناك في بلد الملائكة، **بغير كلام** يقدِّس مثلهم. فإذا عاد إلى اللسان ليعبِّر به عن شعوره، فقد خرج من بلد الملائكة ومن التشبُّه القليل بهم.

٨٤ – اعلم أيها الإنسان المتتلمذ للحق أن **طهارة الصلاة وجمع العقل** فيها، هو الهذيذ الحقيقي.

٨٥ – إذا تقدَّم الإنسان بالنعمة في تدريب الهذيذ فإنه يبتدئ قليلاً قليلاً **يلاحظ الأفهام السرية الكائنة**

في كلام الله، وفي المزامير، وفي بقية الأعمال الجارية حوله، وفي حركات الروح داخله، وينظر سفينة حياته تسير إلى قدام يوماً بعد يوم.

٨٦ - اثبت في الصلاة أكثر من المزامير، ولكن لا تبطل المزامير بحجة الهذيذ. فقط **اعطِ فسحة للصلاة** أكثر من التلاوة ... وفي أثناء قيامك بخدمة سواعي النهار والليل **اعطِ فرصة للصلاة** فتجد نفسك بعد قليل من الوقت قد صرت شيئاً آخر.

٨٧ - إذا ملَّ الضمير من الهذيذ في المزامير والصلوات، اشغله في الألحان لئلا يميل منك إلى الطياشة.

٨٨ - لا شيء يمنح الضمير **حياءً وعفة** مثل الحديث مع الله.

٨٩ - من ابتداء الإنسان بعمل تدبير العقل الذي هو الهذيذ بالإلهيات، وإلى أن يبلغ **عمل التدبير الروحاني الذي هو التأمل بالروح** والدهش في الله، هو محتاج إلى **التغصُّب في الصلاة** أكثر من كل الأعمال الأخرى.

٩٠ - إن عمل الفضيلة وتدبير سيرة العقل الخفية (الهذيذ) **هي تحت سلطة الإرادة وفيها تعب وجهاد** - وأما الحركة الروحانية (التأمل بالروح) فهي ليست موضوعة تحت حرية الإنسان، ولا تُقتنى بالتعليم أو التدريب أو عمل الإرادة، وإنما هي من عمل الروح القدس.

٩١ - الهذيذ الدائم بالله **يؤهِّلنا للصلاة بلا انقطاع**. ومن الصلاة يتحرك القلب للهذيذ بغير فتور في الله.

٩٢ - بمداومة الهذيذ بالله وسكون الأفكار، يستطيع الضمير أن يتفرَّس في كل أنواع الصلاة **ويكتسب معرفة فاضلة عن الله.**

٩٣ - الصلاة تقرِّب العقل إلى الله، وبالهذيذ يتشجع العقل فيتفرَّس فيه فيتنقى ويتقدس. هذا هو الهذيذ الذي **يتسلط على كل الأفكار ويضبطها**، فيستضيء العقل بالخفيات الداخلية ومعرفة الله. ومن هنا نستطيع أن نقول: «من يقدر أن يفصلني عن حب المسيح؟ أشدة، أم ضيق، أم اضطهاد، أم جوع، أم خطر، أم سيف؟ ... إني مصلوب للعالم والعالم مصلوب لي».

٩٤ - بالحديث مع الله في الصلاة نتقدم لنظرة الملكوت، الموضع الذي نحن مزمعون أن نقدم فيه السجود بالروح والحق الذي لا يحدّه جسد ولا جهة من جهات العالم.

٩٥ - انقباض الفكر من الطياشة إنما يكون بالصلاة، وما سمعنا أن أحداً نال هذا من غير المداومة على الصلاة.

٩٦ - نحن نداوم على الصلاة ليقتني عقلنا حياءً وتعففاً من النظر الدائم في الله **والكلام الهادئ معه.**

٩٧ – **حرارة الصلاة والهذيذ تحرق الآلام والأفكار الشريرة كمثل نار آكلة.** هذا النوع من الهذيذ يمنحك أجنحة ويبلغك إلى العقل الروحاني الذي تكون خدمته بالروح وليس بالفهم.

٩٨ – ليس فقط تكون عندنا الحروب كلا شيء، بل ونزدري أيضاً بالجسد الذي هو سبب القتال. هذا هو تدبير الصلاة وهذه هي منفعة الهذيذ الإلهي.

٩٩ – أنا أنصحك أن تجلس في هدوء. **وابدأ برفع قلبك في صلاة صامتة!** بدون تلاوة محفوظاتك من مزامير أو غيرها وبدون سجود. إذا استطعت اعبر ليلتك بكل وسيلة ممكنة جالساً في هذيذك الحلو (اختبار للمتقدمين في تدريب السهر).

مار إسحق السرياني

١٠٠ – يدخل الإنسان (للصلاة) ويركع ويمتلئ قلبه قوة إلهية، وتفرح نفسه مع الرب كما تفرح العروس مع عريسها حسب قول إشعياء (٦٢: ٥)، ويفرح أيضاً العريس بعروسه ... ليس عسيراً على الإنسان الذي ظل طول النهار مشغولاً (بأعمال العالم) أن يخصص نفسه للصلاة ساعة معينة، يُختطف فيها الإنسان الباطن إلى عمق التعبُّد في **تأمل العالم الآخر الذي لا نهاية له، بحلاوة كثيرة**، فيهدأ عقله ويتغرَّب (عن مشاغل العالم) إذ يرتفع وينتقل إلى هناك، وحينئذ تمتد سحابة ذهول على أفكاره تحجبه عن الأرضيات وتشغل ذهنه في **أمور سماوية لا نهاية لها**، فيدرك أشياءً أكيدة عجيبة لا يمكن وصفها بفم إنسان حتى تنحصر صلواته، وكل ما يقوله وقتئذ ينحصر في معنى «يا ليت نفسي تخرج مع صلاتي».

أبا مكاريوس الكبير

١٠١ – **سؤال:** هل في كل الأوقات يتعمق الإنسان في هذه الأمور؟

جواب: إن النعمة حاضرة معنا بلا انقطاع وقد تأصَّلت وامتزجت فينا من أول عمرنا ... وقد يصل المرء مع الزمن إلى درجة الكمال، ولكن أحياناً ترتخي النعمة عنه فينزل إلى درجة أسفل مما كان ... وأما الغنيُّ بالنعمة فلا يبرح في كل حين ليلاً ونهاراً في حال الكمال حراً نقياً مأسوراً دائماً في السمو.

١٠٢ – ثم أن الإنسان الذي انكشفت له هذه الأمور واختبرها إن كان يتصورها قدامه دائماً، **فلا يمكنه أن يحتمل ثقل الكلام** بعد ذلك، ولا يطيق أن يسمع **أو يهتم بأمر** لنفسه أو للغد، بل يجلس نقياً في زاوية، ثملاً من فرط السمو.

١٠٣ – إن أحبَّ إنسان ما الرب يسوع وداوم على محبته، فإن الله لابد أن يعطي هذه النفس جزاءها.

أبا مكاريوس الكبير

١٠٤ – ربنا سمى تلاميذه طوباويين إذ قال: «طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع» (مت ١٣: ١٦).

هؤلاء استحقوا التطويب لأنهم نظروا يسوع وآلامه وعجائبه بأعينهم الجسدية وأصغوا لكلماته ... نحن نشهي أن ننظر وأن نسمع، ولكن هؤلاء رأوه وسمعوه وجهاً لوجه لأنه كان حاضراً معهم بالجسد. والآن هو ليس حاضراً معنا بالجسد، فنحن نسمع كلماته من الكتب المقدسة ونتقدس بالسمع فنطوّب ونبجّل ونحترم الكتب التي تخبرنا بكلماته، **وهكذا بواسطة تصورنا المناظر التي يصفها الكتاب نتفرس بعين الفكر في هيئته الجسدية وفي عجائبه وآلامه** ونتقدس ونشبع ونسر ونسعد! وبوقار نعبد هيئته الجسدية التي يهذ بها فكرنا وتصوُّرنا إذ نكوِّن بعض التصور لجلال لاهوته.

لأنه كما أننا من جسد ونفس، ونفسنا هذه لا تستطيع الآن أن تقف بمفردها إلا بمؤازرة الجسد الذي تحتجب فيه، كذلك **يستحيل أن ندرك الأمور الروحية إلا بالوسائط المادية**،كما هو حاصل في حاسة السمع المادية إذ بواسطة سماع كلمات محسوسة ندرك أموراً روحانية غير محسوسة وغير مادية على الإطلاق. كذلك أيضاً بواسطة رؤيا المناظر الجسدية **أو تصوُّرها نصل إلى وندرك الأمور الروحانية**. إذن، فهذيذ الفكر نافع لرفع القلب بالصلاة وبلوغ مدارك الروحيات، وعلى هذا الأساس أخذ المسيح جسداً مع النفس كما للإنسان، ليُظهر للإنسان قوة اللاهوت بالملموسات، والمعمودية كذلك من الماء والروح وكذلك التناول، وكذلك كل أسرار الكنيسة والصلاة والتسبيح والنور والبخور، في كل هذه تتعاون الماديات لحلول وتثبيت الروحيات.

الأب يوحنا الدمشقي

١٠٥ - إذا كان الكتاب المقدس قد استطاع أن يُعرِّف الله ويصوِّره بالحروف المادية المقروءة، فهذه الحروف تحمل خلاف شكلها المادي الظاهري معنى آخر روحانياً ومدلولاً سامياً غير مادي. أما هذه المعاني الروحية وهذه المدلولات السامية، فقد استحق كثيرون من الأطهار أن يطلعوا عليها بالعقل ويعاينوها بعيونهم العقلية ولكنها لم تنكشف للجميع. **فنحن نستطيع أن نعمل فكرنا في تصوُّر الأمور حسب أوصافها ومدلولاتها فندركها كأننا رأيناها**. وكما أننا نصل إلى معرفة الشيء بالاستدلال والمقارنة كذلك **نستخدم كل الحواس لإدراك الأمور التي لم نرها**.

ونحن نعرف أنه يستحيل أن نرى الله أو ملاكاً كما هو أو حتى الشيطان أو الأرواح الأخرى، ولكنهم يتراءون لنا بشكل خاص، إذ أن العناية الإلهية من أجل ضعفنا تُلبِس ما هو ليس بمادة، أو حتى شبه مادة، صورة هيئة ما، لأجل تعليمنا وتفهيمنا عن قرب، لئلا نُمسي في جهل شديد بالله والعالم الروحي، ولئلا ننفصل انفصالاً تاماً عن الروحيات. فالله روح نقي بطبيعته، والملائكة والأرواح بالمقارنة بالله (وهو تبارك اسمه لا يصح مقارنته بأي كائن لأنه هو وحده بلا مقارن) عبارة عن أجسام، ولكن هذه كلها إذا قورنت بالأجسام المادية فهي ليست بذات جسد.

وإذا لم يشأ الله أن يتركنا في جهل عن الأرواح، ألبسها هيئة وشكلاً ومنظراً مقارباً لطبيعتنا يراه العقل بالرؤية العقلية.

١٠٦ – العقول الروحية ليست في حاجة إلى الماديات لتصوراتها الروحية؛ أما نحن فإذ لا زلنا ترابيين، **فإنما نصل إلى الرؤية والاستعلان الإلهي بواسطة المناظر المدرَكة بالعقل.**

١٠٧ – **القراءة وهذيذ الفكر في معاني الكلمات يهيئان طريقاً للصلاة**، ويُعتبران وسيلة صالحة للكفِّ عن الانشغال بالأمور الباطلة.

غرض القراءة هو أن نصل إلى موضوع يسترعي انتباهنا ويحتفظ بهذا الانتباه بلا تشتت؛ أما هذيذ الفكر في معاني الكلمات المقروءة فهو قنطرة العبور من القراءة إلى الصلاة، ثم هو يلازم الصلاة بعد ذلك ليعين الإنسان على الاستمرار في صلاة طويلة. إنه جيد في الصباح أن نعكف بعد الصلاة على القراءة، نقرأ قليلاً لنلتهب؛ **ولكن الحرارة في القراءة ليست هي النهاية المقصودة، ولكن القصد هو أن نصل إلى حالة الصلاة، حينئذ نكف عن القراءة لأن العقل يكون قد كفَّ عن طوافه.**

الأسقف ثيوفان الناسك

١٠٨ – «وفي ناموسه يهذُّ نهاراً وليلا» (مز ١: ٢).

يفوز الإنسان بسعادة كاملة حينما يتقن الهذيذ غير المنقطع وغير المكروب في ناموس الرب. ربما يُعترَض على هذا بأنه (أي الهذيذ) يستحيل بالنسبة لضعف البشرية التي تحتاج إلى أوقات للراحة وأخرى للنوم والأكل، والتي يتعذر القيام بفروض الصلاة أثناءها. ولكن كلمات الرسول تؤكد الأمر: «صلوا بلا انقطاع».

لهذا نرى أن الهذيذ في الشريعة لا يعني قراءة كلماتها أو تلاوتها، **ولكن يتسع معنى الهذيذ فيشمل تتميم أحكام الناموس بالتقوى، ليس بمجرد القراءة ولكن في هذيذ عملي وتدريب على كل واحدة منها وتتميم للوصية بالأعمال التي نعملها سواء في النهار أو في الليل**، كما يقول الرسول: «فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله» (١كو ١٠: ٣١). والطريق لتأمين صلاة غير مضطربة لكل رجل تقي لتكون حياته عبارة عن صلاة «أما أنا فصلاة»، إنما يكون بأعمال مُرضية لله تعمل دائماً لمجده.

وحياة مثل هذه تسير حسب الوصية في كل لحظاتها ليلاً ونهاراً، إنما تصير هذيذاً بالليل والنهار في ناموسه.

الأسقف إيلادي (من بواتييه)

١٠٩ – ليست هي كثرة كلام أو تركيباً منطقياً، بل **تمجيد منتبه في القلب** دائماً في كل موضع وفي كل حين بغير انقطاع (الهذيذ).

أو ذلك النوع الآخر (التأمل بالروح) الذي **يحدث في القلب** بدون هوى (إرادة) بل من الروح، كشبه ينبوع لا يهدأ جريانه ولا ينقطع قط، وهذا يُعطَى لراحة القلب، فيُنعَم به على الذين تعبوا في سجود قدام ربهم وقدموا أعمالاً وتمجيداً محتملين في سبيل ذلك آلاماً كثيرة. ومن هذه الصلاة الدائمة ينبع لهؤلاء المتعبين كلام داخلي لا يُعبَّر عنه، الذي هو أسرار الله الخفية. أما الذين استأهلوا هذه النعمة فهم أولئك الذين تدرَّبوا في الهذيذ الدائم مع الله بغير حركات ألمية (بفرح الإرادة) وبقلوب طاهرة نقية. ومن هذا الباب يدخلون إلى الدهش في نور الثالوث الأقدس - وطبعاً هذا على درجات، **والدرجات بقدر العمل والنشاط**.

الشيخ الروحاني

١١٠ - إن كان لسانك يشتغل بكثرة الحركة فقلبك منطفئ من الحركة الطاهرة؛ أما إذا كان فمك ساكتاً بهدوء **فقلبك حينئذ يغلي بحركات الروح**.

الشيخ الروحاني

١١١ - **سكِّت لسانك ليتكلم قلبك** (الهذيذ)؛ **سكِّت قلبك ليتكلم الروح** (التأمل).

الشيخ الروحاني

١١٢ - أُدخل إلى بيت كنزك يا ابن الأحرار لتجد ذخائرك. أُدخل إلى عُرس ابن الصالح لترث ملكوته، لأن عُرسه مستعد لك **في داخلك**. لماذا تطيش في بلد ليس لك؟ في بيتك الملكوت، لماذا تشحذ كسرة خبز كالجالسين في المزابل؟ فيك مخازن خبز الحياة، ابحث وابصر في نفسك فترى الملكوت داخلك، قم احمله في حضنك مثل مريم أمه، قم استنشق من أعضائه رائحة حياة لك، قم اشخص فيه بنظرك في صلاتك ليختلط فيك جماله داخلك فيطهرك وينقيك ويرفعك ويرقيك. ليكن هو مأكلك بلا شبع كما ذاقه داود فترنَّم بطيبه، ولا تفرغ من عطشك إليه. ليكن لك ينبوع حلاوة دائم. إن كنت تحزن قليلاً في طلبه فسوف تدوم فرحتك بوجوده. وإن كنت بالضيق والدم تشتهي نظره فسوف يشرق حُسنه بالتهليل داخلك.

١١٣ - من تخدم؟ لمن تصلي؟ قدام من تصرخ وتبكي؟ أَليس قدام ذاك الذي به تتحرك وتوجد! أَليس قدام من هو فيك مستريح كما في هيكله! ولماذا لم تشعر بعد بنعيم وجوده فيك؟ **آه من أجل أنك لم تخلط أعمالك بهمة ولم تداوم قدام الواحد غير المنظور**.

قم افتح قلبك للنور لتعاين النور، إذا جلست أو مشيت **مع الطيور فطِرْ** في أجواء طهارته، **ومع الأسماك اسبح** في بحار عظمته، مع شهيق الهواء تنسَّم رائحة قداسته، **ومع كلامك اخلط تقديس اسمه!**

١١٤ - احمله في حضنك **مثل مريم أمه**، ادخل **مع المجوس** وقرِّب قرابينك **ومع الرعاة** بشِّر بولادته، **ومع الملائكة** نادِ بتسبيحه. خذه **من سمعان** الشيخ، واحمله أنت أيضاً على ذراعيك. احمله **مع يوسف** وانزل

به إلى مصر. حين يقوم مع الأطفال اطلبه إليك وقبّل شفتيه، واستنشق منه رائحة جسمه المحيي للكل. كن تابعاً لصُبُوَّته في جميع أدوار تربيته، لأن هذا يمزج فيك محبته بالتصاقك به دائماً، فتفوح من جسدك المائت رائحة الحياة التي من جسده. قف **معه** في الهيكل واسمع كلماته المملوءة حكمة التي خاطب بها الشيوخ حتى انذهلوا من تعليمه. وحين يسأل ويجيب **اصغ إليه** واعجب لحكمته. قف هناك **عند الأردن** واستقبله **مع يوحنا**، وادهش واعجب من تواضعه حين تراه يخفض رأسه ليوحنا ليقبل منه العماد بالماء!

أُخرج معه **إلى البرية**، واصعد معه الجبال، واجلس هادئاً عند قدميه **مع الوحوش** التي جاءت لتتآنس بربها. وهناك **قم معه** لتتعلم الحرب والقتال مع الأعداء.

قف على البئر **مع السامرية** لتتعلم السجود بالروح والحق، وارفع الحجر عن **لعازر** لتتعلم ما هي القيامة من الأموات. قف **مع الجموع** المحتشدة وخذ لك لقمة من الخمس خبزات لتتعلم بركة الصلاة! اذهب أيقظه من نومه في **قاع السفينة** حينما تضطرب الأمواج حولك. ابكِ **مع مريم** وبلّ رجليه بدموعك فتسمع منه كلمة تسند قلبك، ضع رأسك مع يوحنا على صدره لتسمع دقات قلبه الذي ينبض بحب العالم كله!!! خذ لك كسرة خبز من الذي بارك عليه وقت العشاء لتتحد بجسده وتثبت معه إلى الأبد.

قم مد رجلك ليغسلها لك لتتطهر من أدناسك وخطاياك. أُخرج معه إلى **جبل الزيتون** لتتعلم منه السجود وانحناء الركب حتى يتصبب عرقك مثله، قم استقبل معه شاتميك وصالبيك ومد يدك معه للقيود، اهمل وجهك مثله للّطم والبصاق، وعرِّ ظهرك لضرب السياط. قم يا أخي، لا تخزُ، **احمل الصليب** فقد حان وقت الرحيل. مد يدك معه للمسامير ولا تمنع رجليك، اشرب معه المر.

قم باكراً والظلام باقٍ واذهب **إلى القبر** لترى القيامة العجيبة. اجلس **في العلية** وانتظر مجيئه والأبواب مغلقة. افتح أذنيك لتملأهما كلمات السلام التي خرجت من فمه. هيا مع الباقين إلى مكان منفرد واحنِ رأسك لتأخذ البركة الأخيرة قبل الصعود!

الشيخ الروحاني

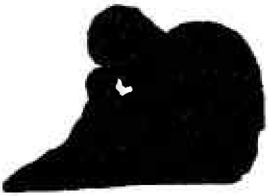

ثانياً : التأمّل

Contemplation

θεωρία

+ «أصلي بالروح وأصلي بالذهن أيضاً» (١كو ١٤: ١٥)

قليل من الناس من يقضي بعض وقته في ممارسة الوجود مع الله، وأقل من هذا القليل من وصلوا بنعمة الله إلى التنعم ببركات التأمل العليا في الصلاة الداخلية. مع أن هذا النوع من الصلاة يُعتبر ثمرة الحياة الروحية وعودة آدم إلى جمال روحانيته الأولى.

لقد تكلمنا عن الهذيذ كأول درجة من درجات الصلاة العقلية (أو الداخلية)، ويصح أن نذكر هنا أنه ليس هناك حدود واضحة تفصل الهذيذ عن التأمل فالدرجتان متداخلتان عملياً. غير أنه يمكن أن يُقال إن الهذيذ هو الأساس الذي تستند عليه الحياة التأملية، كما سيتضح من أقوال القديسين، أو بعبارة أوضح يُعتبر الهذيذ تدريباً للوصول إلى درجة التأمل. وإن كان الهذيذ عبارة عن تنشيط الروح بواسطة القراءة وغيرها، يكون التأمل هو هذا النشاط بلا افتعال. وإن كان في الأول يقع الجهد على قوى التصور والتفكير، فيكون الثاني هو التحرر من كل جهد. فهو النظرة الداخلية في النفس وهو الاستراحة البسيطة في القلب نحو الله.

ومن الخطأ أن نظن أن حياة التأمل معناها أن لا يعمل الإنسان شيئاً سوى أن يتأمل، وإلا كانت حياة التأمل وقفاً على النساك والمتوحدين. ولكن الأمر ليس كذلك، فالتأمل نوع من الصلاة متيسر للجميع وليس وقفاً على أحد، فهو لرجل العالم كما للراهب وهو للمتزوج كما للبتول وهو للشاب كما للشيخ.

والتأمل (التاورية)، في لغة الإنجيل، يُعبَّر عنه بالتفاتة عقلية فيها يتواجه العقل مع حقيقة جديدة فائقة عن المعرفة العادية وعن الإدراك الطبيعي، وهذه الحقيقة الجديدة الفائقة يستشفها الإدراك الإنساني على كل المستويات الفكرية والروحية والوجدانية، ويصحبها غالباً منظرٌ يشرح هذه الحقيقة، يكون من نتيجة حصول الإنسان على درجة إيمانية قوية تفوق المعرفة.

أي أن التأمل في لغة الإنجيل هو وسيلة إيمانية عالية.

هذا المعنى نواجهه تماماً في المواضع الآتية:

(١) رؤية أمور غير عادية تنم عن حقيقة ممثلة، يكون من نتيجتها حدوث تأمل إدراكي ينتهي إلى اكتشاف الحق، وهذا نجده في حادثة دخول بطرس مع يوحنا إلى القبر المقدس ورؤيته فارغاً والأكفان موضوعة في مكانها بلفتها العادية والمنديل ملفوفاً كما هو عند موضع الرأس، مما يشرح في الحال حدوث حالة قيامة الجسد المائت بدون لفائفه. فمنظر القبر الفارغ واللفائف رفع عقل بطرس إلى حالة تأمل مباشر في القيامة. لذلك يصف الكتاب المقدس نظر بطرس الرسول أنه كان في حقيقته ليس نظراً عادياً، ولكنه تأمل (تاورية)، غير أن الترجمة العربية ضعيفة لم توضح هذا المعنى: «ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر ونظر (Θεωρεί تاورية) الأكفان موضوعة والمنديل... وحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر... ورأى فآمن» (يو ٢٠: ٦ - ٨).

(٢) رؤية مخلوقات غير عادية تجعل العقل يدخل في معرفة جديدة غير مألوفة وغير عادية، كرؤية الملائكة، حيث يكون النظر إليهم ليس نظراً عادياً بالعين فقط بل بالعقل غير الحسي أيضاً: «أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي، وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر فنظرت (Θεωρεί تاورية) ملاكين بثياب بيض جالسين» (يو ٢٠: ١١ و ١٢).

(٣) رؤية أشخاص في حالة قيامة حيث تكون حالتهم غير طبيعية تماماً بالنسبة للحواس وبصعوبة يتميزهم النظر، كما في حالة رؤية المجدلية للمسيح: «ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت (Θεωρεί تاورية) يسوع واقفاً و لم تعلم أنه يسوع» (يو ٢٠: ١٤).

وكما في حالة رؤية التلاميذ للمسيح لما دخل العلية والأبواب مغلقة عشية قيامته: «فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا (Θεωρεῖν تاورية) روحاً» (لو ٢٤: ٣٧).

* * *

غير أن المعرفة المتحصلة من التأمل في هذه الحالات لا تكون معرفة عادية يمكن البرهنة عليها بالمنطق العقلي، لأنها تكون فائقة على كل خبرات الإنسان الحسية وكل إدراكاته العقلية السابقة، فالتأمل الروحي في الواقع يضيف خبرات وإدراكات روحية لم تكن موجودة سابقاً تفوق في قوتها ومسرتها كل خبرات وإدراكات العقل العادية. لذلك فبعد التأمل يظل الإنسان غير مصدِّق ما رآه وما أدركه، بسبب الفرح وبسبب عدم وجود برهان منطقي يشرح هذه الخبرات الجديدة، وهذا أيضاً نسمعه في الإنجيل: «أنظروا يديَّ ورجليَّ إني «أنا هو» جسوني

وانظروا (Θεωρείτε تاورية) فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم...» (لو ٢٤: ٣٩ - ٤١).

ونلاحظ أن التعبيرات الإلهية في الكتاب المقدس تفرِّق بين التأمل الواعي الذي يكون في يقظة العقل والحواس سواء كان بمنظر أو بدون منظر، وبين التأمل الذي يكون في غيبة العقل أي عندما يكون الإنسان في حالة غيبوبة روحية.

فالتأمل الواعي أي النظر العقلي الصاحي يسميه الكتاب: Θεωρεία = تاورية، أما التأمل أثناء الغيبوبة الروحية فيسميه الكتاب: رؤية = Αποκάλυψις (أبوكاليبسيس). لذلك نجد أن سفر الرؤيا يخلو بأكمله من أي استخدام لكلمة «تاوريا» أي «تأمل» إذ جعلها مقصورة فقط على نظر الإلهيات بالعقل الصاحي.

وبقدر ما كان الهذيذ يحتاج إلى تعمق في الفحص العقلي وبالتالي إلى نشاط زائد في الذهن والتفكير، بقدر ما يحتاج التأمل إلى هدوء شامل في القوى العقلية والكفّ عن الفحص والتعمق، لأن في الهذيذ يجري العقل وراء الحقيقة ويتقصاها، أما في التأمل فالحقيقة هي التي تبتدئ تحيط بالعقل وتملأه، فبقدر هدوئه وسكوته بقدر ما تسطع فيه الحقيقة الإلهية وتتجلى وتنير.

التأمل، كاختبار روحي، ليس فيه أي شيء زيادة على إمكانيات النفس العادية عندما تكون في وضعها الطبيعي الهادئ. لأن طبيعة النفس الأصيلة تتناسب حسب خلقتها الأولى مع التأمل في الحق الإلهي. وذلك عندما تقف النفس هادئة وصامتة أمام خالقها. والنفس في وضعها العادي والطبيعي لا يُفترض فيها أن تكون إيجابية ولا سلبية، أي لا يُفرَض عليها أي عمل تعمله حتى تُؤهَّل لاستقبال الحق الإلهي، كما لا ينبغي أن تكون منشغلة عن الله بالشرور أو الشهوات أو توافه الأمور وإلا فلا يمكن أن تحس بالحق الإلهي.

فالنفس في وضعها الطبيعي عندما تتخلص من الشرور والأوهام تكون في حالة سهر داخلي ورزانة، ويسميها الآباء: Sobriety = νῆψις، أي لا تكون منشغلة بشيء البتة، حيث يكون القلب في حالة يقظة وانتباه ويسميه الآباء: Attention of the heart = ἡ καρδιακὴ προσοχή

وهذا هو أساس التأمل الذي يؤهِّل الإنسان لاستقبال الحق الإلهي والتأمل فيه، الذي يكون برهانه في النفس هو حصولها على التمييز والتصرف الحسن والحكم على الأمور روحياً، وهذا يسميه الآباء: الإفراز The faculty of discernment = διάκρισις

ولكن لكي تكون النفس صاحية وساهرة، أي غير ناشطة إيجابياً أو سلبياً، حتى تؤهَّل للتأمل؛ فهذا معناه أمران:

الأول: أن تكون النفس غير ممسوكة بأهواء خاصة أو شهوات أو خطايا تمتص اهتمامها وتُفقدها اتزانها، وهذا هو الذي نسميه النشاط السلبي المخرِّب للنفس الذي يُظلم النفس ويحجب عنها الحق الإلهي.

أما طريقة تحرير النفس من عبودية الأهواء والشهوات فهذا يدخل ضمن النسك ἄσκησις = Discipline، والنسك عموماً هو نشاط إيجابي للنفس تقاوم به النشاط السلبي. أي هو التمرين على الفضائل لقطع دابر الرذائل والعادات الشريرة، وهذا التمرين يسميه الآباء بمرحلة العمل: πράξις

الثاني: أن تبتدئ النفس بعد تحررها بأن تهدأ وتكفّ عن كل اهتماماتها وتتخلى عن اعتمادها على نفسها وعلى عقلها في التقرب إلى الله، حيث تصبح الصلوات نفسها لا تعتمد على مجهود ذهني ولا نشاط نفساني قط، بل هي مجرد وقوف صامت وهادئ أمام الله، فيه تستقبل النفس الحقائق الإلهية بدون جهاد وبدون سعي وبدون استقصاء أو جدل فكري، هذه الصلاة يسميها الآباء الصلاة الطاهرة أي النقية من التصورات العقلية προσευχή καθαρά، ويسميها مار إسحق بالصلاة الروحانية. والوصول إلى الصلاة الطاهرة يكون أكبر برهان على نجاح الإنسان في مرحلة العمل والجهاد النسكي، لأن بلوغ الصلاة الطاهرة معناه أن النفس تكون حتماً قد تخلَّصت من النشاط السلبي وأصبحت غير ممسوكة أو مستعبَدة لشيء قط.

ولكن الإنسان لا يبلغ الصلاة الطاهرة بمجرد دخوله في التأمل، بل إن الصلاة الطاهرة تمثل آخر مرحلة من مراحل الجهاد المتواصل أثناء التأمل للتحرر من النشاط الذهني الذي يزيف المعرفة الروحانية ويفسد الحق، والتي بعدها يصبح التأمل تأملاً روحياً بالحق.

ولابد أن يعبر الإنسان على فترات طويلة في صلواته وتأملاته يتشابك فيها الذهن مع الحق الإلهي، ولكن بالمثابرة والبساطة وحرارة المحبة يهدأ الذهن قليلاً قليلاً ويكفّ عن نشاطه معطياً المجال للحق الإلهي لكي يصير هو المتسلط على الذهن وليس العكس: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو ٨: ٣٢).

وطالما العقل متسيطر ونشيط وفعال، فإن الإرادة تظل غير حرة وتكون واقعة تحت الرغبة

البشرية لأن الإرادة تكون دائماً مربوطة بالعقل؛ ولكن عندما يبدأ العقل أن يهدأ ويكفّ تبدأ الإرادة تتحرر وتتجه رأساً نحو الله وتصير تحت تأثير النعمة المباشر، وهنا تدخل النفس مجال الروح فتصير صلاتها وتأملاتها روحانية حيث يشمل النفس نوع من السكينة الإلهية يسميها الآباء: ἡσυχία = Hesychia فيها تتحرك النفس بتأثير الروح القدس كما يقول مار إسحق.

من هنا يتبين أن التأمل أو التاوريا، في وضعه الكامل والصحيح، لا يعتمد على النشاط الذهني بل على العكس يعتمد على مقدار الكفّ عن النشاط الذهني، مع الهدوء والسكوت الداخلي. لذلك فهو في غاية البساطة وفي غاية السهولة، ولا يوجد في جميع ما اختبره الإنسان في حياته الروحية ما هو أسعد وأبهج من التأمل، حتى نعته الآباء بأنه هو الملكوت بسبب عظم السعادة والبهجة والفرح المفرط والمذهل للعقل فعلاً، عندما تقترب النفس من الله وتذوقه.

ولكن بالرغم من بساطة التأمل واعتماده الكلي على الهدوء والكفّ عن كل نشاط ذهني أو نفسي سواء كان إيجابياً أو سلبياً، وكونه لا يتطلب إلا وقوف النفس والذهن في حالة تأهب واستعداد: «مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي» (مز ٥٦: ٧ حسب الترجمة السبعينية)، بالرغم من ذلك فإن كثيراً من النفوس يتعذر عليها هذه البساطة وهذا الهدوء الداخلي كما يتعذر عليها توقُّف نشاطها النفساني والذهني. لذلك لزم في مثل هذه الأحوال أن تُدرَّب النفس على ما يؤهلها للدخول في التأمل.

وهذا التدريب على الدخول في التأمل هو بحد ذاته نوع من التأمل وإنما سوف نسميه «التأمل بالإرادة أو بالتدرب»، أو «التأمل المكتسب».

ولكن يلزمنا قبل الخوض في هذا النوع من التأمل أن ننبه مرة أخرى أن التأمل في أية حالة من حالاته وفي أية صورة من صوره لا يقوم أصلاً على النشاط الذهني ولا يعتمد على أي عمل إيجابي من طرف الإنسان بل هو حالة استعداد داخلي للذهن والنفس لقبول فاعلية الحق الإلهي وسيطرته على الذهن والنفس.

لذلك فإن غاية التأمل الإرادي أو المكتسب يلزم أن تنحصر فقط في الحصول على درجة من الهدوء الداخلي والسكينة الذهنية، وذلك في الواقع يساوي مجرد الوصول إلى مؤهلات التأمل الحقيقي. أي أن التأمل المكتسب بالإرادة هو عملية توصل إلى استعداد حقيقي لقبول حالة تأمل كامل، أي تاوريا روحانية.

هذا التدريب التأملي الذي يوصل إلى التاوريا الروحانية تقليد قديم جداً عند الآباء، نسمع عنه باستمرار في تعليم الآباء الأوائل أمثال القديس مكاريوس الكبير في الأسقيط والقديس ثيؤناس في نتريا الذي أفرد له كاسيان فصلاً كاملاً يشرح فيه دقائقه الروحية.

والتدريب يتلخص في تركيز الذهن في آية صغيرة – ويسمى هنا Monologistos – يظل الإنسان يرددها باستمرار بدون انقطاع ساعات طويلة كل يوم، حابساً العقل في أضيق معنى للآية أو في توسل واحد باسم الرب يسوع – ويسمى هنا Onomatolatreia – لا يخرج عنه قط، وكلما خرج الذهن عن حدوده يرده الإنسان بدون ملل حتى يتعود الذهن الكفّ عن التشتت ويهدأ ويستكين. وبالرغم من أن هذا التدريب كان في زمن الآباء الأوائل مجرد اختبار روحي يوصل إلى السكينة الروحية التي يمكن أن ينطلق منها الإنسان إلى التأمل الروحي الخالص أي التاورية الروحانية، إلا أن الآباء المتأخرين في بيزنطة جعلوه عملاً روحياً منفرداً بذاته ووضعوا له شروطاً فنية وأصولاً وواجبات كثيرة، وتطور حتى أصبح موضع نقاش لاهوتي كبير، ولكن ظل حتى اليوم موضع اهتمام بالغ الحد عند الكنيستين البيزنطية والروسية والكنائس الشرقية الأخرى.

والذي يعنينا في هذا التدريب الروحي هو نجاحه السريع المذهل في تهدئة النفس والمشاعر والأفكار، وربطه للعقل، وحبسه في أضيق حدود الصلاة.

فالغاية الأولى من التدريب هو الدخول في حالة السكينة الروحية: ἡσυχία، لذلك سماه الآباء صلاة «الهيزيخيا»، أي صلاة السكينة، مع ملاحظة أنها صلاة تخلو تماماً من أي قراءة أو هذيذ أو تسبيح أو أي نشاط روحي إيجابي، كما سبق وقلنا.

وفي هذا التدريب بعض الإرشادات الخفيفة الخارجية وضعها الآباء لكي يسهل الوصول إلى حالة السكينة الداخلية مثل الجلوس في مكان هادئ وعدم الحركة وتثبيت النظر العقلي نحو القلب، حتى يشترك العقل أولاً مع القلب في ترديد الصلاة ثم يدخل العقل في النهاية تحت سيطرة القلب ويتوقف حينئذ عن تسلُّطه.

والتدريب بهذا الوقع لا يخرج عن كونه محاولة واجتهاداً للتحرر من العوامل الخارجية والداخلية الضاغطة على العقل والنفس، والتي صارت جزءاً ملازماً لنشاط الإنسان وكأنها طبيعة له تعمل على حرمانه من الهدوء والسكينة الروحية التي كانت أصلاً من صميم طبيعة النفس البشرية.

إذن، فصلاة السكينة بترديد اسم الرب يسوع أو بترديد آية قصيرة حسب ترتيب الآباء الأوائل، كانت محاولة روحية اجتهادية للعودة بالنفس البشرية وبالذهن البشري إلى حالتهما الأولى الطبيعية: حالة السكينة الروحية التي فيها يستطيع أن يسمع الإنسان صوت الله ويرى نوره في القلب، أي حالة تأمل روحي أصيل.

ولعل هذه الغاية هي التي كان يقصدها الرب يسوع من حثه لنا على المداومة في الصلاة بقوله: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُمَلّ» (لو ١٨: ١)، والتي كان يقصدها القديس بولس الرسول بقوله: «صلوا بلا انقطاع» (١تس ٥: ١٧).

وهنا نوجه القارئ للرجوع إلى الباب الثاني، الفصل الثامن، لاستيعاب تدريب التأمل المكتسَب بممارسة الصلاة بلا انقطاع. ونكتفي هنا بالدخول مباشرة في طبيعة التأمل الروحي الصرف أي التاوريا الروحانية: θεωρία.

والتأمل على نوعين كما سبق وأوضحنا:

النوع الأول: وهو الذي يعنينا جداً لأنه عمل روحي يمكن إتقانه والتوفر عليه بالإرادة، ولكنه وإن كان يعتمد على المجهود البشري للبدء به إلا أن الاستمرار فيه يحتاج إلى مؤازرة النعمة.

النوع الثاني: هو هبة كاملة من النعمة في بدايته وفي الاستمرار فيه أيضاً. فهو لا يعتمد على شيء من قِبَل الإنسان: لا أن يوجد في حالة خاصة ولا أن يسعى إليه لا بالشعور ولا بالمشيئة، وإنما هو عمل النعمة حسب مسرة الله بالقدر الذي يختاره وبالطريقة التي يراها. والنوع الثاني من التأمل هو الذي يمتد غالباً إلى حالات ما فوق الصلاة، أي الدهَش في الإلهيات والرؤى والاستعلانات والنبوة والمواهب الفائقة من عمل معجزات وشفاء أمراض.

ولكن هذه الحالات جميعاً متداخلة في بعضها، فالروح يرتفع وينخفض من واحدة إلى أخرى دون أن يتقيد بقاعدة ثابتة. إذ أن هذه الدرجات المختلفة من الصلاة إنما توضح حالة النفس أمام الله ولا تفيد على الإطلاق تحديد موقف الله تجاهنا. فهي اختبارات نجوزها في حياتنا البشرية وليست درجات يتوقف عليها خلاصنا أو تقيِّد الله في تعليمنا. إنما أخذت مجراها في حياة القديسين وساروا عليها فوصلوا بها ووضعوا حدودها ووصفوا طبيعتها لتعليمنا.

التأمل الإرادي

التأمل الإرادي أو التأمل المكتسَب هو التأمل المعروض للجميع سواء كانوا من الإكليروس أو كانوا من ذوي المهن العالمية المختلفة. بل إن التأمل يُعتبر حصناً منيعاً يقي هؤلاء جميعاً من مساوئ الأوساط التي يحيون فيها ويضطرون للعمل بها، لأنه يرفع من مستوى الإرادة ويُخصِب الشخصية ويمدَّها بقوى فائقة من العمق والبصيرة والتمييز ويؤهِّل الإنسان للقيادة.

لذلك تُعتبر المواظبة على التأمل من أغنى الوسائل لبناء النفس وجعلها صالحة لتبوؤ مراكز المسئولية على كل المستويات.

الدخول إلى التأمل:

هناك أمور أساسية لازمة للنفس لكي تدخل إلى حالة تأمل صحيحة ناجحة:

فأولاً، وقبل كل شيء يلزم أن يكون الإنسان غير مُستعبَد للهموم الأرضية أو الخطايا أو العادات الرديئة، أي يكون حراً مجاهداً ضد الخطيئة، والذين اختبروا الهذيذ وساروا فيه يهون عليهم هذا الجهاد. لأن الحديث مع الله من أهم وأقوى العوامل التي تحرر الإنسان وتحرق الخطايا وتبدد شهوتها وسلطانها، كما تعلمنا من أقوال مار إسحق في الهذيذ. إذن، فهنا نكرر أهمية اختبار الهذيذ والسير فيه حتى نصل بنعمة الله إلى حالة من الطهارة والتوبة تليق بالدخول في التأمل الذي سوف نواجه فيه الله وجهاً لوجه، كقول القديس أوغسطينوس. ويمكن تلخيص هذا الدور من الاستعداد بكلمتين: إنكار الذات، والانتصار على الأهواء والشهوات بكل ما فيهما من معانٍ.

ويستحيل الوصول إلى حالات ناجحة من التأمل أو الحياة الروحية على وجه العموم دون بذل الجهد في التلمذة لأعمال النسك والفضيلة، ويقول القديس أوغسطينوس:

[عبثاً نحاول الوصول إلى مواجهة الله بالرؤية إلا إذا تجنبنا أسباب الخطيئة وأعمالها].

ويقول غريغوريوس الكبير في ذلك الأمر:

[على العقل أولاً أن يتنظف من نفخة الكبرياء ومن التلهِّي بمسرات الجسد والشهوات المختلفة وبعد ذلك يستطيع أن يرتفع في درجات التأمل].

ويقول أيضاً:

[وعلى الرجل الكامل أن يتتلمذ أولاً على اعتياد الفضائل وممارستها وبعد ذلك يدخل إلى راحة التأمل.]

ثانياً: من السهل على الذين أخضعوا ذواتهم وانتصروا على الخطايا وشهواتها ولذاتها وتصوراتها أن **يُخضِعوا الفكر أيضاً**. لأن هدوء الفكر من الجولان عامل مهم للدخول إلى التأمل. ويقول غريغوريوس الكبير:

[يتدرب العقل أن يحجب عن عينيه أي خيالات وتصورات سواء كانت أرضية أو سماوية، ويطرد كل الحركات التي تأتيه من خارج أثناء وقوفه للتأمل سواء كانت من جهة السمع أو البصر أو الشم أو حتى التذوق أو الإحساس حتى يتفرغ لأن يطلب نفسه من الداخل كأنه بغير حواس].

ويقول أيضاً:

[إن أول خطوة هي أن يثوب العقل إلى نفسه وينجمع إلى ذاته، والخطوة الثانية أن ينظر ذاته مجموعاً مصلوباً خالياً من التصورات الجسدية، وبهذا يصنع من ذاته سلَّما لذاته ليصعد إلى الخطوة الثالثة التي هي فوق ذاته وهي التأمل].

أما التعليل الفلسفي الروحي لتجميع العقل كخطوة أساسية للدخول إلى التأمل ورؤية الله، فهو أننا لا نستطيع أن نصل إلى الله إلا في أعماق نفوسنا. حقاً أن الله موجود في كل مكان ولكن ليس بالنسبة إلينا، وإنما بالنسبة إلى طبيعته التي تملأ كل الوجود. فليس مكان نستطيع أن نتلاقى فيه مع الله في كل هذا العالم الفسيح إلا في نقطة واحدة وهي داخل نفوسنا. هناك هو ينتظرنا، وهناك يمكننا أن نواجهه ونحدثه، ومن هناك يحدثنا. وفي ذلك يتأمل القديس أوغسطينوس تأملاً رائعاً في البحث عن الله، يثبت فيه أنه لا يمكن أن يجد الإنسان الله إلا في أعماق نفسه:

١١٥ - أنت الدائم إلى الأبد غير المتغير قط.
وهبتني نعمة سكناك في ذاكرتي يوم أن عرفتك.
ولماذا أبحث أنا الآن عنك كأنما تتعدد أمكنة سكناك لي؟

أنا متأكد أنك أعددت سكناك فيَّ منذ ذكرتُك يوم أن عرفتُك.
حيث أجدك عندما أدعوك لتذكرني.
ولكن أين وجدتك عندما تعرَّفت عليك؟
لأنك لم تكن في ذاكرتي قبل أن أعرفك!
أين إذن وجدتُك عندما تعرَّفتُ عليك؟
كنتَ أعلى مني ... هناك في نفسي عميقاً أعمق من عمقي وعالياً أعلى من علوي.
قد تأخرتُ كثيراً في حبك، أيها الجمال الفائق في القدم والدائم جديداً إلى الأبد.
آه! تأخرتُ كثيراً في حبك.
كنتَ فيَّ فكيف خرجتُ أبحث عنك خارجاً عني؟
أنت كنتَ معي، ولكن لشقاوتي لم أكن أنا معك!
فدعوتَ وهتفتَ وأخيراً حطمتَ صممي.
أضأتَ وأبرقتَ ومزقتَ ستار عماي.
أفحتَ عبيقاً، فسرتُ يهديني عطرك، ألهثُ خلفك.
ذقتُ فجعتُ وعطشتُ.
لمستني فاشتعلت النار فيَّ.

ثالثاً: لابد أن يكون هناك دافع من الحب: يصمم غريغوريوس الكبير على ضرورة وجود الحب بدرجة ما للدخول إلى التأمل. ويقول في ذلك:

[إنه يلزم للذين يتوقون للدخول إلى ممارسة التأمل أن يواجهوا ذواتهم بمقدار ما لديهم من الحب. إن قوة الحب هي المحرك الذي يعزل النفس عن العالم ثم يهمُّ صاعداً بها إلى العلو].

ويقول أيضاً: [إن عظمة التأمل لا تُمنح إلا للذين لهم حب].

وسوف يقابلنا في معرض كلام القديسين قطعة رائعة عن الحب للقديس يوحنا سابا تركناها في موضعها واكتفينا هنا بتوجيه النظر إليها.

حالة التأمل

يأتي وقت على الذي يداوم الهذيذ يشعر فيه أنه ابتدأ يتخلى عن اعتماده على استحداث الانتباه الروحي داخله. فبمجرد استعداده الداخلي لمباشرة الصلاة العقلية يجد نفسه قد دخل في عمق الصلاة وتركزت مشاعره وانجمع عقله. إلى هنا نكون قد وصلنا إلى عتبة التأمل؛ دون أن نبذل جهداً ما لا بقراءة ولا بتصور ولا بحديث ما ... وبذلك تكون الصلاة قد أصبحت طبيعية ولا تحتاج إلى استحداث شيء ما من أي نوع. إذ أن الدخول السريع إلى عمق الصلاة والشعور بوجود الله معناه أنه قد توطدت علاقتنا مع الله واتسعت الفترة القصيرة التي كنا ننعم بها في الهذيذ بوجود الله حتى شملت الفترة كلها التي نقضيها في التأمل. وهذا معناه أننا دخلنا في نوع جديد من الصلاة أبسط من الأنواع السابقة. ولكن الصعوبة كل الصعوبة في الاقتناع ببساطته. فيوم تقتنع بذلك وتنفي عنك كل الأوهام بأنه أمر روحي عالٍ، فسوف تسير فيه قُدُماً.

وكما أنه تدريب سهل بسيط، كذلك يحتاج إلى نفس سهلة بسيطة تستطيع أن تسير ولا يهمها إلى أين تسير أو كيف تسير. إذ يشبهونه بالسير في الظلام بإيمان بسيط مبهم دون استعمال الحواس أو التفكير أو التصور، كأعمى ترشده للسير في طريق خالٍ من العثرات والعوائق وليس له حدود عن يمين أو يسار وقلّ من يسير فيه. فإذا كان ذلك الأعمى بسيط القلب سليم الضمير هادئ التفكير قليل التصور، فإنه يسير بإيمانه بلا اضطراب سيراً حثيثاً لا تفرقه عن سير البصير. أما إذا كان ذلك الأعمى فيلسوفاً معقد التفكير كثير التشكك والتصور، فإنه يمشي يتحسس بعصاه، وإذ يتهيأ له وجود حُفَر وحواجز ووحوش يتعثر في مشيه ويؤثر الجلوس عن المسير. هكذا طريق التأمل فهو طريق سهل ويحتاج إلى نفس سهلة تؤمن بسهولة وتسير بهدى ذلك الإيمان.

فبمجرد أن تهدأ نفسك للصلاة وتكون حواسك مهتدية إليك وعقلك منجمعاً إلى ذاته، تتسلل النفس قليلاً قليلاً لتتحرر من هذه الحواس جميعاً ومن شغب العقل أيضاً. وكأنما هي ترتفع عن الجسد ليس من حيث البعد والمكان وإنما من حيث المستوى والكيان. فتتأمل في ذاتها ملتصقة بإحدى الحقائق الروحية أو صفات الله، وفي أثناء سيرها تصادفها أشياء جديدة

وحقائق عجيبة بعضها يدركه العقل وبعضها لا يدركه العقل، فيعتري الإنسان شعور لذيذ من الفرح والعجب والسرور معاً، إذ يرى نفسه وقد استُؤمنت على حقائق وأسرار مخفية. وبذلك يزداد الإيمان وتزداد الثقة وتلتهب الحرارة من فرط هذا الشعور، فيقوى الرجاء وتنشط الروح وتجاهد لتمتد أكثر في ذلك الطريق السهل الصعب، إلى أن تقترب من مصدر هذا النور الذي يوحي بكل هذا الشعور، حتى إذا واجهته، في لحظة، يقف العقل وتبطل الحواس جميعاً وتقع النفس في دهش من ذلك الشيء الذي يصفه القديس أوغسطينوس بأنه الشيء الذي لن يعتريه التغير: الله.

ولكن إذا توقف العقل في أثناء تطوافه الهين السهل، وأخذ يبحث في إحدى الحقائق المعروضة عليه ويناقشها باهتمام، فإن التأمل يقف في الحال وينتهي عند ذلك الحد؛ ويكون من العبث حينئذ أن يحاول الإنسان مواصلة التأمل إذ يكون العقل قد ارتد إلى الوراء واختلطت المشاعر وسادتها الفوضى من جديد.

لذلك، ففي أثناء ابتدائنا بالصلاة سواء بالهذيذ أو بالتأمل، بمجرد أن يشتعل القلب بالحب وتسري في النفس لذة الانطلاق، علينا أن نضع جانباً كل الوسائل التي نستخدمها في الصلاة سواء كانت قراءة أو تفكيراً أو مزامير أو سجوداً، ونصمت هادئين وننتظر بفرح انطلاق النفس، ولا نحاول أن نستمر أو نفكر في هذه الوسائل لأنها سوف تعطل انطلاق النفس والدخول في درجة التأمل. كمثل الذي يدير محرك سيارته بيده، فأول ما يستجيب المحرك وينطلق في دورانه أليس من العبث أن يستمر هو في تحريك يده؟ عليه إذن أن يفرح ويركب لينطلق في تجواله.

وهكذا نكون قد انتقلنا إلى حالة صلاة هي بالروح أكثر منها بالقلب أو العقل. فبدل أن كنا نحدِّث الله بكلامنا ومشاعرنا، وقفنا نحن أمامه ليتحدث هو إلينا، لا بكلام ولا بحديث، ولكن بأمور لا يُنطق بها، لا تحتملها أُذن، ولا تراها عين، ولا تخطر على قلب بشر، كتعبير القديس بولس الرسول، الذي اختبر أعلى درجات التأمل والاستعلانات. ويكون شعورنا في ذلك الوقت: «مستعدٌ قلبي يا الله مستعدٌ قلبي» (مز ٥٦: ٧ حسب الترجمة القبطية، وهو المزمور الثاني من مزامير صلاة الساعة السادسة في الأجبية المقدسة).

وحينما نتقدم في تأملنا قليلاً قليلاً، يصبح استعداد العقل والحواس والقلب للدخول في

التأمل أمراً اعتيادياً لذيذاً نسعى إليه كل حين في يُسر بغير عناء، وبذلك تصبح صلاتنا حارة بل ملتهبة حباً وشوقاً. ويصبح وجود الله حقيقة ملموسة للنفس حتى أنه قد يتراءى لبعض الناس في هذه الدرجة بعض المناظر، ولكن يظل الإنسان في شك أنه لم يرَ شيئاً، إنما الحقيقة التي لا غش فيها أن الله يكون حاضراً بالفعل أمامنا ونحن ملتصقون به وإن كانت لا تدركه الحواس الداخلية إدراكاً كاملاً، ولكن يكون أثره واضحاً في النفس، إذ تكون منفعلة انفعالاً لذيذاً لم تسبق أن ذاقت مثيلاً له من قبل. وتبطل حركات الشعور والتفكير، ويكف العقل عن جولانه، ويهدأ كل شيء ويصمت في انتظار القادم ليعطوا له الكرامة، كقول القديس مار إسحق.

وبينما تكون النفس تنتظر حبيبها كأنه آتٍ من بعيد متلهفة لتراه وهو قادم إليها، إذ تشعر به فجأة وقد حلَّ داخلها دون أن تراه، فتمتلئ النفس حلاوة وسروراً. فتحاول النفس أن تتبين حبيبها ولكن كأنما قد وضع يديه فوق عينيها فلا تراه، إلا أنها تشعر به وتلتهب حباً وسروراً وهي واثقة أنه هو هو الله. تحاول أن تفهم شيئاً من هذا كله، فيقف العقل عاجزاً والحواس شبه نائمة لا تتبين شيئاً. هذا هو الاتحاد العجيب. وهكذا تقف النفس قانعة بما يحدث لها، ولكن خائفة لئلا تفقد هذه السعادة المبهمة.

وفي أثناء هذا يفصل الإنسان عن العالم سحابة خفيفة عازلة، فإذا حدث شيء حوله، كأن يناديه إنسان، فهو يسمع الصوت ولكنه بمشقة عظيمة يستطيع أن يردَّ، بنوع من التلقائية. فكأنما هو مغلق عليه في هدوئه العظيم المقدس لا يملك أن يخرج منه ولا يرغب في ذلك بشدة.

تمر دقائق وربما ساعات دون أن يشعر بها الإنسان وهو مستريح في تأمله.

انتهاء التأمل:

ينتهي التأمل ولكن بعض آثاره تستمر في النفس عدة أيام، هدوء يشمل الأعضاء جميعاً، فكل حركة يأتيها الإنسان تكون بطيئة والتفكير صعب التركيز، فيه روية كثيرة والنظرات ثابتة ساهمة، وإعراض كثير عن الاشتراك في الحديث أو المجاملة. وفي أثناء هذه المدة ربما تتكرر حالات الدخول إلى التأمل، ثم تنتهي هذه الحالة على أن لا يعود إلا بعد فترة طويلة ربما تطول إلى سنين. ولكن توجد نفوس مهيأة للتأمل، فإذا لم تعوقها المعوقات الأرضية فيمكن أن ترتاد التأمل يومياً وباستمرار، كما هو الحال مع القديس مكاريوس الكبير الذي كتب عنه پالليديوس

وسيرابيون المعاصر له أنه كان لا يوجد إلا في حالة ذهول وتأمل مستمر، وكان يحتاج كل من يريد أن يتحدث معه أن ينبهه حتى يستطيع أن يأخذ منه إجابات روحية.

في هذا العرض السريع لهذا الاختبار الروحاني العميق نكون قد مررنا مروراً على حالات التأمل ونكون قد تلامسنا، في قليلٍ، مع حالات ما فوق الصلاة وهي بداية درجة الذهول والدهَش بالإلهيات التي سوف نفرد لها فصلاً كاملاً. وإليك أقوال القديس مار إسحق في معنى الدخول في درجة التأمل المغبوطة:

١١٦ – أهِّلني يا رب أن أعرفك وأحبك لا بالمعرفة الموجودة في تشتت العقل الحادثة من تعليم الكتب، بل أهِّلني لذلك العلم الذي به يعرفك العقل عندما يزول منه الإحساس بالعالم ويرتفع عن التصور والإرادة، فيستنير بك برباط الصليب ويمجد طبيعتك بحرية النظر إليك والاتصال الدائم بك.

١١٧ – إذا ما تحرك العقل في الأمور الروحية بنعمة الله تعالى، فلأجل لذة الفرحة بتلك المعرفة يتخلف عن الهذيذ والتذكار ويقف ساكتاً متعجباً. هذا هو بداية الدخول في التاورية الإلهية (التأمل).

مار إسحق السرياني

ويُعتبر تأمل القديس أوغسطينوس في المزمور ٤٢ عرضاً شاملاً لحياة الصلاة الداخلية. فهو يبتدئ بالهذيذ، ثم تلتهب النفس فتعبر إلى التأمل، ويرتفع التأمل إلى الرؤية، وكلام القديس أوغسطينوس ليس شرحاً أو تعليقاً ولكنه صلاة ودموع، فهو قطعة خالدة من عمل الروح، وتوافقٌ نادر بين القلب والعقل والقلم. ويلاحظ أن هذا المزمور بالذات كان موضوع تأمل سابق للقديس أنطونيوس وبنفس المعنى. ونجد تلميحاً على ذلك في الرسالة رقم ١٧ يقول فيها:

[إني سأجوز في موضع مظلته العجيبة (خيمة الرب) إلى بيت الله: فهذا العبور يُظهر لنا نمو النفس، لأن النبي يذكر هنا أنها بلغت الكمال بوصولها إلى بيت الله كونها قبلاً كانت بعيدة عن الله.] أبا أنطونيوس – رسالة ١٧

وعلى نفس النمط تماماً يشرح لنا القديس أوغسطينوس هذا النمو الروحي للنفس حتى يصل بها إلى الكمال أي الوصول إلى بيت الله في الأعالي بالدهَش الذي هو نهاية التأمل:

١١٨ – «كما يشتاق الإيَّل إلى ينابيع المياه، كذلك تتوق نفسي إليك يا الله».

نص رقم ٢ – عنوان هذا المزمور (مزمور للمعرفة)، ولكن أي معرفة يقصدها داود؟ تعالوا يا إخوتي اشتركوا في غيرتي وافهموا اشتياقي، ليتنا نشترك سوياً في الحب ونتقاسم ذلك العطش ونسرع جميعاً إلى ينبوع

هذه المعرفة، نتوق إليها كما يتوق الإيَّل (ذَكَرُ الغزال الذي يقود قطيع الغزلان) إلى ينبوع المياه... هو ينبوع النور وينبوع المياه وهو ينبوع المعرفة أيضاً يملأ النفس المتعطشة إلى المعرفة بالنور والماء. نوره غير متجسم لا يُرى من خارج، فهو نور داخلي لا يُستعلن إلا للذين يسعون وراء المعرفة!

اسعوا يا إخوتي إلى الينابيع واشتاقوا إلى المياه، فالله هو ينبوع الحياة الذي لن يجف ونوره لن يُطفأ. اشتاقوا، إذن، إلى هذا الينبوع الحي والنور الذي يُستعلن لعين القلب الداخلية.

نستقي من ينبوعه لإرواء عطشنا الداخلي حينما يشتعل فينا، اسعوا... اسعوا إلى الينبوع وتوقوا إليه ولكن لا تسعوا إليه كما يسعى أي حيوان، ولكن كالإيَّل في سعيه.

نص رقم ٣: فالإيَّل عدو الأفعى، وهو حينما يصارعها ويأتي عليها فإنه يلتهب عطشاً فيعدو عدواً ليروي ظمأه... آه! فالأفعى هي الشرور والخطايا والآثام أعداء حياتنا، فعليك أن تأتي عليها جميعاً وحينئذ تلتهب عطشاً إلى ينبوع الحق. ولكن طالما كنت غارقاً في شرورك وشهواتك وزناك فكيف يوجد فيك اشتياق للحق يدفعك أن تجري إلى ينبوع المياه، أو كيف تشتهي ينبوع الحكمة وأنت تقتات من سم الدنس؟

عليك أن تطهر ذاتك مما هو ضد الحق. فإذا رأيت نفسك تنقَّت من الشرور والشهوات فلا تقف جامداً كأنك قد وصلت، لا زال يوجد أمامك مرتفَع عليك أن تتسلقه بعد أن ألقيت وُثُق خطيتك عنك، فلم يعد فيك عدو يعيقك أو يمنعك... قم أسرع إلى ينبوع المياه الذي أعده الله لإنعاشك وإروائك عند وصولك إليه لاهثاً كالإيَّل المسرع في عَدْوه بعد انتصاره على عَدُوِّه...

نص رقم ٥: ولكن لا يزال الإيَّل يعدو على رجاء، فهو لم يصل بعد إلى ما يرجوه، فعليه أن يحتمل هُزء أعدائه، في الطريق يسخرون من رجائه غير المنظور وهو يتحرق غيظاً لأنه لا يستطيع أن يريهم ما يرجوه «أين إلهك؟» (مز ٤٢: ٣ و ١٠).

نص رقم ٧: أَهذُّ الليل والنهار، أُفتش عن الله حتى أجده لكي لا أومن فقط بل أراه!! وها أنا لا أرى إلا الأشياء التي قد صنعها بقدرته أما هو فلم أره بعد...

يبحث عقلنا عن الله ويفتش عن الحق الذي لا يتغير أو يتبدل وعن الشيء الذي لا يسقط أبداً. ولكن العقل ذاته ليس من هذه الطبيعة، فكيف يدرك ما هو فوق طبيعته؟ فالعقل يتغير من تقدم إلى تأخر ومن معرفة إلى جهل ومن ذاكرة إلى نسيان... إن عقلاً يكون من طبيعته هذا التقلب لا يستطيع أن يتوافق قط مع طبيعة الله...

نص رقم ٨: أبحثُ عن الله في المنظورات والمخلوقات فأجد آثاره ولا أجده، أعود إلى نفسي عسى ألمس طبيعته فيَّ فلا أجده، فإلهي شيء أعلى من نفسي... إذن، فلكي أصل إليه، عليَّ أن أذكر هذا كله وأنطلق بنفسي فوق ذاتي: «ذكرتُ هذا فاستفاضت عليَّ روحي» (أي خرجَت مني) (مز ٤٢: ٤). وهل أستطيع

أن أصل إلى ما هو فوق نفسي إذا لم أتحرر أولاً من ذاتي؟ ... إذا استراحت نفسي فيَّ قانعة براحتها فلن تنعم برؤية ما هو فوقها «متى أجيء وأنظر وجه الله»! لأن في اكتفائها برؤيتها لذاتها امتناعاً أكيداً لرؤية الله.

يصرخ أعدائي «أين إلهك»! بلى دعهم يقولون، فطالما أنا لا أراه فسعادتي معطلة «صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً» (مز ٤٢: ٣).

أعود أطلب إلهي في كل ذي طبيعة جسدية، أرضية كانت أو سماوية، فلا أجده... ثم أعود أبحث عن طبيعته فيَّ فلا أجده... ولكن بينما أنا في حيرتي أبحث عن الله وعن أموره غير المنظورة المدرَكة في المخلوقات... «ذكرتُ هذا فاستفاضت عليَّ روحي» (أي فاضت وخرجت مني)، فلم أعد أدرك من ذاتي شيئاً سوى الله: هناك من فوق نفسي حيث يتطلع إليَّ ويراني، هناك حيث يدبرني ويهيئني، من هناك يحبني ويدعوني ويقودني في الطريق إليه حتى النهاية.

نص رقم ٩: «أجوز في خيمته العجيبة حتى إلى بيت الله» (مز ٤٢: ٤).

ذاك الذي هيأ له بيتاً بالسر في الأعالي، له على الأرض أيضاً خيمة ... هي الكنيسة ومنها نطلبه، ومنها يبتدئ الطريق إلى بيته العالي...

كم أنا أبجّل ما في خيمته: نصرة النفس على الذات، مع فضائل خدام الله... ولكن إن كنت أقف عند حب هذه الفضائل وتمجيدها فأنا لا زلت أسيراً في حدود خيمة الله...

إني أجوز هذا أيضاً ولو أنها خيمة عجيبة حقاً - وآخذ طريقي حتى أصل إلى بيت الله! هناك أدهش في مقادس بيت العلي حيث ينبوع المعرفة... وبذلك يكون داود قد انتقل بنا من عَجَب الخيمة (أي فضائل النفس)، إلى دهشة البيت العالي (أعلى درجات التأمل).

وهو يأخذ الطريق من الخيمة (أي يبتدئ بالفضائل) يقوده شغفه بالله وفرحه السري الداخلي، ويسير كأنما يدعوه من هناك من مقادس العلي نغم موسيقي شجي، فيجوز الخيمة يقتاده ذلك الصوت الداخلي وبحلاوته يسير على هداه، مُعْرِضاً عن ضجة اللحم والدم، يشق طريقه عالياً حتى بيت الله...

ينتقل داود من الخيمة إلى البيت وكأنما يقول: أنتم تبجّلون الخيمة هنا على الأرض (أي الفضائل التي تعملها النفس بالمجهود الجسدي) وهذا جميل، ولكن كم يكون إعجابكم ودهشتكم حينما تأتون إلى مقادس بيت العلي؟

«بصوت تهليل وتسبيح ولحن المعيِّدين» (مز ٤٢: ٤).

هناك في بيت الله وليمة لا تنتهي قط، حيث زمرة من الملائكة يعيِّدون بسرور وفرح عيد الأبدية الذي لا ينتهي في حضرة وجه الله. من هذه الوليمة تخرج أنغام رقيقة عذبة تسمعها آذان القلب فتنجذب إليها،

إذا لم تطغَ عليها أصوات ضجيج العالم وشغبه.

وبينما يسير داود في الخيمة متفكراً في أعمال الله العجيبة لفداء المؤمنين، إذا بأذنيه الداخليتين تسمعان صوت الوليمة، فيفتتن به ويحمل قلبه بعيداً بعيداً هناك حيث مجاري المياه.

نص رقم ١٠: ولكن فساد الجسد يعترض مسير العقل ويدفعه إلى أسفل، وحتى إذا استطاع أن يبدد عنه سُحب ظلمة الجسد الكثيف التي تحيط به، ويصل إلى مصدر النور فإنه بالجهد يفوز بأن يستطلع شيئاً من هناك، من بيت الوليمة... إذ أن شغب الجسد يدفعه إلى أسفل فينحط إلى مستواه الأول ويتبدل الفرح والتهليل إلى حزن أسيف... لذلك فقد «صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً»... ويئن إذ يشعر أنه لا زال تحت الموت يحمل ثقل هذا الجسد المتهالك ويعاني إساءات هذا العالم.

يعود فجأة فينظر إلى نفسه كأنما هو عائد من هناك من ذلك العالم الآخر السعيد فيقول لنفسه: «لماذا أنتِ حزينة يا نفسي ولماذا تزعجينني؟» (مز ٤٢: ٥)، هوذا أنا لساعتي كنت أنعم بمسرات داخلية، وبعينيَّ لمحت ذلك الشيء الذي لن يعتريه تغيير قط: الله. لماذا أنتِ تزعجينني، ولماذا أنتِ منطرحة، وها أنتِ تثبَّتِّ من الله فلن تعودي تشكِّين بعد... أنتِ لستِ عاجزة الآن أن تردِّي علي أعدائكِ حينما يصرخون نحوكِ: «أين إلهك»، فقد رأيتِ الآن ما لن يتغير.

وكأنما ترد عليه نفسه في داخله: لماذا أُزعجكَ إلا لأني لست بعد هناك، حيث السرور الذي ذُهلت به وكأنما مرَّ وعبر.

ألا أخاف وأنا لا زلت أشرب من مياه معطشة؟

أو ألا أهتم بشيء كأنما قد أخضعت أهوائي مع شهواتي؟

أليس عدوي قائماً أمامي يراقبني؟

كيف لا تريدني أن أزعجك وأنا لا زلت في هذا العالم في طريق غُربتي بعيداً عن بيت الله!

أوغسطينوس

تعليق:

انظر كيف كشف القديس أوغسطينوس السر المخفي في هذا المزمور العجيب، مبيناً كيف تنقَّل داود من الهذيذ إلى التأمل حتى إلى الدهش ورؤية الله.

ونلخص المبادئ التي تناولها تأمل القدس أوغسطينوس في المزمور فيما يلي:

النص رقم ٢: هنا يثبت اشتياق النفس الطبيعي نحو الله، وشهوة البحث عنه التي تطغى على النفس فتهيم به باحثة عنه في كل الوجود ... والاجهاد والإعياء الذي يعتري النفس في البحث عن الله غير المنظور بين المنظورات ... وهكذا يُثبت القديس أوغسطينوس من اختبار داود النبي ضرورة البحث عن الله أولاً في مخلوقاته. وأهمية هذا الاجتهاد كبداية وأساس لانطلاق الروح في التأمل بعيداً عن الذات والمنظورات، ويشرح أهمية النور الذي يعمل في الداخل عند الباحثين عن الله بالحق، وكيف يقودهم ذلك النور وذلك الهاتف من العالم إلى الفضيلة ثم إلى الله.

النص رقم ٣: وضع أساساً هاماً للدخول إلى المعرفة الروحانية والتأمل الروحي، وهو تنقية النفس من الخطيئة، بحيث يمكننا أن نحكم على حالة التأمل أنها حقيقية أم كاذبة باختبار الطهارة وخلو الإنسان من الخطايا والشهوات، فلا يمكن أن تقوم حالة تأمل صحيحة طالما كانت هناك خطايا متشبثة بالإنسان. لأن الحياة الروحانية هي ثمرة الحياة النسكية: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت ٥: ٨).

النص رقم ٥: يكون الإنسان قبل الدخول في التأمل في حالة رجاء فهو يرجو أن يرى وهذا عامل مهم.

النص رقم ٧: حالة هذيذ يبحث فيها عن الخالق بين المخلوقات.

النص رقم ٨: عجز العقل عن إدراك طبيعة أعلى من طبيعته والتزامه بالخروج عن ذاته.

النص رقم ٩: الوصول إلى حالة قبل التأمل مباشرة وهي تأمل الفضائل والمواهب التي تُمنح لخدام الله، ومن هذه النقطة يتقدم إلى عتبة بيت الله. وهكذا يوضح القديس أوغسطينوس أن الدَّفعة التي سببت انطلاق النفس إلى الدرجة الأعلى منها هو تأملها في القداسة والفضيلة التي هي رباط النفس بالله، فهي نقطة التحول الحقيقية بين النفس والله. وهذه وجهة نظر فريدة يشترك القديس أوغسطينوس مع داود النبي في إظهارها وتوضيحها.

بعد ذلك يدخل في عمق التأمل، ومواجهة الحواس الداخلية لحقيقة النور وبطلان حركتها وتوقف العقل والدخول في الدهش.

النص رقم ١٠: سرور النفس الداخلي وانكشاف الأمر للعين العقلية لترى، ولكن إلى

لحظة، كلمحة عابرة. هنا جوهر التأمل ونقطة الوصول، ورؤية الشيء الذي لن يتغير.

ثم إنهاء التأمل بالرجوع الأسيف إلى الحالة الأولى بدافع ثقل الجسد وإلحاح الحواس ثم لهفة النفس للحياة هناك.

أقوال الآباء في التأمل:

١١٩ – أنت تقول يا أخي لماذا لا أبصر هذه المزمعات، ولا أفحص أنا أيضاً الخفيات، ولا أفهم هذه الأسرار المجيدة؟... اسمعني يا أخي لأقول لك ما هو سبب عدم حصولك على هذه الخيرات، بالحقيقة أيها الحبيب لا يوجد عقل ناطق إلا وقد خُلق ليكون ناظراً لجميع ما كان وما سيكون لولا أنه عميَ بهذه المنظورات، لا يوجد قلب لإنسان إلا وقد جُعل ينبوعاً للأسرار الخفية التي في حضن الآب لولا انحراف طريقه نحو الآلام النجسة، لا يوجد لسان لإنسان لم يخصَّص للنطق بالعجائب شبه الله ولكشف أسراره الخفية لولا انحجابه عن هذه بالسيئات. ولا توجد نفس لإنسان إلا وقد جُعلت لتحتضن المسيح فيها لولا تنجُّسها مع أعدائها بانحلالها... ولكن التوبة تلد لها بنيناً جدداً شبه الله.

الشيخ الروحاني

١٢٠ – حينما تقرأ كلمة الله في خشوع في الخفاء، تتيقظ النفس لخطاياها ويجوز فيها سيف من الحزن، ووخزات في الضمير، فلا تستطيع إلا أن تبكي فتغسل أوزارها بدموعها.

وأيضاً حينما تؤخذ بنعمة التأمل وترى أشياءً عليا، فمن فرط اشتياقها تنساب في بكاء حلو وتجد في الدموع عزاءها إذ أنها لا تستطيع أن تدوم في التأمل طويلاً.

غريغوريوس الكبير

درجة الحب:

١٢١ – أولئك الذين أشرقتَ عليهم بشعاع من حبك لم يحتملوا السُّكنى بين الناس، بل ألقوا عنهم كل حب جسداني وتغربوا عن كل شيء في طلب المحبوب، نزعوا كل أفراحهم وذهبوا يلتمسون طريق الحبيب بالدموع؛ بكوا لما وجدوا أنفسهم في الطريق غير مستأهلين لجمال المحبوب... نفضوا كل لذة جسمية، ونبذوا كل تمتع بشري، وأحبوا الشقاء والتعب، ليحنِّنوا قلب الحبيب عليهم!

تركوا الأب والأم والأخ والصديق، وسعوا خلف الغَني بحبه، لأنهم أدركوا أن في قلبه لهم حباً كثيراً،

وفي محبته لهم عزاء يفوق كل عزاء! ساعة أن أدركوا شهوة حب الوحيد ما صبروا أن يبقوا في أفراح العالم لحظة، ولما لم يجدوا عندهم شيئاً يليق بتقديمه إليه قدموا ذواتهم بالحب على مذبحه، وأسلموا أجسادهم حتى الموت فرحين، إذ وجدوا شيئاً يقدمونه إليه!

يجرون في طريق الأحزان بلا شبع، ويسرعون حاملين تعاذيبهم، صلبوا الأعضاء مع الشهوات مسرورين، وشربوا مرارة المرّ متلذذين. آه منك أيها الحبيب! لقد سلبتَ منهم كل شيء، حتى ذواتهم، فلم يشعروا أنهم أحياء بل المسيح هو الحي فيهم... حينما تحيط بهم الشدائد من كل جهة لا يرغبون فيما يعينهم على الخلاص بل يطلبون المزيد مع قوة للاحتمال من أجل المحبوب!

هؤلاء سكروا بالحب، ولما سمعوه يقول: «طوبى للباكين الآن»، لم يكفُّوا عن البكاء!! مَن هذا الذي اشتعل بالحب فانشقَّ قلبه وخرج منه ينبوع مياه الحياة؟ فلما لم تحتمله ركبتاه في الصلاة خرَّ على وجهه، وكلما قام سقط، ومن حرارته انفلقت مقلتاه فخرجت منهما ينابيع دموع ملتهبة أحرقت الخدود بحرارتها وانحدرت على الأرض فغسلت لعنتها.

إيه أيها الحب الإلهي! رفعتَ النفس حتى أجلستَها في نور خالقها وطهرتها حتى تشبهت بسيدها، فاستأنست الوحوش بها، وإذ رأت فيها صورة خالقها لم تكفّ عن أن تستنشق رائحته.

وليست الوحوش وحدها هي التي خضعت لها، بل والشياطين أيضاً فزعت لما رأت النفس مستنيرة بالحب وولّت لما رأت فيها صورة سلطان الله.

الشيخ الروحاني

١٢٢ - إذا وُجِدت النفس في طقس طبعها الأول كانت في العلاء، أما إذا كانت خارجاً عن طبعها ففي أسفل الأرض تكون.

باسيليوس الكبير

١٢٣ - لا تتسرع إلى التأمل طالما هو ليس وقت التأمل. حتى يأتيك هو ويضبطك وأنت في جمال التواضع ليتحد معك إلى الأبد بالروح للطهارة.

الأب يوحنا الدرجي

١٢٤ - حالتان متغايرتان توضحان غِنى النعمة العظيم الذي يعمل بطرق مختلفة في كل واحد حسب قياسه: فواحد تهبه النعمة غيرة حادة فيضاعف ويزيد من عدد صلواته، وآخر تهبه النعمة هدوءاً في نفسه يشمله تماماً حتى أنه يضطر لاختصار صلواته الكثيرة إلى صلاة واحدة قصيرة يرددها في هدوء.

مار إسحق السرياني

١٢٥ - كل الأشياء التي تصادف الحواس هي ظل لحقيقة النفس. يوجد إنسان آخر داخلنا خلاف ذلك

المنظور لنا قد أعمى الشيطان حواسه، ويسوع جاء ليجعل ذلك الإنسان الداخلي صحيحاً معافى.

أبا مكاريوس الكبير

١٢٦ - كل أنواع وترتيبات الصلاة التي يصلي بها الإنسان لله، حدُّها الصلاة النقية؛ معظم القديسين يقولون إن عقولهم تُخطف أثناء الصلاة، وتعبر حدود الصلاة المعروفة وتصل إلى الذهول والدهَش حيث يتوقف الإنسان عن الصلاة. الصلاة تختلف عن التأمل ولو أنهما يتسببان من بعضهما، وفي التأمل يصل الإنسان إلى الرؤيا حيث يبقى الشخص بلا حراك.

مار إسحق السرياني

١٢٧ - القديسون في العالم الآتي لا يصلُّون، لأن العقل قد ابتُلِع منهم بالروح. وهم يسكنون في الدهَش في ذلك المجد الإلهي.

مار إسحق السرياني

١٢٨ - التأمل الحقيقي هو إماتة القلب. فالقلب المائت بالتمام عن العالم هو بالكمال حي بالله.

مار إسحق السرياني

١٢٩ - الشعور بالفرحة أثناء الصلاة، خلاف الرؤية أثناء الصلاة، والأخيرة أرفع من الأولى كما يمتاز الرجل البالغ عن الولد الصغير. إنه يحدث أحياناً أن الكلمات تصير حلوة في الفم حتى أن كلمة واحدة تملأك سروراً، ومن فرط الشعور بعدم الشبع لا يدعك أن تتركها إلى ما بعدها. ولكن حينما يدخل الإنسان في التأمل يجعل الصلاة بكلماتها تتلاشى من الشفاه. والذي يُؤهَّل لهذه النعمة يشعر أنه بلا جسد من فرط عدم الشعور به ومن الذهول الذي يغشى العقل الواعي. هذا ما نسميه الرؤية في أثناء الصلاة وليس هو صورة أو شكلاً من تزوير الخيال كما يتراءى للجهال.

وحتى هذه الدرجة تُدعى صلاة لأن الفكر لم يعبر تماماً ذلك الحد الذي يفصل الصلاة عما هو أعلى منها، لأن حركات اللسان والقلب أثناء الصلاة هي مفتاح لذلك الشيء الذي من بعده يكون الدخول إلى موضع الكنز، حيث يكفّ اللسان وتجمد الشفاه ويهدأ القلب ويقف العقل عن طوافه وترتخي الحواس ويعجز الفكر عن التحليق... يقف الكل بلا حراك، والصمت يسود مملكة الإنسان الداخلية لأن السيد قد حلَّ في هيكله.

مار إسحق السرياني

١٣٠ - يوجد إحساس روحي يتولد من الهذيذ فينعِّم القلب ويُفرح النفس ويبهجها، ويوجد إحساس تلقائي آخر يحل في النفس بسبب المعرفة الحادثة من الهذيذ وذلك من فرط محبة المعرفة للأمور الروحية والتقدم في الحديث مع الله بمخافة، وانشغال الضميرِ بمحبة هذه الأشياء، ويكون ذلك من التقدم في الهذيذ الحسن الذي لأجل الله والهمِّ بالإلهيات (أي دوام الاهتمام بها في القلب لا الفكر).

والمهتم بمحبة التدرُّب على هذه الأمور لتقويم عمله، تتولد فيه على الدوام نظرة هذه الأمور بالروح.

فإذا تنقَّت النفس بخوف الله، عند ذلك تحل التاوريا الروحانية (أي درجة التأمل الثانية التي من هبة النعمة) من غير أن تكون له عناية بها، فكل حين يصادف الإنسان بضميره فهماً ما فإنه يدخل لوقته في حالة الذهول الذي لا يُنطَق به، وهذا يكون له ميناء كل الراحات، هذا هو مبدأ الدخول للمنزلة الثالثة التي هي التدبير الروحاني.

مار إسحق السرياني

١٣١ – ليس صلاة، بل إحساساً تحسه النفس بالأمور الروحية التي للعالم الآخر، شيء يفوق عقل البشر أن يفهم الأشياء التي يحرك بها، لأنه نظر عقلي وليس حركة صلاة أو طلبة، ولكن من الصلاة يأخذ سبباً (فتكون الصلاة هي الوسيلة)، والذين بلغوا إلى هذه الدرجة من النقاوة تجدهم كل حين يتحركون بالصلاة في داخلهم وكل وقت يزورهم الروح القدس يجدهم في الصلاة. ومن الصلاة يخطفهم إلى التاوريا (أي التأمل) التي تفسيرها نظرة الروح (أي التأمل الروحي). وهم يكونون غير مفتقرين إلى مدة صلاة طويلة أو ترتيب في الخدمة، بل إنه يكفي أن يتذكروا الله فقط وحينئذ يُسبَوا بالمحبة ويُختطَفوا. ولكنهم ما يهملون القيام ليعطوا للصلاة كرامتها، فهم يقفون على الدوام على أقدامهم في هذه الأوقات التي تزورهم فيها النعمة.

مار إسحق السرياني

١٣٢ – لأنهم بتمجيد الله يتحركون بلا فتور، وبتصوُّر التاورية يرتفعون إلى الثالوث المسجود له، ويثبتون في الدهَش بنظرة عظم ذلك المجد. وبهذا التدبير عتيد أن يكون جميع البشر في القيامة العامة.

١٣٣ – كلما يدنو الإنسان لمعرفة الحق، ينقص نشاط حواسه ويميل إلى الصمت. في حين أنه كلما يدنو من تدبير العالم تزداد يقظة حواسه ويكثر تقلبها فيه.

١٣٤ – يتحد العقل بحركات الروح فيرتفع عن طقس الصلاة لأن الدهَش يكون عوض الصلاة، وعوض الإيمان الذي هو أجنحة الصلاة تكون نظرة فاحصة داهشة في سكون الحواس، ليس للبحث في طبعه بل تفرُّساً في عظمته ومجده وحبه.

١٣٥ – إن عمل الفضيلة وتدبير سيرة العقل الخفية (الهذيذ) هي تحت سلطة الإرادة وفيها تعب وجهاد، وهي محصورة داخل عمل الهذيذ، وأما الحركة الروحانية (التأمل بالروح) فهي ليست موضوعة تحت حرية الإنسان ولا تُقتَنى بالتعليم أو التدريب أو عمل الإرادة، وإنما توهب لأنقياء القلوب.

١٣٦ – وإذا قرب الإنسان من المنزلة الثالثة (التأمل بالروح) وحظي بحدودها، يجد أن الأشياء التي كان يعملها متغصباً ينجذب إليها في كل وقت بلا تغصب وبلذة. والدهش يجذبه إليه بغير إرادته، ويوجد جاثياً ساجداً بوجهه على الأرض بلا أفكار أو صلاة أو هذيذ، وإنما تتأمل روحه في عظمة الله وسياسة تدبيره

وحكمته. وليس حتى إلى هذه الدرجة هو يكون بعيداً عن الدهش الكامل بطبيعة الله.

وفي الوقت الذي تُصادف فيه النفس هذا الشعور الخفي حينما يتحرك العقل بالنعمة الروحانية، يتخلف في الحال عن الهذيذ وتتخلف الحواس عن عملها ويبقى في حالة دَهَش.

مار إسحق السرياني

١٣٧ - صلاة اللسان مفتاح لصلاة القلب. وصلاة القلب يكون بعدها الدخول إلى الكنز، حيث لا تكون صلاة ولا دموع ولا تضرُّع، لأن العقل وجميع الحواس تتخلف إذ تكون الروح قد دخلت إلى التاوريا الروحانية.

فالصلاة، إذن، شيء والتاوريا شيء آخر، ولكن الثانية متعلقة بالأولى. فإذا شبهنا الأولى ببذر البذار، فالثانية هي حمل الثمار. ولا صح أن نسمي التاوريا أو الدَهَش باللاهوت صلاة، إذ أنها تكون من فعل الروح القدس وتدبيره وليس من فعل الإرادة وسلطانها. وقد عبَّر عن ذلك القديس بولس الرسول: «أفي الجسد لست أعلم أم خارج الجسد لست أعلم» (٢كو ١٢: ٢) - فقط أعرف أنني اختُطفت ونظرت ولكن لا أستطيع أن أعبِّر.

وإن سأل إنسان لماذا تكون التاوريا والاستعلان في وقت الصلاة فقط؟ نقول إنه في وقت الصلاة يكون عقل الإنسان مجموعاً إليه وشاخصاً في الله ومنتظراً بكل اشتياق أن تأتيه الرحمة. وأيّ وقت من الأوقات يكون الإنسان فيه مستعداً محترساً كمثل وقت الصلاة؟ ألعل ذلك يكون في وقت نومه؟ أم إذا باشر أعماله؟ أم إذا كان عقله مشتتاً يؤهَّل لهذه الموهبة؟ - أما القديسون فلم يكن لهم وقت يجلسون فيه بطالين من الصلاة، لأنهم في كل وقت يتفاوضون بالأمور الروحية فيكونون مستعدين للصلاة، إما في قراءة سير القديسين أو في هذيذ أقوال الكتب أو في تصوُّر المخلوقات بهذيذ فاضل نافع.

متى ظهر الملاك لزكريا وبشَّره بيوحنا؟ والقديس بطرس ألم يظهر له الاستعلان بدعوة الشعوب إلى الإيمان وهو يصلي «الساعة السادسة»؟ وأيضاً كرنيليوس ألم يظهر له الملاك حينما كان يصلي؟ وهوشع أيضاً حينما كان ملقى على وجهه في الصلاة تكلم الله معه! وكذلك أنبا أنطونيوس حينما كان يصلي نظر نفساً صاعدة بكرامة عظيمة وأعطى الطوبى لذلك الإنسان الذي أُهِّل لهذه النعمة، وكانت هذه هي نفس أمونيوس الذي من جبل نتريا، وكان ذلك الجبل يبعد عن مكان سكنى أنطونيوس مسيرة ثلاثة عشر يوماً.

وهذا لأن أوفق الأوقات لنوال هذه المواهب والمعارف الروحية هو وقت الصلاة إذ يكون العقل منجمعاً والنفس يقظة ومستعدة.

مار إسحق السرياني

١٣٨ - حوار بين راهب حديث وشيخ مجرب:

الأخ: هل يمكن للإنسان أن يرى المناظر الإلهية؟

الشيخ: الكتاب المقدس أطلعَنا على هذا الأمر.

الأخ: كيف؟

الشيخ: دانيال رآه قديم الأيام، وحزقيال رآه على مركبة الشاروبيم، وإشعياء رآه على عرش المجد العالي، وموسى ألحَّ أن يكون معه ويراه فرأى جوده في العاصفة.

الأخ: وكيف يقدر العقل أن يرى ما لا يمكن أن يُرى؟

الشيخ: الملك وهو جالس على عرشه لا يُستطاع رؤيته بالقدر المضبوط كما هي حقيقة شكله.

الأخ: وهل يصح للإنسان أن يتصور الله بهذه الكيفية؟

الشيخ: وأيهما أفضل للإنسان أن يصور الله في عقله أو ينحط ليتصور المناظر والأفكار القبيحة؟

الأخ: ألا يُعَدُّ هذا إثماً (تصوُّر الله)؟

الشيخ: لا، ولكن عليك أن تبتدئ حسب ما أوضح الكتاب، وتتميم الأمر على الوجه الأكمل يأتي من ذاته كما قال الرسول: «الآن كما في لغز...» (١كو ١٢: ١٣)

الأخ: ألا يكون هناك ارتباك في العقل من جراء هذا؟

الشيخ: إذا كان الإنسان ذا غرض مستقيم ومارس حياة التأمل لا يكون هناك ارتباك، لأن أحد الشيوخ قال: «إني أمضيت أسبوعاً سبعة أيام بدون تذكار أي شيء بشري في قلبي». وقال آخر: «كنت مرتحلاً في طريق ورأيت ملاكين بجواري واحداً عن جانب والآخر عن الجانب الآخر وسارا معي ولكني لم أتطلع إليهما».

الأخ: لماذا لم يتطلع الشيخ إليهما؟

الشيخ: لأنه مكتوب: «لا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو ٨: ٣٨ و ٣٩).

الأخ: هل يستطيع العقل أن ينشغل ويبقى في النظر الإلهي باستمرار؟

الشيخ: مع أن العقل لا يستطيع أن ينشغل ويبقى في النظر الإلهي باستمرار، إلا أنه حينما يتنقى من الأفكار يستطيع أن يطير إلى الله فلا يُحرم من النظر الإلهي، وإني أقول لك إنه بمجرد أن يتقوى العقل ويتدرب

تماماً على النظر الإلهي يكون أهون عليكم أن تحركوا الجبال من أن تحدروه من علو تأمله. فكما أن الأعمى إذا انفتحت عيناه ورأى النور لا يشاء مطلقاً أن يعود إلى الظلمة مرة أخرى، هكذا العقل أيضاً حينما يؤهَّل لرؤية النور الإلهي فإنه يكره الظلمة الأرضية ولا يشاء أن يذكرها إلا رغماً عنه، والعقل ذاته يأخذ راحته هناك. بالهدوء والصلاة تقوى هذه الدرجة التأملية، ومن كثرة الصلاة تعود الصحة للعقل.

شيوخ مصر بقلم پالليديوس

١٣٩ – النعمة حاضرة على الدوام ومتأصلة فينا، كما أنها تعمل فينا منذ البدء حتى وقتنا الحاضر عمل الخميرة وكأنها وراثة طبيعية. ولكنها تدبر الإنسان لخيره بطرق مختلفة حسب مسرتها. فأحياناً تشتعل فينا كالنار وتضطرم بعنف كثير، وأحياناً أخرى بلطف واعتدال، فيكون النور الحادث من تفاعلها فينا تارةً متأججاً بلمعان واضح وتارةً أخرى يخبو ويظهر خافتاً. ولكن على أي حال، فالمصباح على الدوام مشتعل ومضيء وعليك أن تشذِّبه بعناية من حين إلى حين ليشتعل بالحب وينير. غير أنه، بسماح من الله، يضعف أحياناً على الرغم من كل المحاولات ويظل خافتاً ولكنه يبقى منيراً.

١٤٠ – تتلطف النعمة فتعزي مريديها بأساليب شتى، فمرة تظهر كعلامة صليب منيرة وتلتصق بنفس الإنسان الداخلية، وأخرى تغشى على الإنسان في صلاته فتنقله إلى حالة من الغيبوبة، وثالثة تشرق بنور عجيب في القلب حتى أن الإنسان ليكاد يُبتلَع في ذلك الوقت من فرط حلاوة التأمل، ويكاد يفقد حتى السيطرة على نفسه. ولو رآه الناس وهو على هذه الحالة، ظنوه مجنوناً أو بربرياً بسبب تلك الحلاوة الآخذة بلُبِّه والحب الطاغي المتسيطر عليه. مع أنه في ذلك يكون قد بلغ إلى ملء القامة الروحية والحرية والطهارة. إلا أن النعمة بعد ذلك تتخلَّى قليلاً فيحل ستار من القوة المضادة، فيعود من حيث أتى ليقف على أولى الدرجات التي ابتدأ منها.

أبا مكاريوس الكبير

١٤١ – والنعمة «بعلامة الصليب» تهدِّئ كل الأعضاء والقلب، حتى أن النفس لشدة الفرح تظهر كطفل بريء لا تعرف أن تدين إنساناً، حتى وإن كان خاطئاً أو محباً للعالم؛ ويتطلع الإنسان إلى جميع الناس بعين نقية فيراهم أطهاراً ويفرح بالعالم كله ويود لو أن الجميع يعبدون الله بالحب الذي فيه؛ ويرى شرف نسبه إلى الله كإبن له، فيثق بشجاعة وإقدام في ابن الله كما في أب له؛ وتنفتح له أبواب فيدخل مواضع كثيرة، وكلما يتعمق داخلاً ينفتح له مائة موضع لتقوده إلى مائة أخرى فيستغني؛ وكلما ازداد غِنى تكشفت أمامه عجائب أخرى فيؤتمن كإبن وريث على أشياء لا تستطيع الطبيعة البشرية أن تنطق بها أو يصفها لسان أو فم، والمجد لله آمين.

أبا مكاريوس الكبير

١٤٢ – إذا وُفِّق الإنسان أن يسمو بروحه إلى منطقة الإدراك العقلي المطلق، بعيداً عن التصورات المادية

والفكرية ليطّلع على حقائق الأمور هناك، فإنه يرى أن غاية الفضيلة هي أن تسعد بحب ما تراه هناك، وغاية السعادة هي أن تملك ما تحبه، لأن هناك تُستقى الحياة السعيدة الحقيقية من منابعها. أما السعادة عندنا في هذه الحياة المائتة فما هي إلا رشاش يتطاير من منابع السعادة الحقيقية هناك، فيسقط رذاذاً على منطقة المحسوس والملموس هنا.

وبهاء الرب هناك لا يُرى بالعين الجسدية أو بالتصور وإنما بالمنظر المعقول حسب استطاعة العقل البشري بنعمة الله. هناك يتحدث معه فماً لفم من أُهِّل بالنعمة لهذا الحديث، ولكن ليس بهذا الفم البشري بل بالعقل.

أوغسطينوس

١٤٣ – حينما تتحقق النفس من عظمة الطبيعة التي أُخِذت منها، فإنها بثقة عظيمة للغاية تأخذ طريقها نحو الله، أي بالتأمل في الحق وفي الموهبة السرية السامية التي تسعى نحوها، ومن أجل هذا تسعى جاهدةً ما استطاعت.

لأن أعلى ما تستطيع النفس أن تصل إليه من الدرجات الروحية في هذه الحياة ينحصر في رؤية الحق والتأمل فيه، إذ فيه كل الفرح وكل السعادة والتلذذ بأصدق الخير وأعظمه، وتنسُّم رائحة صفاء الأبدية المرتقبة. هكذا رأى كبار الروحانيين، ونحن نؤمن أن ما رأوه وما كتبوه هو حق. وأنا أجرؤ لأجزم بالأمر أننا لو اتَّبعنا طريق الرب التي أوصانا بها، فنحن حتماً بقوة الله وحكمته سوف نصل إلى بدء كل الأمور وعلّتها (الله) وبالعقل نراه.

أوغسطينوس

١٤٤ – قد وهب الله لبعض الناس حرارة روحانية ألهبت عقولهم ورفعتهم من الأمور الأرضية الفانية ليحدِّقوا في نور الحكمة الأبدية.

أوغسطينوس

١٤٥ – ماذا أُحب فيك يا رب حينما أحبك؟ إنه نور وضياء. هذا هو ما أحب! وهو نغم شجي، وعبيق عطر، وعناق ملتهب! هذا هو ما أحب حينما أقول إني أحبك يا ربي!! إنه إنساني الداخلي الذي يسعد بذاك النور وذاك العبيق وذاك العناق!

– يشرق في نفسي إشراقاً لا يحتويه فضاء مهما اتسع ...

– ويوقع في داخلي نغماً لا يقوى أن يمحوه الزمن ...

– ويفيح أريجاً عطراً لا تزحزحه الريح ...

– ويذيقني حلاوة لا تؤول فيَّ إلى نقصان ...

– ويلتصق بي مليّاً في عناق لا يفرقه شبع ...

هذا هو ما أُحب، حينما أقول إني أحبك يا ربي.

أوغسطينوس

١٤٦ – ما هذا الذي يومض في أحشائي ويقرع قلبي دون أن يؤلمني؟ فأرتجف هلعاً أحياناً وألتهب حباً أحياناً أخرى. أرتجف بقدر ما أرى نفسي أني لست أشبهه، وأطمئن بالقدر الذي فيه أرى نفسي أشابهه، إنها الحكمة! هي التي تومض في أحشائي.

أوغسطينوس

١٤٧ – رأيت شيئاً لم أحتمله طويلاً.

أوغسطينوس

١٤٨ – يوجد في التأمل جهد كبير على العقل حينما يهم رافعاً ذاته نحو الأشياء السماوية حينما ينحصر انتباهه كليةً في الأمور الروحية جاهداً لمحاولة العبور فوق كل المنظورات، مستضيقاً في ذاته ليصل إلى السعة المطلقة ... وأحياناً يغلب حقاً ويعلو فوق الظلمة العتيدة التي تغشاه فيدرك النور الحق بعض الإدراك كمن يسرقه خلسةً بقَلةٍ وندرة، ولكن سرعان ما يرتد إلى نفسه مغلوباً من ذلك النور ويعود لاهثاً إلى ظلمة غشاوته الأولى متنهداً.

غريغوريوس الكبير

١٤٩ – حينما نعرف الله ونشتهيه من كل شهوتنا وعقلنا، حينئذ تجف فينا كل الشهوات الجسدية الأخرى. وبعد أن كنا نطلب الله ونحن ملتصقون بالعالم، يبتدئ حب العالم يضعف فينا، وينمو حب الله وحده بشدة. وبقدر ما يزداد حب الله عمقاً، بقدر ما يضعف حب الجسد فينا شيئاً فشيئاً.

غريغوريوس الكبير

١٥٠ – إن حلاوة التأمل تستحق منا كل الحب. فإنها تحمل النفس فوق ذاتها لتحلّق بها نحو السماويات، فتتحقق أن الأشياء الأرضية تستحق الازدراء لتسمو نحو الروحيات وتغض الطرف عن الأشياء الجسدية الفانية.

غريغوريوس الكبير

١٥١ – علينا أن نعرف أنه طالما نحن نحيا في هذا الجسد القابل للموت، لا يستطيع أحد أن يتقدم في قوة التأمل بالدرجة التي فيها يملأ عينه ويتفرَّس مليّاً في ذلك النور غير المفحوص. لأن الله القادر على كل شيء لم يُرَ بعد بذلك الوضوح. إنما كل ما تقدر عليه الروح هو أن تستطلع ما يحيط به، فتنتعش وتنمو لتدرك مجد منظره.

وحتى حينما يتقدم العقل في التأمل، لا يستطيع أن يتأمل الله كما هو ولكن فيما هو دونه، غير أن مثل هذا التأمل يقود إلى اختبار تذوُّق الهدوء الداخلي جزئياً - على حد القول - وليس كاملاً، كما هو مكتوب بالحق في سفر الرؤيا: «وكان هدوء في السماء نحو نصف ساعة»، لأن السماء هي النفس البارة، وبتذوُّق التأمل العقلي يصير فيها هدوء إذ تكون ضوضاء الانشغالات الأرضية قد تلاشت، وقد تحرر الفكر من ارتباكها؛ ولكن بسبب أن هدوء العقل لا يمكن أن يكون كاملاً في هذه الحياة، لم يقل إنه صار هدوء في السماء ساعة كاملة، ولكن نحو نصف ساعة! لأنه في حال ما يرتفع العقل ويغشاه الهدوء الداخلي شيئاً فشيئاً، لا يستقر هناك كثيراً بسبب إلحاح الأفكار التي تدركه بشغبها فيختل هدوء العقل من ذاته، وبوقوعه في مثل هذا الارتباك تغشاه الظلمة مرة أخرى فيعمى.

١٥٢ - كل من يتذوق ذلك السرور المفرط الذي في التأمل، حينما ترفعه النعمة الإلهية ليشارك زمرة الملائكة بعقله، وهو محصور في النظرة العليا بعيداً عن كل أمور العالم، تجده دائماً غير قانع بمشاركته للملائكة، إنما يتوق لو يستطيع أن يتفرَّس فيما فوق الملائكة، إذ يكون في رؤية الله وحده سر الانتعاش الحقيقي لعقولنا. وهكذا من مجد إلى مجد، فمن مشاركة الملائكة المرنمين نرتفع بعيون عقولنا لنتأمل مجد جلاله الأسنى. وإلى أن يراه يبقى العقل جائعاً متلهفاً، حتى إذا ما رآه يشبع ويقنع! ولكن طالما نحن مثقَّلون بهذا اللحم الفاني لا نقدر أن نرى الله كما هو.

غريغوريوس الكبير

١٥٣ - إن موضوع التأمل الناضج هو الحكمة الإلهية حين تُدرَك بالفكر وتُلمس لمساً رقيقاً. فعندما يتقدم بنا التأمل لنرتقي إلى درجة التأمل في حكمة الله - أو بالحري ترتقي هي بنا إلى ذاتها - حينئذ يكون عظم اتساعها الذي لا يُحدُّ سبباً للاقتناع بامتناع كمال المعرفة على العقل البشري، إنما فقط بالحب نتلامس مع هذه الحكمة تلامساً ولا نجوز خلالها بأي حال من الأحوال.

١٥٤ - بنعمة التأمل يتقبل العقل البشري صوت الفطنة العليا، وتستمع أذن القلب الداخلية إلى كلمات الله. وبهذه النعمة العليا نؤهَّل لمعرفة أشياء فائقة.

١٥٥ - يُقال إن التأمل ما هو إلا إشعاع صادر من نور المدينة السماوية، حيث يغلب على العقل أن يبقى معلقاً في ذلك التأمل الإلهي مبتهجاً بما يدركه من مناظر الأبدية المطلقة التي لم ترها عين و لم تسمع بها أذن.

١٥٦ - «هذا منظر شبه مجد الرب. ولما رأيته خررتُ على وجهي» (حز ١: ٢٨). لم يقل حزقيال إنه منظر المجد ولكن شبه مجد، حتى يظهر أنه مهما جاهد العقل ومهما ضبط نفسه من كل تخيل المناظر والصور الجسدية وأخلى قلبه من الاهتمامات الزائلة، فهو يبقى على الرغم من ذلك غير قادر على رؤية مجد الله كما هو، طالما يسكن في هذا الجسد القابل للفساد ... فكل ما يصادفه العقل من إشراق إنما يكون بالشبه فقط وليس بذات الجوهر.

١٥٧ – إن اللاهوت لا يعلن حقيقة ذاته كما هي للذين يمارسون التأمل فيه طالما هم في هذه الدنيا، إنما يكشف عما يحيط به من إشراق بقدر بسيط حتى تحتمله عيون عقولنا التي أعمتها الظلمة فلم تعد تطيق التحديق في نور اللاهوت.

غريغوريوس الكبير

١٥٨ – النفس التي استطاعت أن تنظر إلى الله تتيقن من صغر كل المخلوقات. ومهما كانت ضآلة النور الذي تطّلع عليه، فهو كفيل أن يعطي فكرة عن عظمة الخالق وصغر المخلوق. لأن بنور النظرة الداخلية يتسع حضن العقل ويمتد في الله حتى يصير فوق الخليقة كلها، حتى وفوق النفس ذاتها، إذ أن جزءها الرائي يكون أعلى منها. فعندما يُخطف هذا الجزء الرائي من النفس ويعاين نور الله، فإنه يتسع في ذاته داخلياً ويتعالى جداً فيرى ويدرك صغر هذه الأمور السفلية التي لم يستطع أن يدرك صغرها وتفاهتها عندما كان في حالته السفلية الأولى.

وإذا كان العالم يتراءى له بأجمعه أثناء تحليقه في نور الله، فذلك لا يكون بسبب انكماش السماء والأرض وإنما بسبب اتساع ترائي النفس، الذي استطاع أن يحوي في نظرة واحدة كل ما هو دون الله بلا عناء.

غريغوريوس الكبير

١٥٩ – نحن نعلم أن هناك أشياء صالحة كثيرة، لا ننكر أن الرسل المباركين وكل من هم على شاكلتهم حازوها إما بالطبيعة أو كهبة من النعمة: فالعفة حسنة، والحزم مع البصيرة يستحقان الإعجاب، والشفقة مكرمة، والرزانة محبوبة، والاعتدال حشمة، والرحمة مغبوطة، والعدل طاهر، كل هذه نحن لا نشك أن الرسول بولس كان متحلياً بها جميعاً مع بقية رفقائه الرسل، حتى أنهم علّموا الدين بدرس من فضائلهم أكثر من كلامهم.

وقد كانوا منهمكين في رعايتهم الدائمة لكل الكنائس، متيقظين في خدمتهم، وكان بولس الرسول يحترق من أجل الذين يخطئون وينحلُّ ويضعف إذا ما ضعفت وخارت الخراف. ما أعظم هذا الإشفاق!!

ومع أن كل الفضائل التي اقتناها بولس الرسول تظهر رائعة للغاية وجواهر ثمينة، إلا أنها تتضاءل إذا قورنت باللؤلؤة الفريدة البالغة في الحسن، التي يبحث عنها تاجر الإنجيل ويشتهي اقتناءها ويود لو يبيع كل ماله ويشتريها.

هكذا تظهر قيمة هذه المحاسن ضعيفة تافهة أمام هذا الأمر الواحد الفريد الحسن.

وما هو ذاك الأمر الواحد الذي بلا نظير، الذي يعلو فوق هذه الأشياء الصالحة والعظيمة جميعاً؟ حتى أنها بينما تُحتقر هذه كلها احتقاراً، يصير هذا الأمر الواحد محبوباً ومُشتهى؟

بلا شك هو ذلك النصيب الصالح الذي يدوم بالحق، الذي قال عنه السيد أن مريم فضّلته، فتركت

واجبات الضيافة والمجاملة الإنسانية واقتنته: «مرثا مرثا أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها» (لو ١٠: ٤١، ٤٢).

إذن، فالوجود مع الله بالتأمل الروحي هو الأمر الواحد الذي تصغر أمامه كل الفضائل وكل الاستحقاقات التي ننالها بسبب أعمال البر المتعددة. وهو، كذلك، اللؤلؤة الكثيرة الثمن التي يفوق بهاؤها كل الأحجار الكريمة مهما كانت غالية. هكذا تُعتبر جميع الاستحقاقات التي ينالها الناس بسبب أعمال البر صالحة، إلا أنها – كمحصول جسدي – تُعتبر أموراً تافهة ونفاية كلام لا تستحق إلا أن تُباع إذا قورنت باستحقاقات التأمل في الإلهيات.

الأب يوحنا كاسيان

١٦٠ – لأنه ليس بنظر الجسد نبصر عالم الروحيات، لأن النظر الحقيقي إنما يكون بالنفس، لأن النفس تنظر كل شيء على حقيقته بمعرفة، أما الجسد إذا نظر بلا عقل فيكون كالبهيمة، أما النفس فتنظر بدون الجسد نظراً روحانياً. العقل والنفس ليسا مرتبطين لأن النفس وإن كانت ساكنة في الجسد إلا أن معرفتها تمتد إلى كل شيء، وعلى الرغم من ارتباطها بالجسد تبقى متحررة منه؛ وفرحها دائماً يكون منفصلاً عنه، وعلى الرغم من وجودها معه على الأرض فهي دائماً تميل إلى العلو حيث بلدها الحقيقي. وهي وإن كانت محبوسة في هذا العالم إلا أنها تُحسب من أهل السماء؛ وإن كانت تحيا مع الترابيين إلا أن لها حياة مخلدة مع الروحانيين وتمجد معهم خالق الكل.

فاجمع نفسك يا أخي واحرص على أن يكون مسكنك عندك سيدك. إرفع أجنحتك من الأرض وتطلع إلى البلد الذي استعددت له، لأن هناك يشاء الخالق أن تكون سكناك دائماً.

هو إليك مشتاق، وإلى رؤياك عطشان، فاخرج كلِّم خالقك لأنه يحب كلامك وحديثك أفضل من المراتب العالية، وهو مشتاق إلى صوتك أعظم من ضجة الروحانيين، وهو يحب الترابي أفضل من مجمع النورانيين، ويفرح بصوتك وكلامك معه أفضل من بهاء الساروفيم، ويحب صورة الإنسان أفضل من شعاع السمائيين، وسماجة آدم الذي خلقه أفضل من كل المخلوقات. هو لمحبته لك أتى ليطلبك فاخرج أنت في طلبه. هو تنازل إلى حقارتك ليرفعك إلى علوِّه؛ وأظهر ذاته للأرضيين ليجعلك مع السمائيين. فبالمحبة التي أتى بها إليك، أسلك أنت أيضاً بها وامضِ إليه.

مار إسحق السرياني

١٦١ – ليس من ينظر حسن هذه الاستعلانات والرؤى، ويرضى أيضاً أن يتفرس في حُسن شيء مما في عالمنا هذا. ليس من استغنى بوجوده مع الله، ولم يهُن عليه المال كالزبل. ليس من استأنس بهذه وسكر بالهذيذ فيها ومعها، ولم يمقت من عينيه دالة الناس وأُنسهم. ليس من انطلقت في نفسه محبة المسيح، ويقدر أيضاً

أن يحتمل وساخة الشهوة المرذولة. ليس من صار رفيق الملائكة واستأنس بأسرارهم، ولم يرذل رفقة العالم ومكائده. ليس من سُبي عقله بالله وبالهمِّ به، ويرتبط بشيء مما في هذا العالم. ليس من وجد الله وعرفه، ولم ينسَ العالم وما فيه. هذه الجواهر الحسنة يجمعها ويجعلها في كنوز قلبه.

هذا هو التاجر المستأنس بالصلاة الذي يَسبَح دائماً في بحرها، ويجلس إلى ذاته وينقيها في لجج النور لتضيء، وتكون لباس برفير للمسيح الأبدي. هذا هو الهادئ النشيط المسبي بشهوة البحر الغاسل لخطاياه. طوباك يا من تطير على قمم النور بأجنحة الروح القدس وأنت محبوس في العمق الحابس للكل الذي قراره لا يُدرَك. طوباك يا من اغتسلت في بحر الطهارة الذي أمواجه نورٌ ولجحه نار محرقة لخطية الخطاة الذين يتقدمون إليه. طوباك! فقد صار صانعك هو معلمك، وغِناك في روحه، وغذاؤك من نظره، ومشروبك من لذة روحه. طوباك! فشمسك لن تغيب، والليل لن تراه حدقة عين نفسك. طوباك! فنورك هو ضياء المسيح، ولن يعبر من نفسك إلى الأبد. طوباك! فإن فرحك في الله. طوباك! فقد صرت مع الروحانيين وأنت لا زلت على الأرض. طوباك! فقد صار حديثك مع خالقك. طوباك أيها العمّال النشيط بعمل الصلاة والمستريح بيقظة الروح القدس داخلك، وفي نفسك تسمع كل حين أسراره الخفية وتقديسه الروحاني لبهجة قلبك.

الشيخ الروحاني

الفصل الثالث

مافوق حدود الصّلاة

أولاً : الدَهَش

ثانياً: رؤية الله

ثالثاً: الاتحاد بالله

- «لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون. بل نتكلم بحكمة الله في سر. الحكمة المكتومة التي سبق الله فعيَّنها قبل الدهور لمجدنا. التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر. لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد. بل كما هو مكتوب ما لم تر عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه. فأعلنه الله لنا نحن بروحه لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله! لأن مَن مِن الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه؟ هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلِّمها حكمة إنسانية بل بما يعلِّمه الروح القدس، قارنين الروحيات بالروحيات. ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة! ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يُحكَم فيه روحياً. وأما (الإنسان) الروحي فيَحكم في كل شيء وهو لا يُحكَم فيه من أحد. لأنه مَن عرف فكر الرب فيعلمه؟ وأما نحن فلنا فكر المسيح» (١كو ٢: ٦ - ١٦).

- «... جعل نحو البرية وجهه ورفع بلعام عينيه ورأى إسرائيل حالاً حسب أسباطه فكان عليه روح الله فنطق بمَثَله وقال: وحي بلعام بن بعور وحي الرجل المفتوح العينين، وحي الذي يسمع أقوال الله الذي يرى رؤيا القدير مطروحاً وهو مكشوف العينين ... أراه ولكن ليس الآن أُبصره ولكن ليس قريباً. يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطِّم طرفي موآب ويهلك كل بني الوغى» (عد ٢٤: ١ - ٤ و ١٧).

***

١٦٢ - «جلسنا نتحدث سوياً في لذة واشتياق، نتساءل فيما بيننا عن الحق وعن الحياة الأبدية التي سار إليها القديسون...»

هكذا ابتدأ القديس أوغسطينوس يروي قصة تأمله. وأما جليسه في هذا الحديث فكانت أمه «مونيكا» قبل أن ترحل عن العالم، عندما رجع إليها ابنها بعد حياة غارقة في الشر. وهذه القطعة المختارة من تأملات أوغسطينوس تتدرج بنا حتى تنتهي إلى ما فوق حدود الصلاة في سهولة ويسر.

«كنا نتوق معاً في داخل نفوسنا إلى هذه الينابيع السماوية التي تفيض بالحياة عندك! تشتهي أن نبلغ إلى مستواها لنحصل ولو على القليل منها ... وعندما كنا نصل إلى هذا التوافق في هذه الرغبة المِلِحَّة، كانت تتضاءل أمامنا ألذ المسرات بأشهى عروضها حتى تصغر عن أن نقارنها أو حتى نذكرها بجوار سعادة تلك الحياة الأخرى! كنا نحلق بشهوة ملتهبة نحو الله، ونجوز في تحليقنا أجواءً وأجواءً من عالم الماديات، حتى السماء بجلالها بشمسها وقمرها ونجومها، كنا نجوزها بغير عناء، إذ كنا نشعر في دواخلنا برفعة أخرى غير منظورة ... حتى نصل إلى نهاية حدود الفكر ثم نجوزها أيضاً لنصل إلى الرحب اللانهائي حيث جلستَ (يا الله) تطعم الأبرار من طعام الحق إلى الأبد ...

حيث الحياة هناك هي الحكمة التي منها وُجِدت الأشياء جميعاً، كل ما كان وكل ما سيكون، أما هذه الحياة في ذاتها (الله) فهي لم تُستحدث قط، فكما كانت هي كائنة وستكون، لأن ليس فيها ماضٍ ولا مستقبل، إذ هي حاضرة دائماً لأنها أبدية ...

وكنا في حديثنا الشيِّق عنها (أي عن الحياة أي عن الله) نتلامس معها تلامساً من عمق القلب ولكن في مشقة... فكنا نتنهد إذ نجد أنفسنا وقد أسرتها باكورة ثمار الروح. ثم ننعكف مرة أخرى إلى الحديث، تحدُّنا كلماته ذات البداية وذات النهاية».

إلى هنا يعرض القديس أوغسطينوس عينة من الاشتياق الملتهب الذي كان يُشعل حياته بالقداسة ويهوِّن عليه كل صعوبة في الطريق. إن هذا الشوق الحار هو الشرارة التي سوف تُشعل الجسد والنفس والروح جميعاً، لتجعل من أوغسطينوس قديساً ينير لكل الأجيال بتعاليمه ذات الفلسفة الروحانية من الطراز الأول ... نعم فالاشتياق الحق الملتهب للقداسة هو الطريق الوحيد للقداسة.

نعود إلى حديث أوغسطينوس لنرقى معه هذا السلم الروحاني:

«فقلنا لو أن حركات الجسد هدأت، وخيالاتنا الفكرية هدأت أيضاً من طوافها سواء في البر أو في البحر أو في السماء، وهدأت النفس إلى ذاتها ودون أن تفكر ابتدأت تسمو فوق ذاتها، فحينئذ لا يكون خيال أو مناظر مما يصنعها الفكر ولا كلام ولا إشارة، بل الكل في هدوء وسكوت يسبِّح خالقه. حينئذ تتسمع الأذن إلى هذا التسبيح الصامت «هو صَنَعَنا وليس نحن الدائم إلى الأبد». ثم يتكلم (الله)، ليس بواسطة حواسنا أو تفكيرنا، ولكن يتكلم بذاته، لا بلسان ملاك أو إنسان ولا برعد أو حفيف الريح، ولكن بصوته الذي نحبه ونتوق إليه دون وسيط أيًّا كان ... وفي لحظة وفي طرفة عين نتلامس مع الحكمة الأبدية في الأعالي! فلو قُدِّر لنا أن نعيش في هذه اللحظة أبداً، بعيدين عن كل مناظر وإحساسات ومجاذبات الأمور المادية في هذا العالم غارقين في بحر هذا السرور، ألا يكون هذا هو الملكوت؟ «ملكوت الله داخلكم» ... «أُدخل إلى فرح سيدك!»

هنا يعبُر بنا القديس أوغسطينوس على ثلاث درجات متداخلة للوصول إلى التلامس مع الحكمة الإلهية:

أولاً: سكوت الجسد. **ثانياً**: سكوت الفكر. **ثالثاً**: سكوت النفس.

أما هذا التدرُّج فليس جزافاً، إنما يستند على نظرية هامة في أنواع الإدراكات التي يدركها الإنسان، والتي ينبني عليها التدرُّج في المعرفة الروحانية حتى الوصول إلى الدرجة المطلقة التي فيها يعاين الإنسان الله.

ويلخص القديس أوغسطينوس نظريته في الإدراك - مستنداً على اختباراته العملية واختبارات السابقين له - في ثلاثة أنواع من الإدراك:

الأول: الإدراك الجسدي:

وهو الذي ندرك به الأشياء الطبيعية بالحواس الجسدية.

الثاني: الإدراك التصوُّري:

الذي به ندرك الأشياء الطبيعية في غير وجودها، أي وهي غائبة عنا، سواء كان بالذاكرة أو التصور - سواء كان بإرادتنا أو بإظهار الله إياها لنا، كرؤية بطرس الرسول للحيوانات المجتمعة في ملاءة مدلاة من السماء.

الثالث: الإدراك العقلي المطلق:

(ويُراد بالمطلق أن لا تتدخل حواس الجسد ولا التصوُّر الفكري أيضاً في إدراك هذه الرؤية.)

وهو إدراك العقل للحقائق والصفات المطلقة التي ليست لها صورة ما والتي لا يستطيع الخيال والتصوُّر أن يحدَّها بصورة ما.

ويستخدم القديس أوغسطينوس لتوضيح هذه النظرية المبسطة الآية: «تحب قريبك كنفسك». فعندما تقرأ هذه الحروف المتراصة بجوار بعضها تدركها إدراكاً جسدياً، أي باستعمال النظر أو السمع، وإذا كان قريبك هذا غائباً فإنك تتصوره على صورة ما وهذا هو الإدراك التصوُّري. أما إذا أمعنتَ الفكر في الآية فإنك تدرك فيها فكرة مطلقة عن الحب، وهذا هو الإدراك العقلي المطلق.

ويشترك الإدراك الجسدي مع الإدراك التصوُّري لإدراك الأشياء القابلة للتغيير على وجه

العموم، في حين أن الإدراك العقلي لا يُدرَك به إلا الأشياء غير القابلة للتغيير على وجه الإطلاق، أي اللانهائية غير المحدودة، كالحكمة المطلقة والمعرفة المطلقة والحب المطلق ... إلخ.

وفي اشتراك الإدراكين الجسدي والتصوُّري لشيء ما هناك احتمال للوقوع في الخطأ، أما الإدراك العقلي فليس فيه احتمال للوقوع في خطأ ما.

أما إذا حدث خطأ فيكون بسبب أن النفس لم تصل وصولاً محققاً إلى الإدراك العقلي النقي الخالي تماماً من الإدراكين الجسدي والتصوُّري. لأن الإدراك العقلي مختص بمعرفة الحق الكامل المطلق الذي لا يمكن أن يكون فيه «تغيير ولا ظل دوران»، طالما كان الإدراك إدراكاً عقلياً محضاً.

ويقول القديس أوغسطينوس بوضوح:

[إن الإدراك العقلي لا يحتمل الخطأ على الإطلاق، لأنه إما أن يكون الشخص يرى شيئاً آخر خلاف الحقيقة فهو إذن لا يرى عقلياً، أو يرى الحقيقة تماماً فيكون الإدراك صادقاً].

أما الأنواع التي يتعرف عليها الإدراك العقلي فهي أولاً طبيعة العقل ذاته، ثم الفضائل المطلقة في حقيقة جوهرها لا في استعمالها كالحب والفرح والسلام وطول الأناة والحكمة والمعرفة – وهذه كلها تَمُتُّ لله بصلة، وأخيراً الله في جوهره. أما هذه كلها فهي تشترك في اللانهائية فلا يحدها إحساس ما أو زمان أو مكان أو شكل ما على الإطلاق. ولا تُدرَك إلا بنظرة العقل المتحررة من كل إحساس جسدي أو تصوُّري، أي نظرة عقلية متَّصفة بذات صفة هذه الأمور أي اللانهائية.

وبهذا يتضح لنا حقيقة اللانهائية وحقيقة إدراك اللانهائيات.

ويزيد القديس مار إسحق على ذلك ويثبت أن نظرة العقل لا يمكن أن تتطهر وتصل إلى الكمال إلا برؤيتها الحق ذاته، أي أن العامل الأساسي للوصول بالعقل إلى درجة النقاوة المطلقة إنما يكون بواسطة رؤيته للحق المطلق، وبذلك يسهِّل علينا القديس مار إسحق هذا الأمر عملياً. فهو يرفعه من أيدينا ليضعه في يد الله. فليس أمر الوصول بالعقل إلى درجة النقاوة الكاملة يتوقف على سعينا أو جهادنا وإنما يتوقف على عمل النعمة:

١٦٣ – فكِّر وافهم أن الفضيلة هي الجسد، والتاوريا (التأمل الروحاني) هي النفس. والإثنان يكوِّنان

إنساناً روحياً كاملاً متحداً من جزئين: الأول محسوس والآخر معقول. وكما أنه يستحيل على النفس أن يصير لها وجود أو ميلاد بدون تمام تكوين جبلة الجسد، هكذا والتاوريا أيضاً يستحيل أن تُدرَك وتولَد في رحم الذهن الذي هو بيت نمو البذرة الروحانية بدون أن يكمل في هذا الذهن كمال تجسُّم الحق.

مار إسحق السرياني

أولاً: الدَّهش

Εκστασις Ecstasy

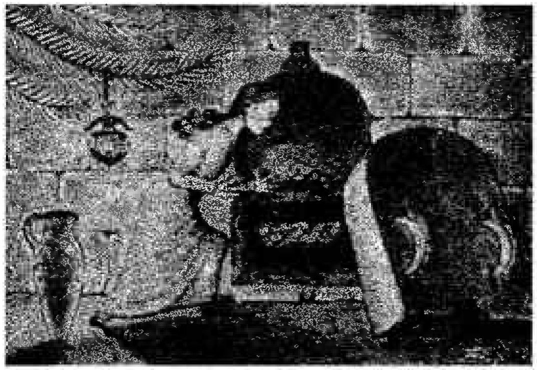

«فخرجن سريعاً وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة ἔκστασις أخذتاهن» (مر ١٦: ٨).

وصَف الكتاب المقدس حالة الدهش بكلمة ἔκστασις، وتفيد في الأصل اللغوي معنى الذهول أو الإغماء وانخطاف العقل حيث يخرج الإنسان عن وعيه، وقد تُرجمت بالعربية إلى كلمة «حيرة» كما في قول داود النبي في المزمور ١١٦: «أنا قلت في حيرتي إن كل الناس كاذبون». وهنا، للأسف الشديد، فُهِمت كلمة «حيرة» أنها تفيد الارتباك، ولكن هي في الواقع تفيد حالة سمو روحي هو الدهش الروحي حيث قرينة الكلام توضح هذا المعنى، إذ يقول داود النبي بعد ذلك: «بماذا أكافئ الرب عن كل ما أعطانيه، كأس الخلاص آخذ وباسم الرب أدعو» (مز ١١٦: ١٢ و ١٣)، أي أنه يعترف بمقدار النعمة التي رُفعت إليها نفسه أثناء الدهَش (الحيرة). أما قوله إنه في دهشه رأى أن كل الناس كاذبون فهو المعنى المطابق لقول سليمان في سفر الجامعة: «الكل باطل وقبض الريح» (جا ١: ١٤). أي أن داود استُعلِن له أثناء دهَشه الروحي أن كل ما للإنسان باطل.[١]

كذلك وردت كلمة «حيرة» كترجمة لمعنى الدهش الروحي ἔκστασις في العهد الجديد في عدة مواضع لتفيد الاندهاش والتعجب الفائق المذهل للعقل بسبب الفرح أو التأثر الروحي الشديد مثل: «فأخذت الجميع حيرة ἔκστασις ومجدوا الله وامتلأوا خوفاً قائلين إننا رأينا اليوم عجائب» (لو ٥: ٢٦).

ووردت أيضاً في سفر الأعمال بنفس هذا المعنى: «وعرفوه أنه هو الذي كان يجلس لأجل الصدقة على باب الهيكل الجميل وامتلأوا دهشة وحيرةً = ἐκστάσεως مما حدث له» (أع ٣: ١٠).

ووردت أيضاً في موضع آخر حيث تظهر قوة الكلمة: «بل بعض النساء منا حيَّرننا (أي أوقعننا في الدهَش) ἐξέστησαν ἡμᾶς إذ كُنَّ باكراً عند القبر، ولما لم يجدن جسده أتين

---

(١) وهذا يشير إليه القديس غريغوريوس النيسي بقوله:
[حينما قال داود إن كل الناس كاذبون فهو يعني أن كل محاولة يحاولها الإنسان لكي يشرح بها الرؤية الفائقة يكون في ذلك كاذباً].
On Virgin., ch. X.

قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي» (لو ٢٤: ٢٢). ويتضح معنى الكلمة أكثر في الموضع الآتي: «فخرجن سريعاً وهربن من القبر لأن الرعدة **والحيرة** ἔκστασις أخذتاهن و لم يقلن لأحد شيئاً (انعقد لسانهن) لأنهن كن خائفات» (مر ١٦: ٨).

وفي الواقع قد أُسيء في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية وخاصة في النسخة البيروتية فهم كلمة ἔκστασις اليونانية بترجمتها بكلمة «حيرة»، فهذا غير صحيح وغير واقعي، بل وقد أُسيء أيضاً إلى استخدام كلمة «حيرة» نفسها إذ جُعِلت مرة في موضع الدهش الروحي السامي ومرة أخرى في موضع الارتباك دون مراعاة لدقة الترجمة للكلمات اليونانية ودون مراعاة للمواقف الروحية.

والدهَش أو الغيبوبة الروحية، حالة اختطاف روحي يعبِّر عنها الكتاب المقدس بعدة اصطلاحات مثل: «وكان روح الرب عليه» (قض ٣: ١٠؛ ١١: ٢٩)، أو «يد السيد الرب وقعت عليَّ» (حز ٨: ١)، أو «اختُطف إلى السماء الثالثة ... أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم» (٢كو ١٢: ٢ و ٣)، أو «مطروحاً وهو مكشوف العينين» (عد ٢٤: ٤)، أو «كنتُ في الروح» (رؤ ١: ١٠).

وهذا الاختبار يستلزم أن يكون الإنسان في حالة استعداد روحي داخلي لقبول إعلانات الله، لذلك فالدهش يكون دائماً ملازماً لحالة الهدوء الكامل والسكينة ἡσυχία التي بعدها يتوقف اتصال الإنسان بنفسه وبالعالم المحيط ويصبح تابعاً لله بكل كيانه. وفي الدهش يفقد الإنسان السيطرة الحرة على عقله وحواسه، لأن الروح القدس هو الذي يقوده في هذه اللحظات، فتُبتلع حريته في مشيئة الروح ويكون تحت تدبيره وإعلاناته.

والدهَش يسجله العهد القديم بمنتهى الوضوح في كافة الحالات التي كان يتقبل فيها الأنبياء صوت الله وأوامره وإنذاراته، حينما كان يُخطف عقل النبي فجأة ويصير في غيبوبة يعود بعدها إلى نفسه لينطق بكلمة الله بمنتهى الصحو والرزانة والوضوح؛ أو ينطق أثناء دهشه بكلمات الله وهو في نصف وعيه واصفاً ما يراه وما يسمعه؛ أو يكتب بيده - وهو في دهشة - كل ما يمليه الله عليه كما في حالة دانيال النبي: «أما أنت يا دانيال فاخْفِ الكلام واختم السفر إلى وقت النهاية» (دا ١٢: ٤)؛ وفي حالة يوحنا في سفر الرؤيا في العهد الجديد: «وقال لي لا تختم على أقوال نبوة هذا الكتاب لأن الوقت قريب» (رؤ ٢٢: ١٠).

وبتجسد ابن الله وحلول الروح القدس على الكنيسة وانسكابه على كل بشر كوعد الله في سفر يوئيل النبي وكوعد المسيح قبل الصعود وكتحقيق سفر الأعمال يوم الخمسين، صار كل إنسان في المسيح يسوع مهيَّأً بالنعمة التي بالمسيح، ومعَدّاً بالسر الإلهي المنسكب عليه بالروح القدس أن يكون تحت سيطرة الروح القدس وتعليمه وتدبيره المباشر كما كان الأنبياء، ولكن لا ليأخذ من الله استعلانات جديدة للإيمان العام كالأنبياء أو الرسل ولكن ليعرف ما يخصه في هذا الإيمان عينه، وليدرك خلاصه ويكتشف سر محبة يسوع المسيح المذخرة له شخصياً، ويتقبل منه إعلانات خاصة لنفسه كوعد المسيح: «أُحبه وأُظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، حيث الدخول تحت سلطان الروح القدس وتدبيره يختلف تأثيره على النفس البشرية من إنسان لإنسان.

فالدهش لا يزال إلى الآن، كما كان في العهد القديم، أحد وسائل الاتصال المباشر بين الله والإنسان، إنما بدرجات متفاوتة قد تصل إلى الدرجة الكاملة وذلك لزيادة المعرفة ونمو علائق المحبة الفردية الشخصية بين الله وأحبائه الأمناء المخلصين، هذه المعرفة، أو هذه المحبة هي التي وعد الله أنها تظل تزداد من يوم إلى يوم وإلى الأبد.

أما السؤال لماذا لا تُستعلَن كل الأسرار الإلهية الفائقة التي تختص بمعرفة الله ومحبته بواسطة العقل الواعي؟ فالجواب بسيط وسهل، وهو أن عقل الإنسان الواعي ذو طبيعة قائمة على أساس القياس المادي والتصوُّري والمنطقي، وقد نمى وكبر ونضج بتأثير هذه القياسات، لذلك نشأ عاجزاً تقريباً عن معرفة الله الكاملة والحقيقية، لأن طبيعة الله ليست خاضعة للقياسات المادية أو التصوُّرية أو المنطقية. لذلك صار الإيمان بالله أمراً يفوق العقل بالضرورة، فالذي يريد أن يؤمن بالله حقاً لابد له أن يسمو فوق نفسه وفوق عقله وفوق الدنيا كلها. ولهذا أصبحت قيمة الإيمان أعلى من قيمة الإنسان نفسه ومن الدنيا كلها. وبهذا صار جزاء الإيمان أعلى من كل ما يملكه الإنسان وأعلى من أمجاد الدنيا بأسرها. فجزاء الإيمان هو الله نفسه. وبذلك فقيمة الإيمان في الواقع أعلى من قيمة الدهش والرؤى والإعلانات في حد ذاتها: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٩).

ولكن لكي يعلن الله محبته للإنسان الذي أحبه وآمن به، استلزم أن يُظهر الله نفسه للإنسان أحياناً حتى تكون محبته شخصية ذاتية حقيقية على الواقع البشري: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). ولكي يعلن الله ذاته للإنسان يستلزم حتماً وبالضرورة أن

يتجاوز الإنسان كل ما يمكن أن يقع تحت بصره وسمعه وفكره وكل حواسه حتى لا تدخل هذه الحواس الجسدية والعقلية وتزيف حقيقة الله الذي يفوق حواس الإنسان، من هنا صار ظهور الله للإنسان وإعلان محبته لمحبيه يستلزم بالضرورة توقُّف نشاط وفاعلية العقل المتصل بالحواس فترة معينة يتم فيها هذا الاتصال الفائق للطبيعة المحسوسة، وهذا هو الدهَش بالله، الذي سميناه الدهَش المطلق بسبب تساميه فوق المحدود والمحسوس.

واختبار الدهَش بالله لا يتوقف على استحقاقات معينة يشترطها الله ليعلن نفسه للإنسان سوى المحبة العميقة من كل العقل والقلب والنفس حسب الوصية. والعجيب حقاً أن العلاقة القوية والأساسية بين الحب الجارف الحار وبين الدهَش بالله تظهر بصورة اختبارية أكيدة. فكل الذين دخلوا في اختبار الدهَش بالله، هم في الحقيقة الذين دخلوا في حالة حب قلبي كامل لله، فبمجرد أن تبلغ حرارة المحبة القلبية حداً معيناً يكون ذلك إيذاناً بإمكانية الدخول في حالة الدهَش؛ لذلك يسمون الدهَش أحياناً بالسرور المفرط: Rapture. ولكن تظل النعمة غير مقيَّدة حتى بهذا الشرط، إذ يجوز للنعمة أن تفتقد الإنسان وتباغته فجأة دون أي استحقاق أو استعداد وتُدخِله في حالة الدهَش، وكأنه وقع فريسة محبوبة للحب الطاغي الذي يُفقِده حريته وإحساسه بنفسه لينعمه بمسرات ومعرفة لا يُنطَق بها.

لذلك فإن اختبار الدهَش لا يمكن أن نعتبره درجة للمتقدمين روحياً، بل يميل بعض الآباء، مثل سمعان الناطق بالإلهيات، إلى اعتبار الدهَش اختباراً مناسباً للمبتدئين، معتبراً أن عدم خبرة المبتدئين بالنور الإلهي الداخلي يجعلهم عُرضةً للاصطدام المفاجئ الشديد بحقيقة بهاء ذلك النور الفائق مما يسلبهم وعيهم في الحال، كالإنسان الذي اعتاد الظلام حينما يُفاجأ بنور شديد.

ولكن في رأينا، أن المبتدئين يكونون في حالة تؤهلهم للدَهَش ليس بسبب عدم تعودهم على النور الإلهي بل بسبب شدة حرارتهم الأولى التي تفوق العقل. فالمعروف بالاختبار العملي أن حرارة ومحبة الإنسان المبتدئ نحو المسيح تبدأ من القمة حيث تبلغ في اللحظات الأولى من حياته الجديدة أعلى مستوى لها، الأمر الذي يجعل الإنسان في فرح ونشوة روحية تفوق العالم كله وتفوق العقل حتى أن الإنسان يكاد يكون في حالة ذهول دائم.

لذلك نسمع مراراً وتكراراً من الآباء المعلمين الأوائل أنه يلزم للإنسان أن يعيش في شعور وحرارة وحب اليوم الأول الذي تاب فيه وترك العالم وراء ظهره. وقد أثبت كثير من الآباء

إمكانية هذه الحياة الحارة الدائمة المفعمة بالحب والدَهَش، مثل القديس مكاريوس الكبير الذي نقرأ عنه لدى پالليديوس أنه كان دائماً في حالة دهش.

وفي رأي القديس ديونيسيوس الأريوباغي أن الدَهَش عملية لا إرادية «يتقرب بها الإنسان نحو الله» وذلك مكافأة له عما يكون قد ابتعد به عن العالم، فبقدر ما يفقد الإنسان يجد، وبقدر ما يموت يحيا. والدَهَش يستلزم فعلاً أن يكون الإنسان خاضعاً لله خضوع الميت الذي استسلم لله كلياً.

وفي نظر الروحيين على وجه العموم نجد أن الدَهَش يعبِّر عن عملية ارتقاء وتصاعد سري للطبيعة البشرية نحو وضعها الأفضل الذي دُعيت إليه من واقع خلقتها، لأن الإنسان مخلوق ليتغير وهو مدعو ليتغير روحياً إلى أعلى ليصير أقرب إلى الله.

ولكن ليس الدَهَش اللاإرادي هو المدخل الوحيد لهذا الارتقاء أو التصاعد السري للطبيعة البشرية وتقربها من الله. فتوجد نفوس ذات مجال روحي عميق متسع وذات بناء عقلي قوي تستطيع، وهي في كامل وعيها، أن تبلغ درجة من التجرد الذاتي فيها تتقابل مع الحق الإلهي ومع وجه يسوع المسيح في صميم قاعدتها الواعية حيث تتواجه مع الله بكافة قواها وطاقاتها الروحية والفكرية والحسية معاً في لحظة واحدة حينما تبلغ النفس حالة صادقة من الحب. وهذا الاختبار الواعي الذي تتواجه فيه النفس مع الله بالرغم من أنه يكون أقل قوة وعمقاً وأصالة من حالة الدَهَش والغيبوبة الروحية غير الواعية وغير الحسية، إلا أنه يُعتبر أكثر صلة بحياة الصلاة وأكثر واقعية لجمال العبادة، حيث تذوق النفس فيه أسعد مسرات الروح وتعزياته وتصير كأنها في حالة سكر واعي.

وجميع الحالات التي ذُكرت في الكتاب المقدس التي وُصفت فيها النفس كأنها ثملة من الخمر وقورن فيها عمل الروح القدس في النفس بعمل الخمر في العقل، هي تصوير مباشر لحالة الدَهَش في حالاته المختلفة بين الدرجات الواعية وغير الواعية، كاختلاف درجات تأثير الخمر على العقل تماماً.

الدَهَش أي الجذب الإلهي

وما يلازمه من انفعالات نفسية

يُعتبر الدَهَش ظاهرة لبلوغ قمة التأمل ونهايته، لأنها تُعبِّر بكافة الوجوه عن حدوث حالة اتصال سري وثيق بين النفس والله التي هي غاية الصلاة وكل نشاط روحي.

ولأن الإنسان يكون منجذباً نحو الله بقوة خارجة عن إرادته، بينما تكون النفس والعقل وكل الحواس مخطوفة وغير قادرة على مباشرة نشاطها الطبيعي وفاقدة كل استجابة للمؤثرات الخارجية، فإن هذه الحالة تُعتبر تشخيصاً واقعياً للتأثير الروحي الكبير الذي يتعدى اللاشعور لشمل الشعور نفسه بكل ميكانيكيته وتنبيهاته. وهذا يُفصح عن أن الاتصال بين الله والإنسان إذا تم فعلاً فإنه يصبح من القوة والعظمة والعمق إلى الدرجة التي لا يمكن للإنسان فيها أن يتمالك نفسه أو يحتفظ بوعيه تماماً أو يظل يباشر اتصاله بهذا العالم الخارجي المنظور!... «الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠).

والجذب الإلهي ليس واحداً لكل السائرين على الطريق، فدرجة العمق والوضوح تختلف حسب المدرج الروحي الذي يسلكه الإنسان لأنها تعبِّر عن حالة اتصال بالله. وحالة الاتصال هي في جوهرها فعل إدراك ومعرفة فائقة، والإدراك بالتالي يتناسب دائماً مع اتساع القلب بالحب وحرية الضمير في الحق وهذه ليست واحدة عند الجميع. لذلك لا نسمع عن القديسين إلا همسات شاردة متباينة عن اختبارهم لهذه الحالة يمنعهم عن الاسترسال في وصفها لصعوبة التعبير وشدة الاتضاع أيضاً! وعلى حسب تعبير بولس الرسول:

- «أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم...» (٢كو ١٢: ٣)
- «اختُطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها» (٢كو ١٢: ٤).

ولكي نحيط بحالة «الدَهَش» التي ينتهي بها التأمل غالباً، يلزمنا جداً أن نعرض للنواحي الجسدية والنفسية والروحية التي تشترك بالضرورة في حدوث هذه الظاهرة غير العادية:

النواحي الجسدية:

الدَهَش الإلهي حسب الفحص الطبيعي هو حالة غيبوبة تتراوح بين العمق الشديد والخفة، وتتفاوت في مدتها بدءاً من الاستغراق الطويل إلى اللحظات القصيرة، حسب عمق وسرعة التأثر الذي يستجيب به الجسد لموضوع التأمل.

وهذه الحالة يدخل فيها الجسد إما تدريجياً وببطء كانتقال طبيعي من حالة التركيز الذهني في موضوع التأمل إلى حالة استغراق وانشغال شديد ثم إلى حالة الدَهَش، حيث يبتلع الموضوع كل أنواع النشاطات الذهنية والنفسية الشعورية ويصير الجسد في حالة غيبوبة.

وإما يكون الدخول في «الجذب» فجائياً وسريعاً لمجرد لمح الذهن لموضوع التأمل أو عرض منظر أو سماع كلمة لها صلة بالموضوع.

وسواء كان الدخول إلى الجذب تدريجياً أو فجائياً، فإن الإنسان يشعر أثناء العبور إليه بحالة مسرة فائقة أو سرور مفرط يكون بدوره عاملاً شديداً من عوامل الدخول في الغيبوبة.

وبمجرد أن يدخل الإنسان في حالة الغيبوبة، تظهر عليه العوارض الطبيعية التي يسجلها الطبيب عادة لإنسان في هذه الحالة، من انخفاض في سرعة التنفس وهبوط في الدورة الدموية وبرودة الجسد وتصلُّب الأعضاء وثبوت الجسد في وضعه مهما كان هذا الوضع مؤلماً وغير طبيعي.

وقد تصبح الغيبوبة عميقة لدرجة فقدان كل الإحساس وعدم الإستجابة لأي مؤثر ألمي، ولكن العجيب حقاً أن الجسد أحياناً لا يُضار من الإيذاء مهما بلغ هذا الإيذاء، كما في حالات التعذيب التي كان يتعرض لها الشهداء والتي كانوا بعدها يقومون معافين، وأحياناً لا تترك التعاذيب أي آثار جسدية فيهم مع أنها قد تكون جروحاً مميتة! فالجسد هنا لا يكون خاضعاً لقانون الطبيعة والألم بل خاضعاً لقوة القيامة كأجساد الثلاثة الفتية؟ وكجسد القديس بولس الرسول بعد أن رجموه في لسترة: «وجرُّوه خارج المدينة ظانين أنه قد مات! ولكن إذ أحاط به التلاميذ قام ودخل المدينة وفي الغد خرج مع برنابا» (أع ١٠: ١٩ و ٢٠).

ومثل كثير من الروايات العينية التي رواها الآباء عن الشهداء، والقديس أنطونيوس الكبير يشرح هذا بقوله:

[لأن الجسد يرجع تحت سلطان الروح القدس، فأنا أقول إن ذلك الجسد قد اتخذ شيئاً من الجسد المزمع أن يقوم في قيامة الصديقين] الرسالة الأولى.

هذه الحالة تشرح لنا تأكيد بعض الحجاج الأتقياء الذين يقولون إنهم حملوا «النور» – الذي يخرج من القبر المقدس في يوم السبت العظيم بكنيسة القيامة – وجعلوا الشموع المنيرة في وجوههم دقائق كثيرة و لم يتألموا ولا ظهر عليهم آثار حروق بل آثار فرح وسرور مفرط؟؟؟

ويقص لنا القديس مار إسحق قصة عن راهب آخر وهو في الحقيقة يتكلم عن نفسه فيقول:

[وكان هذا القديس يسهر كثيراً، وكان يقول: إنه في الليلة التي أسهر فيها من العشاء إلى الصباح وبعد ذلك أستريح قليلاً أقوم من النوم وأكمل نهاري كمثل من هو ليس في هذا العالم، ولا يصعد على قلبي أي فكر أرضي ولا أحتاج إلى تكميل قوانين الصلاة المفروضة لأني أظل نهاري كله ثابتاً في الدَهَش. وفي أحد الأيام وكان النهار الذي أريد أن آكل فيه قمت أصلي قبل العشاء لكي أفطر فوقفت في حوش قلايتي وكانت الشمس عالية (خلف ظهري) وأحسست أني بدأت بمزمور الخدمة فقط (أي المزمور الخمسين)، ومكثت حتى إلى ثاني يوم وإذا الشمس أشرقت في وجهي وحميت الثياب التي على جسدي و لم أكن أحس أين أنا، ولما أحرقت الشمس وجهي انجمع عقلي إليَّ ونظرت وإذا هو نهار ثاني. فشكرت الله على كثرة إنعامه على بني البشر إذ عرفت إلى أي رفعة وعظمة قد أهَّل طالبيه] الكتاب الأول – الميمر التاسع.

ولكن هذا الدَهَش أو الغيبوبة التي يتلذذ بها الجسد في حالة الجذب الإلهي هي إحدى الظواهر الثانوية على الطريق الروحي ولا تنمُّ عن قيمة روحية أساسية خلاصية في حد ذاتها. فهي إذا لم تكن على أساس إيمان صحيح واتصال روحي عملي بالله ويصاحبها نمو في المعرفة والسلوك والمحبة، فإن هذا الدَهَش أو هذه الغيبوبة تصير ظاهرة مَرَضية، ويصبح الدَهَش إدعاءً وتزييفاً من اللاشعور، كما عند الأشخاص الذين يسيرون على الطريق الروحي يدفعهم الطموح الشخصي إلى بلوغ الدرجات العليا في الحياة الروحية بسرعة. هؤلاء تشدُّهم حرارتهم المتولدة من اشتياقاتهم المريضة وتُدخلهم فيما يشبه الدَهَش تماماً.

ومعروف أنه يوجد أشخاص ذوو بناء نفسي وعصبي وذهني ضعيف، إذا وقعوا تحت مؤثر نفسي أو ذهني شديد فإنهم يفقدون وعيهم ويتعرضون لحالة إغماء أو غيبوبة، أو كالأشخاص المعروفين بالوسطاء في عمليات التنويم المغناطيسي، أو الأشخاص سريعو الأثر الذين يميلون إلى الاستغراق في التفكير في موضوع وسريعاً ما يستحكم على كل انتباههم وبالتالي يقودهم إلى حالة ذهول ثم ما يشبه النوم.

ولكن واضح في جميع الحالات المَرضية أن الفكرة المتسلطة أو الموضوع الذي يقود إلى حالة الغيبوبة غالباً ما يكون تافهاً أو غير معقول، كما أنه غالباً ما يكون راجعاً لقصة قديمة في حياة الفرد أو لخبرة مؤلمة.

أما في الدَهَش الإلهي فتكون الغيبوبة فوق مستوى العلل العصبية والعقلية، بل كحالة انسلاب تحسه النفس وتعيه في البداية بصورة متألقة واضحة، وكأنما يد إلهية حانية تحمل النفس وهي مستلقية عليها كطفل على ذراع أمه وترفعها إلى ما يشاء الروح، تدخل بعدها النفس في واقع الدَهَش وهي قائمة في حالة نشوة عالية لترى وتسمع وتحس ما لا يمكن أن يُعبَّر عنه بالكلام. أما الفكرة أو الموضوع الذي تنسلب له النفس فلا يخرج عن الله ذاته الذي يكون قد احتل كل اهتمام النفس ومحبتها بصورة حية صادقة.

هنا لا تكون الغيبوبة ناتجة عن ضعف البناء الجسدي للإنسان أو بسبب هبوط الطاقة العصبية، إنما تكون بسبب تفوق القوة الروحية على ميكانيكية الشعور البشريّ. حتى أنه كلما كانت البِنية العصبية والعقلية سليمة قوية؛ كلما كان الدَهَش في أصح وأروع أوضاعه.

كذلك فإن الفارق الباطني بين الغيبوبة الناتجة عن الضعف العصبي المرضي وبين غيبوبة الدَهَش الإلهي يمتد ليظهر بكل وضوح وجلاء بعد الغيبوبة، إذ أن الدَهَش السوي الذي هو بسبب النعمة ومن عمل الروح القدس يخصب حياة الفرد وينميها، ويجعله أكفأ في تفهُّم الحياة ومواجهة الواقع، بل ويحتفظ بصلابة البناء العصبي والفكري.

أما الغيبوبة الناتجة من الحالات المَرضية فتؤثر تأثيراً سيئاً متواصلاً على نفسية الإنسان وتجعله أقل كفاءة في مواجهة الحياة وتزيد بناءه العصبي ضعفاً.

والدَهَش الإلهي بالنسبة للنفس السوية يُعتبر غذاءً عالياً ووجبات دسمة تعيش عليها النفس سنين طويلة، ويكون لها بمثابة دعامات تستند عليها وقوة مذخرة تجدد نشاطها ليس الروحي فقط بل وحتى الجسدي أيضاً: «تُسمِعني سروراً مع فرحٍ فتبتهج عظامي المنسحقة» (مز ٥١).

ولكن في حالات النسك الشديد يواجه الإنسان بالضرورة حالة ضعف في الطاقة العصبية يجعل اختلاط الدَهَش بحالات غيبوبة مَرَضية أمراً محتملاً، ولكن من المعروف أن الإنسان الذي ذاق التأمل السوي ووصل إلى حالات الدَهَش الإلهي يسهل عليه جداً التفريق بين ما هو سويٌّ وما هو ناشئ عن ضعف أو مرض.

ومن الثمار المقدسة التي يتغذى عليها العالم كله والتي هي ثمار حالة دَهَش مقدس وغيبوبة بالروح: سفر الرؤيا للقديس يوحنا اللاهوتي، الذي يبين بوضوح صفات وإمكانيات الدَهَش كرسالة إلهية للبشرية كلها، كذلك أيضاً رؤيا دانيال النبي، وبقية النبوات التي تمَّت تحت تأثير الدَهَش.

النواحي النفسية:

الدَهَش الإلهي من جهة الفحص النفسي هو حالة مرونة في الشعور الواعي تؤهله للحركة والانسحاب من الواقع السطحي نحو باطن النفس وإعطاء اللاشعور (وهو ما يُعبَّر عنه بـ «الإنسان الباطن» بحسب تعبير الإنجيل) فرصة لممارسة أقصى نشاطه ولتوليه زمام السلطة على كل عمليات الحياة.

ومن حيث التعبير النفساني الدقيق، يُعتبر الدَهَش حالة تركيز كلي في موضوع «واحد» هو الله، فيه يُدفع الشعور حتى إلى حافته إما إرادياً أو لا إرادياً.

وفي حالة الصحة النفسية السوية ينتبه الإنسان من الغيبوبة الروحية وهو في أعلى حالات النشوة والتألق الروحي والذهني، حيث تزداد قدرة الإنسان على «الحدس» أي المشاهدة العقلية والتعمق الفكري مع الاستنارة في موضوع الدَهَش الذي انحاز العقل نحوه واستغرق فيه أثناء الغيبوبة التي قد تطول إلى ساعات طويلة وأحياناً إلى أيام، كما نعلمه عن الآباء العظام كالقديس مكاريوس الكبير والقديس أرسانيوس ومار إسحق ويوحنا الدلياني (الشيخ الروحاني).

فالدَهَش من وجهة النظر النفسية يُعتبر في الواقع شرحاً عملياً واقعياً لحالة تأمل بلغ أعلى حالاته أي «التركيز في الموضوع الواحد»، حيث تكون الغيبوبة الروحية من هذه الناحية «ضماناً» تصنعه ميكانيكية النفس للحفاظ على حالة التأمل العليا، لأن التأمل في درجاته الأخيرة يحتاج إلى هدوء كلي وانعزال عن صخب العالم وشوشرة الحواس، وكأنما تدرك النفس هذه الضرورة فتعمل لها لاشعورياً بانسحاب وتوقف الشعور والدخول في حالة اللاشعور لتكميل فرصة التأمل.

والواقع أنه يوجد بين أعلى درجة للتأمل الواعي أثناء اليقظة وبين الغيبوبة حالة قصيرة يكون فيها الإنسان متعطشاً جداً لاستكمال الصلة السرية مع الله والاقتراب إليه، وحينما يبدأ

فعلاً ليخطو أول خطوة نحو الأبدية فإنها تكون بمثابة استدعاء للغيبوبة.

والمعروف نفسياً أن شدة التركيز الكلي في الموضوع الواحد مع الرغبة الشديدة في الإنعزال عن كل موضوع آخر يمهد عملياً للدخول في الغيبوبة.

ومن هذا التشخيص النفسي نستنتج أن الدَهَش حالة مكملة للتأمل وملازمة له، وكأنما النفس تلتزم لاشعورياً بقول الرب: «متى صليت فادخل إلى مخدعك» (مت ٦: ٦)، حيث تمارس النفس، وهي في حالة نعاس الحواس، أسمى حالات الصلاة ويتم لها قول نشيد الأنشاد: «أنا نائمة وقلبي مستيقظ» (نش ٥: ٢)، لا بصورة رمزية ولكن كحقيقة واقعة!

وإذا كان الشرح النفسي لحالة الدَهَش يعتبر أنها حالة أدَّى إليها شدة التركيز الكلي في موضوع «واحد» وهو الله مع رغبة أكيدة في ترك ونسيان والانعزال عن «الكل» أي العالم، فإنه بذلك يتمشى إلى حد كبير مع هدف الإنسان الروحي السائر على الطريق، بل ويطابق أيضاً تعاليم الآباء القائلة: «إن خلاصة الطريق الروحي هي أن يترك الإنسان الكل ويلتصق بالواحد» كقول مار إسحق.

لأنه إذا كان التحليل النفسي يرى في الدَهَش حالة استغراق كلي في الموضوع الواحد الذي أصبح يملأ في الإنسان **كل تفكيره وقلبه وقدرته**، إلى الدرجة التي لا يعود يقوى فيها الإنسان أن يحتفظ بوعيه الشخصي أو يحتفظ بإحساسه بذاته منفصلاً عن موضوع اهتمامه، بل إنه يخضع ويستسلم بكل كيانه له، فإن هذا الوصف أيضاً يشرح غاية قول الإنجيل وسعي الروح أن يحب الإنسان إلهه من كل قلبه وفكره وقدرته وأن يموت الإنسان عن العالم والجسد ليحيا لله وهذا يتم في الدَهَش بصورة لا إرادية.

كذلك إذا كان التشخيص النفسي لحالة الدَهَش يحاول أن يثبت أيضاً أن الإنسان يصبح في الدَهَش متحداً فعلاً بموضوع اهتمامه، لأن الإغماء يُعتبر أقصى موقف عملي يمكن أن يعبِّر ويكشف عن صلة الإنسان بالموضوع الذي يبتلع ليس تفكيره فحسب بل وكل نفسه، إذن فالدَهَش من وجهة نفسية يطابق المعنى الروحي الإنجيلي كاختبار حي لبلوغ حالة الاتحاد بالله التي يسعى لها الإنسان بالإيمان على مدى الطريق وبكافة الوسائط الروحية.

وقد لوحظ في سرد أخبار الآباء القديسين أن في حالات الدَهَش المتكررة يصبح مجرد لمح

أي إشارة رمزية تخص موضوع التأمل، كفيل أن يُدخل الإنسان في حالة الدَهَش في الموضوع نفسه، سواء كانت هذه الإشارة عملية كالوقوف أمام المذبح للتناول من الأسرار المقدسة مثلاً أو النظر إلى الصليب أو سماع لحن أو آية معينة من مزمور محبوب.

وهذا يعلله علماء النفس بازدياد قدرة الشعور على التحرك إلى الداخل والانسحاب من الواقع المحسوس، أما من جهة الروح فهذه السهولة في الدخول إلى الدَهَش ترجع إلى توطيد الصلة بين النفس والله وإلى جذب الله المستمر: «اجذبني وراءك فنجري» (نش ١: ٤)، وإلى اعتياد النفس على الدخول في حظيرة الرب: «تدخل وتخرج وتجد مرعى» (يو ١٠: ٩).

ولكن التعليل النفسي لحالات الدَهَش والتشخيص الطبي للغيبوبة يختص فقط بالظواهر وعللها، لذلك يراها حالات نفسية محضة ويظل في حيرة من أمر النتائج الباهرة التي يحصل عليها الإنسان الذي يجوز هذا الاختبار النفسي، لأنها تتعدى مجرد التأثيرات النفسية والشعورية وتصل إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه الإنسان من حيث السمو الذهني وارتقاء المعرفة والنظرة العقلية الحادة، مما يثبت قطعاً حصول اتصال بين النفس والله وخروجها محمَّلة بهبات إلهية ممتازة.

فمسألة الدَهَش ليست، إذن، مجرد تركيز كلي في فكرة واحدة تسلب الشعور وتُدخل الإنسان في غيبوبة كما يعللها علماء النفس، ولكنها شيء أعمق وأكثر من ذلك بكثير فهي تشمل حدوث تغيرات باطنية فيها تتوحد كل القوى الداخلية للنفس وتتعاون معاً ثم تنفتح فجأة على المجال الإلهي الأعلى لتخدم قضية أهم بكثير من قضية الشعور والحواس والعالم الظاهري: تلك هي قضية الموضوع «الواحد» والحياة الأبدية التي تستعلي وتستظهر على الحياة الحاضرة بالنسبة للنفس بصورة عملية رائعة، حتى أنه يمكن أن يُقال إن الدَهَش على حسب التشخيص النفسي يصبح شهادة من الشعور واللاشعور كليهما على أهمية وعظمة «القيمة الإلهية الخالدة» أو الحياة الأبدية في اعتبار الإنسان.

إذ نرى أن الشعور عندما يعجز بكل اتساعه وإمكانياته عن مواجهة الله، ينسحب في الحال ليعطي الفرصة للاشعور الذي يُعتبر مجاله أوسع وأعمق من الشعور، ثم نرى اللاشعور يعود من مغامرته بغنائم تفوق في قيمتها كل أمجاد هذا العالم، ويخرج الإنسان من هذا الاختبار أكثر قوة وأكثر نفعاً وأكثر سعادة.

النواحي الروحية:

أما الدَهَش من وجهة الروح فهو درجة روحية مرتفعة لإدراك غير المدرَك.

هذه الدرجة تظل مختبئة في الكيان النفسي إلى أن يواجهها الإنسان فجأة وذلك عندما يجهد الوعي الروحي للامتداد نحو الله مضحياً بكل شيء، فيفاجأ بالإجابة على هذا الجهد بالدخول في الدَهَش حيث يكتشف الإنسان أغنى الهبات التي يمكن أن تذوقها نفس في هذا العمر، إذ أنها تدخل في شركة سرية مع الرب وتذوق الحياة الأبدية!

فالنفس البشرية أثناء الدَهَش تحيا في الأبدية كما يحيا الجسد الطبيعي الآن في هذا العالم.

ولأنه يستحيل على الإنسان أن يمارس الحياتين معاً بالجسد، فإن الجسد بحواسه وعقله الشعوري يتخلف معطياً الفرصة للحياة الأفضل.

لذلك، فإن الدَهَش بالنسبة للتأمل يُعتبر حالة مؤقتة لتكميل السعي وبلوغ الاتحاد، ولو كسبق تذوُّق، حيث الوصول إلى الله لا يكون بالرؤيا من بعيد وإنما بالوجود الواقعي في الحضرة الإلهية وبالاتصال الفعلي أيضاً حيث يعرف الإنسان الله معرفة الحبيب لحبيبه.

في التأمل يعرف الإنسان كثيراً عن الله ويدرك أموره وأعماله ومشيئته ومواعيده، ولكن في الدَهَش يعرف الإنسان **الله** ويدركه بغير منظر أو صورة. لذلك فمقدار الغبطة والمسرة والفرح العميق الذي يملأ نفس الإنسان أثناء الدَهَش يكون فوق الوصف. كذلك تكون الثقة ويكون الاقتناع والرضى الذي يملأ النفس من جهة أنها رأت الحي الخالد الأبدي الذي لا يتغير والحقيقة والحب والرحمة التي لا تُرى، شيئاً لا يُنسى إلى أبد الآبدين، وكأن النفس قد حلَّت لغز الحياة والوجود وكشفت لغز نفسها واطمأنت إلى المصير!

أما الدَهَش من جهة الجسد والحواس فيُعتبر الستارة المعتمة التي لا بد أن تُلقَى على الحواس حتى يتسنى للروح أن ترى ما للروح.

وأما الدَهَش من جهة الروح فهو بمثابة رفع البرقع الموضوع على العقل، لتعاين النفس الله بالمشاهدة العقلية الحرة وبالوعي الباطني الكامل اللذين هما الوسيلة للدخول في حالة شركة واتصال. لأنه لا يمكن معرفة النور إلا بالدخول في النور!

وحالة الدَهَش في كثير من الأحيان لا تبلغ درجة العمق الكافي للدخول في غيبوبة كاملة،

فكثيراً ما تقف عند حالة الاستكانة العميقة والهدوء الداخلي حيث تواجه النفس حالة سرور مفرط ونشوة روحية، وأحياناً يرافقها إحساس بارتفاع النفس وتحركها خارج الجسد ولكن لا تبلغ إلى الغيبوبة. وهنا يحس المتأمل نفسه وكأنها مخطوفة إلى أعلى تعاين وتشاهد الأمور غير المنظورة ولكنه يكون في كامل وعيه، غير أنه لا يستجيب للمؤثرات الخارجية بسهولة وربما لا يستطيع أن يستجيب على الإطلاق. ولكن المعروف أن مقدار اطلاع النفس على الحقيقة وشركتها في النور يتناسب مع عمق حالة الدَهَش والاستغراق الكلي في اللاشعور.

والذي يميز حالة الدَهَش الحقيقي من حالات الغيبوبة المزيفة من الناحية الروحية، هو شعور الشخص في حالة الدَهَش الروحي الصحيح بفقدان فرديته واختفاء الإحساس بذاته من جراء **الاتحاد** السري الذي يتم بين النفس والله، لأن وجود الله في النفس يجعلها لا تحس إلا بالله حيث يكون **هو** مصدر كل فرح واهتمام. أما اهتمامها وفرحها بالله فيثبت ضمناً عدم ملاشاة كيانها!!

أما الغيبوبة المزيفة فلا تؤثر سلبياً على ذاتية الإنسان بل تزيدها ضخامة، وتجعل «**الأنا**» المصدر والغاية التي تبدأ وتنتهي إليها كل مسرة واهتمام.

كذلك أيضاً، فإن المعرفة المتولدة من الدَهَش الإلهي تختلف عن أية معرفة تتسرب إلى العقل بواسطة الغيبوبة المزيفة التي يصطنعها اللاشعور بواسطة الحرارة المتولدة من الطموح والرغبة في الارتقاء لإشباع مسرة الذات. فإن المعرفة المتولدة من الدَهَش الإلهي بالرغم من أنها ترفع من قدرات الحكمة والتمييز والإفراز الروحي إلا أنه لا يمكن شرحها بالكلام لأنها ليست مكتسَبة بالفهم العقلي، ومثلها كمثل معرفة الراحة والهدوء والسلام والفرح والحب المتولدة من الدخول فيها، فهي معرفة خبرة ووجود واتحاد في الله، معرفة الحياة بقبول الحياة.

أما المعرفة المزيفة فهي من صُنع العقل نفسه، لذلك يمكن تذكُّرها وسردها بكلماتها لأنها تكون موجودة تحت مستوى العقل وغالباً تكون تافهة وبغير ذي نفع.

ولكي نفرق بين الصحيح والمزيف من الدَهَش، يلزم أن نضع الدافع الذي يقود النفس إلى الصلاة والتأمل في الموضع الأول بل في القمة لأنه هو الذي يحدد نوع الدَهَش إن كان إلهياً أم مزيفاً، فالدافع الصحيح السوي ينشئ خبرة صحيحة سوية على الدوام!

أقوال الآباء في الدَهَش:

يلزم لمن يرتفع إلى الإدراك التصوري أن يستغني عن الإدراك الحسي الجسدي. لأن الخيال شيء ومنطقة المحسوس الجسدي شيء آخر. كذلك من يصل إلى الإدراك العقلي الكامل يلزمه أولاً أن يفقد الإدراكين الجسدي والتصوري كليهما معاً، حتى يستطيع أن يدرك الحق إدراكاً واضحاً غير مزيف بتداخل الحواس والتصور. أي يدرك الحق كما هو في ذاته وليس كما يصوره الخيال.

وفقدان الإنسان للإدراك الجسدي والتصوري معاً هو الذي يُعبَّر عنه بكلمة «الدَهَش». وهي حالة يشبِّهها القديس أوغسطينوس بحالة ما بين النوم والموت:

١٦٤ - الانتباه العقلي حينما يفارق الحواس الجسدية ويتخلى عنها يسمى حالة ذهول (دهش) وحينئذ لا يرى الإنسان كل ما يعرض من الأجسام أمام عينيه وهما مفتوحتان، كما لا يسمع الأصوات أيضاً. هي حالة متوسطة بين النوم والموت، فيها تكون النفس مخطوفة ومتخلية عن الحواس الجسدية بدرجة أكثر مما هو في حالة النوم الطبيعي ولكن أقل طبعاً مما في حالة الموت!

أوغسطينوس

وفي قطعة أخرى يشرح بوضوح خروج العقل عن دائرة الحواس وأهمية ذلك:

١٦٥ - الذهول هو ذهاب العقل كما يحدث أحياناً من الفزع والرعب، وهو يكون لاستعلان ما، وذلك بإبعاد العقل من منطقة الحواس الجسدية حتى يتسنى للروح أن تطَّلع على ما يُراد اطلاعها عليه.

أوغسطينوس

وهنا يعترضنا سؤال عن كيف تستطيع النفس مفارقة الحواس الجسدية، هل بخروجها من الجسد؟ فإذا كان الأمر كذلك ألا يكون الجسد في حالة موت حقيقي؟ يشرح ذلك القديس أوغسطينوس في موضوع رؤيا القديس بولس الرسول:

١٦٦ - لم يعرف بولس الرسول حينما اختُطف إلى السماء الثالثة **هل كان في الجسد؟** لأن النفس تكون في الجسد حينما يكون حياً، سواء كان في يقظة أو في نوم، أو يكون في حالة ذهول حيث تكون نفسه مبعدة عن الحواس الجسدية فقط، **أو تكون نفسه قد فارقت جسده فعلاً حتى أن جسده انطرح ميتاً** إلى أن انتهت الرؤيا فعادت النفس إلى الأعضاء الميتة، لأنه لم يستيقظ كمن هو قائم من نوم ولا كمن استفاق من حالة ذهول وعاد إلى حواسه، **ولكنه قام كميت عاد إلى الحياة.** ولأنه لم يكن متأكداً حينما فارقت نفسه الجسد أكان جسده في حالة موت تام أم ترك الجسد حياً بطريقة ما والنفس فيه، والعقل وحده هو الذي اختُطف ليرى ويسمع أمور هذه الرؤيا غير المنطوق بها. ربما من أجل هذا السبب قال: «أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم».

أوغسطينوس

والموضوع لم يستغلق فهمه على القديس أوغسطينوس بوضعه الأمر بين علامات الاستفهام، وإنما هو يعرض موضوع الذهول أو الدَهَش عرضاً يوضح فيه احتمال وقوعه على نوعين:

فالنوع الأول: اختطاف العقل فقط بعيداً عن حواس الجسد حيث **يبقى الجسد مع النفس.** وفي هذه الحالة يستجيب الجسد لكل المؤثرات الخارجية ولكن بدون توجيه العقل إنما بنوع من التلقائية. فهو يرى ويسمع ولكن لا يستجيب إذ يكون في حالة ذهول. كما سبق في قول القديس أوغسطينوس.

ويقول في ذلك الأب سيرافيم (الذي من صروف):

١٦٧ - حينما ينشغل الإنسان داخلياً بالتأمل في النور الأبدي يكون عقله نقياً لا تشوبه تصورات الأشياء المحسوسة **إذ يكون مبتَلعاً بتأمل ذلك الجمال** الفائق غير المخلوق، وينسى كل متعلقات الحواس ولا يرغب في التطلع لشيء حتى إلى نفسه، ويتوق أن يختفي عن كل الأنظار حتى لا يُحرم من الله.

الأب سيرافيم (ص.)

١٦٨ - أعرف إنساناً بعد أن تدرب بالعمل وتكميل قوانين صلاته، وصل إلى هذه الرتبة: أنه لم يقدر أن يصنع صلاة قدام إنسان، لأنه في بدء خدمته أو في وسطها كان يصنع سجدة **فيُبتلَع عقله بالدَهَش بالله،** وكان يتوقف عن المعرفة وكل الحركات، وكان يثبت الليل كله بغير ذكر، وعندما كان يقوم على رجليه وهو مستأنس بخدمته تشرق في عقله زيارة الروح وتحل فيه ويدوم بلا حركة بدهش عظيم... يا للعجب كيف تحتمل أعضاء الجسد في هذه المدة كلها صعوبة انحناء الجسد أو الوقوف بغير حراك! لكن هي اللذة الروحانية العجيبة التي هوَّنت عليه احتمال هذه المشقة. وكان يقول: إنه في بعض الأوقات إذا تحركتُ من مكاني وأنا في هذه الحالة لضرورة ما، أمشي حتى ألتقي بحائط وأصطدم به دون أن أراه **إذ يكون الكل قد**

ارتفع من أمام نظري ومن دائرة حواسي.

الشيخ الروحاني

١٦٩ - كان إنسان يقول: إنني إذا جلست أحياناً **وعقلي مسبي بدهشة نظر الله وقد ابتُلع باللذة،** يكون وقت أن يخطر على جسدي غفلة النوم أن الملاك الذي معي يهز جسدي ليستيقظ، ولكن العقل أثناء ذلك لا يضطرب أو يعود من موضعه.

الشيخ الروحاني

١٧٠ - وربما خُطف العقل بواسطة الروح مرشده ليسبح في بحر النور الأزلي. قال لي أخ: **حينما كان يُخطف عقلي لهذه النظرة البهية** كنت أراه يتفرس في بحر الحياة يسبح في لجج من نور، ويستنشق رائحة الحياة، ويدهش ويتحلى بفرحة عظيمة. ويتغطى بالنور ويغلي بفعل الحب والفرح وبإشراق عجيب، ويتأمل في جوقات الملائكة المشرقة حوله، وينبسط معهم وفيهم ويقدس بتقديسهم بالعجب، ويخطفونه ليلج معهم مناطق النور العليا فينحبس فيها ويُذهَل بنظرة المجد المحيطة بالنور الأعظم. **وهناك يثبت العقل إما لحظة صغيرة أو ساعة واحدة أو النهار كله أو الليل كله حسب مشيئة الروح وكقدر العطية.**

وفي الوقت الذي تكون فيه هذه الموهبة في النفس، فلو كانت كل الخليقة أصواتاً واضطراباً، لا تستطيع أن تجعل العقل يهبط من موضعه أو يعود لذاته من فرط انشغاله من التعجب والدَهَش وفقدان كل صلة بشعور الجسد.

الشيخ الروحاني

ويقول القديس ديوناسيوس الأريوباغي في اختطاف العقل:

١٧١ - يدخل العقل بالفعل إلى ذلك الغمام الروحي غير المدرَك حيث هناك يتعرى من كل شعور بالمعرفة، ويثبت في ذلك غير المنظور وغير المحسوس ويلتصق بالتمام في ذاك الذي هو فوق الكل. وذلك إنما يكون بإبطال كل قوى العقل التي للمعرفة (من جهة الحس والتصور) متحداً فقط بأعلى نقطة منه في ذلك الشيء... إذ أنه حينما يصل إلى درجة التخلي الكامل عن كل معرفة حينئذ يصل إلى معرفة الحق الذي هو فوق الفهم.

ديوناسيوس الأريوباغي

ويقول في ذلك أيضاً القديسون:

١٧٢ - ولكن إذا كان عقلنا مبدَّداً في الأشياء الأرضية فهو لن يستطيع بأي حال أن يبصر شيئاً لا في ذاته ولا في طبيعة النفس. لأنه يكون مُساقاً في أفكار كثيرة وقد أعمته المعوِّقات، لذلك فإن أول خطوة هي أن ينجمع العقل إلى ذاته ثم **يحاول أن ينقلب ليعطي ظهره للعالم ثم يهمُّ صاعداً فوق ذاته مستسلماً لنية التأمل** في خالقه غير المنظور.

ولكن العقل لا يستطيع أن يجمع ذاته إلا إذا تدرب كيف يصدُّ ذاته عن كل الخيالات والتصورات، سواء كانت تخص الأشياء الأرضية أو السمائية، ويرفض ويزدري بكل المشاعر التي تعرض على فكره حتى يكون في داخله كما لو كان قد فقد المشاعر والإحساسات جميعاً، لأنه حينما تفارق هذه الخيالات عين العقل حينئذ ترى النفس قدر ذاتها كما خُلقت دون الله وأرفع من الجسد، حتى إذا ما تقبلت الحياة ممن هو فوقها تعطيها للجسد الذي هو دونها وتحت سلطانها».

غريغوريوس الكبير

١٧٣ - وهذه النار (الروح القدس) تحرق الخشبة التي في العين الباطنة وترد العقل إلى نقاوته، فإذا عادت إليه قوة النظر الأصلية فلا ينقطع من معاينة عجائب الله.

أبا مكاريوس الكبير

١٧٤ - وقفتُ على قمة العالم عندما أحسست في ذاتي أني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً، لأن الذي يحتقر أمور هذا العالم ويزدري بها حتى الجيدة الحسنة فيه فإنه يتعالى فوقها جميعاً.

١٧٥ - **والعقل بقوة التأمل يُحمَل بعيداً عن الجسد** ولكنه بثقل فساده يبقى متعلقاً به، وعلى الرغم من كونه بعيداً عن العالم فإنه يبقى متعلقاً بالجسد.

١٧٦ - وغالباً يكون عقل الأبرار منشغلاً جداً بتأمل الأمور العليا، **حتى أن منظرهم يكون كمن أُصيب بمخدِّر.**

غريغوريوس الكبير

١٧٧ - النظر الإلهي هو استعلان العقل **بلا حواس.**

مار إسحق السرياني

١٧٨ - لأن طبيعة القوات الروحانية لا يمكن أن تُنظر خارجاً عن العقل. وهذه النظرة بدون نقاوة العقل (أي بلوغ الدرجة المطلقة بعيداً عن الحواس الجسدية والتصور الفكري) لا يمكن للإنسان أن يقبلها.

١٧٩ - لأن جميع حركات الصلاة وترتيبها إنما توصل العقل إلى بداية النظرة وإلى ذلك يكون جهاد وتعب، ولكن **بعد هذا الحد تتخلف الصلاة ولا يكون إلا دهَش وتعجب بنظرة العقل. ولا يكون للعقل سلطان في ذاته** وإنما ينساق ويتدبر من قوة أخرى إلى حيث ما لا يدري. لأنه يملك (على الطبع) في ذلك الوقت سكوت، ويُخطف العقل دون أن يحس بشيء. هنا يصدق القول: إن كان بالجسد أو بغير الجسد لا أدري حسب ما يقول الكتاب.

١٨٠ - هذه النعمة يؤهَّل لها الإنسان، إذا ما تعرى العقل من الإنسان العتيق.

١٨١ – وأما قوله: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال لا يحس الإنسان بتنعيم الملكوت، فقد قالوا في ذلك إن ملكوت السموات هو التاوريا الروحانية، وهو لا يُقبل بالأفكار والمعرفة ولكن يذوقها الإنسان بالنعمة؛ فإلى أن يتطهر الإنسان من الأفكار والمعرفة لا يكون فيه كفاية ولا للسماع بها، لأنه لا يُقتنى بالتعليم والتلقين، ... فإن كنت يا ابني قد بلغت إلى النقاوة التي تُقتنى بالقلب ونسيت معرفة العالم فإنك تجدها بغتة داخلك من غير بحث أو فحص.

١٨٢ – بدون النور الإلهي ما تقدر عين العقل أن ترى الحق، كالعين الجسدية فإن قوة نظرها لا تعمل إلا بحضور النور الطبيعي.

١٨٣ – إذا ارتفع العقل من الكائنات عند ذلك تزول من الجسد كل علامات الصلاة حتى الدموع وكل حركة وكل إحساس، ما خلا نبضات الحياة الطبيعية، لأن تلك المعرفة (أي رؤية الحق) لا تتنازل لتأخذ مشاركة الحواس، أو تستعير أشكالاً وصوراً من هذا العالم المحسوس بل بنظر العقل ... إن كان بالجسد أو بغير الجسد لا أعلم، الله يعلم. هكذا سمع المغبوط بولس كلاماً لا يُنطق به ما لم يسمعه بحواس الجسد، ونظر أشياء لا تُنظر بالحس ولا تُدرك بأشكال متجسمة ولا بمشاركة الإرادة، بل بحركة العقل حينما يُختطف من الجسد.

١٨٤ – هو القديس أنطونيوس إذ كان واقفاً يصلي على قدميه تسع ساعات **أحسَّ أن عقله اختُطف وارتفع**. وآخر مكث في الدَهَش أربعة أيام.

١٨٥ – وأما تدبير السيرة الروحانية **فهو فعل بعيد عن عمل الحواس**، وهو الذي كتب عنه الآباء جميعاً في كتاباتهم. لأن عقول القديسين إذا ما قبلت التاوريا (النظرة الروحية أو التأمل الروحاني) عند ذلك ترتفع وتزول كثافة الجسم. فتكون النظرة حينئذ روحانية بحتة، ومن هذه النظرة يدرك العقل إدراكاً حراً نقياً ما هي المعرفة الحقة، هذا هو الدَهَش والتعجب بالله عز وجل، وهذا هو التدبير العظيم المزمع أن يُعطَى بحرية في الحياة الأخرى التي لا يشوبها موت بعد القيامة. حيث لا تكفُّ حينئذ الطبيعة البشرية هناك ولا تنقطع قط من حالة الدهش الدائم بالله تعالى. ولا تتصور هناك شيئاً من الخلائق أو ترتبط بها لأن الله يكون الكل في الكل.

١٨٦ – **إذا انقشعت حواجز الآلام من أمام عين العقل**، وشخَصَ العقل في ذلك المجد، فإنه للحال يتعالى بالدهش.

١٨٧ – يا يسوع إلهي الفريد في قوته، طوبى للذي حظي بمعونتك وقد وضع في قلبه مصعداً إليك! رُدَّ وجهنا أنت يا رب من العالم بالاشتياق إليك! إلى أن ينظرك كما أنت! **لا تدعنا نركن إلى الغيِّ كأنه حق!** جدِّد في فكرنا الاجتهاد والحرص قبل الموت لكي نعلم قبل خروجنا كيف كان دخولنا إلى هذا العالم وكيف يكون خروجنا منه، إلى أن نكمل العمل الذي قد دُعينا إليه أولاً بحسب قصدك بوضعنا في هذه الحياة.

نرجو بفكر مملوء ثقة أن نقبل العظائم كما بشر بها الإنجيل، ونتذوق المواعيد التي أعدَّها محبتك في التجديد الثاني، الأمور التي ذِكْرُها محفوظ في أمانة السر. والمجد لك يا رب. آمين.

١٨٨ - فإذا أدركته النعمة، **فإنه يسكر منها مثل الخمر، وتنحل أعضاؤه، ويمكث فكره حائراً، ويُسبَى قلبه خلف الله**، ويصير كأنه سَكِرٌ من الخمر. حتى أنه وهو لابس جسده لا يعلم إن كان في هذا العالم أم لا. هذا هو مبدأ النظرة الروحانية واستعلان الفكر لها.

١٨٩ - الذين يقولون إنه يمكن رؤية سيدنا في هذا العالم بالحواس هم مثل الذين يعتقدون أن في العالم الجديد شيئاً محسوساً، وأن تنعُّم الملكوت يكون بالحواس والوجود فيه يكون مادياً، وهذان الإثنان قد زاغا عن الحق. لأن الشيء بشبهه يكون. أوغريس الطوباوي هو شاهد أمين لأنه قال: إن كان الجسد البشري هو جزء من العالم، فإذا ما زال العالم فمعلوم أن شكل الجسد يزول أيضاً.

١٩٠ - **في الدرجة الأولى**: يتهاون الإنسان بأمور العالم وبالتخايل البشري، وهذه هي الأمانة (الإيمان).

في الدرجة الثانية: يثق الإنسان بالله ويتكل على الخالق فيثبت في الحق.

في الدرجة الثالثة: يتأجج الحب في قلبه فيُبتلع بلذة مذاقته ويرتمي في أحضان الله كالطفل مع أمه.

في الدرجة الرابعة: تنسكب عليه حكمة الله وتؤهِّله للنظرة الفاخرة التي بالروح.

في الدرجة الخامسة: يُختطف منه العقل بالذهول، ويدرك بقوة الروح الدهش في الله.

ولكن إن لم يصْفُ العقل ويتنقَّ من حركات الجسد والفكر لا يستطيع أن يشترك في عمل الروح.

مار إسحق السرياني

١٩١ - إنني في وقت ما كنتُ جالساً وقد سُبي عقلي بالنظر الإلهي، ولما انحل تنهدت بقوة.

الشيخ الروحاني

نتحقق من أقوال القديسين أن درجة الدهش الأولى - أي رِفعة العقل الحر الطاهر الخالي من حركات الجسد والفكر - إنما في بدايتها تكون اجتهاداً من قِبَل الإنسان. فهي كما يقول غريغوريوس الكبير:

«وقفت على قمة العالم عندما أحسست في ذاتي أني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً ... لأن الذي يحتقر ويزدري بأمور هذا العالم حتى الجيدة الحسنة فيه فإنه يتعالى فوقها جميعاً».

وكذلك يقول:

«ولكن العقل لا يستطيع أن يجمع ذاته إلا إذا تدرب كيف يصدُّ ذاته عن كل الخيالات والتصورات،

سواء تلك التي تخص الأمور الأرضية أو السمائية ويرفض ويزردي بكل المشاعر التي تعرض عليه».

إذن، فالذين تمرنوا على جمع فكرهم وضبطه أثناء الصلاة وعدم السماح للحواس الجسدية بالانشغال بشيء طالما كان الإنسان واقفاً في الصلاة، يسهل عليهم أمر رفعة العقل للتحرر من الحواس جملة، ومن تصورات الفكر وطياشته في الأمور العالمية عموماً. والذين تدربوا على الهذيذ يكون عندهم الاستعداد والموافقة للدخول في هذه الدرجة من التحرر من بقية الحواس استعداداً للانطلاق للرؤية. كل هذا من جانب واحد وهو جانب الاجتهاد البشري، ولكن يستحيل أن يرتفع العقل ليدخل في منطقة المعقولات المطلقة إلا بمساعدة ومؤازرة النعمة كما قرأنا لمار إسحق:

«بدون النور الإلهي ما تقدر عين العقل أن ترى الحق (الله)، كالعين الجسدية فإن قوة نظرها لا تعمل إلا بحضور النور الطبيعي».

فالنعمة تدخل عندما تجد استعداد العقل كاملاً ليهُمَّ مرتفعاً فوق المحسوسات والتصورات، **لترفعه النعمة من تحت سلطان الحواس الجسدية، وتحرره من سلطان الماديات**، وتُشركه معها لتُحضره أمام الله نقياً مطلقاً. وهذا الانتقال يُعتبر النقطة الحرجة للعبور من العالم المادي إلى العالم الروحاني الحر. ولكن بمجرد تدخُّل النعمة، يحصل هذا جميعه في لحظة ويكون نتيجة ذلك أن يُترك الجسد بلا مدبِّر، إذ يكون العقل، وهو القوة المسيطرة على حواسه وإدراكاته، قد فارقه ليعاين هذه الموهبة العظمى التي من أجلها جاهد هذا الجهاد الشاق اللذيذ.

ونقول، ليس على سبيل التشجيع وإنما لتقرير حقيقة، أن أي جفاف أو ملل أو قلق أو ضيق يعتري الإنسان وهو في بدء اختباره للتأمل لا يكون علامة على عدم الاستعداد أو الفشل، لكن على العكس تماماً، فهو علامة الدخول في عمق التأمل، وما هذا الضيق والملل والقلق والجفاف إلا بسبب الضيقة التي تعتري النفس عند محاولة تخلُّصها من الجسد الذي ارتبطت به بطول الزمن ارتباطاً صعباً يحتاج إلى جهد وتعب وصبر لتحطيم قيوده، وهذا ما يعبِّر عنه القديس بولس الرسول بالتحرر من الإنسان العتيق.

ويحثنا القديس ديوناسيوس الأريوباغي على التمرين على التاوريا بقوله:

١٩٢ - إذا قصدت التمرين على التاوريا (أي التأمل بالروح)، أُترك وراءك الحواس وكل **عمليات العقل بأنواعها**، سواء التي بممارسة التصور أو الفكر أو البحث في الأمور في كل ما هو موجود وكل ما هو غير موجود أيضاً، واجتهد صاعداً ببساطة غير مهتم بمعرفة شيء ما. فعندما تتخلى عن كل هذه ببساطة وطهارة تاركاً الكل

ومحرراً من الكل حينئذ تُحمَل على شعاع النور إلى ذلك الغمام الإلهي.

ديوناسيوس الأريوباغي

وله أيضاً:

١٩٣ – الشرط الأساسي لكي ندرك ذلك الذي يفوق كل معرفة وكل رؤية **هو أن لا نُقحم ما لنا من معرفة أو تخيل** مهما علت وحينئذ نصل إلى المنظر الحقيقي والمعرفة الحقة.

ديوناسيوس الأريوباغي

أما النوع الثاني من الدَهَش:

وهو تحرر النفس كلية من ربقة الجسد، فهو انسلاب النفس وخروجها متحررة من كل علاقة تربطها بالجسد، حتى أن الجسد يُترك مُسجًّى في شبه حالة موت، لا يستجيب للمؤثرات الخارجية في شيء، حتى ولا إلى قطع الأعضاء! ويكون العقل رفيق النفس في نظرتها العليا. ويستمر الإنسان على هذه الحالة إلى أن تعود النفس إلى الجسد مرة أخرى. وهذه الحالة هي التي اختبرها القديس بولس الرسول تماماً عندما اختُطف إلى السماء الثالثة وعاد مرة أخرى وهو متحير هل كان في الجسد أم خارج الجسد؟

ويقول في ذلك القديس أوغسطينوس:

١٩٤ – **عند الوقوع في درجة الدَهَش الروحي الكامل يفقد الإنسان كل مشاعر الجسد، ويُحمل إلى الله**، ثم يعود إلى حالته الأولى.

١٩٥ – **النفس تكون مخطوفة ومتخلية عن الحواس الجسدية** بدرجة أكثر مما هو في حالة النوم الطبيعي، ولكن أقل طبعاً مما هو في حالة الموت.

١٩٦ – إن ذلك الاستعلان الفائق مُنح لبعض الرجال القديسين، وهم لم يموتوا بالمعنى الكامل حتى يصح أن يُقال إنها جثث تستوجب الدفن.

أوغسطينوس

ففي هذه الأقوال التي للقديس أوغسطينوس، يقلل من المغالاة في القول إن الجسد يكون في حالة موت كامل، أي أن تكون النفس – وهي مصدر الحياة – قد فارقته نهائياً، ولكنه يرى أن الجسد إنما يكون في حالة حياة كما في قوله عن رؤيا بولس الرسول: «بطريقة ما، كان الجسد حياً».

ويورد الأب يوحنا كاسيان اختباراً عملياً في هذا الموضوع هو طريف للغاية، وقد سمعه من أحد آباء البرية واسمه «يوحنا» أيضاً:

١٩٧ – بنعمة الله الصالحة أذكر أني كنت غالباً أُمسَكُ في حالة ذهول **لا أعي فيها هل كنت في الجسد؟** تنقطع نفسي فجأة من كل المناظر الخارجية وتنقطع من الأشياء المادية على وجه العموم، حتى أنه لا عيني ولا أذني كانتا تقومان بعملهما العادي. ونفسي تمتلئ بالهذيذ الإلهي والتأملات الروحية، حتى أني، غالباً، ما كنت أعي وأنا في وقت المساء هل تناولت طعام يومي أم لا، وأحياناً يُمسي عليَّ اليوم فلا أذكر هل كسرت صيامي في الأمس أم لا.

الأب يوحنا (عن مناظرات يوحنا كاسيان)

١٩٨ – إنه في الليلة التي أسهر فيها من العشاء إلى الصباح وبعد ذلك أستريح قليلاً، أقوم من النوم وأكمل نهاري كمثل من هو ليس في هذا العالم، ولا يصعد على قلبي أي فكر أرضي، ولا أحتاج إلى تكميل قوانين الصلاة المفروضة، لأني أظل نهاري كله ثابتاً في الدَهَش.

مار إسحق السرياني

١٩٩ – حينما تقوى النفس وتبلغ أشُدَّها في الاحتراس واليقظة وهي سائرة في طريق البحث عن الحق، **فإن عامل التصور والتخيل لا يقوى على خداعها،** فهي تزدري حينئذ بكل التصورات التي ترِد عليها، لأنها كما سقطت بهذه الصور والمرئيات عن مستواها، فهي تجهد، لكي بدون هذه المرئيات وتخيلاتها ترتفع فوق ذاتها. فبعد أن كانت في حالة معيبة مبعثرة مشردة بين الكل، تكدُّ لتجمع نفسها إلى واحد حتى إذا أمكنها أن تغلب وتسود بالقوة العظيمة التي بالحب حينئذ تستطيع أن تتأمل في الكائن الواحد غير الهيولي.

غريغوريوس الكبير

٢٠٠ – **والذي يؤهَّل لهذه التاوريا يكون في أثنائها كجثة لا نفس فيها** وهذا ما ندعوه بالنظرة.

مار إسحق السرياني

٢٠١ – لا يكون هناك ضعف بشري **ولا يكون هناك صلاة أو سؤال أو طلبة أو أفكار أو حركات، ولا حياة بشرية متحركة ولا ذكر شيء مما هنا ولا من المزمعات،** بل يكون متحداً مع الله الذي يتكلم فيه، وهو يعرف في ذاته أنه ابن الله، ومثل الابن يتكلم مع أبيه بدالة، ويصير حينذاك ليس كمن يصلي، بل كمن يقبل الصلاة وكمستجيب لكل الأسئلة من كنز ليس هو المتسلط عليه بل من غِنى أبيه... آه للسر الذي لا يُفسَّر، ولا يميني أيضاً تقدر أن تُظهر مرادي بالكتابة!! ليت الصانع لذات السر هو بنفسه يفسره لكم. فالإنسان الذي وصل إلى هذه الدرجة لا يصلي عمن طلبوا منه الصلاة، بل الرحمة فقط تتحرك فيه بالشفقة قبالة كل المحتاجين، والروح الذي فيه المتحد به هو الذي يشفي أوجاعهم ويتمم حاجاتهم!!

في ذلك الوقت الذي تكون فيه الموهبة فعّالة في داخل الإنسان، لو كانت كل الخليقة أصواتاً واضطرابات لا تقدر أن تجعله يعرف ذاته أو يعود من ذهوله ودَهَشه، حتى أن جميع ما يتكلم به ذلك الإنسان يكون كأن الله يتكلم وكل مخلوق يطيعه، لأنه ليس هو المتكلم بل الله الحالُّ فيه، الذي له المجد إلى الأبد آمين.

الشيخ الروحاني

٢٠٢ - حينما تستنير النفس حينئذ يرتفع الكل من قدام وجهها وتصير **هي لذاتها كأنها غير موجودة** إذ تكون متحدة مع الله بغير إدراك. **في هذا الحين تصمت الحواس بدون أي فعل** ويقف الضمير أيضاً بلا حركة، إذ تكون النفس قد جازت إلى عالم آخر ليس هو عالم الحس والحركات، تستنير هناك بدهش وعجب.

هناك تحيا النفس بالحب مع سكان ذلك العالم وتكون بينهم كضيف غير مقيم، تتحدث معهم ولكن بلغة غير مدرَكة للعقل، إذ لا يكون للسان الجسداني نصيب في تركيب حروفها، فلا يستطيع العقل أن يستذكرها، ولا اللسان أن يسترجعها، ولا القلب حتى أن يتصورها.

الشيخ الروحاني

وهكذا نرى أن بعض القديسين يرون أن في حالة الدَهَش الذي يكون بخروج النفس وطوافها في الأماكن العليا، إما أن يكون الجسد مُلقى في حالة موت، أي أن يكون خالياً من فاعلية النفس لخروجها منه؛ أو أن يكون الجسد في حالة بين النوم والموت، وإن كانت أشد من النوم ركوداً، ولكن تكون النفس فيه بطريقة ما.

ونختم بحثنا في هذا النوع من الدَهَش بقول للقديس أوغسطينوس الذي يميل إلى الرأي الأول:

٢٠٣ - إذا لم يكن الإنسان ميتاً عن هذه الحياة بأي شكل كان - **سواء كان قد فارق الجسد نهائياً أو كان قد تخلى عنه وهجر حواسه المادية** حتى إنه يكون غير مدرِك أفي الجسد هو أم خارج الجسد - فهو لا يستطيع أن يصل إلى المرتبة العالية حيث يكون هناك الله في سر بلا واسطة.

أوغسطينوس

ثانياً: رؤية الله

᾽Αποκάλυψις

῞Ορασις

᾽Οπτασία

+ «لأنه تشدَّد كأنه يرى من لا يُرى» (عب ١١: ٢٧).

+ «فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته...» (٢كو ١٢: ١).

+ «ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف...» (٢كو ٣: ١٨).

+ «ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله».

(أع ٧: ٥٦)

الرؤيا هنا ليست رؤية العين الجسدية لشيء منظور، ولكنها رؤية المعرفة، حيث الرؤيا تكون بكل طاقات المعرفة وأعماقها، بالعقل والقلب والنفس والروح وكل المشاعر. وحيث المعرفة هي التعرف على شخص الله بكل ما يتعلق بالمعرفة من إدراك وحب وثقة وصلة.

فالإنسان مدعو لرؤية الله، بمعنى أن يتعرف عليه بأقصى ما يمكن من إمكانياته وبأقصى ما يمكن أن تحتمله المعرفة البشرية من حب واتصال.

ولكن يلزم أن نوضح من البداية أن رؤية الله لا تعني الإحاطة بالله، فرؤية الله من حيث التعرف عليه ممكنة، ولكن من حيث الإحاطة به فهي غير ممكنة قطعاً. فالله في ذاته مُدرَك كامل يُدرَك ولكن لا يُدرَك كماله!

لذلك فالإنسان مدعو لرؤية الله، أي للتعرف عليه على قدر إمكانية واتساع مُدركات نفسه وعقله وروحه، وليس على قدر اتساع الله، لأن الله غير متناه في اتساع كمالاته.

ولكن ليس معنى هذا أن الله يُدرَك جزئياً، فالله ليس فيه جزءٌ وكلٌّ، بل هو واحد بسيط وكلٌّ كامل، وبساطته غير محدودة غير متناهية.

ولكن ضعف إدراك الإنسان وانقسام معرفته، بسبب التعدِّي وغشاوة ظلمة الخطيئة التي أضعفت جداً من وضوح الرؤيا الداخلية للحق، جعل الإنسان لا يرى الله كما هو في بساطته الكاملة. فالإنسان يستعلن الله ويتعرف عليه بقدر طهارته وحبه وطاعته واتضاعه، وكلما نمى الإنسان في هذه الصفات اتسع مجال رؤيته لله وظهر الله له أكثر كمالاً.

أي أن رؤية الله تتعلق دائماً بإمكانية الإنسان الداخلية التي تؤهِّله لكشف الله بنسبة متوازنة من القداسة: «القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢: ١٤).

إذن فطالما نحن غير كاملين في القداسة، فلن نرى الله على حقيقته «كما هو»، بمعنى أن الذي لم يكمل في طهارته وطاعته وحبه واتضاعه فإنه يظل عاجزاً عن رؤية الله في بساطته

الكاملة، فيراه قاسياً أحياناً ويراه رحيماً أحياناً أخرى، تارةً يطمئن إلى محبته الشديدة وتارةً أخرى يجزع من عدله، مرة يدرك عمق حكمته وعنايته الفائقة بالخليقة ومرة يشك في هذه العناية ويدينها.

وهكذا يظل الإنسان من جهته عاجزاً عن تكوين رؤية كاملة لله «كما هي» إلى أن يبلغ القداسة التي تؤهله للرؤيا الكاملة، والقديس يوحنا الرسول يخبرنا في رسالته الأولى أننا لن نبلغ هذه القداسة الكاملة إلا بظهور الرب نفسه: «ولكن نعلم أنه **إذا أُظهِر** نكون مثله لأننا **سنراه كما هو**» (١يو ٣: ٢).

ولكن نعود ونقول إن ظهور الله ليس معناه رؤية شكله أو صورته بالعين الجسدية، ولكن رؤية صفاته وأعماله وفهم حكمته ومعرفة محبته الفائقة المعرفة! هذه الرؤية لا يمكن أن تتضح لنا الآن تماماً في هذه الحياة بسبب فساد طبيعتنا. ولكن هذا الفساد ليس كلياً، لذلك يتبقى لنا دائماً فرصة جزئية لمعرفة الله، هذا بالإضافة إلى وجود إمكانية جزئية أخرى في صميم كياننا جُعِلت للتغلب على فساد طبيعتنا وهي التي تسمح لنا بالنمو في معرفة الله.

وهاتان الفرصتان، فرصة بقاء طبيعتنا تحمل شيئاً من عدم الفساد، وفرصة وجود إمكانية متبقية في صميم كياننا يمكن أن نغلب بها عوامل الفساد، هاتان الفرصتان هما اللتان تفتحان أمامنا مجال الإيمان بالله. «الذي وإن لم تروه تحبونه. ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد» (١بط ١: ٨).

إذن، فالإيمان في حقيقته نوع من الرؤيا ولكنها غير واضحة، أو هو رؤيا جزئية لأنها رؤية غير مفهومة تماماً بسبب انقسام معرفتنا «لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ... فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز» (١كو ١٣: ٩ و ١٢).

وهذا أمر حقيقي وواقعي، فالإنسان الآن مهما بلغ إيمانه يظل يسأل لماذا عمل الله هكذا ولماذا لم يعمل هكذا، وتبدو أمور كثيرة أمامه غير مفهومة وغير معروفة تشوبها ظلمة عقلية، ولكن بالإيمان يتخطى عدم المعرفة، وبالإيمان يتجاوز الانقسام في المعرفة، وبالإيمان يتخطى الظلمة العقلية. لذلك، فبالرغم من أن الإيمان رؤيا لله ناقصة وغير مفهومة تماماً، إلا أن جزاءها يساوي الرؤية الواضحة تماماً، وهي بالفعل تمهد لها، فبالإيمان ننال منذ الآن قوة القيامة التي فيها سنرى الله وجهاً لوجه:

- «فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجهاً لوجه، الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عُرِفت (أي سأعرف الله كما يعرفني الله) أما الآن فيثبُت الإيمان...» (١كو ١٣: ١٢ و ١٣)

ولكن هنا يتبادر سؤال: هل من هذا يُفهَم أنه يستحيل على الإنسان أن يرى الله رؤية واضحة أي أن يعرفه معرفة كاملة في هذا الدهر؟

ولكي نجيب على هذا السؤال، يلزمنا أن نفحصه فحصاً روحياً منطقياً، فنقول إن رؤية الله رؤية واضحة تعتمد كما قلنا اعتماداً أساسياً وكلياً على قداسة الإنسان. فإذا بلغ الإنسان قداسة كاملة، بمعنى أنه إذا تخلص من فساد طبيعته تخلصاً كاملاً حينئذ سوف يرى الله حتماً رؤية واضحة كما هو. وبذلك يتحول السؤال إلى سؤال آخر هو: وهل يمكن للإنسان الآن في هذا الدهر أن يبلغ إلى حالة قداسة كاملة أي يلبس تجديداً كاملاً لطبيعته؟

وللإجابة على هذا السؤال يلزمنا أن نعلم علم اليقين أن هذا هو جوهر المسيحية بالدرجة الأولى، فالمسيح جاء وبذل جسده وسفك دمه، وأعطانا أن نتحد به بسر الإيمان وعمل الروح القدس، حتى نبلغ بواسطته إلى القداسة الكاملة التي تؤهِّلنا، ليس فقط لرؤية الله، بل وللاتحاد به والحياة معه أيضاً ... «قد اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١كو ٧: ١١).

إذن، فبسرِّ الإيمان بالمسيح وعمل الروح القدس المنسكب على طبيعتنا ننال تقديساً نؤهَّل به لرؤية الله أي معرفته معرفة صميمية، معرفة اتحاد وشركة: «لكي تتعزى قلوبهم مقترنة في المحبة لكل غِنى يقين الفهم لمعرفة سر الله الآب والمسيح» (كو ٢: ٢).

ولكن لأن التقديس والاغتسال والتبرير، التي هي عوامل الرؤيا الأساسية، قد ارتبطت كلها بالإيمان، والإيمان بطبيعته ينقص ويزيد وينمو ويتوقف بسبب ارتباطه بطبيعة الإنسان المتغيرة والقابلة للنمو والتغير، صارت رؤية الله (معرفته) قابلة بالتالي إلى التغير والنمو.

فالإنسان بقدر نموه في الإيمان بالله وبقدر ثقته فيه واعتماده عليه وحبه له ينمو في رؤيته لله!

فهل يمكن أن ينمو الإيمان إلى درجة كاملة يبلغ بها الإنسان إلى حالة القداسة الكاملة، فيرى الله رؤية واضحة في هذا الدهر؟

هذا الأمر من الوجهة النظرية ممكن لأنه حق وواجب: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠). ولكن من الوجهة العملية مستحيل بسبب تدخل حواس الإنسان وعقله المبنية على الانقسام والشك والفحص التي تتدخل في الرؤيا فتُفسد المعرفة وتقلل من وضوحها، وقد تلغيها بالشك: «يا سيد قد أَنْتَنَ لأن له أربعة أيام (في القبر)» (يو ١١: ٣٩).

إذن، فطبيعة الإنسان مهما تجددت في هذا الدهر يظل فيها شيء من عنصر الفساد ممثَّلاً في الحواس الجسدية والعقل، وكلاهما يمنع الرؤية الواضحة لله، ولن يزيل هذا العنصر الفاسد المتبقي إلا القبر، ثم القيامة. لذلك، فمن جهة الإنسان وطبيعته وإمكانياته يستحيل عليه أن يرى الله في هذا الدهر رؤية واضحة.

ولكن هل من جهة الله يستحيل عليه أن يُظهر ذاته للإنسان؟؟

والجواب المنطقي بحسب اليقين اللاهوتي هو أن الله لا يستحيل عليه شيء!!

إذن، فالله قادر أن يُظهِر ذاته للإنسان، وقد أكمل ذلك بصورة فائقة في سر التجسد الإلهي الذي وُهِب للإنسان بمقتضاه سر رؤية الله وذلك بتوسط المسيح الذي يتكفل بإزالة كل العوائق الفاسدة من طبيعة الإنسان عند لحظة ظهوره، وذلك بإبطال كل النشاط السلبي من الحواس والعقل وتطهيره تطهيراً كاملاً بقوة تقديسية فائقة تجعل الإنسان بمثابة خليقة جديدة متجلية في مجال قداسة الله، وحينئذ يرى الإنسان المتجلي الله رؤية واضحة كما هو: «ألستُ أنا حراً؟... أما رأيتُ يسوع المسيح؟» (١كو ٩: ١)

وبذلك يصبح هنا في هذا الدهر طريق جديد للرؤيا الواضحة، ليس بالإيمان البشري وإنما بالاستعلان الإلهي. حيث إظهار الله لنفسه بحسب مسرة مشيئته المطلقة يكون هو الوسيلة الوحيدة لرفع كل عوائق الرؤيا الواضحة، والتي يبلغ فيها الإنسان تقديساً كاملاً بالرؤية نفسها. غير أنها رؤية مؤقتة لا يبقى تأثيرها مستمراً تمييزاً عن الرؤيا الواضحة التي ستكون في الحياة الأخرى التي تكمل بالاتحاد الدائم.

هذا المبدأ اللاهوتي العملي بخصوص ظهور الرب وتقديسه للإنسان نراه واضحاً غاية الوضوح في تعليم القديس أنطونيوس في قوله:

٢٠٤ - وإذ كان يصنع العجائب والأشفية كان يأمرهم أن لا يُعلِموا أحداً، وكان هذا تواضعاً منه

لأجلنا، و لم يكن تركه للافتخار خوفاً من الافتخار، كلا! لأنه كان قادراً أن يُظهِر قوة لاهوته في أي وقت أراد، بل كان ذلك منه ليعلِّمنا، حتى إذا نظرنا الرب نظل نحفظ مسكنتنا وضعفنا ونتواضع. لأنه ظاهر أنه لا يمكن لأحد أن يتضع اتضاعاً حقيقياً من قلبه إلا مَنْ قد نظرت نفسه الرب.

ومذكور عن الآباء الأطهار الذين جاهدوا، أنهم تواضعوا بالأكثر لما نظروا الرب، فأيوب رأى الرب في السحابة وتكلم، فانفتحت عينا قلبه ونظر الرب، فعدَّ نفسه تراباً ورماداً وندم على كل ما قاله سابقاً.

وإشعياء النبي بينما كان يبكِّت الشعب على خطاياهم، لما رأى الرب أظهر تواضعه في الحال وقال: «ويل لي لأني إنسان خاطئ ونجس الشفتين».

وتلاميذ الرب الذين كانوا يأكلون ويشربون مع الرب لم يخافوا عند مفاوضته، ولكن لما تجلى على جبل تابور أمامهم تغير شكله فسقطوا على وجوههم وعرفوا مسكنتهم وضعفهم.

ونحن عندنا شهادات كثيرة تثبت أن سبب كثرة تواضع القديسين هو ما نظروه من مجد الرب. فالاتضاع الحقيقي يكون للنفس في هذا العالم عند نظرها من البعد المجد المزمع أن تناله.

أنبا أنطونيوس (الرسالة السادسة عشر)

٢٠٥ - ولما نظر بولس الرسول الرب يسوع حصل له الكمال. وهو أولاً انعتق من الشر ثم لم يتعبَّد لشيء من الشهوات إذ صار ناسكاً، وفي الآخر تحرر بسبب نظره الرب يسوع المسيح. فعندما نظره، للوقت تبع أقواله بلا تأخير وصار في غاية الكمال والاتضاع. وهكذا كل الذين يتمسكون بأقوال الرب، فإنهم يعرفون الحق والحق يصيِّرهم أحراراً ويعتق نفوسهم من كل شر، كما صار لبولس الرسول الذي صار حراً لما ظهر له مخلصنا، لذلك يقول عن نفسه: أَفلستُ أنا حراً؟ أَما رأيتُ الرب؟

أنبا أنطونيوس (الرسالة السابعة عشر)

والآن أصبح من الممكن هنا أن نوضح الفارق الكبير بين مفهوم رؤية الرب ومفهوم ظهور الرب. فرؤية الرب تفيد ما يستجليه الإنسان من الصفات الإلهية على حسب إمكانياته وقداسته. وبهذا المعنى يستحيل على الإنسان الوصول إلى رؤية كاملة عن الله.

أما ظهور الرب فيعني إعلان الرب لنفسه أي تجليه للإنسان على حسب كثرة محبته ورحمته ومسرة مشيئته، وفي هذا الإعلان يكشف الله أعماق نفسه للإنسان، ويتكفل هو بتقديس الإنسان ومنحه كل القوة التي بها يطَّلع على مجد الله: «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠).

وبهذا التفريق الأساسي بين الرؤية الناتجة عن السعي والتقديس، والرؤية الناتجة عن ظهور

الرب مجاناً، يتضح لنا شرح الفارق بين الآيات التي وردت في العهد القديم وفي العهد الجديد على السواء لتؤكد، مرة عدم إمكانية رؤية الرب، ومرة أخرى إمكانية رؤيته.

فأولاً: نجد الله يقول لموسى: «إن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠)، والروح يقول: «الله لم يره أحد قط» (يو ١: ١٨). وبولس الرسول يقول: «أوصيك... أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح الذي سيبينه في أوقاته، المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية آمين» (١تي ٦: ١٤ – ١٦).

وثانياً: نجد في نفس الوقت الآيات التي تثبت أن الله أظهر ذاته بالفعل لموسى وإشعياء وأيوب وغيرهم في العهد القديم. أما في العهد الجديد فقد «رآه كل بشر» (إش ٤٠: ٥؛ لو ٣: ٦) على حد النبوة، «فالحياة الأبدية أُظهِرت» (١يو ١: ٢) كقول القديس يوحنا، والمسيح يقول: «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، ووعد أيضاً بقوله: «من أحبني أُحبه وأُظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، والقديس بولس الرسول يقول إن: «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠).

ومن هذا يتضح أن الأمر الذي كان مستحيلاً على الإنسان بالجهد أو الاستحقاق وهو رؤية الرب، صار ممكناً بظهور الرب كفعل محبة وعمل نعمة مجاني؛ ولا يزال هذا قائماً حتى الآن، فمحاولة رؤية الرب أمر مستحيل على الإنسان إلا بالقدر الضئيل الذي يتناسب مع طهارة الإنسان وحبه وطاعته لوصاياه، أما ظهور الرب فيُعطَى للإنسان بدون قيد ولا شرط ولا جهد ولا استحقاق، إذ يمنح الرب القدرة والقداسة للإنسان التي يرى بها الله كما هو أي كما يشاء الله أن يعلن نفسه.

وهذه الحقيقة واضحة غاية الوضوح في قول الرب نفسه «كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي وليس أحد يعرف من هو الابن إلا الآب ولا من هو الآب إلا الابن ومن أراد الإبن أن يعلِن له» (لو ١٠: ٢٢) حيث كلمة «يعلِن» هنا بمعنى «يظهر بالرؤيا» ἀποκαλύψας.

ومن قول الرب هذا، يتضح أن إعلان أو رؤية الآب والابن أي معرفة الصفات الجوهرية لله معرفة جوهرية أمر يتعلق حتماً وبالضرورة القصوى بمشيئة يسوع المسيح وبتوسطه، حيث

الإعلان هنا هو الرؤيا التي تؤدي إلى المعرفة الواضحة بالظهور والإستعلان الحقيقي التي بها يدرك الإنسان الحق الذي في الله، فيبلغ منتهى السعادة إذ يصبح في صميم حياة الشركة مع الله.

***

ولأهمية موضوع الرؤيا، يحسن بنا أن نعود إلى آباء الكنيسة اللاهوتيين الأوائل لنتتبع أفكارهم واختباراتهم وتعبيراتهم عن حياة الرؤية في المسيحية باعتبارها التعبير المباشر عن الخبرة الإيمانية وفعالية التجسد، وقد اخترنا ثلاثة لاهوتيين ممن تمسكوا بالإنجيل والتقليد الآبائي تمسكاً لا انحراف فيه:

(١) ثيئوفيلس الأنطاكي:

كتب هذا الأب القديس رسالة إلى أحد الوثنيين حوالي عام ١٧٨ م يوضح له فيها معنى رؤية الله، رداً على تحديه إن كان يستطيع أن يريه الله الذي هو إله المسيحيين:

٢٠٦ – قبل أن أريك إلهنا أرني أنت إنسانك وأعطني البرهان على أن عيني نفسك تستطيع أن ترى وأذن قلبك تستطيع أن تسمع، لأنه لا يستطيع أحد أن يرى الله إلا من كانت عيون نفسه مفتوحة. أما الذين انطمست عيونهم بحواجز وسدود الخطيئة فإنهم لا يرون الله. فهل يمكن وصف الله للذين لا يستطيعون أن يروه؟

فهيئة الله لا توصف بالكلام ولا يمكن شرحها لأنها غير منظورة بطبيعتها للعين الجسدية ... فإذا خلعت طبيعتك التي فسدت، وإذا لبستَ عدم الفساد، فحينئذ ترى الله على قدر استحقاقك، لأن الله سيُحيي جسدك ويجعله مع نفسك عديم الموت، وعندما تصبح عادم الموت حينئذ ترى الله الذي له عدم الموت، هذا إن كنت تؤمن به الآن.(1)

وقول ثيئوفيلس الأنطاكي هنا امتداد لقول القديس بولس الرسول عن الله: «الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١تي ٦: ١٦). وهو يفصح بهذا عن الرؤية الأُخروية التي سوف يُؤهِّل الإنسان لها عندما يلبس عدم الفساد أو عدم الموت، صائراً بذلك على مستوى طبيعة الله «الذي وحده له عدم الموت». ويلاحظ هنا صفة عدم الموت التي هي صفة الله وحده، التي سيلبسها الإنسان مجرد لِبْس، في حين أنها هي من طبيعة الله وجوهره.

(1) P. G. 6, Cols 1024 - 36.

أي أن الرؤية الحقيقية لله لا يمكن أن تتم إلا إذا بلغ الإنسان إلى درجة عدم الفساد، أي عدم الموت، ليس من جهة النفس فقط بل ومن جهة الجسد أيضاً بالقيامة. لأن الرؤية لا تكمل بالنسبة للإنسان إلا ككلٍّ، أي بالنفس والجسد معاً، حيث لا يكون هناك تنازع أو تناقض بين العقل الصافي والحواس الجسدية.

ولكن يعود ثيئوفيلس الأنطاكي ويوضح إمكانية التعرف على الله والإمساك بجلال مجده الآن في هذه الحياة كتمهيد للرؤية الكاملة الأُخروية، فيقول:

٢٠٧ - إنَّ كل شيء قد خُلق من لا شيء، حتى أن جلال مجد الله أمكن إدراكه والإمساك به بواسطة العقل من خلال أعماله - في الخليقة... كالنفس البشرية التي تحيي الجسد والتي بالرغم من كونها غير منظورة صارت مدرَكة في حركات الجسد وأعماله! هكذا الله الذي خلق كل شيء «بالكلمة والحكمة» أصبح يمكن إدراكه من خلال تدبير عنايته ومن أعماله.

وقول ثيئوفيلس الأنطاكي هنا هو امتداد لقول القديس بولس الرسول: «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم، لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدرَكة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بلا عذر» (رو ١: ١٩ و ٢٠).

ثم يمتد ثيئوفيلس الأنطاكي لكي يكوِّن صورة حية ذهنية عن الله من أعماله في الخليقة، كتطبيق عملي لقول القديس بولس الرسول، فيقول:

٢٠٨ - ولو أن هيئة الله لا توصف بالكلام ولا يمكن شرحها لأنها غير منظورة بطبيعتها للعين الجسدية غير أننا حينما نقول إنه «نور»، فأنا أعبِّر عن انبعاثه.

وحينما نقول إنه «كلمة»، فأنا أعبِّر عن وجوده الذاتي كأصل لكل وجود آخر.

وحينما نقول إنه «العقل» فأنا أعبِّر عن قوة الروح ومعرفة الحق والحكمة المدبرة.

وحينما نقول إنه «روح»، فأنا أعبِّر عن أنفاسه المحيية.

وحينما نقول إنه «الحكمة»، فأنا أعبِّر عن بنوته الذاتية.

وحينما نقول إنه «قوة»، فأنا أعبِّر عن استطاعته بالفعل والقوة معاً.

وحينما نقول إنه «العناية»، فأنا أعبِّر عن صلاحه أي (إحاطته العامة والخاصة وتوجيهه الفعال ورسم غاية لكل شيء).

وحينما نقول إنه «الملكوت»، فأنا أعبِّر عن مجده وجلاله.

وحينما نقول إنه «الرب (السيد)»، فأنا أعبِّر عن طبيعته كحاكم وهذا تعبيراً عن عدله.

وحينما نقول إنه «الآب»، فأنا أعبِّر عن طبيعته كعلة عامة لكل شيء.

وحينما نقول إنه «نار» فأنا أعبِّر عن غضبه.

وهكذا فإن الله الذي خلق كل شيء «بالكلمة والحكمة» يمكن أن يُدرَك من خلال تدبير عنايته ومن أعماله.

ثيئوفيلس الأنطاكي

وبهذا يقدم لنا ثيئوفيلس الأنطاكي محتويات الرؤية الحاضرة المناسبة لحياة هذا الدهر، كاشفاً عن صفات الله التي يتحتم علينا التعرُّف عليها من خلال أعماله في الخليقة كتمهيد حتمي للرؤية الأُخروية المناسبة لحياة «عدم الموت».

فهي ولو أنها رؤية غير مباشرة الآن، إلا أنها تكشف عن صفات الله الجوهرية كآب وابن وروح قدس.

وباختصار، فإن القديس ثيئوفيلس الأنطاكي يثبت قطعاً من صميم الإنجيل أن الله ولو أنه غير مُدرَك الآن في ذاته مباشرة، إلا أنه يمكن أن يُدرَك من أفعاله بتكافؤ الإيمان وبتدرُّج قد يصل إلى الإدراك المباشر، وكذلك الآب فبالرغم من أنه محتجب تماماً عن كل عقل وعين إلا أنه ظاهر في ابنه وبروحه القدوس كقول الإنجيل: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر (أو هو أوضحه وشرحه) (ἐξηγήσατο)» (يو ١: ١٨). وكقول المسيح: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). بمعنى أن أعمال المسيح وصفاته تكشف عن حقيقة الآب وطبيعته بصفته أنه هو أبوه الذي أرسله.

(٢) القديس إيرينيئوس:

وكذلك القديس إيرينيئوس يمدنا بتعاليم رسولية كتبها حوالي عام ١٩٠ م يشرح فيها معنى رؤية الله. فهو يبتدئ تعاليمه بتوضيح استعلان الله المتدرج بالظهورات التي أكملها الله في «الكلمة» منذ البدء، حيث يعتبر «الكلمة» أي اللوغوس «استعلاناً حقيقياً للآب الذي لا يمكن أن يُرى طبيعياً».

٢٠٩ - فبينما جلال مجده ظل مخفياً تماماً وغير مدرَك إلا أنه أعلن عن نفسه بواسطة أعمال محبته بواسطة الكلمة الذي به خلق كل شيء.(٢)

فالابن هو الذي بإظهاره لنفسه أعطانا معرفة الآب، لأن معرفة الآب تكون هي نفسها بإعلان الإبن.

(2) Against Her. IV. 20 - 24.

٢١٠ – فإن كان الآب هو ما لا يُدرَك من طبيعة الابن فالابن هو ما يُدرَك من طبيعة الآب![3]

٢١١ – الكلمة أي اللوغوس استُعلن عندما تجسد وصار إنساناً. فبينما كان الإنسان قبل التجسد يمكن أن يُقال عنه إنه خُلِق على صورة الله، إلا أنه لم يكن ممكناً توضيح ذلك وإثباته، لأن الله الوحيد الذي خلق الإنسان على صورته كان لا يزال مختفياً، هذا بالإضافة إلى أن الشبَه الحقيقي – (الذي كان يحمله الإنسان في صورته) – سرعان ما فقده. فاللوغوس بتجسده وتأنسه أعاد هذه الصورة والشبه لأنه هو نفسه صار واحداً من الذين خلقهم على صورته، فأوضح بجلاء عظيم هذا الشبه، عندما جعل الإنسان بواسطة اللوغوس المنظور المتجسد مشابهاً تماماً للآب غير المنظور.[4]

٢١٢ – وهكذا ارتفعت الإنسانية من خلال تدبير الابن والروح القدس إلى حياة الله.[5]

ثم يبتدئ القديس إيرينيئوس يوضح أن استعلان الله بعد ذلك أصبح من مسئولية الإنسان بتقدمه الروحي المتدرج، محققاً في نفسه بالروح القدس هذا الشبَه الذي منحه له الله. هذا النمو والتدرج في الروح هو، في الحقيقة، يفوق قدرة الإنسان الجسدية والنفسانية والروحانية معاً، لذلك منح الله الإنسان روحه الخاص القدوس ليهب له القدرة على النمو، فيرفعه إلى مستوى حياة الله بمقتضى الصورة والشبَه المتأصِّلين فيه واللذين انطمسا بسبب ضعف الإنسان وخطيته.

وهكذا منح الله للإنسان، بواسطة ابنه وبواسطة روحه القدوس، أن ينمو ويتقدم بالروح حتى يبلغ إلى حياة الشركة والاتحاد مع الآب:

٢١٣ – وإذ قد نلنا الآن موعد الروح القدس نصرخ يا أبّا الآب، وهذا هو الشبَه الذي يعبِّر عما سيكون بالقيامة عندما نراه وجهاً لوجه، حينما تلتحم الأعضاء وتصير جمعاً محتشداً يسبحون تسبحة الغلبة والخلاص كرامةً للذي أقامهم من الأموات وأعطاهم حياة معه إلى الأبد.[6]

وهكذا، فإن رؤية الله عند القديس إيرينيئوس هي دائماً استعلان من لدن الله، يكمله الله حسب مشيئته هو. فالله، في نظر إيرينيئوس، ليس موضوعاً يمكن فحصه ومعرفته، ولكنه ذات لا يمكن التعرُّف عليها إلا إذا أعلن هو عن ذاته وأفصح عنها. وهو إنما يكشف عن نفسه باختياره بسبب محبته فقط وكنوع من التنازل.

لذلك حينما يقول الله إنه «لا يمكن أن يُرى»، فإن هذا القول حق تماماً كقوله: «أُظهر

(3) Against Her. IV. 6,3 - 6.
(4) Against Her. V. 16, 2.
(5) Against Her. IV. 9, 2.
(6) Against Her. V. 8, I.

ذاتي». لأن المستحيل لدى الإنسان بالجهد والتصاعد، هو ممكن لدى الله بالحب والتنازل. لذلك يقول إنه مستعد أن يُظهر ذاته لمن يحبه ويتضع بالحق. وفي هذا يقول القديس إيرينيئوس:

٢١٤ - الإنسان بنفسه لا يستطيع أن يرى الله، ولكن لأن الله يريد أن يُظهر ذاته، لذلك فإنه يُرى عند الذين يختارهم في الوقت الذي يريده وبالقدر الذي يشاء.[٧]

وكأنما القديس إيرينيئوس يريد أن يقول إن الله ولو أنه لا يُرى بالطبيعة إلا أنه يُرى بالنعمة.

وعلى مدى تعاليم القديس إيرينيئوس، يتحقق عنده ثلاثة أنواع من الرؤية:

الرؤية الأولى: وهي بواسطة إلهام الروح القدس، ويسميها رؤية نبوية، فيها يُستعلَن شبه مجد الله.

الرؤية الثانية: وهي بواسطة يسوع المسيح، ويسميها رؤية بنوية، وهي للمختارين.

الرؤية الثالثة: رؤية الآب، وهي رؤية الوجه للوجه لحياة الملكوت.

والرؤية النبوية بالروح القدس تمهد للرؤية البنوية في المسيح، والرؤية البنوية في المسيح تُحضِر الإنسان إلى رؤية كاملة للآب، والآب يهب الإنسان عدم الموت.

والإنسان في كل هذه يتحقق من أنه يرى الله بالفعل[٨]؛ لأن هذه الرؤى الثلاث متداخلة جداً، وكلٌّ منها يحتوي الآخر خلفه.

ومن هذا التعليم نرى أن القديس إيرينيئوس يتحقق من أن رؤية الآب في الملكوت تهب بحد ذاتها شركة في الحياة الأبدية، لأنها تمنح الإنسان عدم الموت!

وهنا توضيح مبدع للصلة القائمة بين الرؤية الكاملة وبين عدم الموت!

وفي هذا ينكشف معنى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى وجه الله ويعيش (خر ٣٣: ٢٠).

أي لا بد أن الإنسان الخاطئ يموت أولاً ليتحول الفاسد إلى عدم فساد، حتى يستطيع أن يرى وجه الله ويعيش إلى الأبد.

فوجه الله الذي كان لا يمكن أن يراه الإنسان بدون موت يصير في الدهر الآتي وبالقيامة

---

(7) Against Her. IV, 20, 5.
(8) Against Her. IV, 20, 3.

من الأموات منبع حياة أبدية. وفي هذا يقول القديس إيرينيئوس:

٢١٥ - لأن الناس حينئذ سيرون الله لكي يعيشوا، إذ يصيرون بواسطة الرؤية غير مائتين ومتقدمين دائماً أبداً في الطريق نحو الله.

٢١٦ - إنه يستحيل أن نحيا بدون حياة والحياة تنبثق من الله، فلكي نعيش يلزم أن نتصل بالله، والاتصال بالله إنما يتم بمعرفته أي رؤيته وبتقبُّل صلاحه.(٩)

لذلك يعود القديس إيرينيئوس ويعرج على هذه الحياة الحاضرة ويعتبرها شركة جزئية مع الله، أي رؤية جزئية اتضحت جداً بتجسد ابن الله وصارت رؤية متبادلة. فالله أعلن أو أظهر نفسه بتجسد «الكلمة» أي المسيح، والكلمة أي المسيح بدوره أعلن الإنسان وأظهره وقدمه لله!(١٠) هذه هي الرؤية الصميمية المتبادلة بين الإنسان والله التي تمت جوهرياً بالتجسد وفي التجسد، والتي لما مُنحت للبشرية بواسطة المسيح من خلال جسده «من يأكلني يحيا بي» (يو ٦: ٥٧)، انفتح أمامنا مجال الرؤية المحيية رؤية الشركة الفعلية مع الآب بالابن وبالروح القدس.

٢١٧ - وهكذا أصبح أي إنسان حي (حياة أبدية) هو استعلان لمجد الله، وأصبحت الحياة (الأبدية) في الإنسان هي رؤية الله. فإذا كان من نتيجة استعلان الله في الخليقة - كعلة - مَنْحُ الحياة (الزمنية) لكل خليقة على الأرض، هكذا بالأكثر جداً يكون استعلان الآب بواسطة الكلمة (اللوغوس) فإنه يوصل الحياة الأبدية لكل من يستعلن الله الآب ويراه.(١١)

وحجر الزاوية الذي يستند عليه القديس إيرينيئوس للرؤية الكاملة، هو تجلي المسيح على جبل تابور. فهو يُعبِّر أن مشيئة المسيح في إعلان مجده بالرؤية الواضحة على جبل التجلي، هي في الحقيقة تُعبِّر عن مشيئة الله في اشتراك الإنسان في نور الله غير المنظور الذي سيُمنَح للإنسان بصورة دائمة بعد ذلك، ليجعله غير قابل للموت وبالتالي حياً إلى الأبد، وفي ذلك يقول:

٢١٨ - أن يرى الإنسان النور، هو أن يكون قائماً في النور ومشتركاً في بهائه، هكذا كل من يرى الله فإنه يصبح قائماً فيه ومشتركاً في حياته الممجَّدة. لذلك فكل من يرى الله يشترك في حياته.(١٢)

(9) Against Her. IV, 20, 5.
(10) Against Her. IV, 20, 7.
(11) Against Her. IV, 20, 7.
(12) Against Her. IV, 20, 5.

والقديس إيرينيئوس يعتبر الرؤية معرفة لله ممتدة إلى ما لا نهاية، حتى في الحياة الأبدية:

٢١٩ – وحتى في الدهر الآتي سيكون الله دائماً معلِّماً والإنسان دائماً متعلِّماً منه.(١٣)

وباختصار، فإن القديس إيرينيئوس يعتبر رؤية الله حتمية وواقعية بالنسبة للإنسان سواء كان الآن أو في الدهر الآتي، أما الآن فبالإيمان كشركة جزئية، فيها نرى الله غير المنظور وغير المدرَك في نور يسوع المسيح الواهب القيامة والحياة الأبدية.

فرؤية يسوع المسيح الآن هي في الواقع رؤية محيية تُلبِس الإنسان إمكانية عدم الموت، وبذلك فهي تمهد تمهيداً حتمياً لرؤية الآب التي هي بعينها الحياة الأبدية أو عدم الموت!

(٣) القديس كيرلس الإسكندري الممثل الحقيقي للاهوت الإسكندري:

من بعد آباء القرن الثاني دخلت الكنيسة في حوار خطر مع الغنوسية ومع الفلسفة اليونانية، وكلاهما كان يعتمد على العقل في البحث عن الله والحقيقة، وقد انبرى لهما لاهوتيو الإسكندرية وأبرزهم كليمندس وأوريجانوس اللذان استطاعا بالفعل أن يكسرا شوكتيهما، ولكن لم يكن ذلك بدون ثمن، فقد أدخلا في حوارهما ودفاعهما أصول الغنوسية والفلسفة اليونانية مع كثير من مصطلحاتهما، بل واقتبسا ذات المناهج التأملية التي استخدمها أفلاطون.

وكان نصيب الحياة التأملية في التلوث بالقيم الغنوسية والنظرات الفلسفية الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة قدراً كبيراً جداً، مما صار عبئاً ثقيلاً على الروح النسكية الآبائية البسيطة الأولى.

وإن كان ليس هنا مجال لكي نشرح بالتفصيل المبادئ والمناهج الأوريجانية في الحياة التأملية ومقدار الهوة الكبيرة التي تفصلها عن الروح الإنجيلية البسيطة، فيكفي أن نبصِّر القارئ بالأثر الذي تركه كل من كليمندس وأوريجانوس، هذا الأثر الذي لم يقتصر على مناهجهما والذي لم يقتصر على مدرسة الإسكندرية في ذلك الزمن بل تعداه إلى أقصاء الأرض. فالذين تأثروا بأوريجانوس بل والذين تتلمذوا له بأمانة جنونية هم من أبرز لاهوتيي العالم. وهنا يجزع القلم من أن يعدد ويردد الأسماء، ولكن الذي نحمد الله عليه أن هذه التأثيرات الغنوسية والفلسفية الهلينية على وجه العموم لم يُكتب لها النجاح في الميدان اللاهوتي، واقتصر تأثيرها على مناهج

(13) Against Her. II, 28, 3.

الفكر الروحي سواء النسكي أو التصوفي، وهذا بدوره تصفَّى قليلاً قليلاً على مدى الزمن وإن كانت آثاره لا تزال عالقة حتى اليوم في عديد من المبادئ والمصطلحات في جميع كنائس العالم.

ولكي نعرِّف القارئ في بساطة واختصار بمضمون مناهج الفكر الفلسفي والغنوسي الذي اصطبغت به تعاليم الأوريجانية، نقول إن الأوريجانية وكل المناهج التي سلكت سلوكها في الروحيات هي تحوُّل من الإيمان الواقعي الحي إلى الفلسفة الروحانية والاختباء وراء التأملات؛ كما يمكن وصفها بأنها تحوُّل من حب نحو الله واقعي فعَّال إلى حب فكري في الخيال؛ كذلك هي انتقال من شركة فعلية متألمة مع المسيح إلى تأمل هذه الشركة والتلذذ العقلي بها.

والأوريجانية أيضاً تضع مناهج عقلية وخططاً نسكية للوصول بالاجتهاد إلى الله، وكأنما الله نقطة نثبتها نحن على الخريطة الروحانية ونبتدئ نتحرك نحوها بعقلنا ونسكنا حتى نبلغها.

وللرد على كل المناهج العقلية والفلسفية يكفي أن نقول إن المسيح لم يكن فيلسوفاً ولم يعتمد على العقل أو المنطق لا في محبته ولا في بذله لذاته. وهو لا يُستعلَن للعقل كموضوع أو نظرية أو فكرة نصل إليها باجتهادنا، ولكنه يُستعلَن للقلب كقوة فعالة مجددة، وكحب كبير فادٍ، وكحياة أبدية مبهجة، فهو القائل: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت ٥: ٨). على أن المسيح هو الذي يأتي إلينا عندما نحبه، ويستحيل أن نقترب إليه باجتهادنا.

* * *

ولقد أشرق على الكنيسة بظهور القديس كيرلس الإسكندري عصر جديد دخل فيه اللاهوت الإسكندري عموماً نار الممحِّص، فتطهَّر تماماً ونهائياً من النسكيات الأوريجانية والفلسفة العقلانية، سواء كان اللاهوت النظري المختص بالمبادئ الإيمانية ومصطلحاتها أو اللاهوت النسكي الإنجيلي.

فلاهوت القديس كيرلس لاهوت أرثوذكسي صافٍ إنجيلي حلو، يُشبع الروح ويلهبها، والرؤية عند القديس كيرلس هي التحام صميمي بالله كمسرة إيمانية وبهجة خلاص وليست تلذذات عقلية.

والمعرفة عند القديس كيرلس الكبير ليست هي وسيلة للوصول إلى الله ولكنها بالعكس نتيجة وثمرة وموهبة حلول الروح القدس فينا. وهكذا قلَب القديس كيرلس الكبير موازين الأوريجانية كلها.

ولعل من المؤثرات المباشرة والموجِّهة للاهوت القديس كيرلس الكبير والقديس أثناسيوس من قبله، حياة القديس أنطونيوس وتحقيقه لملء النعمة وكمالات الفضيلة وكافة المواهب الروحانية ليس بالتأمل النظري ولكن بالإيمان والحياة وبساطة القلب وتطبيق الإنجيل، حاصلاً على كل مؤهلات الشركة في الطبيعة الإلهية بالصلة المباشرة مع المسيح في دالة الحب والبذل والصلاة.

ومن روائع لاهوت القديس كيرلس الكبير أنه لا يضع الاتحاد بالله نتيجة لجهادات نسكية وتطهيرات وتأملات، فالاتحاد بالله قد تم وأُكمل فينا بالتجسد، فنحن بالمسيح أبناء الله الحي «أبناء بالشركة»؛ واتحادنا بالطبيعة الإلهية هو تعبير مساوٍ تماماً لبنوتنا لله وهذا نناله كعطية من الله بالإيمان بالمسيح وحلول الروح القدس الذي يشهد في الحال لأرواحنا أننا صرنا أبناءً له.

ويقول القديس كيرلس الكبير إن اشتراكنا في لاهوت المسيح معناه اتحادنا بالثالوث، وهذا بالتالي يجعل الطبيعة الإلهية تتخللنا وتلهبنا كما تلهب النار قطعة الحديد فتجعلها نارية. وما علينا بعد إيماننا بالمسيح وشركتنا معه إلا أن نعطي الفرصة للجمال الإلهي الذي لطبيعة الثالوث، غير المنطوق به، أن يشرق فينا ويتوهج ويضيء.[١٤]

فالجهاد النسكي، عند القديس كيرلس، ليس سوي محاولة للتوافق مع الروح القدس الذي فينا، وانسجام مع فكر المسيح الذي يملأنا.

والروح القدس الذي يعطيه الله لنا بمجرد أن يحل فينا يجعلنا مؤهَّلين أن نأخذ شبه المسيح وبالتالي نصير كصورة حقيقية للآب![١٥]

وعندما نأخذ شبه المسيح بحلول الروح القدس فينا نصير «أبناءً بالشركة»، وعندما نشترك في الطبيعة الإلهية كأبناء مع المسيح نصبح في اتحاد مع الله بواسطة الروح القدس.[١٦]

٢٢٠ - فإذا حدث أن فقدنا عِشرة الروح القدس - وهذا أمر غير محتمل على أقسى الظروف - فيستحيل أن نأمل أن يكون الله فينا.[١٧]

والروح القدس ليس فقط هو ينبوع الحياة الروحانية في النفس بل وأيضاً هو علة المعرفة

(14) Relic. 5, P. G. 75, cols. 65 - 68.
(15) On St. John, P. G., 74, col. 541.
(16) Relic. 34, P. G., 74, col. 598.
(17) On St. John, P. G., 74, col. 545 A.

الروحانية وأساسها، فهو الذي يجعلنا نستشعر النعمة في هذه الحياة.

وبذلك فإن المعرفة الكاملة لله أي الرؤية بأقصى معناها ليست هدفاً نهائياً لحياتنا نسعى إليه الآن أو في الدهر الآتي، بل هي جزء لا يتجزأ من حياة الشركة التي نعيشها في صميم الطبيعة الإلهية بالإيمان منذ أول لحظة بالروح القدس.

ويقول القديس كيرلس الكبير إن المسيح يضيء فينا بالمعرفة بواسطة الروح القدس، فندرك الله، لأنه يصبح «لنا فكر المسيح» (١كو ٢: ١٦). وأما فكر المسيح فهو بعينه الروح القدس الحالُّ فينا.[١٨]

أما نمونا في الإدراك الكامل لله فهو مرتبط بحياتنا السرائرية:

٢٢١ - فالمعرفة الكاملة للمسيح تبدأ بالمعمودية إذ نحصل فيها على الاستنارة بالروح القدس.[١٩]

٢٢٢ - وحتى الجسد - وفي هذه الحياة الحاضرة - فإنه ينال نصيباً ما في سر الاتحاد بالله وذلك في مضمون الإفخارستيا على وجه الخصوص كشركة جسد بجسد مع المسيح.[٢٠]

ونلاحظ هنا أن المعرفة الكاملة لله، عند القديس كيرلس الكبير، التي هي بعينها الرؤيا بأجلى معانيها والاتحاد السري بالله، الذي يسميه كيرلس الكبير مراراً وتكراراً بـ «التألُّه»، ليسا هما هدفاً نسعى إليه بقدر ما هما حقيقة يحصل عليها الإنسان بالروح في السر كهبة ونعمة. فالرؤيا لا تقف على قمة منهاج تأملي دقيق، بل هي استنارة تتم بحلول الروح القدس. والاتحاد الذي هو نهاية كل نهاية، ليس هو هدفاً بعيد المنال، بل هو مذخور في سر الشركة، سهلٌ وواقعي كأكل اللقمة أو كشرب الكأس، وما على الإنسان بعد ذلك إلا أن يدرك ما فيه، ويقيم فيما أُنعِم به عليه ويُظهر بالفعل والعمل الرحمة التي جاءته مجاناً، ويردّ دَيْن المحبة التي انسكبت في قلبه بالروح القدس.

وفي لاهوت القديس كيرلس، لا تجد أية إشارة إلى منهج ديونيسيوس الأريوباغي الذي أخذ عنه الغالبية العظمى من اللاهوتيين في الشرق والغرب ومتصوفي الغرب بوجه مخصوص، هذا المنهج السلبي الذي يستغرق في وصف الطريق التجريدي لمعرفة الله في الظلام وفي اللاشيئية واللاإسمية واللاموجودية بالنسبة لله؛ فالقديس كيرلس يرى الله في سَطْع نوره المعلَن في وجه

(18) On St. John, P. G., 74, col. 284, 5.
(19) On EX., II, P. G., 69, col. 432 A.
(20) On St. John, VI, 54, P. G., 73, col. 577.

يسوع الذي جاء ليبدد كل معنى الظلمة ويضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم، ويردد القديس كيرلس كلمتي «النور» و «الاستنارة» في كل تعاريفه ومدركاته عن الله.

والقديس كيرلس يتعرَّف على كمالات الله بالرؤية المشرقة في قلبه التي هي من عمل الروح القدس، حيث يعطي للإنسان أولاً فكر المسيح الذي به يرى الآب ويحبه ويتقرب إليه بكل جراءة وقدوم الابن بإيمان المسيح نفسه ودالته.

ولا نجد القديس كيرلس يتطاول قط ليبحث عن الله بدون هداية الروح وقيادته المضيئة المنيرة لقلب الإنسان وفكره، لذلك لم يتخبَّط لاهوت القديس كيرلس قط في الظلمة المحيطة بالله والحاجبة لمجد الألوهة عن العقل البشري غير المؤلَّه بالمسيح والروح القدس.

و لم يحاول القديس كيرلس أن يغالب عجزه ويتجاوز جهله ليتأمل في الله بغير فكر المسيح، لذلك خلا لاهوته كليةً من اللامعرفة المظلمة واللافهم المغلق، لأنه كان يعيش في المسيح حقاً وفعلاً، فكان يرى الآب في ابنه يسوع المسيح رؤية سهلة مقنعة، جعلت لاهوت القديس كيرلس يكرِّس لنا طريقاً سهلاً حياً حديثاً لرؤية الله.

وفي لاهوت القديس كيرلس نجد أن الفارق الوحيد بين رؤية الله في الحاضر والرؤية الكاملة في الدهر الآتي هو أن المسيح في الحاضر يهبنا نوره ويهبنا فكره بالقدر الذي يتناسب مع خلاصنا وبالكيفية التي تؤهِّلنا للقيامة الأولى، أما في الدهر الآتي فإنه سيغدق علينا من نوره وفكره إلى أقصى ما يعوزنا للحياة مع الآب وما تستلزمه الرؤيا الكاملة للآب التي فيها «سنرى الله كما هو».(٢١)

ويعرِّف القديس كيرلس الكبير معنى رؤية الله وجهاً لوجه فيقول:

٢٢٣ - إننا سنرى الله كما هو، وهذا يعني أننا بوجه مكشوف وبفكر غير منحصر أو متعوق نحصل في ذهننا على انطباع حقيقي **لجمال طبيعة الآب** نفسه، وذلك بتوسط تأملنا في مجد ابنه الوحيد الذي خرج منه إلينا.(٢٢)

وهكذا يتضح من لاهوت القديس كيرلس العميق السهل أنه يستحيل علينا استحالة مطلقة أن نحصل على رؤية واضحة كاملة لله بدون توسط المسيح، حيث يعمل المسيح فينا بشخصه

(21) On Malach., IV, 2 - 3. P. G., 72, col. 360, AC.
(22) St. John, XVI, 25, P. G., 74, col. 464 B.

من خلال سر تجسده، ثم من خلال سر موته، وأخيراً من خلال سر قيامته وتمجده، لأن مجد الآب في عُرف القديس كيرلس الكبير لا يُرى إلا من خلال مجد المسيح! لأن مجد المسيح هو هو استعلان وقوة مجد الآب: «كما **أُقيم المسيح** من الأموات **بمجد الآب** هكذا نسلك نحن أيضاً في جِدَّة الحياة» (رو ٦: ٤). كذلك فإن مجد الآب لا يُستعلَن إلا باستعلان مجد المسيح «متى جاء بمجده ومجد الآب» (لو ٩: ٢٦).

ويركز القديس كيرلس الكبير كثيراً على أن جوهر الرؤية هو استعلان مجد طبيعة الآب، وهو من حيث تأملنا وإحساسنا جمال فائق (جمال الطبيعة الإلهية)[٢٣]، والذي نشترك فيه هو هذا الجمال عينه بتوسط الروح القدس.

أما مجد المسيح فيشرق في العقل كمعرفة جديدة أو كرؤيا، ويسميها القديس كيرلس الكبير «البصيرة الإلهية »، التي هي نفس التعبيرات التي استخدمها بولس الرسول: «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح **أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستنيرة عيون أذهانكم** لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو **غِنى مجد** ميراثه ...» (أف ١: ١٧ و ١٨)، وذلك عندما يُلهِب الروح القدس النفس ويؤلّه الطبيعة البشرية. فيرى الإنسان المسيح وجهاً لوجه بتوسط الروح القدس، حيث رؤية المسيح توصلنا إلى شركة سرية في الثالوث، والتي تُستعلَن بالاستنارة الكاملة في الدهر الآتي.

ونلاحظ في لاهوت الإسكندرية عموماً والذي يمثله القديس كيرلس الكبير تركيزاً كبيراً على أن مجد المسيح ومجد الآب هما جوهر الاستعلان والرؤية. ويعبِّر القديس كيرلس الكبير عن الوصف الرؤيوي لمجد المسيح بتعبير مبدع في الإحساس اللاهوتي وهو «**جمال الطبيعة الإلهية**»، معتبراً أن هذا الجمال هو موضوع الشركة وفرحٌ لا يُنطق به كقول الإنجيل: «لكي تفرحوا في استعلان مجده» (١بط ٤: ١٣).

(23) St. John, XVI, 25, P. G., 74, col. 464 B.

أقوال الآباء في رؤية الله:

ماهية رؤية الله:

يحدثنا القديس أنطونيوس الكبير عن ماهية هذه الرؤيا وفعلها في النفس وثمارها موضحاً أقواله من اختبارات القديس بولس الرسول في تصريحه أنه رأى الرب كما رآه الرسل، ليس بنظرة العين البسيطة التي لا ترى في المسيح إلا إنساناً ضعيفاً ولكن بنظرة العقل المكشوفة التي رأته إلهاً ممجَّداً:

٢٢٤ - لأنه (بولس الرسول) انعتق أولاً من الشر، وثانياً لم يتعبد لشيء من الشهوات لكونه صار ناسكاً، وفي الآخر تحرر برؤية السيد المسيح. فعندما نظره للوقت تبع أقواله بلا تأخير وصار في غاية الكمال والاتضاع، وهكذا كل الذين يتمسكون بأقوال الرب فإنهم يعرفون الحق، والحق يصيِّرهم أحراراً ويعتق نفوسهم من عبودية الشر كما صار بولس الرسول، لأن مخلصنا حرره بإظهار ذاته له، لذلك قال: «ألستُ أنا حراً، أما رأيتُ يسوع المسيح ربنا؟» (١كو ٩: ١)

كثيرون يقولون بجهالتهم إنهم رأوا الرب يسوع مثل الرسل، وهؤلاء يا أولادي مخدوعون وضالون وليس لهم عيون ينظرون بها كما نظر الرسول الرب، لأن الرسول نظر الرب كما كان ينظره الرسل الذين كانوا معه، وكما نظره الذين آمنوا به كنازفة الدم التي رأته بعيني قلبها وآمنت أنه إله ولمست طرف ثوبه بإيمان فبرئت... ولكن بيلاطس وحنان وقيافا رأوا الرب كمثل سائر الجموع الذين كانوا ينظرونه بعيني الجسد فقط، لأنهم لم ينظروه بأمانة مثل نظرة الرسول، ولذلك لم يستفيدوا شيئاً بنظرهم إياه... أما الرسول فنظره نظرة أخرى بعين قلبه بإيمان قوي كمثل ما نظرته النازفة أيضاً. هكذا ظهر ربنا يسوع المسيح لرسوله بولس بعد غلبته للأوجاع وصيَّره حراً... هكذا كل من انعتق من الأوجاع فإنه ينظر الرب بعيني قلبه ويتحرر، ولكن لا يستطيع أن ينظر بعيني جسده ذلك النور البهي الذي نظره بولس الرسول. لأن ربنا يظهر لأولاده الذين ليسوا هم عبيداً للأوجاع. ومكتوب عن إشعياء النبي أن الرب ما عاد يظهر له لكونه لم يبكِّت الملك عُزِّيا ومُنع من النبوة، وبعد وفاة عُزِّيا ظهر له ملاك الرب وطهره بجمرة النار التي من على المذبح.

فاعلموا إذن يا أحبائي أن الإنسان إذا ماتت منه الخطية فإن الله يظهر للنفس ويطهرها مع الجسد أيضاً...

فإن كانت الخطية حية في الجسد فلا يمكن للإنسان أن ينظر الله. لأن النفس تكون مظلمة ولا يظهر لها النور الذي هو نظر الله...، وداود يقول: «بنورك يا رب نعاين النور». وما هو هذا النور الذي نعاين به الله؟ هو النور الذي ذكره ربنا يسوع المسيح أن يكون الإنسان كله نيِّراً وليس فيه جزء مظلم. ومكتوب أيضاً أنه: «ليس أحد يعرف الآب إلا الابن ولمن يريد الابن أن يكشف له». فالابن يا أولادي لا يُظهر أباه لبني الظلمة بل للثابتين في النور الذين هم أبناء النور وقد استضاءت عيون قلوبهم بمعرفة الوصايا... فموسى لما تحرر من عبودية فرعون، استحق أن ينظر النار المشتعلة في العوسجة وهي لا تحترق وقال إنها رؤية عظيمة، وكانت له بداية ثم نظر السر الأوسط وبعده كان الكمال...

واعلموا يا أولادي أن رؤية الله تكون لغير الكاملين مثل الناظرين في مرآة، وأما الذين قد وصلوا إلى الكمال فإن عيون قلوبهم تنكشف ويظهر لهم نور عظيم براحة وليس بتعب. لأن عيون الكاملين تكون قد تنقَّت من الخطيئة وآثارها. الذي يقول عنه بولس الرسول أننا بوجوه مسفرة ننظر إلى مجد الله كمن ينظر في المرآة وذواتنا تتبدل من مجد إلى مجد... ومن فضيلة إلى فضيلة أكمل، فهذا الانتقال والتقدم هو الذي يقرِّبنا إلى الرب فنأخذ نظر المعرفة القوية، لأن الله يقول بلسان النبي إن الذين يقتربون إليَّ يعرفون قوتي، فالعقل الذي لم يقترب بعد من الله فإن الشيطان ينمو فيه مثل شجرة لبنان، فإذا اقترب العقل من الله واتحد به وصار معه واحداً فإن المنافق لا يعود يظهر فيه، بعد أن كان مرتفعاً ومتطاولاً مثل أرز لبنان كما يقول داود: «رأيت المنافق قد زاد علواً وارتفع متطاولاً مثل أرز لبنان ثم عبرت فإذا هو كأنه لم يكن، طلبتُه فلم أجد مكانه». وداود لم يطلب المنافق إلا لأنه يبحث عن معرفة الله التي إذا عبرنا إليها لا نجد للمنافق فيها موضعاً بالجملة، لأنه بقوله «عبرتُ» أي «جزتُ وتقدَّمتُ» كقوله أيضاً في المزمور ٤٢: «إني جزتُ من الخيمة العجيبة إلى بيت الله»، فهذا هو العبور الذي يُظهر لنا نمو النفس إلى الكمال بعد أن كانت بعيدة عن الله قبلاً...

فاجتهدوا إذن يا أولادي لتصلوا إلى نظر الله الذي بالتاوريا الروحانية بنعمة ربنا يسوع المسيح الممجَّد من جميع الناطقين مع أبيه والروح القدس من الآن وإلى أبد الآبدين آمين.

أبا أنطونيوس الكبير

في هذا العرض الاختباري الذي لقديسنا العظيم أنبا أنطونيوس نرى أسس اختبار النظرة الروحانية ورؤية الله مرتبة بوضوح:

فأولاً: للتقدم لرؤية الله ينبغي التخلص من جميع الشهوات والخطايا وآثارها.

ثانياً: يجب أن يمارس الإنسان أنواع الفضائل التي توصلنا إلى درجة النسك.

ثالثاً: الاشتياق نحو الله ومحبة الحق.

رابعاً: بنظرة الحق الذي هو الله نصير أحراراً من عبودية الخطية وننتقل إلى درجة أولاد الله الذين لا يخطئون.

كذلك شرح القديس أنطونيوس معنى رؤية الله، وفرَّق بين النظرة الجسدية والرؤية الروحية التي بعين العقل المطلق بالإيمان. ووضَّح كيف تُرفع هذه الهبة، أي هبة رؤية الله إذا عاد الإنسان إلى عصيان أوامره، كما كان الحال مع إشعياء النبي وكيف استلزم الأمر أن يطهره الله بجمرة النار التي من على مذبح الله لكي تعود إليه هذه الموهبة مرة أخرى؛ كذلك فرَّق القديس أنطونيوس بين النظرة غير الواضحة التي لغير الكاملين والنظرة المكشوفة التي للكاملين.

وعلَّق القديس أنطونيوس أهمية قصوى على اختبار اقتراب العقل من الله والوصول إلى نظرته، وأبان كيف يصير العقل مسكناً للشيطان بابتعاده عن معرفة الله والتأمل فيه.

وبذلك يكون القديس أنطونيوس أول من رسم الطريق للتأمل في الحق ورؤية الله وفتح ذلك الباب العجيب أمام القديسين الذين جاءوا من بعده سواء في الشرق أو الغرب.

التعطش نحو المطلق:

٢٢٥ - الله جوهر بسيط غير متغير، والنور والبهاء هما من طبيعته. وسوف تعلن حكمة الله ذاتها لمختاريه يوماً واضحة كل الوضوح. غير أن الله وعد أنه سيكون لنا نصيب في رؤيته ونحن هنا على الأرض قبل أن ننتقل إليه، بقوله: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي...» (يو ١٤: ٢١).

وصرَّح أيضاً أنه: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله...»، وقال بولس الرسول: إننا ننظره الآن كما في مرآة ولكن حينئذ يكون وجهاً لوجه... الآن أعرف جزئياً ولكن فيما بعد سأعرفه كما أعرف ذاتي الآن.

أما قول بطرس الرسول: «الذي تشتهي الملائكة أن تطَّلع عليه»، فهذا ليس لأن الملائكة لا تراه قط إذ أنه صرَّح قائلاً: «إن ملائكتهم ينظرون وجه أبي في السماء كل حين»، فهل في قول الروح تعارض؟ حاشا، ولكن إذا قارنَّا كلتا الجملتين معاً فإنه يتحقق لنا أنه ليس بينهما أدنى اختلاف. لأن الملائكة ينظرون وفي نفس الوقت يشتاقون أن ينظروا! فهم في تعطُّشهم نحوه يتطلعون إليه... لأنه لو قُدِّر لهم أن لا يسعدوا قط بنظره على الرغم من اشتياقهم ورغبتهم في النظر إليه، لأصابهم القلق من عدم الحصول على ثمرة اشتياقهم الملِحّ، والقلق يستوجب اللوم والعقاب، فكيف يتأتى أن تُعاقَب الملائكة وهم أبعد ما يكونون عن المخالفة والعقاب؟ أو كيف يتلاقى العقاب والبركة معاً؟! إذن فهم بمنأى عن العقاب وبمنأى عن القلق أيضاً... ولكي نوفق بين القولين في معنى واحد منسجم نقول إنهم دائماً يرون ودائماً يشتاقون، فلا يكون إذن قلق في

اشتياقهم، إذ هم يحققون ما يشتاقون إليه. ولكي لا يكون في دوام تحقيقهم لما يشتاقون إليه قعود أو مضايقة، فهم على الدوام يشتاقون وعلى الدوام ينظرون. ينظرون **وجه أبي كل حين!**

وهم يشتاقون بلا عناء لأن اشتياقهم محقق لهم، ولا يصيبهم ملل في تحقيقهم لاشتياقهم، لأن رؤيتهم لله تشتعل فيهم بالاشتياق على الدوام.

هكذا نصير نحن أيضاً يوماً من الأيام حينما نأتي إلى ينبوع الحياة، وينطبع على مُحيَّانا بهجة دوام الإشتياق وبهجة دوام الرؤيا معاً!!! حينئذ يتحرر اشتياقنا من العجز والقصور، وتتحرر رؤيتنا لله كذلك من الملل والفتور، لأننا إذ نكون مشتاقين لرؤية الله، نراه وعندما نراه نزداد اشتياقاً إليه. هكذا نرى الله ويكون لنا ذلك إكليل جهادنا، إذ يصير بعد حلكة الظلمة التي تكاثفت على عالمنا الميت سعادة القُربى من نوره العجيب.

غريغوريوس الكبير

البحث عن المطلق:

٢٢٦ - دخلتُ في أعماقي ورأيت بعيني نفسي ما هو أعلى من ذاتي وأعلى من نفسي، رأيت ذلك النور الدائم الذي لن يعتريه تغيير قط. ليس هو من هذا النور الذي يراه كل ذي جسد، ولا هو من نوع أرقى كأن يكون أشد ضياءً أو أعظم نفاذاً أو أرقى رواءً، ولا هو أعلى مني كعلو السماء عن الأرض... ولكن هو أعلى مني لأنه صنعني، وأنا دونه لأني مخلوق به... إن من يعرف الحق يعرفه، ومن يعرفه يعرف الأبدية... إن الحب يعرفه... إيه أيها الحق الأبدي والأبدية المحبوبة والحب الحقيقي! أنت هو الله ومن أجلك أنا أتنهد نهاراً وليلاً...

٢٢٧ - إني أبحث عن الله لا لكي أومن به فقط، ولكن لكي أرى شيئاً منه!

٢٢٨ - حينما يتحقق العقل من الأمور المنظورة يدرك أنه أرفع شأناً منها، وحينما يتحقق من تغيُّر ذاته ومن ضعفاته الكثيرة ويسلِّم بذلك، ويتطلع إلى الحكمة، يرى أنه يوجد ما هو أعلى منه وأرفع شأناً، ألا وهو الحق الثابت الدائم الذي لا يتغير قط...

فالإنسان يسمع قولاً، سواء من إنسان آخر أو من ملاك. فلكي يشعر ويتأكد أنه حق يعود بعقله إلى داخل نفسه (بدون أن يناقش الأمر أو يحكم عليه بالمقارنة) يستوحي الحقيقة من هناك... فالحق الثابت الذي لن يتغير قط يشع داخل النفس كالشمس فيصيِّرها شريكة ذلك الحق...

أما هذا الحق الثابت فهو يحيط بكل ما هو غير متغير كذلك، وإدراكه ليس هو وقفاً على أحد ولكنه ملك لكل أحد فهو أمر مفتوح لكل من يسعى ليدرك الحق...

والجميل أن كل حقائق الأمور جميعاً تُدرَك من خلال ذلك الحق الثابت فهو عامل الحق المشترك! وللتدليل

على ذلك: إذا رأيتَ أنت في كلامي أنه حق، وإذا رأيتُ أنا في كلامك أنه حق، فمن أين لك ومن أين لي معرفة هذا الحق؟ لا أنا دخلت في نفسك ولا أنت دخلت في نفسي، ولكننا نحن دخلنا في الشيء الواحد وهو الحق غير المتغير الذي هو أعلى وأعمق من نفسي ومن نفسك!

إذن، فالوصول إلى معرفة الحق سبيله العقل على أن يكون في نور الحق الإلهي الثابت.

٢٢٩ - اشتاق موسى أن يرى الله في ذات جوهره ليس بشبه مخلوق ما أياً كان إنما بصورته هو بالذات على القدر الذي يستطيعه الإنسان، بعيداً عن الحواس الجسدية وبعيداً أيضاً عن كل لغز أو رمز روحي (أي تكون الرؤيا خالية من تدخل الإدراك الحسي والإدراك التصوري)... في تلك المرتبة العليا حيث أن الله هناك يتحدث بسر بلا واسطة ما وإنما بما يفوق الكلمات المنطوقة!...

هذه كانت رغبة موسى أن يرى الله في طبيعته كما يراه القديسون هناك ... فهو لم يقنع أن يحدثه الله فماً لفم تحت صورة ما وإنما أراد أن يراه كما هو...

أوغسطينوس

٢٣٠ - كل من تذوّق ذلك السرور المفرط الذي يكون في التأمل حينما يُرفع بالنعمة ليشارك زُمرة الملائكة بعقله المطلق، وهو محصور في النظرة العليا، بعيداً عن كل أمور العالم تجده دائماً غير قانع بمشاركة الملائكة إنما يتوق لو يستطيع أن يتفرس في الذي هو فوق الملائكة، إذ أن سر الانتعاش الحقيقي لعقولنا يكون في رؤية الله. فمن مشاركة الملائكة المرنمين نرتفع بعيون عقولنا لنتأمل مجد جلاله الأسنى... وإلى أن يراه العقل يبقى جائعاً لهوفاً حتى إذا ما رآه قنع وشبع...

غريغوريوس الكبير

في عرض هذه القطع المختارة نرى لهفة نحو معرفة الله معرفة عقلية مطلقة، واشتياقاً لرؤية الله على حقيقته المطلقة بلا واسطة حواس أو فكر أو تصور. نرى هذه اللهفة وهذا الاشتياق في معرض حديث القديس أوغسطينوس عن نفسه مدللاً على صحة هذا الاتجاه بما يشابهه عند موسى. إذن، فهي حقيقة ثابتة عند بني البشر. فاشتهاء رؤيا الله أمر يختلج في نفوس الناس جميعاً وشعور يداعب قلوبنا بين الحين والحين. غير أن الجرأة في الإعلان عن ذلك أو التقدم للسؤال والطلبة من أجل هذا الأمر يختلف باختلاف الدالة التي تربط الإنسان بالله، والتي تتوقف على حياة القداسة التي يحياها الإنسان أمام الله. وليس عجب في هذا الاشتياق من نحو رؤية الله كما هو. فالإنسان يحمل روح الله في داخله: «... روح الله يسكن فيكم» (١كو ٣: ١٦)، «به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع ١٧: ٢٨)، وهو لن يستريح قط طالما هو بعيد عن الله. ولن

يستقر إلا إذا شعرت النفس بقربها من خالقها، ويقول في ذلك الأب سيرافيم (من صروف):

٢٣١ – إذا كنتَ لا تعرف الله يستحيل عليك أن تحبه، ولن يمكنك أن تحبه إلا إذا رأيته، ولكن لا تستطيع أن تراه إلا إذا عرفته!

وهنا نرى تدرجاً لطيفاً نحو الرؤيا، فنحن نبدأ علاقتنا بالمعرفة ثم تتطور هذه المعرفة إلى حب ويتطلع الحب نحو الرؤيا ليثبت ويتقوى!

ويقول أيضاً القديس إيرينيئوس:

٢٣٢ – الرجل الحي هو مجد الله، أما حياة الرجل فهي رؤية الله.

أنواع الرؤيا:

كما رأينا، فإنه يوجد عند الجميع اشتياق عام لرؤية الله، غير أن هذا الاشتياق يُفصَح عنه بدرجات متفاوتة من الإهتمام والسعي، كذلك نجد هذا التفاوت واضحاً حتى عند بلوغ الرؤيا، فنجد في اختبارات القديسين أنهم لما بلغوا الرؤيا بلغوها على درجات متفاوتة من الوضوح:

أولاً: الرؤيا الواضحة:

من الذين يتحدثون عن احتمال اختبار رؤية الله بوضوح، القديس أوغسطينوس:

٢٣٣ – توجد حياة أخرى ليس فيها موت وليس فيها مرض، هناك سوف نرى وجهاً لوجه ما نراه هنا في مرآة في لغز؛ **ولكن يمكن أيضاً أن نصل إلى ذلك هنا إذا تقدمنا كثيراً في تأمل الحق**.

٢٣٤ – إن الخالق والمدبر لجميع المخلوقات يضبطها ويهيؤها إلى أن يشرق جمال العالم العتيد كانبعاث لحن شجي لموسيقي بارع، وحينئذ يؤهَّل الذين يعبدون الله بالحق إلى تأمل جوهر الحقيقة إلى الأبد... **وحتى هذا التأمل في جوهر الحقيقة (بالعيان) يمكن أن يكون أيضاً في زمان الإيمان** (أثناء الحياة على الأرض).

٢٣٥ – حينما ندرك هذا (رؤية الحق كعلة لكل الخليقة) فحينئذ نتحقق من بطلان كل ما هو تحت الشمس، وندرك بُعد الأشياء الزائلة في العالم عن الأشياء الثابتة الحقيقية التي في العالم الآخر، **وحينئذ نعرف حقائق الإيمان التي نتمتع بها وجمال وطُهر ما تمدُّنا به أمنا الكنيسة، ونرى في طبيعة أجسادنا حقيقة البعث والقيامة العتيدة وسر التجسد الإلهي والميلاد من عذراء**، والموت لا يعود يخيفنا بل نشتهيه كما نشتهي نصراً أو مكسباً حتى تتحرر النفس وتلتصق بالحق بكاملها.

أوغسطينوس

كذلك يشترك القديس يوحنا سابا في تقرير إمكانية الرؤيا الواضحة إلى حدٍّ ما:

٢٣٦ - ناظرين مجد الله ممتلئين يقيناً واتكالاً بلا فحص **لأنهم لطبيعة الله المحجوبة عن الكل ينظرون وفيها يتأملون** بحركة وديعة لذيذة ممتزجة بفرح.

الشيخ الروحاني

٢٣٧ - كما أن انبساط نظر العين أوسع وأعرض من العين ذاتها كذلك نظر النفس التي اتحدت بالله، **فإنها تنبسط بنظرتها فيه بلا مانع ولا عائق!**

الشيخ الروحاني

٢٣٨ - الذين يلتهبون لرؤية الله يشتاقون أن يروه ليس تحت هيئة ما وإنما بذات الجوهر الذي هو به كائن - هذه كانت رغبة موسى أن يرى الله في ذات طبيعته كما سيراه القديسون في السماء. فهو لم يكتفِ بأن يتحدث إليه فماً لفم ووجهاً لوجه تحت هيئة ما ولكنه سأل: **أرني ذاتك مكشوفاً حتى أتمكن من رؤياك.**

٢٣٩ - إن التأمل في الله وجهاً لوجه قد وُعِد به لنا، ليكون نهاية سعينا ومنتهى مسراتنا.

٢٤٠ - هناك يُرى الرب ليس بالبصر الجسدي، أو بالتصور الروحي، ولكن بالمنظر المعقول على قدر ما يقوى عليه العقل البشري بنعمة الله، حتى أن مَن أُهِّل لهذا الحديث يتكلم فماً لفم، ولكن ليس بالفم الجسدي، وإنما بالعقل.

أوغسطينوس

٢٤١ - «إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أُكلمه. أما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي **فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز**، وشبه **(منظر) الرب يعاين**» (عد ١٢: ٦ - ٨).

في هذه القطع نرى بوضوح إمكانية الرؤيا واضحة أثناء هذه الحياة؛ إلا أنه يعترضنا سؤال مهم، وهو قول الرب لموسى: «لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠).

ولكن للقديس أوغسطينوس رأياً قاطعاً بخصوص هذا المعنى:

٢٤٢ - ربما يُسأل كيف أن ذات جوهر الله يمكن أن يُرى لإنسان لازال في هذه الحياة. هذا لا يتأتى إلا إذا اختُطف العقل البشري من هذه الحياة إلى الحياة الملائكية، قبل أن يجوز الموت الطبيعي بانفصال النفس عن الجسد نهائياً.

هكذا اختُطف بولس الرسول وسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يصح لإنسان أن يتكلم بها، إذ كان قد فارق حواسه الجسدية لدرجة أنه لم يستطع أن يقرر هل كان في الجسد أم خارج الجسد حينما رأى وسمع هذا. فقد كان في حالة ذهول شديد، وعقله متغرب تماماً عن هذا العالم وما فيه. وكان الجسد قد انفصل انفصالاً كاملاً كما هو في حالة الموت حتى أنه طابق قول الرب أنه ليس حياً في ذاته «الإنسان لا يراني ويعيش»، لأنه يتحتم على العقل أن يفارق الجسد والحياة تماماً ويُحمل ليستطلع منظر الرب كما هو. ثم بعد ذلك لا يستطيع أن يعبِّر عما رآه. ولا يصعب تصديق ذلك أن هذا الاستعلان الفائق مُنح لبعض القديسين، ولكنهم اجتازوه دون أن يموتوا بالمعنى الكامل الذي تصبح فيه أجسادهم جثثاً هامدة.

أوغسطينوس

وله أيضاً قطعة في ذات المعنى:

٢٤٣ - إن الاستعلان الذي يتراءى فيه الله، يكون الحديث فيه ليس بألفاظ وإنما بسر يُدرَك في الحال بلا تعبير ما، فهو حديث غير منطوق. ويتحتم على الذي يستطلع منظر الله أن لا يكون حياً بالجسد، أو في يقظة حواسه أو شعوره، وهذا إما أن يكون بالموت الطبيعي، وإما أن يكون بمفارقة النفس والعقل للجسد في حالة الذهول. حتى أنه لا يدرِك وهو في هذه الحالة شيئاً عن جسده، فهو لا يعرف إن كان في الجسد أو خارج الجسد.

يتحتم على الإنسان أن يصل إلى هذه الحالة حتى يستطيع أن يرى بهاء الله ليس بتوسط حواس الجسد أو بقوة التخيل كأن يكون بلغز أو بصورة كما في مرآة، وإنما يكون وجهاً لوجه وفماً لفم كما كان مع موسى، أي أنه بالعيان يرى الله كما هو. غير أن ما يستطيع العقل أن يدركه عن الله يكون قليلاً جداً مهما كانت درجة نقاوة العقل وخلوه من الشرور وابتعاده عن الحواس الجسدية. أما السماء الثالثة التي اختُطف إليها بولس الرسول فلا يستطيع العقل أن يرى شيئاً فيها إلا إذا انفصل وابتعد وتغرب تماماً عن الحواس الجسدية، وتنقى من كل تأثير صادر من الجسد أو الخيال حتى يمكنه أن يسمع ويرى بوضوح الأشياء التي هناك، وذات جوهر الله، والله الكلمة، والروح القدس.

أوغسطينوس

هكذا يوضح القديس أوغسطينوس نظرية الرؤيا الواضحة، ويكشف عن معنى عدم إمكانية رؤية الله طالما كان الإنسان حياً بحواسه. وبذلك يستقيم المعنى تماماً، لأن موسى رأى الله بالفعل والرب أعلن ذلك: «عياناً أتكلم معه لا بالألغاز ومنظر الرب يعاين». وطبعاً ذلك كان بتوسط حالة الذهول التي يفقد الإنسان فيها كل صلته بالجسد والعالم ويرتفع بالعقل طاهراً خالياً من كل تأثيرات الحواس والمناظر ليطَّلع على حقيقة الله المطلقة. ويؤمن أوغسطينوس أن

موسى رأى الرب في حقيقة جوهره. ويرى أن هذا الاختبار ليس هو وقفاً على أحد، إنما هو مستطاع لكل من يسعى بالحق لرؤية الحق.

ثانياً: الرؤيا غير الواضحة:

الذين اختبروا هذا النوع من الرؤيا وعلّموا بعدم إمكانية الرؤيا الواضحة طالما كان الإنسان موجوداً في هذه الحياة، هم غالبية الآباء وفي مقدمتهم غريغوريوس الكبير ومار إسحق ويوحنا سابا وديونيسيوس الأريوباغي:

٢٤٤ – علينا أن نعرف أنه طالما نحن نحيا في هذا الجسد القابل للموت، لا يستطيع أحد أن يتقدم في قوة التأمل بالدرجة التي فيها يملأ عينيه ويتفرس ملياً في ذلك النور غير المفحوص. لأن الله القادر على كل شيء لم يُرَ بعد بهذا الوضوح، إنما كل ما تستطيعه النفس هو أن ترى ما يحيط به، فتنتعش وتنمو لتدرك مجد منظره، وحتى حينما يتقدم العقل في التأمل لا يستطيع أن يتأمل الله كما هو. غير أن مثل هذا التأمل يقود إلى اختبار تذوُّق الهدوء الداخلي جزئياً – على حد القول – وليس كاملاً، كما هو مكتوب في سفر الرؤيا: «وكان هدوء في السماء نحو نصف ساعة» لأن السماء هي النفس البارة. وبتذوُّق التأمل العقلي يصير فيها هدوء إذ تكون الضوضاء والانشغالات الأرضية قد تلاشت، وتحرر الفكر من الارتباط بها، ولكن بسبب أن هدوء العقل لا يمكن أن يكون كاملاً في هذه الحياة لم يقل إنه صار هدوء في السماء ساعة كاملة، ولكن قال نحو نصف ساعة! لأنه عندما يرتفع العقل ويلج إلى الهدوء الداخلي لا يستقر هناك كثيراً بسبب الأفكار التي لا تزال تلحُّ عليه بشغبها فيختل هدوء العقل من ذاته، وبوقوعه في هذا الارتباك تغشاه الظلمة مرة أخرى فيعمى.

٢٤٥ – إن عقول الذين يمارسون التأمل لا تدرِك من النور الحقيقي إلا بصيصاً خافتاً، ولكن إذا ما استطاعوا أن يضبطوه – وهذا نادر – فإنه ينمو داخلهم بتضاعف عظيم ... والقدر الذي يراه هؤلاء المتأملون من الأبدية قليل، ولكن من ذلك القليل تمتد ثنايا عقولهم إلى اتساع في الحرارة والحب. وبازدياد هذه الحرارة وهذا الحب ينسكب النور فيهم أكثر ولكن كما من ثنايا ضيقة في غرفة مظلمة. هذا الاتساع في التأمل إنما يوهب فقط للذين يحبون.

٢٤٦ – إن موضوع التأمل الناضج هو الحكمة الإلهية حينما يدركها العقل المطلق وتُلمس لمساً رقيقاً... فعندما يتقدم بنا التأمل لنرتقي إلى حكمة الله – أو بالحري ترتقي هي بنا إلى ذاتها – حينئذ يكون عظم اتساعها اللانهائي سبباً لاقتناعنا بعجزنا وامتناع كمال المعرفة على العقل البشري! إنما فقط بالحب نتلامس مع هذه الحكمة تلامساً، ولكن لا نجوز خلالها بأي حال من الأحوال.

٢٤٧ – «منظر شِبْه مجد الله. ولما رأيته خررت على وجهي» (حز ١: ٢٨).

لم يقل حزقيال إنه منظر المجد ولكن «شِبْه مجد»، حتى يظهر أنه مهما جاهد العقل ومهما ضبط نفسه من كل تخيل المناظر والصور الجسدية وأخلى قلبه من الاهتمامات الزائلة، يبقي على الرغم من ذلك غير قادر على رؤية مجد الله كما هو، طالما يسكن في هذا الجسد القابل للفساد... فكل ما يصادفه العقل من إشراق إنما يكون بالشِبْه فقط وليس بذات الجوهر.

٢٤٨ - لا يستطيع العقل طالما نحن في منفى هذه الحياة أن يغشى نور الأبدية مهما جاهد في سبيل ذلك. فكلما نحاول أن نحدق ملياً في ذلك النور العجيب نُغلَب من ضعفنا، فنرتد عنه، وقد غشيت أبصارنا العقلية سحابة الظلمة... لأن الجسد الذي يثقل كاهلنا الروحي يحرمنا بضعفه من أن نرى نور الأبدية كما هو. حقاً إن العقل يتقد فينا أحياناً فيُختطف ليكون مع الله، وحينئذ يكون كل فكر وحس بشري خاضعاً له، ولكن على الرغم من هذا كله فهو لا يرى الله كما هو.

٢٤٩ - طالما نحن محاطون بأنواع الفساد الذي تبعثه أجسادنا، فقوة ضياء اللاهوت ستظل مختفية عنا في حقيقة ذاتها وحقيقة ثبوتها الدائم غير المتغير. ولن تستطيع عيوننا العقلية أن تحتمل ذلك الإشراق الهابط من النور الأبدي الذي يضيء فوقها ببريق يفوق احتمالنا.

٢٥٠ - إن اللاهوت لا يعلن حقيقة ذاته للذين يمارسون التأمل فيه طالما هم في هذه الدنيا، وإنما يكشف عما يحيط به من إشراق بقدر بسيط، حتى تحتمله عيون عقولنا التي أعمتها الظلمة، فلم تعد تطيق التحديق في نور اللاهوت.

٢٥١ - مهما أحرزنا من نمو وتقدُّم ونحن في الجسد فلن نرى الله بواقع منظره الحقيقي، ولكن نراه كما في لغز كما من خلال صحيفة من زجاج البلور، فكم من القديسين ارتفعوا إلى أعلى درجات التأمل ولكن لم يره أحد قط كما هو. يتبارون مجاهدين بصبر وعزم موجِّهين كل التفاتهم نحوه ولكنهم لا يرونه عن كثب، ولا يتمكنون أن ينفذوا إلى عظم بهائه لأن ضباب فسادنا يحجبنا عن ذلك النور غير الفاسد. فإذا ما وُهب لنا أن نتطلع إليه فيكون ذلك بمقدار، ويتراءى لنا كأنه آتٍ من بُعد سحيق!! فلو كانت رؤيتنا له مُحكَمة واضحة، لما اعترضتنا هذه السحابة الكثيفة التي تحجز حقيقته عنا.

٢٥٢ - مهما كان التقدم في الفضيلة فإن العقل لا يستطيع أن يستجلي منظراً واضحاً للأبدية. وغاية ما يصل إليه هو أن يراها كما من خلال ضباب معتم بشيء من التخيل، لذلك يدعونها رؤيا الليل. ففي أثناء التأمل يعترض الشعاع المنبثق من الشمس الداخلية سحابة الفساد الجسدي، التي تغشى حياتنا فتحجب النور وتمنعه من أن يصل إلينا كما هو، فلا يتراءى الله لعيوننا العقلية إلا كما في منظر ليلي.

٢٥٣ - حينما يحلق العقل عالياً في التأمل فهو لن يبصر الله مهما كان له من قوة على الرؤيا! إذن، هل هناك نوع من الحقيقة في معرفتنا لله (على وجه العموم) طالما نحن تحت سلطان الحواس؟ أقول نحن لا ندرك

شيئاً على حقيقته المطلقة فيما يختص بالله.

٢٥٤ - أيُّ إنسان يدرك شيئاً من الكائن الأبدي - (الله) - بالتأمل فإنه يرى نفس الشيء في صورة ابنه المساوي له في الجوهر والأبدية... فحينما ندرك شيئاً عن أبديته بالقدر الذي تسمح به طبيعتنا فمنظره الذي يستعلن لعقلنا هو بالذات ما نراه في منظر ابنه! إذن، فمن صورة الابن الذي وُلد وهو بلا بداية نحن نجتهد أن نستطلع بشكل ما ولو وميضاً منه، هذا الذي لا بداية له ولا نهاية.

٢٥٥ - ولكن أكيد أننا نحن لا نرى الله كما يرى هو ذاته! كما أننا لا نستريح فيه بالقدر الذي يستريحه هو في ذاته... لأن رؤيتنا له أو راحتنا فيه تشابهه إلى درجة ما ولكن لا تعادله في حقيقته ... ولكن لا نخور لأننا أُعطينا جناحاً للتأمل يرفعنا لنُحمل خارج ذواتنا لنتحد به ... هذا الخروج ليس للراحة الدائمة وإنما بمجرد الخروج فيه كمال الاستراحة. ولماذا قلنا كمال الاستراحة؟ لأن نظرتنا لله وتمييزنا له بالقدر الذي نستطيعه كفيل ليرفعنا إلى كمال الإستراحة! ولكن لا يجب أن نساوي راحتنا فيه باستراحته هو في ذاته إذ هو لا يحتاج مثلنا أن يخرج من ذاته ويتحد بآخر ليستريح فيه!

وهكذا فإن راحتنا فيه تشابهه بعض الشيء ولا تدانيه في كل شيء، وإنما نحن نقتفي أثره لنرتاح فيه، فنتقدس بهذه الاستراحة. ولكي نسعد وندوم إلى الأبد نقتدي بذلك الدائم الأبدي. لأنها أبدية وخلود. عظيم حقاً أن نكون مقتدين بذلك الأبدي، ووارثين لمن نقتدي به، فنحن برؤيته نشترك فيه، وفي الشركة نقتدي به.

نبتدئ أولاً بالإيمان فنراه، وبعد ذلك تكمل الرؤيا هناك حينما نشرب من تفجُّر جداول حكمته في الأبدية معه. هذه الحكمة نستخرجها الآن من شفاه الوعاظ والعارفين بمشقة كثيرة.

٢٥٦ - حينما تدرك النفس قياس ذاتها وتتحقق من سموها فوق الأمور الجسدية وفوق المنظورات جميعاً، حينئذ تتقدم لمعرفة خالقها ... وإذا كانت النفس مهما جاهدت لا تبلغ قط إلى سبر غور ذاتها كاملاً، فكم وكم يكون عجزها وقصورها عن إدراك عظمة القدير الذي استطاع أن يخلق هذه النفس ... ولكن حينما نجاهد ونثابر بعزم راغبين في أن نستطلع شيئاً من هذه الطبيعة الخفية نُجهَد ونُقهَر، ولكن على أي حال ولو أننا لا نستطيع الدخول من الباب، إلا أننا بالمجهود الذي بذلناه للرؤية نستطلع من بعيد ما هو بداخله.

غريغوريوس الكبير

٢٥٧ - من أجل أن **مجد طبيعته** هو الذي يتراءى لمحبيه، وليس جوهر طبيعته، لذلك قيل إن الله لم يره إنسان قط.

الشيخ الروحاني

٢٥٨ - يكون لهم اتحاد مع أزليتك مثل الأعضاء مع رأسها، ولكن نعمة هذا الاتحاد **هي مع مجدك**

وليست مع طبيعة أزليتك، إنما هو **اتحاد بمجدك وليس بجوهرك** لتنعيمهم، لأنهم يكونون مشتاقين ليتغيروا إلى شبه مجدك.

الشيخ الروحاني

٢٥٩ - الغمام الإلهي هو النور غير المقترَب إليه، الذي يُقال إن الله ساكن فيه، وفيه يدخل كل من وُجد مستحقاً أن يرى ويعرف الله، **ليس برؤية ومعرفة الشيء للشيء، ولكن بالوجود فيه**، هذا الذي هو فوق كل معرفة.

ديوناسيوس الأريوباغي

٢٦٠ - نحن نصلي ليكون لنا حظ الوجود في ذلك **الغمام الإلهي الذي هو دون** طبيعة جوهر النور.

ديوناسيوس الأريوباغي

٢٦١ - والكل يستنير من الشمس الواحدة المعقولة، كل واحد حسب ما يستحقه على قدر تدبيره. ولا ينظر أحد منزلة مَنْ هو أعلى منه أو مَنْ هو دونه لئلا يعرض له من ذلك حزن وكآبة عندما يقيس نقصه إلى كمال غيره، أو تكبُّر وتشامُخ عندما يقيس كماله إلى نقص غيره. لكن هناك لا يوجد حزن أو تنهُّد ولا شر وتكبُّر، بل كل واحد يُسرُّ في داخله بحسب النعمة المعطاة له.

مار إسحق السرياني

٢٦٢ - نظرة مجد الله هي أن يتحرك في العقل **فهمٌ على عظمة طبيعته فقط**.

مار إسحق السرياني

٢٦٣ - **كل عقل حسب مقدار تدرُّجه يستنير بكمية محدودة من النور**.

مار إسحق السرياني

يتفق غالبية القديسين على أن نظرة العقل بالتأمل في الله (الذي يُعبَّر عنه بالنور الثابت - والنور الذي لا يتغير - ونور الأبدية والنور الأبدي - والحق الثابت) إنما تكون جزئية، أو مبسَّطة، أو كأنها من خلال العتمة أو الضباب، وليست كنوع من التقدير أو القياس أو الفلسفة ولكن هي حقيقة ما اختبره القديسون عن الله في أثناء اشتغالهم بالرؤية. وهذا ما يطابق قول موسى عن الله: «ليس مثل الله يا يشورون. يركب السماء لمعونتك **والغمام** في عظمته» (تث ٣٣ : ٢٦).

وقول داود: «طأطأ السموات ونزل **وضباب تحت رجليه**» (مز ١٨ : ٩).

وهذا ما عبَّر عنه القديس غريغوريوس في اختباره عن رؤية الله في جميع أقواله، وخصوصاً

عندما قال: «عندما يُخطَف العقل في التأمل فإنه يعاين جوهر الحقائق **كأنه من خلال ضباب**».

والقديسون في تعبيرهم عن الله بالنور والحق لا يقصدون أن يفصلوا ما يُرى من الله عن طبيعته؛ وإنما يقصدون بالنور الذي يرونه والحق الذي يدركونه أنهما هما بالذات طبيعة الله. فالله نور وحق. ويقول في ذلك القديس غريغوريوس: «في رؤية بهاء نور الله نرى الطبيعة الإلهية». غير أن العقل المطلق لا يستطيع أن يتعمق في طبيعة الله أكثر من ذلك، طالما هو مرتبط بالجسد في هذه الحياة.

ثالثاً: الرؤية المحدودة بصورة أو شبه:

٢٦٤ - حينما أتطلع إلى آباء العهد القديم أرى أن كثيرين من الذين يذكرهم التاريخ المقدس يُشهَد لهم أنهم رأوا الله. فيعقوب رأى الله وقال: «نظرت الله وجهاً لوجه، ونفسي نجت» (تك ٣٢: ٣٠)، وما رآه يعقوب كان بصورة إنسان صارعه حتى مطلع الفجر. وكذلك موسى رأى الله الذي كتب قائلاً: «ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» (خر ٣٣: ١١). وأيوب أيضاً رأى الرب وقال: «بسمع الأذن سمعتُ عنك والآن رأتك عيناي» (أي ٤٢: ٥). وإشعياء رأى الرب وقال: «في السنة التي مات فيها عُزيا رأيت السيد جالساً على عرش عالٍ ومرتفع» (إش ٦: ١). وميخا رأى الرب وقال: «رأيتُ الرب جالساً على عرشه وكل جند السماء واقفين بجواره عن يمينه وعن يساره» (٢أي ١٨: ١٨).

وماذا يعني الكتاب إذن عندما يقول يوحنا: «الله لم يره أحد قط»؟ قد أُعطي لنا أن نفهم بكل وضوح أنه طالما نحن نحيا هنا في هذا العالم بهذه الحياة التي تنتهي بالموت فالله إنما يُرى لنا بتشبيهات خاصة، وأما بمنظر جوهره الحقيقي فلا يمكن أن يُرى.

فيعقوب الذي يشهد أنه رأى الله، لم يره إلا في صورة ملاك. وموسى الذي خاطبه الله وجهاً لوجه كما يخاطب الإنسان صاحبه نجده يقول للرب بعد هذا: «إذا كنتُ قد وجدتُ نعمة في عينيك. أرني وجهك لكي أعرفك!» (خر ٣٣: ١٢ - ٢٣). ويقيناً إن الذي يخاطبه هو الله بالذات، لأنه لا يقول له: «أرني الله» بل «أرني وجهك»! فإذا كان الله هو الذي يتحدث معه وجهاً لوجه، فلماذا إذن يتضرع له ليراه وهو يراه؟ ولكن من الرجاء الذي قدمه يُستدَل أنه كان متعطشاً أن يدركه بحواسه في وضوح طبيعته الإلهية، مع أنه بالكاد ابتدأ يراه بتشبيهات فقط، وذلك استدعى أن يحل جوهر اللاهوت في العقل ويملأه لكي لا يعترض انبساطه الذي يمتد إلى الأبدية أي تشبيه آخر أو صورة مادية من فعل الحواس في هذه اللحظة ...

لذلك فإن الله لم يره أحد قط. وأيوب يقول إن الحكمة - التي هي الله - مخفية عن أعين جميع الأحياء. وإنما الله يتراءى للأحياء في هذا العالم بواسطة العقل المطلق في صورة وتشبيه من جوهره، ولكن لا يُستطاع

أن يُرى كما هو في نور الأبدية غير المدرَك.

غريغوريوس الكبير

٢٦٥ - وقد كان يظهر أيضاً لكل من الآباء الأطهار على ما شاءه واستحسنه، فظهر لإبراهيم بطريقة ولإسحق بأخرى وليعقوب بطريقة ثالثة وبغيرها لنوح ولدانيال ولداود وسليمان وإشعياء، ولكل من الأنبياء، وبنوع لإيليا وبآخر لموسى، وهكذا ظهر الله لكل من القديسين لخلاصهم وإرشادهم إلى معرفته.

أبا مكاريوس الكبير

ثالثاً: الاتحاد بالله

Theiahenosis   Θεια ἕνωσις

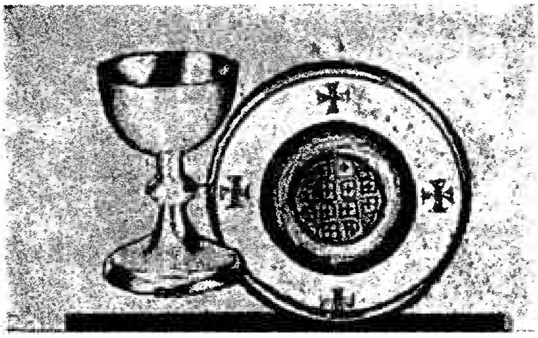

«كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»

(يو ١٧: ٢١)

«من التصق بالرب فهو روح واحد»

(١كو ٦: ١٧)

الاتحاد بالله هو تعبير لاهوتي مختصر للحالة التي يطلبها المسيح لنا من الآب: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ١٧: ٢١).

وقد تحققت لنا هذه الطلبة بموت المسيح وقيامته، فصرنا حسب قول بطرس الرسول: «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط ١: ٤).

والكنيسة تضع هذه الغاية أمام أولادها منذ اللحظة الأولى التي يدخلون فيها إلى جرن المعمودية، فحسب قول القدس إيرينيئوس: [بواسطة الروح القدس نرتفع إلى المسيح وبواسطة المسيح نرتفع إلى الآب][٢٤]، حيث الاتحاد هنا يُستعلَن على ثلاثة مستويات. وبحسب قول القديس أثناسيوس الرسولي: «في ابن الله نصير أبناء لله»[٢٥]، حيث هنا الاتحاد يُفهم أنه رسوخ في علاقة بنوية أبدية خالدة.

ويشترك كل زمرة آباء الكنيسة العظام في التأكيد على الإمكانية الجديدة التي اكتسبتها الطبيعة البشرية ككل - في تجسد المسيح وتأنُّسه - وقبولها خلقة جديدة سمائية بالماء وبالروح بتوسط المسيح، فيها تصبح الطبيعة البشرية في حالة اتحاد بالله بالنعمة، التي يعبِّر عنها الآباء بكلمة «تألُّه»: [لأن ابن الله تأنس لنتألَّه نحن][٢٦].

ولأهمية هذه العقيدة اللاهوتية القائلة بإمكانية «تألُّه» الإنسان نشير هنا باختصار إلى بعض المواضع التي ورد فيها شرح هذه الصيغة اللاهوتية عند الآباء الأوائل:

(١) يوستين الشهيد: Dial 124.

(٢) إيرينيئوس: Adv. Haer. v.

(٣) كليمندس الإسكندري: Protrep. IX, 88, 11: 114, A. N. F.

(24) Against Her. V, 36, 2.
(25) Contr. Ar. XLIII.
(26) Incar. Verbi., 54, 3.

(٤) هيبوليتس: Philos. 10: 34, A. N. F.

(٥) أثناسيوس: Incar. Verb. 54, 3.

(٦) غريغوريوس اللاهوتي: Poem. Dogma, X.

(٧) غريغوريوس النيسي: Orat. cat., XXXVII.

وإليك بعض مقتطفات لاهوتية فيما يختص بهذه العقيدة الأرثوذكسية الكبيرة:

٢٦٦ – إني أصلي حتى يكون بينهم اتحاد قائم على أساس جسد وروح يسوع المسيح، الذي هو حياتنا الأبدية، **اتحاد بالإيمان** والحب لا يفوقه ولا يعترضه أي شيء آخر، **اتحاد خاص** بيسوع والآب.

إغناطيوس الإنطاكي – الرسالة إلى ماجنيسيا

٢٦٧ – كان يستحيل علينا أن نعرف أمور الله لولا أن المعلم والسيد الذي هو كلمة الله صار إنساناً. إذ أن أي كائن، مهما كان، لا يقدر أن يعلن لنا أمور الله إلا كلمته الخصوصية. لأنه أي شخص يقدر أن يعرف فكر الله؟ أو من صار له مشيراً؟ (رو ١١: ٣٤).

هكذا كان لا يمكن أن نتعلم بأية وسيلة أخرى سوى أن نرى المعلم ونسمع صوته الإلهي بآذاننا، حتى إذا استطعنا أن نقتدي بأعماله وننفذ وصاياه تصبح لنا شركة معه، ثم نزداد نمواً في هذه الشركة من الله الكلي الكمال...

ثم بواسطة الفداء الذي أكمله لنا بدمه، مسلّماً ذاته فدية عوض الذين وقعوا في الأسر بواسطة العدو... فاستردهم لخاصته... معطياً نفسه لنفوسنا وجسده لأجسادنا، وساكباً روح الله الآب علينا **لتكميل الاتحاد والشركة بين الله والإنسان، واهباً اللاهوت بالحقيقة للبشرية بواسطة هذا الروح**، ومن ناحية أخرى يُجري بنفسه للبشرية ارتباطاً والتحاماً مع الله بواسطة تجسده، واهباً لنا، بذلك، الخلود المزمع أن يمنحه لنا بالحق وإلى الأبد عند مجيئه، بتكميل شركة اتحادنا مع الله الآب.

إيرينيئوس (ضد الهراطقة ٥: ١: ١)

٢٦٨ – المجد لك أيها النور الحقيقي الذي أشرق فينا، نحن المدفونين في الظلمة المحبوسين في ظل الموت. لقد أشرق لنا النور من السماء، أنقى من الشمس، وأطيب من الحياة التي على الأرض، لأنه هو الحياة الأبدية وكلُّ من يشترك فيه يحيا، هذا هو معنى الخليقة الجديدة... بذلك النور الذي حوَّل غروبنا إلى شروق، الذي بالصليب رفع الموت إلى حياة، وأنقذ الإنسان من الهلاك، وأصعده إلى السموات...، واهباً لنا ميراثاً إلهياً مع الآب، مؤلِّهاً الإنسان بالعِلم السمائي، جاعلاً نواميسه في أذهاننا مكتوبة في قلوبنا...

كليمندس الإسكندري (ضد الوثنيين ١١: ١١٤)

٢٦٩ - لقد تأنس ابن الله لكي نتألَّه نحن، واستُعلن في جسد إنسان منظور لكي نتقبل نحن صورة الآب غير المنظور، واحتمل ظلم ووقاحة الإنسان لكي نحتمل نحن ميراث الخلود.

أثناسيوس الرسولي (تجسد الكلمة ٥٤: ٣)

٢٧٠ - حينما نشترك في المسيح «الكلمة» نشترك في الآب، لأن «الكلمة» هو كلمة الآب.

فلو كان المسيح هو في الآب بالمشاركة وليس من الآب بالجوهر لما استطاع أن يؤلِّهنا إذ يكون هو نفسه مؤلَّهاً وحسب. فإذا كان الذي يملكه المسيح هو بسبب المشاركة - مع الآب - لاستحال عليه أن يعطيه للآخرين، لأن الذي له لا يكون حينئذ مِلكه، بل يكون مِلكاً للذي وهبه.

أثناسيوس الرسولي (الرسائل الفصحية: ٥١)

٢٧١ - كان لا يمكن للإنسان أن يتألَّه إذا كان اتحاده بالمسيح هو مجرد اتحاد مخلوق بمخلوق، أو إذا لم يكن المسيح هو من جوهر الله بالحق. كذلك ما كان ممكناً للمسيح أن يُحضر الإنسان أمام الآب وفي حضرته لو لم يكن هو كلمة الله بالطبيعة والحق...

هكذا لا يمكن للإنسان أن يتألَّه، إذا لم يكن الكلمة الذي صار جسداً هو بالحقيقة من جوهر الآب وأنه كلمة الآب الخاصة.

لذلك أصبح المسيح قادراً أن يكمل اتحاداً من هذا النوع بحيث يوحد طبيعة الإنسان بطبيعته الإلهية التي هي طبيعة الآب، وهكذا أصبح خلاص الإنسان وتألُّهه مؤكداً.

أثناسيوس الرسولي (العظة الثانية: ٧٠)

٢٧٢ - المسيح لم يكن إنساناً ثم صار إلهاً، ولكنه إله صار إنساناً وذلك لكي يؤلِّهنا...، لذلك فكل الذين دعاهم الله أبناءً فهؤلاء اختارهم وألَّههم بواسطة «الكلمة» الابن بالجوهر.

أثناسيوس الرسولي (العظة الأولى: ٢٢)

٢٧٣ - من الذي لا يتعجب ويكرم هذا؟ ... فلولا أن أعمالاً إلهية للمسيح الكلمة قد حدثت بالفعل بواسطة الجسد ما كان ممكناً للإنسان أن يتألَّه.

كذلك وبنفس المعنى، فلولا أن خواص الطبيعة البشرية الضعيفة (كالموت مثلاً) قد أُسنِدت «للكلمة» ما كان ممكناً للإنسان أن يتخلص منها.

أثناسيوس الرسولي (العظة الثالثة: ٣٣)

٢٧٤ - وكما أن الرب قد صار إنساناً (تأنَّس) لما لبس جسداً، هكذا نحن نتألَّه «بالكلمة» حينما نتحد بجسده وحينئذ نرث الحياة الأبدية معه.

أثناسيوس الرسولي (العظة الثالثة: ٣٤)

٢٧٥ - لقد صار إنساناً لكي يؤلِّهنا في نفسه، وهو حُبل به ووُلد من امرأة عذراء حتى ينسب لنفسه جنسنا الخاطئ، لكي نصير نحن جنساً مقدساً «شريكاً في الطبيعة الإلهية» كما كتب بطرس الرسول.

أثناسيوس الرسولي (رسالة إلى أدلفوس: ٤)

٢٧٦ - نحن لا نتألَّه إن كنا نشترك في جسد إنسان عادي، ولكننا نتألَّه لأننا نأخذ جسد المسيح الكلمة بذاته.

أثناسيوس الرسولي (رسالة ٧١ إلى مكسيموس: ٢)

□□□

وهكذا نجد أن أكثر الآباء استخداماً لهذا الإصطلاح اللاهوتي هو القديس أثناسيوس الرسولي الذي أورده كثيراً جداً في مواضع عديدة، شارحاً وموضحاً في كل مرة الارتباط الصميمي بين تأنُّس الله وتألُّه الإنسان.

ولكن مفهوم التألُّه Θέωσις الذي يقصده الآباء لا يعني تحول الطبيعة البشرية إلى طبيعة إلهية، ولكن تأهيل الطبيعة البشرية للحياة مع الله في شركة المحبة، وذلك برفع الحاجز الخطير الذي يفصل حياة الإنسان عن حياة الله أي الخطيئة؛ وذلك بتوسط غسل وتقديس دم المسيح لنا وتناولنا من جسده. لذلك فالتألُّه أو الاتحاد بمفهومه الكامل كحياة مع الله لا يمكن أن يتحقق إلا بالقيامة من الأموات، ولكن لأنه قد أُعطي لنا منذ الآن وسائط نعمة ووصايا وقوة إلهية لكي نغلب بها الخطيئة والعالم وحياة هذا الدهر، لذلك فقد انفتح أمام الإنسان باب إمكانية تذوُّق الاتحاد بالله بشركة المحبة والطاعة منذ الآن.

إذن، فاتحاد الإنسان بالله، أي التألُّه، هو هدف شرعي بموجب سَبْق اتحاد اللاهوت بالناسوت في التجسد الذي جعله المسيح غاية لنا أيضاً، حيث يشمل الاتحاد كل وسائط النعمة المجانية وهي المعمودية والتناول والتوبة الدائمة، كما يشمل جهادات كالصوم والعفة وضبط اللسان والفكر والصلاة باستمرار وكل أعمال المحبة والاتضاع، كما يشمل حتماً معونة الله الخفية للمجاهدين. فبالرغم من أن الاتحاد بالله هو الغاية النهائية التي لا يمكن أن تكمل لنا إلا في القيامة، إلا أنه حصيلة الإيمان والعمل الذي ينبغي أن يكمل هنا في هذا الدهر.

وبالإختصار، فإن الاتحاد بالله في مفهومه الحاضر في هذه الحياة يعني التحول المستمر من

حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح الذي نحوزه بالإيمان والجهد والدموع كل يوم وكل ساعة وفق مشيئة الله وحسب شروط الملكوت التي أعلنها الإنجيل.

ولكن الذي ينبغي أن يوضع نصب أعيننا باستمرار إزاء إمكانية الاتحاد بالله هو شخص يسوع المسيح، لأن من خلال طاعته وحبه يكمل الاتحاد بالله لأنه هو الذي أكمل اتحاد اللاهوت بالناسوت في نفسه أولاً لكي يعطيه لنا بسر الحب الفائق.

فالاتحاد حقيقة عملية في المسيحية نذوقها في عبادتنا وحبنا للمسيح، ولكن لا يمكن أن نفهمها أو ندركها بعقلنا، فهي من حيث المنطق العقلي أمر مستحيل، أما من حيث سر التجسد وخبرة المحبة والإيمان، فهي أمر حقيقي وواقع مُذاق.

والاتحاد بالله ليس موضوعاً ثانوياً في الإيمان أو العقيدة بل هو أساس كل الإيمان والعقيدة، فهو غاية الله النهائية التي من أجلها أرسل ابنه الوحيد إلى العالم متجسداً: «إذ عرَّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة **ليجمع كل شيء في المسيح** ما في السموات وما على الأرض في ذاك (المسيح)» (أف ١: ٩ و ١٠).

أي أن سر اتحاد البشرية بالمسيح هو أقصى غايات التجسد والصلب والقيامة بل والخليقة كلها.

اسمع ما يقوله القديس مكاريوس الكبير في ذلك:

٢٧٧ - لأنه إن لم تنَلْ النفس في هذه الحياة تقديس الروح القدس بالإيمان القوي وبالصلاة، وتشترك في الطبيعة الإلهية إذ تختلط بالنعمة التي بها تصير بلا عيب وتعمل بكل وصية بنقاوة، فلا تكون أهلاً للملكوت!!

فالنفس، إذن، هي صنيع إلهي عظيم مملوء عجباً،... والحاصل إنه خلقها من نوع يُصيِّرها له عروساً ورفيقة حتى يمتزج بها فتصير معه روحاً واحداً.

أبا مكاريوس الكبير (عظة ٤٤، ٤٦)

هكذا نرى أن الاتحاد بالله هو أساس الكنيسة وسر الإنجيل، لأن عمل الكنيسة أو غاية الإنجيل هي دعوة البشرية للإيمان بشخص الرب يسوع، وعمل الإيمان بالمسيح وغايته النهائية هما اتحاد البشرية في جسد المسيح السري، وغاية الاتحاد هو استعلان ملكوت المسيح وظهور مملكة القديسين التي ستملك فيه وسيملك فيها.

وفي هذا الملك المتبادل أو الميراث المتبادل الذي يعبِّر أقوى تعبير عن مفهوم الاتحاد بالله، يقول القديس مكاريوس الكبير:

٢٧٨ - كذلك الله الذي يعتني بالإنسان ويتراءف عليه، فإن النفس التي تأتي باشتياق إليه، ينقاد هو إليها بالمحبة وبتحننه الطبيعي المختص به، ويتحد بعقلها (أي نفسها)، ويصير معها روحاً واحداً، كقول الرسول. لأن النفس بالتصاقها بالرب وبمداومة العقل في نعمة الرب بلا انقطاع، يتراءف الرب عليها ويسكب محبته عليها ويلازمها، وبذلك فإن النفس تصير هي والرب روحاً واحداً وامتزاجاً واحداً وعقلاً واحداً، وإن يكن جسدها على الأرض فإن عقلها يكون بكليته في أورشليم السمائية، يعلو إلى السماء الثالثة (الروحية) ويتحد بالرب اتحاداً شديداً ويخدمه هناك. وكذلك أيضاً هو، لما يكون جالساً على كرسي العظمة في العُلا فهو يكون معها بكليته، لأنه وضع صورتها فوق في المدينة السماوية مدينة القديسين أي أورشليم، وأما صورته الخصوصية أي صورة نور لاهوته الفائق الوصف فإنه وضعها فيها، هو يتولاها في مدينة جسدها وهي تخدمه في مدينته السماوية، هي وريثته في السماء وهو وارثها على الأرض، فالرب يصير ميراثاً للنفس والنفس تصير ميراثاً للرب.

أبا مكاريوس الكبير (عظة ٤٦)

وهكذا نجد في تراثنا الكنسي أن كل الحقائق اللاهوتية التي استلهمها الآباء اللاهوتيون العظام المملوءون بالروح القدس، تحقق منها الآباء النساك البسطاء بالفعل وعلى صعيد الحياة اليومية والسلوك والخبرة الشخصية، بصورة حية ناطقة تجعلنا نثق ونتيقن أن الروح القدس يدعونا إلى هذه الشركة المقدسة المباركة مع الآب والابن والروح القدس.

أقوال الآباء في الاتحاد بالله:

يتحدث القديس أوغسطينوس عن اختباره لهذه الدرجة الفائقة من النعمة بتعبير رقيق فيقول: «إنه نوع من الاتصال الروحي بالنور الثابت». ويقول أيضاً: «نحن نجاهد ونمتد، وفي ومضة فكر نتلامس مع ذات الحكمة الإلهية الساكنة في الأعالي (الأقنوم الثاني)».

ويتحدث أيضاً عن فاعلية هذه الحكمة في النفس وأثر النور الذي يملأها:

٢٧٩ - ما هذا الذي يومض في أحشائي ويقرع قلبي دون أن يؤلمني؟ فأرتجفُ هلعاً أحياناً وألتهبُ حباً أحياناً... أرتجف بقدر ما أرى نفسي أني لست أشبهه، وأطمئن بالقدر الذي فيه أرى نفسي أشابهه! إنها الحكمة هي التي تومض في أحشائي.

أوغسطينوس

كذلك يتحدث غريغوريوس الكبير عن هذا الاتحاد معبِّراً عنه بنفس تعبيرات القديس أوغسطينوس فيقول:

٢٨٠ - إن موضوع التأمل الناضج هو الحكمة الإلهية حينما يدركها العقل المطلق فيتلامس معها.

غريغوريوس الكبير

ولكن يقيناً يُعتبر القديس مكاريوس المصري الكبير أول من أدرك هذا الاتحاد العجيب الحادث بين النفس والله، فهو أول من اختبره وأول من تحدث عنه وأول من علَّمه لأولاده.

وكذلك هو أول من عبَّر عن هذا الاتحاد الروحاني الطاهر بأنه زيجة النفس المقدسة بالله، واصفاً النفس بالعروس، والمسيح بالعريس السمائي، والاتحاد بينهما بالزيجة المقدسة. والأمر ليس مجرد تشبيه ولكنه حقيقة السر الذي يتم بين النفس المقدسة وبين الله لتصير معه روحاً واحداً. وإليك أقواله في هذا الموضوع:

٢٨١ – إن النفس حينما تأتي إليه باشتياق، فإنه من فرط حبه **يتحد بعقلها ويصير معها روحاً واحداً** كما يقول الرسول. لأن النفس التي التصقت بالرب يكون الاثنان واحداً، وبمداومة العقل في نعمة الرب بلا انقطاع **تصير هي والرب روحاً واحداً وامتزاجاً واحداً وعقلاً واحداً**، وإن يكن جسدها ملقى على الأرض فإن عقلها بكليته يكون في أورشليم السمائية، عالياً في السماء الثالثة، **يتحد بالرب اتحاداً شديداً ويخدمه هناك**...

أبا مكاريوس الكبير

٢٨٢ – هذا ما عناه الرسول بقوله: «لكي تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعلو والعمق وتعرفوا أيضاً محبة المسيح التي تفوق العلم لتمتلئوا بكل ملء الله» (أف ٣: ١٨ و ١٩). فلنتأمل في الأسرار الفائقة عن الوصف التي لتلك النفس التي ينزع الرب عنها الظلمة المحيطة بها، ويكشفها عنها ويكشف لها نفسه أيضاً، وكيف أنه يمد ويوسع أفكار عقلها إلى الأعراض والأطوال والأعماق التي في الخليقة المنظورة وغير المنظورة. فالنفس هي إذن صنيع إلهي عظيم مملوء عجباً. لأنه حين صنعها الرب، صنعها من جنس لا يختلط بطبيعته اختلاط فساد، بل صنعها على شبه فضائل الروح. ووضع فيها سنن الفضائل والبصيرة والمعرفة والفطنة والإيمان والمحبة. وكشف الرب نفسه لها، وقد وضع فيها فهماً، ونظام أفكار، ومشيئة وعقلاً، وصيَّرها خفيفة متحركة وليست خاضعة للتعب، وأنعم عليها بالاستطاعة على المجيء والذهاب في لحظة، وأن تخدمه في أفكارها برقي الروح. والحاصل أنه خلقها من نوع **يصيِّرها له عروساً ورفيقة حتى يمتزج بها فتصير معه روحاً واحداً** (كما قال الرسول).

٢٨٣ – حتى كما أن الله نفسه محبة وفرح وسلام وإحسان وصلاح كذلك تكون النفس في الإنسان الجديد بالنعمة.

٢٨٤ – لأن النفوس التي تطلب تقديس الروح، تُعلِّق حبها كله بالرب وتركِّز أفكارها فيه وتسعى لتتصل إليه. هؤلاء يمكنهم أن يعبروا هذه الحياة بلا سقوط لأنهم يكونون مقبولين تماماً لدى **العريس السمائي**.

٢٨٥ – إن الله غير المحصور الذي لا يمكن لإنسان أن يدنو منه، غير المخلوق، اتخذ لنفسه جسداً بصلاحه الذي لا يُحدُّ. وتخلَّى عن ذلك المجد الذي لا يُستطاع الدنو منه، لكي يصير بذلك **قابلاً للاتحاد مع خلائقه المنظورة كالنفوس، أعني نفوس القديسين لكي يقدروا هم**

أيضاً أن يشتركوا في حياة اللاهوت.

والنفس على لطافتها تصرفت في أعضاء الجسد - في العين والأذن واللسان واليدين - لترى وتسمع وتنطق وتعمل، وبالاختصار في الجسد كله وبأعضائه جميعاً. كذلك الله غير المحصور تنازل، صلاحاً منه، ولبس أعضاء هذا الجسد واتحد بها ليأخذ إليه النفوس المقدسة المقبولة الأمينة **ويصير معها روحاً واحداً، ونفساً في نفس، وجوهراً في جوهر، لتعيش النفس باتفاق تام، وتذوق الحياة الخالدة، وتصير شريكة في المجد الذي لا يفسد - أعني النفس المستحقة المقبولة لديه.**

وهكذا بقدرة حكمته غير المحصورة تشبَّه بنا، بحيث أنه إذا شاء تجسَّم في النفوس القديسة، فيُختَبر صلاحه، ومتى شاء صار ناراً آكلة، ومتى شاء صار راحة فائقة، ومتى شاء صار فرحاً وسلاماً وتعزيةً ومُعانِقاً للنفس.

٢٨٦ - إن كانت النفس تخصص ذاتها للرب، وتتمسك به وحده، وتسير بوصاياه، وتعطي روح المسيح حقها إذا هي أتت عليها وظلَّلتها، حينئذ تُحسَب أهلاً **لتصير روحاً واحداً وتركيباً واحداً معه، كما نص على ذلك الرسول في** (١كو ٦: ١٧).

٢٨٧ - ومن حيث أن النفس تكون مجروحة بمحبة الروح السماوي، وكثيرة الاشتياق الحار إلى العريس السماوي بالنعمة الساكنة فيها، وتشتهي **دواماً أن تدخل بالتمام إلى الشركة السرية معه الفائقة الوصف بتقديس الروح. حينئذ يكشف نظرها فترى العريس السماوي بعين نقية وجهاً لوجه في ذلك النور الروحاني الذي لا يوصف، فتختلط به في ثقة كاملة،** وتصير مطابقة لموته، وتنتظر دائماً بالشوق الوافر أن تموت من أجل المسيح، وتترجى بثقة الإيمان الفداء الكامل من الخطية وظلام الشهوات، حتى إذا تطهَّرت هكذا بالروح وتقدَّست نفساً وجسداً، تُحسَب أهلاً لأن تصير إناءاً نقياً معدًّاً لقبول المسحة السماوية، وحلول المسيح الملك.

٢٨٨ - **النفس التي يخطبها المسيح العريس السماوي لنفسه لأجل شركته السرية الإلهية،** بعد أن تذوق الغِنى السماوي ولو مرة، يجب عليها بكل الجهد والميل العقلي أن ترضي المسيح حبيبها ... وترفع نفسها إلى هذا العريس السماوي بسيرتها الحسنة.

٢٨٩ - وكذلك فإن قيمة النفس عظيمة وجوهرها العقلي كثير القيمة. لا تشك في ذلك! لأن الله لم يقل عن الملائكة هلم نصنعهم على شبهنا ومثالنا، بل قال ذلك من أجل الإنسان. والأرض والسماء تزولان ولكن **الإنسان مخلَّد ليكون مع الله ابناً له وعروساً**. لأن في الأمور المادية المنظورة عندنا، يصير للعروس كلُّ ما للعريس، وكذلك جميع ما للرب هو محفوظ لك.

أبا مكاريوس الكبير

هكذا يحدثنا القديس مكاريوس عن أعظم هبة ينالها الإنسان المسيحي الذي تقدَّس بالحق واستحق هذا الاتحاد العجيب مع المسيح في اتحاد زيجي مقدس بالروح لنوال الشركة مع العريس والميراث المذخر له في مجده.

وإليك بعض تأملات القديسين في هذا الاتحاد العجيب:

٢٩٠ - حينما يطَّلع العقل على ذلك النور (في التأمل) تقف حركته وينسى ذاته. ومن غمام ذلك النور الذي يُقال إن الله ساكن فيه تشرق إشعاعات من النور على العقل المستحق بالرحمة، فتنظر النفس وجه ربها وتنذهل بذوق حلاوته وتستنشق رائحته الطاهرة ... **وتدخل إليه إلى أن تلتصق به ولا تعرف كيفية الخروج من هناك، إذا لم يُلْقها هو من اتحاده. إذ أنها تشعر في ذاتها أنها محبوسة كما في جبل أو لُجَّة من النور تغطيها من كل جهة. هكذا يكون في الاختطاف الذي يُنعَت بأنه نظر مجد الله.**

الشيخ الروحاني

٢٩١ - **هؤلاء يكون لهم اتحاد مع أزليتك مثل الأعضاء مع رأسهم**، ولكن نعمة هذا الاتحاد هي مع مجدك وليست مع حقيقة أزليتك، **فهو اتحاد بالمجد وليس بالجوهر** وذلك لتنعيمهم، لأنهم يكونون تائقين ليتغيروا إلى شبه مجدك.

٢٩٢ - «أنت يا أبي فيَّ وأنا فيك وأيضاً هم ليكونوا واحداً فينا» طوبى لمن ذاق طعم هذه الطوبى... طوبى لمن صارت نفسه مع لحمه وعظامه في هذه اللذة.

٢٩٣ - كل واحد ينظرك في داخله ويفرح بحُسنك ويتعجب ويظن أنك حالٌّ فيه هو وحده، **مع أنك حالٌّ بكمالك في كل واحد** ... فكل واحد يراك في عقله أنك هناك بالتمام، مع أنك أنت هكذا حالٌّ فيهم كلهم بالتمام.

٢٩٤ – حينئذ لا يكونون لابسي النور بل **يكونون هم بأقنومهم نوراً**: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم»، هناك لا تكون نظرة الشبه وإنما ينظرون مجد ربوبيته.

٢٩٥ – **متحدين به ولكن كاتحاد النار بالحديد**، فيصير الحديد ناراً، وهو محتفظ بطبيعته. ولكن الحديد يصير كشبه طبيعة النار. **هكذا الأبرار يصيرون شبه طبيعة الله**. بالحقيقة أقول أنا بالدالة التي لي عند الله ولا أكذب، إنه مراراً كثيرة، الذين اقتنوا حبًّا نحو الله نظروا أعظم من هذا وأكثر وأرفع.

٢٩٦ – **إذا أشرق النور الإلهي في النفس، وإذا اتحدت هي به**، تعبر بالفعل في كل الطبائع سواء في السماء أو الأرض أو الجبال أو البحار، أو الناس أو الأجساد الكثيفة، وتنظرهم **كما هم، وتكون معهم بنظر واتحاد** ... ومن هذه التاوريا ترتفع إلى تاورية الطبائع المعقولة (غير المادية) ثم تلج في النور القدوس العالي وتُبتلع بنظرته فيرتفع كل ما عداه من أمامها كأنه لم يكن، **وتنسى ذاتها باتحادها بمجد عظمته**.

٢٩٧ – من يستطيع أن **يعلم سر اتحاد العقل بالله حينما ينحبس فيه متشبهاً بالله صانعه ويتحد معه بانبساطه المتخلل الكل، وفوق الكل بما لا يُدرَك. أي كلام يستطيع أن يفسر كيفية هذا الاتحاد الذي يلبس العقل فيبعده من كل طياشة وفكر وحركة عالمية!**

٢٩٨ – يتحرك العقل بفعل الروح القدس بلذة فيتفرس في الله وينبسط معه ويتحد به ... **فيتعجب بحسن المجد المتحد بعقله وإشراق شعاع النور الممتزج بأقنومه**، وهو حامل وداعة وعفة في كل حركاته.

٢٩٩ – وكما أن انبساط نظر العين أوسع وأعرض من العين ذاتها كذلك نظر **النفس التي اتحدت بالله، فإنها تنبسط بنظرتها فيه بلا مانع ولا عائق.**

٣٠٠ – **إذا اتحدت القوة الإلهية بالإنسان يمتلئ جميعه بلهيب محرق ولذة مع نسيان، ورفض لكل ما في العالم بدهشة تفوق الطبع. والقوة النفسية والروحية تبطل بالكمال ويكون مثل من هو ليس بحي.**

٣٠١ – إذا ما وصل الإنسان بنعمة الله إلى هذه الدرجة، فإنه يقتني وحدانية مع ذاته وتهدأ حركات الجسد للنفس، وحركات النفس للعقل، وينبسط العقل لمعرفة الله وينظر الرب وجهاً

لوجه فيستضيء به ويتغير إليه... **هذا هو الاتحاد الكامل بالله حيث كل معرفة واستعلان ونبوة وتكلُّم بألسنة ومواهب شفاء.**

٣٠٢ - حينما يضيء على النفس حُسن طبعها، وتنظر هي حقيقة ذاتها، وترى النور الإلهي مشرقاً فيها، ويبدِّلها إلى شبهه فيرتفع طبعها من أمام نظرها، حينئذ **تنظر ذاتها شبه الله باتحادها بالنور الذي لا شبه له**، الذي هو نور الثالوث المشرق فيها. **وبذلك ترتفع نظرة العقل، فترى نوراً إلهياً لابساً الكل ومتخللاً الكل بغير مانع حتى أنها ترى به أقصى الخليقة وما هو خارج عن أقصاها**، وما هو فوق السماء وما في أعماق البحار، ويرتفع العقل ويتداخل من نور إلى نور حتى تكشف النفس كل نفس أخرى ثم ترتفع فتكشف طبع الملائكة، ثم تستمر في رفعتها حتى تنتهي إلى غمام المجد الذي يحيط بمن سبى قوة شهوتها واشتياقها...

الشيخ الروحاني

٣٠٣ - إن العقل في هذه الحالة (الرؤية) لا يستطيع أن ينظر شيئاً، حتى ذاته، لأن **روحانيته تكون متحدة بذلك النور** الطاهر الملتحف به.

الأسقف فيلوكسينوس

* * *

إن الاتحاد بالله هو هدف حياة الصلاة والعبادة المقدسة، وهو سبْقٌ لتذوُّق حياة المجد العتيدة التي سينالها المسيحيون في الدهر الآتي. فالتلامس مع الحكمة التي اختبرها أوغسطينوس، والشركة السرية في الزيجة المقدسة التي تحصل عليها النفس مع العريس السمائي والتي تذوَّقها القديس مقاريوس الكبير، والاتحاد الشديد الذي يربط العقل بالله الذي اختبره الشيخ الروحاني، والنور الذي يستولي على العقل فيبهره والذي وصل إليه فيلوكسينوس، كل هذه هي فاعلية عمل الاتحاد الذي يكون بين النفس والله ليصير روحاً واحداً. وهذا هو ملكوت السموات داخلنا الذي يوجهنا إليه الإنجيل المقدس، الذي إذا ما وصلنا إليه نستطيع أن نتذوق معنى حب الله الكامل من كل القلب ومن كل النفس ومن كل الفكر، والقريب كالنفس تماماً.

بالاتحاد مع الله، نكون قد تخطينا حدود المادة ووصلنا إلى ما وراء هذا العالم المنظور. وهذا ما كان يقصده السيد الرب في صلاته للآب: «لستُ أسأل من أجل العالم... لستُ أنا في

العالم... أنا لستُ من العالم، العالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم... لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم – أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن... أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد...» (يو ١٧)

بالصلاة، نسير في طريق الملكوت. وبالاتحاد مع الله، نصل إلى الملكوت الذي هو ليس بعيداً عنا، بل في داخلنا. فالاتحاد مع الله الذي اختبره الآباء القديسون هو نهاية كل جهاد وسعي، سواء في تتميم الفضائل بالجسد أو جهاد النفس أو المثابرة على التأمل الروحي: «قد جاهدتُ الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر...» (٢تي ٤: ٧)

إذن، فالسعي في الطريق الروحي لنوال حياة روحية في عِشْرة مقدسة قوية مع الله تفوق العالم الحاضر، هو من صميم حقوق المفديين بدم العريس السمائي.

والمواهب الروحية هي أمر موهوب لنا، ومطلوب منا أن نجاهد ونسعى لنوالها بكل قوتنا وإرادتنا وفكرنا، بمؤازرة النعمة الحاضرة معنا وفينا على الدوام« اتبعوا المحبة جدُّوا للمواهب الروحية، هكذا أنتم أيضاً إذ أنكم غيورون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة أن تزدادوا» (١كو ١٤: ١، ١٢)! وليست الهبة الروحية هي أن نعمل المعجزات والآيات، وإنما هي أن نحيا للروح ونختبر ونتذوق ثماره. وقد سُمِّيت هبة لكونها تفوق العالم الحاضر، غير أنها ليست فائقة بالنسبة للحياة الأخرى، وإنما هي طبيعة حياة الدهر الآتي. فإن كنا حقاً لسنا من هذا العالم – كما يودنا المسيح أن نكون – إذن فسلوكنا يجب أن يكون مطابقاً لحياة الدهر الآتي، وسعيُنا منصبَّاً على السير بمبادئ الروح مُعرِضين عن كل ما في هذا العالم، بل واشتياقنا يجب أن يكون دائماً هو الوصول إلى الله والاتحاد به.

«إن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وهَبَ لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة. ولهذا عينه وأنتم باذلون كل اجتهاد قدِّموا في إيمانكم فضيلة، وفي الفضيلة معرفة وفي المعرفة تعفُّفاً، وفي التعفُّف صبراً وفي الصبر تقوى، وفي التقوى مودة أخوية، وفي المودة الأخوية محبة. لأن هذه إذا كانت فيكم وكثرت تصيِّركم لا متكاسلين ولا غير مثمرين لمعرفة ربنا يسوع المسيح. لأن الذي ليس عنده هذه هو أعمى

قصير البصر قد نسي تطهير خطاياه السالفة. لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الإخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتَين. لأنكم إذا فعلتم ذلك لن تزلُّوا أبداً. لأنه هكذا يقدَّم لكم بسِعَةٍ دخولٌ إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي» (٢بط ١: ١ - ١١).

وهذه الشركة في الطبيعة الإلهية التي يدعونا إليها بطرس الرسول هي ذات السر الذي يعلنه لنا يوحنا الرسول بعبارة عُرس الخروف: «لنفرحْ ونتهلل ونُعطِه المجد لأن عُرس الخروف قد جاء وامرأته هيَّأت نفسها وأُعطيت أن تلبس بزًّا (حريراً) نقياً بهياً، لأن البزَّ هو تبررات القديسين» (رو ١٩: ٧، ٨). وما هو هذا العُرس ومن هي العروس المزينة بالحرير النقي البهي الذي هو تبررات القديسين؟ «هلم فأريكَ العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح... وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة... لها مجد الله» (رؤ ٢١: ٩ - ١١).

ومن هي أورشليم التي لها مجد الله إلا الكنيسة؟ ومن هي الكنيسة إلا جماعة القديسين؟ وما هو المجد الذي يحيط بهم إلا فاعلية إتحادهم بالمسيح؟ هكذا اتخذت الكنيسة المسيحية منذ عصورها الأولى هذا التقليد في التعبير عن الصلة السرية الكائنة بين النفس الطاهرة والمسيح. فالنفس هي العروس المبررة المزينة بالقداسة، والعريس هو الخروف المذبوح من أجل النفوس التي خطبها لنفسه! «وأخطبكِ لنفسي إلى الأبد» (هو ٢: ١٩)، «خطبتكم لرجل واحد...» (٢كو ١١: ٢)، أما العُرس فهو الاتحاد الكائن بين النفس والمسيح.

* * *

٣٠٤ - جميل حقاً أن تفرز النفس ذاتها لله بالتمام وتلتصق به وحده فقط، فتستريح في وصاياه، وباستحقاق تمجد المسيح الذي حل بروحه فيها وظللها، فيسمح لها بأن تكون روحاً واحداً وتركيباً واحداً معه كما يقول الرسول: «أما من التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو ٦: ١٧).

أبا مكاريوس الكبير

٣٠٥ - إن النفوس التي خطبت ذواتها لله بالحب والحق والتي تتوق على الدوام أن تكون بكليتها له، لا ترى في ذاتها حاجة ما تشغلها بذكر الآخرين، ولا تقدر أن تحتمل ولا إلى لحظة أن تكون محرومة من حبها المتأجج للرب أو تكفَّ عن اشتياقها السمائي له. بل بالحري تود لو تكون مصلوبة دائماً بكليتها على صليب ربنا يسوع المسيح.

هذه النفوس تشعر في ذاتها يوماً فيوماً بالتقدُّم الروحي نحو العريس السمائي.

٣٠٦ – والنفس التي تحب الله بالحق ولو أنها تعمل عشرة آلاف من أعمال البر، فهي تعتبر ذاتها أنها لم تعمل شيئاً بسبب أنها لا تشبع من إلهام الله.

وعلى الرغم من أنها تُجهد الجسد بأصوام وأسهار كثيرة، إلا أنها ترى درجتها بالنسبة إلى الفضائل كأنها لم تبدأ بعد بأي عمل جدّي فيها.

وبالرغم من عطايا الفضائل الروحية الكثيرة والاستعلانات والأسرار السماوية التي ينعم بها عليها، فهي تشعر في ذاتها أنها لم تحصل على شيء البتة. وذلك بسبب حبها غير المحدود لله الذي ترى أنها لم تشبع منه قط.

طول النهار تجوع وتعطش بسبب الحب والأمانة، تصلي بمداومة وتستمر في تتميم الفضائل وفي التنعم بالأسرار بغير شبع، يدفعها حبها المتأجج للروح العليا ... باستمرار تتحرك بلا هدوء في داخل نفسها بالإلهام والنعمة نحو العريس السماوي متشوقة أن تصل إلى ملء الاتحاد معه بالقداسة لتستريح.وقليلاً قليلاً يرتفع الحجاب الثقيل عن وجه الروح فتحدِّق في العريس السماوي وجهاً لوجه في نور الروح الذي لا يُعبَّر عنه فتتلامس معه بكمال الثقة. وإذ تتشكل به ترقب حائرة بشوق عظيم أن تموت للمسيح لتكون معه على الدوام ... وهي تعتقد واثقة أنها ستنال بالنعمة انعتاقاً كاملاً من الخطية ومن ظلمة الشهوات، حتى إذا ما اغتسلت بالروح وتقدست بالنفس والجسد يُسمح لها حينئذ أن تكون إناءاً طاهراً معدًّا لاستقبال المسحة السمائية لضيافة الملك الحقيقي يسوع المسيح. وحينئذ تؤهَّل للحياة الأبدية، إذ تكون قد صارت إلى الأبد مكاناً طاهراً لسكنى الروح القدس.

أبا مكاريوس الكبير

٣٠٧ – حينما تُخطب عذراء لرجل غني، تتلقى منه هدايا كثيرة قبل الزواج، من حلي وملابس وآنية ثمينة، ولكنها لا تقنع حتى يحين موعد الزفاف لتصير له ومعه كليةً... هكذا أيضاً النفس حينما تُخطب كعروس للعريس السمائي تتلقى – كعربون من الروح – عطايا روحية: معرفة وفهماً واستعلاناً وربما أشفية، ولكنها لا تقنع بهذه حتى تدرك الاتحاد التام به، بصداقة لا يمكن أن تتغير أو تسقط أبداً، وفي حرية كاملة بلا شكوك أو تردد.

أو قُل إنها تشبه طفلاً جائعاً قُلِّد باللآلئ والملابس الغالية، فتجده لا يلتفت إلى شيء مما عليه بل يزدري بالكل متطلعاً فقط إلى ثدي أمه كيف يستحوذ على نصيبه من الرضاعة ... هكذا أتوسل إليكم أن تقيسوا بذات القياس حالة النفس مع الله الذي له المجد إلى الأبد.

أبا مكاريوس الكبير

٣٠٨ – اعلم أيها الإنسان قيمتك من حيث كونك أخاً للمسيح (عب ٢: ١١)، وصاحباً للملك (يو ١٥: ١٤، ١٥)، وعروساً للعريس السماوي (٢كو ١١: ٢)، لأن كل من استطاع أن يطَّلع على قيمة نفسه يستطيع أيضاً أن يطَّلع على قوة الطبيعة الإلهية وأسرارها، وبذلك يزداد اتضاعاً لأن بقوة الله يرى الإنسان ضعفه (٢كو ١٢: ٥)، فيجوز الآلام مع المسيح (رو ٨: ١٧)، ويصلب ذاته ثم يتمجد معه (رو ٨: ١٧)، ويقوم معه ويجلس معه (أف ٢: ٦)، ويتحد بجسده ويملك معه في ذلك العالم.

أبا مكاريوس الكبير

– ها هو ذا العريس قد أقبل، فانظري يا نفسي لا تنعسي ... بل اسهري متضرعة لكي تلتقي المسيح الرب بدهن دسم، فينعم عليكِ بعُرس مجده الإلهي الحقيقي.

الأجبية (من قطع الخدمة الأولى من صلاة نصف الليل)

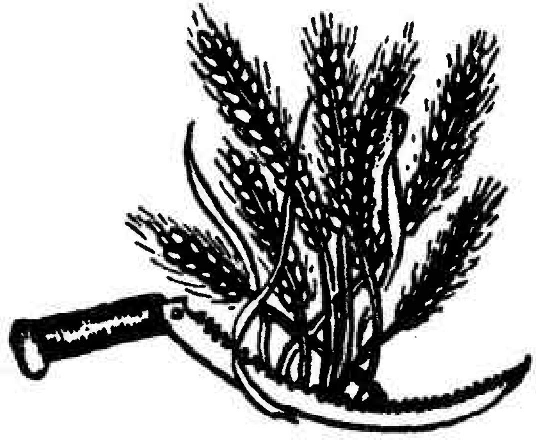

الفصل الرابع

ثمار التأمّل

+ «أما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف».

(غل ٥: ٢٢)

+ «من يزرع للروح فمن الروح يحصد حياة أبدية».

(غل ٦: ٨)

+ «روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب» (إش ١١: ٢).

عرضنا في الفصل السابق بعضاً من نتائج التأمل من الناحية النفسية العقلية المطلقة كالدهش ورؤية الله والاتحاد بالله. أما في هذا الفصل فسنعرض ثمار التأمل من الناحية السلوكية وما تسبغه حياة التأمل على الفرد من صفات روحية فاضلة تجدده وتقدمه للمجتمع الإنساني شخصاً جديداً ذا طابع خُلُقي ممتاز، يضفي على من حوله إشعاعاً من قداسته، تفوح منه رائحة المسيح الزكية، بينما يشعر في عمق اتضاعه بعدم استحقاقه لأن يحيا بين الناس.

تجديد الحواس:

والواقع أن الشخص يجوز تغييراً عاماً يشمل كل حياته الداخلية والخارجية معاً، وتنتقل حواسه انتقالاً واضحاً من المادية إلى الروحانية، فالعين بعد أن كانت تجد مسرتها في الجمال المخلوق سواء كان في مناظر الطبيعة الخلابة أو الحيوانات والطيور الرشيقة البديعة أو بهاء الوجوه البشرية، تجدها قد انتقلت انتقالاً مجيداً من هذه الماديات الزائلة وهذا الجمال الزائف المتغير والمتقلب إلى أصل الجمال وخالقه، ذلك الجمال الحق الذي لن يتغير قط أو يعتريه شبه تغيير، فتجد العين مسرتها في التأمل إلى ما هو وراء كل جمال، إذ تستطيع أن ترى جمال الله في كل شيء؛ وهكذا تنتقل من المخلوق إلى الخالق ومن الأشياء الزائلة إلى رؤية الحق الثابت.

وكذلك ينتقل السمع من تعلُّقه بالأصوات المحسوسة إلى الترقي لسماع أصوات التسبيح والتمجيد، التي تعجز الأذن المادية الضعيفة عن أن تبلغ إليها بينما تكون الأذن الروحية قد وصلت إلى حساسية رقيقة تتسمع بها أنغاماً أخرى آتية من الأبدية، عذبة حلوة غاية في الرقة وغاية في القوة تحطم الفضاء في جبرؤوت وتخترق أصوات ضجيج العالم اللاهي، لتصل إلى أذن القلب المرهفة، لتقود النفس بعذب ألحانها إلى التأمل في السعادة المعدَّة. وكذلك تنتقل الشفاه واللسان إلى التحدث بمجد الله والتسبيح لاسمه الحي. وتنتقل أعضاء الشم إلى تنسم رائحة صفاء الأبدية، وأعضاء الحس إلى الإحساس بوجود الله وتمييز فترات التمتع بالقرب منه وفترات الحرمان بالبعد عنه.

٣٠٩ – فإذا نال العقل هذه النعمة، عند ذلك يطرد الروح القدس عن النفس كل المصاعب التي تأتي عليها من شهوات القلب. وهذا الروح، بسبب شركته مع العقل ينزع عن النفس أوجاعها التي امتزجت بالجسد واحدة بعد أخرى. فالعينان تضيئان باستقامة وتنظران بالطهارة. والأذنان تسمعان بسلامة لا بنميمة، وبالرحمة على كل الخليقة. واللسان يتكلم بالطهارة وينطق بالخير والبركة، إذ لا تكون فيه إرادة جسدانية. واليدان تتحركان للصلاة وعمل الخير والعطاء، ويكمل عليهما قول داود النبي: «إن رفع يديَّ ذبيحة مسائية». والبطن أيضاً تتحرز من المآكل والمشارب التي تكون بشراهة وشهوة وكل ما هو فوق الحاجة، فيتم قول بولس الرسول: «إن أكلتم أو شربتم... يكون لمجد الله». والرِّجلان أيضاً يضبطهما القلب الذي امتلأ بالنعمة ويحركهما بفعل الروح القدس ليخدما الأمور الحسنة. وهكذا يصير الجسد بحواسه مشابهاً لذلك الجسد العتيد أن يقوم به الصديقون يوم القيامة.

أبا أنطونيوس الكبير

٣١٠ – يحدث دائماً في زيارة النعمة الإلهية أن يمتلئ الإنسان بعبيق عطر وحلاوة مبهمة تفوق الإدراك والتحليل. حتى أن النفس من فيض السرور تنتقل إلى حالة مذهلة وتنسى أنها تحيا في هذا الجسد.

يوحنا كاسيان

أما هذه الحلاوة وهذه الرائحة العطرة فهي تعابير مادية لا تتناسب قط مع حقيقة هذه المواهب الروحية التي تنكشف لحواس النفس عندما تبلغ الدرجة الروحانية. وكم مرة حاول الروح القدس أن يشرح لنا جمال السماء وحلاوة العِشرة مع الله وأوصاف العريس السمائي بتعابير مادية لعلنا نستطيع إدراك حقيقة أمرها.

فيقول الروح القدس:

– «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب»! (مز ٣٤: ٨)

– «لرائحة أدهانك الطيبة اسمك دُهنٌ مُهراقٌ. لذلك أحبَّتْكَ العذارى...

ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته...

كم محبتكِ أطيب من الخمر!

وكم رائحة أدهانكِ أطيب من كل الأطياب.

شفتاكِ يا عروس تقطران شهداً...

تحت لسانكِ عسل ولبن، ورائحة ثيابكِ كرائحة لبنان.

ناردين... مع كل عود اللبان... مع كل أنفس الأطياب.

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية.

كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي، ثمرته حلوة في حلقي...

صوت حبيبي، هوذا آتٍ طافراً على الجبال، قافزاً على التلال. قد دخلتِ جنتي يا أختي العروس قطفتِ مُرّي مع طيبي، أكلتِ شهدي مع عسلي، شربتِ خمري مع لبني.

حلقه حلاوة كلُّه مشتهيات، هذا حبيبي». (نشيد الأنشاد)

تبدو هذه الأوصاف والتعابير الروحية كأنها ألغاز، وكثير من المسيحيين يضعون أمامها علامات استفهام، ولكن الروح لا يقصد قط أن يضع أقوال الله مبهمة، طالما كان في الإمكان شرحها بوضوح أكثر.

فالروح، في هذه الأوصاف والتعابير، قد شرح جمال العريس وجمال النفس وما يبادله كل منهما للآخر من عواطف رقيقة وحب وإعجاب، شارحاً هذه العواطف بأقصي ما يمكن أن تستوضحه أفكارنا ومشاعرنا بواسطة حواسنا المادية. غير أنه قد أُغلِق علينا فهم هذه الأوصاف جميعاً لأننا ننظر إليها في حدودها المادية فقط، كأنما هي في متناول الإحساس الجسدي البسيط! ولكن ليس الأمر كذلك إذ يلزمنا أن ننتقل بحواسنا وتفكيرنا وتصورنا من المادية المغلقة الزائلة إلى الروحانية المطلقة الدائمة، حتى نستطيع أن ندرك قيمة النفس الحقيقية وأوصاف العريس السمائي الحقيقية، ونستجلي بحواسنا الداخلية عظمة الخالق وأمجاد السماء، وحينئذ سوف ندرك معنى آخر للجمال ومعنى آخر للذوق والشم والسمع والإحساس. وعندما نصل حقاً إلى هذا الحد من الإدراك الروحي، فسوف ندرك مقدار طفولتنا الروحية وعجزنا الذي كنا نفهم به هذه الأوصاف التي استخدمها الروح في تعبيراته عن الله: «... ولكن لما صرت رجلاً أبطلتُ ما للطفل، فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز ولكن حينئذ وجهاً لوجه» (١كو ١٣: ١١).

فسفر نشيد الأنشاد، مثلاً إذا ما أخذناه كما تراه الحواس البشرية فحسب، لا نجد فيه إلا ما يثيرها فتنحط إلى التلذذ الحسي بالأقوال. أما إذا كانت النفس قد سَمَت فوق الحواس الجسدية، وتدربت حواسها الداخلية على استجلاء غوامض التعابير الروحية فإنها ترى في هذه الأقوال – سواء التي في سفر نشيد الأنشاد أو التي في بقية الأسفار الشعرية – معاني روحية في غاية السمو والرفعة، وهي في واقعها بعيدة كل البعد عن الإحساس الجسدي والتلذذ الحسي البسيط. فإذا وُصف حب العريس للنفس بالخمر الطيب مثلاً، يكون هدف الروح من هذا الوصف ليس اللذة الحسية المتولدة من شرب الخمر بل درجة التأثير التي تستهدف لها النفس من

اتصالها بالمسيح من تأثير الخمر الجيد على العقل والجسد؛ فكما أن العقل يسكر ويخف ويتحرر والجسد يتخدر وتذهب أوجاعه وآلامه، كذلك النفس بسبب الحب المفرط الذي تتذوقه من قربها للعريس السمائي تنسى أوجاعها وآلامها، والعقل يسكر بحبه ويدخل إلى الدهش الذي هو درجة السكر الروحي. والعجيب أن الدرجات التي يمر عليها العقل في أثناء شرب الخمر إلى أن يصل إلى درجة السكر الكامل، هي ذات الدرجات التي تمر فيها النفس إلى أن تصل إلى الدهش الكامل بالله. إذن، فوصف حب المسيح للنفس بالخمر هو وصف في غاية الدقة والإحكام، ولكن ليس كما يحتمله المعنى البسيط الحسِّي المباشر وإنما يتعداه إلى المعنى التطبيقي الذي يحتاج إلى سمو في الإدراك النفسي والعقلي، وترفُّع عن المعاني الحسية البسيطة.

إذن، فنحن لن ندرك حقيقة الروح وحقيقة الأوصاف الروحية في الكتب المقدسة طالما كنا محصورين تحت مادية حواسنا، ولا سبيل للخروج بها من حيِّزها الجسدي إلى الحيِّز الروحي المنطلق إلا بالتدرُّب على الهذيذ والتأمل فننتقل بها ونتدرج من مجد إلى مجد. وعندما نصل إلى مباشرة رؤية هذه الأشياء واستجلاء غوامضها بحواس النفس الداخلية، فحينئذ سوف ندرك حقيقة هذه الأوصاف وجمال الحياة الروحية حقاً.

مواهب الروح:

نقرأ عن مواهب الروح. وفي شعور من الحزن واليأس، نقول إنها أحداث الماضي البعيد وقد مضت وانقضت؛ ولكن ليس الأمر كذلك، فالموهبة هي قوة الكنيسة التي ترافقها في جميع الأجيال إلى الانقضاء، وهي علامة الروح وثمرته التي تميز عمل الله في كنيسته.

غير أنه لضعف الإيمان وإهمال حياة النسك والعبادة المجردة من الأغراض والشهوات والميول المنحرفة، وبسبب برودة المحبة التي تربط جماعة المؤمنين، صارت النعمة وفاعلية الروح أمراً مستغرباً وعسيراً في هذه الأيام؛ شأننا في ذلك شأن أهل الناصرة: «ولم يصنع هناك قواتٍ كثيرة لعدم إيمانهم» (مت ١٣: ٥٨). فالعيب، إذن، ليس عيب الروح لأن الوعد صادق وأمين: «والآيات سوف تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا سُمًّا مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون» (مر ١٦: ١٧).

وليس هو عيب الزمن، لأن المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد. ويقول القديس أنطونيوس:

٣١١ - كل من تاجر في الروحيات فإنه ينال قوة الله لأن الله ليس عنده محاباة ولا يأخذ بالوجوه، بل هو في كل الأجيال - جيلاً بعد جيل - يعطيها لمن يعمل بأعمالها ... حتى أنه لم يخلُ قط جيل من الأجيال من بلوغ هذا الحد ولا الأجيال الآتية أيضاً تخلو منه.

أبا أنطونيوس الكبير

كذلك أكد السيد المسيح: «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). إذن، فالعيب هو عيبنا نحن وعيب إيماننا الهزيل وإعراضنا عن الروحيات: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها» (يو ١٤: ١٢).

والكنيسة، لشدة إيمانها، لا تضع حداً فاصلاً بين المواهب وبين الثمار الروحية التي تُمنح كنتيجة للسعي في طريق البر؛ أو بعبارة أوضح، ترى أن هناك علاقة قائمة بين المواهب وبين السعي والاجتهاد في السير بالبر والقداسة؛ بل تميل بالأكثر إلى الاعتقاد بأن السعي وراء النعمة يقود إلى التقديس ونوال المواهب لمنفعة الآخرين وتثبيت إيمان الضعفاء.

والقديسون جميعاً هم ورثة المواهب من الأجيال الأولى حتى وقتنا هذا، يشاركهم في ذلك من تقلَّدوا رتب الرئاسات الكنسية بالطهارة وعاشوا فيها عيشة تليق بكرامتها، وهم غالباً الذين تُستعلن لهم الرؤى والأحلام والنبوات، إذ تكون لتسلسل البركة الرسولية بوضع اليد أهمية عظمى لحمل وتسليم شعلة النار التي حلت يوم الخمسين.

وكنيستنا تمتاز بجرأتها في طلب المواهب والثمار الروحية لأولادها بلا تردد. وفي إحدى الليتورجيات (القداسات) القديمة - وهي «ليتورجية عهد ربنا» التي ظل الكهنة يقدسون بها إلى ما بعد القرن العاشر - طلبة خاصة من أجل المواهب وتثبيتها. يقول الكاهن: «**اسند يا رب حتى النهاية الذين لهم مواهب الوحي، وأيِّد الذين لهم موهبة الشفاء، وعزِّز الذين لهم موهبة الألسنة**». ولأنبا أنطونيوس رأي صريح في هذا الموضوع:

٣١٢ - وإذ صرنا بنين فنحن ورثة الله وشركاء ميراث القديسين، فيا أولادي الوارثين مع القديسين ليست الفضائل بأجمعها بعيدة عنكم بل هي لكم ومنكم، وأنتم لستم مخفيين في هذا العالم بل ظاهرون لله، وروح الله فيكم. ولكن إذا ما نلتم هذه المواهب يا أولادي لا تظنوا أنها من أعمالكم بل هي قوة مقدسة مشتركة معكم في جميع أعمالكم...

٣١٣ - اطلبوا، باستقامة قلب، هذا الروح الناري، وحينئذ يُعطى لكم، لأنه هكذا وصل إليه إيليا التسبيتي وإليشع وكافة الأنبياء، ولا تفكروا في قلوبكم وتكونوا ذوي قلبين وتقولوا من يقدر أن يقبل هذا. لا يا أولادي، لا تدعوا هذه الأفكار تخطر على قلوبكم، بل اطلبوا باستقامة فتنالوه، وأنا أيضاً أبوكم أجتهد معكم وأطلب لأجلكم أن تنالوه لأني عارف أنكم كاملون وقادرون على نواله. لأن كل من يفلح ذاته بهذه الفلاحة فإن الروح يُعطى له في كل جيل وإلى الأبد. وهو يكشف لكم الأسرار العلوية.

أبا أنطونيوس الكبير

إلا أن الآباء على وجه العموم يحذرون من السقوط في الغرور سواء قبل أن يحصلوا على النعمة أو بعد أن يحصلوا عليها؛ ويتحفظون أيضاً من ضلالة الشياطين التي تتشبه بملائكة نورانية لتخدع السائرين في الطريق الروحي لتضلهم عن بلوغ الحق. وقد كتب الآباء القديسون تحذيرات وإرشادات كثيرة في هذا الموضوع ليكشفوا بها للسائرين في طريق القداسة والبر أنواع ضلالة الشيطان وحيله وكيفية الغلبة والانتصار عليها. ومنهم من بالغ في وصف حذق الشيطان، ومنهم من حقَّر أعماله واستصغر قوته. فالقديس مار إسحق مثلاً يدلُّك على حذق الشيطان بعمره الطويل وخبرته المتنوعة، ويرى وجوب عدم محاورته في أي فكر شرير بل لنهرب منه هروباً في كل ما يعرضه علينا. بينما نرى الشيخ الروحاني يستهزئ بقوته ويصفه بذبابة ضعيفة، وأن إشارة الصليب كافية لحلِّ قوته.

٣١٤ - قال الحكماء: إن الشياطين يرصدون الحركات الطبيعية، لأن الطبع إذا ما بدأ يتحرك طبيعياً حسب الترتيب الذي وضعه له الخالق، تبدأ الشياطين أيضاً أن تعمل ما يشابه الحركات الطبيعية (من حيث الجوع الكاذب والعطش الكاذب ومحبة النوم في غير وقت النوم وتحرك أعضاء الشهوة بلا سبب إلخ)، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً خارجاً عن ذلك، وبسبب ذلك خرج كثيرون عن سبيل الحق لأنهم سمحوا لأنفسهم أن يتبعوا الخيال.

٣١٥ - النظر الحقيقي يتبعه هدوء وذهول في الإلهيات. والنظر الخادع يتبعه اضطراب الضمير، وعجلة، وتشويش كثير... لا تطلب من الظلمة إشراقاً، ولا من الكذب كلاماً عن الحق.

غريغوريوس الكبير

٣١٦ - لا ينبغي - من غير ضرورة أكيدة - أن نسأل أو نشتهي أن تكون على أيدينا أعجوبة ظاهرة أو استعلان. لأنه إذا لم تكن هناك ضرورة فالرب لا يُظهِر قواته ولا يعطي آية ظاهرة بلا سبب... حتى لا تكون المعونة حقيرة في أعيننا وتتراءى لنا أنها أمر تافه... أما إذا جدَّ أمر يستدعي إظهار قوته فإنه لا يتوانى في إظهار اهتمامه لقديسيه، فهو يتركهم أولاً حتى يُظهروا حرصهم حسب قوتهم بالصلاة، فإذا عسر عليهم

أمر ما ولم يكن في طبيعتهم الكفاية له، فحينئذ يتممه لهم بعظم قوته. هوذا القديس أمونيوس لما مضى لزيارة العظيم أنطونيوس وضل الطريق، أنظر ماذا قال: «يا رب دلّني على مغارة عبدك». وماذا فعل الله معه؟ سمع نداءً يرشده إلى الطريق! ... واذكر أيضاً ما صنع مقاريوس لما كان في الطريق وزنابيله على كتفه قال: «يا رب أنت تعرف أنه ما بقي فيَّ قوة»، فوُجد في الموضع الذي كان ماضياً إليه!

مار إسحق السرياني

٣١٧ – قد سطرتُ لك ما طلبتَ مني لنمو وتدرُّج المبتدئين وكل من يهوى أن يصعد ذلك السلم الروحاني، حيث كل المواهب معدَّة، إن كانت معرفة الخفايا أو موهبة الاستعلانات أو نبوة أو موهبة الألسن أو موهبة الشفاء المثلثة القوى (أي التي لأمراض الجسد والنفس والروح) وغيرها من المواهب التي لم يأذن لي الروح أن أُظهرها على الورق من أجل قلة الأمانة وعدم الدراية.

الشيخ الروحاني

من ذلك نرى أن حياة القديسين لم تخلُ من **السعي للحصول على ثمار النعمة**، يُلهبهم قول بولس الرسول: «جدُّوا للمواهب الحسنى» (١كو ١٢: ٣١)، ومتشبهين بغيرة الرسل الأطهار: «والآن يا رب أنظر إلى تهديداتهم وامنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة بمدَّ يدك للشفاء، ولتُجرَ آيات وعجائب باسم فتاك القدوس يسوع» (أع ٤: ٢٩ و ٣٠).

غير أن من مبادئ الكنيسة الصريحة والقاطعة **أن لا تكون المواهب هدفاً لجهادنا الروحي**، وإنما تكون – كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم – معيناً لنا لبلوغ طريق أفضل: «جدُّوا للمواهب الحسنى وأيضاً أريكم طريقاً أفضل... المحبة!! المحبة لا تسقط أبداً. أما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل... متى جاء الكامل... اتبعوا المحبة ولكن جدُّوا للمواهب الروحية» (١كو ١٣ و ١٤).

وإذا نلنا الحق في حياة الطهارة والنعمة بالميلاد في جرن المعمودية، أصبح واجباً علينا استعمال ذلك الحق للسير في طريق البر والقداسة والسعي والتدرُّب لنوال شعلة الروح الملتهبة المسلَّمة لنا يوم الخمسين:

٣١٨ – وذلك الروح الناري العظيم هذا الذي قبلته أنا اقبلوه أنتم أيضاً. أما إذا أردتم أن تقبلوه ويسكن فيكم فقدِّموا أولاً أتعاب الجسد وتواضع القلب، وارفعوا أفكاركم إلى السماء في الليل والنهار، واطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري وحينئذ يُعطَى لكم بالصلاة.

أبا أنطونيوس الكبير

والأثر المباشر لقبول شعلة الروح القدس الفعَّالة، هو أن النفس تتعمق وتتداخل في معرفة الروحيات وتنكشف لها الحكمة بعد أن كانت مستورة عنها بسبب ظلمة الشهوات الجسدية، وتنتقل النفس لتنضم إلى زمرة الروحانيين. ويشدد القديس ديودوخس في تعريفه للنفس التي وصلت إلى هذا الحد بأنها «النفس ذات الطابع الروحاني الصرف»، وعني بهذا أن النفس لا تتأمل في الروحيات فحسب بل تكون هي ذاتها موضوع تأملها أيضاً؛ تتأمل وتنطق بالإلهيات لا كأنها أمور غريبة عنها بل من ذات طبيعتها!

٣١٩ – فأما النفس التي تجد الرب الذي هو الكنز الحقيقي بالصبر والمداومة بإيمان، فإنها تثمر ثمار الروح وتكمِّل كل بر ووصايا الرب التي يرتبها الروح فيها بدون تقصير أو عيب.

أبا مكاريوس الكبير

أقوال الآباء في ثمار التأمُّل:

حكمة ومعرفة روحانية:

٣٢٠ - من نعمة التأمل وجود صوت التمييز السماوي في العقل... حتى أن كلمات الله تدركها أذن القلب وتعيها... وبنعمة فائقة تفهم أسرار الأمور العليا.

غريغوريوس الكبير

٣٢١ - هؤلاء ينالون النظر الحقيقي الذي هو الإفراز (الحكمة الروحية)، الذي ليس شيء أعظم منه في الأمانة المسيحية.

أبا أنطونيوس الكبير

٣٢٢ - هكذا القديسون، يا أحبائي، في كل الأجيال عندما وجدوا هذا الروح وسكن فيهم رفعوا إلى الرب شكراً عظيماً لأنه لا يسكن إلا في نفوس الطوباويين ويكشف لهم أسراراً عظيمة.

أبا أنطونيوس الكبير

٣٢٣ - إن قوة نعمة الله الروحية تعمل عملها في النفس بأناة وحكمة وتدبير عقلي سري. فإذا صبر الإنسان ينكشف له أخيراً كمال صنيع النعمة جهراً.

أبا مكاريوس الكبير

٣٢٤ - إن قوة نعمة الله في الإنسان، عندما تُحسَب النفس أمينة لقبول الحكمة، تعدها لنوالها بعد جهاد عظيم وصبر كثير وتجارب متنوعة واختبار إرادتها، فإذا احتملت النفس ولم تُحزِن الروح القدس وكانت موافقة لها، فإنها تُحسَب حينئذ أهلاً لأن تُطلَق من شدائدها لتنال ملء الروح وغِنى الحكمة التي ليست من هذا العالم.

٣٢٥ - وحتى إلى الآن جميع الذين يحبون الله ويرذلون كل الأشياء لأجله ويواظبون على الصلاة، يتعلمون الأسرار التي لم يعرفها من قبل لأن الحق يُظهِر لهم ذاته ويعلمهم كل ما هو حق.

أبا مكايوس الكبير

٣٢٦ - أما الذين يتقدمون في نعمة الروح، فإنها تعطيهم تمام الميتوتة عن أوجاعهم ويدخلون إلى راحة النفس حيث يتنعمون بالمعرفة الروحانية، فيفرزون أعمال الشياطين وخطايا البشريين والأوجاع والأفكار التي فيهم والحروب التي معهم، ويحسُّون أيضاً بزيارة الروح التي تكون عند الأطهار، ومن رائحة ثيابهم يفرزون الطاهر من النجس بواسطة النور الإلهي.

الشيخ الروحاني

حرارة التبشير بأمور الله:

٣٢٧ - عندما يحلِّق القديسون في تأمل الأمور العليا ويتذوقون جمال الحياة الروحية وثمارها، نجدهم يئنُّون من ثقل الحياة الجسدية، ويتحمسون لإعلان محاسن السماء لأحبائهم بقدر ما يستطيعون... وذلك لأن عقولهم تكون ملتهبة بحب ذلك البهاء الداخلي الذي لا يستطيعون حتى مجرد وصفه كما رأوه. ولكن عندما يتحدثون عن هذه الأمور تنفذ كلماتهم في قلوب سامعيهم وتشعلها ناراً.

٣٢٨ - كل من يجني منفعة من التأمل ورؤية المناظر الروحانية يرتبط بضرورة التحدث بها للآخرين (السائرين في طريق التأمل الروحي)، لأن هذه الأمور إنما استُعلنت له من أجل منفعة الآخرين أيضاً. فعليه أن يعظ الآخرين ويعتني بتقدمهم.

٣٢٩ - حينما يعود الإنسان من تأمله لتأدية فضائله التي يعملها بالجسد (صلاة. صوم. سجود ... إلخ.)، تجده يغذِّي ذاكرته بحلاوة الله فتدسم نفسه من خارج بحركات خشوعية وشوق مقدس من الداخل، مجتهداً دائماً أن يستعيد تذكرها والتحدث بها.

غريغوريوس الكبير

«لم أكن معانداً للرؤيا السماوية، بل أخبرت الذين في دمشق وفي أورشليم حتى جميع كورة اليهودية ثم الأمم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله» (أع ٢٦: ١٩ و ٢٠).

بولس الرسول

كشف النفس لذاتها:

٣٣٠ - كلما سما مستوى العقل في تأمل الأشياء الخالدة انزعجت النفس من الأشياء والأعمال الزائلة، وانقبضت منها بخوف. وعندما تدرك بُعد ذاتها عن النور الحق بسبب آثامها، تكتشف مقدار جُرمها وتعدِّيها. وهكذا كلما يستنير العقل يزداد خجل النفس بسبب ما تستوضحه من مقدار جنوحها عن مبادئ الحق.

غريغوريوس الكبير

٣٣١ - بمقدار ما يتقدم عقل الإنسان ويمتد نحو الصفاء والنقاوة في التأمل، كلما يظهر له

دنسه وعدم نقاوته، عندما يرى ذاته في وجه مرآة الطهارة الحقة! لأنه كلما ترتفع النفس إلى تاورية أعلى وتمتد إلى الأمام، تتوق إلى أشياء أعلى من التي تتممها وتتأكد حينئذ من حقارة وتفاهة الأشياء التي تؤديها. لأن النظرة الحاذقة تكشف خبايا كثيرة. والحياة التي بلا لوم تنشئ حزناً عميقاً على ما فرط من الخطايا.

يوحنا كاسيان

اتساع القلب:

٣٣٢ - حينئذ لا تطلبون فقط عن أنفسكم بل وعن الآخرين. لأن كل من قبل هذا الروح لا ينبغي له أن يطلب عن ذاته فقط ولكن عن الغير أيضاً. أما أنا فطلبتي من أجلكم ليلاً ونهاراً ليكون فيكم عظمة لذة هذا الروح الذي قد قبله جميع الأطهار.

أبا أنطونيوس الكبير

٣٣٣ - هؤلاء يقودهم الروح ويملأهم همًّا وأسفاً على جنس البشر الذين زلُّوا، فيتشفعون في ذرية آدم كلها وتضطرم فيهم محبة الروح للطبيعة البشرية حتى أنهم، لو استطاعوا، لخطفوا كل نفس إنسان متعب إلى أحشائهم دون تفريق بين جيد ورديء.

أبا مكاريوس الكبير

حفظ ورعاية:

٣٣٤ - وإذا نظر الرب هذه الثمرات الحسنة في النفس فإنه يقبلها إليه كرائحة بخور مختار ويفرح بها مع ملائكته الأطهار، ويحفظها في جميع طرقها لتصل إلى موضع راحتها ولا يقوى عليها الشيطان لأنه ينظر إلى الحارس العلوي المحيط بها. فاقتنوا لكم هذا الروح لكي تخاف منكم الشياطين، وتخفَّ عليكم الأتعاب، وتحلو لكم الإلهيات.

أبا أنطونيوس الكبير

سهولة وراحة:

٣٣٥ - وإلى العلة الأولى يرجع العقل - أي يرجع إلى التدبير الروحي الكامل - فيتأمل في حب الخالق وعنايته وإرادته الصالحة، وتبطل من الإنسان حينئذ كل الشكوك والخوف.

مار إسحق السرياني

٣٣٦ - وليس فقط تكون الحروب عنده كلا شيء بل ويزدري أيضاً باللحم الذي هو سبب القتال. هذا هو تدبير الصلاة، وهذه هي منفعة الهذيذ الإلهي، وهذا هو العمل الكامل الذي يكون برفعة التأمل بالعقل...

ومن هنا نحس، بالعقل، أننا بنو الآب السماوي ورثة مع يسوع المسيح.

مار إسحق السرياني

٣٣٧ - هؤلاء يكونون متشبهين بالله في خفة حركاتهم النورانية وسهولتهم، يصنعون مشيئة الله بفرح وحب. الأوقات والأزمنة تكون خفيفة هينة عليهم مثل دقيقة من ساعة، لأنه من أجل لذتهم ينسون الزمان ويستهينون بالضيقات.

الشيخ الروحاني

فرح:

٣٣٨ - هذه القوة الروحانية حينما تحل في النفس تعطيها لذة وتملأها فرحاً وسروراً يوماً بعد يوم وتشعل فيها حرارة إلهية.

مار إسحق السرياني

٣٣٩ - الروح القدس ينعش النفس، وينفذ في جوهرها، ويروِّح ويرطِّب حتى أعضاء الجسد براحة إلهية لا توصف.

٣٤٠ - لأن الذين حُسِبوا أهلاً لأن ينير المسيح أذهانهم بالروح، يقودهم الروح بهدايات مختلفة، وتعمل النعمة في قلوبهم سراً، وتكون لهم راحة روحية، فتارةً تعلو بهم وتفرِّح قلوبهم بفرح وسرور لا يوصف، وتارة تجعلهم كالعروس التي تتنعم بحب عريسها، وتارةً تحلِّق بهم فيصيرون كالملائكة، ثملين من فرط الانذهال بالسرائر الإلهية.

أبا مكاريوس الكبير

٣٤١ - «ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنُّم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم ويهرب الحزن والتنهد» (إش ٣٥: ١٠). النفس، بالتأمل، تصل حتماً إلى جزائها السري العالي، الذي على رجائه تعبت وجاهدت كثيراً فتنعم بفرحة الخير الحقيقي وبتنسُّم رائحة صفاء وهدوء الأبدية وأفراح أخرى غير موصوفة:

سرور خفي في الداخل
فرح وطرب في القلب
اشتياق ملتهب نحو الله
تهليل داخل النفس لا ينقطع

أوغسطينوس

رحمة متسعة:

٣٤٢ - وتدبير السيرة الروحانية يتكلل بهذه الأكاليل الثلاثة: التوبة والنقاوة والكمال. فسُئل القديس ما هي التوبة؟ قال: هي ترك الأمور المتقدمة والحزن على ما فرط من الخطية بقلب منسحق. وسُئل ما هي النقاوة؟ قال: قلب رحوم على جميع طبائع الخليقة سواء كانت بشراً أو طيوراً أو وحوشاً أو دبابات (ثعابين وحيات)، حتى أنه يكون من مجرد ذكرهم فقط تفيض العينان بالدموع من شدة الرحمة التي تعصر القلب، ولا يحتمل أن يسمع أو ينظر أذية تلحق بإحداها حتى ولو كانت حيواناً مؤذياً لأجل الرحمة الفياضة في القلب بغير كيل بشبه الله.

مار إسحق السرياني

محبة:

«لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطَى لنا» (رو ٥: ٥).

٣٤٣ - إن الذين يتساقط عليهم ندى روح الحياة «ينزل مثل المطر على الجزاز ومثل الغيوث الذارفة على الأرض» (مز ٧٢: ٦)، تنجذب قلوبهم بحب إلهي للمسيح، يأسرهم ذلك الجمال والمجد إلى اشتهاء دائم نحو المسيح.

٣٤٤ - يكونون مسبيين بالجمال الإلهي، مَرْضَى بالحب، إذ تكون حياة الخلود قد انسكبت في قلوبهم، لذلك فإن شهوتهم دائماً في الملك السمائي، واضعينه أمام عيونهم على الدوام، ولكي يصونوا شهوتهم فيه ينحلون من كل محبة العالم وما فيه.

٣٤٥ - فمثل هذه النفوس التي أحبت الرب حباً حاراً لا ينطفئ تستأهل للحياة الأبدية، ومن ثَمَّ تُحسَب أهلاً أيضاً للافتداء من الأهواء والشهوات الشريرة، وتنال قوة من الروح القدس وشركة سرية مع المسيح على الدوام.

٣٤٦ - وأما النفس التي وصلت إلى درجة الحب المشتعل فإنها تعمل أعمال البر بلا إحصاء، ثم تظهر بسيرتها أنها لم تفعل شيئاً البتة بسبب الحب الحار المشتعل فيها نحو الله. ومع أنها تميت الجسد بالأصوام والسهر، إلا أنها لا تكفّ عن ممارسة الفضائل كأنها لم تتعب قط. وإذ تُحسَب أهلاً لمواهب الروح المختلفة وإنعام مواهب الأسرار السماوية، إلا أنها بسبب حبها المتأجج لله تظهر على الرغم من ذلك كأنها ليست أهلاً لشيء ولا تملك في ذاتها شيئاً.

أبا مكاريوس الكبير

٣٤٧ - عندما يتذوق العقل حلاوة التأمل يشتعل بالحب.

غريغوريوس الكبير

وداعة واتضاع:

٣٤٨ – كلما تقدم القديسون في فضيلة التأمل، احتقروا ذواتهم وعرفوا أنهم لا شيء وأقل من لا شيء.

غريغوريوس الكبير

٣٤٩ – عوض الأفكار الكثيرة التي كانت تتجاذب في النفس، يمتلئ الإنسان بالأفهام الروحانية ويبتهج الضمير بالتأمل في عظمة الطبيعة الإلهية وبالهذيذ بالثالوث القدوس، وبتذكار دائم لعشق المسيح ونور مجده الإلهي، وبالهذيذ برتب الملائكة الممجدين، وذكر الفردوس وأرواح الصديقين الذين كمّلوا جهادهم. ويخاف الإنسان من الدينونة ويحسب كل إنسان أخيَر منه. وإذا نظر الناس سواء كانوا زناة أو ظالمين يعتبرهم أفضل منه في ضميره الخفي بالحق وليس بالكلام الظاهر، وبقلب طاهر من كل شيء ينظر كل شيء أنه حسن إذ يكون بضمير الله يفكر وينظر.

مار إسحق السرياني

٣٥٠ – ويصير رحوماً بالحق حتى أنه لا يعرف أن يفرّق بين المستحق وغير المستحق، ومتواضعاً بالحق حتى أنه إذا مُدِح وهو مستحق للمدح ما يستريح قلبه.

مار إسحق السرياني

احتمال عجيب:

٣٥١ – وعندما يسكن فيهم روح الله فإنه يريحهم في جميع أعمالهم، ويحلو لهم حمل نير المسيح بلا تعب سواء في عمل الفضائل أو في الخدمة أو في سهر الليالي. لا يغضبون من شتيمة الناس ولا يخافون البتة، لا من إنسان ولا من وحش ولا من غلاء ولا من شيطان، لأن فرح الله معهم ليلاً ونهاراً يربي عقولهم ويغذيها فتنمو النفس بالفرح الدائم.

أبا أنطونيوس الكبير

طهارة:

٣٥٢ – والذين امتلأوا من حكمة الروح إذا ما التهبت فيهم الشهوة فلا يستسلمون لها البتة، وإذا رأوا الخطيئة ماثلة أمامهم فإن عقولهم لا تتنجس بها أو تفكر فيها، لأن أصل الشر وزرعه يكون فيهم جافاً محترقاً، هذه هي درجة العظماء بالنعمة حقاً!

أبا مكاريوس الكبير

زهـد:

٣٥٣ - والذين التهبوا بشهوة الروح السماوية المقدسة، الذين سُبيت قلوبهم بحب الله وتأججت فيهم النار الإلهية، التي جاء الرب لإلقائها على الأرض (لو ١٢: ٤٩)، وهو لا يريد إلا اضطرامها، هؤلاء جميعاً ينظرون إلى الأشياء التي في هذا العالم - الثمينة والمعتبرة جداً - كأنها أشياء كريهة بسبب نار حب المسيح المشتعلة في قلوبهم ليلاً ونهاراً.

أبا مكاريوس الكبير

عدم دينونـة:

٣٥٤ - لا يبطل لسانهم من تلاوة المزامير وتهليل الروح حتى أنهم لا يعطون فرصة للشيطان أن يُلقي فيهم سهامه المتقدة، وحينما تمتلئ النفس من ثمار الروح تتعزَّى تماماً من الكآبة والضيق والضجر. وتلبس الاتساع والسلام والفرح بالله وتفتح في قلبها باب الحب لسائر الناس... تصبر الليل والنهار متحفِّظة على باب قلبها، تطرد كل فكر يوسوس لها بأن هذا صالح وذاك شرير، هذا بار وذاك خاطئ، ترتب حواسها الداخلية وتصالحها مع القلب والضمير لئلا يتحرك واحد منها بالغضب أو بالغيرة على واحد من أفراد الخليقة. أما النفس العاقر الخالية من ثمار الروح فهي لابسة الحقد على الدوام والغيظ والضيق والكآبة والضجر والاضطراب، وتدين على الدوام قريبها بجيد ورديء.

مار إسحق السرياني

حرارة العبـادة:

٣٥٥ - عندما تزور النعمة الإنسان المبتدئ بالطريق الروحاني، تزرع في قلبه اتضاعاً، وتجعل أفكاره تحت التراب، وتمدُّه بالدموع على ذكر خطاياه وتحلِّي في قلبه الترتيل، وتعطيه خفة ولذة في خدمته الطويلة، وتحبب له السجود المتواصل، تشعل في قلبه حلاوة ذكر القديسين وأعمالهم وفضائلهم، وتعطيه حرارة للتشبه بأعمالهم، تحبب له القراءة المستنيرة وتفتح ذهنه لفهم المكتوب وتحرك فيه شعوراً بالندم على خطاياه مع دموع بلا كيل، تحبِّب للإنسان عمل الخير ومساعدة المرضى والضعفاء والميل إلى الهدوء والصمت... واحدٌ تحرِّك فيه إحدى هذه الحركات الروحية وآخر تشعله بجميعها، كلٌّ حسب احتياجه واشتياقه.

الشيخ الروحاني

٣٥٦ - **حديث للأب صاروفيم ساروفسكي مع تلميذه عن اقتناء الروح القدس:**

تلميذ الأب صاروفيم: «أنا لا أفهم كيف يمكن للإنسان أن يتأكد أنه موجود وقائم في الروح القدس؟ أو كيف يمكنني أن أتحقق على وجه التأكيد من أن هذا الاستعلان فيَّ أنا؟»

الأب صاروفيم: «لقد سبق أن قلت لك إن هذا أمر بسيط، ولقد تحدثت لك كثيراً عن حالة أولئك الذين يكونون موجودين في الروح، وقد سبق أيضاً أن شرحت لك كيف تتحقق من هذا الوجود فينا ... فماذا يعوزك أكثر من ذلك يا صديقي؟»

التلميذ: «أنا يلزمني أن أفهم ما سبق أن قلتَه لي بأكثر وضوح».

صاروفيم: «اسمع يا صديقي، نحن الآن كلينا في هذه اللحظة موجودين في روح الرب... لماذا لا تنظر إليَّ؟»

التلميذ: «أنا لم أعد أستطيع أن أنظر إليك يا أبي، فإن عينيك يشع منها نور كالبرق الخاطف وقد صار وجهك يتوهج أكثر من الشمس، لقد تأذت عيني من النظر إليك!»

صاروفيم: «لا ترتعب فأنت في هذه اللحظة أيضاً قد صرت مضيئاً كما صار لي، فقد أصبحت أنت الآخر الآن في ملء روح الله وإلا ما كنتَ قد استطعتَ أن تراني بما رأيتني فيه».

وانحنى نحوي وأسرَّ في أذني: أُشكر الرب على صلاحه اللانهائي نحونا، وهوذا أنت ترى أني لم أعمل شيئاً قط من أجل ذلك حتى ولا إشارة الصليب، ولكن كان يكفي أن ناديتُ الرب مصلياً بفكري ومن قلبي قائلاً: «يا رب اجعله مستحقاً أن يرى بعينيه حلول روحك الذي تنعم به على خدامك عندما يتراءى لك أن تظهر لهم في بهاء مجدك العجيب». وهكذا ترى يا صديقي أن الله استجاب في الحال لصلاة صاروفيم المسكين. فكم ينبغي أن نشكر الله على هذه العطية الفائقة التي منحها لنا كلينا، علماً بأنه حتى الآباء في الصحاري لم توهب لهم دائماً هذه العطية التي بها استعلن صلاحه. إن نعمة الله كأم مملوءة حباً وحناناً نحو أولادها رأت أن تعزِّي قلبك المضطرب بشفاعة أم الله... فلماذا أراك يا صديقي لا تريد أن تحدق في وجهي؟ انظر فيَّ بحرية بدون خوف فالرب معنا الآن!...

التلميذ: «فلما شجعني بهذه الكلمات تطلعتُ إليه فانمسكت بخوف مقدس!... تصور أنك رفعت عينيك فجأة من قرص الشمس الوهَّاج في عزِّ الظهر لتحدق في وجه إنسان داخل هذا القرص وهو يتحدث إليك!!!...

كنتُ ألحظ تحرُّك شفتيه وملامح عينيه وأسمع صوته وأحس بيديه وهو ماسك كتفي، ولكن لم أستطع أن أرى لا يديه ولا باقي جسمه فالكل غاب عن بصري ما عدا النور المتوهج الذي يحيط به والذي يشع منه فيسقط على الثلج الذي يغطي الأرض من حوله ويضيء قطع الثلج المتساقطة علينا من السماء (الوقت شتاء والأب صاروفيم كان يعيش في الغابة في العراء)».

صاروفيم: «بماذا تحس؟»

التلميذ: «بسعادة تفوق الوصف!»

صاروفيم: «أي سعادة؟ حدِّد بالضبط».

التلميذ: «أشعر بهدوء وسكينة وسلام في نفسي لا أجد لها كلمة تستطيع أن تعبِّر عنها».

صاروفيم: «اسمع يا صديقي، هذا هو سلام المسيح الذي وعد به: سلامي أترك لكم سلامي أعطيكم. السلام الذي لا يستطيع العالم أن يعطيه. السلام الذي يفوق كل عقل. ولكن بماذا تشعر أيضاً؟»

التلميذ: «بسرور لا حدَّ له داخل قلبي».

صاروفيم: «حينما يأتي الروح القدس ويحل على إنسان ويحيطه بملء وجوده، تفيض النفس بفرح لا يُنطَق به لأن الروح يملأ كل ما يلمسه بالسرور. فإذا كانت باكورة الفرح السمائي قد ملأت قلبك بهذه اللذة وهذه السعادة، فماذا نقول في الفرح الذي سنُعطاه في الملكوت الذي ينتظر كل الذين ينتظرونه الآن على الأرض!! واعلم يا صديقي أنك وإن كنت قد بكيت أيضاً هنا في زمان غربتك على الأرض فانظر أي فرح أرسله لك الرب ليعزِّي قلبك أيضاً الآن هنا. من أجل ذلك ينبغي أن نجاهد في الحاضر حتى نبلغ إلى قياس قامة ملء المسيح ونتشدد أكثر فأكثر لأنه حينئذ يتحول الفرح الجزئي المؤقت الذي نحسه الآن ويُستعلَن في ملء كماله ليغمر وجودنا كله بمسرات لا يُنطَق بها ولا يستطيع أحد أن ينزعها منا!!»(1)

خاتمة مفرحة:

٣٥٧ – إن بين المنهمكين بأمور العالم وبين المشتغلين بالتاوريا (أي التأمل الروحي) فرقاً: فالأولون تبتدئ أمورهم حلوة بهجة مفرحة، وتنتهي مرَّة كئيبة مظلمة. أما الآخرون فتبتدئ أمورهم مريرة محزنة مظلمة إلا أنها تنتهي بالفرح والبهجة والسرور. والذي ذاق الطريقين يعرف قيمة هذا القول.

مار إسحق السرياني

(1) Mystical Theology, by V. Lossky, p. 229.

الفصـــل الخامس

حياة التأمل وحياة العمل

+ «وأما من عمل وعلَّم، فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات». (مت ٥: ١٩)

+ «وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة». (أع ٦: ٤)

أولاً: التسليم بمبدأ وجود الحياتين في الكنيسة:

من نعم الله على كنيستنا أن جعلت لحياة الخلوة والتأمل نظاماً مرتباً فيها، ووضعت له نظمه وقوانينه، وحافظت عليه أشد المحافظة. فردَّ لها الجميل ستة عشر قرناً وهو يغذيها من ثمرة جهاد أفراده.

هذا هو نظام الرهبنة الذي افتتحه بولا القديس السائح وأنطونيوس وباخوميوس ومقاريوس، هؤلاء الذين خرجوا من العالم طلباً للخلوة والمعيشة مع الله، في حياة تأملية خالية من اهتمامات الجسد ومطالب الحياة الكثيرة الباطلة. فلما وصلوا في سعيهم الناجح إلى نتائج روحية واضحة وملموسة، احتضنتهم الكنيسة، واعترفت بنظام حياتهم العجيب، وآمنت بالحياة التأملية في مجموعها (أي الفقر والعفة والطاعة) كمبدأ كنسي. بل إنها امتزجت به حتى صارت الرهبنة والكنيسة شيئاً واحداً.

وإن كانت الرهبنة تعاني في هذا الجيل شَحّاً في روحانيتها فما ذلك إلا لعدم سلوك آبائها سلوكاً عملياً في حياة الخلوة بالتمرن على الصلاة والتأمل للوصول إلى بركات الحياة الروحية. فأنطونيوس خرج شاباً ضعيفاً لا يعرف كيف يصلي، خالياً من كل معرفة وحكمة اختبارية - اللهم إلا إيمانه الذي كان يملأ قلبه الكبير - حتى إن الشياطين استهزأوا به واجتمعوا عليه وأوسعوه ضرباً مبرِّحاً أفقده عافيته. وكذلك أبو مقاره وبقية الآباء كلهم ابتدأوا الطريق وهم مثلنا ضعاف في كل شيء. ولكن بجهادهم في الخلوة وتدربهم المستمر على حياة الصلاة والهذيذ والتأمل، امتلأوا معرفة وحكمة روحانية ووصلوا إلى أعلى آفاق الروح؛ وإلى حد النبوة وكشف أسرار النفس، وعمل المعجزات وشفاء المرضى وإقامة الموتى. وهذه المواهب جميعها لم تُعطَ لهم إلا كنتيجة لجهادهم الطويل وخبرتهم بالطريق وتحكُّمهم بالروح...

ولا زالت الرهبنة، والطريق هو هو، والروح مستعد أن يعطي بسخاء؛ ولكن يعوزنا النفوس الملتهبة لاجتياز صعوبة الطريق الضيق اللذيذ، والقلوب المملوءة حباً لتنسكب فيها الحكمة الروحانية سكيباً.

حياتـان:

٣٥٨ – يعلِّمنا الله بكلماته المقدسة نوعين من الحياة: حياة التأمل وحياة العمل:

أما حياة العمل فهي أن تعطي الجائع خبزاً، وتعلِّم الجاهل حكمة، وتهدي الخطاة، وتدعو إلى السلوك بالتواضع، وتعنى بالمريض وتمده باحتياجاته وتتكفل بالمحتاجين الذين يلتجئون إليك.

أما حياة التأمل فهي أن يحتفظ الإنسان بعقله ومشاعره لحب الله، يكفُّ عن اهتمامات العالم ليلتصق فقط بشهوة خالقه، فلا يجد العقل مسرة في شيء سواه ولا يهتم بشيء إلا بالصلاة ورؤية الله... يحتمل بالفرح أحزان الجسد ويمتد بروحه ليشارك زمرة المرنمين من جوقات الملائكة متهللاً مع السمائيين من أجل نعمة الخلود التي سيتمتع بها في حضرة الله إلى الأبد.

غريغوريوس الكبير

٣٥٩ – في الكنيسة نوعان من الحياة: **الأول** بالإيمان، **والثاني** بالعيان، واحد لزمان الغربة والآخر لزمان الخلود. واحد للشغل والكد والآخر للهدوء والسكون، واحد للطريق والآخر للبلد الذي ينتهي إليه الطريق، واحد لجهاد العمل والآخر هبة التأمل، واحد لترك الشر وعمل الخير والآخر ليس فيه شر يُترَك بل خير يُدرَك، واحد في حرب العدو والآخر بلا حرب وبلا عدو. واحد ينمو ويتقوى بالتجارب والمحن والآخر ليس فيه مجال للتجربة ولا شعور بالمحنة. واحد يمتطي شهوة اللحم والآخر يسير وراء الروح. واحد يهتم لينال النصرة والآخر يحيا في النصرة بلا هم. واحد يسأل المعونة في البلية والآخر يحيا غير مبالٍ بالبلايا، إذ يكون في حفظ من يعين وقت الهموم والبلايا، واحد يساعد المحتاج والآخر يعيش بلا حاجة. واحد يغفر للمذنب إليه ليُغفَر ذنبه والآخر لا يشعر أن أحداً قد أذنب إليه أو هو أذنب إلى أحد، واحد يُرزَأُ بالشر لئلا يستعلي بالخير، والآخر لا يؤدَّب لأنه بالنعمة يلتصق بالخير الأعظم. واحد يميز بين الخير والشر والآخر يرى الخير في كل شيء. لذلك فالأول حسن ولكنه لا يزال يشقى أما الآخر فهو أحسن ويبقى حسناً.

أوغسطينوس

٣٦٠ – حقيقتان موضوعتان أمام كل إنسان: الأولى عمل والثانية تأمل. بالأولى نرتحل وبالثانية نبلغ إلى نهاية الارتحال. بالأولى نكدُّ ونتعب لكي نطهر قلوبنا، وبالثانية نهدأ فنرى الله. الأولى تصادق ناموس الحياة الحاضرة والثانية توافق روح الحياة الأبدية! الأولى بالجهاد والتعب للطهارة والثانية بالسكوت والهدوء للتمتع بنور الطهارة المدرَكة. بالأولى تكون لنا حياة فاضلة في هذا العمر الزائل، وبالثانية نؤهَّل لرؤية الحق وحياة الدهر الآتي.

لقد اختصَّ ثلاثة من البشيرين الذين هم متى ومرقص ولوقا بتسجيل كلمات وأعمال مخلصنا للسلوك بالحق في الحياة الحاضرة، وليسهلوا لنا طريق الفضيلة والعمل، واختصَّ يوحنا الحبيب بتزكية أفضلية حياة التأمل.

أوغسطينوس

٣٦١ - زوجتا يعقوب تمثلان لنا الموضوع بوضوح: فيعقوب قَبِل ليئة مُجبَراً على رجاء الحصول على راحيل التي كان يحبها قلبه. فجهاد الحياة والعمل الذي نقوم به بالإيمان هو على رجاء نوال حياة التأمل الأبدية في الله، واثقين من أننا سوف ننال مسرات الحق.

إنه على رجاء التنعُّم بالتأمل في الله إلى الأبد نتوب عن شرورنا ونُطهِّر من خطايانا. أما إذا توخينا الحقيقة فليس أحد يميل بطبيعته إلى التعب والمشقة، وليس أحد يُغرم بحياة الجهاد حباً في التعب أو جرياً وراء الألم. فإن كنا نقوم بهذه الأعمال ونحتملها بالرحب، فكوسيلة توصلنا إلى حياة التأمل الأبدية في الله. فلو تُرك كل واحد لرغبته الصادقة، فإنه يود لو أمكن أن يصل مباشرة إلى بركات حياة التأمل في الله دون القيام بأعباء الجهاد الذي يجابهه الإنسان في الحياة العملية، ولكن هذا مستحيل في عالمنا المادي الذي نحيا فيه، إذ يتحتم أن تتقدم حياة الجهاد والعمل ومباشرة أعمال الخير والفضيلة على التنعم بمسرات حياة التأمل: فكل عقل يتوق إلى الاطلاع على الحق، يهون أمامه جهاد حياة العمل، إذ بدون هذا الجهاد لن يستطيع العقل أن يصل إلى هدفه الحق المطلق الذي يسعى إليه في حب ملتهب.

وهكذا حينما يتذوَّق الإنسان لذة الجهاد ولذة الوصول إلى هدف جهاده (أي حياة التأمل بالروح)، فإنه يتحقق من جمال اتحاد الحياتين معاً، أي حياة جهاد العمل والفضيلة وحياة التأمل بالروح. هدفنا، إذن، واحد وهو حياة تأملية مع الله الأبدي، ولكن إذ يتعذر بل يمتنع أن يستطيع الإنسان البقاء في هذه الحياة التأملية دواماً بسبب ضعفات الحياة المادية، وشغب الجسد الفاسد الذي يجذب النفس من رفعة تأملها لتنحط إليه، لذلك فإن الإنسان يعود إلى أعماله المادية وجهاده... وهكذا بسبب الشيء الواحد يحتمل الإنسان أموراً كثيرة...

هما حياتان الواحدة محبوبة والأخرى محتمَلة من أجل المحبوبة. ولكن تلك المحتمَلة لها ثمارها الكثيرة أيضاً، حتى أنها قد تصير هي أيضاً محبوبة، إن لم يكن لذاتها، فلسبب إنتاجها الخصب: «ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها. وأما راحيل فكانت عاقراً، فحبلت ليئة وولدت ابناً ودعت اسمه رأوبين، لأنها قالت: إن الرب قد نظر إلى مذلتي، إنه الآن يحبني رجلي» (تك ٢٩: ٣١ و ٣٢). فالبشارة بالإنجيل عملية ولادة مستمرة لملكوت السموات، في حين أن الحياة المحبوبة أي حياة التأمل الروحي هي اتجاه دائم نحو التخلِّي عن كل المهام، لذلك هي حياة عاقر للعالم. لأن في السعي الدائم نحو التخلي عن كل شيء لإذكاء روح التأمل - إهمال لحياة الآخرين المحتاجين إلى معونة وإصلاح.

ولكن حياة التأمل لم تُعدم إنتاجاً وأثماراً، فعند اكتمال شعلة الحب تتولد في النفس رغبة قوية لتعليم الآخرين وتسليمهم ثمار حياة التأمل.

إن البشرية تميل أكثر نحو الحياة العملية، وذلك طبيعي لأن كل إنسان إنما يسعى لتكميل مصالحه وسد

أعوازه، في حين أن حياة التأمل لا تحتمل إلا السعي نحو كل ما يختص بالله والحق الأبدي.

أوغسطينوس

ثانياً: العلاقة القائمة بين الحياتين:

إن موضوع العلاقة بين حياة التأمل وحياة العمل والخدمة، من أهم المواضيع التي بحثها الآباء بحثاً دقيقاً لم يترك مجالاً لمحدِث. فقد تعرض الآباء لكل دقائق الموضوع وقرروا مبادئ راسخة، وفرضوا واجبات على كل من يختار إحدى الحياتين:

يلخِّص القديس أوغسطينوس آراءه في قول بسيط: «إن دراسة الحكمة الروحانية وتحصيلها تُلزِم الإنسان على المسير في طريق الحياتين معاً: حياة التأمل وحياة العمل».

وإليك بعض القطع المختارة من أقواله:

٣٦٢ - الذين قد أُنيطَ بهم أعمال الخير ورعاية النفوس، مُلزَمون أن يحملوا للناس شهادة عن الحياة الأخرى. لذلك وجب أن يتفرغوا لدراسة وتأمل الحق والحياة الأبدية.

وكما أنه ليس من الإنصاف أن تكون حياة التأمل سبباً في تعويق إنسان كفء للقيام بالمهام الكنسية، كذلك أيضاً ليس من العدل أن يكون الإنسان كفءاً لأمانة القيام بإدارة شئون الكنيسة، ولكونه تواقاً وملتهباً لحياة التأمل واستلهام الحكمة ينسحب من ميدان العمل ليلقي بنفسه في فراغ التأمل اللانهائي.

إذن فالوضع السليم يحتِّم على عشَّاق حياة التأمل والخلوة، أن ينزلوا إلى ميدان الجهاد والعمل متى ألحَّت عليهم ظروف العمل وحاجة الكنيسة، وبهذا تصير حياة التأمل والخلوة في موضع الإحترام عند كافة الناس.

أوغسطينوس

٣٦٣ - إن الكنيسة تفرح بمن وهبوا ذواتهم لحياة الخلوة والتأمل الروحي، وساروا في طريق هذه الحياة باتضاع، لأنها تستطيع حينئذ أن تهتف واثقة بهم: «أنا نائمة وقلبي مستيقظ»، وتستريح إذ تعلم أن أوقات فراغها لا تضيع في الباطل إذ يكون جهاد هؤلاء على أشُدِّه لتحصيل المعرفة والحكمة الروحانية. فحينما تهدأ الكنيسة من الأعمال، يسمو عقلها (أي رجالها القديسون) عالياً نحو محبة الله. ولكن هؤلاء الذين سُرَّت بهم الكنيسة وفرحت بفراغهم من الأعمال - إذا جدَّ بها الأمر - تقرع بابهم بصوت عريسها: «ما تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح»، وتهتف بهم لتقطع عليهم خلوتهم قائلة: «افتحوا لي» إذ تكون في حاجة ملحَّة إلى كلمة وعظ لاكتساب قطعان جدد، ولكن إذ تشفق على هؤلاء القديسين من اضطراب حياة العمل وتخشى عليهم من الخطية، تتضرع من أجلهم نحو عريسها قائلة بصوت عروس نشيد الأنشاد: «قد

غسلتُ رجليَّ فكيف أوسخهما؟» - حينما يخدمون أرض الخطية - ولكنها تسأل من أجلهم «اغسلني كثيراً فأبيضّ...».

أوغسطينوس

٣٦٤ - أما بخصوص أنواع الحياة الثلاثة: حياة الفرْغة من كل شيء للتأمل، وحياة الانشغال بالعمل والخدمة، وحياة إشراك التأمل والعمل معاً، فمعروف أن أي إنسان يمكنه أن يمارس ما يلائمه منها إذا ثابر بإيمان وحب وعقيدة، فيصل إلى بركاتها الدائمة. ولكن يجب أن يكون لكل إنسان نصيب من محبة الحق ونصيب من الخدمة وعمل البر، ولو كان على حساب نفسه. فلا يجب أن يكون الإنسان متفرغاً لدرجة أنه لا يهتم بخير القريب، ولا مشغولاً لدرجة أنه لا يتفرغ للتأمل في الله. كذلك لا تكون لذَّته في الراحة ومسرته في الكسل، بل في فرغته وراحته يجتهد في اهتمام باحثاً عن الحق... وبذلك يستطيع كل واحد أن يتقدم في الحق ولا يحقد على الآخرين أو يضنُّ عليهم بما اختبره وناله.

وليكن المشتغلون بحياة الخدمة في هذا العالم بعيدين كل البعد عن محبة الكرامة ومظهر القوة. وإنما العمل ذاته الذي يؤدونه، إذا ما كان لصالح الآخرين كما يجب، وواسطة لخلاص النفوس بالحق، فحينئذ يكون هو الحق والكرامة والقوة معاً.

ولكن يجب أن لا يُعاق أحد من متابعة التأمل ومعرفة الحق، الذي هو عين العمل المستحق لكل مديح. فمحبة الحق هي التي تدفعنا لنسعى نحو الفراغ والهدوء المقدس، وضرورات الخدمة تجعلنا نحمل عبء المشغوليات المقدسة.

أوغسطينوس

٣٦٥ - ولكن إذا لم يوضع علينا هذا الثقل - أي نير الخدمة - من أحد، فعلينا أن نسلِّم ذواتنا إلى البحث والتأمل في الحق، إلى أن يوضع علينا نير الخدمة فنحمله من أجل ضرورة الرحمة: «الضرورة وُضعت عليَّ فويل لي إن كنت لا أبشر...» وحتى في ذلك علينا ألا نهمل مسرة التأمل، لئلا إذا عُدمناها نغرق حتماً في هذه الضرورات التي تحملناها.

أوغسطينوس

وللقديس غريغوريوس الكبير تعاليم كثيرة في موضوع علاقة حياة التأمل بحياة العمل؛ تُعتبر فذة لوفرة أبوابها التي يطرقها القديس في جرأة وسماحة، فلم يترك إنساناً مسئولاً في الكنيسة إلا وأوقفه على حقيقة وظيفته وخطورة مسئوليته تجاه الحياتين معاً. ولأهمية هذه النواحي في الخدمة جعلنا في ختامها ملخصاً لأهم المبادئ التي ينادي بها القديس لكي تكون قانوناً لحياتنا الروحية:

٣٦٦ - طالما نحن في هذه الحياة فنحن لا نتذوق إلا القليل من بداية التأمل؛ في حين أن الحياة العاملة

يمكن استجلاء كل نواحيها المتعددة هنا على الأرض.

٣٦٧ - الهدوء الكامل الذي هو قوام حياة التأمل الصحيحة لا يمكننا أن نحصل عليه في هذه الحياة... والتأمل نفسه لا يمكن استكماله أيضاً في هذه الحياة، حتى ولو كنا ممتلئين غيرةً وحماساً. فالرجل الكامل المختار يستطيع أن يتمم كل ما يُعطَى له من أعمال ومهام على أتم وجه إلا التأمل، فهو لن يحصل منه إلا على مجرد بدايات لهذه الحياة اللانهائية.

٣٦٨ - ومع أن الحياتين هما من هبة النعمة، إلا أننا طالما نحيا في وسط الناس فنحن مجبَرون للسير في حياة العمل والخدمة، غير أن حياة العمل لا بد أن ترافقها حياة تأمل لكي تكون الخدمة كاملة.

٣٦٩ - نحن نصعد إلى مرتفعات التأمل على درجات حياة العمل والخدمة.

٣٧٠ - الحياة العاملة تكون أولاً، حتى يمكن أن تُدرَك الحياة التأملية بعد ذلك. ولكن يجب أن نعلم أنه: كما أن الوضع الصحيح أن نمرَّ أولاً على حياة العمل، كذلك يكون من النافع جداً أن نعود بين الحين والحين من حياة التأمل إلى حياة العمل والخدمة، لكي نستثمر ما اجتناه العقل من معرفة لتقويم حياة العمل... وكذلك أيضاً يجب أن تؤهِّلنا الحياة العملية للدخول إلى حياة التأمل ولا تقف عائقاً أمام تقدُّمنا في الحياة التأملية... وهكذا نستخدم ما نحصل عليه من استعلان وبصيرة في التأمل للرجوع إلى العمل...

غريغوريوس الكبير

اتحاد الحياتين لصالح الخدمة:

٣٧١ - المسيح - تبارك اسمه - وضَّح في سلوكه الشخصي نوعين من الحياة. أي حياة الخدمة وحياة النشاط الروحي. ومع أن حياة الخدمة والعمل تختلف تماماً عن حياة الهدوء والتأمل الروحي، غير أن فادينا لكونه أتى بدون خطية أو شهوة جسد، استطاع أن يعطينا في شخصه أمثلة للحياتين معاً.

٣٧٢ - إن من يتيقظ في أثناء تأدية خدماته المقدسة يشعر أن عقله يمتد به ويدخل إلى أعماق نفسه. لذلك فإن تأدية أنواع الخدمات الدينية المختلفة لازمة لحياة التأمل. وكل واعظ يحث الناس على الانتقال في العبادة إلى حياة التأمل مباشرةً، مهملاً الخدمة وحياة العمل التي يجب أن تُمارَس أولاً، يُعتبر واعظاً غير كامل! كذلك من يهمل واجب التأمل الروحي بسبب ارتباك الخدمة والمسئوليات... من أجل هذا كان مخلصنا الصالح يصنع المعجزات في المدن والأسواق ثم يذهب إلى الجبال مكرساً الليل كله للصلاة. «كان في النهار يعلِّم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل» (لو ٢١: ٣٧). «وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله، ولما كان النهار دعا تلاميذه... ونزل معهم» (لو ٦: ١٢ و ١٧).حتى بسلوكه هذا يعلِّم المرشدين الكاملين أن لا يحرموا حياة الخدمة من لذة وبركة التأمل، وألا يستخفوا بقيمة

حياة الهدوء أثناء خدماتهم. لأنهم بالاعتكاف والتأمل يستلهمون الحكمة والمعرفة، ثم بالخدمة يسكبونها في قلوب سامعيهم. ففي التأمل يرتفعون إلى محبة الله، وبالخدمة والوعظ يهبطون مرة أخرى إلى محبة القريب. وهكذا يجب أن يتشبَّع ضميرنا بحب الاثنين معاً، أي حب الله وحب القريب. فلا يليق أن تُسرَّ النفس وتسعد بحب الله في حياة الهدوء وحسْب، للدرجة التي تنكر فيها الاهتمام بخدمة القريب! كما أنه لا يليق أيضاً أن تنهمك في محبة القريب انهماكاً يُفقدها الهدوء فتنطفئ من قلبها جذوة نار حب الله.

إذن، فكل من كرَّس حياته ذبيحة حية لله، يلزم عليه أن لا يمتد في الخدمة حتى يلقي بذاته في اتساعها فيفقد نفسه، وإنما عليه أن يمتد في ذات الوقت إلى علو التأمل.

غريغوريوس الكبير

ممارسة الحياتين لصالح الرعاة والرعية:

٣٧٣ - الراعي سواء كان كاهناً أو أسقفاً يجب عليه أن يكون قريباً من الجميع بالشفقة، ومرتفعاً فوق الجميع بالتأمل، حتى بأحشاء رحمته يحمل فوق ذاته ضعفات الآخرين، وبرفعة التأمل في طلب الله يُحمَل هو فوق ذاته. وبذلك لا يزدري بضعفات الناس حينما يشعر بضعفه في الاجتهاد نحو التأمل. وكذلك لا ينسى الخلود إلى الهدوء وحياة التأمل حينما يطَّلع على نقائص وضعفات الآخرين. والراعي الذي يتمسك بحياة التأمل وحياة العمل معاً يكون قد وصل إلى قمة الكمال.

غريغوريوس الكبير

دوام الرجوع إلى الخلوة والتأمل هو سر نجاح الخدمة والخدام:

٣٧٤ - عندما يخرج الآباء القديسون من اعتكافهم بعد حياة تأملية، يتقدمون كالأنوار ليعطوا يداً للخدمة في الحياة العامة. فيضيئون كسهم من نور في فضاء الخدمة المتسع. وبعد أن يؤدوا نصيبهم يرتدُّون إلى حضن تأملاتهم وهدوئهم، ليُحيوا لهيب غيرتهم فيتأجج ويلمع من جديد بلمسة من نور السماء. لأنهم يخمدون بسرعة في وسط أعمالهم الخارجية، بالرغم من صلاحهم، إذا لم يعودوا قلقين توَّاقين إلى نار التأمل لتنبعث فيهم الحرارة والنور، تجدهم يخرجون من حضرة القدير ومن نعيم بهاء نوره الذي ينسكب على عقولهم، ويهون عليهم ذلك من أجل الحب المشتعل فيهم نحو الآخرين! فيتقدمون خطوة نحو الحياة العملية، إلا أنهم يرتدون سريعاً إلى درسهم اللذيذ في الهدوء والتأملات المقدسة.

حينما يتحدثون إلينا يسكبون ذواتهم في آذاننا وينقلون إلى قلوبنا حياة مجسَّمة في كلمات محسوسة، إلا أنهم يتركوننا سريعاً ليعودوا إلى أفكارهم الصامتة ليطلبوا مصدر الحياة والنور!!

وهم إذا لم يعودوا على الدوام، بعقول شغوفة، إلى الهدوء والتأمل في الله فإنه يصيبهم القحط والجفاف الذي يظهر واضحاً في كلمات وعظهم!

غريغوريوس الكبير

خطورة إهمال إحدى الحياتين بالنسبة للرعاة والخدام:

٣٧٥ - ليتك، أيها الراعي، لا تُنقص من اهتمامك بداخل نفسك حينما تنشغل في الخارج بأمور الآخرين. كذلك لا تهمل إشرافك على أمور رعيتك خارجاً حينما تخلد إلى نفسك، حتى لا تعثر أنت في داخلك إذا أعطيت نفسك للآخرين ولا تسقط بسببك حقوق المظلومين إذا أعطيت اهتمامك لنفسك فقط.

غريغوريوس الكبير

الانحياز الزائد لحياة العمل والخدمة نتيجة ضعف الخادم والمخدوم:

٣٧٦ - الذين أُقيموا لسياسة وتدبير إخوتهم ينسون غالباً أنهم مسئولون عن النفوس قبل كل شيء، فينهمكون ويرتبكون بكل قوتهم ومن كل قلبهم ليخدموا أمور الآخرين. وتجدهم تارةً يبتهجون في خدمتهم وتارةً ينشغلون ويقلقون إذا انقطعت أخبارهم، ويصابون بحمى التفكير والقلق النهار والليل... فلو حدث أن الله أنعم على مثل هؤلاء بحياة الهدوء والتأمل بعيداً عن مصادر انشغالهم تجدهم قلقين أيضاً في هدوئهم لأنهم يظنون أن الإغراق في الانشغال أمر حسن أو مشكور. بل إنهم يحسبون أنه تعب وألم لهم إذا لم يتعبوا ويتألموا بتوافه الأمور الأرضية الزائلة. فبينما تجدهم في انشغال كثير مضغوطين بارتباك في أمور لا قيمة لها، تجدهم جهلاء بمعرفة الروح وأسرار النفس الداخلية التي كان يجب عليهم أن يتقنوا معرفتها، حتى يتسنى لهم معرفة وقيادة النفوس التي سُلِّمت إليهم. هؤلاء تجدهم ناجحين في كل شيء إلا أن الحياة بينهم فاقدة الحس.

غريغوريوس الكبير

في انحياز الراعي لحياة التأمل والخلوة هلاك للرعية:

٣٧٧ - وأيضاً يوجد من يأخذ مسئولية تدبير الرعية، ولكنه يوجد دائماً توّاقاً للتفرغ لرياضة الروح، حتى أنه لا يريد أن يدخل في ترتيب أي عمل خارجي بالمرة. وبالنسبة لتخليته عن الأمور الجسدية تجده بعيداً عن تفهُّم احتياجات من هم تحت تدبيره. ولا غرابة إذا نظرنا إلى مثل هذا الراعي بنظرة صغيرة، فبالرغم من أنه يُصلِح من شأن الخاطئ والأثيم إلا أنه لا يعينهم بحاجات الحياة الضرورية، فيصير وعظه غير محبَّب للنفس، **لأن كلمة الشريعة والحق لا تجد طريقها إلى قلب إنسان معتاز، إذا لم تسندها يد الرحمة!** لذلك فليكن الرعاة ذوي غيرة حكيمة على

مطالب النفس الداخلية لمن يرعونهم، وفي نفس الوقت لا يهملون احتياجات حياتهم الجسدية، لأن عقل الرعية يتشتت عند سماع الوعظ إذا كانت حالتهم الجسدية مهمَلة من الراعي.

غريغوريوس الكبير

في انحياز الراعي لحياة الخدمة هلاكٌ لنفسه:

٣٧٨ - على الرعاة أن يكون عندهم مخافة دائمة وعناية ساهرة، لئلا بينما يكونون مهتمين بالأمور الخارجية يبتعدون ويسقطون عن غرض خدمتهم الأساسي. لأنه عادة حينما يكون عقل الرئيس يخدم بلا حذر في هموم العالم الزمنية، يفقد قلبه حرارة الحب الداخلي. وهذه علامة الإنسان الذي يكون موزَّعاً في الأمور الخارجية غير متيقظ لداخل نفسه، أنه لا يخشى بل يفرح إذا قلتَ له إنك ستأخذ مسئولية نفوس! يجب أن يكون هناك حد محدود يمنع تمادي الراعي من الانشغال بهموم الأمور الخارجية.

غريغوريوس الكبير

٣٧٩ - كل من كان خاضعاً تحت رئاسة دينية وعُرِضت عليه وظيفة ذات سلطان - حتى ولو كان قد سبق فوُهِبت له صفات يخدم بها ويصنع بها خيراً للناس - يجب عليه **أن يهرب ويرفض من كل قلبه ولا يخضع إلا صاغراً وبغير إرادته.**

غريغوريوس الكبير

كيفية ممارسة حياة التأمل في وسط العالم والخدمة:

٣٨٠ - حينما يُرغَم القديسون على ضرورة العمل فيشتركون في الخدمات الخارجية، تجدهم على الدوام يركزون ذواتهم بهمَّة في فحص وتفتيش أسرار قلوبهم، وهكذا تجدهم على الدوام مرتفعين بسمو أفكارهم الداخلية. وحينما يفرغون من شغب الأعمال الزائلة تجدهم عند قمة تأملاتهم، يفحصون في أحكام الإرادة الإلهية. ومن هنا نسمع عن موسى كيف كان باستمرار يلجأ إلى خيمة الاجتماع في الأمور المشكوك فيها، وهناك يستشير الله سراً ليعلم الأمر الحقيقي المقطوع به الذي يجب أن يسير بمقتضاه. وإنَّ تركه للجموع المزدحمة والتجاءه إلى خيمة الإجتماع هو في الواقع بمثابة الكفِّ عن شغب الأعمال الخارجية والدخول إلى خلوة العقل، لأن من هناك يُستشار الله بالحق. وما نسمعه من الداخل في هدوء القلب هو ما يجب أن ننادي به ونصنعه في الخارج علانيةً.

هذا الطريق الصالح يتبعه الراعي الصالح فلا يُقدِم على القطع والبت في الأمور المشكوك فيها - حتى ولو كان عارفاً ببواطن الأمور - قبل أن يخلو إلى ذاته في هدوء العقل، ويتسمَّع سراً إلى صوت الحق الذي يهتف إليه في هدوء وعدم تشكك أو أدنى انقسام، وحينئذ يأخذ المشورة كما من الله.

ولكي يبقي القديسون على اتصالهم الدائم بالله، تجدهم وهم في وسط العمل الخارجي مستعدين على الدوام للانسحاب بسرعة بعقلهم وقلبهم ليدخلوا إلى مخادع القلب السرية، حيث تعوَّدوا أن يسمعوا صوت الحق من الله في أمان من ارتباك الحواس والمشاعر والميول.

غريغوريوس الكبير

العمل والخدمة ينميان الحياة التأملية:

٣٨١ - كلما اتسعت النفس في محبة القريب كلما سمت في معرفة الله، وهي بالحب تتسع إلى الأمام وبمعرفة الله تمتد إلى فوق؛ ومن ثم تصير إلى أعلى فأعلى كلما اتسعت وامتدت إلى الأمام نحو القريب!

ليتنا نحب الله ونحب القريب من عمق قلبنا. ليتنا نتسع في مشاعر الحب حتى نرتفع نحو المجد الأعلى الذي تفيض منه ينابيع الحب. ليتنا نكسب حنان القريب بالحب حتى نلتصق مع الله في نور المعرفة، ليتنا ننزل وننزل حتى ندرك أقل أخ لنا في البشرية لأنه بذلك نتساوى مع الملائكة في السماء.

غريغوريوس الكبير

٣٨٢ - نرى الحكمة وقد سطعت واضحة تفسر لنا لماذا أخذ المسيح جسداً مثل طبيعتنا البشرية. يذهب إلى الجبال منفرداً ويقضي الليل كله في الصلاة! ثم ينزل حيث الجموع قد احتشدت فيصنع الخدمة بالمعجزات والآيات علناً! إنه بذلك قد رسم الطريق للرعاة ومدبري النفوس، حتى يرتفعوا أولاً بالصلاة والتأمل ثم يتقدموا لخدمة المحتاج! ترك لهم الحب على مرتفعات التأمل، وترك لهم الرحمة في الأسواق، فعليهم بقدر ما يمتدون نحو الرحمة أن يرتفعوا حيث الصلاة.

غريغوريوس الكبير

٣٨٣ - حينما نرتفع عن الحياة العملية لندخل في هدوء التأمل، نجد أن العقل لا يستطيع أن يداوم في التأمل طويلاً. فكل ما يُشخَص إليه من أمور الأبدية يراه العقل كما في لغز كصورة في مرآة، ثم يعبر عنه مطروداً من عظم الارتفاع الشاهق؛ ويرتد إلى نفسه ليغرق فيها من جديد. وحينئذ يقنع العقل بلزومية الجهاد في الخير وممارسة الأعمال الفاضلة، إذ يشعر بحقارته وضعفه أمام قمم التأمل العالية (عن مستواه الروحي)، فلا يمانع في النزول إلى السفح ليخدم باتضاع على قدر ما يستطيع. وبذلك يكون الخير الذي يؤديه بين الناس من عمل وخدمة عاملاً مهماً لرفعه إلى قمة التأمل! وهناك يتقوى من مراعي الحب التي يقوده إليها تأمل الحق.

وهكذا بسبب ضعفنا وفساد طبيعتنا لا نستطيع أن ندوم طويلاً في التأمل المطلق الحر، فنعود إلى العمل ونعمل، تلهبنا حلاوة الأوقات التي تذوقنا فيها الله. وهكذا إذ نمتلئ من الأعمال الصالحة ننمو بالتأمل في نور معرفة الحق وشهوة حب الله.

غريغوريوس الكبير

٣٨٤ - في الحياة العملية يستطيع العقل الثبات في العمل بلا سقوط، ولكن في حياة التأمل يُغلب من ثقل ضعفاته فيخور. لأن في عمل الخير للقريب يستمر العقل بنشاط نسبياً، إذ تكون الأعمال من طبيعته، فينفتح لها من ذاته. أما في حياة التأمل فإنه يخور سريعاً لأنه يهمُّ ليسمو فوق حدود الجسد وطبيعته، جاهداً ليستعلي فوق ذاته هو.

وهكذا في حياة العمل نجد العقل يمتد في مستوى الأرض والأرضيات ليزرع خيراً فيجد مكاناً لقدميه ليقف. أما في التأمل فإنه يرنو إلى فوق نحو المرتفعات الروحية التي هي أعلى منه. فإذ لا يجد مكاناً لقدم يجاهد ولكنه يكلُّ سريعاً فيهبط إلى نفسه.

وأيضاً نجد أن في الحياة العملية، الذين يتجددون بالنعمة يهجرون أعمال الشر والخطية تماماً فلا يعودون إليها إطلاقاً. ولكن في حياة التأمل نجد أن الذين يوهبون النظر الروحاني لا يستطيعون أن يدوموا باستمرار في نعمته، حتى ولو انفصلوا تماماً عن حياة العمل وارتباكات العالم؛ بل نجدهم يترددون على باب هذه النعمة من حين إلى حين. لذلك يلزم لهم عمل قريب مناسب يجدد قواهم ويهيئهم للتأمل دائماً.

ولكن بالرغم من أن ممارسة حياة التأمل تكون على فترات متقطعة وليست على الدوام، إلا أننا بكل تأكيد نداوم بلا إخفاق لندركها بالتمام. إذ ولو أن العقل يقع منها مغلوباً بضعفه، ولكن بمعاودة اللحاق بها في اجتهاد مستمر يدركها حتماً. فلا يجب أن نظن أن العقل فقد ثباته في متابعة ما يرنو إليه ولو أنه يسقط كثيراً في السعي وراءه؛ إلا أنه يقوم ليلحق به.

غريغوريوس الكبير

ليذكر من يحيا في التأمل ما عليه من دين لمن يحيون في الخدمة والعمل:

٣٨٥ - يوجد بعض من الذين يصيبون حظاً ولو بسيطاً في بداية الحياة الروحية، حينما يرون رؤساءهم قد وجَّهوا كل اهتمامهم وأفكارهم للأمور العالمية والمهام الزائلة، أنهم يبتدئون يلومون العناية الإلهية الفائقة؛ معتقدين أن هؤلاء لا يليقون للقيام بالحكم لما يقدمونه من قدوة منحرفة في سلوكهم العالمي، ولكن مهلاً فلا يمكن إدارة الأعمال وتدبيرها إلا بالانهماك في الأمور العالمية وتفهُّمها. لذلك فإن الله سبحانه لا يلقي عبء الحكم إلا على ذوي القلوب الجافة التي تليق لطبيعة العمل الذي وُضِعوا له، حتى يتسنى للروحانيين ذوي المزاج الرقيق أن يتخلصوا من الانشغال بهموم العالم. فيسمح الله للبعض بتقديم ذواتهم للانغماس في الهموم العالمية والأعمال الجسدية ليتخلص الآخرون من ضجيج العالم وضوضائه.

أما كيف يُرتَّب هذا في الكنيسة كما بتعيين إلهي، فإنه يظهر بوضوح في أمر تشييد خيمة الإجتماع. فالله أمر موسى أن يحيك ستائر من كتان رفيع وحرير أحمر (قرمز) وأزرق (أسمانجوني) ليغطي بها قدس

الأقداس من الداخل، وأن يغطي الكل من الخارج بستائر من جلد وشعر معزى. فما هو الجلد وما هو شعر المعزى الذي يغطي خيمة الاجتماع إلا العقول القاسية والجافة التي تُنصَّب على الكنيسة بحكمة الله وتدبيره الخفي... فبما أنهم سعوا وراء التوظف ولم يخشوا خدمة المهام العالمية، فبالضرورة لابد لهم أن يتحملوا صامتين عواصف التجارب التي يعصف العالم بها عليهم. وما هو حرير القرمز والأسمانچوني والكتان الرفيع إلا حياة القديسين الرهيفة البرّاقة اللمّاعة؛ التي بينما هي مختبئة تحت طبقات الشعر والجلد الخشنة القاسية تحتفظ بكل جمالها، لأنه لكي يحتفظ الكتان الأبيض بإشراقه والقرمز ببريق حُمرته والأسمانچوني بصفاء زرقته يتحتم أن يحتمل الجلد والشعر الأمطار والرياح والأتربة.

وإذن، فعلى الذين يتقدمون في المجد الروحي وهم في حضن الكنيسة المقدسة، أن لا يحتقروا أعمال رؤسائهم حينما يرونهم وقد انهمكوا في مشاغلهم العالمية. لأنهم إنما يتعمقون في أسرار الروح في هدوء وأمان على حساب المعونة التي يقوم بها هؤلاء الرؤساء، محتملين عنهم عصف الرياح التي لا تزال تعصف بهم من الخارج. أو كيف يمكن أن يحتفظ الكتان الرفيع بجمال إشراقه إذا كان يتعرض للمطر كل يوم؟ أو كيف يدوم على القرمز والأسمانچوني رونقه ولميعه إذا أتلفه التراب والضوء؟ إذن، فدع الجلد والشعر ذا القوام القاسي والجاف في مكانه فوق الكل، ليقاوم بقساوته قساوة الريح والضوء والأتربة. أما الأسمانچوني الرهيف اللائق بالزينة الدائمة فدعه من تحته! نعم دع هؤلاء الذين يشتغلون بالسعي الروحي في هدوئهم، لأنهم زينة الكنيسة! واجعل عليهم حَفَظة من هؤلاء الذين لا يكلُّون من مشغوليات العالم.

ولا يتذمر في الكنيسة من استضاء ببهجة الروح على من نُصِّب لخدمة شئون العالم. لأنك إذا كنت تضيء من الداخل في هدوء وأمان كالقرمز والأسمانچوني فلماذا تلوم شعر المعزى الذي يحميك؟

غريغوريوس الكبير

٣٨٦ – الذين ليست لهم دراية بالتأمل، عليهم ألا يرشدوا أو يقودوا آخرين.

غريغوريوس الكبير

٣٨٧ – من هو الأعمى – الذي يقود غيره – إلا الذي يجهل نور التأمل الإلهي!

غريغوريوس الكبير

ثالثاً: أفضلية حياة التأمل:

يرى القديس أوغسطينوس مع كافة القديسين بلا استثناء، رفعة خاصة في حياة التأمل إذ أنها هي الحياة التي بها نبتدئ هنا لنكملها في الأبدية؛ أي أنها عربون الحياة الأبدية، ومذاقة

الملكوت الذي سوف نحيا فيه إلى الأبد، بينما يرى حياة العمل والخدمة موقوتة بحياة هذا الدهر الفاني، وأنها حتماً تنتهي بانتهاء العالم الحاضر.

ويعتقد القديس أوغسطينوس، بلا أدنى تردد، أن حياة التأمل تفوق حياة العمل. ولاعتقاده هذا أهمية كبرى في الكنيسة إذ أنه من الأشخاص القليلين الذين مارسوا الحياتين أي حياة العمل بالوعظ والخدمة والتبشير والتدريس - وهو كاهن -، وحياة التأمل في هدوء وانفراد. وبنى نظريته هذه - التي يتفق فيها جميع القديسين بلا استثناء - على ما اختبره في الحياتين سواء من جهة تحصيله الروحي لذاته أو من جهة التأثير المباشر وغير المباشر على الشعب. وهذا حق وقد أثبتته الأيام بمنتهى الوضوح. فحياة أوغسطينوس التي عاشها في تأمل وخلوة مع الله لم تنته بموت أوغسطينوس بل ظلت تعمل في ملايين النفوس في كل الأجيال ستة عشر جيلاً؛ وكانت سبباً لتجديد وخلاص البشر من كل لسان وأمّة!! أما حياة أوغسطينوس العملية فقد ماتت يوم مات هو. ولكن الأمر المسلَّم به هو أن حياة أوغسطينوس التأملية مع الله ومذكراته القليلة التي كان يكتبها مخاطباً بها الله معترفاً بأخطائه وشروره، التي لم يكن يتوقع قط أن أحداً من الناس سوف يقرأها، هي هي التي ظلت وستظل إلى الأبد ترسم طريق التوبة للخطاة وتفتح أمامهم باب الملكوت رحباً.

أو ماذا عمل بولا القديس السائح أو القديس أنطونيوس أو أبو مقاره الكبير؟ لا بد أنهم عملوا أشياء كثيرة، ولكن ما عملوه لمنفعة الآخرين جسدياً قد انتهى بانتهاء حياتهم الجسدية؛ أما حياتهم الروحية وتأملاتهم مع الله، فظلت وستظل نوراً للكنيسة إلى انقضاء الدهر! إن مجرد ذكر اسم أنبا بولا لكفيل أن يعطي عظة صامتة لاحتقار عظمة العالم وفخفخته الزائلة!! إن سر فاعلية هؤلاء القديسين جميعاً، سواء كان أثناء حياتهم أو بعد انتقالهم، لم يكن بسبب أعمالهم بقدر ما كان بسبب اتصالهم الشخصي بالله!

وإن طلبتنا التي نقدمها إلى الله في هذه الأيام أن يرسل لنا عينات من أنبا بولا وأنبا أنطونيوس وأنبا مكاريوس والقديس أوغسطينوس، لا لكي يقودوا الكنيسة؛ كلا! فهؤلاء لم يقودوا الكنيسة، ولكن ليقودوا أنفسهم، لأن اتصال إنسان واحد بالله اتصالاً صحيحاً كفيل بإنارة الكنيسة كلها بل والعالم!

٣٨٨ - مرثا اختارت نصيباً حسناً، ولكن مريم اختارت النصيب الأحسن! ما اختارته مرثا انتهى وزال.

وماذا اختارت؟ خدمة الجائع والعطشان والذي لا مأوى له. هذه كلها سوف تنتهي عندما يأتي الزمان الذي لن يكون فيه جائع أو عطشان. وحينئذ يُنزع مثل هذا النصيب الزائل ويتوقف كل نشاط من هذا النوع. مريم اختارت النصيب الأصلح الذي لن يُنزَع منها. وماذا اختارت مريم؟ اختارت حياة التأمل.

نصيب مرثا مقدس وعظيم؛ غير أن نصيب مريم أقدس وأعظم. فبينما تضطرب أختها وتخدم وتعتني بأشياء كثيرة، جلست هي بلا عمل ساكتة تسمع! نصيب مريم لن يُنزَع منها؛ أما نصيب مرثا فسوف يُنزَع منها. فخدمة المحتاجين والقديسين سوف تنتهي، أو لمن سوف يُعطَى طعام وليس هناك من جائع؟

نصيب مريم ثابت لن يزول لأن مسرتها كانت في الحق والبر وسيظل الحق والبر إلى الأبد موضوع مسرة الجميع.

ما اختارته مريم هو دائم النمو، لأن القلب الطاهر البار إذا كانت مسرته وسعادته هي الآن في الحق والحكمة والله، فهناك سوف تكون سعادته من ذات النوع ولكن في وفرة وكثرة. لأن حلاوة الحق الأبدي أبدية أيضاً ولن تُنزَع هناك، بل تزيد هنا لتكمل هناك إلى الأبد!

إن في سلوك هاتين المرأتين إعلاناً عن حياتين فيهما مسرة القدير ولكن:
الأولى حياة الحاضر؛ والثانية حياة المستقبل،
الأولى حياة انشغال؛ والثانية حياة هدوء،
الأولى حياة الكد؛ والثانية حياة السعادة،
الأولى حياة زائلة؛ والثانية حياة دائمة.

كلتا الحياتين ممدوحتان، ولكن الأولى بالتعب والجهاد والأخرى بالفَرْغة والهدوء. إن عمل مرثا هو صورة من صور الجهاد الذي نحيا فيه؛ ولكن عمل مريم هو أملنا السعيد الذي نحيا لأجله. فبالقدر الذي نهدأ به ونترك كثرة انشغالنا واهتمامنا لنرتفع إلى حياة التأمل نشابه مريم، مريم هي رمز الحياة التأملية المطلقة ولو أنها هي ذاتها لم تبلغ إلى كل حدودها!

أوغسطينوس

٣٨٩ - إن السيد المسيح سوف يقود المؤمنين إلى تأمل الله، وذلك يكون لهم نهاية لكل أعمال الخير التي قاموا بها، يستريحون في سرور إلى الأبد، في راحة لن تُنزَع منهم. مريم سبقت فذاقت مثل هذا الأمر حينما جلست عند قدمي السيد، ملقيةً بعيداً عنها كل عمل أو انشغال، وانعكفت تصغي إلى الحق ما استطاعت حسب ما أوتيت من حكمة في هذا الدهر. وهي بهذا استطاعت أن تختلس، إلى حد ما، صورة ما ستكون عليه في الحياة الأبدية.

كل ذلك ومرثا منهمكة في أمور رأت أن إعدادها هام ولائق، ولكنها لم تدرك أن جميعها مقضيٌّ عليه بالزوال عندما يحين الزمن... **ولما تذمرت على أختها راجعها السيد، لا لأن ما تعمله مرثا غير لائق، ولكن لأن تذمرها في غير وجه حق،** إذ أن ما عملته مريم كان أليق وأفضل مما تعمله هي. لأن الذي اختار أن يخدم حاجات وأعواز هذا العالم سوف تنتهي خدمته عندما تبطل الحاجة، **وعندئذ يكون جزاؤه نصيب مريم الذي اختارته هي منذ البدء.**

لأن التأمل في الله هو الكل في الكل، ولن يكون نصيب لإنسان أعظم من هذا، إذ فيه كل استنارة وفرح وسعادة.

أوغسطينوس

وللقديس أوغسطينوس شرح مسهب في هذا المعنى رأينا لضيق المقام أن نكتفي بتلخيصه لئلا يطول بنا الحديث:

فهو يرى أن العمل الذي نقوم به لتأدية واجبات زمنية يختلف عن تأمل الأمور الروحية الذي يمتد بنا إلى الأبدية.

والحياة العملية تمُتُّ إلى المعرفة العقلية المحدودة، وأما التأمل فيختص بالحكمة الثابتة، والعمل سينتهي لأنه مقصور على نظام العالم الطبيعي ومرتبط بأشياء زائلة في مجموعها. ويتبسط القديس أوغسطينوس فيلخص الحياة العملية بأنها نشاط جسمي وعقلي محدود للإعراض عن الشر واجتهاد لتحصيل الخير، ولا يخرج هذا النشاط الخيِّر عن كونه ممارسة للفضائل الأخلاقية وعمل الرحمة سواء بخدمة الأمور الروحية أو خدمة الأمور الجسدية للآخرين. في حين أن التأمل أو الحكمة يختص بإدراك الأمور الأبدية إدراكاً ذهنياً مطلقاً بمعناها الحقيقي الثابت الذي سوف نصير إليه، وبمحبة الله حباً ثابتاً يتصف بالعشق، لشدة حرارته وانفراد الله وحده بتملُّك كل حدود الفكر وكل نشاط الجسد والنفس. ولذلك صارت الحياة التأملية أعلى مرتبة وأفضل قيمة من الحياة العملية. إذ أنها تشمل جميع أوجه النشاط المبذول في الحياة العملية مضافاً إليها الانطلاق بهذا المجهود إلى دائرة أوسع، أي إلى الحياة الأبدية، وإلى هدف أعظم وأبقى، أي الله الأبدي. وفي هذا المعنى يقول:

«ومن ذا الذي لا يرى أفضلية صرف الجهود في إدراك ومعرفة الحياة الأبدية والله على صرفها في تأدية أمور محكوم عليها بالزوال؟»

وله أيضاً قطعة تعليمية عن الحياة التأملية وأفضليتها على الحياة العملية في شرح الأصحاح الأول من سفر التكوين:

٣٩٠ - إن النفوس المتعطشة إليك التي تقف لتتراءى أمامك، أنت ترويها من نبعك العذب، فتثمر في الأرض أثمارها، إذ تأمر أنت أيها الرب الإله فتُخرج نفوسنا براعمها التي هي أعمال الرحمة بأنواعها المتعددة. ثم تنظر إلى هذه الثمار التي أثمرت لنا في الأرض وتراها حسنة، فتبتدئ تقود نفوسنا من هذا الإثمار الخطيط البسيط إلى ثمرات التأمل العليا التي تظهر كأشعة منبعثة من الحياة الأبدية على عالمنا هذا.

أوغسطينوس

ومن تعبير أوغسطينوس المجازي البديع، أنه يرى في تعاقب الليل والنهار في رواية التكوين إشارة خفية إلى نوعي الحياة، أي المنهمكين بأعمال العالم والمهتمين بأعمال الروح، فالشمس هي النور الأعظم الذي يحكم النهار وهي تشير إلى الحكمة التي تنير لأبناء النور وأبناء النهار، والقمر هو النور الأصغر الذي يحكم الليل، وهو يشير إلى نور المعرفة العقلية الضئيل المنعكس من نور الحكمة الأعظم والذي ينير على أبناء الليل السائرين في ظلمة هذا العالم.

٣٩١ - إن تأمل الحق، أي ذهاب العقل إلى عتبة بيت الله وجهاده لإدراك الأمور الحية والعظمى هناك، هو أعظم عمل يستطيع أن يقوم به إنسان، إذ ليس بعد هذا شيء أكمل أو أفضل.

أوغسطينوس

وعلى نفس النمط وبنفس الغيرة والحماس لتزكية الحياة التأملية يتحدث إلينا غريغوريوس الكبير:

٣٩٢ - ولو أن الحياة العملية حسنة، إلا أن الحياة التأملية أحسن.

٣٩٣ - وإن كانت الحياة التأملية تأتي بعد حياة جهاد وخدمة، إنما في الاستحقاق هي أعلى وأعظم. فإن كان نصيب مرثا لم يُنتقَد؛ إلا أن نصيب مريم مُدِح، لأنه إن كانت استحقاقات العمل والخدمة مجيدة؛ إلا أن استحقاق التأمل في الله أمجد.

غريغوريوس الكبير

٣٩٤ - مريم ومرثا تمثلاً هاتين الحياتين، واحدة مرتبكة في خدمات كثيرة والأخرى جالسة عند قدمي السيد تستمع لحديثه الإلهي. وحينما ابتدأت الأولى تشتكي أختها لأنها تركتها وحدها وأهملتها، أجابها الرب قائلاً: «مرثا مرثا أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزَع منها» (لو ١٠: ٤١ و ٤٢).

أنظر معي وافهم، فإن السيد لم يذمّ نصيب مرثا من جهة العمل والخدمة، وإنما مدح نصيب مريم مع أنها لم تعمل ولم تخدم. لم يقل إن مريم اختارت نصيباً مساوياً لها، ولكن قال إنها اختارت نصيباً أصلح (نص الترجمة اليونانية) حتى يمكن أن يُقال أيضاً إن نصيب مرثا كان حسناً.

وذلك لأن الحياة العملية سوف تتوقف وتنتهي مع الجسد، لأنه هل يمكن أن يُعطَى خبزٌ لجائع في الحياة الأبدية؟ أو هل هناك ميت ليُدفَن أو جاهل ليتعلم أو مريض ليُعتنى به؟ ... إن الحياة العاملة ستنتهي بانتهاء هذا العالم؛ أما الحياة التأملية فهي تبتدئ هنا لتكمل هناك إلى الأبد. ونار الحب التي نشعلها هنا سوف تشتعل وتضطرم أكثر حينما نتلاقى مع المحبوب هناك. لذلك فإن حياة التأمل سوف تبقى معنا ولن تُنزَع منا. وحينما ينطفئ سراج هذا العالم الحاضر حينئذ تكمل هناك.

غريغوريوس الكبير

٣٩٥ - القديسون حينما يحلّقون عالياً في تأمل الأمور العليا ... يعودون إلى أحبائهم ويعلنون لهم محاسن السماء التي استطاعوا أن يلمسوا جمالها وجلالها ... وحينما يتحدثون تنفذ كلماتهم في قلوب سامعيهم فتشعلها ناراً.

غريغوريوس الكبير

- «لم أكن معانداً للرؤيا السماوية، ولكني ابتدأت أبشر بالتوبة والرجوع إلى الله» (أع ٢٦: ١٩ و٢٠).

بولس الرسول

وللقديس مار إسحق رأي قاطع في الموضوع، فهو يفضّل الحياة التأملية، بشرط ألا يكون فيها اهتمام أو اضطراب من أجل خدمة أو رحمة مهما كانت. وهو لا يمانع أن السالك في طريق التأمل والوحدة يعطي كلمة وعظ لمحتاج أو يمد الضعفاء بصلاة، ولكنه لا يوافق قط أن يخرج من خلوته ليعمل ويخدم بين الناس. ولرأي القديس مار إسحق أهمية خاصة، إذ أنه قُدِّم لتدبير عمل الأسقفية على مدينة نينوى العظمى، ولأنه وجد أن القيام بأعمال الخدمة سيعوقه عن الإستمرار في سلوك الحياة التأملية، قطع في الموضوع رأياً واحداً عجيباً وهو أنه ترك الأسقفية وذهب إلى المغارة ليكمل الحياة التي وجدها أفضل وأبقى. وهو بذلك يعطينا درساً عملياً يكاد يكون فريداً من نوعه، فهو قد فضّل بالفعل حياة التأمل على حياة العمل والخدمة، ولم يكن تفضيله حياة التأمل هروباً من حياة العمل والخدمة. والدليل على ذلك أنه لم يمانع في الخدمة والعمل الذي يليق بطقسه، فصار فيما بعد أباً ومرشداً لجميع طبقات الرهبان، وكتب أربعة كتب في الإرشاد الروحاني هي في غاية البلاغة والفلسفة الروحانية، وصارت اختباراته

التي وصل إليها في الحياة التأملية نوراً وهداية لكل من طرق باب الحياة الروحانية من درجة العلماني المبتدئ إلى درجة المتوحد.

٣٩٦ - إن كنتَ علمانياً ينبغي أن تُدبَّر بالسيرة الحسنة التي للعلمانيين؛ وإن كنتَ راهباً تُدبَّر بالأعمال الفاضلة التي للمتوحدين؛ وإن كنتَ تريد أن تسير في التدبيرين معاً، أي تدبير أهل العالم وتدبير الرهبان، فإنك تسقط وتخيب من الاثنين. لأن عمل الرهبان هو هذا: الانعتاق من كل المحسوسات والأمور العالمية والوجود مع الله بهذيذ القلب وتعب الجسد بالصلاة. فهل يمكن أن تقرن مع هذا حياة العالم وانشغالاته؟ إنه يستحيل طبعاً. وكذلك يستحيل على الراهب أن يحيا حياة الفضيلة ويكون له اتصال بالعالم، أي يكمّل التدبيرين معاً: الداخل (الهذيذ بالقلب والوجود مع الله) والخارج (أي الاهتمام بأمور الآخرين).

ونحن نجد أن الذين يخدمون الملوك هم ذوو مكانة جليلة لوقوفهم أمام الملك في كل حين أكثر من الذين ينفذون أوامر الملك في الخارج. وهكذا أيضاً في الأمور الإلهية نرى أن الذين يتأملون في الله بالصلاة في كل وقت لهم دالة قد اقتنوها من دوام الهذيذ به، وقد سلطهم على ثروته السمائية والأرضية، وأعطاهم سلطاناً على كل الخليقة حتى أن الكل يخضع لهم بغير مقاومة وبكل وقار وكرامة. هؤلاء أفضل من الذين يخدمونه بعمل البر نحو إخوتهم الذين هم عبيد مثلهم؛ وإن كان هذا حسناً جداً لكنه أنقص من درجة الذين يعيشون لله في خدمته المباشرة بالصلاة والهذيذ والتأمل. فإذا خُيِّرنا فلا نختار الدرجة الأنقص، بل لنأخذ درجة النشطاء الحاذقين أصحاب سيرة الهدوء والصلاة الذين رفضوا الأرضيات، وصاروا جنداً للملك السمائي وهم بعد على الأرض. تركوا الأرضيات ورفضوها دفعةً واحدة ورفعوا أيديهم نحو السماء.

القديس يوحنا التبايسي، كنز الفضائل وصاحب النبوة، ألعله بالأمور الجسدية كان يساعد إخوته أو الذين يأتون إليه؟ ألم يكن بالصلاة التي كان يصليها من أجل الذين يسألونه؟

أنا أعرف أن الذين يخدمون احتياجات الآخرين هم فضلاء حقاً، لكنهم ليسوا مثل الذين يعيشون بالصلاة وللصلاة، رافضين كل شيء من أجل حب الله، بل هم أقل وأنقص منهم جداً.

أما المنفعة التي تكون للناس من الذين يسيرون في حياة الخلود والتأمل فهي أن يعضدوهم بكلام وعظ نافع، أو يصلُّوا عنهم وقت الضرورة. أما خارجاً عن هذين الأمرين فلا ينبغي لهم أن يتركوا في قلبهم ذِكْراً أو اهتماماً لأيٍّ من الأمور الجسدية، لأن هذا ليس من عمل الحكمة التي يسعون وراءها.

مار إسحق السرياني

٣٩٧ - في بداية الرهبنة المسيحية بين رهبان مصر كانت فكرة الحياة التأملية في أوج نضوجها، واندفع الآباء في هذه الحياة بلا حدود، حتى أنهم رأوا أن في اتخاذهم نظام الشركة الباخومية تعويقاً لانطلاقهم في

حياة التأمل؛ فعاشوا فرادي في قلالي منفردة غالباً في شبه حياة توحد. ولكن لما تجمعوا بعد ذلك في مجامع - داخل الأسوار - ابتدأوا يفقدون عظمة التأمل، لأنه معروف أن أي أمر يدفع الراهب إلى الخروج من خلوته للقيام بأي عمل جسدي - وعلى الخصوص مع آخرين - فإنه يشتت تركيزه العقلي ويضعف من حدة انطلاق الرؤيا التي يمارسها.

يوحنا كاسيان

باب التأمل مفتوح للجميع:

٣٩٨ - الآن أجرؤ أن أؤكد أننا إذا تمسكنا بالطريق الذي رسمه لنا الله في عزم وثبات، والذي تعهدنا أن نسير فيه، فنحن حتماً سوف نسير بقوة الله وحكمته حتى ندرك أصل كل الكائنات والعلة الأولى لكل المخلوقات.

أوغسطينوس

٣٩٩ - إذا كنا في حياتنا أمناء مخلصين، نكون قد وصلنا إلى طريق الإيمان. ونحن إذا لم نتخلَّ عن أمانتنا نحو الله فنحن بلا شك سوف نصل إلى معرفة الأمور غير الجسدية الدائمة غير المتغيرة التي لا يدركها أحد في هذه الحياة بالمرة، بل نحن نصل أيضاً إلى أعلى درجات التأمل التي يدعوها الرسول: «وجهاً لوجه»، لأنه حتى الأصاغر الضعفاء إذا داوموا على السير في طريق الإيمان فإنهم يبلغون إلى ملء نعمة التأمل؛ بينما الذين عندهم كل علم وعرفان في الأمور الإلهية اللاجسدية غير المتغيرة وغير المنظورة، حينما يرفضون السير في طريق الإيمان المؤدي إلى موطن السعادة الحقة لأنه يظهر لهم كخرافة - أي الإيمان بيسوع المسيح مصلوباً - فإن هؤلاء بالرغم من علمهم ومعرفتهم، يستحيل عليهم أن يدركوا هذه السعادة الأبدية المقدسة، مع أن عقولهم تكون قد تلامست عن قرب بالإشعاع الصادر من هناك.

أوغسطينوس

٤٠٠ - يسعد هؤلاء النساك بحديثهم مع الله إذ يلازمونه بعقول طاهرة، وتشملهم الغبطة والسعادة في تأمل حُسن جماله الذي لا تدركه إلا عقول الأطهار.

أوغسطينوس

(في كلامه عن النساك الذين في برية القديس مكاريوس بمصر)

٤٠١ - ليس صحيحاً أن نعمة التأمل تُمنَح فقط لذوي التدبير العالي ولا تُعطَى للمبتدئين، بل إنما هي تُمنَح للعالين وأيضاً للمبتدئين بل ولأقل مبتدئ، كما أنها تُمنَح للراهب البسيط، وأحياناً ينال المتزوجون أيضاً هذه النعمة.

فأي إنسان يحتفظ بقلبه داخله، يستنير بنور التأمل. ولا يتعظم أحد إذا نال هذه النعمة ظاناً أنها انتهت إليه وحده.

ليس عظماء الكنيسة أو مشاهيرها هم وحدهم الذين نالوا موهبة التأمل، بل كثيرون نالوها وصعدوا إلى قمتها، ولا زالوا يحتلون درجات متواضعة في الكنيسة. بل إن الله القدير يسكب من نعمة التأمل في قلوب أولاده الذين يتراءون للناس كأنهم أدنياء ومزدرى بهم، وهم قد أسلموا ذواتهم سراً للحكمة الإلهية، يسعون وراءها بغير شبع وقد ثبَّتوا عقولهم في مسرات الحياة الأبدية.

غريغوريوس الكبير

٤٠٢ - يجب أن نعرف أن تركيب كل نفس يختلف عن غيرها اختلافاً غير محدود. فيوجد أشخاص لا استقرار لهم، إذا سكتوا عن الحركة والعمل، يعملون تواً في الباطل، ويكونون معرَّضين دائماً لشغب الفكر وطياشته في الشر كلما وجدوا فسحة أو فرصة للتفكير بلا عمل.

وأيضاً ذوو العقول الهادئة المستقرة تضرهم الأعمال الزائدة، إذ يمتنع عليهم في أثنائها أن يتسع أو ينبسط مدى تأملهم. وهكذا ذوو العقول العجولة غير المستقرة يضرُّهم الهدوء، إذ في أثنائه يمتنع عليهم أن يحصروا أو يضبطوا تفكيرهم. كذلك الذين يشتغلون بالتأمل في الله من محبي الخلوة والهدوء لا يستطيعون أن يستمروا في هدوئهم وتأملهم حينما يتحملون عبء المشغوليات.

وأيضاً أولئك الذين عاشوا بارتياح منتفعين من انشغالهم في خدمة بني جنسهم يذبلون ويضعفون إذا ركنوا إلى الهدوء والسكينة.

ولكن من المحزن أن بعض ذوي النفوس التي لا استقرار لها بينما ينظرون إلى التأمل كشيء صعب المنال وخارج عن دائرة استطاعتهم، تجدهم يبذِّرون في وقتهم وتفكيرهم في مسايرة المذاهب والنظريات الخاطئة. وبينما لا يجدون وقتاً أو عقلاً يتتلمذون به للحق في روح الاتضاع يجتهدون أن يصيروا أساتذة ومعلمين في توافه الأمور الزائلة.

ويجد أيضاً بعض الناس الذين لم يستطيعوا قط أن يستطلعوا شيئاً من العالم الخارجي - إلا سفسطة كلام خارج عن الدراية الحقة والاختبار - تجدهم يزجون ذواتهم في التأملات المرتفعة فيقعون في معرفة غاشة معكوسة توقعهم في ضلالة التفكير والإيمان. فإذا كنتَ يا أخي غير كفء للحياة الروحية والتأمل بدرجة مناسبة من التمييز والفطنة، فالزم حياة العمل والخدمة...

ولكن لو لم تكن الحياة التأملية لغالبية الناس لما قال السيد الرب:

- «اهدأوا (تفرغوا) واعلموا أني أنا الله» (مز ٤٦: ١٠).
- «جيد للرجل أن يحمل النير في صباه يجلس وحده ويسكت لأنه قد وضعه عليه» (مراثي إر ٣: ٢٧ و ٢٨).

غريغوريوس الكبير

٤٠٣ – ليتهم يختارون لأنفسهم النصيب الصالح!
ليتهم يكرسون ذواتهم لكلمة الله!
ليتهم يشتاقون إلى حلاوة الشريعة!
ليتهم يشتغلون بالمعرفة التي توصل إلى الخلاص.

أوغسطينوس

* * *

ملخص المبادئ الهامة في هذا الفصل:

(١) الكنيسة تؤمِّن وتشجع الحياة العملية والحياة التأملية. فالكنيسة تحترم طريق الخلوة والتأمل كإرسالية منها للأشخاص ليتعلموا دروساً في الروح يستحيل عليهم أن يتعلموها أثناء العمل والخدمة، ثم تطالبهم الكنيسة بهذه التعاليم التي وصلوا إليها لكي تكون معيناً ومرشداً للعمل والخدمة برسائلهم.

(٢) لا يصح أن يزدري من يخدم بمن يحيا حياة الخلوة والتأمل. كذلك لا يصح أن يزدري من يسير في طريق الحياة التأملية بمن يعمل ويخدم في الكنيسة.

(٣) لا يصح أن يستمر **الخادم** في خدمته دون أن تكون له فترات محدودة مناسبة يمارس فيها الصلاة الطويلة والتأمل بدرجاته، لأنه مُطالَبٌ أن يعلِّم ويرشد النفوس إلى الأمور الروحية والحكمة والحق والله.

(٤) لا يصح أيضاً **للمشتغلين بالتأمل** أن يهملوا الكنيسة والخدمة فلا يذكروا احتياجات الآخرين. بل عليهم بقدر ما تسمح به ظروفهم واستعداداتهم أن يوصِّلوا للكنيسة ثمار حياتهم الروحية، إن كان بشرح كلمة الكتاب أو بالوعظ أو الإرشاد بالرسائل.

(٥) لا بد **لكل شخص** من أن يكون له نصيب في الحياتين أي حياة العمل والخدمة وحياة التأمل.

(٦) **الخدمة الناجحة** قوامها السلوك في الحياتين بلا تحيز، فالخدمة تكون بقدر النعمة والحكمة المأخوذة من الصلاة والتأمل؛ وإلا فتكون خدمة عقلية ليست لها الفاعلية الروحية على التوبة والتجديد والولادة. والمسيح كان يقضي الليل كله في الصلاة، ثم يقضي بعض

النهار في الخدمة والتعليم. فلا يصح أن نلقي بذواتنا في مشاغل الخدمة إلى الدرجة التي ننسى فيها ذواتنا كليةً؛ فالخدام والمرشدون مسئولون عن نفوسهم قبل نفوس من يخدمونهم. والمثل الذي قاله السيد عن الأعمى الذي يقود أعمى ينصبُّ كليةً على حال الخادم الذي لم يتلقَّ بعد نور الحكمة والمعرفة الروحية وتفسير الكلمة بقوة النعمة لا العقل، ويعتقد أنه يستطيع أن يرشد النفوس ويعرِّفها الحق الذي يجهله هو.

(٧) ليست مسرة الكنيسة أن يكون فيها أعضاء عاملون ذوو خدمات كثيرة بلا فاعلية روحية على تجديد النفوس وولادتها ولادة حقيقية في الروح لنوال ملكوت السموات. بل مسرتها في **القادة ذوي البصيرة الروحية** الذين يسيرون والخراف تتبعهم. ولا تستطيع أن تحصل على البصيرة الروحية بالعمل أو الدراسة؛ ولكن بالهدوء والخلوة والصلاة الطويلة بدرجاتها المختلفة.

(٨) كل من أجبرته ظروف الخدمة على صرف أوقات كثيرة خارجاً عن خلوته، عليه أن يمارس الصلاة الداخلية ورفع القلب والعقل إلى الله والشعور بوجود الله ومحاسبة الضمير أثناء العمل، وبذلك يمارس نوعاً من التأمل البسيط وهو في عمله.

(٩) **الأساقفة** الذين وثقت بهم الكنيسة كمدبرين ومرشدين للرعية عليهم أن يمارسوا الحياتين معاً: أي حياة مشاركة الشعب في ضيقاتهم ومشاكلهم العملية واحتياجاتهم المادية، وحياة الخلوة والتأمل واستلهام روح المعرفة والحكمة، فالأساقفة الذين ينهمكون في الأمور المادية والعملية فحسب؛ هؤلاء يذبلون روحياً وتصير أعمالهم بلا حكمة وكلماتهم يضعف منها الروح وتصير بلا قوة أو منفعة، حتى أن الرعية تنصرف من حولهم إذ تشعر بجفاف المرعى الذي اقتيدت إليه. كذلك الأساقفة الذين يتركون أمور الرعية المادية والعملية ليتفرغوا للخلوة والصلاة والتأمل فقط؛ تكون النتيجة أن الرعية لا تستطيع أن تسايرهم فتتعقد مشاكلهم، ولا يستطيعون أن ينظروا إليهم كمُثُل عليا، لأن الشعب يحتاج إلى من ينزل إليه ليساعده مادياً فيرفعه معه روحياً.

كذلك عليهم، كمدبرين، أن لا يقطعوا في الأمور قطعاً إلا بعد استلهام روح الحق في قلوبهم، أو بعد صلاة وتأمل حتى تكون أحكامهم صادرة عن الله.

(١٠) الراعي الصالح مُطالَبٌ بأن يكون شاهداً أميناً لأسرار الروح وحاملاً صورة الملكوت في عمله وفي فمه، أي أن يكون صورة ناطقة لما يعلِّم به الكتاب. فأول واجب عليه، بل وأهم عمل له، هو أن يختلي ويصلي ويتدرب على التأمل لينال موهبة المعرفة الروحانية والإفراز، ليدبر بها أمور الرعية الجسدية والروحية. والخلوة للكاهن هي بمثابة قدس الأقداس، والصلاة والتأمل هي الأوريم والتميم الذي من ورائه يكلم الله ويسأل حلاً لمشاكل الرعية التي تستعصي عليه. والكنيسة الرشيدة تعلِّم الكاهن هذا الدرس يومَ ينال نعمة الكهنوت، فتضع عليه أن يختلي أربعين يوماً لا يخالط فيها بيته ولا شعبه بل يقضيها في صلاة وخلوة. ليحل عليه نور الحكمة والمعرفة التي سيدبر بها شئون رعيته.

موقفنا من الحياتين:

ولكي يكون موقفنا صحيحاً منتجاً تجاه الحياتين أي حياة العمل والخدمة وحياة الصلاة والتأمل، يجب أن نضع أمام عيوننا هذا المبدأ:

«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم» (مت ٦: ٣٣). فيوم أن نضع أمام عيوننا هذا المبدأ الإلهي لن نخطئ قط في حياة الخدمة، لأن أيَّة علاقة ننشئُها مع إنسان، أو صلاة نقدمها أمام الله، إذا لم يكن ملكوت الله هو هدفنا الذي نسعى إليه وهو موضوع انشغال ذهننا وأملنا وسعادتنا التي نرنو إليها، فلن نخدم خدمة صحيحة قوية بحب وإيمان. فأي انحراف أو ملل أو إهمال أو أي انشغال زائد في الخدمة أو انهماك كثير فيها سيُشعرنا في الحال بأنه يعوقنا عن المسير في طريقنا الرئيسي نحو ملكوت السموات. وأيُّ كسب مادي أو صيت أو شهرة أو مجد نشتهيه أو نسعى إليه خفياً، سنشعر في الحال أن ذلك سيوقفنا تماماً عن السير إلى الملكوت. وهكذا إذا كان ملكوت السموات هو طلبتنا الأولى وهدفنا المفضَّل، فسيصير كالسوط يلهب ظهورنا للسير بلا تعويق في طريق الحياة العملية والخدمة.

بهذا نرى أننا إذا تمسكنا في صلواتنا بملكوت السموات وطلبناه حسب وصية الرب أول كل شيء، وقوام كل شيء ونهاية كل شيء، وطلبناه من كل عقولنا وكل قلوبنا وكل قوتنا، وطبَّقنا قولنا وطلبتنا بسعي عملي واضح نحو هذا الملكوت المعدِّ لنا والقريب منا، والذي هو بالحق فينا، فنحن سوف نسير في الحياة العملية أو الحياة التأملية سيراً صحيحاً مثمراً نحو الله.

ولكن كيف نكوِّن شعوراً دائماً لطلب الملكوت وتكون فينا رغبة مستمرة لا تهدأ

لطلب الله؟ لقد اتفق الآباء عموماً على أن **ذلك لا يأتي إلا بالحب** الذي هو جاذبية جارفة تجرف كل الشعور والإحساس والتفكير والأعمال والنفس بأكملها لتتصل بالله وتتحد به.

وما السبيل إلى مثل ذلك الحب الجارف؟ قد اتفق الآباء عموماً أن ذلك **لا يأتي إلا بدوام الصلاة**. ليست الصلاة التي نقدمها بين الحين والآخر، أو التي نقدمها بالسؤال والطلبة، بل بتلك التي يدعونها حياة الصلاة. فالصلاة التي توصل إلى الحب هي صلاة دائمة أو هي دوام الصلاة التي يقول عنها مار إسحق: «إذا لم يداوم الإنسان على الصلاة والحديث مع الله لا يستطيع أن يحس بالحب».

وما هو الطريق العملي إلى حياة الصلاة؟

هذا ما سنقدمه لك في الباب القادم:

الباب الثاني

نواحي النشاط الداخلي للصلاة

+ «الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر» (عب ٥: ١٤)

+ «في تعب وكدّ، في أسهار مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة، في برد وعُرْي» (٢كو ١١: ٢٧)

قدمنا في الباب الأول بفصوله الخمسة كل ما يختص بالصلاة في ذاتها، وفي هذا الباب نقدم كل ما يختص بالمصلي في ذاته؛ من حيث العوامل التي تؤدي إلى نجاح الصلاة والعوامل التي تؤدي إلى التعويق عن الصلاة. وإن كنا سنعرض شيئاً من ممارسة أنواع من الفضائل، أي النسك، فنحن لن نخوض في هذا المضمار إلا بالقدر الذي يتصل بالصلاة اتصالاً وثيقاً لا غِنى عنه، كنوع من النشاط الداخلي الذي يكون للصلاة بمثابة جمر النار للبخور.

وأنواع الإماتة المختلفة، أي النسك كالصوم والسهر والصمت واليقظة الدائمة بالصلاة، كل هذه من ألزم ما يكون لحياة الصلاة، لأنها تُميت شهوة الحياة الآدمية وإرادة الخطيئة الكائنة في أعضائنا. وقد سبق أن أخذنا حق هذا الموت الطبيعي عن حياة العالم في المعمودية، لأننا بالمعمودية نموت عن آدميتنا لنأخذ مسيحيتنا، وذلك كهبة مجانية من هبات الفداء والموت الذي جازه المسيح عنا.

فإذا كنا نمارس حياة النسك والتقشف، فما ذلك إلا امتداداً للموت عن العالم الذي ابتدأناه في المعمودية.

وعلى قدر ما لهذه الإماتة أو النسك من أهمية عظمى، فهي لا تخلو من خطورة ليست بقليلة. لذلك رأينا أن نقدم بعض الإرشادات في مقدمة هذا الباب بخصوص ممارسة النسك حتى لا ينحرف بنا فنضل الطريق:

(١) لا ننظر إلى وسائل التقشف أو أنواع النسك كهدف أو غاية نفرح ونُسرُّ بتتميمها، فتلهينا عن متابعة السير نحو الله للإتصال به بالحب الكامل.

(٢) أنواع النسك لا تخرج عن كونها وسائل نُميتُ بها الإنسان العتيق ونصلب بها إرادتنا مع أهوائنا وشهواتنا التي تعمل فينا للخطية، ونُظهر بها عواطفنا وحبنا لله.

(٣) الإستمرار في ممارسة أنواع النسك المختلفة، بعد تجديدنا وامتلائنا من النعمة، يكون لمنعْ تحرُّك الشهوة نحو العالم ولضبط الإرادة من الميل نحو الخطية.

(٤) يجب أن لا يكون هذا النسك سبباً لغرورنا عندما نتقدم فيه، فينمي فينا روح البر الذاتي الذي من شأنه أن يمنع أي نمو أو تقدم في الحياة الروحية.

(٥) لا تستطيع أقسى أنواع النسك أن تغفر لنا خطية واحدة أو تكفِّر عن ذنب بسيط اقترفناه، إذا كانت خالية من الحب نحو الله، وتوسُّط النعمة المجانية التي أخذناها بدم المسيح.

(٦) يجب أن لا ننحرف بهذا النسك ونقسو على أجسادنا إلى الدرجة التي فيها نُعاق عن تأدية واجبات الحياة بنشاط.

(٧) يجب أن يكون تركيزنا كله داخلياً موجَّهاً إلى الإرادة التي تسوقنا إلى الشهوة والخطيئة. فإرادتنا المنحرفة تطلب ما لنفسها، وأهدافها كلها، تنتهي عند ذاتها. هذا هو عدونا الذي يجب أن نصارعه بأصوامنا وأسهارنا ويقظتنا حتى يموت تماماً، وحينئذ نأخذ الإرادة الجديدة التي تعمل مشيئة الله فقط!

(٨) النسك لا يجب أن يكون أنواعاً من الضغط والكبت الجسدي الذي عندما يزول مؤثره يكون له رد فعل أقوى، فيعود الإنسان إلى حالته الأولى أكثر انحلالاً، بل يجب أن يكون باتزان وحكمة ليس عن حزن وألم بل بفرح وسرور.

وحدوده يجب أن توضع بترتيب وإرشاد أب حكيم حتى لا تنقص أو تبطل لتفوقها عن حدود استطاعة الإنسان فتنعدم الثمرة المرجوة منها، بل يجب أن تبتدئ بسيطة أقل من استطاعة الإنسان ثم تنمو وتزداد طبيعياً إلى أن تتحول إلى صفات طبيعية للشخص، وتدخل كجزء هام في أسلوب حياته.

(٩) إذا خلت التقشفات وأنواع النسك من عامل الحب والفرح بالرب، تكون سبباً للكآبة والعبوسة وثورة النفس والاعتداد بالبر الذاتي.

(١٠) كثيرون جاهدوا وحرروا أنفسهم من العالم بأنواع من النسك القاسية للغاية، ولكن لأنهم لم يسلموا ذواتهم ليد الله وعمل النعمة بمسكنة واتضاع، ضلُّوا الطريق. فإذا تحررنا من العالم يجب أن نتحرر أيضاً من أنفسنا ليتسلمها الله ويعمل بنا ما يشاء.

المفهوم الكنسي لمعنى النسك

في الأرثوذكسية

إن كلمة «النسك» وباليونانية: ἄσκησις - كما سبق وقلنا - تفيد عموماً كل نشاط إيجابي لتحرير النفس تقاوم به النشاط السلبي، أي هو التمرين على الفضائل لقطع دابر الرذائل والعادات الشريرة.

والحقيقة أن استخدام هذه الكلمة في الكنيسة قديم جداً، فأول ما نصادفها في الحياة المسيحية نصادفها في وصف العلامة فيلو اليهودي لأول جماعة مسيحية مصرية متعبدة في ظاهر الإسكندرية حول بحيرة مريوط الذين أسماهم: «نُسَّاكاً».

ولكن أول تحديد لعمل النسك في المفهوم المسيحي نجده واضحاً في محاجاة العلامة أوريجانوس مع الوثنيين، الذي فيها يشرح اختلاف مفهوم النسك وعمله بين المسيحيين عنه بين الوثنيين، إذ يقول:

[أما النسك عندنا فهو ضبط الجسد وقمعه لإماتة أعضائه التي على الأرض التي هي الزنا والنجاسة والشهوة وكل الانحرافات في الغريزة والعاطفة].

أوريجانوس

(في المحاجاة ضد كلسوس)

ويبدأ هذا الإصطلاح يأخذ صفته الكنسية في قوانين الرسل في القانون رقم ٥١:

[أيما أسقف أو قس أو شماس أو من كان من زمرة الكهنوت بالجملة أو أي فرد من الشعب، امتنع من الزيجة واللحوم والخمر، لا لقصد النسك بل لكونه يشمئز منها على أنها

دنسة مرذولة، ناسياً ما قيل بأن كافة الأشياء هي حسنة جداً (١تي ٤: ٤)... فإما أن يتقوَّم أو أن يُقطع ويُطرح من الكنيسة].

ومن هذا يتضح أن كل امتناع صحيح عن الزيجة أو عن أكل اللحم أو عن شرب الخمر كليةً برضى القلب، كتقوى أو نذر حياة أو من أجل تقويم الجسد، هو محسوب في تعاليم الكنيسة وقوانينها الرسولية أنه «نسك»، سواء كان ذلك بالنسبة للكهنة أو الرهبان أو العلمانيين على حد سواء.

ثم يأتي مفهوم كنسي أكثر اتساعاً لكلمة «نسك»، حيث يشمل الامتناع عن مجرد الأكل مدداً طويلة – كما يصف القديس إيرينيئوس المسيحيين الأوائل.

وهكذا يبتدئ يتسع معنى النسك في الكنيسة ليشمل كل ممارسة صادقة لأي وصية إنجيلية. فالصبر على الآلام والتعذيب والسجن حفظاً للإيمان، يعتبره يوسابيوس القيصري نسكاً (شهداء فلسطين: ١٠)، كما يعتبره القديس أثناسيوس الرسولي «أعظم نسك.»[٢]

والذي يداوم على الصلاة والطلبة مثل حنة النبية تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (القديس كيرلس الأورشليمي: عظة ١: ١٩).

والذي يهب ممتلكاته للفقراء ويختار حياة الفقر لنفسه تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (العلاَّمة چيروم: تاريخ الكنيسة ٧٦: ٤١).

والذي يعيش منكراً لذاته تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (القديس كيرلس الكبير الإسكندري: شرح إنجيل يوحنا: ١٣: ٣٥).

والذي يمارس الفضيلة الإنجيلية هو في الحقيقة ناسك لأنه يدرب ويضبط نفسه (القديس يوحنا ذهبي الفم: شرح أعمال الرسل ٢: ب).

والذي يتخصص في خدمة الفقراء حباً في التقوى تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (المؤرخ يوسابيوس: شهداء فلسطين: ١١).

والذي يتخصص في دراسة الكتاب المقدس واهباً حياته لهذه الدراسة يعتبره العلاَّمة ترتليان «ناسكاً».[٣]

---

(2) Syn. Scr. Sacr.
(3) De. Puecr. 14.

ولكن على الرغم من هذا المعنى المتسع لكلمة «ناسك»، فإنها يمكن بكل سهولة اقتصارها على كل مسيحي يجاهد ليحفظ وصية المسيح بإيمان وحب، أيّاً كان وأينما كان وكيفما كان!! وهذا المعنى الموضوعي المحدد نجده واضحاً في تعليم كليمندس الإسكندري إذ يعتبر أن المسيحية من حيث واقعها العملي هي «نسك»[٤]، فالعمل النسكي في عرفه هو برهان صدق الاختيار.

أما الذين أرادوا أن يتوفروا على تطبيق الحياة النسكية، أي الحياة المسيحية، توفراً دقيقاً كاملاً: فيصبح عليهم أن ينزحوا من الدنيا ويسكنوا القفار والجبال، فيعتبرهم كليمنضس أنهم هم الذين يشهدون بأنهم «مختارون أكثر من المختارين». حيث صارت لهم قوانين نسكية خاصة «قوانين القديس باسيليوس مثلاً».

أما القوانين النسكية بالنسبة للمسيحي العادي فهي وصايا الإنجيل.

وأما القوانين النسكية بالنسبة للرهبان والمتوحدين فهي ضمانات إضافية تكفل تنفيذ وصايا الإنجيل الأساسية.

(4) Strom., IV, 22.

الفصل الأول

تحرير النفس

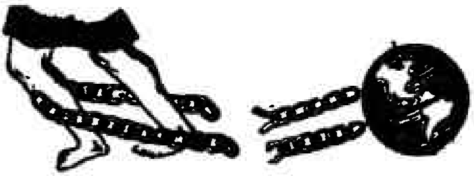

+ «وقفت على قمة العالم حينما أحسست في نفسي أنني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئًا.»

غريغوريوس الكبير

النفس البشرية بطبيعتها خفيفة نقية، سريعة الاستجابة لنداء الله، شديدة الرغبة في الوجود معه والالتصاق به، حرة في تحليقها إلى أعلى، كما أنها مُحبة لبني جنسها أي لكل نفس بشرية أخرى، منفتحة على أحاسيس الغير بدون تحفظ؛ مُحبة ومنبسطة إلى أقصى ما يمكن، قادرة بطبيعتها أن تكون مع الله والناس وحدة متكاملة من الحب والأُلفة والعمل المنسجم.

وفي النفس البشرية المنفتحة لله يكون عنصر القوة والخفة والحرية والمحبة النقية غير محدود، قابلاً للنمو والزيادة والتكامل إلى ما لا نهاية بسبب استمرار استمدادها لهذه الصفات من الله.

فما الذي يعطل خفة النفس، إذن، ويوقف حركتها ويبطل حريتها؟

الجواب على ذلك هو أهم وأخطر ما يعنينا في حياتنا الروحية، لأننا لو اكتشفنا عنصر الثقل الذي يهبط بالنفس إلى الأرض باستمرار ويوقف حركتها ويحرمها من حريتها ويعرقل امتدادها ونموها، استطعنا أن نركز اهتمامنا وجهادنا وصلواتنا ضده حتى نتحرر. أما هذا الثقل المعادي والخطر فهو «**الذات**»، الذات البشرية.

الذات البشرية يمكنها أن تريد غير ما يريد الله، فهي يمكنها أن تميل وتشتهي ضد مشيئته، وتتحرك عكس ما يأمر، ولا تستجيب لندائه وتحذيره، وترفض مشورته وتحتقر محبته وتستهين بلطفه وطول أناته! وتتسبب بالنهاية في هلاك الإنسان كله.

ولكن هل الذات البشرية شيء غير النفس البشرية؟

في الحقيقة ليست الذات إلا النفس عينها ولكن:

(١) إما أن تكون النفس خاضعة لله تماماً، فتكون هنا الذات البشرية غير مستقلة بذاتها أي ليس لها كيان مستقل عن الله، بل تكون إرادتها هي إرادته ومشيئتها هي مشيئته، وفي هذه الحالة تكون الذات البشرية مهيَّأة للوجود الدائم مع الله وبالله، أي ميتة بذاتها حية بالله.

(٢) وإما أن تكون النفس غير خاضعة لله، وذلك عندما تستقل بحريتها عن مشيئة الله وإرادته

وتعمل هواها وشهواتها، وهنا تكون الذات البشرية حية لذاتها ميتة عن الله، ويصبح لها وجود وكيان مستقل عن الله ولكنه وجود في الشر وكيان قائم على الوهم المادي، لذلك فيكون وجودها المستقل عن الله وكيانها الفردي في الخطية هما وجود وكيان زائلان، لذلك فالذات المستقلة عن الله تصبح ذاتاً هالكة.

ولكن خروج الذات عن إرادة الله يكون بغواية الشيطان بخداع شديد كخداع الحية لحواء في الفردوس: «ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.» (٢كو ١١: ٣)

ولكن هل من طريقة نُميت بها الذات البشرية عن ذاتها لتحيا بالله؟

نعم، والوسيلة الوحيدة هي الخضوع الكامل لإرادة الله!

ففي خضوع النفس لله خضوعاً كاملاً ينتهي كل استقلال للذات البشرية.

والخضوع هنا يعني استسلاماً كاملاً لإرادة الله فيما حدث وفيما يحدث وفيما سيحدث، دون قلق أو تذمر أو يأس، لا بمعنى أن يُبطل الإنسان جهاده لحل المشاكل ودفع الأضرار ومعالجة الأمراض وحسم المواقف بمشيئة روحية يقظة مستمَدَّة من الله، بل القصد من الاستسلام لإرادة الله هو الرضى بالنتائج النهائية بعد أن يبذل الإنسان قصارى جهده، على أن يتحقق الإنسان دائماً وباستمرار من أن إرادته وِفق إرادة الله ولا يعمل شيئاً بكبرياء أو حماقة أو تسرُّع أو باندفاع بمشيئته الخاصة.

وكيف يتم خضوع الذات البشرية لله حتى تتحرر النفس وتعيش في استسلام كامل لمشيئة الله؟

أولاً: حذار أن تعتمد على حكمتك أو قدرتك أو على ذراع بشر في أي عمل، لئلا ينغلق عقلك وتنطمس بصيرتك فلا تدخلك النعمة ولا ترى الطريق الإلهي وتضل عن الحق، فتقع في فخ العدو وتُستعبَد لذاتك ولمشيئات الناس.
«ويل للحكماء في أعين أنفسهم والفهماء عند ذواتهم.» (إش ٥: ٢١)

ثانياً: حذار أن تكوِّن فكرة عن نفسك أنك شيء مهم، وأنه لولاك لتوقفت الأمور وتعطلت الأعمال، فتبدو ذاتك في عينيك أنها عظيمة وكبيرة؛ ولكن اعلم أن الله يمكنه أن يعمل

بغيرك أفضل منك، ويستطيع أن يجعل الأقوياء ضعفاء والضعفاء أقوياء والحكماء جهلاء والجهلاء حكماء. فكل ما هو جيد ونافع فيك هو من الله وليس منك، وإذا لم تسلمه لله وتنسبه إليه في داخل ضميرك فإنه ينزعه عنك، وإذا افتخرت بذكائك أو صلاحك يتخلى عنه الله فيتحول إلى فساد وخسارة وضرر.

ثالثاً: إذا كرهَتْ ذاتك الخضوع لله، وتهربَتْ من الاستسلام به، وتعظمت بقدرتك، ونسبت ذكاءك وصلاحك ونجاحك لنفسك، فالله يسلمك لتأديب متواصل، تأديب تلو تأديب وضيق بعد ضيق حتى تخضع صاغراً وتستسلم، فإذا رفضتَ التأديب وكرهت احتمال الضيق يتخلى عنك الله إلى الأبد.

رابعاً: احذر، إذن، وافتح أذنك فإنه إما تعتبر نفسك لا شيء بالفعل والعمل والقول وتضمر في نيتك أن تستسلم لله بكل قوتك وحينئذ تتحرر من ذاتك بنعمة الله راضياً، وإما تُسلَّم للتأديب حتى تتحرر من ذاتك مُرغماً. فإن أحسنت، فالزم طريق الخضوع الإرادي واحسب نفسك من الآن أنك لا شيء وسر وراء النعمة إلى حيثما يشاء الروح.

خامساً: اعلم أن الخضوع لله والتسليم الكامل لمشيئته وتدبيره هو في الواقع هبة ونعمة، لذلك فهو يحتاج بجوار الصلاة والتوسل إلى ثقة الإيمان في نوال هذه الموهبة، مع لجاجة في القلب أن لا يسلمنا الله للتأديب بسبب جهالتنا ولا يتركنا لحكمتنا. وإزاء ذلك يلزمنا التصميم بعزم شديد للغاية أن نجحد أنفسنا في كل وقت وكل عمل ليس أمام الناس ولكن داخل الضمير. وطوبى للإنسان الذي يكتشف ضعف نفسه وجهالتها ويقرُّ بذلك معترفاً أمام الله حتى آخر يوم من حياته.

سادساً: إذا وقعت تحت التأديب، فاعلم أن هذا خير عظيم، لأن الله يسوق التأديب على النفس التي سهيت عن ضعفها وتعظمت بقدرتها ونجاحها حتى تدرك ضعفها، خصوصاً إذا لم يُعطِ مع الضيق منفذاً وحاصر الذات من كل جهة ومرمرها بالإهانة الداخلية أو الخارجية، بالخطيئة أو بالفضيحة حتى تكره نفسها كرهاً وتلعن ذكاءها لعناً وتجحد مشورتها جحداً، وأخيراً تستسلم له صاغرة متصاغرة منسحقة. في هذا الوقت يصبح سهلاً على الإنسان أن يبغض ذاته، بل يشتهي أن يبغضها الجميع. وهذا هو طريق

الاتضاع الحق الذي يوصل إلى الاستسلام الكامل للتدبير الإلهي، وينتهي بتحرير النفس من سطوة الذات وغشها وعنادها وكبريائها!

سابعاً: إن شئت أن تبلغ تحرير النفس من أصحِّ طريق وأبسطه، فاجلس متأدباً للنعمة كل يوم وافحص أفكارك وحركاتك ونياتك وأغراضك وأقوالك وأعمالك في نور أقوال الله، وحينئذ سوف تكتشف فساد الذات وغشها ومكرها وخداعها وكبرياءها ونجاستها، فإذا واظبت على ذلك كل يوم بانسحاق قلب تستطيع أن تعزل نفسك عن هذه الذات الكاذبة الشيطانية، ثم تقوى عليها شيئاً فشيئاً حتى تجحدها وتبغضها وتتحرر من سطوتها. وأخيراً تدرك مقدار المصيبة التي أوقعتك فيها الذات حينما كنت تطيعها وترتاح إليها وتفتخر بها وتطلب كرامتها!!

وفي اللحظة التي تتحقق فيها من عمق كيانك أنك لا شيء وأن الله هو كل شيء، تكون قد تحررت حقاً.

* * *

كذلك توجد عوامل مستترة تتدخل في حركة النفس الروحية فتعرقلها ثم توقفها وتطرحها في النهاية على الأرض:

أول هذه العوامل الجهل، الجهل بإرادة الله ومشيئته، الجهل بالطريق الضيق المؤدي إلى الحياة الأبدية، الجهل بحيل عدو الخير الذي لا يكف عن غوايتنا حتى نتعظم ونشتهي فنعصى الله، الجهل بتفاهة العالم وزوال مجد الدنيا وحقارة اللذة الحسية.

أما الجهل بإرادة الله، فعلاجه في الإنجيل وفي الصلاة المستمرة.

والجهل بالطريق الضيق، فعلاجه في الشجاعة والبدء في المسير منذ هذه اللحظة.

والجهل بحيل عدو الخير وغواياته، فعلاجه في التواضع لدى الله والسهر على النفس.

والجهل بتفاهة العالم وزوال مجد الدنيا، فعلاجه رحلة إلى المقابر.

* * *

ولكن لا يزال يوجد عامل أخير خطر يتسلل في حياة الصلاة فيضيق مجالها ويتحكم في

حركتها ويطفئ شعلتها: وهو العادات الجسدية والنفسانية وما ورثه الإنسان من أسرته من أخلاق وسلوك غير مسيحيين.

والعادات الجسدية هي مثل لذة الأكل وكثرته، والكسل وحب النوم الكثير، والتلذذ الجنسي، وهذه تولِّد التهرب من العمل والجهاد والصلاة وكراهية القراءة الروحية وبغضة التعمق الفكري في التأمل في المواضيع الروحية والتلذذ بالبلادة الفكرية، والركون إلى الأحاديث التافهة والانهماك في رؤية التليفزيون وقراءة الجرائد والمجلات والكتب التافهة، والركون إلى طياشة العقل طول النهار بلا أي هدف قيم، والسهر الكثير في التوافه والرغي.

والتحرر من هذه الرُّبُط لا يكون إلا بقطعها بسكين الحماس الروحي وتقبُّل روح الرجولة، فطريق الله يحتاج إلى رجال أبطال في الإيمان والعمل.

أما العادات النفسانية فهي إما مظاهر ضعف مثل: الكذب، والادِّعاء، والنميمة، والدينونة، والتردد، والجبن، وممالأة الآخرين، والعطف على الذات، والبكاء على الكرامة المجروحة؛ وإما تكون مظاهر تعظُّم مثل: الاعتداد بالرأي، وتصلُّب الفكر والعجرفة العقلية، وتحليل استخدام القوة، والظلم، والافتراء، وشهوة الرئاسة والتسلُّط والتعليم.

وهذه المظاهر أو تلك، هي في الواقع نتيجة مباشرة لانحراف الذات بسبب البعد عن الله وعدم الخضوع الكامل لمشيئته وتدبيره.

والتحرر من هذه الرُّبُط لا يتم إلا بتوبة صادقة منسحقة تحت يد الله.

أما الأخلاقيات غير المسيحية فهي مثل: القسوة على الخدم ومعاملتهم بتسلُّط، والسخرية من الضعفاء والمشوَّهين، واحتقار الطبقات الفقيرة، وعدم الأمانة في تأدية الواجب، والازدراء بالقوانين والرؤساء، ومعاملة المثل بالمثل، والاستهتار بحريات الآخرين وكرامتهم.

وهذه الأخلاقيات المنحطة تكشف عن الهوة التي تفصل النفس عن المسيح. وعلاجها لا يكون إلا بعودة إلى معنى الصليب.

* * *

إذا ربطنا عصفوراً بخيط فهو لن يستطيع أن يطير. وبمحاولته الطيران وهو مربوط، حتماً سينكسر جناحه ويترضض جسده، بحيث لو فككناه بعد ذلك فلن يستطيع الطيران!

كم من النفوس تستطيع الطيران نحو الله لولا ارتباطها بأشياء العالم؟ عبثاً يحاول الإنسان أن يرتفع إلى الله وهو موثق برُبُط هذا العالم. وحتى لو استطاع الإنسان أن يتحرر من جميعها إلا واحداً، مهما كان بسيطاً وتافهاً، فهو لن يستطيع أن يحيا لله، بل وتكون الخطورة أكثر بسبب هذا الرباط الأخير، لأنه سيحاول أن ينطلق وهو مثقل بهذا الشيء الذي لا زال متعلقاً به، فتكون النتيجة أنه بعد أن يرتفع قليلاً ويتوهم أنه سار في طريق الله، إذ بهذا الشيء يجذبه مرة أخرى فيسقط من علوه الروحي فتتأذى نفسه جداً، وبتكرار هذه المحاولة يفقد حرارته وحماسته على الانطلاق في الحياة الروحية.

كثيرون حاولوا المسير في حياة الصلاة والعبادة، ولكن فجأة توقف مسيرهم واعتراهم الجمود ونكصوا على أعقابهم. وكان السبب في هذا الإرتداد المحزن هو وجود إحدى هذه الربط الخفية، ربما خطية أو نوع من المكيفات أو عادة من العادات، أو ربما شهوة التلذذ بإحدى متع العالم، أو سعي خفي في النفس للشهرة والكرامة والمجد الباطل، أو محبة جسدية لإنسان ما أو لشيء ما مما في هذا العالم! إن واحدة من هذه كفيلة أن تعرقل النفس وتقيدها، فلا تستطيع الانطلاق الدائم في جو الصلاة وحياة التأمل.

* * *

ولعل من أهم الوصايا التي نوصي بها كل ساعٍ مخلص في طريق الحياة الأبدية، أن لا ينخدع إذا أحس أنه تحرر من خطاياه ومعوقاته الأولى. لأن كثيرين وثقوا في أنفسهم عندما أكرمهم الله ورفع عنهم أثقال خطاياهم وشرورهم فأحسوا أنهم قادرون على تحرير الآخرين بإمكانياتهم، وانغمسوا في أوساط الخدمة والعمل قبل أن تنضج أرواحهم النضوج الذي يجعل حريتهم إلهية وليست بشرية، تعمل لمجد الله وليس لشهرة النفس والإسم، فكانت النتيجة أن وثبت عليهم خطاياهم الأولى أو تملَّكت في نفوسهم أنواع جديدة من الشرور الذميمة مع انقسام داخلي والظهور بمظاهر التقوى فكانت أواخرهم أشر من أوائلهم.

فتحرير النفس لا ينحصر في ناحية واحدة، بل يلزم أن يشمل الحياة الداخلية كلها. فلا يتهادن الإنسان مع العالم ولا يرضخ لمشورة تقيد حريته في المسيح مهما كانت هذه المشورة. وأفضل للإنسان أن يعيش ميتاً في نظر الناس والعالم ويخلص، من أن يتبوأ أعظم المراكز والخدمات ويخسر حريته وحياته الأبدية، كما أنه أفضل للإنسان أن يُقال عنه إنه جاهل أو

ضعيف ويُزدَرَى به ويكون سائراً في طريق الحق والحياة، من أن يكون شغله الشاغل مديح الأفواه على المنابر كقوي وعظيم وتكون حياته الداخلية خربة وخالية والظلمة تلاحقه.

كذلك إن كانت ثمة نصيحة أخيرة تقدمها للإنسان المحب لله بخصوص تحرير النفس، فهي أن يحترس جداً من إضافة خطايا جديدة على خطاياه بانحلاله واستهتاره وعدم ضبط نفسه وحواسه. فالخطايا القديمة تحتاج إلى دموع كثيرة وتحفُّظ كبير حتى يتخلص الإنسان من آثارها المَرَضِيَّة ويتحرر من سلطانها، أما إذا أضاف الإنسان كل يوم خطايا جديدة فإنه يتعذر شفاؤه.

أما الخطوة العملية الأولى التي بها ندخل في حقيقة الحرية وقوتها، فهي أن نخضع خضوعاً كاملاً مطلقاً لإرادة الله وتدبيره دون أن نعترض مشيئته فينا، فهذا يؤهلنا أن نحمل في قلوبنا نوعاً من الحرية أو التحرر من أنفسنا وشهواتنا لأننا نكون داخل مجال فعل النعمة وتأثيرها.

والإنسان الذي يعيش في دائرة إرادة الله ويتمسك بها تمسكاً شديداً عنيداً، في خضوع وشكر واستسلام كامل، فإنه يحصل على مناعة كبيرة ضد كل محاولة لإخضاعه للخطيئة أو الشر أو أي انحراف.

وحينما تبلغ عملية خضوع النفس لإرادة الله درجتها الصحيحة، يصبح الإنسان غير مستعد لقبول أي مسرة أو لذة أو راحة أو غواية مفسدة تبعده عن حالة الخضوع لله والتمتع بطاعته! وهذا هو منتهى الحرية!!

أقوال الآباء في تحرير النفس:

أقوال من تعاليم الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس الكبير في حواره مع كاسيان:

٤٠٤ - لكي نقدم صلاة باهتمام ونقاوة قلب يجب أن نراعي القواعد الآتية:

أول كل شيء يجب أن نتخلص من الاهتمام بالأمور الجسدية أثناء وقوفنا للصلاة.

وثانياً: يجب أن لا نترك فرصة لأفكارنا أن تشرد في الاهتمام أو حتى بمجرد ذكر أي عمل من الأعمال.

وبجانب ذلك، يجب أن نلقي عنا تماماً: كل اغتياب ونميمة، الأحاديث الفارغة، المزاح والكلام السفه، الغضب والعبوسة الكثيرة المقلقة، الشهوة الجسدانية المؤدية إلى الهلاك، الطمع. كل هذه الأوجاع والعيوب النفسية يجب أن نتحرر منها تماماً، ونقاومها بشدة بالصلاة ونقتلعها من أصولها. فحينما نقطع هذه العلل وغيرها التي لا تخفى على أحد، حينئذ أول كل شيء، يجب أن نضع أساساً أميناً من التواضع العميق، يصلح ليكون أساساً لبرج الفضائل الذي سيرتفع نحو السماء.

ويجب أن تتدرب النفس على ضبط الفكر، حتى تستطيع أن تدخل إلى الصلاة الهادئة وتأمل الله. ونلاحظ أن كل ما كان يفكر فيه العقل قبل ساعة الصلاة فإنه يعرض لنا أثناء الصلاة من جراء دوام نشاط الذاكرة، **لذلك يجب أن نعد ذواتنا للصلاة قبل البدء بها.** لأن العقل وقت الصلاة يكون متأثراً بحالته السابقة، فحينما نتقدم للصلاة يستحضر العقل ذات الحوادث والصور والأحاديث وتبتدئ تتراقص أمام مخيلتنا لتدفعنا للغضب كسابق عهدنا، أو للكآبة والغم، أو تسترجع لنا ذكرى شهواتنا وأشغالنا، أو تدفعنا لضحك أحمق على نادرة غبية سلفت أو نبتسم على حدث مضى، أو أن هذه جميعها تتحد معاً فتنخطف النفس بجملتها لتنهمك في أحاديثها ومواقفها السابقة.

لذلك فإذا كنا نود أن لا يطوف بنا شيء عندما نصلي، علينا أن نحترس قبل الصلاة لنطهر قلوبنا بعزم من كل هذه الأشياء حتى ندخل إلى معبد القلب وحدنا لنتمم أمر الرسول: «صلوا بلا انقطاع.» (١تس ٥: ١٧)

أما بخلاف ذلك فلا نستطيع أن نقوم بحق الصلاة الداخلية، ما لم يتطهر عقلنا من كل آثار الخطية أولاً ليُسلَّم إلى الفضيلة، حتى يكون صلاحه طبيعياً ليس عن كبت أو اصطناع، فتكون الفضيلة هي طعامه الذي يتغذى منه ليداوم على التأمل في الله.

٤٠٥ – إن طبيعة النفس تُقارَن بريشة في غاية الرقة والنعومة، أو هي كجناح خفيف غاية في الخفة، فإذا لم يلحق هذه الريشة أو هذا الجناح عارض ما أو تلف بسبب الرطوبة الخارجية فإنه يُحمَل عالياً حتى عنان السماء، طبيعياً من تلقاء ذاته بعامل خفته وبمعونة نفخة بسيطة.

أما إذا لحق به خلل أو ألَمَّت به رطوبة فليس فقط تعجز أن تحمله خفة طبيعته إلى أي علو ما، بل إنه ينحدر إلى أسفل بثقل الرطوبة التي احتوته. **هكذا أيضاً النفس، إذا لم تثقل بالعيوب التي تؤثر في طبيعتها الروحانية بهموم هذا العالم أو تفسدها الشهوات المؤذية، تستطيع، كما كانت في أول أمرها، أن تُحمَل عالياً بمواهب نقاوتها الطبيعية بمعونة نفخة خفيفة من التأمل الروحي،** تاركة وراءها كل الأمور السفلية المادية لتعبر هي إلى السموات وإلى غير المرئيات.

ومن ثم فوصية السيد تتجلى الآن أمام عيوننا بوضوح: «إحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار (تخمة الأكل) وسُكر وهموم الحياة.» (لو ٢١: ٣٤)

لذلك، إذا كنا نريد أن تصل صلواتنا إلى السماء، علينا أن ننقي نفوسنا ونردها إلى طهارة طبيعتها الأولى، خالية من عيوب الأرض نقية من كل ما يؤثر في خفتها الطبيعية، بهذا ترتفع صلاتنا إلى الله لا تعيقها أي خطية بلا مانع.

٤٠٦ – وجدير بنا أن نلاحظ الأسباب والعلل التي أشار إليها السيد وأبان أنها هي التي تسبب ثقل النفس: فهو لم يذكر الزنا أو الفسق أو القتل أو التجديف أو الخطف فحسب، هذه التي يعرفها كل واحد، وندرك جميعاً أنها لا تثقل فحسب، بل إنها مكروهة ومميتة، وإنما ذكر الولع بالأكل إلى حد التخمة (الخُمار) والانهماك بمشاغل وهموم هذه الحياة، التي ينغمس فيها أهل العالم دون أن يدركوا خطورتها أو يعتبروها أموراً مرذولة، حتى أن بعضاً من الذين يسمون أنفسهم رهباناً منقلون بهذه الأمور عينها كأنما هي أمور عادية.

ومع أن هذه الرذائل الثلاثة، أي شهوة الأكل والسكر والاهتمام بأمور العالم، حينما نفتح لها باباً في أنفسنا كفيلة أن تفصلنا عن الله وترمينا في ظلمة الأرض، ولكن ليس عسيراً أن نكفّ ونُقلِع عن هذه الأمور الثلاثة، لاسيما لنا نحن الذين انفصلنا عن رجاء وأمل هذا العالم الفاني. وليس هناك من سبب يدعونا أن نرتمي في أحضان أي منها، فلا حاجة بنا إلى السُّكْر أو التلذذ بالأطعمة أو الانشغال والاهتمام بأمور هذا العالم.

ولكن هناك تخمة بغير أكل، وسُكراً بغير خمر، لا تقل خطورة عن سابقتها وانشغالاً وهمّاً بالعالم، حتى بعد أن نكون قد نفضنا أيدينا تماماً من العالم وخيراته الزائلة. فبدون ولائم وبلا خمر وبعيداً عن العالم نقع في ذات الفخ فنثقل بها. عن هذا يقول النبي: «اسمعي أيتها البائسة والسكرى وليس بالخمر.» (إش ٥١: ٢١)

فإذا لم ننظف ذواتنا من هذه العلل – الظاهرة والخفية – ونمسك ذواتنا من الولع بالشهوات، يتثقل قلبنا

من غير سكر أو امتلاء من الطعام ولكن بسُكر آخر وتخمة أخرى أشد خطورة.

وحينما نتطهر، تنجلي أفكار النفس مرة أخرى وتعود من حمأة الطين إلى طهارة طقسها الأول لتحمل الصورة الملائكية. وحينئذ، وفي كل ما تأخذه وكل ما تمنحه وكل ما تعمله، تكون الصلاة نقية خالصة.

٤٠٧ – إن الذين يبحثون بالحق عن الراحة الصادقة، وأدوية الشفاء من طبيب النفس الحقيقي لن يتركهم معتازين في شيء قط. والذين لا يستخفون بمصيبتهم ولا يسترون خطورة جرحهم بل بقلب متضع يقظ يلوذون بالطبيب السمائي من أمراضهم التي أضغطتهم، سواء عن جهل أو خطأ غير رافضين علاج التوبة، إن سهل أو صعب، فإنما يفوزون بالرعاية فوق وقبل الكل.

إذن، علينا أن نُشفى من عللنا وجراحاتنا. أما إذا لُذنا بالأماكن المقدسة، لنخفي فيها أنفسنا أو عيوبنا، أو ركنَّا إلى العزلة والانفراد دون أن نواجه أنفسنا لنُشفى من جراحنا وأسقامنا، يكون ذلك بمثابة قمع وكبت لها وليس استئصالاً. أما الشعور بهذه الأوجاع فهو لا يهدأ ساعة واحدة، **إذ أن جذر الخطية موجود لم يُستأصل، فإنه يقبع مختفياً داخلنا أو بالحري ينمو متسللاً ليظهر في حينه!**

أما كون جذر الخطية لا زال حياً فينا فندركه بالعلامات الآتية:

(أ) إذا كنا ننتظر أحد الإخوة فتأخر عنا قليلاً لسبب من الأسباب، وابتدأ عقلنا يغضب ويلوم إبطاءه سراً ويتسبب قلقنا لهذا التأخير في انزعاج لنا، فامتحان ضميرنا يعلن أن خطيتي الغضب والضجر لا زالتا كامنتين في القلب بوضوح.

(ب) إذا طلب أحد الإخوة كتاباً ليقرأه أو أي شيء آخر منا ليستعمله فيزعجنا سؤاله ويكدِّرنا، فليس هناك شك أننا لا زلنا ممسَكين بقروننا في الشُّح والطمع.

(جـ) إذا خطر ببالنا فكر عابر أو قراءة صفحة من الكتب المقدسة فاستُحضِرت إلى ذهننا ذكر امرأة وشعرنا بميل نحوها، فعلينا أن ندرك أن خطية الزنا ما انطفأت نارها بعد ولا انخمدت شهوتها من قلوبنا.

(د) وإذا كنا نقارن صرامتنا وتدقيقنا الروحي برخاوة وانحلال غيرنا من الناس فيتسرب إلى عقلنا فكر إعجاب بذواتنا، فواضح، إذن، أننا مصابون بداء الكبرياء.

وحينما نكتشف هذه العلامات التي تدلنا على أصول العلل والأسقام الدفينة داخلنا، علينا أن ندرك بوضوح أن فرصة الخطية فقط هي التي لم تسنح لنا، إلا أن شهوتها لم تزل باقية! وبالتأكيد إذا سنحت الفرصة وكان علينا أن نختلط بالحياة العادية بين الناس، فإن هذه الشهوات تنبعث في الحال من مكامن أفكارنا

وتنفجر لتظهر واضحة عارية أمام عيوننا بعد انحباس طال أمده.

بهذا يمكن لكل إنسان حتى ولو كان متوحداً أن يختبر ذاته ويكشف علله وجذور الخطية المنزرعة فيه، **ولا يكون همُّنا إخفاء عيوبنا، بل بالحري كشفها وإظهارها لمن لا تخفى عليه أسرار القلوب.**

٤٠٨ - لم يكن العلاج الشافي بالأمر العسير أو النادر لمن وضعوا في ذواتهم أن يُشفوا من أمراضهم، غير أن أنواع العلاج عديدة ويجب أن يُبحث عنها بنفس الطريقة التي اكتُشِفت بها علل النفس الدفينة.

لأنه، كما سبق وقلنا، إن أخطاء الرجل العادي في الحياة ليست معدومة بين العُبَّاد أو المتوحدين، غير أن الغيرة على الشفاء من علل النفس واقتناء الفضيلة هي على أوَجِها بين الذين قطعوا ذواتهم من حياة هذا العالم.

وحينئذ عندما يكتشف أحد بواسطة هذه العلامات التي وصفناها سابقاً أنه مصاب بثورات من قلة الصبر أو من الغضب مثلاً، عليه أن يدرِّب نفسه على الدوام فيما هو ضدها ويقاومها، واضعاً أمام نفسه كل علله وأوجاعه كأنما هي مقدَّمة إليه من إنسان آخر. ويبتدئ يقنع ذاته متصوراً أن تعدياته على الآخرين كأنما وقعت عليه هو، فيحتملها باتضاع كامل ومسكنة. ويستعرض على نفسه كل أنواع الفظاظة والقسوة التي كان يعامل بها الآخرين متصوراً أنها وقعت عليه هو، ويتقبلها بحزن وانكسار قلب ويستعطف نفسه أن يعاملها بلطف ووداعة أكثر وهكذا.

ثم يقرأ ويتأمل في جميع المشقات التي حصلت للقديسين أو بالحري على الرب نفسه وعلى رسله الأطهار وبالأخص بولس الرسول. وحينئذ يبتدئ يحتمل الضيقات والمشقات التي تقع عليه بصبر، حتى أنه يرى أن جميع التعييرات وأنواع العقاب التي تأتي عليه هي أقل مما يستحق، ويهيئ نفسه لاحتمال كل أنواع الشدائد.

وعلى الإنسان أن يتدرب كيف يكون مؤدِّباً لنفسه صارماً، ليقمع شهواته وأهواءه السرية، ويواجه نفسه بكل أنواع أخطائها الثقيلة مدرِّباً نفسه على إصلاحها في تأملاته اليومية؛ ويوبخ نفسه ويزجرها أمام التجارب والضيقات، فمثلاً يقول لنفسه:

- «يا صديقي الصالح أفأنت الذي تدرب نفسك على ممارسة أسس العبادة والتأمل وقد خاطرت بكل تصميم؟ كيف انتكست سريعاً وتلاشى صبرك وخسرت أول معركة بتجربة تافهة وأمام مشكلة بسيطة!! وأنت كنت الآن تواً تتمثل في نفسك أنك تستطيع أن تحتمل أشد التجارب هولاً متوهماً أنك كفؤ لمواجهة كل العواصف؟ كيف استطاعت نفخة بسيطة أن تزعزع أساسات حصنك المنيع الذي توهمت أنك بنيته على صخرة؟ أين ذلك الذي أعلنته وقت السلام حينما كنت تتشوق بثقة عمياء أن تواجه جيشاً من أعدائك؟ كيف أن روحاً حقيراً استطاع أن يفزعك ويفسد عليك استعدادك للحرب؟»

بهذه التعبيرات والتوبيخات الصارمة يجب على كل إنسان أن يدين ضميره ولا يسمح للتجربة المفاجئة أن تأخذ منه مأخذاً، وإذا ما أصابه منها ولو قليل من الارتباك لا يسمح أن يترك نفسه تمر بلا عقاب، فيقتص من جسده بأنواع عقوبات الصوم والسهر ويقتص من رعونته وخفة عقله بدوام الحذر والانتباه وضبط النفس.

٤٠٩ – **إن القانون الإلهي ليس موضوعاً للنقمة والعقاب على ذات الفعل فقط بل إنه يتعدى ذلك إلى مجرد تذكار الضرر أو الشر في القلب نحو الآخرين.** وهذا قد أوضحه السيد المسيح وحرَّمه قطعاً، فليس مسموحاً أن يتحرك القلب بالغضب نحو الآخرين لسبب خسارة تصيبنا منهم، لأنه أية خسارة أو ضرر أكثر من أنه بسبب هذا الغضب المفاجئ تفقد النفس قدرتها على مواجهة بهاء نور الأبدية وتخسر رؤية من قال عن نفسه إنه وديع ومتواضع القلب!

أنا أسألك ماذا يكون أخطر من أن يفقد الإنسان قدرة تمييزه للخير وقياسه وحكمه على الأمور؟ هذا يفقده الإنسان أثناء غضبه! وكيف لا يُعاقَب الإنسان حينما يأتي أمراً وهو في كامل شعوره كما يأتيه السكير والأبله؟

حينما يتأمل الإنسان ملياً يدرك خطورة الأضرار التي تنشأ عن هذه النزعات الخاطئة والسلوك المريض، وحينئذ يهون على الإنسان التأديب في سبيل الشفاء، بل يهون عليه احتمال كل إساءة وقصاص يلحقه من إنسان قاسٍ ولا يسقط في حماقة الغضب، لكونه سيدرك أنه ليس أكثر مرارةً وضرراً من الغضب، وليس أثمن من سلام العقل ونقاوة القلب غير المنقسم، هذه التي من أجلها يجب أن لا نفكر البتة في أي ربح مهما كان، ليس في الأمور الجسدية فحسب بل وفي الأمور التي تظهر أنها روحية أيضاً، إذا لم يكن عملها بغير تشويش أو تعكير لهدوئنا وسلامنا.

٤١٠ – إن الذين استطاعوا أن يتدربوا على الصلاة الدائمة لمغبوطون حقاً، حتى ولو كان تتميمهم لوصية الرسول «صلوا بلا انقطاع» ليوم واحد. هذا الأمر يتراءى للذين انغمسوا في الخطايا الثقيلة كأنه شيء غير هام وتافه، ولا يدركون أن حكمهم هذا من وحي خطاياهم المرَّة التي أعمت عيونهم ... فالذين في طريق الكمال يدركون قيمة هذه الأشياء التي تظهر بسيطة.

وتشبيه ذلك يتضح من المثل الآتي: رجلان، الأول ذو بصر حاد ورؤية سليمة؛ والثاني ذو بصر عليل وغشاوة من الظلمة تحجب عنه الرؤية. فإذا دخل الإثنان منزلاً فخماً مؤثثاً بالرياش الفاخر والتُحف النادرة ومزيناً بكل زينة، فماذا يكون من أمر ضعيف البصر إلا أن يدَّعي ويجزم أنه ليس فيه إلا صناديق ومقاعد وكل ما دلته عليه أصابعه، بينما الآخر ذو النظر الحاد والرؤية السليمة يستطيع أن يعلن لك كل دقائق ما في ذلك البيت ويصف لك رونقه وزخرفه وبديع أثاثه ورياشه. **هكذا أيضاً القديسون فإنهم ذوو بصيرة روحية قوية وتمييز نفساني حاد، حتى أنهم بحذاقة نادرة يكتشفون دقائق العيوب والأخطاء التي في أنفسهم،** وأشياء

لو حدقنا فيها ملياً وأمعنّا التمييز والفكر يعسر علينا أن ندرك نوع الخطأ أو الانحراف فيها، وذلك لغشاوة الظلمة التي نسجتها يد الخطايا الثقيلة على عقولنا. فبينما هم يحكمون عليها ويدينون ذواتهم من أجلها بعنف شديد إذ بنا نحن لا نكترث بها!!! إن أجسادهم الطاهرة البيضاء التي لم تتكدر بقذر الخطية تظهر أمامهم كأنها مصبوغة بالإثم، مع أني أقدر أن أجزم وأقول إنه لا يخطر بعقلهم فكر شرير، بل إنه بمجرد ذكر المزمور يُخطَف عقلهم إلى الله وقت الصلاة.

٤١١ – ولكن ما هو السبب الذي يوقعنا في مثل هذا القصور – أي في عدم القدرة على كشف الخطايا الصغيرة والنزعات الخاطئة – إلا جهلنا بشروط الفضيلة! وكيف أنها تخلو من كل إثم ومن كل ما هو ضد الحق. وأيضاً لأننا لا نرى في تصوراتنا المنحرفة وأفكارنا الشريرة ما يوجب الحزن أو الندم على أنها خطايا. فتكون النتيجة أن هذه الغباوة في التمييز والمعرفة تتحول إلى بلادة، فنُصاب بالعمى الروحي الذي من شأنه أن يجعلنا لا نرى في ذواتنا إلا الخطايا الكبيرة والتعديات الرئيسية التي تدخل تحت العقاب المدني، حتى إذا أبصرنا ذواتنا أننا لا نأتيها كباقي الناس نعتقد أنه لم يعد فينا خطية البتة!! **بل ونعتقد في ذواتنا أننا أصبحنا من فئة الذين يبصرون ويعرفون الأمور!! لأننا لا نبصر هذه الأدناس الصغيرة المتزاحمة داخلنا، فلا نحزن بسبب الضجر الذي يملك على أفكارنا ولا نأسف لأننا مضروبون بداء الصلف، ولا نبكي على صلواتنا التي نقدمها متأخرة باردة، ولا نعتبره أمراً مخجلاً وخطية كبيرة أن يشرد فكرنا في الشر أثناء الصلاة!! ولا نرتعب من قلة خجلنا على ما نتصوره في أذهاننا من أمور مخزية يندى لها الجبين لا يمكننا التلفظ بها أمام الناس بل نكتمها في قلوبنا مع أنها مكشوفة ظاهرة أمام نظر الله! بل وأحلامنا الدنسة لا نرى أنها تستحق الانسحاق والدموع الغزيرة لنغسل بها وسخ طبيعتنا المنحرفة!**

ولا نكتئب بسبب ترددنا المذموم في تقديم المساعدة أو الرحمة للآخرين الذي مبعثه الأنانية والشح والبخل! ولا نرى الخسارة التي تحيق بنا حينما نترك الجلوس تحت أقدام الله ونذهب لننشغل في أمور وقتية زائلة! حتى أصبحت هذه الكلمات التي تفوه بها سليمان بالروح تنطبق علينا: «ضربوني ولم أتوجع، هزأوا بي ولم أعرف.» (أم ٢٣: ٣٥)

الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس

(في حواره مع كاسيان)

٤١٢ – والعابد الحقيقي لله ليس فقط يمسك شهوة بطنه ثم يدع المجد الباطل يتسلط عليه! ولا يقهر الشهوات القبيحة ويترك محبة المال تتملك عليه!

ولكن بالإجمال هو لا يسمح لذاته أن يخضع لشيء من الآلام مثل الغضب أو البغضة أو الحسد أو الكبرياء أو الشره. لأن الوصايا مرتبطة ببعضها: فمن يضبط ذاته عن المجد الباطل معروف أنه متضع، ومن يمتنع عن

محبة المال فقد أقام الزهد بالكمال، والذي لا يتدنس بالغضب فهو الوديع. والرجل الكامل في عبادته يضبط لسانه وعينيه وأذنيه عن كل ما يُغضِب الله. أما الذي لم يتدرب على هذا فهو لم يصل بعد إلى العبادة الحقة. لأن الضحك مثلاً علامة انحلال النفس ولا يُقلَع إلا بخوف الله. لأن خوف الله يجعل الإنسان يُظهر شعوره بابتسامة الوداعة فحسب! فأما من يقهقه في الضحك فهو ليس بضابط لذاته، ولا نفسه هادئة. يقول عنه يشوع بن سيراخ: «إن الجاهل يرفع صوته بالضحك، أما الحكيم فهو يبتسم». لأن المسيح لم يوجد ضاحكاً قط وإنما وُجد باكياً.

٤١٣ – قد تكون هناك أعمال كثيرة ليست هي خطية نتساهل فيها من أجل حياتنا، ومع ذلك يجب أن نترفَّع عنها إن كان في ذلك ربح لنفوسنا أو لإخوتنا كما قال بولس الرسول: «إن كان طعام يعثر أخي فلن آكل لحماً إلى الأبد لئلا أعثر أخي» (١كو ٨: ١٣). وكذلك قال إنه كان له سلطان أن يعيش كالآخرين ويتزوج ولكن لم يستعمل هذا السلطان لئلا تُعاق الخدمة وتبرد نفسه.

٤١٤ – العابد الحقيقي هو من يقطع كل أصول الآلام الجسدية ويتحرر منها، حتى الطبيعية منها، فعليه أن يقلع شوكة اللذة، **لأن اللذة هي بذرة الشرير، وكأنها صنارة في يد الصياد يُسقطنا بها في الخطية ونُساق إلى الموت بسبب شهواتها.**

٤١٥ – الذي قهر كل الآلام إلا واحدة فليس هو بعد صحيحاً معافى. والذي ساد على أهوائه وشهواته إلا واحدة فهو بعد عبد مربوط.

باسيليوس الكبير

٤١٦ – حينئذ تصير النفس صافية بعيدة عن تذكار الآلام والشرور المتنوعة، لأنها تكون قد ضبطت كل حركات الجسد الطبيعية وذللت طبيعته الشهوانية، فتكون في هدوء وورع يليق بالصلاة، فإذا صارت في المناظر الإلهية فإنها تدوم بالأكثر داهشةً في أعمال الله بفرح وخوف وهدوء، وتظل محلقة في نور الحكمة الإلهية بغير اضطراب.

أما إذا لم تكن قد ضبطت شهوتها الطبيعية و لم تزل متعلقة بأمور العالم، فآلام الجسد الطبيعية ولذة شهوة الأشياء التي في العالم تلحُّ عليها وتقوم عليها كالكلاب المفترسة الجائعة حينما تقف للصلاة. **وكل شهوة وكل لذة وكل ألم جسداني تجذب النفس إلى ما تريد، وتبقى النفس حائرة مبلبلة وقت الصلاة**، لأنها توانت مع أن لها السلطان من قِبَل الله.

باسيليوس الكبير

٤١٧ – يجب على رجل الله أن يضبط لسانه ليس عن الكذب فقط، بل أيضاً عن النميمة والسعاية

والشتيمة والتذمر والهزء والتعيير والتبكيت والمزاح والدينونة والمماحكة والمخاصمة، وبالإجمال عن الكلام الضار والبطال الذي يعطل البنيان. فمن يتكلم فليتكلم بكلام الرب باتضاع قلب، بأعماله قبل أقواله. لأن كل من لا يعمل بكلام الناموس فقد احتقر واضع الناموس. والتكلم به دون العمل جزاؤه الدينونة. لهذا قال الرب: «طوبى لمن عمل وعلّم»، «طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع». ولكن اليهود أيضاً كانوا ينظرون ويسمعون! **لكن الطوبى صارت لمن آمن وعمل.**

سمعان العمودي

٤١٨ – إذا كان الله موجوداً في كل كائن وأنت خالٍ منه، فالحياة هي خارج عنك فماذا ينفعك منها؟ وإذا كنت مملوءاً حياة وتشعر أن الله فيك، فالموت هو خارج عنك. فماذا يهمك؟ أنظر أنت لتراه في ذاتك متحداً بك! فإذا نظرته حقاً فيك، فانزع ذاتك من نظرك لترى الله وحده يحيا كل حين فيك.

٤١٩ – لا يقدر إنسان أن ينظر الحُسن الذي داخله قبل أن يهين ويرذل كل حُسن خارجه. ولا يمكنه التمتع بالله قبل أن يحتقر العالم كله. من وضع نفسه ورذلها نال الحكمة من الله، **ومن يحسب نفسه حكيماً زالت عنه حكمة الله.**

٤٢٠ – يا منهمكين بالعمى (الأمور المادية وظلمة هذا العالم) إرفعوا رؤوسكم ليشرق النور في وجوهكم، أخرجوا من أوجاع العالم ... ليخرج للقائكم النور الذي من الآب، ويأمر خدامه أن يحلُّوا رباطاتكم لتمشوا في ضيائه إلى عند أبيه. **يا حبذا لو تقطعت رباطاتنا لنرى إلهنا.**

٤٢١ – لا يدخل مدينة الروحانيين مَن كانت له صلة بالعالم وبشهوة العالم. لا يدخلها إلا كل من يمقت دالة الناس وغرور الحياة. فكل من انطلقت في نفسه وفي عظامه محبة المسيح لا يقدر أن يحتمل قذارة الشهوة المرذولة، وكل من صار رفيق الملائكة واستأنس بأسرارهم لا يقدر أن يحتمل عِشْرة العالم ومكائده. وكل من ربط عقله بالله والانشغال بالسماء لا يستطيع أن يربط عقله بالعالم والانشغال بالأرض.

٤٢٢ – من ذا الذي يستطيع أن يقتل ويهلك الأوجاع والخطايا في نفسه إلا من استأنس كل ساعة بالهذيذ في الله! وانشغل عن العالم بل انفصل منه ومن كل ما فيه من شرور ومشاغل.

٤٢٣ – إذا أمات الإنسان ذاته عن الحياة الوقتية باشتهاء الله، يكون من ذلك الحين حياً بالله، ولا ينقطع جريان أنهار مياه الحياة من قلبه.

٤٢٤ – إن كانت شهوتك في العالم فهذه أيضاً للكلاب والخنازير أي شره الأكل والزنا. وإن كانت شهوتك في الله فهذا نصيب الملائكة.

الشيخ الروحاني

٤٢٥ - كلما يصغر العالم ويُهان في نظرك؛ كلما تتزايد فيك محبة الله، وتأتيك نعمة الروح القدس. وكلما تزيد فيك محبة العالم والتمسك به؛ كلما تنقص منك محبة الله.

٤٢٦ - الذي يشتاق إلى الروحانيات، يجب عليه أن يتهاون بالجسدانيات ويرفضها بفرح.

٤٢٧ - إذا أردت أن تخرج من العالم وتترك الأقارب والأهل والبلد وتتبع المسيح بسيرك في طريق الفضيلة، فلا ترتبك بأفكار الهمِّ والقوت والكسوة. لأنه إذا كان عملك مع الله، فالله هو المهتم باحتياجك وإلا فإيمانك يتساوى مع الكافر.

٤٢٨ - لا يكن، يا أحبائي، همُّ شيء من أمور العالم حاجزاً بيننا وبين الله! فإذا تركنا همومنا، يتنقى فكرنا في الصلاة. من أجل هذا أمرنا السيد له المجد بالتجرد من العالم ومما فيه والتمسك بالمسكنة والفقر والابتعاد عن كل همّ، حتى يتحرر عقلنا من كل شيء وتخلو أفكارنا من العالم فنشتاق إلى الحديث الدائم مع الله والاهتمام به.

٤٢٩ - النفس المُحِبَّة للأشياء الجديدة لا تشبع. فهي تبسط قلوعها لكل ريح.

٤٣٠ - محبة العلم التي ليست مملَّحة بحب يسوع وفعل الروح القدس، غريبة عن العالم الجديد، وهي ليست لها قدرة على قطع الآلام من النفس.

٤٣١ - لا تظن أن اقتناء الفضة والذهب فقط هو حب القِنْية، بل كل ما تتعلق إرادتك بشهوته.

٤٣٢ - كما أن الزارع في الشوك لا ينتظر له حصاداً، كقول معلمنا الصالح، هكذا الحقود ومحب المال لا يترجى فائدة، بل يتنهد على مضجعه من فرط السهر ومواصلة الهمِّ بالأمور.

٤٣٣ - تضرع إلى الله أن يجود عليك بإحساس غرض الروح واشتياقه، لأنهما متى وفدا إلى النفس حينئذ يبتعد منك العالم وأنت تتخلف منه.

٤٣٤ - لا تظن، يا هذا، أن الابتعاد عن علل الآلام وأسبابها أمر هين أو شيء يسير.

٤٣٥ - الحركة الأولى التي يسكبها الله في قلب الإنسان المتقدم إليه هي **التهاون بالعالم، ومن هذه الحركة المباركة ينمو فيه كل عمل صالح.**

٤٣٦ - بمقدار ما يتهاون الإنسان بهذا العالم ويجتهد في خوف الله، تبتدئ العناية الإلهية ترافقه، وهو يحس بمؤازرتها له إحساساً لطيفاً سرياً، وتتبعه رحمة الله وتعزيه.

٤٣٧ - إذا كان المرض والضعف وهلاك الجسم والخوف من الأشياء المؤذية تزعج فكرك، وتصرف شوقك عن بهجة أملك ورجائك، وتعطل استلقاءك في حضن الله، وتؤخرك عن لذة الهذيذ والحياة معه، فاعلم أن الجسد هو الحي فيك لا المسيح له المجد.

مار إسحق السرياني

٤٣٨ - لنلتمس من الله أن يهب لنا أجنحة حمامة (مز ٥٥: ٦) أي الروح القدس، لنطير إليه ونطمئن. ونتوسل إليه أن يقصي عنا الروح الشرير ويقطعه قطعاً من نفوسنا وأجسادنا، أي الخطية الساكنة في أعضائنا الجسدية والنفسية، لأنه هو القادر وحده على ذلك: «هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم».

٤٣٩ - **والرب يطلب منك أن تغصب نفسك وتقاوم فكرك ولا تخضع لتلذذ الأفكار الشريرة ولا تراودها أو تتنازل معها، أما استئصال روح الشر الكائن فينا فهذا يتم بالقوة الإلهية عندما يجد الله جهادك وصبرك ضد الشر، ونيتك الصالحة للخير، لأنه لا يمكننا أن نستأصل الخطية من أعضائنا، وإنما علينا فقط أن نقاومها ونصارعها ونضاربها، أما نزعها واستئصالها فهو الجزء الموضوع في يد الله يمنحه لنا.** وإلا لو كان في مقدورنا أن نقاوم الخطية وننزعها أيضاً، فأي حاجة كانت، إذن، لمجيء الرب؟ فكما أن العين لا تستطيع أن تنظر بلا نور، كذلك نحن لا نستطيع أن نرى الله إلا بنوره: «بنورك يا رب نعاين النور».

٤٤٠ - وأما إن قلتَ إن القوة المعادية هي أقوى مني؛ وأن الخطية لها على الإنسان سلطان مطلق، فقد نسيت الظلم لله!! إذ كيف يدين إذ ذاك الطبيعة البشرية لإطاعتها الشيطان؟ والحق أن العدو أقوى في ذاته وقد يُخضِع الطبيعة البشرية بقوته ولكن، «إن كان الله معنا فمن علينا»؟ وداود في المزمور ٤٤: ٥ يقول: «بك نناطح أعداءنا». فالنفس التي تطلب الله، تجد فيه عوناً ونصراً، وهو ينعم عليها بالفداء.

٤٤١ - لأن النفس التي تكون في شوق كثير إلى الإيمان والمحبة تُحسَب أهلاً لنوال تلك القوة العلوية، فتنفك من كل محبة عالمية وتنحل من كل رباط الخطية.

٤٤٢ - وإن كان الكتاب المقدس يقول: «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته»، وذلك من أجل حفظ كيان المحبة الجسدية، فكم يكون علينا إذا أردنا أن نشترك مع الله في حياة الحب الإلهي والعِشرة معه يتحتم علينا أن نتجرد من كل حب العالم وكل الأمور الخارجية المنظورة؟

أبا مكاريوس الكبير

٤٤٣ - الذين يلتهبون بشهوة الروح السماوية، الذين مرضت نفوسهم حباً بالله، الذين اضطرمت فيهم النار التي جاء المسيح ليلقيها على الأرض ولا يود إلا اضطرامها (لو ١٢: ٤٩)، الذين التهبت نفوسهم بحب المسيح: **هؤلاء ينظرون إلى العالم والأشياء الفاخرة الثمينة التي فيه كأنها أشياء تافهة بل كريهة! بسبب**

الحب المضطرم فيهم الذي لا يمكن أن يفصلهم عنه شيء مما في السماء أو على الأرض أو تحت الأرض كما ذاق بولس وشهد له (رو ٨: ٣٥).

٤٤٤ - لم يُسمَع قط أن إنساناً استطاع أن يحيا مع المسيح دون أن يتحرر عقله من هموم العالم والقيود الأرضية، سواء كانت بالحب الطبيعي المغروس فينا أو من جهة الشهوة الفاسدة التي تعمل فينا لحرماننا من الحياة الأبدية.

٤٤٥ - **فإن كانت النفس تخصص ذاتها للمسيح، فقد التصقت بالرب وصارت معه روحاً واحداً** (١كو ٦: ١٧)؛ **وإن كانت قد سلَّمت نفسها لغرور الحياة وهموم الغِنى** (مت ١٣: ٢٢) **وسعت وراء الشهرة أو المركز العالمي والكرامة والفخر، فقد انعدمت منها القدرة على الالتصاق بالمسيح.**

٤٤٦ - إن الشر يعمل فينا حقاً بقوة، ويحرك كافة الشهوات الدنسة والفاسدة فينا، لأن هذه هي طبيعته، ولكن، **من مراحم الرب أن الشر غريب عن طبعنا ولا يمتزج بطبيعتنا قط كامتزاج الماء بالخمر مثلاً بل يكون منفصلاً كوجود الزوان مع القمح في الأرض.**

٤٤٧ - من شاء أن يتقدم إلى الرب ويُحسَب أهلاً للنجاة ووارثاً للحياة الأبدية ومسكناً للمسيح، يجب عليه أن يبتدئ بالإيمان ويثق بالرب ويسلم نفسه بكليتها ليسوع ويودِّع العالم وداعاً تاماً.

٤٤٨ - متحررين من كل الأهواء المشوشة للحياة الروحية، ساعين بلا انقطاع نحو الله، غير متكلين على عطية ولا على بر.

أبا مكاريوس الكبير

٤٤٩ - أول ما يجب عليك عمله أن تقاتل طبيعتك في عاداتها القديمة وشهواتها التي نمت معك. **وعند مقاومتك للعادة والطبع ستصادف أفكاراً مضادة من عدو الخير، تردك إلى عمل الأمر الذي تسعى للتحرر منه والذي خرجت منه بجهاد شديد، فعليك أن تضاعف حربك وتقدم لنفسك أدلة وبراهين لكشف قوة الظلام الخفية الخادعة الكائنة في القلب. واعلم أن الرب قريب من نفسك وجسدك بحيث يرى قتالك، إلا أنه يتركك لتأخذ معرفة وكفاءة إلى أن تتقوَّم. وأيضاً تهذيك النعمة إذا ازدادت ضيقتك. وبعد أن تصل إلى الراحة تعرِّفك النعمة بنفسها وتبيِّن لك جهراً أنها تركتك تتدرب لأجل خيرك** «قد علمتُ يا رب أن أحكامك عادلة. وبحق أذللتني» (مز ١١٩: ٧٥)، «خيرٌ لي أنك أذللتني لكي أتعلم حقوقك.» (مز ١١٩: ٧١)

٤٥٠ - إن ربنا يسوع المسيح أتى لكي يحوِّل ويغير ويجدد ويخلق النفس التي فسدت بالأهواء الدنسة والمعصية، بحيث يمزجها بروحه الإلهي. فهو يخلق عقلاً جديداً لها وعيوناً جديدة وآذاناً جديدة ولساناً روحياً

جديداً، فهو يجددنا تماماً ويمسحنا بنعمته ليجعلنا آنية جديدة تصلح للخمر الجديدة، أي روحه القدوس، لأنه هو القائل: «الخمر الجديدة تُجعل في زقاق جديدة.» (مت ٩: ١٧)

٤٥١ – إن من يختار العيشة الانفرادية يجب عليه أن يعتبر كل الأشياء التي صادفها في العالم بعيدة عن طريقه وغريبة عنه، لأن الذي يتبع صليب المسيح بحق ويجحد جميع الأشياء حتى نفسه ينبغي له أن يقيد عقله بحب المسيح، بحيث يفضل طريقه الذي سار فيه على الوالدين والإخوة والزوجة والبنين والأقارب والأصدقاء والأملاك (لو ١٤: ٢٦).

أبا مكاريوس الكبير

٤٥٢ – إن الفرق بين أولاد الله وأولاد العالم كبير، فكل ذرية تشبه أباها. فإذا سلَّم أولاد الله أنفسهم للعالم ولأمور الأرض ولفخر هذا الزمان الحاضر، فإنهم يذبلون ويموتون روحياً ولن يجدوا راحة في حياتهم لأنهم يكونون بعيدين عن أبيهم، حيث يخنقهم الشوك الذي هو هموم هذا العالم وغرور الغِنى.

أبا مكاريوس الكبير

٤٥٣ – وأقول أيضاً إن النفس لها أوجاع نخبركم بها وهي: كبرياء، غضب، تعيير الناس، قلة إيمان، عدم عفة، وبقية الآلام. ولكن **إذا أسلمت النفس ذاتها للرب بكل قوتها فإن الله الصالح، يُظهر لها هذه الأوجاع والعيوب واحدة فواحدة لكي تحيد عنها.**

أبا أنطونيوس الكبير

٤٥٤ – **الرب عالم بطغيان الشيطان، لذلك أمر أولاده أن لا يكنزوا لهم كنوزاً على الأرض.**

٤٥٥ – وأنا أطلب إليكم باسم ربنا يسوع المسيح أن لا تتوانوا عن حياتكم وخلاصكم، ولا تدَعوا هذا الزمان الزائل يسرق منكم الحياة الأبدية، ولا هذا الجسد اللحمي الفاني يبعدكم عن المملكة النورانية. ولا هذا الكرسي الفاني الهالك ينزلكم عن كراسي محفل الملائكة. **بالحقيقة يا أولادي إن نفسي لمندهشة وروحي منزعجة لأننا أُعطينا كلنا الحرية أن نكون قديسين ونحن بعمانا سكرنا بأوجاع هذا العالم.**

٤٥٦ – وأنا أطلب إليكم يا أولادي الأحباء أن تعلموا أننا خُلِقنا ذوي سلطان على إرادتنا، من أجل ذلك تقاومنا أرواح الشر لتُضعف هذه الإرادة منا. ولكن ملاك الرب يعسكر حول خائفيه ومن جميع أحزانهم يخلصهم.

أبا أنطونيوس الكبير

* * *

ملخص المبادئ الهامة:

(١) يجب أن نعدَّ ذواتنا للصلاة قبل البدء بها، وهذا يستلزم أن نتدرب على الشعور بحضور الله معنا أثناء العمل والحديث والأكل؛ أي أن حياتنا تسير في حضرة الله.

(٢) علينا أن ننقي نفوسنا؛ وذلك بالتدقيق في حياتنا. فلا نعمل ولا نفكر ولا نتكلم إلا ونحاسب أنفسنا: لو كان المسيح أمامي الآن هل يوافق على عملي أو فكري أو كلامي؟

(٣) الاحتراس من العلل التي تثقل قلوب الأطهار: شهوة الأكل والامتلاء من الطعام، شرب الخمر والتلذذ بالمسكر، الإشتغال بهموم العالم للاتساع والشهرة وجلب الكرامة والغِنى.

(٤) لكي نُميت الشوك الضار يلزم استئصال الجذور. جذور الخطية هي الإرادة التي تميل إلى الشهوة والشر. الجذر يدل على نوع الشجرة، فالتلذذ برؤية وجوه النساء وأحاديثهن يدل على خطية الزنى المختفية في القلب؛ ورفع الصوت والتشبث بالرأي يدل على الصلف والغضب؛ والتألُّم عند طلب ما لنا أو استعارة شيء منا يدل على البخل وعدم الرحمة؛ واحتقار الناس أو شعورنا بأننا نمتاز عن غيرنا يدل على الكبرياء. فإذا لم نقاوم هذه العلل ونقطع أصول هذه الجذور التي تظهر في مبدأها أموراً تافهة، فإنها تنمو وتصير أشجاراً كبيرة تحمل ثمار الموت.

(٥) لا تحاول إخفاء عيوبك وكتم عللك وخطاياك، مهما كانت صغيرة، ولا تظن أنك تستطيع أن تقاومها أو تقضي عليها بقوتك، فهي كالماء يظهر سهلاً ليناً لا قوة فيه إلا أنه يحمل أعظم السفن. إذن فاكشف عيوبك لمرشد نصوح وتتبَّعها حتى تفنيها.

(٦) درِّب نفسك على ما هو ضد عللك. فإذا كنت مصاباً بالغضب، وبِّخ نفسك بشدة على حماقتك وتسرُّعك. حاول أن تضع لنفسك حدوداً تتذكرها وقت الغضب فتقف تواً عندما تصل إليها، مهما كانت الخسارة التي سوف تلحق بك. لأنه أهون علينا أن نحتمل أي خسارة كانت ولا نخسر الله وسلامنا معه. درِّب نفسك على الاحتمال فهو يقطع دابر الغضب.

(٧) كن مدققاً في حياتك، لأن التدقيق من أهم قواعد الحياة الروحية. فلو دققت في نفسك بأمانة لكشف الله لك ذاتك فتراها ملأى بالخطايا الصغيرة المفسدة المستترة فيك التي تمنعك عن الانطلاق في حياة الصلاة والعبادة مثل: الضجر - التشبُّث بالفكر - التصلُّف - الصلاة الباردة - التشتت والأفكار الشريرة - البخل وعدم مساعدة الناس - الضحك والقهقهة.

(٨) اللذة صنارة في يد الشيطان، إذا أمسكتها بيدك أو بفمك أو بلسانك أو بعينك أو بأذنك، جذبك منها بجملتك إليه. قاوم اللذة، ارفضها.

(٩) الخطايا سلسلة متصلة الحلقات، متى سقطتَ في إحداها سهُل سقوطك في الأخرى. فقاوم حتى الدم جميع علل الخطايا ولا تستهِن بأصغرها.

(١٠) لا تستسلم لمحبة الأشياء الجديدة واقتناء الأشياء الحديثة، لأنها تربط قلبك بالعالم.

(١١) لا تكن محباً للعلم الكثير الذي للمجد الذاتي والشهرة، لأنه قد يحرمك من الله.

(١٢) ابتعد عن الأماكن التي تُعثرك والأشخاص الذين لا تستطيع أن تضبط نفسك معهم فتجاريهم في الشر، وكذلك الكتب والمجلات والصور، وسماع الأغاني المعثرة، فإن مجرد الابتعاد عن علل الخطايا وأسبابها هو نصف الانتصار.

(١٣) اغصب نفسك وقاوم فكرك حتى لا تخضع للتلذذ بالأفكار الشريرة التي يعرضها عليك فكرك، واعلم أن سبب عودة الأفكار إليك راجع إلى رضائك عنها وتلذُّذك بها أحياناً. ففي اليوم الذي فيه ترفضها تماماً وتُظهر نيتك أمام الله أنك غير راضٍ عنها، يرفعها عنك من أجل تعبك وجهادك.

(١٤) ليس الشيطان أقوى منك، لأنك لست وحدك.

الشر ليس من طبيعتك لكنه كالزوان يغرسه فيك العدو. فلا تيأس لأن نفسك نقية كالشمس ويوم تقلع الزوان من قلبك يظهر لك جمالها.

(١٥) إذا عادت نفسك إلى الشر فلا تيأس، بل ضاعف جهادك: «قاوموا إبليس فيهرب منكم» (يع ٤: ٧)، لأن الرب واقف يرى جهادك وتعبك وسيرفع عنك ثقل الحرب في الوقت المناسب.

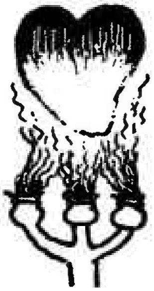

الفصل الثاني

تنقية القلب

+ «فوق كل تحفُّظ احفظ قلبك، لأن منه مخارج الحياة».

(أم ٤: ٢٣)

+ «من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة ...» (مر ٧: ٢١)

+ «أما الشهوات الشبابية فاهرب منها واتبع البر والإيمان والمحبة والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقي» (٢تي ٢: ٢٢).

القلب، في المفهوم الإنجيلي، هو القاعدة التي تصدر عنها كل مفاعيل الحياة الروحية والجسدية: «فوق كل تحفُّظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة» (أم ٤: ٢٣)، ليس الصالح منها فقط بل والشرير أيضاً: «لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف.» (مت ١٥: ١٩)

لذلك أصبح القلب هو المعبِّر عن حالة الإنسان النهائية إن كان صالحاً أو شريراً: «الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يُخرج الصلاح والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يُخرج الشر» (لو ٦: ٤٥)، وذلك يعني أن حركة القلب الداخلي تصبغ الإنسان كله أي تصبغ تفكيره وأقواله وأعماله. فيستحيل أن يتكلم الإنسان دون أن يكشف عن قلبه شاء أو أبى: «فإنه من فضلة القلب يتكلم فمه» (لو ٦: ٤٥). لذلك أصبحت كلمة الإنسان شهادة طبق الأصل تعبِّر عن حقيقة قلبه وبالتالي يمكن أن تبرر الإنسان أو تدينه: «بكلامك تتبرر وبكلام تُدان.» (مت ١٢: ٣٧)

وعلاقة القلب بالفم يحددها القديس بولس الرسول: «إن القلب يؤمَن به للبر والفم يُعترَف به للخلاص» (رو ١٠: ١٠)، فالقلب حينما يؤمن، لا بد للفم أن يعترف بنوع الإيمان.

ولكن الإنجيل يحدثنا عن إمكانية وجود قلبين للإنسان، واحد يعبِّر عن حالة الإنسان تماماً، والآخر مزيَّف تصدر عنه أفكار وأقوال وأعمال كاذبة لا تعبِّر عن حالة الإنسان الحقيقية، فيتكلم ويعمل بالصالحات ليوهم الناس أنه صالح مع أنه شرير: «يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار، فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم.» (مت ١٢: ٣٤)

ومن كلام الرب نفهم أنه يستحيل على الإنسان أن يتكلم من نفسه بالصالحات، وهو شرير، إلا إذا كانت فيه قوة إضافية أو قلب آخر من الشيطان لتزييف الصالحات. وهذا نلمحه من وصف الرب لهؤلاء المزيِّفين للصلاح أنهم أولاد الأفاعي، فالأفعى تعبير رمزي عن الشيطان، حيث يكون القصد من إظهار الصلاح هو الإبقاء على الشر وتأمين استمرار

مفعوله، وهذا هو من صميم عمل الشيطان.

أي أن عمل الشيطان بالنسبة للقلب لا يكتفي بتلويثه بالشرور والشهوات فيصبح كنز القلب شريراً ينضح بالشرور، بل ويضيف الشيطان إلى ذلك إمكانية إعطاء قلب ثانٍ للإنسان يتكلم بالصالحات حتى يخفي بها الشرور ويؤمِّن عملها وسريانها.

أما عمل الله بالنسبة للقلب فهو انتزاع القلب الشرير جملةً وخلق قلب جديد يغرسه الله في الإنسان، وعندما يصبح القلب قلباً آخر يصبح الإنسان بالضرورة إنساناً آخر!! «فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى **رجل آخر**، ... وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه قلباً آخر.» (١صم ١٠: ٦ و ٩)

وحقيقة خلق قلب جديد للإنسان تأتي في الكتاب المقدس مترادفة مع ثلاث عمليات أساسية: **الأولى**: إنسحاق قلب الإنسان الخاطئ، **والثانية**: غسل الإنسان وتطهيره كله من الداخل، **والثالثة**: حلول الروح القدس.

وهذه العمليات نجدها واضحة أشد الوضوح في المزمور الحادي والخمسين لداود النبي:

«ارحمني يا الله مثل عظيم رحمتك ومثل كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ.

اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيتي طهِّرني ...

طهرني بالزوفا فأطهر، إغسلني فأبيضَّ أكثر من الثلج ...

قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في أحشائي، لا تطرحني من قدام وجهك **وروحك القدوس لا تنزعه مني** ...، **القلب المنكسر والمنسحق** لا ترذله يا الله ...».

ولكن كان خلق قلب جديد للإنسان في العهد القديم عملاً استثنائياً وفردياً. أما في العهد الجديد فأصبح عملاً معمماً، لا بالنسبة لخلق قلب جديد فقط بل بالنسبة لخلق إنسان جديد جملةً.

أما العمليات الثلاث فنجدها متضمَّنة جميعها في سر المعمودية أساساً، حيث يجري صورة الغسل والتطهير القلبي بالإيمان: «إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم» (أع ١٥: ٩)، وذلك أثناء الدفن في الماء باسم المسيح، ولكن لا يتم الغسل والتطهير إلا بالانسحاق القلبي بالتوبة والرجوع عن الخطيئة حيث يتم الغفران: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران

الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس» (أع ٢: ٣٨)، أي أنه بتكميل الغسل والتطهير بالإيمان والتوبة يحل الروح القدس.

وهكذا أصبح ممكناً لكل إنسان أن تتم له الخلقة الجديدة للقلب الجديد من الماء والروح، وذلك من خلال الإيمان والتوبة. ولكن هناك فارقاً هاماً جداً وخطيراً بين تنقية القلب بالإيمان والتوبة وبين قبول خلقة قلب جديد نقي بالروح القدس!

فتنقية القلب عمل حتمي وضروري بالنسبة لنا، أما خلقة قلب جديد نقي فهذا عمل فائق على الطبيعة يختص بالله وحده. ولكن عمل الله مرتبط بعملنا، لأنه بقدر ما ننقي قلبنا من الشرور بالإيمان والتوبة بقدر ما نصبح قادرين على استيعاب القلب الجديد المخلوق فينا بشبه الله، بمعنى أنه بقدر ما نكره الشرور ونجزع من الأفكار والشهوات الشريرة ونرتعب من أعمال الخطيئة، بقدر ما نصبح قادرين على استيعاب قوة القداسة لتسكن فينا كطبيعة جديدة مع فاعلية المحبة الإلهية وإيحاءات البر، وبقدر اجتهادنا في تنقية القلب من ظلمة الخطيئة التي تعمي البصر الروحي نصبح قادرين على احتمال سُكنى الحق فينا وتغلغله في أعماق كياننا. أو بمعنى آخر، أنه بقدر ما نخلع الإنسان العتيق بشروره وقبائحه نستطيع أن نظهر في قوة الإنسان الجديد الإلهي: «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه.» (كو ٣: ٩ و ١٠)

وبهذا ندخل في مجال اللاهوت النسكي، الذي يجعل من عمل الإنسان واجتهاده المؤازَر بالنعمة قاعدة أساسية لهبات الله الفائقة على عمل الإنسان وطبيعته!

والآباء النسَّاك عموماً جعلوا «تنقية القلب» أساساً حتمياً للخلاص الذي يؤهِّل لاستعلان الإنسان الجديد، حتى يمكن أن يعيش الإنسان في جدة الحياة الروحية كإنسان روحي في المسيح.

والقلب في المفهوم الآبائي ἡ καρδία مطابق لمفهوم الإنجيل، إذ يعتبرونه مركزاً للكيان البشري عموماً. فالقلب، بالمعنى الروحي عند الآباء، يطابق في وصفه وعمله المخ عند الأطباء، بل وربما أشمل من ذلك، فهو مركز للقدرات والطاقات والذكاء والبصيرة والإرادة والحكمة والرؤيا، تنبعث كلها منه وتنصبُّ كلها فيه:

٤٥٧ - كذلك القلب، يوجد فيه العقل كمدبِّر، وتوجد فيه النية كمؤنِّب، وتوجد فيه الأفكار تشكو وتعفو.

أبا مكاريوس الكبير (العظة ١٥)

ويصفه القديس مكاريوس الكبير أيضاً في نفس هذه العظة أنه: (معمل للعدل والظلم والبر والإثم).

فيقول، ولو أن القلب قد يصبح ملتقى كل الشرور إلا أنه قد يكون أيضاً:

٤٥٨ - ملتقي الله والملائكة والحياة والملكوت والنور والرسل حيث توجد فيه كلها مع كل كنوز النعمة.

أبا مكاريوس الكبير (عظة ٤٣)

٤٥٩ - فإذا ملكت النعمة على مراعي القلب أصبحت مطلقة في تدبيرها لجميع الأعضاء والأفكار، لأن من القلب يستمد العقل قوته مع كل أفكار النفس وأملها. ولذلك إذا ملكت النعمة على القلب تغلغلت في كافة أعضاء الجسد.

أبا مكاريوس الكبير (العظة ١٥)

نفهم من هذا أن النعمة في نظر الآباء يمكن أن تتغلغل إلى الفكر والإرادة والضمير والأعضاء كلها إذا ما ملكت على القلب، بمعنى أن طبيعة الإنسان، الذي تملُك النعمة على قلبه، تصبح بالتالي طبيعة روحانية جديدة. ومن هنا تظهر قيمة تنقية القلب تمهيداً لسُكنى النعمة.

والقديس مكاريوس الكبير يتمسك بأن القلب الشرير يلوث الإرادة والمشيئة، وينجس الميول والغرائز الطبيعية، ويصير كل شيء غير طاهر في عيني ذلك الإنسان وفي يديه دون أن يدري!!!

٤٦٠ - جميع الذين هم بنو الظلمة تتسلط الخطيئة على قلوبهم فتنفذ في الأعضاء كلها «لأن من القلب تخرج الأفكار الشريرة». فإذا انتشرت في الأعضاء تظلم طبيعة الإنسان كلها ... لأن الخطيئة تسري من داخل القلب إلى الأعضاء كما يسري الماء داخل القناة ... وكل الذين ينكرون هذا فهم مختلُّون حقاً ويظهرون أنهم مثقَّلون بالخطيئة التي تكون قد ظفرت بهم دون أن يدروا لأن الشر الذي فينا يجتهد أن يختبئ ويختفي بالكلية ...

أبا مكاريوس الكبير (العظة ١٥)

لذلك أصبح أول جهاد الإنسان وأول همه للتغلب على انحرافات الإرادة وإصلاح الميول والغرائز التي تكون قد خضعت لسلطان الشر، هو تنقية القلب بالدرجة الأولى، أي مواجهة حركة الشر داخل القلب وضبطها ومقاومتها والقضاء عليها.

والقديس مكاريوس الكبير يصف القلب في العظة ١٥ بأنه: [قصر المسيح الذي يستريح فيه]، كما يصفه أيضاً بأنه: [مدبِّر السفينة الذي يأمر وينهي ويدبر كل شيء] وأنه: [قائد العربة الذي يقبض على أَعنَّة الخيل ... متى شاء تحمله المركبة بأسرع ما يمكن ومتى شاء أوقفها، وأي طريق يريد الميل إليها تميل معه، فالمركبة كلها في قبضة ماسك الأعنَّة، كذلك القلب].

وهكذا يعبِّر القديس مكاريوس عن خطورة عمل القلب وأهميته العظمى كمدبِّر لسفينة حياتنا وكقائد للمركبة التي تجرُّها أجسادنا، فإذا كان المدبِّر جاهلاً أحمقاً فماذا يكون مصير السفينة؟ وإذا كان القائد أرعناً مجنوناً فماذا تكون نهاية المركبة وخيلها؟

وإن كان البيت نجساً فكيف يحل فيه الملك أو يستريح؟

٤٦١ - كم بالحري يحتاج بيت النفس، الذي هو القلب، لزينات كثيرة ونقاوة حتى يمكن أن يدخله الله النقي من كل عيب! هذا هو القلب الذي فيه يحل الله وكل الكنيسة السماوية.

أبا مكاريوس الكبير (العظة ١٥)

والقديس مكاريوس يرى أنه كما تبدأ إعادة بناء المدينة بهدم الخرب، وكما تبدأ زراعة الأرض بحرق الأشواك، كذلك تبدأ سيرة الحياة بتنقية القلب!

٤٦٢ - وكما أن المدينة الخربة إذا أرادوا أن يبنوها من جديد، فأول عمل هو هدم الخرابات القائمة المتساقطة... وكما أن من أراد أن ينشئ بستاناً في مكان قفر رديء، يشرع أولاً في التنظيف وقلع الأشواك... كذلك الإنسان فبعد السقوط يصير قلبه قفراً خرباً ... فلا بد من كثرة التعب والكد للإنسان، إذن، لكي يضع الأساسات ويطهِّر القلب لتدخله النار.

العظة ١٥

ولكن لماذا اختار الله قلب الإنسان ليكون مكاناً مخصصاً له دون سواه؟ «يا ابني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طرقي» (أم ٢٣: ٢٦)!! وأول وصية: «تحب الرب إلهك من كل قلبك» (تث ٦: ٥)!!

في الحقيقة، لا يملك الإنسان ما هو أعمق من القلب، شعوراً وحناناً ولطفاً ورحمةً ووداداً. فالقلب هو تعبير عن مركز عواطف الإنسان أرقها وأصدقها، ولكن ليس من أجل ذلك يطلب الله قلب الإنسان!!

إذ يوجد للقلب صفة فائقة على اللطف والحنان والرحمة والوداد، وهي أنه يُعتبر القاعدة التي تنبثق منها الشخصية بكل مكوناتها ومميزاتها، فالقلب هو بمثابة قدس أقداس الإنسان. وهذه هي الصفة الوحيدة التي تجعله مناسباً لله. فالإنسان إذا أحب الله من كل قلبه، فهذا يعني أنه أحبه من كل كيانه، بل ويعني أنه قد وهبه كل نفسه!

وحينما يقول القديس مكاريوس إن القلب يشمل العقل والضمير والأفكار ضمن مكوناته، يكون قد وضع يده على العلة الأساسية التي جعلت الله يطلب قلب الإنسان ويهتم بحبه!!

فالله لا يهتم بحب العواطف مهما كان عنيفاً وجارفاً، لأنه حب ينطفئ حتماً في الطريق حينما تنجرح العواطف أو تُهان.

ولكن الله يهمه حب القلب، لأن ذلك معناه أن الإنسان يكون قد فرَّط في ذاته وكل كيانه، وهذا هو الحب الذي تزيده الجروح اشتعالاً والآلام اكتمالاً والموت كمالاً!!

لذلك أصبحت تنقية القلب بالنسبة للمحبين لله أمراً بالغ الأهمية والخطورة لأن الله لا يطلب ولا يرضى بالحب النصفي أو الجزئي، فلا بد أن يكون كل القلب لله!! فمعنى «كل القلب» هو تصفيته تماماً من كل شوائب العواطف البشرية القائمة على روابط اللحم والدم أو الميول والعواطف الحسية، كما يعني تطهيره تماماً من كل الأوثان والمعبودات السرية. فقدس الأقداس ينبغي أن يُقدَّس ويُزيَّن لله فقط.

أقوال الآباء في تنقية القلب:

٤٦٣ - «فوق كل تحفُّظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة» (أم ٤: ٢٣). هذا يعني أن لا نفقد التفكير في الرب لأي سبب كان، ولا أن أفكار العالم الزائل تحجب ذكر عجائبه عنا، فنحمل فكر الله المقدس أينما سرنا، كختم ثابت لا يُمحى مطبوع في قلوبنا بتذكار دائم. هكذا نستطيع أن نقتني حب الله على الدوام الذي يدفعنا لتكميل وصاياه بالفرح، فتلذ لنا الوصايا ويدوم لنا الحب.

باسيليوس الكبير

٤٦٤ - لقد حبتنا الطبيعة الطاهرة حب ما هو طاهر وجميل. أما بخصوص جمال الله الفائق فنحن لا نستطيع تذوُّق جماله العجيب إلا إذا تطهَّر القلب من كل ما هو باطل، وحينئذ تشتعل فينا هذه اللذة الروحية لأنها باقية حية غير محصورة، كشهوة طاهرة مغروسة فينا تصبو على الدوام في حنين نحو منبعها، وتشتاق إلى صاحب ذلك الجمال الفائق: «إني مريضة حباً.» (نش ٢: ٥)

باسيليوس الكبير

٤٦٥ - «من الأعماق صرخت إليك يا رب.» (مز ١٣٠: ١)

ما معنى «من الأعماق»؟ إنها ليست هي صلاة الشفتين أو مجرد تحريك اللسان، التي تخرج دون أن يكون للفكر أو القلب نصيب فيها! إنها صلاة عمق القلب ومن أساسات النفس بحرارة شديدة وغيرة متقدة. مثل هذه الصلاة تستقيم صاعدة أمام الله بشدة وبأس ولا يمكن أن تتزعزع أو تطيش، حتى ولو هاجمها الشيطان بكل ما أوتى من جرأة وتوقح. ولكن تلك الصلاة الهزيلة التي تخرج من الفم فقط، التي يكون مبدأها اللسان ونهايتها الشفتين، هذه لن تصل إلى الله لأن القلب لم يشترك فيها. وكل من يصلي هكذا فهو الذي تتحرك شفتاه وقلبه فارغ وعقله بليد متكاسل.

يوحنا ذهبي الفم

٤٦٦ - الرب لا يطلب تنسيق الكلام ومهارة تركيب الألفاظ، بل يطلب حرارة النفس وغيرتها. وكل من يتقدم بهذه الغيرة والحرارة ويتكلم أمامه بما يشعر به وهو راضٍ عما يقدمه، يخرج من لدن الرب وقد نال كل شيء.

٤٦٧ - ليتنا نعرف ما هي الأشياء التي تدنس الإنسان، وحينما نعرفها نهرب ونفر منها.

نرى الذين يأتون إلى الكنيسة يعتنون جيداً كيف يأتون بثياب بهية نظيفة، مغتسلي الأيدي والوجوه، ولكن كيف يقدمون نفوساً نقية طاهرة أمام الله، هذا لا يعنون به لا في كثير ولا في قليل.

لست أقول هذا لأمنعهم عن غسيل اليد أو الفم، ولكن أريدهم أن يغتسلوا كما يجب من الداخل والخارج، ليس بالماء فقط بل بالفضائل أيضاً!!! لأن قذارة الفم الحقيقية هي الكلام الخبيث والخداع والشتيمة وكلام الغضب وكلام السفاهة والضحك والمزاح. فإذا تيقظنا لأنفسنا وتنقينا من هذه الأدناس - التي منبعها القلب - حينئذ نستطيع أن نقترب إلى الصلاة في ثقة!

أما إذا كنتَ قد اتسخت بهذه الأمور فلماذا إذن هذا الجهد والعناء باطلاً! تغسل فمك بالماء وتجهد نفسك مراراً كثيرة. وبعد ذلك تملأه بكل قذارة الألفاظ ووسخ الحديث المميت!

أخبرني: إذا حملتَ زبْلاً على يديك أو طيناً، أتجرؤ أن تقف وتصلي؟ كلا بلا شك، مع أن ذلك لا يدنسك بقدر الأعمال والأقوال التي تأتيها والتي فيها كل الضرر والهلاك!

ما هذا، ألا نصلي إذن؟ كلا، بل نصلي ولكن ليس ونحن ملوثون بهذا الطين والوسخ الداخلي!

وماذا أعمل وقد لحقني هذا الأمر؟ اغتسل وطهِّر ذاتك ...

كيف وما هي الوسيلة؟ إبكِ، تأوَّه، قم اعتذر لمن أهنت وصالحه، قدِّم الصدقة، اغسل لسانك ونظفه جيداً من كل ما يُغضب الله، لئلا بصلاتك تهين الله وتغيظه بالأكثر...

لأن من ملأ يديه زبلاً وطيناً وأراد أن يمسك بقدميك ليتوسل إليك، فإنك تطرده طبعاً دون أن تسمع إليه. فكيف تجرؤ إذن وأنت بمثل هذه الحالة أن تقترب من الله؟ فلسانك هو اليد التي تمدها في الصلاة! فلا تدنسه لئلا يقول لك: «يا صاحب كيف دخلت إلى هنا؟ ... خذوه اطرحوه في الظلمة الخارجية!» (مت ٢٢: ١٢ و ١٣)، وإذ ذاك «إن كثرتم الصلاة لا أسمع» (إش ١: ١٥)، لأن «الموت والحياة في يد اللسان» (أم ١٨: ٢١). «وبكلامك تتبرر وبكلامك تُدان!» (مت ١٢: ٣٧)

٤٦٨ - لذا أنا آمرك (من قِبَل الرب) أن تحفظ لسانك أكثر من حدقة عينك! فاللسان هو الحصان الملكي، فإذا أسرَجْتَه حسناً ودرَّبته أن يخطو بانتظام وترتيب فالملك سيجد فيه راحته ويأخذ مكانه عليه؛ أما إذا تركته يجمع بلا ترتيب هنا وهناك ويندفع ويقفز بجهالة وبلا مبالاة فسيصير وحشاً مهيَّأً لمطية الشيطان والأرواح النجسة.

٤٦٩ - ولا تهِنْ لسانك! وإلا فكيف يتوسل من أجلك وقد فقد ثقته وشجاعته الأدبية؟ زيِّنه يا أخي بالاتضاع واجعله أهلاً للوقوف أمام الله. املأه بالنعمة وكلام الرحمة والسلام. زيِّنه بالتبريك من أجل كل

شيء. وكل أيام حياتك جمِّله بحلاوة ترديد وصايا الله: «إن كان أحد فيكم يظن أنه ديِّن وهو ليس يلجم لسانه بل يخدع قلبه، فديانة هذا باطلة.» (يع ١: ٢٦)

٤٧٠ – ونحن إذ قد زيَّنا أنفسنا هكذا نأتي إلى إلهنا ونخر عند قدميه ليس بالجسد فقط ولكن أيضاً بالعقل. ليتنا نعتبر من هو الذي نقترب إليه وإلى من نتوب. فنحن نقترب كثيراً من الله، الذي يتطلع إليه الساروفيم فيديرون وجوههم غير مستطيعين التفرُّس في بهائه، والذي من منظره يرتعب الشاروبيم. نحن نقترب كثيراً من الله «الساكن في نور لا يُدنى منه» (١تي ٦: ١٦). باقترابنا إليه نُعتق من الجحيم وننال غفران الخطايا وننجو من العذابات غير المحتملة ونرتفع إلى السماء ونُمنح أشياء سماوية. أقول ليتنا نخر أمامه بالجسد والعقل كليهما حتى يرفعنا عندما يرى انخفاضنا. وإذا تحدثنا إليه ليتنا نتحدث بكل خشوع ولطف ووداعة.

يوحنا ذهبي الفم

٤٧١ – يجب أن نصلي ليس فقط باللسان ولكن بالقلب، بأن تخرج الصلاة أولاً من القلب، لأننا في الصلاة نقدم ما في قلوبنا من رغبات وأشواق ومشاعر.

لهذا يجب أن نفكر بالعقل ونشعر بالقلب، في كل كلمة ورغبة يقدمها اللسان أو تتلفظها الشفتان، وإلا أصبحت صلاتنا كلاماً فقط.

الأسقف تيخون (ز.)

٤٧٢ – أعمال جسدية دون طهارة عقل، كرَحْمٍ عاقر وثدي ناشف. لأن بأعمال الجسد وحدها لا يتقدم الإنسان أي خطوة نحو الله. فهي إجهاد للجسد بلا نفع. وهي لا تقوى حتى على استئصال أهوية القلب المنحرفة ونزعاته المريضة ولهذا فهي غير نافعة لشيء قط.

مار إسحق السرياني

٤٧٣ – إذا سأل إنسان في الصلاة من أجل النجاة من تجارب أو الراحة من أتعاب أو قتال أو طلب النصرة على البلايا والمحن، أو حتى نوال الفضائل وغبطة النعمة وحرارة وفرح الروح، ويطلب بغرض مستقيم وقلب حزين، فالله يتنازل ليكمل إرادة ذلك الإنسان ويمنحه رغباته.

أما بخصوص الأسرار التي للروح ومواهب وبركات الصلاة الروحية ودخول العقل خلف حجاب قدس الأقداس، وإدراك كنه الميراث الذي لا يضمحل، فإذا لم يدفع الإنسان ثمنها وما هو مستحق عليها، فالله **لن يعطيها**، حتى ولو قامت الخليقة كلها تتوسل نيابةً عنه! أما استحقاقاتها فهي طهارة (نقاوة) النفس!

مار إسحق السرياني

٤٧٤ – ما هي نقاوة النفس؟

– هي قلب مملوء رحمة نحو الخليقة.

– وما هو القلب الرحيم؟

– هو القلب الذي يتحرك بالرحمة فتئن أحشاؤه بإشفاق وحُنُوٍّ بالغ نحو كل الخليقة، بما فيها من إنسان وحيوان ووحوش ودبيب وكل ما هو كائن حي، حتى أنه من مجرد التفكير في ضعفها يذرف الدمع ويبكي، ويصير القلب رقيق الإحساس إلى درجة لا يقوى فيها على سماع أو رؤية أذيَّة تلحق إحدى هذه الخلائق! وهو يتقدم نائباً عنها مقدِّماً صلوات بدموع على الدوام من أجلها، سواء كانت هذه المخلوقات عاقلة أو غير عاقلة، لكي الرب يحرسها ويشددها.

مار إسحق السرياني

٤٧٥ – إذا كنتَ نقي القلب فحينئذ تكون السماء داخلك. وترى في نفسك الملائكة ورب الملائكة أيضاً.

مار إسحق السرياني

٤٧٦ – الله نار يضرم القلب كلهيب، فإذا شعرنا بالبرودة في قلوبنا فهذا يعني أن العدو اقترب منا لأن الشيطان برودة، وعلينا حينئذ أن نصلي إلى الرب حتى يأتي ويلقي ناره في قلبنا للمحبة نحوه ونحو القريب. لأن إزاء وجه الله الكلي الدفء، يهرب الشيطان وتنقشع برودته من القلب.

الأب سيرافيم

٤٧٧ – كلما تنقى القلب وتطهر، اتسع وكبر واستطاع أن يجد مكاناً أوفر لأحباء أكثر. بيد أنه كلما تلوث بالإثم ضاق واستضاق فلا يستطيع أن يحمل إلا ذاته إذ يكون مشغولاً بحب نفسه. نحن نحب ذواتنا في أشياء لا تتناسب قط مع أنفسنا الخالدة: من ذهب وفضة وطعام وشراب وسُكْر وزنى وما شابه.

الأب يوحنا (ك.)

٤٧٨ – يجب علينا كمسيحيين أن نكون ذوي قلوب نقية، حتى نستطيع بما وُهِب لنا من إنارة عيوننا القلبية أن نتمتع بحب الله وكمالاته وجمال الملائكة ومجد العذراء وبهاء نفسها كأم لله الكلمة، وحُسْن أنفس القديسين وحبهم لنا؛ كذلك حتى نستطيع أن نتنعم بحقائق الإيمان المسيحي وندرك عظمة أسراره، وبنقاوة قلبنا ندرك كل ما في أنفسنا من عيوب أو جمال. أما القلب غير النقي والمشغول بشهوات هذا العالم فلا يتمتع إلا بشهوة العيون الجسدية وتعظُّم هذا العالم، فلا يرى شيئاً مما ذكرناه.

الأب يوحنا (ك.)

٤٧٩ - إنه مدهش ويستحق العجب، كون الذي لا تستطيع الملائكة أن تنظر إليه ولا ينطق به البشر أو يدركه عقل ما، يتنازل بدخوله قلب الإنسان ويسكن فيه! هو مخفى عن الأعين النارية التي للساروفيم ويُرى ساكناً في مخادع القلب! الأرض لا تقوى على حمل خطواته والقلب النقي يحمله داخله! السماء أصغر من أن تستقر على كفه، ويجد في القلب متسعاً لسكناه! كل الخليقة لا تستطيع أن تحتويه بأقصى حدود اتساعها وإذا طلبه قلب صغير فهو يسعه ويحتويه! لقد اختار الله مكاناً صغيراً في الإنسان لسُكناه، فإذا حلَّ فيه، صار الإنسان كله هيكلاً لله!

النفس هي هيكل الله والقلب هو المذبح المقدس الذي عليه تُقدَّم ذبائح التسبيح والحب الطاهر، والعقل هو الكاهن الذي يقوم بشرف الخدمة هناك.

مار أفرآم السرياني

٤٨٠ -كيف استطاع آباؤنا النسَّاك والحكماء أن يشعلوا في ذواتهم روح الصلاة ويثبتوا مقيمين فيها؟ كان الشيء الأول الذي فتشوا عليه وطلبوه هو أن يبقى القلب ملتهباً دائماً نحو الله بلا انقطاع! والله يحتاج إلى القلب لأن منه منبع الحياة، وحيث يكون القلب بنبضاته الحية يكون الصحو والإنتباه والعقل وكل الحواس. فحينما يكون القلب مع الله تكون النفس فيه أيضاً ويقف الإنسان أمامه كعابد حقيقي بالروح والحق.

الأسقف ثيوفان الناسك

٤٨١ - وكما أن كل قوة الأحكام والوصايا التي وضعها الله لجنس البشر تحدُّها نقاوة القلب، هكذا أيضاً كل أنواع الصلاة التي يصلي بها بنو البشر تحدُّها الصلاة النقية.

مار إسحق السرياني

٤٨٢ - بمداومة حفظ القلب تتولد فيه النقاوة التي بها يرى الله، حسب شهادة الرب: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.» (مت ٥ : ٨)

الأب سيرافيم (س.)

٤٨٣ - يجب أن تتحلى نفسك بثوب مشرق البياض ليس فيه أثر للانقسام والتعقيد، خالٍ من أفكار الشر أو النفاق والتظاهر لإرضاء الناس أو تشامخ الفكر أو إخفاء الشهوة في القلب، هذه لُطخ سوداء تلوث ثوب النفس وتعطيه رائحة العبادة الفريسية.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٤٨٤ - ما هي العلامة التي تدل على أن الإنسان قد وصل إلى نقاوة القلب؟

- حينما يرى كل الناس في نور جميل، دون أن يتراءى له أي إنسان أنه دنس أو نجس. مثل هذا الإنسان

يكون قد وصل إلى النقاوة. هذا تحققه كلمة الرسول: «حتى تفتكروا فكراً واحداً بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً. لا شيئاً بتحزب أو بعُجْب، بل فليحسب بتواضع كل منكم صاحبه أفضل منه» (في ٢: ٢ و ٣). وقول بطرس الرسول: «وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس.» (أع ١٠: ٢٨)

فما هي النقاوة إذن وما هو حدّها؟

النقاوة هي تجاهل كل أنواع المعرفة التي ليست في الأصل من طبيعة النفس النقية بل أوجدتها طبيعة العالم وحكمته الغاشة. أما حدُّها فهو أن نتحرر من هذه المعرفة الغريبة عن الطبع الروحاني إلى درجة نصل فيها إلى البساطة الأولى وكمال الطبيعة التي للطفل.

مار إسحق السرياني

٤٨٥ – لذلك يجب على المسيحيين أن يجتهدوا دائماً أن لا يفرط منهم حكم على أحد، لا على الزانية التي على قارعة الطريق، ولا على الخطاة الظاهرين بأعمالهم، بل يرى كل الناس على وجه العموم بنية طاهرة وعين نقية، حتى يصير كناموس ثابت طبيعي في النفس أن لا تحتقر أي أحد أو تزدري بأحد، أو تميز بين واحد وآخر.

فإذا رأيت إنساناً فَقَدَ إحدى عينيه، انظر إليه كمن هو سليم. أو إذا كان مبتور الذراع أو الرجل فلا تتفرس فيه كمن به عيب بل انظر إليه كأنه صحيح معافى. كذلك المفلوج والأخرس والأصمُّ وكل من به نقص. هذه هي نقاوة القلب، حينما ترى خطاة أو مرضى فلتكن فيك شفقة عليهم وليكن لك معهم حنان ورأفة.

أبا مكاريوس الكبير

٤٨٦ – فيلزم أن تطلب مصباحاً تنيره لتصل إلى حقيقة نفسك الطاهرة وأفكارك النقية بطبعها الأول.

أبا مكاريوس الكبير

٤٨٧ – صلِّ:

يا رب امنحني قلباً بسيطاً، رحيماً، طاهراً، مؤمناً، محباً، كريماً يستحق أن يكون مكاناً لسكناك أيها المنعِمُ العظيم.

الأب يوحنا (ك.)

٤٨٨ – النفس النقية ترى الله في كل نفس أخرى، كما أعلم الله بطرس حين كان في يافا واقفاً على السطح يصلي، لأنه ليس من أجل البهائم والوحوش صار له الصوت والرؤيا أن «ما طهّره الله لا تنجّسه أنت»، بل لينظر إلى كل الناس كأنهم أطهار. لذلك قال بطرس بعد أن تلقّن وتعلم من الروح القدس: «وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس.» (أع ١٠: ٢٨)

كذلك أنت يا محب الإله، قم صلِّ لتتعلم نقاوة النفس لترى كل الناس أطهاراً. قم اصعد على سلم النفس وارتفع إلى الطابع الأول منها الذي هو أعمال الجسد وصنع الفضائل، وحينئذ يمكنك الارتفاع إلى الطابق الثاني من نفسك الذي هو ضبط العقل والتسلُّط على الأفكار. فإذا ضبطت فكرك بالطهارة وصار هذيذك في الله فقط، حينئذ ترتفع إلى الطابق الثالث الذي هو نقاوة النفس فترى وأنت قائم تصلي كمثل بطرس على السطح أن كل شيء طاهر للطاهر!!

فإذا نظرت أُناساً أشراراً وفسقة أو نمامين وشتامين أو متوانين ومتكاسلين، فلا تظن أنهم من طبع البهائم خُلِقوا بل اعلم أنهم من الله أتوا إلى الوجود! وحينئذ يصيرون أطهاراً في عينيك! وإذا نظرت أُناساً جهلة وزناة وعبدة أوثان، فلا تقل في نفسك أنهم مثل الكلاب والخنازير، بل اعلم أنهم على شبه الله خُلِقوا، وهم له إن قاموا أو سقطوا.

والمسيح لما علَّمك أن تزور المسجونين أرادك أن تفهم أن الذين في الحبس هم المسيح بالحقيقة: «كنتُ محبوساً فأتيتم إليَّ»، لأنه «بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت ٢٥: ٣٦ و ٤٠)، ونحن نعلم أنه لا يكون في الحبس، غالباً، إلا عاملو الشر والسارقون والزناة والسحرة والقتلة. إذن، فالمسيح أراد أن يعرِّفك أن تنظر إلى فاعلي الشر كالأبرار، وأن لا تحكم على أحد بأنه دنس أو نجس أو شرير... فهو يطلب نقاوة قلبك مع نقاوة عينك.

وإذا نظرت قوماً مسيحيين وقوماً يهوداً وقوماً وثنيين، فبعين المحبة انظر للجميع كأنهم واحد، لأن المسيح قد مات من أجل الجميع.

وهكذا إذا نظرتَ جميع الخليقة بفكر طاهر ونفس نقية ورأيت أن الكل طاهر أمام عينيك، فاعلم أن المسيح حقاً ساكن فيك.

الأسقف أندريانوس

٤٨٩ - إن كن قد وُلدت بالمسيح حقاً، فكل مولود من المسيح هو أخوك. فإن أحببت نفسك أكثر من أخيك فهذه الزيادة التي لك ليست من المسيح.

الشيخ الروحاني

٤٩٠ - الصدِّيق يلقي همَّه على الرب، من أجل هذا - بغير شفقة على نفسه - قسَّم وفرَّق وأعطى المساكين. لأن يد الرب مفتوحة أمامه وهي مملوءة على الدوام فيأخذ ويعطي بسذاجة وبغير همٍّ.

الشيخ الروحاني

٤٩١ - إحذر من أن تكون جالساً وتفكر في إدانة أخيك، فهذا يستأصل جميع أعمال الفضيلة ولو

كنت قد ارتفعت إلى حد الكمال.

مار إسحق السرياني

٤٩٢ – نقاوة الفكر شيء ونقاوة القلب شيء آخر، والفرق بينهما كالفرق بين عضو واحد من الجسد وجميع الجسد. فالفكر هو أحد حواس النفس، والقلب هو ضابط كل الحواس الداخلية، وهو أصل كل الحواس، فإذا كان الأصل مقدساً فكل الأغصان مقدسة أيضاً.

٤٩٣ – إذا ما تنقى القلب، دامت نقاوته دون أن تتسخ سريعاً. لأنه يقتنيها بصعوبة وضيقات كثيرة.

مار إسحق السرياني

٤٩٤ – القلب الغاشُّ لا يتنقى أبداً.

٤٩٥ – كل شهوة خاطئة انضبط القلب بحبها وشغف بها، بألف حيلة وجهاد أعمال كثيرة وربوات صلوات ودموع ينعتق منها.

٤٩٦ – الذي اقتنى الفضائل العظيمة مثل الصوم والسهر والنسك وما اقتنى حراسة القلب واللسان، فهو يعمل في الباطل ويتعب للريح. لأنك إذا وضعت كل أعمال التوبة في كفة والتدقيق وحفظ القلب وتنقيته في الأخرى لرجحت الأخيرة.

٤٩٧ – إذا حفظت عينيك وأذنيك ولسانك لكي لا يدخل إلى قلبك شيء باطل، يتنقى قلبك سريعاً.

٤٩٨ – النفس التي ابتدأت تحمل الثمار البهجة هي التي تحررت من الضيق والكآبة والضجر، واتسعت لتحمل السلام والفرح بالله، وفتحت القلب رحباً لمحبة سائر الناس، وجلست على بابه تطرد كلام الفكر «هذا صالح وذاك شرير»، «هذا بار وذاك خاطئ»، ثم قامت لتجلس على عرش القلب لترتب فكر الضمير مع التمييز وتصلح حواسها بالنقاوة، لئلا يفلت واحد منها فيشتعل خلسة بالغضب أو الغيرة أو الحسد فتظلَّمَّ بقية الحواس.

٤٩٩ – إذا كنت مشتاقاً لسلامة القلب النقي وهدوء الضمير، اقلع من قلبك شجرة معرفة الجيد والرديء التي أمر الله أول جنسنا أن لا يأكل منها لئلا يموت!!

٥٠٠ – إذا جلست تفرز بين أخلاق الإخوة وتدابير سيرهم، فإنك بالضرورة سوف تخسر كثيراً، لأنك ستدين الناس، وبدون أن تشعر تلوم مدبر الخليقة، وتبرر نفسك، فتسقط في الكبرياء. أُنظر كم من الخطايا ولدتهم هذه الشجرة القاتلة!

مار إسحق السرياني

٥٠١ – احذر أن تنتقد أعمال الناس. احذر من الظنون والعظمة والجدال في البدع وفي أقوال الناس المنحرفين.

٥٠٢ – بعد جهد تجد قليلين من الأفراد استطاعوا أن يرذلوا وفرة العلم الذي اقتنوه، ويختاروا عليه البساطة وسذاجة القلب، هؤلاء هم أكاليل في تاج الملك.

٥٠٣ – إن مسرة الله هي أن نكون أنقياء مثلما خُلِقنا. فنحن نحزنه حينما نغير الشيء الذي خلقنا عليه، فالنفس على صورة الله النقية خُلِقت، إلا أننا أبدلنا هذه النقاوة بما يخالفها، لأنها يوم خُلِقت كانت فيها استطاعة أن تنظر الله بدالة. ونحن ضللنا بعيداً عنه وتعبَّدنا لآلام العالم والجسد!

٥٠٤ – بارِكْ دائماً بفمك ولا تذم أحداً، فلا تُذمّ أنت من أحد قط، لأن المذمَّة تولِّد مذمة، والبركة تجلب بركة.

٥٠٥ – لا شيء يستطيع أن ينقي القلب ويقربه إلى الله مثل الرحمة! والأفضل لك أن يدعوك الناس إنساناً عامياً من أجل بساطة يدك في العطاء بغرض مخافة الله وليس لطلب المديح، ولا يدعونك حكيماً رزين العقل لأجل عدم اضطرابك مع كل أحد!

مار إسحق السرياني

٥٠٦ – أحب المساكين، فإنهم بتوسطهم لك تحظى برحمة الله!

٥٠٧ – لا تكره روائح المرضى، لأنك أنت أيضاً ذو جسد!

٥٠٨ – لا ترذل المنسحقين، موسرين كانوا أو معسرين، لئلا تُضرَب بالعصى التي بها ضُرِبوا وتطلب معزياً فلا تجد!

٥٠٩ – لا تشمئز من المقطوعين وذوي العاهات، لأن ذلك لا يحدرهم إلى الجحيم!

٥١٠ – أحب الخطاة وامقت أعمالهم ولا ترذلهم من أجل زلاتهم، لئلا تُمتَحن بما امتُحنوا به!

٥١١ – اذكر أنك من الطبيعة الآدمية وشريك للخطاة في نتن الخطية.

٥١٢ – اتبع البساطة كتعليم الصيادين المستقيم الخالي من الغش.

٥١٣ – إن كنت نقي القلب رحيماً بالحق، فإذا ما انتُزع منك مالك ظلماً فلا تحزن من داخل ولا تشرح خسارتك لآخرين، بل لتكن خسارتك بمشيئتك مغتفرة برحمتك مستورة بصدقتك! فينغلب ظالمك كما تنغلب جمرة النار في وسط مياه كثيرة!

٥١٤ - أَظهِر أنت علامة نقاوة قلبك بمقابلتك الشر بالخير والبشاشة.

٥١٥ - اقبل مثلبة الكلام والظلم الواقع عليك كأنه حق، ولا تهتم كيف تقنع الناس أنك شُتِمت أو ظُلِمت، بل اسأل واطلب العفو!

٥١٦ - إبسط جناحك على المذنب. وإذا كنت لا تستطيع أن تحمل أوزاره عليك فبالأقل استره.

٥١٧ - إن كنت لا تقدر أن تسد فم المتكلم على إنسان بالشر، فلا أقل من أن تحفظ فمك من مشاركته في هذا الأمر!

٥١٨ - إذا قيل فيك ردیئاً وتعب ضميرك وتألم، فمهما قدمت من صلاة ودموع لا ينعتق ضميرك من التحرك بالغضب، وتنعصر نفسك بالهمِّ، إلى أن تعتقد تماماً أنك أنت المخطئ والمسيء سواء أخطأت أو لم تخطئ!

مار إسحق السرياني

٥١٩ - الذين يتراءون أمام الرب في الصلاة ولا يتقدمون بكل قلوبهم، بل يكونون ذوي رأيين، وجميع ما يصنعونه إنما يصنعونه حتى ينالوا المجد من الناس، فهؤلاء لا يستمع الله لهم في شيء ما من طلباتهم، بل بالأكثر يغضب عليهم.

أبا أنطونيوس الكبير

٥٢٠ - «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»، لأنه بغير طهارة الجسد ونقاوة القلب لا يستطيع أحد أن يكون كاملاً. فاحرصوا يا أولادي أن تنقوا قلوبكم من الحقد والغضب بعضكم على بعض لئلا يفاجئكم الموت فتُعدُّوا مع القتلة: «لأن من يبغض أخاه فهو قاتل نفس». ومن ظُلِم منكم فليقبل ذلك بفرح ويعطي الحكم للحاكم العادل. ومن ظلم رفيقه فليسرع إليه ويتضرع أن يغفر له، ولا تدَعوا الشمس تغرب على غيظكم.

أبا أنطونيوس الكبير

٥٢١ - إن الشرط الأساسي لنجاح الصلاة هو تنقية القلب من الشهوات عموماً ومن التعلُّق بأي شيء محسوس أياً كان. بدون هذا تظل الصلاة في درجتها الأولى أي درجة التلاوة. وبقدر ما تنقي قلبك بقدر ما تنتقل من صلاة التلاوة إلى الصلاة العقلية المتحدة بالقلب، حتى إذا ما أصبح القلب نقياً تماماً فحينئذ ترى أنه هين عليك أن تدوم في الصلاة بلا انقطاع! ... وكيف تبدأ العمل؟:

في الكنيسة تابع الخدمة بانتباه واربط أفكارك ومشاعرك بأفكار ومشاعر الخدمة ذاتها. في البيت أيقظ في نفسك مشاعر الصلاة وحاول أن تداوم على إنماء روح الوجود في حضرة الله.

الأسقف ثيوفان الناسك

ملخص المبادئ الهامة:

(١) وسيلة الوصول إلى نقاوة القلب هو تذكار الله الدائم في القلب بحيث لا يحجب ذكره أي اهتمام آخر. فإذا ما وصلنا إلى هذا الاختبار نكون قد وصلنا إلى نقاوة القلب.

(٢) لا نستطيع أن نتذوق جمال الله وحلاوة العشرة مع أرواح القديسين والملائكة إلا بعد أن نصل إلى نقاوة القلب.

(٣) لن يكون لصلاتنا قوة أو مفعولية إلا بعد الوصول إلى نقاوة القلب، وتكون علامتها حرارة شديدة متصلة وشعور بالاستجابة في الحال.

(٤) من علامات نقاوة القلب شدة الرحمة على كل الخليقة دون تمييز بينها على الإطلاق.

(٥) القلب النقي يستطيع أن يحب الأعداء كالأصدقاء. ويعطف على الحيوانات المؤذية كالمستأنسة وينظر إلى الشرير كالبار.

(٦) القلب النقي لا يستطيع أن يحكم على أحد ما أنه نجس أو دنس أو شرير، لأن نظرته العميقة لا ترى الشر - لأنه عمل عارض - وإنما ترى نفس الإنسان على حقيقتها التي خُلِقت عليها كشبه الله وصورته.

(٧) القلب النقي لا يشمئز من عيوب الآخرين الجسدية أو أمراضهم أو آثامهم وإنما يتحرك عليهم بالشفقة ويحنو عليهم جداً.

(٨) القلب النقي لا يحزن لخسارة مادية تلحق به أو تجربة أو ضيقة لأنه يرى كل شيء يُعمَل بتدبير الله وحسب قصده.

(٩) القلب النقي يلوم ذاته ويضع الخطأ على نفسه في كل ما يعرض عليه من اضطهاد أو ظلم أو مذمة.

(١٠) طلب مجد الناس ومديحهم، أو التكلم بكلام السفاهة والمزاح، أو استعمال المكر والخداع أو الحسد والغيرة؛ كل ذلك يقف سداً منيعاً دون التقدم في نقاوة القلب.

(١١) بمجرد أن يتنقى القلب من الشرور ومن التعلق بالعالم فإنه ينطلق في الصلاة ويتذوق بركاتها.

(١٢) نقاوة القلب هي ثمن الملكوت.

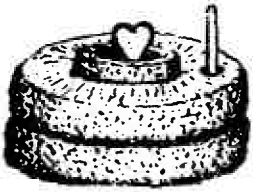

الفصل الثالث

انسحاق الروح

+ «إلى هذا أنظر إلى المسكين، والمنسحق الروح، والمرتعد من كلامي» (إش ٦٦: ٢).

+ «أنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد، بذلت ظهري للضاربين وخديَّ للناتفين. وجهي لم أستر عن العار والبصق، والسيد الرب يعينني فلا أخجل» (إش ٥٠: ٥ - ٧).

+ «ظُلِم أما هو فتذلل» (إش ٥٣: ٧).

+ «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت ١١: ٢٩).

لو استطعنا ولو إلى لحظة أن ندرك حقيقة الله وعلاقتنا به، لانكشفت لنا في الحال حقيقة أنفسنا واقتنعنا بأننا لا شيء أمام مجد عظيم لا يُحدّ!

هذا هو الحادث فعلاً مع القديسين. فشدة تواضعهم وانسحاقهم وامتهانهم لأنفسهم وإسناد اللوم على ذواتهم دائماً، ما هو إلا نتيجة لهذا الكشف، بحيث لا يحاولنا أن نغتصب هذه الصفات ونقلدها لأنفسنا قبل أن نتقدم في النعمة وندرك هذه الحقيقة ونعرف ما هي أنفسنا على وجه التحقيق، لظهرت هذه الصفات معنا كأنها شيء مزيف، بل تقودنا إلى ما يضادها من صفات!!

فإن الذي قاد القديسين والمتقدمين في النعمة إلى صفات التواضع والانسحاق والتذلل، ليس هو جمال هذه الصفات في ذاتها ولا هو شهوة الحصول عليها والتحلي بها، وإنما الذي اقتادهم إلى التواضع والانسحاق الحق هو اكتشافهم لحقيقة أنفسهم في نور الله.

ليس التواضع هو أن ندَّعي أننا خطاة ونحن لا نشعر بذلك في أعماق نفوسنا، لأن ذلك إنما يبعدنا عن معرفة أنفسنا ويضلنا عن حقيقة التواضع!

الانسحاق يجب أن يكون نتيجة اقتناعنا أننا أغضبنا الله. فبينما كان أمامنا أن ننتصر ونتقدم في النعمة نحو الله، إذ بنا نختار بإرادتنا شهوة العالم ونفضل الحياة الفانية وذلك بسبب حبنا لذواتنا وتفضيلنا لراحتنا الجسدية.

إن الرجل الطبيعي الذي للعالم، يحب الأشياء الطبيعية التي فيه. ولكنه لا يستطيع أن يحب الله من ذاته إلا بتوسط النعمة. ولو أنه من حين إلى حين يشعر بحاجة ملحَّة وعطش مبهم نحو الله. وما هذا النداء الأخرس إلا نداء الطبيعة الإلهية الساكنة فيه.

وهذه الطبيعة الإلهية يمكن تجديدها وتقويتها وتغليبها على طبيعة العالم بواسطة تدخل

الروح القدس، على شرط خضوع النفس وانسحاقها تماماً، وذلك إنما يكون بالحزن على الخطايا السالفة في نور محبة الله والاشتياق إليه. ولولا الخطيئة التي دخلت على طبيعتنا، لكنا نحيا مع الله في نور المحبة الخالصة، ولكن بسبب هذه الخطية الساكنة فينا صارت عبادتنا ممزوجة بالحزن، وحبُّنا بالانسحاق.

فخطايانا وزلاتنا وأفكارنا مكشوفة وعريانة أمام الله. إذن فمن يستطيع أن يشمخ على الله؟ فقد قال بولس الرسول: «لا تضلوا. الله لا يُشمَخ عليه.» (غل ٦: ٧)

إذن، فعلاقتنا مع الله يجب أن تكون على أساس الاتضاع والانسحاق الكامل، ومن ثم تكون علاقة حقيقية بواقع الحال.

ومن دواعي الخجل والانسحاق جداً، أنه بينما نحن نخطئ إلى الله ونتعدَّى على حقوقه ووصاياه، إذا هو ينظر إلينا في حنو ولا يُنقِص من حبه لنا!!

وكيف لا ننسحق حينما نتأمَّل في محبة الله وعظمته عندما تنازل وانسحق على الصليب! وبيد من؟ أليس بيد البشرية التي أنا وأنت واحد منها؟ إن مجرد تأملنا في الله وكيف صُلِب بالجسد وتألم بأيدي بشرية يُزيدنا انسحاقاً على انسحاق!

إن الانسحاق لا يُدرَك في يوم أو يُدرَس في كتاب؛ فهو حياة عميقة بين النفس والله، تبدو في أولها ثقيلة ومجهدة إذ تكون جهاداً ضد العظمة الذاتية، وإذلالاً لعزة النفس؛ ولكن بعد حين حينما تتنقى النفس من العظمة الكاذبة والكرامة الخادعة تبدو لها هذه الحياة المنسحقة لحناً شجياً لذيذاً يقرِّبها إلى الله ويدعوها إلى الاستقرار فيه شيئاً فشيئاً حتى تستريح فيه تماماً!

إن النفس المنسحقة تكون مملوءة سلاماً، كلما نمت في النعمة والكمال ازدادت انسحاقاً وانسابت في التواضع بلا جهد، فأي انحراف منها نحو الكبرياء أو العظمة أو المجد الباطل تقشعر منه كما تقشعر أذن الموسيقي البارع حينما تصطدم بنشاز يطرأ في لحن جميل!

والانسحاق في المفهوم الإنجيلي هو السَّحق ἔθραυσα، بمعنى «كسر الشيء بغرض تحطيم عُلوِّه ليصير منخفضاً وضعيفاً»، وهو اصطلاح يفيد، فيما يخص الروح، معنى الاتضاع والوداعة وإنكار الذات وإماتة المشيئة، كل ذلك معاً. ولكن مضمون كسر الشيء بغرض تحطيم علوه ليصير منخفضاً، حسب نص الإصطلاح، لا يشمل في المعنى الإنجيلي مفهوم الإضرار بالنفس

أو امتهان الروح الإنسانية المخلوقة على صورة الله، ولكن الكسر والتحطيم ينصبُّ على أجزاء النفس المتعالية كذباً وادِّعاءً، حتى تصل النفس إلى حدودها الأصيلة الواقعية البسيطة المتضعة، فلا يعود الإنسان يطمح فيما يفوق قامته أو يتطلع إلى ما لا يناسب إيمانه وجهاده كما يقول بولس الرسول: «فأقول بالنعمة المعطاة لي لكل من هو بينكم أن لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي، بل يرتئي إلى التعقل، كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان.» (رو ١٢: ٣)

وبذلك يتضح لنا أن معنى انسحاق الروح يتجه اتجاهاً إيجابياً محضاً ليدخل في مضمون إعادة بناء النفس بناءً واقعياً صحيحاً، لا يشوبه تزييف أو خيلاء أو طموح أو ادِّعاء أو افتخار ذاتي، بناءٌ يطابق خلقتها تماماً، تمهيداً لبلوغ غايتها العليا في المسيح للاتحاد بالطبيعة الإلهية.

وسحق النفس يتم على مستويين: مستوى إرادي سلبي، ومستوى لا إرادي إيجابي، أي أن الإنسان مسئول عن سحق الأجزاء العليا الكاذبة من نفسه من جهة أخلاقه وسلوكه وطموحه الباطل، وهذا هو السحق الإرادي السلبي للنفس. وفي نفس الوقت، فإن الإنسان مُطالَبٌ أن يقبل كل سحق يأتي إليه من لدن الله بغرض توضيع نفسه وإرجاعها إلى صغرها وبساطتها الأولى، وهذا هو السحق اللاإرادي الإيجابي الذي يُعتبر هبة عظمى من الله، لأن الإنسان في غالبية أحواله عندما يُترَك لنفسه لا يعرف أن يوضع ذاته ويسحقها كما يجب، فلولا سحق الله لنا لبقينا حتماً ناقصين في الاتضاع والوداعة.

وسحق النفس بغرض اتضاعها عملية دقيقة وخطرة، وتحتاج إلى صدق وبصيرة، حتى يقف الإنسان في انخفاضه عند المستوى الحقيقي والطبيعي للنفس ولا يتعداه إلى ما دونه لئلا يدخل في ادِّعاءٍ آخر هو ادِّعاء الصغر، فيتظاهر بأنه جاهل وهو يشعر أنه ليس بجاهل، أو يتظاهر بالبساطة أكثر من حقيقته، أو يتظاهر بالضعف وهو غير ضعيف، فيتقمص الإنسان شخصيات أخرى غير شخصيته ويمارس الرياء بداعي التواضع وهذا هو وجه الخطورة في فضيلة الانسحاق.

فالإنسان في حياة الانسحاق إنما يجاهد ليحطِّم كل طموح وكبرياء، وكل تعالٍ على الغير، وكل اعتداد بالذات وتفوقها، إلى أن يصل إلى حقيقة نفسه البسيطة الضعيفة المسكينة؛ ويقف عند هذه الحدود ولا يتمادى في إلغاء ما فيه من نعمة أو يُغالي في إنكار نفسه للدرجة التي ينكر فيها عمل الله فيه. وهذا ما قصده القديس بولس الرسول، بمنتهى الاختصار والوضوح،

في قوله إنه لا ينبغي أن نمتد ببصيرتنا الروحية فوق ما هو لنا أو فوق ما هو فينا بل ينبغي فقط أن يمتد بصرنا بتعقل واتزان في حدود موهبتنا التي قسمها المسيح لنا!

فلو فرضنا أن إنساناً ما أخذته الحماسة الذاتية وطموح الفضيلة وأخذ ينسحق وينكر نفسه إلى ما دون التعقل بأن أظهر نفسه أقل من مستوى موهبته وإيمانه، فهنا نجد أن إنكار الذات تعدَّى حدوده إلى إنكار الإيمان ونعمة الله، والنتيجة الحتمية هي توقُّف الاتصال بين الله والإنسان، فيبتدئ الإيمان يضمُر بالفعل وتبتدئ النعمة تنسحب من تدبير الإنسان.

أما إذا فرضنا أن الإنسان سلك سلوكاً واقعياً صحيحاً في انسحاقه واتضاعه حتى بلغ درجته الحقيقية البسيطة، فإن النفس تكون مفتوحة بأقصى طاقاتها الإيمانية على الله، وحينئذ تكون على درجة الاتصال الحقيقي بالله فتنمو أكثر في بساطتها واتضاعها لتتهيأ بالتالي لاتصال أكثر ونمو أكثر وهكذا.

«إلى هذا أنظر، إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي.» (إش ٦٦: ٢)

وبذلك نرى أن الانسحاق الواقعي الحقيقي يؤدي إلى اتصال حقيقي بالله كما يؤدي إلى ملء النعمة، بعكس الانسحاق المبالَغ فيه المزيَّف، فإنه يؤدي إلى انفصال عن الله وتفريغ النعمة أولاً بأول.

وهذا ما دعا كافة الآباء، وبدون استثناء، لإعتبار انسحاق النفس بقصد الاتضاع الحقيقي أنه هو أساس جميع الفضائل وبداية كل عمل روحي وغاية كل معرفة، كما يقول القديس أوغسطينوس: «إن اتضاع النفس هو المضمون الكامل للديانة المسيحية». سواء كان هذا الانسحاق إرادياً عن طريق ممارسة ضبط النفس وإخضاعها للحق وقمعها لخوف الله في حدود الإيمان والطهارة، أو كان الانسحاق عن طريق الخضوع الكامل لتأديبات الله مهما كانت صعبة أو مهينة في استسلام كلي لمشيئته عن مسرة بدون تحفُّظ وبدون تذمر وبدون قيد ولا شرط.

وحسب الظاهر يبدو الكلام عن انسحاق النفس مُرّاً، ويتضمن جهاداً مضنياً ضد عتو الذات وكبرياء النفس والطموح الكاذب للروح، كما يبشر بصعوبات وتأديبات وإهانات يلزم أن نتقبلها من الله، ولكن الحقيقة العملية عكس ذلك تماماً، فممارسة انسحاق النفس في

حدود التعقل وبطريق صحيح شيء لذيذ جداً يصعب علينا وصفه بالكلام لأنه بالكلام لا يمكن تذوُّق شيء تذوُّقاً حقيقياً، وهل يمكن وصف حلاوة العسل؟ الكلام ممكن أن يبهج العقل ولكن يستحيل على الروح أن تبتهج إلا بالحقيقة المعاشة، وانسحاق النفس حقيقة معاشة، الكلام عنها مرٌّ علقم وممارستها لذيذة أشهى من العسل.

وما نحسبه واجباً علينا هنا بالكلام هو أن نصف فقط للقارئ أين يوجد هذا العسل السماوي وكيف يُقطَف وكيف يؤكل سراً!!

وادي الاتضاع في مظهره مظلم وكئيب، ولكن أول ما تطأ قدماك هذا الوادي المقدس يجري لإستقبالك حُرَّاس المرصد ليغسلوا جراحاتك التي تكون قد مزَّقت نفسك وجسدك عند اجترائك على الهبوط المفاجئ الخطر من فوق جبال العالم الكاذبة إلى منحدر وادي الإتضاع المخيف! ويأخذونك لاستراحة قليلة بعدها يُدخلونك المرصد السماوي المقام في أول الوادي الطويل حيث يعطونك منظاراً كاشفاً يمكنك بواسطته أن ترى دقائق الوادي المقدس بأكمله، حيث ترى على جوانبه تعزيات على شكل أقراص الشهد، والسائرون يغتذون بها، والنعمة تفتش العابرين باستمرار لتطمئن على شفاء جروحهم، وهي تعصبهم بعصائب تمتص الآلام وتحول الجروح إلى بقع مضيئة شبه المصابيح تنير.

وحينئذ يأخذك العجب والاندهاش: كيف يبدو هذا الوادي بدون المنظار السماوي كئيباً ومظلماً، وكأن الموت والاندحار في كل ركن من أركانه، مع أنه بالرؤيا المقرَّبة يبدو مليئاً بشهد العسل وبأيدٍ رحيمة وأشفية ونور خفي يضيء الداخل قبل أن يضيء الخارج؟؟ وحينئذ تدرك سر الوادي.

ولكن وأنت مأخوذ بجمال الوادي يدعوك الحرَّاس أن ترفع المنظار قليلاً لترى ما بعد الوادي وما ينتظرك هناك في نهاية المطاف، وإذ ترفع المنظار ترى جبل التجلي من بعيد بنوره الفائق، والسيد رافعٌ يديه يحتضن الذين يبلغون نهاية الوادي، وبقع الدم على يديه تشع نوراً مبهجاً يضيء الجبل كله، وينعكس نورها سراً على الوادي المظلم، وعندما تسقط على جروح السائرين في الوادي، تضيء هي الأخرى كما يضيء القمر عندما تسطع عليه أشعة الشمس عبر الفضاء المظلم!

وعندها يأخذك الفرح والاطمئنان وتتحرق شوقاً لاقتحام ظلمات هذا الوادي المقدس، بعد أن ينكشف لك سر الانسحاق المبهج والجروح المضيئة والمرارة المخفى داخلها أقراص الشهد.

والحقيقة أن موضع هذا الوادي المقدس وادي الانسحاق والجروح والمرارة هو داخل قلب الإنسان، وحُرَّاس المرصد الذي في أول الوادي هم الآباء الذين جازوا الانسحاق ومرارته ووصفوا وعورته وفائدته، والمنظار هو الممارسة العملية الصحيحة لألم الاتضاع حباً وكرامةً للمصلوب، حسب المواصفات الدقيقة لرؤية الاتضاع الصحيحة، أما شهد العسل فهو اللذة النابعة من شركة آلام الرب، وأما الجروح النازفة فهي الكرامة المجروحة، وهي على أنواع: منها ما هو جروح سطحية يصنعها الإنسان في نفسه، ومنها ما هو رضوض وجروح غائرة من صنع الناس، ومنها ما هو كسور مميتة في جدران القلب من صنع التأديبات الإلهية حيث يستفرغ منها كل دماء الذات الترابية التي يصعب سحبها بواسطة الجروح السطحية أو الغائرة.

أما الأشعة الإلهية المنبعثة من جروح الرب والمنعكسة على جروح وكسور الاتضاع، فهي الشركة الجزئية في مجد المسيح الموعود به عن ثقة ويقين والتي سوف تبلغ أشد وهجها وضيائها عند ظهور ربنا كما هو!

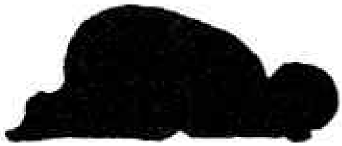

أقوال الآباء في انسحاق الروح:

٥٢٢ - الله اتضع من أجلك، أفلا تريد أنت أن تتضع من أجل منفعة ذاتك؟ هو أتى ليحمل ما عندك من أثقال وهموم ويعطيك ما عنده من راحة وهدوء، وأنت لا تريد أن تتحمل مشقة المسير إليه والصبر حتى تبرأ جراحاتك.

٥٢٣ - الكرامة والكبرياء كانتا في البدء علة سقوط آدم بواسطة الحية، ولا زالت الحية إلى الآن تستعمل وسيلتها وهي مختبئة في القلوب لتطرح وتهلك جنس المسيحيين بعلة الكرامة واحترام النفس. لذلك اتخذ المسيح صورة عبد وغلب الشيطان بالتواضع ليعلمنا طريق النصرة.

٥٢٤ - إذا كان الإنسان حراً وذا نسب شريف في نظر العالم، وقد استحوذ على وفرة الغِنى، وصار ذا دخل كثير، سرعان ما يفقد شعوره ويعتز بنفسه وتبتدئ يداه تمتدان بالصفع والضرب ورجلاه تسارعان إلى الرفس واللكز، فيصبح غير محتمَل. وهذا هو سلوك عديمي الفطنة والتمييز. وليس ذلك فقط، بل والذين تقدموا قليلاً في معرفة الصلاة وقوتها إذا لم يتمسكوا بالاتضاع ينتفخون ويسقطون. فالحية عينها التي أسقطت آدم بعلة الكبرياء قائلة له: "إنك ستصير كاملاً كالله"، لا زالت توحي بالكبرياء في قلوب بني البشر وتهمس في قلب الجاهل: "لقد صرت كاملاً، ها قد ملكت زمام المعرفة وصرت غنياً وليست لك حاجة لأحد. طوباك"، ... وهكذا.

٥٢٥ - لذلك إذا افتقدت نعمة الله نفس إنسان وأعطته قوة من الأعالي على قدر إيمانه، فإنما يكون ذلك جزئياً فقط لئلا يستكبر. فلا يظن أحد أن نفسه قد استضاءت كليةً لأن كمية الشرور التي لا زالت فيه تحجب كمال النعمة.

وفي البدء يكون افتقاد النعمة قليلاً مع أن لها القوة لتغسل وتكمل الإنسان في ساعة، وذلك لكي تختبر غرض وميل الإنسان: هل هو محتفظ بحبه نحو الله تماماً؟ وهل تخلت نفسه عن شهوة الشر؟ وهل أسلم نفسه حقيقة لعمل النعمة؟

فإذا ما استطاعت النفس أن تستجيب لمطالب النعمة وتمتد معها في طريق القداسة والبر، فإن النعمة تتأصل في النفس وتمتد جذورها حتى الأعماق وترتقي بالنفس قليلاً قليلاً في توافق وسهولة حتى تصير كلها

في أحضان النعمة السماوية.

٥٢٦ – ولكن إذا لم يتضع الإنسان تماماً فهو يُسلَّم للشيطان ليُجرَّب بالمحن الكثيرة، فتنفضح كبرياء نفسه وتظهر بألوانها الحقيقية ويبقى عارياً مكشوفاً وبائساً تماماً.

أبا مكاريوس الكبير

٥٢٧ – ليت كل الذين يتقدمون لخدمة الله بالصلاة يتعلمون أولاً أن يكونوا مثله ودعاء متضعين بالقلب حقاً.

الأب يوحنا (ك.)

٥٢٨ – صرخ العشار بقلب منسحق ذليل: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لو ١٨: ١٣)، فخرج من لدن الله مبرراً دون الفريسي. وهنا تتفاضل الصلاة المنسحقة على العمل غير المتضع! فالفريسي أظهر برَّه بالصوم الدقيق والعشور المنظمة، والعشار قدَّم قلباً منكسراً بدون أعمال! إن الرب لا ينصت إلى الكلام فحسب بل يلمس المشاعر التي تصوغ الكلام. فلما وجد العشار متضعاً ومنسحقاً أحبه ورحمه. لستُ أقول هذا حتى نخطئ مثله بل لنتضع!

يوحنا ذهبي الفم

٥٢٩ – لنتعلم كيف نستميل قلب الله إلى الرحمة بالصلاة الممزوجة بالتواضع والوداعة، لأن الرب أعطانا مفتاح الوصول إلى قلبه: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت ١١: ٢٩). داود أيضاً عرف ذلك فقال:

«الذبيحة لله روح منسحق. والقلب المنكسر والمتواضع لا يرذله الله» (مز ٥١: ١٧). الرب لا يحب شيئاً مثل النفس الوديعة المتضعة.

٥٣٠ – لا تقل إني خاطئ وليست لي شجاعة أن أقف لأصلي، لأنها شجاعة محبوبة أن تقول ليست لي شجاعة أمام الله! والعكس أيضاً، فالذي يظن أن له شجاعة للوقوف أمام الله بسبب أعماله أو طهارته فإنه يُحرَم من قوتها كالفريسي، لأن كل من يعتبر نفسه مرذولاً وفاقد الجرأة أمام الله فهذا يستمع إليه، كالعشار.

٥٣١ – «ولكن لنا ثقة مثل هذه بالمسيح لدى الله. ليس أننا كُفاة من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله.» (٢كو ٣: ٤ و ٥)

٥٣٢ – الندامة هي نفس أسيفة وتضرُّع حزين مستمر في صلاة نقدمها لله من أجل الصفح عن الخطايا السالفة، وتوسلات لحفظنا من العثرات المستقبلة.

والرب عرف علّتنا وقدم الدواء: «اسهروا وصلوا لكي لا تدخلوا في تجربة» (مت ٢٦: ٤١). وبما أن الله يعرف أننا لا نخلو من الانحراف عن الحق نحو الباطل حتى إلى أن يحين كأس الموت، فهو يأمرنا أن نسهر ونجاهد في صلاة مستمرة!

مار إسحق السرياني

٥٣٣ - ليست الأعمال هي التي تفتح باب القلب المغلق وإنما الانسحاق والتواضع، لأن الشهوات لا تُغلَب إلا بالإتضاع!

٥٣٤ - إذا كنت متضع القلب بالحق، فالله يكشف لك عن مجده.

٥٣٥ - بكثرة الصلاة يتضع القلب.

٥٣٦ - قلب الرب دائماً على المتضعين ليريحهم، أما وجهه فضد المتكبرين ليتضعوا. لأن الاتضاع إنما يُقابَل بالعطف والمعونة دائماً. ولكن الغلظة وقساوة القلب تُقابَل بالشدة والجفاء.

٥٣٧ - الرجل الجبان مصاب دائماً بعِلّتين: محبة جسده، وضعف إيمانه.

كذلك الرجل الشجيع القلب الذي لا يتهيب المخاطر، سر شجاعته أحد سببين: إما قساوة قلب، أو عمق إيمان بالله، وفرق بين الشجاعة في الحالتين، فإن الأولى تصحبها الكبرياء، والثانية الإتضاع وإنكار الذات.

٥٣٨ - كتب أحد القديسين: «كل من لا يعتبر نفسه خاطئاً فصلاته لا يقبلها الله».

٥٣٩ - حينما تقع بوجهك على الأرض ساجداً في الصلاة، ضع في نفسك أنك مثل نملة وكإحدى الزواحف التي تزحف على الأرض ومثل خنفساء، لا منظر ولا شكل لك. لا تحدِّث القدير من معرفتك بل بعقل طفل تقدَّم إليه وسِرْ أمامه لتستحق عناية الأبوة.

قيل إن الرب يحفظ الأطفال، لا تظن أن ذلك قيل بخصوص الأطفال فقط، بل ويناسب هؤلاء الذين وهم حكماء في هذا العالم يتخلون عن علمهم ويغضون الطرف عن حكمتهم بما يكفي أن يجعلهم أطفالاً بإرادتهم. حينئذ يستأهلون أن يتلقنوا الحكمة التي لا تُدرَك بالعمل والجهاد. وهكذا قال الطوباوي بولس الرسول: «إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصر جاهلاً لكي يصير حكيماً» (١كو ٣: ١٨). فعليك إذن أن تتوسل كثيراً لدى الله ليمنحك أن تبلغ مثل هذا القياس من الإيمان.

مار إسحق السرياني

٥٤٠ – إذا كنت تحب التواضع فاترك التحلي والزينة، فمن يحب التزين لا يحتمل المحقرة والازدراء، وأعمال المحبة والتواضع تصعب عليه. خادم الله لا يزين جسده، واعلم أن كل من يحب زينة جسده الخارجي فهو مريض في داخله، ولو كانت أعماله جليلة.

مار إسحق السرياني

٥٤١ – كن صديقاً للمحزونين ومنكسري القلب وشاركهم في صلواتهم وأعمالهم لتفتح لنفسك ينبوع الرحمة.

٥٤٢ – ليس شيء يقرِّب قلب الإنسان إلى الله مثل الرحمة. وليس شيء يمنح السلام للقلب مثل الفقر الاختياري.

مار إسحق السرياني

٥٤٣ – التواضع يُكتَسب بأعمال التواضع؛ والحب بأعمال الحب.

الأسقف ثيوفان الناسك

٥٤٤ – إذا كنت متسربلاً بالوداعة الكاملة وعدم الغضب، لا يعسر عليك أن تتحرر من عبودية الماديات.

الأب يوحنا الدرجي

٥٤٥ – كل ما تنتقم به من أخيك الذي أخطأ إليك، فسيكون كله وبالاً عليك في وقت صلاتك.

الأب نيلوس السينائي

٥٤٦ – ليس كل هادئ متضعاً، ولكن كل متضع هادئ.

مار إسحق السرياني

٥٤٧ – الرجل المتواضع لا يُسر بمرأى الجموع المحتشدة ولا بالصخب والضوضاء ولا بالغِنى والتزين والتنعم، بل في كل حال تجد الفقر والعوز والقلة والحاجة محبوبة لديه.

مار إسحق السرياني

٥٤٨ – المواهب لا تُمنَح من أجل الأعمال في ذاتها، وإنما من أجل الاتضاع الذي عُمِلت به.

مار إسحق السرياني

٥٤٩ – علينا أن نعرف أن الاتضاع أثناء الصلاة يحطم فخاخ الشيطان. أما الكبرياء فعلامة على أننا نفرز كل كلام الصلاة كأنه ليس لنا. تقول في نفسك: أنا أعرف هذا، وهذا لست محتاجاً إليه، وهذا ليس

من أجلي أنا، وهذا زائد عن اللزوم، وأنا لست في هذا مخطئاً. يا لكبريائنا وعدم تعقُّلنا.

الأب يوحنا ك.

٥٥٠ – إن أردت أن تكون متضعاً حقاً، إشتهِ الإهانة والاضطهاد شهوة الجوعان إلى الطعام، لأنك بالعدل تستحقها وليس تنازلاً منك.

٥٥١ – إن أردت أن تكون متضعاً حقاً، فاعتبر نفسك دون الكل ومستحقاً أن تُداس من الجميع، لأنك دُست وصايا الرب، وامتهنت كلامه بأعمالك.

٥٥٢ – حينما تصلي وتسكب الدموع من أجل شعب الله ورعيته فلا تجعل أفكارك تمدحك، بل قل: «لستُ أنا المصلي من أجل أولاد الله ولكن، الروح ذاته، الذي يئن فيَّ هو الذي يصنع فيَّ الشفاعة من أجلهم». لأن الروح في ذلك الوقت هو الذي يربطك برباط الحب الحلو، ويلهمك العبادة والتقوى الصادقة. والذي يثبت لك ذلك هو أن حلاوة الصلاة وفرح القلب بالحب يستطيعان مفارقتك سريعاً رغم إرادتك.

٥٥٣ – عدم إحساس القلب في الصلاة بحقيقة ألفاظها ينشأ من قلة إيمانه وعدم شعوره بخطيته، وذلك ينشأ من إحساس خفي بالكبرياء. فبقياس الشعور أثناء الصلاة، يمكن للإنسان أن يدرك قياس اتضاعه. فبقدر تأثره ويقظته وحماسته لألفاظ الصلاة، يكون اتضاعه؛ وبقدر جموده وبرودة الكلمات في فمه يكون كبرياؤه.

الأب يوحنا (ك.)

٥٥٤ – اجعلوا الوداعة وبساطة القلب سلّماً تنزلون عليه إلى أن تدركوا أقل أخ لكم في البشرية. وعليكم بالهدوء والتواضع والصبر حتى لا تغرقوا في بحر هيجان الغضب. اجعلوا هذه فيكم كما كانت في المسيح.

المطران فيلارت

٥٥٥ – رجل من وجوه مدينة الإسكندرية زهد في الدنيا، فتوجه إلى دير شركة (أي المعيشة فيه مشتركة)، ولما فحصه رئيس الدير وجده رجلاً مستكبراً عاتياً، فقبله، لأنه كان رئيساً حكيماً عالماً بطب النفوس. وقال له: «إن كنت تؤثر أن تحمل نير المسيح فأريدك أن تُحكِم الطاعة قبل كافة الفضائل»، فأجاب قائلاً: «كما يطيع الحديد الحداد هكذا أنا قد بذلت نفسي لطاعتك». فأعطاه الرئيس تدريباً لتهذيب كبرياء نفسه، بأن يقف عند باب الدير ويركع لكل إنسان داخل أو خارج، ويقول له: «يا أبي صلِّ من أجلي لأني مصروع». فوقف هناك سبع سنين بلغ فيها حداً كبيراً من خشوع النفس. وتهذَّب بجمال التواضع، حتى أنه بعد مضي السبع السنين، ولما أراد الرئيس الحكيم أن يرفع عنه النير ويقدمه لرتبة الكهنوت لم يُرِدْ ذلك المغبوط، الذي كان يُدعى إيسيوذوروس، وتضرع كثيراً مستعيناً برهبان كثيرين وبحقارتي أنا أن يتركوه ليكمل معيشته تحت نير التواضع.

٥٥٦ - الوداعة والتواضع هما الصخرة الموضوعة على شاطئ بحر الغضب، التي عليها تتكسر أمواج ذلك البحر الهائج وهي ثابتة كالطود لا تتحرك.

الوداعة مفتاح باب المعرفة لأن الله «يعلِّم الودعاء طرقه».

في قلوب الودعاء يجلس الله ليحكم، والنفس المنزعجة هي مجلس لإبليس وجنوده.

٥٥٧ - روح اليأس يفرح إذا أبصر الرذيلة متكاثرة، وروح العُجْب والكبرياء يفرح إذا رأى الفضيلة وافرة، الأول يلد الجراحات والثاني يلد الموت.

٥٥٨ - ويحي ... إذا صُمتُ استحوذ العُجْب عليَّ، وإذا نقضتُ صومي حتى لا يُعرَف تدبيري استولى العُجْب عليَّ أيضاً. إذا لبست ثياباً بهية استحوذ العُجْب عليَّ، وإذا لبست الحقيرة غمرني العُجْب أيضاً.

متى تكلمتُ داخلني العُجْب، ومتى صَمَتُّ انقهرتُ له أيضاً.

كلما طرحت عني هذا المثلث ذا الثلاث شُعَب، تبقى له دائماً شعبة منتصبة!

من لا يضحك على المعْجَب بذاته حينما يقف ليرتل: مرَّة تجده ضاحكاً، ومرة تجده عابساً، ومرة تجده باكياً.

٥٥٩ - المبتدئ إذا احتمل السب والشتيمة يُعتبر شجاعاً. هكذا القديس إذا احتمل المديح والإطراء.

٥٦٠ - إذا سمعت أن أخاً لك شتمك وأهانك في غيبتك أو حضورك، فأظهِر له حبك.

٥٦١ - ليس من يذم ذاته ويلومها هو المتضع، لأنه من الذي لا يستطيع أن يحتمل نفسه؟ وإنما هو متضع بالحقيقة ذاك الذي يحتمل تعيير ومذمة غيره، ولا يُنقِص حبه له!

٥٦٢ - روح العُجْب يسبق حضور أهل العالم، ويأمر رهبان الدير الفارغين من الحزم بالخروج إلى استقبالهم. ويجعلهم يلبسون وشاح التواضع فوق الكبرياء، فيخفضون الصوت ويطأطئون الرأس وعينهم إلى أيدي الواردين ليأخذوا منهم شيئاً. ويدعونهم سادة وأئمة واهبين الحياة بعد الله! ولكن روح العُجْب والكبرياء قد سبَّبا في كثير من الأوقات الهوان بدل الإكرام.

٥٦٣ - حدث في جلوسي في مجمع من الناس أن وافاني شيطان العُجْب وجلس بجانبي، فلكزني قائلاً: حدِّث الناس عن أعمالك في البرية، فانتهرته مردداً قول داود النبي: «فليرجع المفتكرون عليَّ بأفكار ردية». فانبرى لي عن يساري شيطان الكبرياء قائلاً: ما أحسن ما عملت وما أصوبه، لقد صرت عظيماً إذ قهرت أُمِّي الخالية من الحياء. فأجبته أنا بقول داود: «ليرجع بالخزي سريعاً جداً القائلون لي حسناً حسناً».

فلما استخبرت كيف أن شيطان العُجْب هو أُمُّ الكبرياء؟ قيل لي: إن العُجْب هو تزكية النفس وبداية ارتفاعها، أما الكبرياء فهي التي تستلم النفس لترفعها إلى السموات لتحدرها إلى الأعماق. لهذا قيل: «الويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً».

٥٦٤ - من شأن العُجْب أن يوسوس للنفس لتتشكل بالفضيلة التي ليست هي موجودة فيها.

٥٦٥ - متى شعرنا بالعُجْب، علينا أن نقف للصلاة بالنوح والخشوع الرهيب على انفراد لكي نفرز هذا الروح الهدّام.

٥٦٦ - من حكمة الله أنه قد يسبق ويعطي السائلين ما يحتاجون إليه قبل أن يسألوه، لئلا إذا أخذوه نتيجة لصلاتهم فإنهم يسقطون في الكبرياء والعُجْب.

٥٦٧ - ابتداء الكبرياء هو انتهاء العُجْب. حينئذ يزدري الإنسان بصاحبه، ويشهر أتعابه ويمدح نفسه في قلبه، ويمقت التوبيخ.

٥٦٨ - إن داء الكبرياء من عادته أن يستمد نموّه من وراء كثرة الشكر لله، فهو لا يشير علينا أن نجحد نعمة الله علانية من الأول. وقد رأيت كثيرين يشكرون الله بفمهم أما قلبهم فمملوء كبرياء واعتداداً بالنفس، والشاهد لصحة قولي هو الفريسي القائل: «اللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار.» (لو ١٨: ١١)

٥٦٩ - قيل إن علل النفس اثنتا عشرة، إلا إن واحدة منها، وهي التعظم، إذا سقطت النفس فيه، أكمل موضع البقية.

٥٧٠ - الإنسان المترفع يجاوب إجابة شديدة بلسان سليط، والإنسان المتذلل المنكسر لا يعرف أن يجاوب.

٥٧١ - الرجل المتعظم القلب يرتاح أن يترأس على غيره. ليت الله يرحمنا من هذا الداء ومن أدوائه (سقطاته) المرة.

٥٧٢ - عاتب شيخ حكيم أحد الإخوة عتاباً روحياً. فجاوبه ذلك الأخ متعامياً: يا أبانا اغفر لي أنا لست متكبراً! فقال له الشيخ الحكيم: يا ولدي وأي برهان لكبريائك تعطيه لنا أظهر من هذا، مثل قولك أنا لست متكبراً! إن من تكون هذه حالهم عليهم بالطاعة جداً.

٥٧٣ - نسيان الهفوات التي سقطنا فيها ينشئ الصلف. وتذكُّرها دواماً يجدد التذلل.

٥٧٤ - السُّبْح الباطل شيء آخر غير العظمة، ولكن يوجد بينهما رباط متين، فالأول هو البداية والثاني هو نهاية البداية.

٥٧٥ - السُّبْح الباطل مصيبة مخفاة، يندس في كل عمل صالح وفي كل فضيلة ليفسدها. كالثعبان ينتظر الدجاجة حتى تضع بيضتها ويأتي ليسرقها. فهو ينتظر على المجاهد حتى ينمو قليلاً في الفضيلة فيأتي ويفسدها. ويجعله شغوفاً بأن يكشف كل مقتناه الروحي.

٥٧٦ - صوم ذي السبح الباطل، بغير أجر؛ وصلاته بلا ثمرة. فهو من أجل المديح يصنع كل شيء.

الأب يوحنا الدرجي

٥٧٧ - إن شيطان الانتفاخ والسبح الباطل لهو وجع دقيق، فهو لدقته لا يُضبَط سريعاً ولا تُدرَك بدايته ولا غايته. كل الأوجاع والآلام ظاهرة واضحة تُدرَك سريعاً، لذلك فقتالها هين وسهل إذا ما تيقظت النفس للجهاد قبالتها. فأما الانتفاخ والسبح الباطل فقتاله شديد وعسر، لأنه يصارع كل شكل وكل ترتيب ويدخل في كل الأمور: في المشي وفي الكلام وفي الأكل وفي الصمت أيضاً، وفي السهر والصوم وفي الصلاة وحتى في القراءة والترتيل وفي طول الروح والصبر. فهو لا يهدأ بل يصوب سهامه لكل من انتصب في الفضيلة عسى يسلبه أجرة جهاده.

فإذا لم يصبه بفخر الملابس وزينتها، فهو يصيده بحقارتها ورداءتها؛ وإذا لم ينله عن طريق الكرامة، يحاول أن يرشقه باحتماله الهوان والمسكنة؛ وإذا لم يُصِبْه بحسن الكلام والمنطق وإقامة الحجة، يحاول أن يطغيه بالصمت والسكون؛ وإن لم يقدر أن يرخيه بكثرة الطعام، يطلب منه مدحة الصوم؛ وبالاختصار فهو ينبري لكل مجاهد في كل عمل وكل ترتيب سواء بالجسد أو بالروح، ليُسقطه ويفسده منه، إن لم يكن بضربة شمال فبضربة يمين!

أما الجهاد ضد هذا الشيطان اللعين الذي هو السُّبح الباطل والانتفاخ، فيتلخص في أن نحترس من أن نصنع شيئاً نطلب فيه مدحاً من الناس، بل ناظرين إلى الله مثبتين عزمنا واجتهادنا نحوه في كل عمل حتى ترافقنا معونة الله.

٥٧٨ - شيطان العظمة روح خبيث لا يصيب إلا البالغين في القامة الروحية ليهدم برج فضائلهم. كل الأوجاع تحارِب في البدايات، ما خلا هذا الوجع الرديء، فهو يصيب في النهايات، لذلك فضرره عظيم وكَسْرته شديدة. معروف أن شهوة البطن تُضبَط بالصوم، والزنا بالعفة، وحب المال بالتجرد والفقر، والغضب بالوداعة. فأما شر العظمة فهو إذا ملك على النفس البائسة، يكون كالقائد المنتقم عندما يحاصر مدينة شامخة ويظفر بها فإنه يهدمها ويدكُّ أساساتها! يشهد بذلك الملاك الذي سقط من السماء من علو

رئاسته بسبب العظمة!الذي لم يُرِدْ أن يسند الخير والقوة التي كانت فيه إلى خالقه بل شاء أن يجعلها لنفسه. وفي ذلك يبكّته النبي قائلاً: «كيف سقطتَ من السماء يا زهرة بنت الصبح! كيف قُطعتَ إلى الأرض يا قاهر الأمم. وأنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات أرفع كرسيي فوق كواكب الله ... أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي! لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب!» (إش ١٤: ١٢ - ١٥)

ونبي آخر يقول: «لماذا تفتخر بالشر أيها القوي ... أحببت الشر أكثر من الخير ... لسانك غاش لذلك يهدمك الله إلى الأبد وينفيك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء. يبصر الصديقون فيخشون ويضحكون عليه، هذا هو الذي لم يجعل الله له عوناً ولكنه وثق بكثرة غناه، وتقوّى على مسكنتنا بباطله.» (مز ٥٢)

إذن، فلنحذر من شيطان العظمة وترفُّعه المهلك الذي يجلب الموت علينا، قائلين مع القديس بولس الرسول: «لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفية ليكون فضل القوة لله لا منا.» (٢كو ٤: ٧)

وأيضاً «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو ١٥: ٥)، و «إذا لم يبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون» (مز ١٢٧: ١)، وأنه «ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم.» (رو ٩: ١٦)

لأنه مهما كان اجتهادنا واشتياقنا، فما دام اللحم والدم فينا فلن نبلغ إلى فضيلة ما إلا برحمة المسيح ومواهبه، كما يقول القديس يعقوب الرسول: «كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار.»(يع ١: ١٧)

وآباؤنا لما علموا ذلك يقيناً قالوا: «ليس من سبيل إلى وضع أساس متين من الفضائل إلا بالاتضاع وانسحاق النفس».

الأب يوحنا كاسيان

٥٧٩ - مُحبُّ المديح يتخيل أسباباً للمديح (أي ليُمتَدَح بها). والمتواضع هو الذي إذا امتُدح لا يستريح قلبه بالمديح.

٥٨٠ - من يقوِّم الآخرين باستعماله الغضب ليس متواضعاً.

٥٨١ - المضبوط بأمور هذا العالم الزائل والمرتبط ولو بشيء منها، لا يستطيع أن يكون متواضعاً ولا نقي القلب. لأن المتواضع يكون ميتاً للعالم، والعالم ميت له، فلا يستميل قلبه إلى محبة شيء منه.

لذلك إن أردت أن تكون متواضعاً، فأول كل شيء حِل نفسك من أمور العالم، واتبع الله بالرجاء والإيمان والحب وعوض العالم الذي تركته تأخذ حياة لا تزول.

٥٨٢ – في الوقت الذي تكون فيه ضعيفاً وغير قادر على عمل الخير بسبب مرض أو عارض، استعمل الاتضاع مثل العشار، وتقدم بصلاة منكسرة، تلك التي بها يتبرر الإنسان عند الله بدون عمل.

٥٨٣ – إذا كانت نفسك محتقَرة في عينيك، حينئذ سوف تخضع لك جوقات الشياطين، وينفتح ينبوع المعرفة داخلك.

٥٨٤ – ما دمت في هذه الحياة، احتقر ذاتك بذكر خطاياك على الدوام، واعترف بها قدام الله الرحوم بانسحاق، فيتولد لك من هذه دالة القلب قدام الله.

٥٨٥ – يستحيل أن يترك الله قلباً منسحقاً بدون عزاء.

٥٨٦ – الذبيحة لله هي روح منسحق وقلب منكسر. والغريب عنهما غريب عن رحمة الله.

٥٨٧ – وإذا وثق قلبك بعملك وفهمك، فاعلم أن مجيء التجارب قريب منك!

٥٨٨ – يسمح الله بالتجارب والعوارض لتأتي على الناس حتى القديسين لكي يدوموا في التواضع. فإذا قسَّينا قلوبنا تجاه العوارض والتجارب يشدد الله التجارب ويصعِّبها. أما إذا قابلنا التجارب باتضاع وقلب منسحق، فالله سوف يمزج التجربة بالرحمة.

٥٨٩ – إذا النعمة نظرت فوجدت أن قلب الإنسان ابتدأ يتحرك بفكر العظمة أو الاعتداد بالنفس، تتخلى عنه قليلاً ليُمتحَن بصعوبة الوقوف وحده قبالة التجارب.

٥٩٠ – بواسطة التجارب ندنو من الاتضاع، ومن يدوم بلا أحزان أو تجارب، باب العظمة والكبرياء مفتوح أمامه.

٥٩١ – لا يرفض الله إنساناً ما ويكرهه إلا إذا وجد عقله قد امتلأ بأفكار العظمة والافتراء، فيقع حتماً في إحدى مصيبتين: إما الزنى أو التجديف. فمن يتعظم بفضيلته حتماً يقع في زنى نجس، ومن يتعظم بجودة العقل والعلم يقع في التجديف على الأمور الإلهية.

٥٩٢ – ليس من فكَّر بأفكار العظمة هو المتعظِّم بل من يثبت فيها. لأن مجرد الفكر العابر يكون بغير شهوة ويتبعه ندامة وحزن ويكون بسبب ضعف الطبيعة، أما الثبوت في العظمة فيكون من وقاحة المتعظِّم ومن مديح الناس.

٥٩٣ – إن نعمة الله تقف على الدوام على بُعد وتنظر في الإنسان على الدوام أثناء الصلاة، فإذا تحرك فيه فكر اتضاع فإنها في الحال تدنو منه ومعها ربوات المعونة، وذلك يكون في وقت الصلاة أكثر من بقية الأوقات!

٥٩٤ - إذا عملت فضيلة ولم تحس بلذتها ومنفعتها فلا تتعجب، لأنه إن لم يتضع الإنسان لا يأخذ مكافأة عمله.

٥٩٥ - من الأحزان يتولد الاتضاع، وبالاتضاع تُعطَى المواهب. فالمواهب لا تُعطَى إذن للأعمال ولا للأحزان بل تُعطَى بسبب الإتضاع المتولد منها.

٥٩٦ - قبل السقوط الكبرياء، وقبل المواهب الإتضاع.

٥٩٧ - من أحب العظمة لا يعرف الندامة.

٥٩٨ - المتضع لا يكون محسوباً في نظر نفسه، ولا يحب أن ينفرد وحده بفعل شيء من الأمور.

٥٩٩ - اعلم أن قيامك في العفة والفضيلة ليس هو من حرصك ولا من فضيلتك، بل أن النعمة حاملة إياك على راحة يدها لئلا تتحرك فتزلَّ. أذكر هذا دائماً، وإذا تعظَّم فكرك فقل: «أبانا الذي في السموات» ... وابكِ، واحزن، وانتحب، وتمرغ على الأرض بوجهك، واذكر زلاتك لعلك تنجو من هذا الفكر وتقتني الإتضاع، ولا تقطع الرجاء قط بل اعلم أنه بمجرد أن يملأ عقلك فكر اتضاع، حينئذ تُغفَر لك خطاياك بغير عمل! وكم من خطايا عظيمة صعبة استطاع الاتضاع أن يرفعها!

٦٠٠ - ليس لنا أن نحسب كل إنسان متواضعاً كيفما اتفق. وليس كلُّ مَنْ طبعه هادئ ووديع ومسالم بلغ إلى درجة الاتضاع، بل **المتواضع الحقيقي من يوجد في نفسه شيء مخفى يستوجب الارتفاع، لكنه لا يتعظم بل يكون في أفكاره كالتراب والرماد.**

٦٠١ - كذلك ليس من يذكر زلاته وخطاياه لكي يتواضع يسمى متواضعاً - وإن يكن ذلك حسناً جداً - إلا أنه يدنو فقط من التواضع ويحاول أن يصل إليه. أما المتواضع الحقيقي فلا يحتاج إلى أن يقنع ذاته أو يغصب فكره للشعور بالتواضع أو خلق أسبابه، بل قد صار طبيعياً عنده أن لا يحسب ذاته شيئاً بلا تعب، وكخاطئ مرذول في عيني نفسه؛ ومع أنه يكون متداخلاً في أسرار الروح العميقة يبقى في نظر نفسه كمن لا يعرف شيئاً.

إنها قوة سرية وهبة للكمال تُعطَى لتكميل الفضائل بلا تعب.

٦٠٢ - إن سأل إنسان: ماذا أصنع لأكون متواضعاً؟ أقول له: ينبغي أن يكون التلميذ كمعلمه والعبد مثل سيده، ومن قال ذلك هو الذي يقدر وحده أن يعطيك. فتشبه بذلك الذي قال: «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه.» (مت ٨: ٢٠)

٦٠٣ - لا تعتمد على قوتك لئلا تُترك لضعف طبيعتك فتعرف ضعفك من سقطتك، واعلم **أن كل أمر يفتخر به الإنسان يسمح الله تعالى بتغييره ليتواضع!**

٦٠٤ - **إن حقَّرت نفسك لكي يكرمك الناس، فالرب يفضحك!**

وإن أنت ازدريت بذاتك واحتقرت نفسك وأعمالك في قلبك بالحق من أجل الحق، فالله يوحي إلى جميع خليقته لتكرمك.

٦٠٥ - الإعجاب بالذات يجعل صاحبه لا يفهم أنه سائر في الظلام، فلا يدرك حكمة الروح الحقيقية فيتعظم على الناس وهو أحقر منهم. والرب يخفي عنه إرادته لأنه لم يؤثر أن يسلك في طريق المتواضعين.

٦٠٦ - حقاً، يا رب، إنك لا تكفّ عن تذليلنا بشتى التجارب والأتعاب إلى أن تتضع نفوسنا!

مار إسحق السرياني

٦٠٧ - فيا أولادي، ما هو الذي أحْوَجَ ربنا يسوع المسيح حتى شدَّ وسطه بمنديل وشمَّر ساعديه وصبَّ ماءاً في مغسلة وغسل أرجل الذين هم دونه، إلا ليعلِّمنا الاتضاع بهذا المثال الذي صنعه. فكل الذين يريدون الرجوع إلى رتبتهم الأولى لا يمكنهم ذلك إلا بالاتضاع.

٦٠٨ - قد قيل عن دبورة إنه لما حصل لها من الله تلك الرفعة العظيمة حتى تدير الشعب جميعه لأنها كانت قاضية لإسرائيل، لم يرتفع قلبها، بل كانت تذكر طقس النساء وتقول إن الرجل رأسها. فلما أرادت أن تحارب سيسرا الملك أرسلت لباراق وأعطته السلطة لكي يمضي ويحارب سيسرا، ولكن القديس باراق لم تضلُّه هذه الكرامة ولا نسي تدبير الله، بل قال لها: إن كنتِ تنطلقين معي فأنا أنطلق. لأنه كان يعلم أن الله معها. فانظروا، يا أولادي، كيف أن كلاً منهما كان يعطي الكرامة للآخر.

٦٠٩ - ربنا يسوع المسيح نفسه قال عن ذاته أنه جاء ليَخدِم!

٦١٠ - إعلموا، يا أولادي، أن كثيرين يسعون للاتضاع، ولكن ليس بحقيقة قلوبهم. فهم بظاهرهم يتضعون أمام الناس وفي داخلهم لم يصلوا إلى الاتضاع الحقيقي. **لأن الاتضاع الحقيقي يكمل حينما يحل الله فينا ونراه**، كإشعياء الذي لما رآه قال: «الويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين.» (إش ٦: ٥)

٦١١ - جميع الخطايا مرذولة أمام الرب وبالأكثر كبرياء النفس. يا أحبائي بكِّتوا نفوسكم وحدكم، واعترفوا بخطاياكم ودنس نفوسكم، لكي يرفعكم الرب.

٦١٢ - **يسوع المسيح قال: «مجداً من الناس لست أقبل». وأكمل القول في موضع آخر أن:**

«**ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً**». إذن، فلنجاهد نحن حتى إلى الموت ضد روح المجد الباطل. اهرب أنت، يا حبيبي، من مجد الناس ومديحهم، فقد مات كثيرون من جراء ذلك، وتحول جهادهم وتعبهم وصلواتهم وصدقاتهم إلى خزي وعار. فإن كنت متضعاً فلا تجرِ نحو الأعمال العظيمة ذات الفخر، بل اهرب منها، واختر لنفسك مسكنة القديسين وانسحاقهم لكي يدركك كلام الله: «طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات.» (مت ٥: ٢)

أبا أنطونيوس الكبير

* * *

ملخص المبادئ الهامة:

(١) عمل النعمة في النفوس المبتدئة يكون قليلاً وبقدر محدود، لئلا يسقط الإنسان في الغرور والاعتداد بالذات.

(٢) الله يسمح لأولاده بالمحن والتجارب لتتنقى نفوسهم من الكبرياء، ويجذبهم إلى التواضع والانسحاق. أما من يتضجر منها ولا يحتملها تزداد وتتضاعف عليه.

(٣) الصلاة المنسحقة لها قوة وفاعلية كبيرة، فتُستَجاب في الحال كصلاة العشار، وتجلب رحمة الله ومعونة النعمة.

(٤) المواهب والمكافأة لا تُعطَى من أجل الأعمال، بل بسبب الاتضاع والحب الذي عُمِلت لأجله.

(٥) روح الكبرياء يجعلك تعتبر كلام الوعظ والصلاة أنه ليس لك وأنك بريء من الخطايا.

(٦) انسحاق النفس يجعلك تشتاق إلى احتمال الإهانة والتوبيخ، لا تنازلاً منك، بل كمستحق لها.

(٧) انسحاق الروح لا يتفق البتة مع الغضب والأخذ بالثأر ومقابلة الشر بالشر.

(٨) الإجابة القاسية واستعمال الكلمات اللاذعة الشديدة دليل كبرياء النفس.

(٩) انسحاق الروح لا يتناسب مع التأنق في الملبس وزينة الجسد الخارجية.

(١٠) البرودة في الصلاة دليل عدم الشعور بالخطايا، وهذا بسبب الكبرياء الخفية.

(١١) الافتخار بالتقدم في حياة الفضيلة هو ضد روح الانسحاق. فالقديسون كلما ازدادوا في الفضيلة ازداد شعورهم بالعجز والنقص وصارت نفسهم مرذولة لديهم جداً.

(١٢) ليس من يذم ذاته ويلوم نفسه هو المنسحق، بل الذي يحتمل المذمة من الآخرين ويسمع ملامته ولا يتغير قلبه.

(١٣) الإعجاب بالنفس هو بداية الكبرياء، وسببه محبة النفس وسماع المديح.

(١٤) النفس المعجبة بذاتها تتصنَّع فضائل ليست موجودة فيها.

(١٥) الصلاة الحزينة المنسحقة وتعيير النفس بخطاياها هو علاجها الوحيد من العُجْب والخيلاء.

(١٦) حب الرئاسة يعمي قلب المتعظم، وعلاجه عند الله بسقطة مُرَّة.

(١٧) القلب الحساس للهفوات والحزن عليها والكثير المحاسبة لنفسه، هو قريب من الاتضاع.

(١٨) المفتخر بالفضيلة، ولو في قالب الشكر لله، قد لمسه شيطان الإعجاب بالذات؛ ومصيره السقوط إن لم يكفّ عن طلب مديح الناس، ويضع خطاياه أمام عينيه.

(١٩) المنسحق النفس لا يستريح إلى مديح الناس.

(٢٠) إذا كرَّمت نفسك احتقرك الله والناس. وإذا احتقرتَ نفسك كرَّمك الجميع.

(٢١) إذا حقَّرت نفسك لكي يكرمك الناس فالرب يفضحك.

(٢٢) المنسحق النفس لا يُقدِم على عمل يميِّزه عن غيره.

(٢٣) كل أمر يفتخر به الإنسان، يسمح الله تعالى بتغييره ليتواضع هذا الإنسان.

(٢٤) الرب يخفي إرادته عن المتعظِّم.

(٢٥) الرب لا يكفّ عن إذلالنا بشتى التجارب والأتعاب إلى أن تتضع نفوسنا.

(٢٦) ليست العظمة أو الكبرياء مجرد الفكر الذي يَعرِض لنا ثم يزول، بل هي محبتنا للعظمة وميلنا إلى الارتفاع.

(٢٧) المتواضع الحقيقي من يوجد في نفسه شيء مخفى يستحق ويستوجب الرفعة، ولكنه لا يتعظم بل يكون في أفكاره مثل تراب ورماد.

(٢٨) المتواضع الحقيقي لا يحتاج أن يقنع ذاته أو يغصب فكره للشعور بالتواضع أو خلق أسبابه. بل قد صارت طبيعته متواضعة وحقيقة نفسه منسحقة وبلا تغصب يحسب نفسه دائماً لا شيء.

(٢٩) انسحاق الروح يكون في البدء صعباً وشاقاً، وبعد ذلك ترتاح له النفس جداً ولا ترضى أن تحيد عنه.

(٣٠) الرب غسل أرجل تلاميذه، فماذا عملت أنت؟
يسوع المسيح قال: «مجداً من الناس لست أقبل»، أَفتقبل أنت؟
يسوع المسيح قال: «ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً» (لو ٦: ٢٦)! فهل تريد أن يمدحك الناس؟

الفصل الرابع

الإيمان والمثابرة

+ «ينبغي أن يُصلّى كل حين ولا يُملَّ.» (لو ١٨: ١)
+ «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه.» (مت ٢١: ٢٢)
+ «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه، لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه.» (عب ١١: ٦)
+ «لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية.» (عب ١٢: ٤)

أهم رباط يربطنا بالله هو الإيمان: «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه. لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه» (عب ١١: ٦).

والإيمان يُعتبر أعظم موهبة مُنِحت للبشر، لأن به نحصل على الخلاص من عبودية الخطية والموت: «من آمن واعتمد خلُص ومن لم يؤمن يُدَنْ» (مر ١٦: ١٦).

والذي يؤمن يستطيع أن يعمل كل شيء؛ ليس في الأشياء المستطاعة لدى البشر فقط بل وفي الأشياء غير المستطاعة أيضاً: «...تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم» (مت ١٧: ٢٠)، لأن «كل شيء مستطاع للمؤمن» (مر ٩: ٢٣). ولقد أعطى الرب يسوع، تبارك اسمه، سلطاناً للذين يؤمنون به أن يعملوا أعماله التي عملها ويعملوا أكثر منها: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها» (يو ١٤: ١٢).

وما هو الإيمان؟

الإيمان ليس هو شعوراً أو إحساساً أو عاطفة.

وليس هو دعوة مبهمة عمياء نحو أشياء غامضة.

وليس هو إرغام النفس للشعور بوجود الله والأشياء غير المنظورة.

وليس هو احتيالاً على العقل للاقتناع بالخلاص والتبرير والفداء.

وليس هو انفعالاً داخلياً مصطنعاً لإراحة النفس من جهة ما هو غير مُدرَك بالحواس.

كذلك ليس هو كبتاً ومصادمةً للشكوك التي تحوم حول المواضيع التي لا يقبلها العقل المادي بسهولة.

وليس الإيمان شيئاً شخصياً يحتفظ به الإنسان لنفسه، ويتعذر أن يشارك الجميع في دقائقه. وهو أيضاً ليس رأيك الخاص. وليس هو اقتناعاً عقلياً وليد التحليل والقياس والمقارنة. كذلك ليس هو ثمرة البراهين العلمية:

(أ) الإيمان هو تصديق العقل للحقائق الإيمانية في قبول ورضى.

ويلزم للعقل في البدء أن يتقبل هذه الحقائق ويسلم ذاته للإيمان بغير مقاومة أو فحص، مقدِّماً كل قواه التصويرية والفكرية، وأن يتخلى راضياً عن كل قياس ومقارنة.

فإذا أعلن العقل هذا الخضوع وقدَّم التسليم الكامل لكل حقائق الله والإيمان، ففي هذه الطاعة المحبوبة يتقدم الروح القدس ويكشف للعقل كل ما يتعلق بهذه الحقائق الإيمانية: «الروح القدس ... يعلمكم كل شيء» (يو ١٤: ٢٦)، «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو ٢٤: ٤٥). فيقود العقل في نور المعرفة الروحانية الجديدة حتى يوصله إلى الحق ذاته أي الله: «ألم أقل لكِ إن آمنتِ ترين مجد الله.» (يو ١١: ٤٠)

«طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحماً ودماً لم يُعلِن لك، لكن أبي الذي في السموات» (مت ١٦: ١٧).

وبعد أن يقبل العقل هذه الحقائق الإيمانية بكل خضوع وتسليم ويستنير بالمعرفة الروحانية؛ يرى أن كل قواه التصويرية والفكرية وكل فحص وقياس ومقارنة، إنما تزيد هذه الحقائق وضوحاً وثباتاً. بل ويجد أن هذه الحقائق الإيمانية قد أفاضت على عقله اتساعاً ونمواً وتجديداً.

أما الذي يدعونا أن نخضع ونسلِّم للحقائق الإيمانية، فهو أنها أمور أُوحي بها من الله. ولا أحد غير الله بمستطيع أن يعلنها ويكشفها ويوضحها لنا. فلا المنطق ولا الفلسفة ولا التعليل الطبيعي ولا أي شيء مما تدركه الحواس جميعاً يستطيع أن يجعلنا ندرك هذه الأشياء في ذاتها، لأنها ليست من هذا العالم!!!

(ب) فالإيمان بالله هو قبول معرفته على أساس الحقائق التي أعلنها هو عن ذاته بنفس كلماته واصطلاحاته.

إذ أن الله لما عرف عجز العقل البشري وقصوره المطلق عن إدراك شيء من حقائق الله من تلقاء ذاته، أعلن هو ذاته لنا وكشف عن كل ما يختص بنفسه بالنسبة لنا. حتى إذا ما قبلنا هذه الحقائق، قبلناه هو وآمنا به: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي» (يو ١٤: ٢٣). فإذا آمنا به وحفظنا وصاياه فحينئذ هو سوف يكمل عجز إيماننا بإظهار ذاته لنا: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني والذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١).

(جـ) ومعرفتنا بالله ستظل ناقصة إلى أن نعرفه كما هو في ذاته.

أما هذا «فأعلنه الله لنا نحن بروحه لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠)، «أنا معكم زماناً هذه مدته و لم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت أرنا الآب؟» (يو ١٤: ٩)

وما سؤال فيلبس هذا إلا هاتف يبحث عن كمال الإيمان، وهذا ما يجول في قلب كل واحد منا! وقد أجاب المسيح تلاميذه: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ١٠)، فكيف يكون لنا نحن أن نرى المسيح حتى نعرفه فنعرف الآب أيضاً؟

قد أجاب المسيح عن هذا السؤال: «لست أسأل من أجل هؤلاء فقط (أي تلاميذه) بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ١٧: ٢٠ و ٢١).

(د) إذن، فالإيمان الحي هو إدراك الله في ذاته وفينا بالروح القدس.

(هـ) والإيمان والثقة بمواعيده هو الإيمان به.

وللإيمان ثلاثة أعداء: الاستناد على المعرفة الطبيعية؛ والخوف؛ والشك:

أولاً: الاستناد على المعرفة الطبيعية: يمنع عمل الإيمان ويستبعد تصديق فاعليته. فالمعروف في الطبيعة أن الإنسان لا يستطيع أن يسير على الماء أو ينقل الجبال أو ينتهر الرياح والأمواج أو يقيم الموتى. أما الإيمان فلا يقيم للطبيعة وقوانينها وزناً، فهو يستطيع أن يعمل كل هذا وأكثر. لذلك إن تمسك الإنسان بمعرفته الطبيعية وقياساته المنطقية تعطل إيمانه: «قال يسوع ارفعوا الحجر. قالت له مرثا **يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام.** قال لها يسوع ألم أقل لكِ إن آمنتِ ترين مجد الله!» (يو ١١: ٣٩ و ٤٠)

وهكذا المعرفة الطبيعية تنشئ خوفاً، والخوف لا يدع مجالاً للإيمان. فواضح أن الحيات والعقارب مؤذية للغاية، فمجرد رؤيتها يثير في النفس الفزع والخوف، إلا أن الإيمان يراها مخلوقات مباركة من قِبَل الرب فلا يجد في منظرها ما يدعو إلى الخوف: «ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء» (لو ١٠: ١٩). العلم يثبت أن السم مميت لكن الإيمان لا يعرف أن الموت في السم: «يحملون حيات وإن شربوا شيئاً

مميتاً لا يضرهم» (مر ١٦: ١٨). وهكذا نرى أن المعرفة تَحِدُّ من عمل الإيمان وتقف حائلاً دون تتميم عمله.

ثانياً: الخوف: وهو دليل على التمسك بالنفس والعطف على الذات، فهو مظهر من مظاهر حب الذات، لذلك فهو يقف ضد الإيمان ويضعفه ويحرم الإنسان من ثمراته. لأن الإيمان في ذاته هو خروج عن الذات وإنكار للنفس بدافع محبتنا لله والناس، والمؤمن الحقيقي هو الذي سلَّم نفسه وجسده لله، وهو لا يخشى شيئاً قط، مُلقياً كل ثقته على مواعيد الله الصادقة: «من آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو ١١: ٢٥). هكذا قدم إبراهيم ابنه: «إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات» (عب ١١: ١٩)؛ كذلك تقدم الفتية الثلاثة إلى أتون النار غير خائفين، واثقين أن الله يحفظهم من لهيبها: «يا نبوخذ نصَّر لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر، هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة وأن ينقذنا من يدك أيها الملك» (دا ٣: ١٦ و ١٧).

ودانيال أيضاً لما ألقوه في جب الأسود وثق بإلهه: «فأُصعِد دانيال من الجب و لم يوجد به ضرر لأنه آمن بإلهه.» (دا ٦: ٢٣)

فلكي ندرك خطورة الخوف وضرره على حياتنا الروحية، يجب أن نتأمل هذه الآية: «وأما **الخائفون** وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني» (رؤ ٢١: ٨).

ربما تعجب أن الخائفين وُضِعوا في رأس هذه القائمة المشئومة، ولكن سبب ذلك أن الخوف هو الذي يُسقِطنا في جميع هذه الخطايا.

ثالثاً: الشك: ربما يتراءى لك أن الشك هو درجة بسيطة من درجات الخوف، إلا أن العكس هو الصحيح. فالخوف مظهر من مظاهر عجز المعرفة. وأما الشك فهو خطية موجهة ضد الله مباشرةً؛ فهو عدم تصديق وعود الله! والشك هو الذي يولد الخوف. لأن الشك هو ابتداء ضعف الثقة بالله وأما الخوف فهو الابتعاد التام عن الله؛ فبطرس الرسول لما رأى الريح شديدة قدَّر بمعرفته أنه لا يستطيع أن يكمل المسير فخاف وابتدأ يغرق. والسر الأساسي في عجز إيمان بطرس هو أنه شك في أمر الرب وهذا ما كشفه له السيد الرب بوضوح: «يا سيد إن كنت أنت هو فمُرْني أن آتي إليك على الماء. فقال: تعالَ. فنزل بطرس من السفينة ومشى

على الماء ليأتي إلى يسوع، ولما رأى الريح شديدة خاف، وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً: يا رب نجني. ففي الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت؟» (مت ١٤: ٢٨ – ٣١). لذلك أوضح يعقوب الرسول أن أي شك أو ارتياب يعتري سؤالنا وطلبتنا فإنه يكون سبباً لحرماننا من نوال أي ثمرة لجهادنا:

– «ولكن ليطلب بإيمان، غير مرتاب البتَّة؛ لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئاً من عند الرب» (يع ١: ٦ و ٧).

– «لأني الحق أقول لكم إنَّ مَنْ قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له. لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلُّون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» (مر ١١: ٢٣ و ٢٤).

والمثابرة على الصلاة والعبادة هي إحدى علامات فاعلية الإيمان. فإذا كان الإيمان هو دعامة الحياة الروحية، فالمثابرة هي الحجارة التي يُشاد بها البناء جميعاً.

ولكي ندرك قيمة روح المثابرة في الصلاة علينا أن نلقي نظرة إلى روح اليأس.

فاليأس هو حماقة الكبرياء وغُلْظة الرقبة. وليس أدل على ذلك من أن الإنسان اليائس يفضل شقاء الجحيم الأبدي وهو يتبع مشورة نفسه وكبرياءه وعناده، على أن يخضع لله ويتقبل من يديه حُلو هذه الحياة ومُرَّها لينال منه إكليل الحياة الأبدية.

وهكذا تظهر روح المثابرة كعلامة اتضاع وتسليم. والإنسان المثابر على الصلاة والعبادة لا يشعر في نفسه أنه كفؤ لشيء أو أن نفسه تكون محسوبة عنده، فهو يثابر في خضوع وطاعة لأنه لا يستطيع أن يتوقف عن المثابرة والخضوع. فعلى ماذا يعتمد ونفسه ضعيفة غير محسوبة في عينيه؟ «فقال يسوع للإثني عشر ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟ فأجابه سمعان بطرس: يا رب إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك!» (يو ٦: ٦٧ و ٦٨)

روح المثابرة منشأُه اقتناع داخلي بأن الحياة طريق واحد فقط يؤدي إلى الملكوت، فالمثابرة على السير هي الطريقة الوحيدة إلى الوصول، وهي الطريقة الوحيدة أيضاً للتغلُّب على الصعاب.

أما التوقف في الطريق لأية علة كانت فإنه دليل على الوقوع في فخ الشيطان: «فسيروا ما

دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥)، أي طالما أنتم تسيرون فالنور معكم وهو يقودكم، فإذا توقفتم فإن الظلام - أي العدو - يدرككم في الحال.

أما الرجوع عن هذا الطريق فهو دليل خيبة النفس وفشلها ووقوعها في كبريائها المميتة وارتضائها بالهلاك: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (لو ٩: ٦٢).

والعجيب أن استراحة السائرين في طريق العبادة والصلاة هي في مضاعفة السير والجهاد!!!

وكلمة «الإيمان» πίστις تُستخدم أرثوذكسياً في معنيين محددين:

الأول: موضوعي محض، ويخص حقيقة الإيمان ومنطوقه كما يشرحه الإنجيل، وتسجله قوانين الكنيسة حرفياً، وتشرحه منطقياً في تعبيرات واصطلاحات ثابتة ومستقرة، بحكم المجامع ورأي أئمة اللاهوتيين.

وفي هذا المعنى الموضوعي للإيمان لا يمكن أن تلتحم الحقيقة الإلهية مع العقل والمنطق إلا بتدخل النعمة.

الثاني: شخصي محض، ويخص قدرة القلب على الانفعال المباشر لله شخصياً، إنما بمقتضى الحقائق الإيمانية.

وفي هذا المعنى الشخصي للإيمان يخضع الإنسان بكل قلبه، أي بكل كيانه لله، وبالتالي لكل وصاياه عن حب وطاعة وليس عن طريق العقل والمنطق، على أن يدخل العقل والمنطق كخادم للحب والطاعة وليس كمحرك أو متسلط: «الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦).

ومن هذين التعريفين للإيمان يتبين:

أن الإيمان الموضوعي يحتاج إلى فكر وعقل ومنطق ودراسة واقتناع حتى يبلغ الإنسان درجة التشبُّع التي لا يمكن أن تبلغ درجة التصديق إلا بالنعمة.

أما الإيمان الشخصي فهو يحتاج إلى حب وطاعة ودالة شخصية كأساس حتمي حتى يبلغ بها الإنسان إلى صلة بالله عميقة، قوامها الأمانة والثقة المطلقة في الله نفسه في كل الأمور والأحوال والظروف، يكون من نتيجتها الاعتماد الكلي عليه والاستسلام المطلق لمشيئته مهما اصطدم هذا الإيمان أو هذه الأمانة بالواقع أو المنطق أو العقل.

لذلك فالكنيسة الأرثوذكسية تتمسك بأن الإيمان بكلا معنييه الموضوعي والشخصي هو «هبة» ونعمة، لأن الموضوع فيه يختص بالتجسد والقيامة، وهذان عملان فائقان على الطبيعة. كما أن متطلباته الشخصية تلتزم بأعمال تفوق القوانين الطبيعية، فالذي يؤمن بالله حقاً يتحتم عليه أن لا يشتهي شيئاً ولا يخاف شيئاً، وهذان عملان فائقان أيضاً على القوانين الطبيعية: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو ١٥: ٥).

على أن الذي يجعل الإيمان فضيلة أيضاً، فوق أنه هبة، هو احتياجه الأساسي إلى إرادة الإنسان. فالإنسان لا يمكن أن يقبل الإيمان إلا إذا أراد أن يؤمن! ولكن ليس المطلوب في الإيمان مجرد إرادة بل إرادة مذعنة، إرادة موافقة منذ اللحظة الأولى حتى يمكن أن ينفتح العقل لحقائق تفوق المعقول. فالإرادة المذعنة الموافِقة تجعل العقل ينفتح لقبول شيء جديد عليه، والعقل المفتوح المستعد يصبح وعاءً يصلح لانسكاب النعمة مع الحق الإلهي جنباً إلى جنب، حينئذ يصبح غير المعقول معقولاً والفائق للطبيعة مقبولاً للطبيعة!!

لذلك يقول القديس أوغسطينوس: [إن الإيمان تفكير يلازمه الإذعان.]

وهذه الإرادة المذعنة الموافقة هي العنصر الأساسي الذي يجعل الإيمان عملاً يُجازَى عليه. وهكذا فالإيمان هو – بآن واحد – هبة وفضيلة. أي أنه عملُ نعمةٍ وعملٌ بشريٌ معاً. فالإنسان بإرادته يستجيب لإيحاء النعمة وإلحاحها، والنعمة من فضلها تستجيب لنشاط الإنسان ومبادرته!! وبهذا المعنى يتصالح في ذهننا مبدأ الإيمان والعمل عند كلٍّ من بولس الرسول ويعقوب الرسول.

ومن هذا يتضح لنا أن إرادة الإنسان حرة أن تستجيب فتؤمن، وحرة أن لا تستجيب ولا تؤمن. لذلك يقول بولس الرسول أن «الإيمان ليس للجميع» (٢تس ٣: ٢).

ومن هنا أصبحت إرادة الإنسان شيئاً جوهرياً في الإيمان، وهي بحد ذاتها عمل، فبالإيمان يتبرر الإنسان! لذلك نجد المسيح يشدد أحياناً على توفر عنصر الإرادة بمفرده كمدخل للإيمان حتى يُحسَب أهلاً لاستجابة الله، كما في حادثة المخلَّع بسؤاله له: «أتريد أن تبرأ»؟ ... كما أننا نجد المسيح في مواضع أخرى يشدد على عنصر الإيمان في الإرادة، وذلك نجده في صراخ الأعمى وراءه وفي الأعميين اللذين تبعاه طلباً للشفاء، حيث عنصر الإرادة متوفر جداً؛ ولكن نجد المسيح بالرغم من ذلك يستفسر عن عنصر الإيمان في هذه الإرادة: «أتؤمنان أني أقدر أن أفعل هذا؟» (مت ٩: ٢٨)

وفي هذين المثلين نجد أن الإرادة أدت إلى الإيمان، والإيمان حقق المعجزة. لذلك نستطيع أن نقول إن الإيمان هو إرادة التصديق يلتحم بها في الحال فِعل النعمة فتؤتَى المعجزة، وأقوى معجزات الإيمان هي التسليم المطلق لله الذي من خلاله يدخل الإنسان بالفعل في شركة الحياة الأبدية معه.

هذا بخصوص الإيمان بالله في صورته العامة، ولكن إذا أدخلنا عنصر الفداء والإيمان بالفادي شخصياً، نجد أن الإيمان يتجه في الحال اتجاهاً جديداً نحو المحبة، لأن الإيمان بالفداء يعني إيماناً بالمحبة الأبوية المتجهة من الله نحونا مجاناً وبإصرار وبتضحية باهظة. هذه المحبة الفادية حينما تستقر في القلب بإحساس واقعي، تجعل الإيمان بالله يتحرك حركة انفعالية وجدانية جارفة تتغلغل في صميم حياة الإنسان فتبعث فيها نبضات التكريس والبذل وتقديم النفس كلها لله. فالفداء الذي أكمله الله لنا بدم ابنه، أصبح بمثابة لهيب قاسٍ قاهر لبرودة الإنسان، يرفع درجة حرارة الإيمان إلى أقصى ذروتها حتى يكاد الإنسان يشتهي أن ينذبح حباً لله.

فبعد أن كان الإيمان يمثل تصالُح بين إرادة الله وإرادة الإنسان، يصبح في مجال الفداء قادراً بالحب الدموي أن يوحِّد بين الإرادتين!!

أما أثر ذلك بالنسبة لوصايا الله ونواميسه الأخلاقية، فبعد أن كانت الوصايا والنواميس في ظل متطلبات الإيمان (بدون الفداء) تمثل، باستمرار، التعارض بين إرادة الله وإرادة الإنسان، أصبحت هذه الوصايا والنواميس في مجال «الإيمان العامل بالمحبة» - أي في مجال الفداء - هي بعينها «روح وحياة»، إذ لم تعُد مكتوبة بالحرف كَصَكٍّ ضد الإنسان، بل صارت مكتوبة بالروح القدس على صفحات القلب المحب كمِسحة قوة للحياة والتجديد. وهكذا تصبح الوصية التي كانت للموت، هي نفسها قوة حياة داخلية للإنسان الذي آمن بالمسيح!! وبعد أن كان تنفيذ نير الوصية حسب حرفها المكتوب أمراً عسيراً بل ومستحيلاً كقول بطرس الرسول: «لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أع ١٥: ١٠)، أصبح بالنعمة أمراً ممكناً بل ومحبوباً جداً وسهلاً للغاية بسبب الإيمان الفعال بسر محبة المسيح!!

اسمع ما يقوله في ذلك القديس مكاريوس الكبير:

٦١٣ - إن من صميم الدين المسيحي أن يذوق الإنسان نعمة الله، هذه المذاقة هي من عمل الروح القدس كتفضُّل منه، ولكن في نفس الوقت هي من جرَّى تأثير ثقة الإيمان التامة الفاعلة في القلب. لأن كل

الذين هم بنو النور وخدام العهد الجديد بالروح القدس لا يتعلمون شيئاً من البشر لأن تعليمهم يكون من الله، لأن النعمة ذاتها تكتب في قلوبهم نواميس الروح، فلذلك لا يجب أن يتكلوا على الكتب فقط، لأن نعمة الله تكتب سُنَن ونواميس الروح والأسرار السماوية على صحيفة القلب أيضاً، فيتسلط القلب ويملك على حركات الجسد ويسمو عليها، وإذا امتلكت النعمة مراعي القلب في أيديها أصبحت مطلقة في تدبيرها لجميع الأعضاء والأفكار.

(العظة ١٥)

وهكذا نرى أن الإيمان، بدخول عنصر الفداء فيه، تحول إلى محبة متبادلة مع الله. فالإنسان لم يعُد مُطالَباً بالإيمان بالله من طرف واحد، كثِقْلٍ يحمله تحت نير وصايا صعبة خشية العقاب والموت، بل صار مُنعَماً عليه بالإيمان بالمسيح بموهبة المحبة المتبادلة مع الله التي فيها يصير محبوباً لله الآب مجاناً: «الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧).

وبسبب محبة الله المنسكبة في قلوبنا بالروح القدس أصبح للإيمان قدرات جديدة فائقة للطبيعة ومدهشة، لأن الإنسان لم يعد هو الإنسان القديم بل صار شيئاً آخر متحداً بقوة إلهية في كل كيانه.

إسمع ما يقوله القديس مكاريوس الكبير:

٦١٤ – لذلك إن كان أحد يحب الله فالله أيضاً يصب محبته فيه، فإذا اؤتُمن الإنسان على محبة الله يزيده الله من الإيمان فيصير إنساناً آخر، حتى أن كل ما تقدمه (تكرسه) لله من أعضائك يخلط هو به شيئاً مثله من خاصته، وبذلك تستطيع أن تتمم أعمالك بنقاوة ويكمل حبك له وتصلي إليه.

(العظة ١٥)

أما بخصوص قيمة الإيمان في اللاهوت النسكي أي في الحياة الروحية عموماً بما فيها الصلاة؛ فإننا في تتلمُذنا على القديسين لم نجد في الحقيقة من وفَّى هذه العلاقة حقها مثل القديس مار إسحق أسقف نينوى، ولكن بسبب استفاضة هذا القديس العظيم في موضوع الإيمان الذي يسميه الأمانة، ولغزارة مادته، اضطررنا أيها القارئ العزيز أن نلخص لك جميع مبادئه التي وردت ضمن أقواله، ووضعناها في كلمات مختصرة. لعلها تصيب اهتمامك وتزيد من إيمانك:

مختصر مبادئ القديس مار إسحق في موضوع الإيمان والمثابرة:

٦١٥ - تحقيق الإيمان بالله ليس هو في صحة الاعتراف، وإن كان هذا يُعتبر أساس الأمانة بالله.

بل إنما يتحقق الإيمان بالله ويظهر بالفعل كقوة داخل النفس عند تداخل الإنسان في السيرة الروحانية بما يتفق مع وصايا المسيح التي هي نور النفس وضياؤها.

٦١٦ - الأمانة في الله هي أجنحة الصلاة.

٦١٧ - الإهمال والكسل يخيبان الإنسان من معونة الله وبالتالي يزعزعان أمانة الإنسان بالله.

٦١٨ - كل شيء مستطاع للإيمان، إذا كان نظر الإنسان يتثبَّت في الله وليس في الأمور.

٦١٩ - إن كنت تثق بسياسة الله وتدبيره وتؤمن أنه يضبط جميع أمورك فلا تستعمل التحايل البشري.

٦٢٠ - سُكْر الأمانة بالله، وإحساس الإنسان بقوة الله الفائقة، يشفي ضعف حواس الإنسان، ويعطي شجاعة للنفس تطأ بها حاجز المرئيات لترى ما بعده.

٦٢١ - الأمانة بالله تشجع العقل.

٦٢٢ - من التجارب نقتني المعونة، ومن المعونة الإلهية نقتني الأمانة بالله.

٦٢٣ - الأمانة بالله تتبع البساطة.

٦٢٤ - الرجوع عن طريق الأمانة، بعد سلوكها وتذوُّق أسرارها، خطر لأنه يُفقِد الإنسان قوة الأمانة ويُعدِمه المعرفة.

٦٢٥ - الأمانة بالله تفتح السبيل أمام الإنسان لتذوّقه مؤازرة الله ومعونته في التجارب؛ وتهب الإنسان جراءة أن يطأ المصاعب مقتفياً وراء المعونة الإلهية خفيةً؛ وشيئاً فشيئاً يقتنع الإنسان أنه ليس كفؤاً أن يدبر نفسه بالمعرفة.

٦٢٦ - في الصلاة عندما يبلغ الإنسان درجة الأمانة بالله لا يعود يصلي بطلبات لأنه ينظر العناية الإلهية بعين الإيمان وهي تظلل عليه، فلا يعود الإنسان يهتم بتدبير نفسه. ويحس الإنسان بمعاضدة الله بصورة لا يمكن أن يصدقها الناس.

٦٢٧ - الأمانة بالله هي فكر واحد بسيط لا يتغير ولا يضعف، بعيد عن كل تصنُّع أو حيلة أو مكر أو تفتيش أو فحص أو شك.

٦٢٨ – كذلك فالأمانة بالله هي ضد سُنَن المعرفة البشرية، وهي أحياناً كثيرة تبطلها وتسخر منها. لأن المعرفة البشرية خارجاً عن الفحص والتفتيش والرؤية والشك لا تعمل، تحفظ حدود الطبيعة وتلتزم بقوانينها في سائر طرقها وتحترس من أذيتها وتخشاها. أما الأمانة بالله، فهي فوق الطبع تجعل أشكالها ومسلكها، وبسلطة تستعمل كل شيء، تسلك ضد الطبيعة وفوق حدودها، تسير على الماء والنار وتطأ الحية والأفعوان وتسحق الأسد والتنين، وإن شربت سُمّاً مميتاً لا يضرُّها شيء.

٦٢٩ – فالأمانة بالله تزعزع أبواب المعرفة وتنقض طرقها القديمة.

٦٣٠ – المعرفة البشرية تظهر دائماً فقيرة محتاجة، تعتمد على الحيلة لتحفظ مقتناها.

أما الأمانة فكنوزها لا تنضب، والذي يتبعها يسند قلبه حتى ولو لم يكن يملك شيئاً، فهو بالإيمان يصلي فينال كل شيء. فالذي له الأمانة لا يهتم بشيء لأنه يتكل على الله، ولا يعرف التحايل لأنه لا يقتني، وهو لا يقتني لأنه لا يخاف.

المعرفة البشرية تمدح الخوف والاحتراس، وتقف عاطلة أمام العوارض الصعبة التي تفوق المعرفة.

والأمانة بالله تقول إنه: «لما خاف بدأ يغرق»! والله يقول: «لا تخف منهم لئلا أكسرك قدامهم»!

٦٣١ – المعرفة البشرية تمدح السير بالحذر والفحص والقياس قبل البدء بالعمل لئلا يبطل العمل.

والأمانة تقول: «كل شيء مستطاع لدى الله»، و «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني».

٦٣٢ – يا لِغِنى الأمانة ويا لفيض قوتها، ما أكثر عزاءها وما أحلى السير معها وما أسهل نيرها!

٦٣٣ – الذي استحق مذاقة الإيمان ثم عاد ورجع إلى طريق الحيل والمعرفة البشرية يشبه من قايض جوهرة بفلس نحاس.

٦٣٤ – نحن لا نزدري بالمعرفة، ولكن بدون الإيمان يظهر لنا نقصها.

والمعرفة غير مرذولة، ولكن الإيمان أعلى منها وأشرف.

والمعرفة جُعِلت للإنسان لكي يتدرج بواسطتها ليدخل الإيمان.

٦٣٥ – ليس قولي الإيمان يعني أن يؤمن الإنسان بالثالوث الأقدس وطبيعته وخواصه أو بتدبير التجسد الإلهي، بل أعني بالإيمان النور الذي من النعمة يشرق في النفس، وبشهادة الضمير يتقوى القلب ويثق بدون انقسام وباقتناع الرجاء الخالي من كل الظنون والأوهام. والإيمان بهذا الوصف لا يمكن الحصول عليه من

التقليد أو بسماع الأذن. بل هو قوة الپاركليت التي وُهِبت لتحل على الإنسان في كل وقت وزمان، الذي يشعل كل أجزاء النفس بالإيمان كمثل النار، حتى أن الإنسان يجسر على الأشياء الخطرة بثقة مطلقة في الله.

٦٣٦ . الأمانة هي أن يثق الإنسان بتدبير الله وبصفته سيداً على الكل، ويؤمن أنه لا يمكن أن تحصل أذية له بدون سماح منه.

٦٣٧ . الأمانة تجعل قلب الإنسان يثق بالله بشجاعة فائقة حتى أن الوحوش تصير في عينيه كالغنم.

٦٣٨ . إن أردت أن تجد طريق الحياة الأبدية، تمسَّك بالأمانة بالله.

٦٣٩ . اسأل الله لكي يجود عليك بالأمانة به، لأنه إن أهَّلك لهذا الإيمان تحس في الحال بقوته وبنعمته في قلبك، فلا يعود شيء يمنعك عن الدالة والقرب منه.

وأنا أدلك على الطريق: صلِّ كل وقت وبلا ملل ولا كسل واطلبها بدموع وحرارة وتضرُّع واهتمام كثير، إلى أن تحظى بها فلا تعود تشقى بعد ذلك!

وحينما تلقي همَّك كله على الله وتُبدِّل عنايتك بنفسك بعنايته بك ويرى الله أنك قد استأمنته على أمورك كلها وغصبت نفسك للاتكال عليه وحده، فإنه يجود عليك في الحال بقوة ما كنت تعرفها! تجعلك تحس بعنايته بدون شك أو ارتياب في الظروف الصعبة والخطرة؛ وتمنح حواسك كفاية وقناعة وشجاعة فلا يعود يضعف لها فكرك؛ وتصبح نظرة النفس للأمور والأشياء مرتفعة عن الحواس ولا تخشى مجاذبتها؛ وتهب نفسك معرفة جديدة تؤهلك للسيرة الروحانية التي بطفولة الضمير وبساطة القلب. ولكن تظل عادات المعرفة القديمة تطل برأسها بين الحين والحين إلى أن يستأصلها الإنسان باقتناع وشجاعة.

٦٤٠ . إن كنت واقعاً في شبكة المعرفة النفسية بحيلها الكثيرة ومقيَّداً بدهائها ومكرها، فيكون أسهل عليك أن تنفك من قيود الحديد من أن تنفك منها! وتكون دائماً لست بعيداً من فخاخ ومصايد الطغيان على الدوام؛

ولا يمكن أن تحصل على دالة مع الله ولا ثقة في القلب؛
ولا تمضي أيامك بدون حزن أو ألم.

فإذا أردت أن تخرج من هذه الشبكة، مزِّقها بالبساطة والتجئ إلى العجز والضعف إلى أن تأتي قدام الله وتصبح بلا همٍّ. ولا تسمح لأفكار الخوف أن تُلمَّ بك، حتى ولو اجتاحتك كل الأحزان والضواغط وأحدقت بك الأخطار، فلا تُفلت زمام الإيمان بالله والثقة به، ولا تخضع لتهديد أو تخويف ولا تحسب للمستقبل حساباً.

فإن كنت قد ائتمنت الله ووثقت فيه أنه كفؤ أن يحفظك ويدبر حياتك، امضِ وراءه واتبع مشورته ولا

ترجع تهتم بشيء قط، عند ذلك تنظر عمل الله معك وكيف يكون خلاصه دائماً قريباً من خائفيه وعنايته محيطة بهم ولو لم يبصروه.

٦٤١ . إذا رفض الإنسان كل معاضدة بشرية منظورة وكل آمال بشرية ولصق نفسه بالإيمان بالله بقلب نقي غير منقسم، فإنه من ساعته تلازمه النعمة وتظهر فيه قوتها بمعونات مختلفة. فأولاً تعلن النعمة عن نفسها في الأمور الظاهرة وفي الأشياء الجسدية لكي بهذه تتحقق النفس منها وتحس في داخلها بمعونتها. وعندما يتأكد الإنسان من عملها في الظاهرات يبدأ يحس بعملها في الخفيات وكيف تعد له حاجة نفسه بدون تعب وبدون عناية منه!

ثم تبدأ ترفع عنه عوارض كثيرة تزيلها من طريقه وتبطل مشورات خطرة كانت محدقة به وهو لم يكن يعلم ولا كان يحسب لها حساباً؛ فينظر بعينيه كيف كان هلاكه قريباً ومؤكداً لولا عملها واحتراسها الشديد؛ وتكشف له هواجس أفكاره التي يسوقها عليه العدو ليرعبه وتفضح ضلالتها وتضيء بصيرته.

٦٤٢ . وإن وُجِد الإنسان ناقصاً تُدخله النعمة في التجارب بيدها ويحس هو بذلك.

٦٤٣ . فإذا بدأ الإهمال يدخل على نفسك ويسرق كنزك تبدأ تحس أنك راجع إلى الوراء والظلام بدأ يحيط بك وإيمانك يضعف أمام عينيك، وتبدأ تشره وتطمح في الأشياء الظاهرة وثقتك تنقص، وتبدأ تقع بقريبك وتمتلئ ملامة بالفم وبالقلب ضد كل إنسان وعلى كل أمر وعلى كل شيء تلاقيه حتى وعلى الرب نفسه! وتبدأ تخاف من مؤذيات الجسد، وأمراضه تصبح مستثقلة عليك والتي من أجلها يتسلط عليك صغر النفس.

٦٤٤ . فإذا استجبت لتأديب النعمة وتقدمت في العمل تبدأ تعود لك دلائل وعلامات الأمانة فتحس بتشجيع الرجاء في كل أمر وتبدأ صلاتك تنجح، وتصير أفكارك مادة للمنفعة لك على الدوام ويعود لك إحساسك بعجزك فتتحفظ من العظمة وترحم زلل قريبك، وحينئذ تتحقق أن كل العوارض والتأديبات التي صارت عليك كانت كلها بحق وعدل فتبتدئ تشكر عليها بكل رضى واعتراف!

٦٤٥ . التمسُّك بالأمانة لا بد أن يسبقه تعب واجتهاد في طاعة الله وعرق في تكميل وصاياه. فالأمانة بالله يلزم أن يزكيها عمل باستمرار.

والاعتماد على الله لا يصح ولا يجوز، إلا إذا كان يزكيه من الداخل شهادة الضمير، وشهادة الضمير تتولد من تكميل الوصايا.

٦٤٦ . فرِّق بين الأمانة بالله بكلام الفم، وبين الأمانة بالقوة المتحركة من الداخل.

٦٤٧ . الإنسان الجبان يدل على أنه مرض مرضين: الأول قلة الإيمان، والثاني محبة الجسد.

٦٤٨ . جسارة القلب والاستهانة بالأهوال تتولد من أحد أمرين: إما قساوة القلب، وإما من كثرة الأمانة بالله. فأما الجسارة المتولدة من قساوة القلب فيتبعها دائماً إعجاب بالذات، وأما الجسارة المتولدة من كثرة الأمانة بالله فيتبعها اتضاع القلب.

٦٤٩ . الأمانة بالله والرجاء والثقة والشجاعة القلبية هي ثمرة لشهادة الضمير ورضاء النية وثقتها بالله، كما أنها تتولد من الدالة مع الله. وذلك كله أساسه التدبير الروحي الجيد وخدمة الفضائل.

٦٥٠ . لا يستطيع أحد احتمال الضيقات والصبر عليها بدون تذمر، إلاَّ إذا كانت له أمانة في مواعيد الله التي يعتبرها أثمن من جسده وأشرف من صحته وراحته.

فالإنسان يتقوى أولاً بالإيمان وحينئذ يستطيع أن يباشر الأحزان التي تعرض له.

٦٥١ . إذا كنت تريد أن تعيش بمعزل عن العوز، ويكون عندك كل ما تحتاجه، وتهتم بجسدك لكي يكون صحيحاً، وتتسلح لكي لا يلمَّ بك الخوف من الأضداد، ثم تقول إنك سائر نحو المسيح، فاعلم أنك مريض العقل وعادم الذوق لمحبة الله تعالى.

أقوال الآباء في الإيمان والمثابرة:

٦٥٢ ـ الإيمان هو جناح الصلاة، وبدونه تعود الصلاة إلى حضن الإنسان ثانيةً.

الإيمان هو وقفة النفس ثابتة لا تزحزحها عنه أية بلية أو محنة.

ذو الإيمان الحق ليس هو الذي يفتكر أن كل شيء ممكن لدى الله، بل الذي يرى وجوب قبول كل شيء من الله!

الإيمان يمهّد الطريق لنوال ما لم نكن ننتظره أو نرجوه، واللص قد أثبت ذلك على الصليب.

الإيمان أبوه العمل وأمُّه القلب الصادق، فالأول يبنيه والثاني يجعله لا شك فيه!

الأب يوحنا الدرجي

٦٥٣ ـ أهم شيء في الصلاة يجب أن نجاهد من أجله هو أن يكون لنا فيها إيمان حي واضح بالله. نتصوره واقفاً أمامنا وفينا، نسأله كل ما نريد باسم يسوع المسيح وقوة الروح القدس، نسأله ببساطة بلا أدنى أثر للشك فيصير لنا تتميم الآية: «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه». وفي لحظة نحظى بأمور عجيبة وكبيرة للغاية بإشارة الصليب وما تفعله من غرائب مدهشة.

الأب يوحنا (ك.)

٦٥٤ ـ قد تأكد تماماً أن صلاته لن تُستَجاب! ومن هو هذا البائس؟ هو الذي يصلي ولا يؤمن أنه سيحصل على جواب.

الأب يوحنا كاسيان

٦٥٥ ـ إذا كان سؤالك حسب مشيئة الله ومرضاته فلا تكفّ عن السؤال حتى تناله. الرب نفسه لكي يلفت نظرنا إلى هذا قال مَثَل الرجل الذي تحصَّل على الخبز في نصف الليل من صديقه بلجاجته (لو ١١: ٥).

باسيليوس الكبير

٦٥٦ ـ اسأل الرب بمثابرة وثقة عن كل شيء يعود لخلاصك ولتقدمك في الصلاح والعبادة وأنت لن تخيب من نواله. وفي نفس الوقت اعمل ما يجب وابذل كل قوتك سائلاً الرب أن يكون معيناً لك. أما إذا استسلم الإنسان في أثناء لجاجته إلى شهوات نفسه وعاد إلى تقلُّبه فالله لن يساعده أو يستمع إليه، لأنه بخطيته ينفِّر الله ويصدُّه عن نفسه.

٦٥٧ . الرب يريدنا أن نتوسل إليه، ويشاء أن نغصبه، ويرغب في أن يُغلَب من حدَّتنا.

غريغوريوس الكبير

٦٥٨ . إن صلوات الذين يتقدمون بإيمان، هي دائماً مسموعة. وذلك إما لأمانة خادم الله الذي يتقدم بالشفاعة لدى الله أو لأمانة المتقدم بالسؤال والطلبة لدى خادم الله. لأن في كلتا الحالتين يكون السؤال بأمانة في اسم الله. فالذين تقدموا إلى الله بشفاعة الرسل نالوا الشفاء، والذين استعملوا عصائب ومناديل الرسل ووثقوا مؤمنين نالوا الشفاء أيضاً.

٦٥٩ . وحتى إذا لم تأخذ طلبتك كما تود وترغب، حصلت على المنفعة. لأن عدم نوالك ما تشتهي يفيد غالباً أنك نلت أحسن مما اشتهيت.

الأب يوحنا الدمشقي

٦٦٠ . الله يعرف الساعة بالضبط التي إذا ما أعطانا فيها الشيء يكون حينئذ ذا نفع لنا. الطفل يصيح ويحتج ويغضب ليأخذ السكين! ومحبة الأبوين تأبى إعطاءه إياها. هكذا الرب يعاملنا مثل هذا، فهو يعطينا أحسن مما نطلب.

٦٦١ . إذا أخذنا ما نطلبه أو لم نأخذه يجب أن نبقى في الصلاة. ليتنا نشكر ليس فقط حينما نأخذ ولكن حينما لا نأخذ أيضاً. لأننا لا نعرف ما هو الصالح لنا بل الله. لذا فيجب أن نعتبر الأخذ وعدم الأخذ نعمة متعادلة ونشكر الله من أجل هذه وتلك.

يوحنا ذهبي الفم

٦٦٢ . حينما تدوم طويلاً في الصلاة لا تقل إني لم أستفد شيئاً. لأنك ها قد استفدت بالفعل الاتصال والثبوت في شركة غير منقطعة معه!

الأب يوحنا الدرجي

٦٦٣ . الأمانة هي مفتاح كنوز الله. وهي تسكن القلوب البسيطة الرحومة التي تصدق وتؤمن «كل شيء مستطاع لدى المؤمن».

الإيمان هو فم الروح، كلما انفتح بسخاء انسكبت فيه الينابيع الإلهية. آه... ! ليت هذا الفم يكون على الدوام مفتوحاً، فلا تحبسه شفتا الشك وعدم الإيمان فتنحبس عنا كثرة أنعام الله. كلما فغرتَ فاكَ وأخلصت بأمانتك في قدرة الله اللانهائية، انفتح قلب الله لك بالجود والسخاء.

٦٦٤ . لا تقنط وتسقط في اليأس حينما تشعر في داخلك بريح الشر وهيجان الحقد، وقلة الصبر، وحتى أفكار التجديف وأي فكر شرير آخر. ولكن حارب مقابلها باستمرار، واحتمل بشجاعة، ونادِ بكل قلبك الرب يسوع المسيح غالب الهاوية وكاسر شوكة الموت، واتضع بنفسك كثيراً جداً في ذلك الوقت،

معترفاً بشجاعة بكل خطاياك وبأنك لست مستحقاً للشركة مع الأبرار. فالرب حينما ينظر إلى اتضاعك وجهادك يساعدك. وادع شفيعتك السريعة المعونة العذراء كلية الطهارة والدة الإله قائلاً لها أن تشفي جراحات نفسك وتحارب الأعداء وتصدهم عنك.

٦٦٥ . نشكر شفيعتنا سريعة المعونة أم إلهنا الكلية الطهارة مريم العذراء. إذ تعيننا أثناء الصلاة على ظلم الشيطان وأتعابه.

إنها قريبة منك على الدوام. تطلَّع إليها بعين الإيمان، وادعُها لتجاهد معك ضد أعدائك، وهي في اللحظة والتو تخلِّصك من ضيقة نفسك كحسب إيمان قلبك ووثوقك بها، وتطفئ عنك نار غضب العدو فيرتد عنك.

وليكن لك إيمان ووثوق في الروح القدس ودوام حضوره في كل مكان وأنه كائن غير مركب. به تصير السموات في غاية القرب منا بكل ملائكتها وقديسيها. فما علينا إلا أن ندعو الرب فيستجيب ونستشفع بالعذراء أو أي قديس من عمق القلب بإيمان قوي واضح وحينئذ يشرق خلاصنا في الحال.

عجيبة هي قوة شفاعة أم ربنا على المعونة. تفيض على القلب مسحة من بلسم شافي وعطر نسيم محيي وينبوع ماء هادئ! فقط ثق في قدرتها على الشفاعة السريعة المقبولة عند ابنها يسوع المسيح!

ليست الشفاعة أمراً هيناً، لذا فالعدو يعمل جاهداً ليحرمنا من هذه المعونة السريعة، ويجاهد ليعترض أمانتنا ونظرتنا إليها أو إلى بقية القديسين، ويقيم من نفسه ستاراً من الظلمة أمام أعين قلوبنا ويبعثر إيماننا ويشككنا حتى لا نكسب معونتهم ضده.

فعلينا أن نتشجع ونقتحم هذه الحواجز المظلمة ونهتف بهم بأكثر شدة وأمانة فيفتضح العدو ويرتد سريعاً إذ يتقدمون لمساعدتنا: «يرسل لك عوناً من قدسه ومن صهيون يعضدك.» (مز ٢٠: ٢).

٦٦٦ . «يعطيك الرب حسب قلبك»، ليتك تصلي بقلب مؤمن حار ملتهب لأنه حسبما يكون القلب تكون العطية! فإذا صليت بإيمان مخلص من كل قلبك وليس بمراءاة، فالعطية التي ستنالها من قِبَل الرب ستكون كإيمانك وكمقدار حرارة وغيرة قلبك. وبمقدار برودة القلب في الصلاة تصير الصلاة بلا ثمرة، بل تصير مكرهة في عيني الرب جداً لأن الله روح وينبغي أن تكون عبادته بالروح والحق.

لذلك سواء كنت تدعو الرب يسوع، تبارك اسمه، أو تستشفع بأمّه العذراء أو بالملائكة أو بأحد القديسين، ادْعُهم من قلب ملتهب بالإيمان والحب نحوهم. وإذا كنت تصلي من أجل أحد الأحياء أو الأموات فصلِّ لهم من كل قلبك ذاكراً أسماءهم بحرارة صادقة. وسواء كنت تطلب نعمة الروح القدس لك أو لأحد آخر لكي تُعتَق أنت أو غيرك من بليَّة أو خطية أو شهوة أو عادة ردية، فصلِّ بحرارة وليكن طلبك بعزم ووثوق ولجاجة وثبات. فيهب لك الرب سؤل قلبك: «تطلبون ما تريدون فيكون لكم.» (يو ١٥: ٧).

أرأيتَ كم هو مهم أن نرغب ونشتاق إلى ما نسأله ونطلبه من الله؟

٦٦٧ . آمن وثق أن الرب في كل حين هو الكل لك. ففي أثناء الصلاة هو قوة واستجابة لكل كلمة بالروح القدس، وحينما تحدّث الناس عن العبادة فهو ينبوعك الحي الذي ينبع منه كلامك الحار الدفاق. نعم هو في كل حين كل شيء لك!

كُن خالياً من الهمّ في حضرة سيدك. لقد أغلق عليك معه وسدّ المنافذ عليك من كل جانب ودخل فيك وتخلل أجزاءك وأعضاءك كلها وعرف كل أفكارك وكل احتياجاتك. إذن، فقد أصبح لك كل شيء، وأنت إذا عشت واثقاً فيه بالإيمان والحب فسوف تحيا بلا همّ: «لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتُعلَم طلباتكم لدى الله» (في ٤: ٦). أليس هو الذي يستطيع أن يخلق الشيء؟ إذن فهو يستطيع أن يغيره كما فعل في عجائب مصر، فالقادر على كل شيء يستطيع أن يعمل كل شيء.

٦٦٨ . ارفع نظر قلبك الداخلي إلى الله. واستوثق من رؤيته ملياً ثم اسأل منه ما تشاء باسم يسوع المسيح فسيُعطي لك، وفي لحظة يتم طلبك. لأنه في دقائق رفعة إيمانك الصادق به، يصير اتحادك معه. وحينئذ ما تطلبه يكون لك حسب مشيئته، سواء كان من أجل خلاصك أنت أو لقريبك، لأنك في هذه اللحظة تكون شريك الألوهية باتحادك الروحي مع الله: «أنا قلت إنكم آلهة» (مز ٨٢: ٦). في ذلك الوقت لا يكون بينك وبين الله شيء، لا مسافة زمنية ولا مكانية. وحالما تنطق بكلماتك يكون سماعها فاستجابتها وتحقيقها! «لأنه قال فكان. هو أمَرَ فصار» (مز ٣٣: ٩). ألم يكن هذا هو الحال بالضبط في تحويل الأسرار المقدسة!

٦٦٩ . مريم العذراء هي واحد مع ابنها يسوع المسيح باللحم والدم، أعطته جسداً من جسدها هو غايةٌ في الطهارة وغايةٌ في القداسة. أرضعَتْه من لبنها وحملته على ذراعيها؛ ألبسته من صنع يديها واهتمت بكل شئون طفولته؛ قبّلته ودلّلته بكل ملاطفة. يا رب من يقدر أن يصف عظمة العذراء حاملة الله الكلمة؟

كل لسان لهو في حيرة كيف يمدحكِ بما يليق! حتى وعقل الملائكة لهو في دهش مما نلتِ من النعمة والتطويب يا والدة الإله!

يجب أن ندعوها بقلب بسيط غير منقسم. واعلم أن موضوع خلاصك هو قريب من قلبها جداً. ادعُها كل حين وهي تلبي الدعاء.

٦٧٠ . كلمات الإنجيل والصلوات المختصة بالخدمات الكنسية والأسرار، اقرأها بإيمان وتوقير ومخافة الله، بهدوء روح ولكن بحرارة داخلية فهي قادرة أن تنعش وتشدّد وتشفي جسدك أيضاً: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣)، هذه الأمور قد تعلمتها بالاختبار، فيجب أن يكون لنا إيمان حي أن الله كائن معنا لأن هذه هي ترجمة اسمه «عمانوئيل» وهو يتطلع إلى صلواتنا عندما تكون حارة مخلصة، وعند أول ندائنا هو يستجيب ويكون مستعداً لنجدتنا في الحال.

إذن فصلاة الإيمان هي ضرورية لنا طالما نحن نحيا في وسط هذا العالم محاطين بالأعداء الظاهرين والخفيين.

٦٧١ . هل كان يظن الفريسيون أنهم يصلُّون بمراءاة؟ كلا بلا شك، فقد صارت صلاة الرياء هذه عادة . بل طبيعة، إن أمكن هذا التعبير . وكانوا يظنون أنهم يخدمون الله بصلواتهم. فهل المراؤون في المسيحية في هذه الأيام يظنون أنهم يصلُّون أو يحيون حياة الرياء؟ كلا بلا شك، فهم يصلُّون بانتظام يومياً وربما يطيلون الصلوات أحياناً. ولكن للأسف هي صلاة العادة، مخرجها ومنتهاها عند الشفتين. هي فقط تتميم مراسيم وقوانين محدودة للصلاة ويظنون أنهم يقدمون خدمة لله. هؤلاء يجلبون على أنفسهم الويلات واللعنات التي صبَّها السيد المسيح على الكتبة والفريسيين المرائين! لأنهم لِعلَّةٍ يطيلون الصلوات.

٦٧٢ . ما هي علامة المسيحي؟ هي حبه وإيمانه بالمسيح، تجده دائماً يلفظ اسمه الحلو ويدعوه لمعونته في كل عمل. يتجه إليه بعينيه وأفكاره وقلبه كل حين. كذلك فإن السيد المسيح له المجد تجده يعزيه كل حين ويتراءى له: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي.» (يو ١٤: ٢١).

أما الإنسان البعيد عن المسيح فهو قلما يتجه بأفكاره نحو المسيح.

وحتى إذا صلَّى يكون بلا حرارة الحب وبدون فاعلية الإيمان القلبي وإنما يكون بدافع الحاجة. وهو في التجائه إليه كمن يلتجئ إلى شخص بعيد عنه غير معروف لديه لا توجد بينهما صلة، ليس له فيه سرور ولا يجذبه إليه أي ميل نحوه.

أما هؤلاء المغبوطون الذين لا يدَعون المسيح يفارق عقلهم أو قلبهم فإنهم يعيشون في المسيح، ويصير لهم هواءهم وطعامهم وشرابهم وإقامتهم وكل شيء!

وبسبب الحلاوة التي يتذوقونها في اسمه وبسبب لمساته الخفية اللذيذة التي يمس بها قلوبهم، تجدهم يلتصقون به أكثر فأكثر، وفي التصاقهم به يجدون سعادة لا يُنطق بها ولا يدركها العالم.

بؤساء هؤلاء الذين لم يجدوا المسيح بعد! هم يعيشون بلا تذوُّق حرارة وعظمة الإيمان. يهتمون ويضطربون لأجل أشياء كثيرة عالمية، كيف يمتعون ذواتهم بالأكل والشرب واللباس الفاخر ويتلذذون بشهوات العالم الكثيرة. تجدهم يفكرون كيف يقطعون الوقت بعد أن عزَّ عليهم كيف يستخدمونه لمجد الله، مع أن الوقت هو الذي يفتش عليهم ويطلبهم وإذ لا يجدهم مكترثين يهملهم ويسرع في طريقه: يوم يتلو يوماً وليل بعد ليل وشهر تلو آخر وسنة تجر أخرى! وأخيراً تدق الساعة الخطيرة المخيفة وإذا برسول الموت ينذر أن انتهى العمر، قد أضعتَ كلَّ وقتك!!! يسيرون تتقدمهم خطاياهم وتعدياتهم وجحودهم . «خطايا بعض الناس واضحة تتقدم إلى القضاء وأما البعض فتتبعهم» (١تي ٥: ٢٤). وهؤلاء من الذين تتقدمهم خطاياهم!

٦٧٣ . إن خدمتنا الكهنوتية هي تكرار لذات الصلوات وهي وإن كثرت تبتدىء بذات البداءة الواحدة: «يا أبانا الذي في السموات»، لأن **ليس بتنوع الصلوات يتشدد الروح ولكن بتكرارها وتثبيتها داخل قلوبنا وتخلُّلها داخل نشاطنا وتفكيرنا ومشيئتنا حتى تصير جزءاً من حياتنا.**

٦٧٤ . حينما تصلي إلى الله من كل قلبك فأنت في الواقع تحدث الله ليس كأنه خارج عنك بل هو في داخلك وفي عمق قلبك: «يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦).

٦٧٥ . حينما تنطق باسم ربنا يسوع المسيح بإيمان وقوة، يصير مفزعاً للشياطين لأن اسمه القدوس قوة في ذاته وكسيف ماضٍ ذي حدين، فإذا سألت شيئاً من الآب السمائي، في إيمان باسم ابنه يسوع المسيح، فإنه من أجل حبه لابنه ومسرته به فإنه يعطيك دون أن ينظر إلى استحقاقاتك أو إلى خطاياك بشرط أن يكون لك معه حب وثبوت!

٦٧٦ . «ها أنت قد برئت فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو ٥: ١٤). يلزم أن يكون لنا عزم ثابت وإيمان كامل أن لا نعود إلى الخطية إذا منَّ الله علينا بشفائنا أو أعطانا سؤالنا. لأن من شروط استجابة الصلاة نية القلب لعدم الرجوع إلى الخطية.

٦٧٧ . حينما تصلي من أجل شيء أو تستشفع بالعذراء أو أحد القديسين من أجل إنسان، عليك أن تتبصر في نوع كلماتك التي توضح بها طلبتك وتحدد الموضوع أو الشيء الذي تسأله من الرب. وصدِّق أن عندك عهداً أكيداً من الله لمنحك كل دقائق صلاتك بذات الكلمات التي شرحت ورسمت بها طلبتك. وعلى سبيل المثال: حينما تسأل صحة لنفسك أو لإنسان آخر، التفت إلى كلمة «صحة» ذاتها وما تفيده فعلاً وثق أنك نلت ما تتصوره في ذهنك بالفعل برحمة الله وقدرته على كل شيء. لأن ذات الكلمات والأسماء تصير عند الله أفعالاً وأعمالاً! «اسألوا تُعطَوا» (مت ٧: ٧)، «كل ما تطلبونه حينما تصلُّون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» (مر ١١: ٢٤)، «من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له» (مر ١١: ٢٣).

٦٧٨ . لا تجزع من تصورات العدو التي يثيرها وقت الصلاة ليزعزع إيمانك **فيُعدِمك قوة الصلاة**، بل اثبت في إيمانك راسخاً من كل قلبك. **واعلم أنه ليس باستحقاقك تنال سؤالك بل بإيمانك**. واعلم أن كل كلمة من كلمات الصلاة فيها كنوز الروح القدس مستورة داخلها التي هي الحق والنور الأبدي والنار المحرقة للخطايا والسلام الدائم وكل غبطة وسعادة.

٦٧٩ . كل شيء تطلبه هو يقيناً أقل إلى ما لا نهاية إذا قيس بمعطي وواهب ذلك الشيء والحافظ لكيانه. فكما أن العاطي الواهب هو أعظم من كل شيء وهو أيضاً بسيط ليس فيه تعقيد أو تركيب حتى أن عقلنا

المحدود يستطيع أن يدركه وبكلمة واحدة نستدل عليه، هكذا ثِق أن كلمة واحدة منك وطلبة قصيرة بإيمان به من أجل تتميم أمر ما يمكن بإشارة من الله أن تأخذ في الحال فعلاً وكياناً لتصير أمراً مقضياً وقضية منتهية: «لأنه قال فكان. هو أمر فصار» (مز ٣٣: ٩).

أُذكر العجائب التي صنعها موسى واذكر كيف صار رجل الله «إلهاً» لفرعون. وكيف كان في حال خروج الكلمة من فمه أو حركة يده أو تلويح عصاته في الهواء كان كل شيء يأخذ كيانه في الحال أو يتغير ليعود كما كان!

إيه يا الله العظيم الأبدي يا ذا المجد الأسنى، إله العجائب، إله الرحمة، الكريم الجوَّاد والمحب للإنسان. ليَدُم مجدك دائماً من دَورٍ فَدَورٍ وإلى أبد الدهور.

٦٨٠ . حينما تسأل البركات والنعم من الله، فآمن أن الله هو كل شيء لك. فحينما تسأل صحة فهو صحتك وعافيتك؛ وحينما تسأل إيماناً فهو إيمانك ورجاؤك؛ وإذا سألت سلاماً وسروراً فهو سلامك وسرورك؛ وإذا سألت معونة ضد عدو منظور أو غير منظور فهو كل قوتك ومعونتك؛ وإذا سألت أية نعمة أخرى فهو بذاته سيكون هذه النعمة لك طالما يرى أن فيها ربحاً لك: «الله الكل في الكل.» (١كو ١٥: ٢٨).

٦٨١ . بينما كلمات الله في أفواه بعض الناس هي حروف مجردة، فهي في أفواه الآخرين روح وحياة: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣). ليتنا نشعر بالحياة في كلمات الله ونثق بهذا الوعد.

٦٨٢ . كما أن الجسد يتنفس بالهواء هكذا النفس تتنفس بمراحم الله! وكما أن الأب يعطي ابنه عطايا جسدية لائقة ونافعة له هكذا أبونا السماوي «يهب خيرات للذين يسألونه» (مت ٧: ١١)؛ وكما أن الناس يستقون من ماء النهر مجاناً، هكذا الله هو نبع لا ينضب للماء الحي، وما عليك إلا أن تمد وعاءك وتغترف لنفسك على قدر ما تريد غفراناً وسلاماً، ولكن احذر من الشك فهو يجعلك تعود وإناؤك فارغ.

٦٨٣ . إذا لم يكن لك إيمان ثابت غير مخزي في رحمة الله وقدرته فلا تتسرع في طلب أي نعمة في صلاتك لئلا يلطمك العدو بالشك وعدم التصديق بمواعيد الله فتضعف صلاتك وتخرج من لدن الله مخزياً يائساً مغموماً. لا تكن عَجولاً غير مكترث في صلاتك، بل اجلس أولاً وافرز وميِّز حالتك الروحية؛ وقِسْ إيمانك، حسب قول الرب، واحسب النفقة لئلا تسخر بك الشياطين عندما يرون عجز حسابك ونقص إفرازك: «قائلين هذا الإنسان ابتدأ يبني و لم يقدر أن يكمل.» (لو ١٤: ٣٠).

لذلك قبل البدء في الصلاة احسب درجة إيمانك، فإذا وجدت إيمانك متوفراً حياً ثابتاً «فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي تنال رحمة وتجد نعمة وعوناً في حينه» (عب ٤: ١٦).

٦٨٤ . الذين لمسوا ثوب المخلِّص شُفوا؛ وإلى الآن الذين يستعملون ماءاً مصلًّى عليه فإنهم يتعافون.

ولماذا؟ لأن الصليب الذي انغمس في هذا الماء مع صلاة الإيمان يصير كمثل السيد نفسه معطي الحياة. فكما كانت الحياة تسكن في ثوب المخلص هكذا أيضاً تكون في الصليب لأن به وُهِبت لنا الحياة. فحالما يلمس الماء باسم المسيح تسكن فيه الحياة فيصير ماءاً حياً شافياً.

٦٨٥ . لكي تسأل الملك أو أي رئيس آخر يلزم أن تصل إليه وتتكبد أتعاباً كثيرة. هكذا حينما تريد أن تصل إلى الملك السمائي أو الأم البتول أو أحد أفراد جند السماء أو أحد رجال الله القديسين المنتقلين يلزمك أن تصل إليه متحرراً من كل ما لا يليق سواء كان من جهة خطايا أو شهوات أو شكوك، وتطهر النفس جيداً لتليق بمقابلة هذه الأرواح الطاهرة. كما يجب أن يكون لك حب صادق لمن تريد أن تقابله، وغيرة وإقدام وشجاعة وثقة به وإيمان فيه.

٦٨٦ . بخصوص استجابة الرب لسؤالك وطلبتك، ثق وآمن أنه كما هو سهل هيِّن لديك أن تخرج الكلمات من فمك، هكذا هو هيِّن وسهل على الرب جداً بل وأسهل بدرجة لا تُقارَن أن يستجيب ويتمم كل كلمة لك. لأنه كما خرجت الكلمة منك هكذا يصدر الفعل منه. ومع الرب لا توجد كلمة بدون فعل:

. «اطلبوا الرب ما دام يوجد ادعوه وهو قريب. ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتُبْ إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يُكثر الغفران. لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطي زرعاً للزارع وخبزاً للآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليَّ فارغة بل تعمل ما سُررتُ به وتنجح فيما أرسلتها له» (إش ٥٥: ٦ . ١١).

واذكر وأنت قائم لتصلي أن الله موجود وقريب منك وفي استطاعته كل شيء، ومطَّلع على كل فكر وكل فعل، وأنه هو الحكمة كلها والقدرة كلها والنعمة كلها.

٦٨٧ . أقول لك إنه ما من مرة وقفت فيها أصلي بإيمان، إلا وكان الرب يسمع لي ويستجيب كل كلمات صلاتي.

٦٨٨ . يحدث أثناء الصلاة أحياناً أن تأتي بعض لحظات ظلمة خانقة، وذلك منشؤه عدم تصديق القلب وضعف إيمانه. ولكن لا تدع قلبك يخيبك ويخسرك من ثمرة الصلاة في هذه اللحظات الخطرة. أذكر في هذا الوقت أنه إذا كان النور الإلهي قد انقطع وانحجب عنك لحظة، فهو في ذاته موجود ودائم لا ينقطع قط بل هو باقٍ على الدوام بكل بهائه وعظمته. وفي اللحظة التي ينحجب فيها عنك هو مشرق على ألوف غيرك ويملأ كنيسته بل ويملأ حتى العالم المادي.

الأب يوحنا (ك.)

٦٨٩ . «كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» (مر ١١: ٢٤).

هكذا عليك أن تصلي رافضاً كل شك، وتصلي باستمرار للرب الذي أمر أن نصلي كل حين ولا نمل أو نيأس (لو ١٨: ١)، متتلمذين للصلاة بالصبر. لأنها في بداية اختبارها تكون صعبة للعقل الذي تعوَّد أن لا يستقر على حال.

٦٩٠ . الصلاة في ذاتها كحديث مع الله تُعتبر أعظم نعمة، أما السؤال والطلبة فشيء ثانوي يتغير من يوم إلى يوم. لذلك فإن الرب الرحوم لا يستجيب سريعاً لطلباتنا حتى لا يترك الإنسان الصلاة ويتلهى بالنعم الصغيرة فيخسر بركة الوقوف أمام الله والحديث معه.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٦٩١ . كثيراً ما نسأل الله أشياءً هي في الواقع مُضرَّة ومؤذية لنا وتتعارض مع مشيئته المقدسة. ونحن في ذلك نشبه الأولاد الذين يتكرهون الاستحمام ويرغبون عنه، فيسألون أمهاتهم أن يعفينهم منه في حين أنه ضرورة لازمة لهم. فهكذا نحن حينما نقف لنسأل الله أن يعفينا من الصليب فينجينا من مرض أو محنة أو أحد الأتعاب التي يسمح أن تحل بنا، غير عالمين أنه خير لنا جداً أن نجوز هذه الأتعاب ونبقى مع الرب من أن ندوم في الراحة والنجاح والسعادة الظاهرية بعيداً عنه.

والمريض يلح في طلب قطعة ثلج أو شيء من الطعام الممنوع تعاطيه عافاً عن الدواء وعن صورته، أما الطبيب فيمنعه ولا يسمح له بما يضره. ونحن جميعاً أمام الله كأطفال وكمرضى لا نعرف ما هو خير لنا، وغالباً ما نسأل أشياءً فيها ضرر لنفوسنا. والله كأب رحوم لا يرضى أن يعطينا عقرباً بدل السمكة (لو ١١: ١١)، لذلك وجب أن يكون سؤالنا من أجل الخيرات الزمنية هكذا:

. «يا رب إذا كانت طلبتي هي وفق مسرتك ومشيئتك المقدسة وفيها خير لي امنحني إياها. ولكن إذا لم تكن كذلك فلتصر مشيئتك أنت».

ويسوع المسيح كإبن مطيع لأبيه أعطانا مثلاً من هذا القبيل، حينما صلى ثلاث مرات بذات الكلام طالباً من أبيه قبيل آلامه الاختيارية: «يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت.» (مت ٢٦: ٣٩).

الأسقف تيخون (ز.)

٦٩٢ . إن السيد الرب ذمَّ كثرة الكلام في صلوات الوثني، لكونها لم تكن إلا سؤالات عديدة من أجل الخيرات والأمور الزمنية الفانية بعبارات منمَّقة بزُخرف الكلام، كأنما هذا البيان والأسلوب اللفظي الأخاذ يكون له تأثير على الله كما هو على آذاننا البشرية! ولكن بإدانة الرب لهذه الكثرة في الكلام باطلاً لم يرذل الصلوات الطويلة كما يدَّعي الخارجون على الإيمان المستقيم، لأن الرب نفسه قدَّس الصلوات الطويلة وباشرها بنفسه: «وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي. وقضى الليل كله في الصلاة لله» (لو ٦: ١٢).

٦٩٣ . أسرع وراء المخلِّص واصرخ مثل الأعمى ابن طيما. أصرخ وراءه بالصلاة مثل المرأة الكنعانية ولا تحزن من طول عدم التفاته إليك، فأنت تستطيع بلجاجتك وصراخك أن تجذبه إليك وتحنن قلبه عليك (مت ١٥: ٢٢). كن مثل الكنعانية ولا تملّ بل بتواضع وسعة صدر احتمل البلايا والمحقرات التي يسمح بها عليك فإنه يختبر اتضاعك. وبحسب إيمانك وتواضعك ولجاجتك في الصلاة هو يعزيك ويشفي ابنتك الوحيدة المعذَّبة، أي نفسك، من فعل الشهوات الردية والأفكار الشريرة المتسلطة عليك، وينقل مشاعرك من الشهوة للخطية إلى الشهوة للقداسة وحياة البر.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٦٩٤ . الحصول على النعمة يعتمد كثيراً على اللجاجة في الصلاة.

الأسقف إيلاري

٦٩٥ . يشتاق الرب أن يعطينا نعمة المثابرة واللجاجة، ولكن في ذات الوقت يشاء أن نكون نحن السبب فنسألها دائماً منه. بل إنه يود أن نُلزِمه لرحمتنا والتحنن علينا، كما في مثل الصديق الذي ذهب لصديقه في نصف الليل، وفي مثل المرأة الكنعانية، وفي مثل القاضي الظالم. بدون هذه النعمة، أي اللجاجة، لا نستطيع أن نحصل على أي نعمة أخرى.

غريغوريوس الكبير

٦٩٦ . ثابر على الصلاة، لا تقُل قد طلبت دفعة واثنتين وثلاثة و لم يستمع لي الرب، جاهد ولا تفارق الصلاة حتى تجد مسألتك.

٦٩٧ . ثابر على الصلاة لكي يرضى عنك سيدك، وتعطيه أنت فرصة وسبباً ليُظهِر رحمته عليك ويغفر خطاياك. أنظر لا تمنع جوده بتغافلك. فإن كنتَ في أسفل الخطية فهو القادر أن يقيمك، لذلك لا تبطل الصلاة. وإذا لم تكن لك دالة، فبالصلاة تصير لك الدالة عنده، لأنه يحب خلاصك من خطاياك وأتعابك أكثر مما تحب أنت! فاحرص على المثابرة في الصلاة ولا تقل قط إني تعبت، لأن المثابرة في الصلاة تمنع التعب ذاته! واعلم أنه لا يمكن أن يُكلَّل وأنت نائم. إنما يُكلَّل الذي يسهر ويتعب ويثابر على الصلاة.

يوحنا ذهبي الفم

٦٩٨ . تأمل صبر القديسين: إبراهيم أبونا دعاه الله وهو صبي ونقله من أرض الكلدانيين إلى فلسطين، ووعده قائلاً: إني أعطيك هذه الأرض ولزرعك من بعدك. ثم تأنى الله على إبراهيم جداً حتى شاخ وكلّت قوته وما عاد له قدرة على إنجاب الأولاد ولا سارة امرأته أيضاً، ولكن ما تزعزع إيمانه وثقته بالله. فلا ينبغي أن نملّ في صلاتنا حتى ولو طالت بنا السنون، وحتى لو كانت طلبتنا مستحيلة في أعين الناس جميعاً، لأن غير المستطاع عند الناس مستطاع لدى الله!

٦٩٩ . لعلك تقول قد سألت مراراً كثيرة و لم آخذ شيئاً. أقول لك حقاً سألت، لكن ربما سألت شيئاً حقيراً؟ أو سألت بغير إيمان؟ أو بأفكار منحلة وأنت مرتاب؟ أو الذي سألته غير نافع لك؟ أو ربما لم تدُم طويلاً في سؤالك فلم تأخذ لتهاونك؟ لأن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص!

٧٠٠ . لعلك تقول: هل الله محتاج إلى صلاتي؟ ألا يعرف هو ما أحتاج إليه؟ فإذا كان هو عارفاً بما أحتاجه فما الضرورة إلى سؤالي ولجاجتي؟ أقول لك: الله يعرف ما نحتاج إليه وهو يعطينا جميع الخيرات الجسدية بدون سؤال وها هو يشرق شمسه على الأشرار والأبرار. أما الإيمان والبر والفضيلة والملكوت فإنه من أجل صلاحه ومحبته للبشر يتمهَّل حتى لا ينالها الإنسان إلا بالطلبة والسؤال والمشقة والأحزان المتنوعة بصبر كثير. لأنه يود أن نحب الخير ونسعى إليه ونطلبه باشتياق وتلهُّف حتى نكون نحن السبب في العطية، وحتى إذا ما حصلنا عليها نتمسك بها ونحافظ عليها نظير التعب والجهد الكثير الذي بذلناه للحصول عليها.

٧٠١ . فلا يصغر قلبك، يا ابني، إذا لم تنل مسألتك، فإنه لو علم ربنا الصالح أنك لا تتلف النعمة إذا أعطاك إياها لمنحك إياها سريعاً وبدون جهاد، لأنه ما يُسرُّ بأتعابنا وشقائنا. وها الذي أخذ الوزنة من سيده و لم يستطع أن يتاجر بها ويربح عليها، نال شر الجزاء وطرحوه في الظلمة. فحري بنا أن لا نطلب نعمة، إلا إذا عرفنا كيف نتَّجر بها ونستخدمها لمجد اسمه القدوس.

باسيليوس الكبير

٧٠٢ . إن كنت خالياً من فضيلة المثابرة فلا تنتظر أن تحصل على عزاء حقيقي في صلاتك، فإن المثابرة تساوي العمل.

٧٠٣ . كل تدبير إن كان صلاة أو صوماً أو سهراً بدون المثابرة، لا يأتي بثمر. ويكون في نهاية تعبك فيه كما لو أنك قد ابتدأت به فقط!

٧٠٤ . إذا تحقق الإنسان أن كل ما يسأل ويطلب في الصلاة يُسمَع ويُستَجاب له حسب مشيئة الله، يكون هذا هو الإيمان والرجاء والثقة بالله.

٧٠٥ . الإيمان والثقة ليسا من نصيب الذين فسدت ضمائرهم بالبعد عن الحق، وإنما هما من نصيب الذين ساروا في وصايا الرب يسوع وتداخلوا معه في سيرة الفضيلة واستنارت نفوسهم بالحق.

٧٠٦ . وقولي «الإيمان»، لا أقصد به الأمانة العامة التي هي أساس العقيدة، وإنما أقصد **القوة العقلية التي تنير الفكر وتسند القلب بنية ثابتة وتعطي النفس ثقة كبيرة واتكالاً على الله**. فلا يعود الإنسان يحمل همَّ نفسه، بل يلقي على الرب اهتمامه في كل شيء وبالأخص أثناء الصلاة والطلبة فلا يرى نفسه كفؤاً لشيء، فيُحفَظ من العظمة والكبرياء، وتهون عليه أخطاء الناس، ويرى الضيقات والأتعاب التي تحل عليه أنها بالعدل قد أصابته.

٧٠٧ . يا للتشجيع الذي لا يُنطَق به: «اسألوا تُعطَوا . اطلبوا تجدوا . اقرعوا يُفتَح لكم . اسهروا وصلوا . صلوا لئلا تدخلوا في تجربة . كل من يسأل يأخذ وكل من يطلب يجد وكل من يقرع يُفتح له . ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُملّ». هكذا يجذبنا الرب يسوع إلى السؤال والطلبة ويشجعنا على طلب النعم والمواهب وهو يدبر ويعطي حسب ما يوافق ويليق لنا. سيدنا يعلم أنه طالما نحن مربوطون بهذا العالم فنحن قابلون للسقوط والميل إلى الشر، وإلى أن نذوق الموت ونعبر إليه، فليست لنا فضيلة ثابتة فينا. احتمال السقوط موضوع أمام أعيننا على الدوام، لذلك حرضنا على الصلاة بمداومة والمثابرة على السؤال والطلبة.

ولئن كان ضميرنا صالحاً جداً ويشاء أن يدوم على الصلاح، إلا أننا ندخل التجارب بدون إرادتنا، وكثيراً ما تحيط بنا التجارب دون أن ندرك علة لذلك. وها بولس الرسول إذ يرى التجربة قد دخلت إلى عمق نفسه يصرخ إلى الرب ثلاث مرات لكي يرفعها عنه، وأخيراً يعلم أنها بسياسة القدير قد وُضِعت عليه لئلا يسقط في تجربة أخطر وهي الكبرياء والتعظُّم من كثرة الاستعلانات والرؤى التي كُشِفت له. وعوض تجربة الجسد البسيطة حلت عليه قوة المسيح.

٧٠٨ . أحياناً نطلب من الله ولا نأخذ. وبالعدل يكون ذلك لأننا لا نطلب بصبر ومداومة في الصلاة وبلا حرارة أو ثقة، ولا نطبق قوله الصريح: «الصارخين إليه ليلاً ونهاراً» بل ننتظر أنه هو من ذاته يعطينا. أما هو فينتظر لنقدم له سبباً ووسيلة يعطينا بها ما يشتاق أن يمنحه لنا. فلهذا يتركنا نتضيق، ويتأنى علينا حتى نقرع بابه ونثابر في السؤال بلجاجة.

وأما نحن فكثيرة أمامنا وسائل المنفعة والأخذ، ولكن بتراخينا نهمل السؤال. ونسلم أنفسنا للملل والضجر والفتور.

يا ابني، إن طرق الصلاة مفتوحة أمامك: خرّ على وجهك ليلاً ونهاراً، وتضرع إلى الله بقلب حزين. والرب رحوم وصالح لا يتأخر عن العزاء والمساعدة إذا كانت مسألتك ليست بعيدة أو خارجة عن الطريق الموصل إليه.

في كل أيام حياتك أنت تأخذ منه ثم يضيع منك. فتعود تسأل بحزن فيعطيك. وأيضاً يُسرَق منك فتأخذ من جديد. وتصادف نعمة ما، فتظن أن هذه نهاية سيرتك وحَدُّ قصدك، ثم تطلبها بعد قليل فما تجدها، إفهم هذا واعلم أن هذا هو ترتيب الطريق فلا تتضجر.

٧٠٩ . الله سيد كل أحد لا يزداد رحمة عند سؤالنا وطلبتنا، فرحمته ليس لها قرار، وإنما بطلبتنا وسؤالنا وحزن ضميرنا نستضيء بمعرفته ونتدرب على الحديث معه فننتفع من ذلك كثيراً.

٧١٠ . يوجد رجاء واتكال على الله يحدث من أمانة القلب وهذا حسن. **ولكن يوجد رجاء من نوع آخر ناشئ عن التهاون والاستهتار والجهل والنفاق، هذا هو الرجاء الكاذب. وعلامة الرجاء الصادق**

هو عدم الاهتمام بشيء مما في هذا العالم، بل أن يوقف ذاته للرب، عزَّ وجلَّ، بالصلاة ليلاً ونهاراً، ويجعل كل همّه تحصيل الفضيلة. وأما علامة الرجاء الكاذب فهو فشل الإنسان وكسله في الصلاة والسعي وراء الفضيلة. وإذا ما ضاقت به الحال أو ضغطته التجارب من ثمرة جهله وتوانيه أو أحزنه إنسان بسبب سوء عمله أو تصرفه، يقول: قد اتكلت على الرب وهو سيرفع عني الهمَّ ويجود عليَّ بالراحة، فيسمع قول الرب: أيها الجاهل إلى الآن ما ذكرت الله بل باتكالك عليه وأنت متواني ومتكاسل تسبُّه. واسم الله بسبب إهمالك وتوانيك يُجدَّف عليه بين الناس.

من هو بهذه الصفة فلا يخدعن نفسه ويقول: «إني متكل على الله»، وإلا فهو سيؤدَّب لا محالة. لا تضل أيها الجاهل، فإن الاعتصام بالله والإيمان به يجب أن يتقدمه تعب كثير وعرق الصلاة الذي لا يجف.

الأمانة بالله تحتاج إلى شهادة الضمير وشهادة الضمير تتولد من التعب في الفضيلة والسهر في الصلاة.

يا ابني لا تمسك الرياح في كفك أعني الأمانة بلا عمل وجهاد.

مار إسحق السرياني

٧١١ . يا أولادي أنا لا أملُّ من الطلبة من الرب عنكم لكي تعرفوا عظم مقدار النعمة الموهوبة لكم وكيف أن الرب برحمته ينبه قلوبنا لطلبتها وسؤالها. فلا تملُّوا ولا تتكاسلوا يا أولادي عن الصراخ للرب نهاراً وليلاً حتى ينعم عليكم بمعونة من العلاء.

٧١٢ . كل من يسلك بالتواني والكسل في روحياته فإن آخرته تدركه قبل أن يصل إلى المسيح. هكذا جرى لحزقيا الملك عندما أدركه فناء أيامه وهو بغير اهتمام. فلما رجع عما كان عليه وطلب من الرب، استحق زيادة سنين أخر ونمى بالأكثر. فلما تمت تلك السنين فارقت نفسه جسده وهو في غاية الكمال من خدمة الله.

أبا أنطونيوس الكبير

٧١٣ . إن الرب يطيل أناته علينا ويمتحن إيمان مشيئتنا ومحبتنا له امتحاناً. فيجب علينا أن نزيد اجتهادنا ومثابرتنا وثباتنا في طلب النعم والمواهب، مؤمنين وواثقين ثقة كاملة بأن الله أمين في وعده وهو يعطي نعمته للذين يداومون على الطلب بإيمان إلى المنتهى صابرين بغير تقلقل.

أبا مكاريوس الكبير

ملخص المبادئ الهامة:

(١) إذا كان إيماننا يتغير كل يوم حسب ما يقابلنا من ظروف محزنة أو مفرحة فنحن لم نؤمن بعد. لأن الإيمان الصحيح يكون أساساً لضبط السلوك فلا الأحزان تزعزعه ولا الأفراح تشدده.

(٢) الإيمان ليس هو أن تقرر أن الله يستطيع كل شيء بل أن تقرر قبول كل شيء من يديه.

(٣) أيُّ شكٍّ في الصلاة أو شعور باحتمال عدم إجابتها سوف يحرمك من ثمرها واستجابتها.

(٤) قبل أن تتقدم بالسؤال، ابحث أولاً شهادة ضميرك هل أنت سائر حسب مشيئة الله؟ وهل سؤالك يرضي الله؟ إذا وثقت من نفسك، فثق بالله ولا تكفّ عن السؤال حتى تنال طلبتك.

(٥) لا تكفّ قط عن سؤال كل ما يعود إلى خلاص نفسك وتقدُّمك في الفضيلة، فلن تخيب من نواله. لأن هذه هي مشيئة الله، فقد أقسم أنه لا يسر بموت الخاطئ بل بأن يعود ويحيا.

(٦) الاستمرار في الخطيئة يحرمنا من استجابة سؤالنا. لأن الخطية تقف حائلاً بيننا وبين الله.

(٧) لا تكفّ عن سؤالك حتى تأخذ الإجابة إما «لا» وإما «نعم». وكثيراً ما كانت استجابة الصلاة «لا».

(٨) إياك والتوقف عن الصلاة حينما لا تُجاب طلبتك فتظهر كطفل متمرِّد، فأنت لا تعرف ما هو الصالح لك.

(٩) على قدر ثقتك وأمانتك في رحمة الله تأخذ منه.

(١٠) التوسل إلى العذراء والقديسين يعين ضعفك ويزيد إيمانك. وهم مستعدون أن يحاربوا عنك وقت جهادك إذا طلبتهم بثقة وإيمان وحب.

(١١) إذا أردت أن تعرف هل قُبِلت صلاتك أم لا، فاسأل قلبك لأنه «يعطيك الرب حسب قلبك» (مز ٢٠).

(١٢) الرغبة والاشتياق إلى نوال العطية يزيد من إيماننا جداً. فلا تطلب شيئاً لا تشتاق إليه أو تشك في منفعته لك.

(١٣) إذا ألقيت أمرك على الله واتكلت عليه من كل قلبك، فلا تعد تفكر وتحمل همًّا، ولكن داوم على الصلاة والطلبة فقط.

(١٤) قبل أن تسأل تأكد من وجودك في حضرة الله وأنه واقف يسمع ما ستقول، ليس أمامك أو فوقك ولكن في داخلك متحداً بك، وكل ما تقوله حينئذ سيكون حسب مشيئته.

(١٥) اعلم أن سؤالك يهم الله كما يهمك وهو ينتظر طلبك ليعطيك.

(١٦) اسم الله هو «عمانوئيل» الذي تفسيره «الله معنا». ألا يكفي هذا أن يعطينا الثقة أنه معنا يسمع صلاتنا ويستجيب لسؤالنا؟ وإلا فما معنى «الله معنا»؟

(١٧) لا تكن مرائياً فتصلي فقط عند الحاجة. أَظهِر أمانتك لله بدوام الصلاة وخصوصاً في أوقات بهجتك وسرورك.

(١٨) لا تملَّ من تكرار الصلاة، لأن تكرارها يقدسنا. فليس بتنوع الصلاة يتشدد الروح بل بتكرارها، ليس باطلاً، ولكن بالحق في القلب والفكر حتى تصبح مبدأنا في الحياة.

(١٩) حينما يعطي الله عطاياه، لا ينظر إلى استحقاقات الناس، وإلا لما أعطى إنساناً قط ... هو ينظر إلى إيمانك وحبك: «ليكن لك حسب إيمانك» - «إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيراً».

(٢٠) من الشروط التي تتعلق استجابة الصلاة عليها، نية القلب على عدم الرجوع إلى الخطية.

(٢١) قبل أن تتقدم بسؤالك حدِّد ما تريد بالضبط. ولا تطلب عشرات الطلبات؛ ولا تُخرِج الطلبات جزافاً وتبحث عليها في فكرك بحثاً. فلن تُعطَى إلا ما تشتاق إليه وتحتاجه فعلاً لخلاصك.

(٢٢) إذا لم يكن لك إيمان ثابت في الله وفي استجابته لك، فلا تتسرع في طلب أي نعمة لئلا تسقط في اليأس من عدم الاستجابة.

(٢٣) الإيمان يجعل في إشارة الصليب قوة الحياة والشفاء. والماء الذي يصلي عليه الكاهن ويرشمه بالصليب يكون للمؤمنين مثل ثوب المخلص الذي شفى المرأة نازفة الدم، وكالمناديل والعصائب التي كانت تُؤتى من على جسم بولس فتشفي المرضى والمعذبين بالأرواح الشريرة (أع ١٩: ١١ و ١٢).

(٢٤) في اللحظة التي يضعف فيها إيمانك وتشكُّ أن الله سامع لك، ارفع فكرك واذكر أنه في هذه اللحظة بالذات هو فاتح كنوزه ويعطي ألوفاً وربوات غيرك. فاثبت في الصلاة بثقة وانتظر حتى تأخذ أنت أيضاً نصيبك.

(٢٥) الرب يتأنى علينا أحياناً حتى نداوم على الصلاة ونتعلم الحديث معه.

(٢٦) الرب يستجيب لصلاتنا أحياناً بالنفي؛ فمن حبه لنا لا يعطينا ما نسأله لأنه يكون فيه ضرر لنا ويحرمنا من عطايا ونعم قادمة.

(٢٧) أحياناً يقسو علينا الله ويتأنى جداً حتى يمتحن إيماننا فنتزكى أمامه بسبب صبرنا.

(٢٨) الخيرات الزمنية يعطيها الله للجميع بسعة، حتى وللذين لا يسألونها. أما الخيرات الروحية كالخلاص من الخطايا واكتساب الفضائل ونوال النعم والمواهب الروحية والدخول إلى الملكوت، فلا يعطيها الله إلا للذين يؤمنون بها ويشتاقون إليها ويثابرون على طلبها ويحتملون في سبيلها المشقات والتجارب والامتحانات التي يضعها الله عليهم، في شجاعة وصبر.

الفصل الخامس

الاجتهاد والتغصّب

أيقونة سلم السماء رُسِمت في القرن الثاني عشر الميلادي ومحفوظة الآن بدير سانت كاترين - سيناء.

+ «إن مصارعتنا ليست مع دمٍ ولحمٍ، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات ... فاثبتوا ... مصلِّين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح وساهرين» (أف ٦: ١٢ ـ ١٨).

إن بركات حياة التأمل لا تظهر في حياة الإنسان كنور البرق الذي يفاجئ أبصارنا وهي شاخصة إليه، وإنما تأخذ مجراها في حياة الإنسان بهدوء غير ملحوظ، كشروق الشمس التي ينبثق نورها في الفجر ضعيفاً خافتاً، يشق حجاب الظلمة بهدوء ولكن بقوة. فبينما يصعب عليك أن تحدد بدايته، تجده ينتشر ويزداد ويتعمق حتى يبدد جميع الظلمة المحيطة، وحينئذ تظهر الشمس.

لكي نصل إلى حياة الصلاة المثمرة يلزمنا أن لا ننتظر البركات تهبط علينا فجأة، بل نحن نأخذ طريقنا إليها بخطوات بطيئة ولكن ثابتة. يلزمنا جهاد منظم طويل، ويلزمنا صبر وتغصُّب.

يكفينا أن نتقدم، مهما كان هذا التقدم بطيئاً ومهما كانت حلكة الظلام التي تحيط بنا وبإيماننا!! وإن مجرد تقدُّمنا في حياة الصلاة والعِشْرة مع الله لهو دليل أكيد أننا واصلون، وأن النور لا بد أن يظهر وإن احتجب عنا طويلاً. وحينئذ يظهر ثمر تعب جهادنا وشدة إيماننا وصبرنا.

أما تغصُّبنا في جهادنا وعرقنا ودموعنا ومغالبتنا مع شكوكنا، وسيرنا بالرغم من الظلمة التي تحيط بكل شيء فينا؛ فهو وإن ظهر بمظهر الضعف في أعيننا، إلا أنه في عيني الله غالي القيمة: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٩)، «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التي أظهرتموها نحو اسمه.» (عب ٦: ١٠).

يظن بعض الناس أن طريق حياة العبادة والتأمل والخلوة محفوف بالورود والرياحين. كلا، فالطريق صحراء قفر، لا جمال له فنشتهيه في ذاته! ويكفي أن المسيح وصفه بأن بابه ضيق ومسلكه شاق وكَرْبٌ. حتى أنك بعد أن تسير فيه تأخذك الرعدة ويدخلك الشك وتقول أحقاً أنا سائر إلى الله؟ ولكن أين هو؟ هذه بداية امتحان الطريق الذي تجوزه نفسك بعيداً عن كل معونة من أي إنسان، وخُلواً من أية مسرة روحية أو علامة، أو حتى كلمة وعد أو تشجيع. بل حتى المنطق ذاته يقف ضدك، فيُختَبر إيمانك خُلواً من العيان.

ومن أجل جفاف هذه البداية، وبسبب هذا الامتحان ومنظر الطريق وصعوبته، رجع الكثيرون إلى الوراء و لم يستطيعوا العبور، وعلى شفاههم حيرة نثنائيل: «أَمِن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح» (يو ١: ٤٦)... ولكن طوبى للذين ساروا وراء الإيمان، لأنه «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠).

وحتى الإيمان لن يدوم معك بشدة على طول الطريق، فسوف يخور منك بين الحين والحين، لأنك في الطريق ستطلب مسرَّاتك الأولى، وتعود بقلبك إلى مصر وتشتهي البصل والكرات وتنبري نفسك لك وتوبخك: لماذا أخرجتني إلى البرية لتميتني؟ مسكينة هي نفسي ونفسك، بل هي غليظة الرقبة جداً لأنها ستطلب لحماً في البرية! تطلب علامة ولا تجد، تطلب آية في الطريق فلا يُعطَى لها.

كثيرون تحيروا جداً فوقفوا يسألون أين نحن؟ وما هو عملنا في هذا الطريق؟ وما هي رسالتنا من وراء ذلك؟ ولكن هذه هي أسئلة الشك وهتاف التقهقر، وهكذا عاد كثيرون من منتصف الطريق لأنهم أرادوا أن يحيوا بالعيان، وطلبوا لأنفسهم معجزة وآية فبرهنوا على خُلوهم من الإيمان؛ وإذ لم يُجابوا إلى طلبهم انتكصوا على أعقابهم، وألقوا بأنفسهم في محيط العالم الصاخب، وانهمكوا بكل قواهم في أعماله الكثيرة، وشغلوا ذواتهم إلى درجة جنونية، لا لأن الأعمال في نظرهم خيِّرة، ولكن ليهربوا من الحقيقة التي اصطدموا بها، لأن الرعدة أخذتهم عندما جابهوا السير بالإيمان وحده لا بالعيان.

لولا موسى على إسرائيل لما ارتحل يوماً واحداً في البرية! أربعين سنة سار موسى على رجاء الوصول إلى أرض الموعد، وعلى الإيمان وحده جاهد هذا الجهاد الطويل. ومن وراء هذا الإيمان الجبار استطاع أن يغصب شعباً عنيداً للسير وراءه أربعين سنة في برية قاحلة.

إنه تعوزنا قيادة موسى لأنفسنا لكي نسير بالإيمان؛ ونغصب ذواتنا على المسير ولو أننا لا نرى شيئاً؛ ونرتحل في طريق الله ونجاهد مهما طال بنا الجهاد، لأننا واثقون أن في نهاية الطريق قد أُعِدَّت لنا أورشليم السمائية كعروس مهيَّأة لعريسها. أما في الطريق فتكفينا وعوده الصادقة، وتعزياته الخفية، وصوته الآتي من الأبدية.

❁ ❁ ❁

الكلام في هذا الفصل يدور حول **الإرادة**.

والحديث عن الإرادة، في اللاهوت النسكي، من أدق وأخطر الأمور. ففي كلمة واحدة يمكن أن ينعكس منهج الإنسان من الجهاد المشروع القانوني إلى جهاد مقلوب خاطئ يودي به إلى عالم التيه والمرض.

ومنذ البداية نبرز أمام القارئ معنى الجهاد والتغصُّب القانوني السوي الذي يقود إلى المسيح والحياة الأبدية وهو: أن تتجه إرادة الجهاد نحو التسليم المطلق لله، ويتجه تغصُّب الإرادة إلى إخضاع النفس لتدبير النعمة مهما كانت الظروف، بإيمان لا يكلّ، حتى لا يتبقى للنفس مشيئة خاصة ولا شهوة خاصة إلا أن تكون فقط مطيعة دائماً لصوت الله ووصاياه.

وهنا ينبغي أن نحترس من انحراف الذات أثناء حرارة العبادة حينما تبدأ علامات النجاح وما يتبعها من فرح وسرور، لأن الذات تميل في هذه اللحظات أن تستزيد من النجاح وتستزيد من السرور فتلجأ إلى الجهد الذاتي لتستحدث به مزيداً من النجاح والفرح، وهنا النقطة الحرجة التي عندها يتحول الجهاد والتغصُّب من سيره القانوني السوي إلى جهاد ذاتي مقلوب؛ إذ بدل أن كان الجهاد جهاد خضوع لله وتغصُّب إرادي للطاعة المطلقة يصبح جهاد اعتماد على الذات وتغصُّب لحساب نمو القدرات الشخصية!!

وليكن في علم القارئ أن النجاح والفرح الروحي هما بحد ذاتهما عمل الله وليسا من عمل الإنسان قط! والله يستزيدهما عندما يشاء، وبالقدر الذي يشاء، بسبب من الإنسان أو بدون سبب على السواء!

إذن، فالاجتهاد والتغصُّب لا ينبغي أن يكون لهما حافز على الإطلاق سوى محبة الله في شخص يسوع المسيح من كل القلب. ويكون التعبير عن هذا الحب ليس إلا بقَسْر الذات على طاعة الوصية مهما كان الثمن باهظاً، وإلزام الإرادة والنية للتسليم بتدبير الله مهما كانت النتائج غير مُسِرَّة للنفس.

كذلك لا ينبغي أن يكون للاجتهاد والتغصُّب مشجِّعات حسية من غرور النفس أو مديح الناس، كما لا ينبغي أن يتأثرا بتعيير الناس أو انتقادهم.

أما الهدف الذي يلزم أن نضعه أمامنا بالنسبة للجهاد والتغصُّب، فهو الخضوع الكامل لله والتسليم المطلق لمسرة مشيئته.

ولتكن هذه الكلمات علامات منيرة على طريق الاجتهاد والتغصُّب:

أولاً: احترس من توتر الإرادة لأنه عتيد أن يلقيك في دوامة جهاد ذاتي، فحينما تنشط الإرادة وتتحمس، أُربطها في الحال بطاعة المسيح حتى لا تعمل شيئاً من ذاتك.

ثانياً: أُرفض كل إحساس بمسئوليتك عن النجاح والفشل، وحوِّله في الحال إلى إحساس بمسئولية متابعة العمل بأمانة فقط.

ثالثاً: لا تتطلع إلى ضرورة الحصول على معونة خارجية من القوات غير المنظورة، لأن المسيح لم يجعلك في نقص من شيء وقد تكفَّل لك بكل لوازم المسير. إذن، فاكتفِ بقوة المسيح التي معك وجاهد على أساسها. فإذا أتتك معونات وتعزيات من فوق فافرح بها وابتهج، ولكن لا تجعلها أساس جهادك لئلا يتعطل مسيرك ويتوقف.

رابعاً: الاجتهاد والتغصُّب اللذان تعيشهما ليسا من أجل حصول شيء لذاتك أو لتقوية إرادتك وعزيمتك أو لمواجهة عدوك، بل هما في الحقيقة لتتخلى عن ذاتك، وتسلم إرادتك، ولا تعتمد على عزيمتك، وتختفي خلف المسيح من مواجهة عدوك.

خامساً: بقدر ما ستعتمد على إرادتك؛ بقدر ما سيضعف إحساسك بمعونة الله. وبقدر ما تقتصر في جهادك على تسليم إرادتك في هدوء الخضوع وعناد المثابرة والتغصُّب لقبول كل تدبيرات الله؛ بقدر ما تحس بيقين عمل الله وعنايته وتدبيره لحياتك.

سادساً: لا توقف اجتهادك وتغصُّبك في طاعة وصايا الله مهما كان فشلك ومهما كانت تجاربك، لأن خلف نفسك المنهزمة يقف المسيح وفي يديه إكليل الجهاد. فأنت غير مسئول عن النجاح بل مسئول عن الجهاد.

سابعاً: الجهاد الذي نجاهده والتغصُّب الذي نمارسه إذا مارسناهما بصحة؛ فهما قطعاً لا يقدماننا إلى البر ولا يقربانا إلى الله، ولكنهما يبعداننا فقط عن ذواتنا ويفصلاننا عن حياة الخطيئة والعصيان.

أما البر، فالله يمنحه مجاناً؛ وأما القُرب من الله، فالمسيح هو الذي يضطلع به من ذاته.

والحقيقة التي لا ينبغي أن تغيب عن ذهن القارئ أن الإنسان الذي يعتمد على ذاته وإرادته في جهاده لا يكتشف أن جهاده ذاتي ولا يحس أن اعتماده لا يستند على الله، فيمضي في مسيره متعلقاً بنفسه متخبطاً يقوم من حفرة ليسقط في أخرى، يلعن نفسه ويلوم مشيئته ويستجمع إرادته لمزيد من المسير والتخبُّط والحزن والكآبة النفسية، وهو لا يزال يعتقد أنه يستند على الله وأنه يثق به وحده.

والحقيقة عكس ذلك تماماً، فالسير في حياة تسليم الإرادة لله لا يكون فيه لوم للإرادة مطلقاً كأنها هي المسئولة عن السقوط والتعثر! فالسقوط والعثرات لا تنشأ عن ضعف الإرادة بل تنشأ عن قوتها وتدخلها! وهذا يتضح من كون النصرة والخلاص والبركة لا تنشأ عن قوة الإرادة، بل عن اختفائها وراء النعمة. فعندما تختفي الإرادة وراء النعمة يتقوى الإنسان ويغلب وينتصر ويتحفظ وينجح وينمو، وعندما تستيقظ الإرادة وتقتحم المواقف وتثور وتتشدد السقوط والعثرات لا يمكن تحاشيهما. إذن فالسقوط يكشف عن تصدُّر الإرادة ونشاطها وتعاليها على النعمة، فإن كنا نلوم إرادتنا ونلعن مشيئتنا ونحزن ونكتئب عندما نعثر ونخطئ فهذا يعني أننا نقرُّ ونعترف أننا نسير بإرادتنا ولسنا خاضعين لله. ثم عندما نحاول بعد السقوط أن نستجمع الإرادة ونقويها، فكأنما نحن نهيئ أنفسنا لسقوط آخر أشد ونُمعن في جعل الإرادة مسئولة عن المسيرة الروحانية!

أما إذا كنا نريد أن نتحاشى العثرات والخطايا والسقطات، فعلينا لا أن نلوم إرادتنا ونستحثها على النشاط والقوة، بل علينا أن نفرِّط في إرادتنا ونيأس منها نهائياً ونبدأ في الحال في إخضاعها وتسليمها لله بكل عزم تسليماً نهائياً، وهذا يتم بتغليب صوت الله على صوت الذات وإلزام الإرادة بتكميل وصية الله مهما كانت الخسارة أو الإهانة، ثم إلزامها بالخضوع لاحتمال التعب والمشقة والوقوف والسهر لطاعة كل تعليمات الآباء وتدبيرهم، حتى تخضع الإرادة وينكسر سلطانها لسلطان الروح القدس وتبدأ تختفي وراء النعمة، وحينئذ ينجح الإنسان.

أما كل عطف على الذات فهو محاولة شيطانية لإحياء إرادتها ومشيئتها الخاصة.

أما كل العثرات التي نعانيها أثناء مسيرنا فهي لا تكشف إلا عن معنى واحد وهو عدم

تسليم إرادتنا لله تسليماً مطلقاً؛ وبالتالي تفضح عدم ثقتنا فيه!!

إذن، فمن شأن تعثُّرنا في الطريق أنه ينبهنا لإعادة النظر في إحكام تسليمنا لإرادتنا وزيادة ثقتنا بالله، مع ضرورة جحد الإرادة الذاتية التي تجزنا إلى تكميل شهوتنا، مع مواصلة التوبة في هدوء وصبر وتجلُّد.

علماً بأن الأحزان المفرطة التي يستسلم لها الإنسان عند سقوطه في خطيئة أو عثرة، ما هي إلا علامة على الكبرياء وتوقير الذات والظنون بالإرادة فوق ما تستحق، مما يجعل الإنسان يستكثر على نفسه السقوط، ويستعظم إرادته على العثرة، ويظل يتلمس العزاء والراحة في تشجيعات كاذبة من الناس أو من أب الاعتراف لكي يضمد بها كبرياء نفسه المجروحة!

أما الموقف الصحيح إزاء سقوط الإنسان في أي خطية فهو الاعتراف بالخطيئة، والالتجاء في الحال إلى التوبة، ومواصلة الجهاد بتغصُّب لمتابعة تسليم الإرادة وممارسة إخضاع النفس لله.

أقوال الآباء في الاجتهاد والتغصُّب:

٧١٤ . يقول الناس: إذا كنت لا تشعر بميل إلى الصلاة، فالأحسن أن لا تصلي. هذا احتيال وسفسطة جسدانية. لأنك إذا كنت ستصلي فقط حينما يكون لك ميل للصلاة، فأنت لن تصلي قط، لأن ميل الجسد الطبيعي هو ضد الصلاة: «فإني عالم أنه ليس ساكن فيَّ، أي في جسدي، شيء صالح» (رو ٧: ١٨)، ومعروف أن: «الجسد يشتهي ضد الروح»! و «ملكوت الله كل واحد يغتصب نفسه إليه» (لو ١٦: ١٦). فأنت لن تستطيع أن تعمل لخلاص نفسك إذا لم تغصب ذاتك.

الأب يوحنا (ك.)

٧١٥ . وهل أنت تعمل فقط لخبز الجسد حينما تكون لك رغبة في العمل ذاته؟ ألست تجاهد حتى ولو لم تكن لك رغبة في العمل؟ إفهم أن أمر غصب النفس على العمل هو أمر هام جداً في الأمور الدنيوية والروحية أيضاً: للصلاة، لقراءة الإنجيل والكتب الروحية النافعة، وحضور الخدمات الإلهية في الكنيسة، للتعليم، للوعظ، لخدمة الكلمة. لا تُطِع الجسد الكسول الغاش لأنه مملوء خطية: «فإني عالم أنه ليس ساكن فيَّ، أي في جسدي، شيء صالح» (رو ٧: ١٨). والجسد يشتهي أن يرتاح على الدوام غير مكترث بالهلاك الأبدي الذي يكون عوض راحته القليلة الزائلة: «ملكوت الله يُغصَب والغاصبون يختطفونه» (مت ١١: ١٢).

٧١٦ . لا تتبع راحة الجسد، ولكن صلِّ. وصلِّ بجدٍّ واهتمام، حتى ولو كنت طول النهار تكدُّ وتتعب. لا تكن مهملاً في الصلاة المقدسة، بل انتصب وقُل صلاتك من قلبك حتى نهايتها، لأنها واجب عليك نحو الله: «لا أصعد على سرير فراشي ولا أُعطي لعيني نوماً ولا لأجفاني نعاساً ولا راحة لصدغي إلى أن أجد موضعاً للرب» (مز ١٣٢).

أما إذا سمحت لنفسك أن تصلي بدون اعتناء وليس من كل قلبك، فأنت لن تجد راحة في صلاتك أو بعد صلاتك. فإن أردت أن تستريح حقاً فاغسل خطاياك بالدموع أمام الله: «أُعوِّم كل ليلة سريري وبدموعي أبلُّ فراشي» (مز ٦).

إذن، فاحترس أن لا تتمدد بجسدك أمام الله، وتزدري بالصلاة من أجل راحة الجسد.

٧١٧ . إذا كنت قد رتبت لنفسك قاعدة أن تقرأ عدداً من الصلوات، قصيرة كانت أو طويلة، فتمم قراءتها باعتناء حتى آخر كلمة. إقرأ بكل انتباه وتيقُّظ، ولا تعمل عمل الله بقلب منقسم فيكون نصفه أمام الله ونصفه الآخر يطوف في العالم. الرب إله غيور ولن يسكت على خداعك ومخاتلتك وإشفاقك على ذاتك، وتقول أنك تصلي وأنت لا تصلي!

فإن تماديت في غشك، فهو يسلمك ليد الشيطان. وهذا لا يعطيك راحة قط لا في جسدك ولا في نفسك، ويعذبك بلا شفقة لأنك رفضت الراحة الحقيقية والسلام الداخلي وأَعرضتَ عن خلاص نفسك وحجزت قلبك عنه.

واعلم أن كل صلاة تقدمها بلا إخلاص نية، تفصل قلبك عن الله وتجعله ضدك؛ وكل صلاة تقدمها باهتمام واشتياق، ترفع قلبك نحو الله فتجعلك قريباً منه على الدوام. لأنه ليس شيء يستطيع أن يجعل قلبك قريباً من الله مثل العرق والدموع!

إنه لمؤلم حقاً أن نجعل صلاتنا تكون سبباً في نفور الله منا وحموِّ غضبه علينا بعدم اكتراثنا وفتورنا، مع أنه يشفق علينا وعلى جهادنا السابق ويرغب على الدوام أن لا نخيب من التصاقنا به بكل قلوبنا وأن نكون من أخصائه.

٧١٨ . لكي تتحرر من عبودية الشهوات والخطايا وسلطة الشياطين، ضع ملكوت السموات وأورشليم السمائية هدفاً لك؛ ولا تجعل هذا الهدف يغيب عن عينيك مجتهداً أن تحصل عليه مهما كلَّفك، مستعيناً باسم الرب يسوع. واعلم أن هذا الهدف يحتاج إلى ثلاث وسائل يجب أن تكون ظاهرة في تدبيرك وهي: الإيمان والرجاء والمحبة. والمحبة تكون أعظمها.

هذه الثلاثة إذا تمسَّكتَ بها، فإنك سوف تستخف بكل الصعاب والعقبات مهما اشتدت وتكاثرت.

أما إذا لم تكن لك قوة كافية لكي تحتفظ بهذه الكنوز الثلاثة، فعليك أن تخر عند قدمي الله، وتسأل بلجاجة وشدة، وتقرع بابه بكل اجتهاد. وسواء كنت جالساً أو ماشياً أو منشغلاً أو على الأكل أو في النوم، فصلِّ حتى يعطي لك إيماناً وحباً: «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو ١٦: ٢٤). قُل الآن: أنا سأبتدئ أن أفعل هذا من الآن فصاعداً.

٧١٩ . أحياناً تفتقد النفس حركة روحانية حادة تتذوق فيها الله بحرارة وتشتعل بحب الأشياء الإلهية، ثم تعود تفتقدها فتجدها قد بردت وجفَّت منك لأن التشويش الحادث من خلطة الناس قد أصابك في موضع ما، أو لأنك تكون قد فضَّلت بعض الأعمال الجسدية وقدمتها على خدمتك الروحية. إلا أنه على أي حال فالدموع وقرع الرأس على الأرض أثناء الصلاة وانسحاق النفس تسرع مرة أخرى فتسترجع انسياب تيار الحرارة الروحية الحلو الدافئ في القلب. وفي شغف الفرح الروحي الممدوح، يطير القلب وراء الله هاتفاً:

«عطِشَت نفسي إلى الله الحي القوي. متى أجيء وأنظر إلى وجه الله؟» (مز ٤٢).

كل من تذوق حلاوة هذه الخمر ثم فقدها وحُرِم منها، يعرف جيداً أي عذاب وصل إليه ومقدار خسارته التي خسرها بسبب انحلاله.

مار إسحق السرياني

٧٢٠ . الصلاة التي تكون لأداء الواجب فقط خوفاً من الناس تولِّد النفاق والرياء، وتجعل الإنسان عاجزاً عن أي خدمة تحتاج إلى تأمل روحي وتجعله كسلاناً متباطئاً في كل شيء حتى في تتميم واجباته الجسدية. لذلك وجب على الذين يمارسون مثل هذه العبادة أن يصححوا صلواتهم ويجعلوها بفرح وهمة ونشاط من كل القلب. فلا نصلي للرب فقط حينما نكون مجبَرين على ذلك بحكم طقس العبادة أو القوانين المرتبة، بل يجب أن نكون «غير متكاسلين في الاجتهاد حارِّين في الروح عابدين الرب. فرحين في الرجاء. صابرين في الضيق. مواظبين على الصلاة» (رو ١٢: ١١)؛ «وكل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن أو اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله» (٢كو ٩: ٧).

٧٢١ . النفس كائن روحاني نشيط، لا تقدر أن تبقى عاطلة، فإما أن تنشغل في الخير أو تنشغل في الشر، وحينئذ ينمو فيها إما قمح أو زوان.

وبما أن كل خير مصدره الله، ووسيلة هذا الخير للحصول عليه هي الصلاة، فالذين ينشطون في الصلاة ويقدمونها بحرارة وإخلاص هم الذين يأخذون نعمة من لدن الله لعمل الخير. أما الذين لم يعرفوا الصلاة بعد أو يقدمونها في تراخٍ وكسل، فهم لا زالوا محرومين من هذه العطايا الروحية وذلك بمحض إرادتهم. فكما ينمو قمح الأفكار الصالحة والأعمال الخيِّرة في قلوب الذين يجاهدون ويغصبون ذواتهم على الصلاة بحرارة ونشاط، هكذا أيضاً ينمو الشوك والزوان في قلوب المتكاسلين ويخنق كل خير أو صلاح يهبط على قلوبهم سواء من كلمة وعظ أو قراءة في الكتاب أو اشتراك في جسد الرب أو بقية الأسرار المقدسة.

لذلك أصبح واجباً علينا أن نلتفت إلى حقل قلوبنا لئلا ينمو فيه زرع الكسل والتواني والإهمال وما يتبعه من التلذذ بالمآكل والترفُّه والشحِّ والحسد والبغضة وبقية هذه الأمور المرذولة. نعم يلزم أن ننظف ذواتنا كل يوم ونحرق هذه الأشواك وهذا الزوان بحرارة صلواتنا وتنهداتنا؛ ونروي زرعنا الصالح بالعرق والدموع كالمطر المبكر والمتأخر.

وعلينا أن لا نقف كسالى حتى ولا ساعة واحدة، لأن في ساعات غفلتنا وتوانينا يأتي العدو خلسة وبغيرة حادة يرمي بذار الزوان: «وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى» (مت ١٣: ٢٥).

وعلينا أن نذكر أيضاً أنه يستحيل علينا أن نقوم بالأعمال الصالحة دون جهاد. لأنه منذ أن سقطنا في

الخطية بإرادتنا وهوانا، صار ملكوت السموات ليس سهلاً، إنما يُغصب بالتعب والغاصبون يختطفونه بشدة (كما ورد في مت ١١: ١٢).

ولماذا صار الطريق إلى الملكوت والحياة هكذا ضيقاً وكرباً وتعباً؟ ألم يكن بسبب **اضطهاد العالم** وجوره على المختارين؟ «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو ١٦: ٣٣)، «أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم» (يو ١٥: ١٩).

وأيضاً بسبب **ظلم الشيطان** الذي لا يكفُّ عن قتالهم والشكاية ضدهم، إلا أنهم يغلبونه باجتهادهم وصبرهم إلى الموت: «قد طُرِح المشتكي على إخوتنا الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً، وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت» (رؤ ١٢: ١١).

وأيضاً بسبب **الجسد** الذي يشتهي ضد الروح: «ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت!» (رو ٧: ٢٣ و ٢٤).

هذه الثلاثة تجعل الطريق ضيقاً وكرباً والمسير فيه بالجهد والتعب.

٧٢٢ . يقول الفلاسفة إن الإنسان حُر بطبعه. ولا يصح أن يُرغَم أو يُغصَب على شيء حتى يكون عمله مثمراً. لكن هذا قول خاطئ وانحراف إلى الفساد، فإن لم نغصب أنفسنا، فأي خير يتسنى لبشريتنا أن تأتيه إلا الكبرياء والحسد والغضب والميل الجارف نحو الشهوات والخطايا؟

ولا سيما الأطفال والصبيان، فإذا كنا لا نغصبهم ونجبرهم على التعليم والصلاة ماذا يكون منهم إلا البطالة والتشرد والتفنن في معرفة الشر!

٧٢٣ . يلزمنا كثيراً أن نغصب ذواتنا دواماً للحق والفضيلة. وحينما نصلي يجب أن نغصب ذواتنا كل لحظة لننطق كل كلمة بصحو وشدة من شعور القلب. وعندما نهمل في الصلاة تصبح بلا شك ضرباً من الرياء والغش وتخلو من روح العبادة والتقوى.

واعلم أنه إذا استمالتنا كلمات الصلاة واستحوذت على انتباهنا، فحينئذ سوف تستميل قلب الله. وإن لم تسترع انتباهنا نحن، فكيف تسترعي انتباه الله؟ لأن الله يعطينا حسب إيماننا وغيرتنا وحبنا وشعور قلبنا الداخلي (مز ٢٠: ٢٤)، فكلما كان القلب صادقاً في شعوره كلما صارت الصلاة مستحقة القبول والاستجابة.

٧٢٤ . إن من يتلو صلواته بتسرُّع وهو مغلوب من كسله ونعاس جسده، دون أن يتفهم معاني الكلمات في قلبه ويتحسس روحها بمشاعره ووجدانه،لا يخدم الله البتة بل يرضي نفسه ويُسكِت ضميره.

هذه ليست صلاة لكنها ضربٌ من الكذب ومخاتلة الله: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤).

فمهما كان جسدك ضعيفاً متكاسلاً، ومهما كانت تيارات النعاس شديدة وقد سرت في جسدك كله وأخذت ترخي أعضاءه عضواً بعد الآخر، فإن هنا وقت الشهادة، قم انفض غبار الكسل وانزع نوع الغفلة، وجاهد نفسك حتى تغلبها، ولا تشفق عليها. ومن أجل حبك لله ارفض ذاتك واجحدها وتقدَّم للصلاة بقلب شجاع ونفس حارة.

٧٢٥ . لماذا صارت الصلاة المستمرة لازمة؟ أليس لكي بهذه الصلوات الطويلة الحارة نلهب قلوبنا الباردة التي تقسَّت من طول البطالة؟

ليس بالهيِّن على القلب الذي تقسَّى بأباطيل العالم طويلاً، أن تسري فيه بسرعة حرارة الإيمان وحب الله بمجرد الوقوف في الصلاة! بل يلزمه اجتهاد وتغصُّب وزمان، لهذا قيل إن ملكوت السموات يُغصَب. وملكوت السموات لا يأتي سريعاً في القلب إذا كنا نحن غير مشتاقين إليه، بل كثيراً ما نلقيه عنا بميلنا للكسل ونفر منه بإرادتنا.

والرب نفسه علَّمنا ألا تكون صلواتنا قصيرة بإعطائنا مثل الأرملة الملحَّة، التي لم تفتر عن الذهاب للقاضي كل يوم وتزعجه بطلبتها (لو ١٨: ٢ ـ ٦)؛ وهكذا الله يضيِّق علينا ويسمح بتجربتنا وظلمنا حتى نتحول من العالم إليه ونسأله: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (مت ١١: ٢٨).

الأب يوحنا (ك.)

٧٢٦ . الإنسان الذي يرغب أن يأتي إلى الرب ويوجد مستحقاً للحياة الأبدية، عليه أن يداوم باستمرار على الصلاة، ويغصب ذاته على الاتضاع، واضعاً في نفسه أنه أقل وأحقر الناس جميعاً. وكل ما يغصب نفسه لأجله ويعمله وهو متألم بقلب نافر غير راضٍ، سوف يأتي عليه يوم يعمله برضى وقبول، وبذلك يدرِّب الإنسان نفسه على حياة الصلاح والاهتمام بالرب. وحينما يرى الرب نية الإنسان واجتهاده، وكيف يغصب ذاته لذكره وعبادته، وكيف يرغم قلبه، سواء رضي أو لم يرضَ، على عمل الخير والتواضع والوداعة والصدقة، وكيف يبذل كل ما في وسعه، فإن الرب يتحنن عليه ويُظهِر له رحمته، ويخلِّصه من أعدائه ومن سلطان الخطية، ويملأه من الروح القدس؛ وحينئذ يتمم وصايا الرب دون تغصُّب وإجهاد، لأن الرب الساكن فيه هو يكون العامل فيه، وبذلك يثمر ثمار الروح بطهارة.

٧٢٧ . يجب على الإنسان أن يغصب ذاته على كل ما هو صالح، ولو كان رغماً عن ميول قلبه، مترقباً الرحمة من الله بإيمان غير مرتاب. فيغصب نفسه على الصدقة عندما يكون فقيراً في العطاء؛ ويغصب نفسه على الوداعة وعلى الشفقة وعلى اقتناء قلب رحوم عندما يرى نفسه قد جنحت إلى التسلُّط؛ ويغصب نفسه

على أن يكون حقيراً مرذولاً في أعين الناس، فعندما يُحتقر ويُرذَل يحتمل بصبر، وعندما يُزدَرى به فلا يغضب؛ ويغصب نفسه على الصلاة عندما يجد نفسه فارغة من ثمارها، فعندما يرى الله جهاده وتغصُّبه يعطيه الصلاة الروحانية الحقيقية التي بلا تغصُّب (روح التأمل)، ويمنحه نفساً محسنة وديعة رحيمة: «أحشاء رأفاتٍ ولطفاً وتواضعاً ووداعةً وطول أناة» (كو ٣: ١٢).

٧٢٨ . وإذا غصب الإنسان نفسه على الصلاة فقط طالباً ثمراتها ومواهبها، و لم يغصب نفسه على الفضائل الأخرى كالوداعة والتواضع والرحمة، و لم يجهد نفسه للاشتراك في حمل مشقات بقية الوصايا للتقدُّم فيها بمقدار ما تسمح به النية وتمتد إليه الإرادة، يُعطَى نعمة الصلاة فعلاً مع جزء من الانتعاش وفرح الروح حسب سؤاله، إلا أن سيره وسلوكه يظلان كما كانا، فيبقى بلا وداعة لأنه لم يطلبها أو يفتش عليها أو يجاهد ويعد نفسه لقبولها؛ كذلك يبقى بلا ثمار التواضع الجميلة لأنه لم يطلبها و لم يغصب نفسه عليها؛ و لم يشترك في أتعاب الآخرين لأنه فقد روح الرحمة؛ وفي القيام بأعماله لا تجد عنده إيماناً أو ثقةً بالرب، لأنه لم يعرف نفسه و لم يكتشف أنه عديم الإيمان والثقة.

٧٢٩ . حينما يغصب الإنسان نفسه هكذا على كل الفضائل، ويلحُّ في طلب وسؤال كل ما هو صالح لخلاص نفسه، ويثبت سؤاله بأعماله وجهاداته، فإن الرب يعطيه روحه يعمل بها، ويكمل كل صلاح. وبدون عناء وتغصُّب يعمل الفضائل التي كان يتممها قبلاً بكل جهد وتغصُّب. وتحل عليه الحكمة الروحانية ومعرفة الحق وتصير كطبيعة له، لأن الله يكون ساكناً فيه.

هكذا وجب على الإنسان أن يهيئ قلبه لعمل الله بكل قوته وقدرته، ويقدِّم أفخر ما فيه ليحل الله في داخله. وما لم يُعِدَّ الإنسان نفسه ويزينها بالفضائل، يُحرَم من ثمار النعمة وعملها حتى وإن حلَّت عليه، لأنه يفقدها سريعاً ويسقط بسببها، لكونه لم يسلِّم نفسه إلى وصايا الرب بعزم القلب. إذ أن سُكنى الروح وراحته يكون في المتواضع الوديع المتمم لكل الوصايا.

ليس بالأمر الهين أن تقتني قلباً نقياً! إذ أن ذلك يحتاج إلى جهاد كثير ومشقة عظيمة، بالصلاة والطلبة، حتى يُؤهَّل الإنسان إلى نقاوة القلب ويُستأصَل منه الشر تماماً. وهكذا بقية الفضائل.

أبا مكاريوس الكبير

٧٣٠ . تعلّم كيف تصلّي واغصب ذاتك على الصلاة. في البداءة سيكون الأمر لديك شاقاً، ولكن بعدئذ كلما غصبت نفسك صار سهلاً لديك أن تصلّي. كل شيء في بدايته يحتاج إلى أن يغصب الإنسان نفسه عليه.

الأب يوحنا (ك.)

نصيب النعمة الإلهية في الاجتهاد البشري:

٧٣١ . «الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص»:

لأن إرادة الله أن لا تكون النعمة وحدها هي العاملة فينا وبنا بل نكون مشتركين بنصيبنا في الأعمال الصالحة. لاحظ مثلاً كيف كان سلوك السيد مع تلاميذه: وضع عليهم وصايا ليتمموها، ليتم بذلك عمل النعمة. فعمل العجائب كان عليه هو، أما الوصية التي كان عليهم أن يتمموها لتتم المعجزات فهي عدم الاهتمام بشيء، وفتح بيوت الناس أمام وجوههم كان من عمل النعمة العليا، ولكن عدم حمل شيء أكثر من الحاجة كان من عمل إنكارهم لذواتهم، ومنحُهم السلام والشفاء للناس كان من عمل النعمة، أما السؤال عن المحتاج وعدم الدخول قبل فحص من هو المستحق، فكان من الأوامر التي عليهم أن يتمموها.

وعقاب من يرفضون استقبالهم كان متروكاً لله، وانسحابهم بلطف ووداعة من أمام وجوههم دون التعرُّض لهم أو إهانتهم كان من الواجبات التي عليهم.

كان عليهم أن يحتملوا الطرد والإهانة ولا ييأسوا البتة، وخلاصهم ومعونتهم السريعة في حينها كان على من أرسلهم.

يوحنا ذهبي الفم

٧٣٢ . بعد حلول النعمة تصير النفس بلا همٍّ أو اضطراب، إلا أن الله لا يزال يطلب من النفس أن تُظهِر إرادتها ومشيئتها نحو الصلاح حتى بعد بلوغها حد الكمال لتكون باتفاق تام مع الروح: «وجدت قلبه حسب قلبي».

٧٣٣ . بالإيمان ينال الإنسان نعمة، ويكون أهلاً **لدخول الملكوت**، إلا أنه من الناحية الأخرى عليه أن يحافظ على روح النعمة ويكون موافقاً له في كل أعماله، فلا يأتي عملاً ردياً أو يهمل عملاً من أعمال الله. فإذا داوم على ذلك ولم يحزن الروح داخله بعمل ما يوافقه، **يُمكَّن عملياً من الدخول إلى ملكوت السموات.**

وكما يشعر الإنسان ويدرك دنس أعمال الشر إن كان من جهة شهوة ردية أو غضب أو حسد أو غيرة أو فكر شرير، فكذلك يجب أن يشعر ويدرك قوة نعمة الله التي تحل على الإنسان بعمل الفضائل، وبهذا يتشبَّه ويختلط بالطبيعة الإلهية الصالحة وبأعمال القداسة التي من فعل النعمة.

وعندما تُختَبر إرادة الإنسان تدريجياً على مدى الزمان باختبارات متنوعة، فإن كانت على الدوام حسب درجة النعمة المعطاة وموضوع رضى ومسرة الروح القدس، تزداد النعمة فاعلية في الإنسان حتى تشمل الإنسان بجملته، وتصبغه حسب قياس القداسة والطهارة التي تليق بقامته الروحية، وتجعله لائقاً لملكوت الله، الذي له السُبح والمجد إلى الأبد آمين.

٧٣٤ . لقد جعل الله كل مقاومة الشيطان في حدود استطاعة إرادة الإنسان وحريته، ولكن لم يُعط الإنسان قوة كاملة يستطيع أن يسيطر بها على كل انفعالاته النفسية وشهواته، لذلك قال: «إن لم يبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون وإن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحارسون» (مز ١٢٧: ١).

٧٣٥ . إنها تشبه الكتابة على صفحة الكتاب. تكتب ثم إذ ترى أنك لا تعني ما تكتبه تماماً فتمحوه وتكتب ثانياً، أما الكتاب فعليه أن يقبل أي نوع من الكتابة، هكذا تسليم الإرادة لله. فالله يغيِّرنا إلى ما هو حسن في عينيه، ولكي يرينا رحمته المتسعة فتح بابه لكل الساعين إليه من كل خلق ومن كل أمّة.

لما أرسل الرب تلاميذه أعطاهم قوة الشفاء، فشفوا بعضاً من الناس وبعضاً لم يستطيعوا أن يشفوهم مع أنهم كانوا يتمنون أن يشفوا الجميع، ولكن الله لم يسمح لهم بكل ما أرادوا.

كذلك بولس الرسول لما دلُّوه في زنبيل من سور مدينة دمشق ليهرب من وجه الحارث ملك الدمشقيين، كان ممكناً . لو شاءت النعمة التي معه . أن تجعل الحائط ينشق ويجوز، وهو رجل الروح القدس. كل هذه الأمور حدثت بعناية الله حتى يظهروا في بعض الأمور أقوياء أصحاب قوات ومعجزات، وفي بعض الأمور ضعفاء بلا قوة، حتى يكون هناك مجال لعمل الإيمان في الناس، وحتى تُختَبر وتُستَعلن حرية الإرادة: هل كان هناك من سيعثر ويضعف ويغتاظ بسبب جزئهم الأضعف؟

أما إذا أمكن للرسل أن يصنعوا كل ما أرادوا، لصار الناس . وحرية إرادتهم . في خدمة الرب بالقوة الإجبارية، ولغطت القوة الإعجازية قوة الإيمان، وانساق الناس إلى المسيحية بسبب المعجزات وليس بسبب الإيمان. ولكن المسيحية هي هي حجر عثرة وصخرة شك!! (رو ٩: ٣٣)، ولكن الذي يؤمن به لا يخزى.

٧٣٦ . أحياناً يقوى علينا جانب الشر (بسماح من الله)، وتثب علينا الأفكار بشدة، وفي أخرى تكون ثقة الإنسان وعزمه أكثر من قائد منتصر يستمد العون والنجاة من الله ويقاوم الشر بقوة. وهكذا يسمح الله أن نكون في ناحية مغلوبين وفي أخرى غالبين، حيناً ضعفاء وحيناً نتقدم إلى الله بغيرة وحرارة ملتهبة. والشيطان يعلم ذلك ولا يتجاسر أن يقترب من الإنسان في هذه الأوقات لأنه يعلم أنه لا يقوى عليه. ولماذا؟ لأن الإرادة تكون حاضرة عنده مشدَّدة بالنعمة، وقد تكاثرت عنده بسبب ذلك قوة الإيمان والحب.

يحرث الفلاح الأرض ثم ينتظر الندى والأمطار من فوق، فإذا لم يأتِ الماء من فوق يصير الكرم بلا ثمرة ويصبح الكرام بلا مكسب من فلاحته. هكذا أيضاً في الروحيات يجب أن يعمل ويجاهد كل إنسان بإرادة وعزيمة، لأن الله يطالب كل إنسان بكدِّه واجتهاده وعمل يديه، ولكن إذا لم تدركه نعمة الله من فوق، ويشرف عليه سحاب جوده وتحننه، يبقى بلا ثمرة من جهاده.

٧٣٧ . يحرث الفلاح ويجتهد ويضع بذاره في الأرض ثم يقف منتظراً المطر من فوق. فإذا لم تظهر السحب وتهبُّ الرياح والعواصف، يصير جهاد الفلاح وعمله بلا فائدة، وتبقى البذور عارية لطيور السماء لتلتقطها،

هكذا الإنسان المتكل على عمله، الذي لا ينظر إلى فوق بل يكتفي بعمل يديه، فمهما كان جهاده وصلاته وتقشفه وبُعده عن الماديات ومحبته للإخوة الغرباء، فإنه لا يأخذ ثمار جهاده وحبه إذا لم يشرق عليه غِنى الله وعمل النعمة ويهبُّ عليه الروح القدس ويتساقط عليه ندى رحمة الله.

٧٣٨ . مكتوب أن الكرَّام عندما يرى غصناً حاملاً ثمراً فإنه ينقيه ليأتي بثمر أكثر، وعندما يرى آخر غير مثمر فإنه يقطعه ويلقيه في النار (يو ١٥: ٢). هذا هو نصيب الإنسان، كفرع في الكرمة يقدم صلواته وأسهاره وأصوامه ومحبته وغربته عن العالم لا كأنها صادرة منه، بل من الله أصل كل الخيرات والفضائل. وليقل هكذا: لولا أن الرب أعانني ما كنت صلَّيت أو سهرت أو صُمت أو خرجت من العالم. ولا يفتخر في نفسه بجهاده بل ينسب كل شيء إلى أصله. لذا حينما يرى الله غرض الإنسان وأنه لا يود أن ينسب شيئاً إلى ذاته بل ينسب كل عمل حريته وإرادته إلى الله، فإنه يمنحه أشياء فوق إرادته وفوق استطاعته: فرحاً في الروح وسلاماً في القلب.

٧٣٩ . لو كان النجاح ممكناً بدون مجهود لما كانت المسيحية صخرة شك وحجر عثرة للذين لا يجاهدون، ولأمكن أن نجعل من الإنسان مخلوقاً عاجزاً غير قادر أن يميل إلى الخير أو إلى الشر. لأن الناموس والوصية قد أُعطيا للإنسان الذي له حرية الإرادة أن يميل إلى الخير أو إلى الشر، وله سلطة أن يقيم حرباً على ما يخالف إرادته.

الوصية والناموس لم يوضعا للخليقة العاجزة المفتقرة إلى الحرية. فالشمس والقمر والسماء والأرض لا تُدعَى للسير في غير ما حُدِّد لها، لأنها من طبيعة محكومة بالعوز، ولهذا لا تقع تحت عقاب أو ثواب. إنما العقاب والثواب قد وُضِعا لمن يستطيع أن يميل بحرية إرادته إلى الخير فيُمجَّد، أو إلى الشر فيُعاقَب. لذلك جُعِل الملكوت ثواباً وجهنم عقاباً للطبيعة القابلة للتبديل القادرة أن تهرب من الشر أو تمرق من الخير.

وإن قلت إنَّ الإنسان ليست له طبيعة متغيرة، يكون من يعمل الصلاح غير مستحق بعد للمديح أو الثواب مهما كان عمله جيداً.

٧٤٠ . الرب يعمل مع الإنسان في أرض النفس. أما الأشواك التي يبذرها الشرير فهي تنمو، ولكن حينما تكثر النعمة تذوبها وتلفحها شمس البر.

٧٤١ . «إن كنتُ أتكلم بألسنة الناس والملائكة ... وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم؛ وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، وإن أطعمتُ كل أموالي وإن سلَّمتُ جسدي حتى أحترق، ولكن ليس لي محبة، فلا أنتفع شيئاً» (١كو ١٣: ١ ـ ٣).

هذه المواهب تُقدَّم فقط كمشوقات ودواعي للدخول في الإيمان. والذين يكتفون بها لا تنفعهم شيئاً كنص الآية. كثيرون من الإخوة وصلوا إلى ذلك القياس فأخذوا مواهب شفاء واستعلاناً ونبوة، ولكونهم

لم يصلوا إلى الحب الكامل أي الله الذي هو رباط الكمال (كو ٣: ١٤) باغتتهم الحرب، وإذ لم يحترسوا سقطوا!! ولكن إذا وصل أحد إلى الحب الكامل فهو يكون موثوق الرباط بالله وأسير النعمة.

فكل اجتهاد وكل بلوغ لم يكمُل ولم يُكلَّل بعد برباط الحب، يبقى معرَّضاً للخوف والحرب والسقوط والزوال. وإذا لم يأخذ صاحبه الحذر البالغ فإن الشيطان يباغته ويصرعه.

أبا مكاريوس الكبير

٧٤٢ ـ الملل عدو الصلاة: إذا وقفت يصارعك لتجلس؛ وإذا جلست يصارعك لتتكئ؛ وإذا اتكأت يصارعك لتنام. أما ثمرة الملل المرة فهو التنقل من مكان إلى مكان، وعصيان أوامر الرؤساء والآباء.

٧٤٣ ـ إذا قُدِّمت المائدة يهرب الضجر، وإذا حانت الصلاة يحلُّ على الجسم. وإذا وقف الإنسان في الصلاة أغرقه في النوم أو أطلق عليه التثاؤب في غير وقته، ويأمرك بالاستناد على الحائط. وإذا ما انتهت الصلاة تنفتح العيون ويعود النشاط وتسرع الرجلان.

الأب يوحنا الدرجي

٧٤٤ ـ اسهر بغير ضجر، لأن الله يحب سهراً بفرح؛ وكل ما يكون بفرح فله ثمرة، أما العمل الذي بالضجر ما يكون له أجر بل دينونة.

يوحنا ذهبي الفم

٧٤٥ ـ تسقط في الأحزان كل نفس ذليلة قليلة الثقة بالله، مثل السوس الذي لا يصيب إلا اللين من الخشب، كذلك الأحزان لا تقوى إلا على المسترخين من الناس.

٧٤٦ ـ قال ربنا يسوع المسيح: «إن الأجير مستحق أجرته»؛ والرسول يأمرنا أن نتعب ونعمل بأيدينا. فيجب أن لا نفكر أن عبادة الله صارت لنا حجة في الكسل وسبباً لنهرب من التعب، بل علينا أن نجاهد لنقول مع الرسول إنه بأتعاب كثيرة مرات عديدة وأصوام وأسهار وجوع وعطش. هذا نافع لنا كثيراً ليس لكي نقمع الجسد ونستعبده فقط بل أيضاً لنعطي المحتاجين. وكما قال الرسول: «من لا يريد أن يعمل لا يأكل»، وقال أيضاً: «أنا لم آكل خبزي مجاناً بل بتعب الليل والنهار»، مع أنه كان له السلطان أن يعيش من تقدمات الناس.

والرب نفسه قرن الخبث بالكسل إذ قال: «العبد الخبيث الكسلان».

وسليمان الحكيم وضع النملة أرفع مكاناً من الكسلان، إذ قال: «امضِ إلى النملة أيها الكسلان وانظر كيف تتعب وتعمل».

والله سيطالب كل واحد منا يوم الدينونة بعمله وجهاده بمقدار القوة التي أعطاها له، فمن أُعطي كثيراً

سيُطالَب بجهاد أكثر، وهذا ظاهر من مطالبة العبد الشرير الكسلان الذي أُعطي وزنة فكسل عنها وطمرها وذهب ونام.

باسيليوس الكبير

٧٤٧ . روح الحزن المفسد يُظلم النفس ويحرمها من رؤية الله ويمنعها من كل صلاح. هذا الروح الشرير إذا ملك على النفس واستحوذ على الإرادة، لا يجعلها تصلِّي بفرح روحاني، ولا يدعها تثابر على قراءة الكتب باجتهاد لئلا تعثر على مفتاح النور فتخرج من فخ الظلمة المخيم عليها.

ويصير الإنسان متكاسلاً في كل عمل مبغضاً للعبادة والصلاة، مسلوب الإرادة من رجاء الخلاص، ويهدم كل ما فيه من اشتياق نحو الحياة الأبدية حتى أنه يقيده بقيود اليأس من رحمة الله.

لذلك وجب أن نسهر ونجاهد ضد روح الحزن المفسد لأنه كما تأكل العثة الثوب فيتهرأ، وتأكل الدودة العود الأخضر فييبس؛ هكذا هذا الروح المفسد يضعف النفس ويجعلها جافة لا تقبل كلمة نصيحة أو مشورة من إنسان أو تجيب بكلمة هادئة وديعة، بل يملأها مرارة وضجراً وحسداً، ويشير على النفس أن تفر من الناس لزعمها أنهم سبب قلقها وأتعابها. وهو لا يترك النفس البائسة لتعرف أن سبب شقاوتها وبلوتها ليس هو من الخارج بل من الداخل، لأنه واضح أن الإنسان لا يتوجع من آخر إلا بسبب مرض النفس المختفي في أعماقها، لذلك قال السيد: «نظِّف أولاً داخل الكأس».

٧٤٨ . أما روح الضجر فهو زميل روح الحزن المفسد وهو متولد منه، ويأتي على الإنسان بكسل وتراخٍ وبغضة للمكان الجالس فيه، وحتى للأشخاص الذين يسكن معهم ولكل عمل كان، وحتى لقراءة الكتاب المقدس، ويلح عليه هذا الروح بترك موضعه والانصراف، ويشير عليه أنه إن لم ينتقل من موضعه فباطلاً يكون تعبه. وليس من علاج لذلك إلا بتعوُّد الكفِّ عن كلام البطالة والمزاح، والمثابرة على الصلاة والعمل. لهذا كان الآباء القديسون المجرَّبون في البرية لا يسمحون للرهبان أصلاً أن يتركوا عنهم العمل وشغل اليدين صيفاً وشتاءً، وخاصة الشباب لأنهم جربوا أن مواظبة العمل تطرد عنهم الكسل وروح الضجر.

ولم يعملوا كفافهم فقط بل كانوا يستفضلون من أعمالهم ويعطون الغرباء والمحتاجين ويتعاهدون الذين في السجون؛ وكانوا يعتقدون أن عطيتهم للآخرين تُعتبر ذبيحة مقدسة ترضي الله. فمن يعمل يقاتله شيطان واحد والكسلان تقاتله شياطين كثيرة.

وقد قال لي مرة أنبا موسى الأسود الرجل المجرَّب، حال جلوسي معه في البرية، حينما أخبرته أني مرة تأذيتُ جداً من شيطان الضجر ولم أفلت منه حتى ذهبتُ إلى أنبا بولس، فأجابني أنبا موسى قائلاً: ثق أنك لم تفلت منه ولكنك أسلمت نفسه إليه أكثر وأطعته! واعلم أنه من الآن سيقاتلك قتالاً أشدّ وأثقل إن لم تحرص، فلا تُطِعه بمبارحة مكانك وقاتله بالصبر والصلاة وعمل اليدين مع طلب معونة الله.

الأب يوحنا كاسيان

٧٤٩ . قبل كل شيء اعلم أنه لن يُتوَّج أحد إذا لم يجاهد قانونياً، كما قال بولس الرسول. وكل واحد لا يجاهد حسب ناموس السيرة التي اختارها لنفسه فإنه لن يُتوَّج. فينبغي لمن تقدم إلى الطريق الروحاني أن يغصب نفسه في كل تدبير يقدمه إلى الله، إن كان صوماً أو صلاة أو بقية الفضائل.

واعلم أيها التلميذ المتتلمذ للحق أنك لا تستطيع أن تثبت في الأمور الإلهية إذا لم تغصب نفسك عليها كل وقت.

٧٥٠ . بقدر ما يشقى الإنسان ويجاهد ويغصب نفسه من أجل الله، بقدر ما تُرسَل إليه معونة إلهية وتحيط به وتُسهِّل عليه جهاده وتُصلِح الطريق قدامه.

٧٥١ . إذا كنتَ تسأل: إلى أي حد أغصب ذاتي، أقول لك إلى حد الموت اغصب نفسك من أجل الله.

اغصب نفسك في صلاة الليل وزدها مزاميراً، ولو مزموراً واحداً وسجوداً قليلاً زائداً عن العادة، فإن نفسك تنتعش وتدنو منك معونة الله وتُؤهَّل لحفظ الملائكة.

اغصب نفسك في عمل المطانيات لأنه محرِّك للحزن في الصلاة.

اغصب نفسك في هذيذ المزامير (أي التفكُّر فيها بعد تلاوتها).

إذا حان وقت الصلاة فاغصب نفسك وقم لتشترك في الخدمة والق عنك ثقل الجسد الذي يدعوك للتخلُّف عن العبادة.

اغصب نفسك على الصلاة قبل مواعيدها لتخف عليك.

صلِّ بطول روح وتأنَّ في المزامير بصبر وتجلُّد بدون ضجر، ولا تتلوها كمضغوط.

اغصب نفسك في الليل أن تقوم وتسجد قدام الصليب ولو أن النوم يكون ثقيلاً عليك والجسد يؤخرك. هذا هو الوقت المقبول وهذه هي ساعة المعونة.

٧٥٢ . احذر أن تُبطِل شيئاً من خدمة الأوقات (أي السبع صلوات التي بالإجبية). اتعِب جسدك بالصلاة حتى تُؤهَّل لحفظ الملائكة وحتى يتقدس سريرك من عرق الصلاة، وبغير تعب في الصلاة لا تنم.

ولا تصدِّق يا أخي أنه من دون الأعمال والجهاد ينعتق الإنسان من الخطايا أو تُعطَى له المواهب. واعلم أن الملائكة سوف تشهد في تلك الساعة بمقدار تعبك وضيقتك وشقاك لأجل بُغضتك للخطية وجحودك لها.

٧٥٣ . صدِّقني يا أخي أن الملل والضجر وثقل الأعضاء والتكدُّر وتعب الفكر وبقية أسباب الحزن التي يسوقها عدو الخير على النسَّاك، تُحسَب لهم عملاً إلهياً. ولو يبقى الإنسان مضغوطاً بها فيصبر ويحتمل ولا يخضع لها، تُحسَب له ذبيحة نقية وعملاً إلهياً ما خلا فكر العظمة والكبرياء.

٧٥٤ . صلِّ أن لا تدخل التجارب النفسية. فأما تجارب الجسد فهيئ نفسك لها بكل قوتك وشجاعتك. لأنك لا تستطيع أن تقترب من الله وتستحق رحمته إلا بها. سيدنا أوصانا أن نصلي طالبين عدم الدخول في التجارب، وهو قال: «ادخلوا من الباب الضيق». في الأولى خطر الانفصال عنه لأنها تجارب الشهوات النفسية والتخلية وقت الضيق النفساني؛ أما الثانية فهي الضيقات التي توصلنا إليه التي بأتعاب الجسد.

٧٥٥ . محبو الراحة لا يحل فيهم روح الله بل الشيطان.

أما إن كنت تتعب في سهرك من الوقوف ويوسوس الشيطان إليك أنه ما بقيت فيك قوة ويوحي إليك بالنوم، فقل له أنا أجلس وأكمل سهري ولست أنام.

٧٥٦ . إنه أليق لنا أن نموت في الجهاد من أن نحيا في السقوط.

٧٥٧ . هذا العالم هو ميدان الجهاد، وقد وضع علينا الرب أن لا يفرغ جهادنا حتى النهاية. والذي يصبر إلى المنتهى فهو يخلص. حينئذ يظهر من تجلَّدَ وصبر ومن أدبر وولَّى. لهذا يجب ألا يقطع الإنسان رجاه لأنه ربما في آخر لحظة ينال الظفر على عدوه ويرتفع اسمه كأحد الشجعان! فلا نتهاون بالصلاة ولا نملّ من طلب المعونة.

٧٥٨ . وإذا هبط علينا روح الإهمال وبردت حرارتنا نجلس بيننا وبين أنفسنا ونجمع أفكارنا ونميز بدقة ما هو سبب الإهمال ومن أين بدأ وما هو الذي يُبطلك من الصلاة والعبادة؟

فإن كان الأمر يستحق التقويم قوِّمه، وإذا كان يستحق القطع اقطعه. وإن لم تكن كفواً لذلك و لم يوجد مرشد لتستشيره من جهة أمورك، ارجع إلى أول الطريقة التي بدأت بها وابدأ سيرتك كمبتدئ، وأنت في وقت يسير تمتلئ حرارة وترتفع إلى الدرجة التي سقطت منها، وتنظر بنفسك الدرجات التي عبرت عليها في صعودك الأول.

شاب سأل شيخاً مجرَّباً: ماذا أصنع للجسد عندما يلمُّ به المرض والكسل ويرتخي منه العزم وتبرد الإرادة من شهوة الصلاح والعبادة؟

أجابه الشيخ: إنما يحدث هذا الأمر لمن خرج وراء الله تعالى ونصفه الآخر باقٍ في العالم، وقلبه قد انقسم على نفسه، فتارةً ينظر إلى الأمام وتارةً ينظر إلى الخلف، و لم يطرح عنه شهوة العالم بالتمام. لذلك أمر سيدنا أن الذي يتبعه يجب أن ينكر نفسه أولاً: أي يجحد شهواته وملذاته الجسدية ويكون مستعداً كمن قد دُعي للصعود على الصليب وقد وضع في قلبه أنه قَبل الموت. أما الذي يُؤثر أن يُحيي نفسه في هذا العالم فهو يهلكها. أما من كان نصفه حياً ونصفه الآخر ميتاً فهو لا يصلح لملكوت الله.

٧٥٩ . الذين يبدأون جهادهم بعزيمة متراخية فإن الشيطان يقوى عليهم، والله لا يعضدهم لأنه يقول:

«ملعون من يصنع عمل الرب بتراخٍ».

٧٦٠ . القديس باسيليوس يقول: من تكاسل عن الأمور الصغيرة لا تثق به في الأمور الكبيرة. ولا يثقل عليك أن تموت من أجل الأمور التي تحيا بسببها.

٧٦١ . إن الفضائل لا تُكتَسب من كلام الكتب بل من تجربة طويلة. قد يكون إنسان ساذج يعمل عملاً بالتجربة أفضل ممن كان عالِماً في سيرة الروح بواسطة سطور الكتب والتسليم عن الآخرين فقط بلا تجربة واختبار.

٧٦٢ . إن جميع الفضائل التي نقتنيها بالتعب إن كنا نتهاون في عملها تضيع قليلاً قليلاً.

مار إسحق السرياني

٧٦٣ . سُئل الأب صاروفيم الذي من صروف قديس روسيا في القرن التاسع عشر: ماذا يعوز هذا الجيل ليؤتَى ثمار القداسة التي كانت غزيرة في الأجيال السالفة؟

أجاب: يعوزهم شيء واحد، التصميم بحزم قاطع!

ملخص المبادئ الهامة:

(١) في بدء حياة العبادة تكون الصلاة أمراً ثقيلاً على الجسد والعقل، وإن تُرِكا لذاتيهما لما تقدمنا للصلاة قط. لذلك وجب أن نغصب ذواتنا حتى تصير الصلاة جزءاً هاماً من حياتنا لا نستطيع أن نهمله أو نستغني عنه.

(٢) الجسد يعمل ضد الروح ويشتهي خلاف ما يشتهيه. إذن، فلا تُعِرْهُ التفاتك عندما يلحُّ عليك بطلب الراحة، لأن من أطاع جسده هلكت نفسه.

(٣) مهما كان الجسد متعَباً من عمل النهار فالصلاة لا تزيده تعباً، بل على العكس فإن الصلاة سوف تنعش روحك وجسدك أيضاً، أليست الصلاة تشفي المريض؟ إذن فهي تُزيل التعب أيضاً.

(٤) متى قمت لتصلِّي فلا تختصر في الصلاة التي قررتها لنفسك، لأن هذا يحرمك من لذة الصلاة كتقدمة حريتك. فإذا أتاك هذا الفكر فاعمل بالعكس وزِدْ صلاتك قليلاً عن المعتاد وأنت ستشعر بنصرة عجيبة وتحس أن العدو هو الذي كان يشير عليك بالاختصار.

(٥) إذا وقفت تصلِّي فاجمع نفسك وفكرك وقلبك وقدِّم ذبيحة حبك من كل قوَّتك وقدرتك! ولا تجعل فكرك وقلبك في شيء آخر لأن في هذا خداعاً لله. وهذا يبغضه جداً لأنه يقول: «يا ابني أعطني قلبك» (أم ٢٣: ٢٦).

(٦) الصلاة التي نقدمها بفتور وعدم اجتهاد ولا نغصب ذواتنا وفكرنا فيها، تكون ضدنا وتترك فاصلاً بيننا وبين الله.

(٧) صلِّ بلجاجة وشدة من أجل الصلاة ذاتها حتى تكون حارة ومقبولة حسب مشيئة الله، عالماً أن صلاتك إما تُحسَب لك أو تُحسَب عليك.

(٨) لا تفضل الحديث مع الناس أو العمل الجسدي، مهما كان، على الصلاة، لأنك بذلك تكون قد فضَّلت الناس والتراب على الله: «وقال لبطرس اذهب عني يا شيطان أنت معثرةً لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت ١٦: ٢٣)؛ «ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس» (أع ٥: ٢٩)؛ «وقالوا لا يُرضي أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد» (أع ٦: ٢).

(٩) الصلاة إذا كانت بسبب الظهور أو المجاملة أو الخوف من الناس أو الرؤساء، فهي كصلاة الفريسي تُنشئ لعنة. فيجب أن تكون صلاتنا بحب واشتياق وخوف الله.

(١٠) الكسل هو الشوك الذي يخنق حنطة الجهاد. وهو يحرمنا من أتعابنا السالفة. والكسل فرصة للشيطان يرمي فيها بذوره السامة: الحسد، الغيرة، البغضة، الدينونة.

(١١) أعداء الصلاة ثلاثة: مشاغل العالم، شهوات الجسد، حسد الشيطان. إلا أن الصلاة كفء لتغلبهم جميعاً إذا كانت بغيرة واجتهاد.

(١٢) اغصب نفسك في كل كلمة من كلمات الصلاة لكي تكون بصحو وشدة من عمق القلب. فإذا فرحت بصلاتك فاعلم أن الله فرح بها. وإذا وثقت باستجابتها فقد استُجيبت لأنه حسب إيمانك يكون لك، والله يعطيك حسب قلبك.

(١٣) لا تخضع لشعور النوم، أو التثاؤب، أو الاستناد على الحائط، أو الإستناد على رِجْل دون أخرى أثناء الصلاة. لتكن لك رهبة من الديان الذي أنت واقف أمامه؛ واغصب نفسك واعتدل في صلاتك وتعقَّل لما تقوله ولما تسمعه.

(١٤) القلب الذي تقسَّى بأباطيل العالم وشهوات الجسد طويلاً يلزمه جهاد طويل كذلك.

(١٥) الله يفرح بلجاجتنا في الصلاة، لذلك أعطانا مَثَل صديق نصف الليل، والأرملة الملحَّة. فلا تملّ من الصلاة وجاهد إلى أن تبلغ ما تريد.

(١٦) كل ما تغصب نفسك عليه في البداية سوف يكون سهلاً هيناً عليك في النهاية. وكلما تعبت في الجهاد أكثر كلما تحنن الرب عليك أكثر: «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التي أظهرتموها نحو اسمه» (عب ٦: ١٠).

(١٧) لا تعتمد على جهادك وحده كأنه يوصلك إلى ثمار الحياة الروحية، لأن نعمة الله إذا لم تحلّ على الإنسان وتبارك جهاده يظل عقيماً بلا ثمرة كتقدمة قايين! فالجهاد يؤهِّلنا فقط للملكوت، والنعمة تقودنا إلى هناك؛ والجهاد لا يخلِّصنا من الخطية قط بل يجلب علينا رحمة الله.

(١٨) المواهب التي يمنحها الله لنا تكون بمثابة وسائل لتقوية إيمان الآخرين، فإذا اكتفينا بها فإنها لن تنفعنا شيئاً بل ربما كانت سبب سقوطنا في الكبرياء وابتعادنا عن الله.

(١٩) الملل الذي يعترينا أثناء الصلاة هو من عمل الشيطان، فإذا ضاعفنا الصلاة هرب في الحال. أما إذا استسلمنا له أنشأ ضجراً وحزناً مفسداً للنفس. وهذا يحرمنا من لذة العبادة ومن الرجاء بالله حتى ومن الثقة في الناس.

(٢٠) حياة الصلاة تزدهر وتقوى بالاجتهاد في الصوم والسهر وفي الخدمة وعمل اليدين، والله يطالبنا باجتهاد على قدر ما أعطانا من قوة.

(٢١) لا وسيلة لرفع الملل والضجر والحزن المفسد، إلا بالانقطاع عن الكلام البطال والمزاح، ومضاعفة الصلاة، والانهماك في العمل الموكول إلينا، وعدم التنقل من مكان إلى مكان.

(٢٢) لكل سيرة قانون جهاد خاص مرتَّب عليها، فالذي يتخلَّف عن قوانين جهاد السيرة التي اختارها لنفسه سواء كان خادماً أو كاهناً أو راهباً لا يُكلَّل.

(٢٣) الصلوات السبع التي بكتاب الأجبية سنَّها الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعون بنيقية على جميع المسيحيين عموماً.

(٢٤) احتمل الملل والضجر والأفكار الشريرة التي يسوقها عدو الخير عليك خصوصاً وقت الصلاة. وطالما كنت لا تخضع لها ولا تميل إلى المشاركة فيها بل تتألم وتتنهد وتُظهِر عدم رضاك عنها، تُحسَب لك كعمل أفضل من الصلاة ذاتها لأن الآباء وضعوها في درجة الاستشهاد.

(٢٥) التجارب التي أمرنا الرب أن نطلب عدم الدخول فيها هي التجارب النفسية التي تؤول بنا إلى الفشل وتُبعدنا عن الخلاص؛ أما تجارب الجسد فعلينا أن نستعد لقبولها بالشكر لأنها توصلنا إلى الله.

(٢٦) لا تقل إني جاهدت ومللت، فربما في آخر لحظة تهزم عدوك وتأخذ إكليلك وتعبر من أرض الشقاء إلى الراحة الأبدية. وربما يكون ذلك بكلمة تقولها في موضعها أو بفكر منسحق تقدمه أو بشكر على ضيقة تحل عليك. أُذكر اللص الذي دخل الملكوت مع مخلصنا بسبب فكرة إيمانية ملأت نفسه في آخر ساعة من ساعات حياته.

(٢٧) إذا شعرت بفتور حياتك الروحية وضعفت صلاتك، فأسرع وعالج نفسك: اجلس في هدوء مع نفسك وابحث سبب هذا الفتور فقد يكون من كثرة الخلطة بالناس والكلام،

أو ربما من حبِّك للمزاح والضحك لأن ذلك عدو الحياة الروحية، أو ربما الحسد والنميمة والغيرة أو الدينونة للآخرين أو الغضب أو شهوة دنسة متعلقة بقلبك. ابحث، وإذا عرفت داءك فلا تتوانَ عن تقويمه وقطعه مُركِّزاً كل عبادتك وصلاتك من أجله.

(٢٨) إذا تعرقلت حياتك الروحية لأي سبب كان، فابدأ حياتك من جديد كأول يوم عرفت فيه الله، وابدأ جهادك بشدة وأنت تصل سريعاً إلى درجتك الأولى.

الفصل السادس

ضبط الفكر

+ «مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢كو ١٠: ٥).

+ «تكلم يا رب لأن عبدك سامع» (١صم ٣: ١٠).

+ «أين هي قلوبكم؟»
– «هي عند الرب!»
(القداس الإلهي)

من نِعم الله على الإنسان سعة الخيال وامتداده حتى إلى ما فوق حدود العالم المادي. فالفكر البشري يستطيع أن يحيط بكل ما على الأرض ويمتد ليتصور ما في السماء.

وقد وهبنا الله هذا الخيال الحي لنتصور به حوادث الماضي لنحيا فيها، ونشترك في بركاتها، ونحتاط لأخطائها. وبذلك نستطيع أن نستمد من حياة المسيح والأنبياء والقديسين صوراً حية نطبعها على حياتنا: «انظروا إلى نهاية سيرتهم» (عب ١٣ : ٧) ... «تعلموا مني.» (مت ١١ : ٢٩).

وهكذا نربط الماضي بالصورة الحية المطبوعة في ذاكرتنا بحاضرنا الذي نعيش فيه، ثم نمتد بهذا الخيال المتسع لنتصور مستقبلاً أفضل.

فالخيال هو الرباط الذي يربط حقائق الماضي بوقائع الحاضر بأماني المستقبل.

إلا أن سعة الخيال تختلف درجاتها بين الناس، فمنهم من وُهِب خيالاً جباراً غير محدود يتصور الأشياء على حقيقتها دون أن يراها! فلا يكاد يقع بصره على بعض الأمور العادية التي لا تكاد تسترعي نظر الآخرين حتى يرى فيها جمالاً وروعةً مخفيةً ويستخرج منها معانٍ غاية في الدقَّة والإحكام.

والناس منهم مَن يتصور الحوادث كمجرد صور بسيطة تعرض على الذهن عرضاً صامتاً سريعاً، فلا تكاد الحواس تنتبه إليها إلا يسيراً وتعبر دون أن تترك أثراً واضحاً في النفس.

ومن الناس مَن يتصور الحوادث تصويراً حسياً عميقاً، فتشترك الحواس جميعاً في جو القصة حتى أن الشخص يشعر كأنه يعيش فيها. وأصحاب هذا النوع من الخيال شديدو التأثر بسيَر السابقين، يستطيعون في سهولةٍ ويُسرٍ أن ينقلوا صوراً من حياة السابقين ويطبعوها على حياتهم فتصير حقائق الحاضر.

والخيال ككل المواهب الطبيعية التي منحها الله للإنسان، عُرضةٌ للانحراف، فبدلاً من أن يكون سبباً لارتقاء الإنسان ونموه في طريق الفضيلة، تجده ينحرف بالإنسان أحياناً فينساب في

أفكار الشر والشهوة وينشغل بتوافه الأمور واختلاق قصص لحوادث خيالية لم تحدث، ويركن بالإنسان إلى أحلام اليقظة الكاذبة.

فإذا لم يتدارك الإنسان هذا الانحراف ويضبط فكره ويتحكم في خياله، يصبح وبالاً عليه وخصوصاً في أوقات الصلاة.

فعلينا أن نبحث كيف ينشأ هذا الخيال:

ليس الخيال شيئاً قائماً بذاته، حراً في سيره كما يتراءى لنا، وإنما هو محصَّلة لعدة قوى: **فالطموح، والعجز، والشهوة المكبوتة، والغيرة المرة، والغضب، والخوف**، كل هذه عوامل مهمة تدفع بالخيال فينطلق بعيداً عن عالم الحقيقة والواقع ليكمل للنفس ما عجزت أن تحققه.

لذلك، فعلاج انسياب الفكر في أحلام اليقظة وانشغاله عن عالم الحقائق يكون بتحليل المواضيع التي يسرح فيها الفكر كثيراً، وهذا أمر سهل يستطيع أن يقوم الشخص به لنفسه. ولكن لضمان الوصول إلى نتيجة حاسمة يُستحسن أن يقوم بتحليل هذه الأفكار الأب الروحي. وعلى سبيل المثال:

إذا كان الفكر كثير الانشغال مثلاً في الأمور الجنسية كان هذا كشفاً واضحاً لما تعانيه النفس من الكبت الجنسي، وحينئذ يجب الابتداء في الحال بتدريب الشخص على وسائل التسامي الجنسي سواء بالانشغال في أعمال يدوية أو الرياضة الجسدية أو أي هواية من الهوايات الفنية كالموسيقى أو التصوير أو الألحان.

وإذا كان الفكر دائباً على تأليف مواقف الانتصار والعظمة والوقوف موقف الرئيس الآمر المطاع أو القديس الذي يصنع المعجزات والآيات، كان ذلك دليلاً على كبرياء كامن في النفس وعدم الرضى بالواقع وإهمال في أداء الواجب المفروض.

وإذا كان انشغال الخيال في التلذذ برؤية الخسائر تحل بالآخرين أو في الانتقام من بعض الأشخاص، كان ذلك دليلاً على أن الغضب والغيرة يملكان على النفس.

وهكذا نرى أن تتبُّع الفكر، فيما يجول فيه، له أهمية عُظمى في الكشف عن العلة الأصلية

التي طوحت بالخيال هكذا بعيداً عن الواقع، سيما إذا كان الفكر كثير التردد في موضوع واحد.

ومن العبث أن نحاول ضبط الفكر بالقوة، إذ أن ذلك من المحال. فالعقل لا بد أن يشتغل والفكر لا بد أن يمتد طالما في الإنسان نسمة حياة سواء كان في اليقظة أو النوم. وإنما العلاج يكون بمعرفة سبب شرود الفكر في الباطل ثم العمل على قضاء علل الكبت.

كذلك لا بد أن نهيئ مجالاً خيِّراً للفكر ليمتد فيه لنشبع من غريزة حب التأمل والخيال، بأن نتدرب على التأمل واسترجاع حوادث الكتاب المقدس وقصص الآباء، كتدريب يومي منظم.

ولكن بالرغم مما يُقال وما يُعمَل من أجل ضبط الفكر وخصوصاً أثناء الصلاة، فالحقيقة أنه لا يوجد أمام الإنسان لبلوغ الهدوء الداخلي بما فيه من السكينة الفكرية إلا طريق واحد: وهو الحب. الحب المنبثق من الأمانة في الله! لأن الطرق الإرادية في ضبط الفكر قد تنجح في السيطرة جزئياً على الأفكار والتصورات، ولكن يستحيل أن تنجح في ربط الفكر بالله!

أما المحبة فعندما تتفجر في القلب نحو الله فهي تحاصر ليس العقل فقط بل وجميع الحواس الأخرى، فيصير الإنسان كله فماً يتكلم وأذناً تسمع ولا تعود أي قوة قادرة أن تفصل الإنسان عن وقفة الحب المتكلم والمستمع لله.

ومحبة الله عندما تشتعل في القلب لا تضبط فكر الإنسان وحواسه بمفردها، بل إن الإنسان كله يدخل في هدوء وسكينة هي الفردوس بعينه. وهذا يرجع لمقدار الأمان والاطمئنان اللانهائي الذي يحسه الإنسان أثناء وجوده في حضرة الله الكلي القدرة والقوة، فلا يعود للماضي بمآسيه وصوره المحزنة أي وجود في أفق الفكر المصلِّي، ولا يعود اهتمام بالحاضر ومطالبه، ولا يعود قلق على المستقبل بمفاجآته، لأن نفس الإنسان تكون مرتاحة في الله الذي تثق فيه ثقة لا تُحدُّ كالطفل على صدر أُمِّه.

ولعل من أعظم أسرار المحبة نحو الله بل وأقوى مفاعيلها على النفس البشرية هو استطاعتها إقناع النفس على تسليم إرادتها وحياتها وآمالها وضعفها في يدي حبيبها مرة واحدة وبسهولة، فيقف الإنسان يصلِّي، ليس فقط بعقل صاحٍ وفكر منضبط، بل وبشعور التسليم والاطمئنان والهدوء حتى وفي أعنف الظروف وأخطرها قلقاً واضطراباً، وإن منظر الشهيد وهو يتقدم إلى

السيف بكل هدوء وسكينة رافعاً يديه وعينيه نحو السماء مصلياً، هو صورة حية ناطقة تشهد لقدرة المحبة على غلبة كل شيء!

ولهذا، فإن استعداد المحب للبذل وإنكار ذاته هو أقوى درع يحمي الإنسان من كل المفاجآت والتهديدات والمقلقات التي تُعتبر أشد العوامل المشتِّتة للفكر أثناء الصلاة والخدمة.

أقوال الآباء في ضبط الفكر:

٧٦٤ . فوق كل شيء يجب أن نهتم لنضبط فكرنا في الله بكل وسيلة ممكنة، فنجعل العقل رقيباً صاحياً على الأفكار التي يجذبها الجسد للاهتمام فيما يختص به ... فلا يدع النفس تخضع لهذا الجذب ولا تتنازل للاشتراك في هذه الاهتمامات الباطلة. وكما أن الجسد مركز الرؤيا فيه هو العين، كذلك النفس فإن مركز الرؤيا فيها هو العقل.

باسيليوس الكبير

٧٦٥ . ليست خطية أعظم من هذا، أن نصلي بلا خشوع ووقار وخوف الله!

سمعان (المتكلم بالإلهيات)

٧٦٦ . من يصلي بذهن حاضر وفكر مجموع يذل فخر الشياطين؛ والذي يصلي بتشتت العقل وعدم اكتراث يسخرون منه ويستهزئون به.

٧٦٧ . ليتنا نحب الوقار والخشوع في الصلاة مهما قاومنا العدو. لا تترك خشوعك مهما توقَّح عليك الأعداء حتى وإذا اجترأوا أن يصفعوك فلا تُرخِ وقارك لأنه كنز خيرات مملوء بركة. مَنْ مَلَك الخشوع واقتناه بالحق يستميل إليه الرب ليطَّلع عليه ويلحظه كما هو مكتوب: «إلى هذا أنظر: إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي» (إش ٦٦: ٢). مغبوط هو الذي يستهين بكل شيء في سبيل اقتناء خوف الله والخشوع أمامه.

مار أفرام السرياني

٧٦٨ . كيف تبلغ إلى ضبط الفكر وشدة الانتباه أثناء الصلاة؟

إقنع ذاتك بلا شك أن الله أمام عينيك. إذا وقف إنسان أمام رئيسه أفلا يلتفت إليه بعينيه وسمعه وفكره وبكل مشاعره؟ فكم بالحري مَنْ يقف أمام الله ليصلي إليه! خصوصاً وأن الله هو كاشف ما في النفس وما في العقل!

٧٦٩ . هل ممكن أن نحصل على ضبط الفكر في كل شيء وفي كل وقت؟ وكيف يكون الوصول إلى ذلك؟

هذا أوضحه داود قائلاً: «عيناي إلى الرب في كل حين»؛ «أرى الرب أمامي كل حين لأنه عن يميني فلا أتزعزع!» (مز ١٦ : ٨).

وأما كيف الوصول إلى ذلك فكما أوضحت سابقاً: لا يجب أن نعطي للنفس فرصة أو وقتاً تقف فيه عاطلة من ذكر الله وأعماله وعطاياه ومن دوام الاعتراف به والشكر له على كل شيء!

باسيليوس الكبير

٧٧٠ . كما يستحيل على الإنسان أن يطارد عصفوراً طليقاً في الهواء لأن ذلك ليس من طبيعة الإنسان؛ كذلك يستحيل بمجهودنا البشري أن نهزم أفكارنا الجسدية وطياشتها في الشر، أو نجبر عين العقل في الثبوت أمام الله ... يلزمنا أن نستخدم الصلاة وطلب المعونة بلا انقطاع!

فإذا حاولت بمجهودك فقط أن تهزم أفكارك فأنت لا زلت تجري وراء العصفور عبثاً.

حزقيوس الأورشليمي

٧٧١ . ضبط الفكر لازم لنا جداً طالما نحن نحيا هنا على الأرض في بيت اللصوص (أي الشياطين)، واليقظة لازمة لحفظ الكنز. وليس مفروضاً علينا أن نعمل حتى نبلغ إلى أوان الثمار فقط بل نجاهد باليقظة حتى إلى لحظة الموت. لأن الفلاح لا يطمئن على زرعه إلى أن يثمر فقط، لأنه ربما البرد يضربه في آخر لحظة؛ بل يطمئن حينما يدخل قمحه إلى مخزنه.

٧٧٢ . حينما يكون عقلك مشتتاً توافقه في هذه الأوقات كثرة القراءة بفهم، ولكن ليست كل الكتب تنفع لتركيز العقل.

بقدر الإمكان أكرم القراءة أكثر من الصلاة لأنها سوف توصلك إلى الصلاة النقية التي بلا طياشة فكر.

٧٧٣ . دوام اليقظة (مع الخلوة) والقراءة (مع الحفظ) وكثرة السجود (مع الصوم) هذه بسرعة تعطي للنشيط بركات الحياة الروحية. لهذا يجب أن لا ننقص من التحفُّظ حتى ينبثق فجر التوبة الحقيقية في قلوبنا ونضبط التواضع، فيجد قلبنا راحته في الله!

مار إسحق السرياني

٧٧٤ . روح الصلاة هو الانتباه وضبط الفكر في معاني الكلمات. وكما أن الجسد بدون عقل لا قيمة له؛ هكذا الصلاة بدون فكر مجموع إليها تكون بلا قيمة. فالصلاة دون انتباه هي تمتمة كلام باطلة، ومن يصلي هكذا يصير معدوداً بين الذين اتخذوا اسم الإله باطلاً (أم ٣٠ : ٩).

٧٧٥ . انطق كلمات الصلاة بلا تسرُّع، ولا تدع عقلك يطوف في كل مكان بل اقفل عليه واربطه في معاني كلمات الصلاة.

آه ... ضيِّقةٌ هي الطريق وكربة للغاية للعقل الذي اعتاد الجولان في كل فكر محلولاً وسائباً في كل مكان! ولكن بدوام التدقيق في كلام الصلاة وفي معناه فإنه حتماً سيصل إلى الانتباه، فإذا ما ذاق بركاته.يشتاق دائماً أن يتقدم في الصلاة التي بلا طياشة.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٧٧٦ . إجتهد أن تجعل عقلك أثناء الصلاة أصمّاً، فتقدر أن تصلي كما يجب عليك.

٧٧٧ . كل جهاد يجاهده الشيطان بشدة ضدنا، هو ضد الصلاة الروحية ذات الفكر المجتمع فيها، فهي تكون غير محتمَلة على الأرواح الشريرة وتؤذيهم بشدة لأنها تقدمنا كثيراً إلى الله.

نيلوس السينائي

٧٧٨ . إذا أردت حقاً أن تغلب أفكارك وتلبسها الخزي: قف صامتاً وهدِّئ قلبك وابدأ بصلاة قصيرة مثل صلاة «يا ربي يسوع»، الصق بها كل حواسك. وكلما زاغ عقلك رُدَّه، ففي أيام قليلة ترى قيمة هذا العمل.

حزقيوس الأورشليمي

٧٧٩ . حينما تنتصب لتقدم ذبيحة الصلاة، حالاً تتدافع الأفكار ويجمع بعضها بعضاً من قريب ومن بعيد حتى والتي مضى عليها سنون طويلة، ثم تبدأ بهجومها على العقل وتثقل عليه حتى تحرم الإنسان من تقدمة ذبيحة صلاته العقلية، وعلى الأقل تبرِّد نفسنا فيما كنا عازمين أن نقدمه من حرارة ودموع!

وكما وقف إبراهيم يقدم ذبيحته وقت غروب الشمس فتوافدت عليه طيور السماء وحاولت أن تنقضَّ على ذبائحه ووقف هو يزجرها ويطاردها باجتهاد حتى لا تخطف ذبيحته التي قدمها؛ هكذا نحن أيضاً عندما نقدم ذبيحة صلاتنا فوق مذبح قلوبنا علينا أن نقف بحذر وانتباه ونحرسها حتى النهاية من الطيور النجسة التي هي الأفكار الشريرة لكي لا تقترب إليها وتخطف ما تحمست عقولنا أن تقدمه من أفكار نيرة لله.

غريغوريوس الكبير

٧٨٠ . القلب الجزع المتقلب يستطيع أن يتحول إلى قلب راسخ لا تزعزعه الأهوال، إذا ما أتقن الصلاة بيقظة ودوام التفكير في الله!

إلا أنه لا يستقيم هذا الأمر مع احتفاظنا بهمومنا العالمية، لذلك يجب ألا نحمل همّاً قط لأي أمر يتعلق بهذه الحياة الزائلة.

فمن تعود أن يصلي فقط حينما يتقدم إلى الصلاة في ميعادها، فهذا لن يصلي أبداً حتى وهو منحني على ركبتيه! لأنه يكون مشتتاً في الأعمال والهموم التي يشتغل بها. إذ أنه في وقت الصلاة يقف العقل حائراً حائراً، وبينما هو يطالِب بالصلاة يوجد متأثراً بحالته السابقة للصلاة. فإما أن يتقوى ويغلب ويرتفع إلى الصلاة ثم يرتد سريعاً، أو يبقى منشغلاً بكل حواسه في الأمور السابقة التي كان مشغولاً بها. وهكذا كل ما نريده من عقلنا أثناء الصلاة يجب أن ندرب أنفسنا عليه قبل الصلاة.

الأب يوحنا كاسيان

٧٨١ . وبما أن الحروف لا تُنقَش في الهواء بل تحتاج إلى سطح تتثبَّت عليه؛ هكذا حضور الذهن وضبط الفكر لا يمكن حصول العقل عليهما من لا شيء بل بالتدريب على صلاة قصيرة كصلاة «يا ربي يسوع». وحينئذ نحصل على دوام حضور الذهن في حضرة الله، وفي ذات الوقت نحصل على فضيلة الصلاة لله بلا انقطاع. وكل منهما فضيلة قائمة بذاتها، فإذا داومنا عليهما فإنهما تثبتان فينا غير منفصلتين.

٧٨٢ . ضبط الفكر هو سكوت القلب عن الاهتمام بأي شيء ما عدا الله! في هذا السكوت تدعو يسوع المسيح ابن الله من القلب بدون انقطاع مع كل نسمة من أنفاسك. معترفاً له بخطاياك واثقاً من غفرانها. والنفس التي تداوم على الدعاء بذلك الاسم العظيم سرعان ما تصل إلى صاحب الاسم ذاته، وحينئذ من فرط سرورها وسعادتها تحاول أن تُخفي هذه الحقيقة المفرحة عن العدو لئلا يحسدها فيغويها لإسقاطها في خطية ما فيحطِّم فخر سعيها ونشاطها.

٧٨٣ . والعقل ضعيف في ذاته ولا يستطيع بمجهوده وحده أن يقهر تغرير الأعداء، لأن العدو داهية محتال. فهو يدَّعي الكسرة ويتصنَّع الانغلاب أمامك لكي تثق بنفسك فتقع في ضلالة أشر! ولكن على أي حال فإن العدو ـ خزاه الله ـ لا يحتمل الوقوف لحظة واحدة أمام الدعاء باسم يسوع أو يجرؤ أن يقترب من الإنسان طالما هذا الاسم في فمه.

حزقيوس الأورشليمي

٧٨٤ . الصلاة التي بدون تشتُّت (طياشة) هي الصلاة التي تهيِّئ للنفس دوام الفكر في الله مع استمرار تذكره.

٧٨٥ . يجب ألا نسمح لفكرنا في الصلاة أن ينشغل في أي شيء خلاف كلام الصلاة. ولا نسمح لأي شيء أن يزحزح عقلنا أو يبعده عن الوقوف أمام الله.

مار إسحق السرياني

٧٨٦ . داوم الجهاد مع الفكر وكلما شرد منك هنا وهناك رُدَّه واجمعه، والله لا يتطلَّب من الذين لا زالوا تحت الطاعة أن يقدموا صلاة خالية من كل شرود أو تشتُّت. فلا تيأس حينما ينخطف منك الفكر ويشرد

بعيداً بل اثبت هادئاً واستَدْعِه بإلحاح وبلا انقطاع ليعود إلى ذاته... أما انتباه العقل التام الذي لا ينقطع قط عن تمجيد الله هو يليق بالملائكة فقط.

الأب يوحنا الدرجي

٧٨٧. حينما تتلو صلواتك وبالأخص إذا كان لك قانون صلاة تبع كتاب (أجبية)، فلا تُسرع من كلمة إلى أخرى دون أن تشعر بحقيقة معناها وتودعها قلبك، ولكن جاهد على الدوام لتتجسس بقلبك حقيقة معاني الكلمات التي تخرج من فمك. اعلم أن قلبك سيقاوم هذا بشدة ويضغط عليك بالكسل والتراخي ويغمرك بإحساس بليد لما تتلوه. وأحياناً يسوق إليك الشكُّ عدم تصديق مواعيد الله المكتوبة. وأحياناً يضيِّق عليك فيفصل عقلك عن ما يتلوه فمك ويجعله يطيش في أمور أرضية واهتمامات باطلة، وأحياناً بتذكار محزنات وقعت عليك من القريب ثم بشعور كراهية نحوه، ثم يوحي إليك بطريق للانتقام، وأحياناً يستحضر في ذهنك صور مسرات وملاهي العالم. فاصْحُ لذاتك ولا تنخدع واضبط فكر قلبك كما في قبضة يدك، وقم قدِّمه لله بشجاعة كذبيحة مقبولة مردِّداً أمر الرب: «يا ابني اعطني قلبك» (أم ٢٣: ٢٦)، وحينئذ ترى أن صلاتك قدَّمتْكَ لله وربطتك بالسماء، فتمتلئ بالروح وبأثمار الروح التي هي الفرح والسلام والوداعة وطول الأناة.

هل تريد أن تُنهي قانون صلاتك عاجلاً لكي تعطي جسدك راحة؟ صلِّ بحرارة فتنام في أعظم حالة من راحة النفس وسلامة الضمير بل وهدوء وصحة.

لا تتسرع وتتلو صلاتك كيفما اتفق، فنصف ساعة صلاة حارة تعطيك الليل كله نوماً هادئاً جميلاً.

هل تتسرع لكي تلحق بمواعيد عملك أو خدمتك؟

إستيقظ مبكراً قليلاً ولا تتمادى في نومك. واعطِ فُسحة لصلاة طويلة قبل عملك فتحصل على نشاط وسلام في عملك جميعه.

هل يلحُّ عليك قلبك لتترك الصلاة من أجل أمر عالمي باطل؟ أقمعه وشُدْ عليه، ولا تجعل كنزك في الأرضيات، واصرف اهتمامك كله فيما سيدوم ويبقى لك في السماء.

علِّم قلبك كيف يرتبط بالله وينفكُّ من العالم، خصوصاً في أوقات صلاتك، حتى يترك الانشغال بالناس والأشياء ويلتفت إلى الله، فلا تلبس الخزي في يوم مرضك أو ساعة بليتك أو في يوم مماتك، مثل ذلك الغني الغبي الذي ملأ نفسه وقلبه من أباطيل العالم وعاش ومات فقيراً في حبه ورجائه وإيمانه بالله!

إذا لم تصلِّ كما قلتُ لك فأنت لن تنجح لا في حياتك الأرضية ولا في معرفتك الروحية.

٧٨٨. أثناء تلاوة صلاتك يقف العدو ليعض على كلماتك حتى تخرج محرَّفة أو مغلوطة. إنتبه وقل هذا: «قوة المخلِّص في كل كلمة وفي كل صوت». وانطق كلامك بشجاعة وبتؤدة.

٧٨٩ . انتباه القلب وقدرته على تفهُّم معاني كلمات الصلاة والتأمل فيها يخمد تدريجياً عند الذين يعتادون الصلاة السريعة بلا حرارة. حتى أنهم ينطبق عليهم قول المخلِّص: «مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يفهموم» (لو ٨: ١٠).

٧٩٠ . ألا يمكن أن نصلي بسرعة دون أن نسيء إلى الصلاة أو نفقد بركتها؟ يمكن الصلاة بسرعة ولكن لهؤلاء الذين تعلموا أن يصلُّوا داخلياً بقلب نقي. لأنه أثناء الصلاة يلزم أن تكون مشتاقاً بإخلاص لما تقوله وأن تكون شاعراً بمعاني الكلام ومتأثراً بالسؤال والطلبة. وهذا يتأتى طبيعياً للقلب النقي المتفرغ للصلاة بالحق، وهذا هو السبب في أن القلب النقي كفؤ حتى للصلاة بسرعة، ومع ذلك تكون مرضية عند الله أيضاً. فالسرعة في هذه الحالة لا تسيء إلى حقيقة الصلاة أو تنقص من الأثر المطلوب منها. إلا أن هؤلاء الذين لم يصلوا بعد إلى القدرة على الصلاة بإخلاص يلزم أن يصلُّوا بتؤدة، يتسمَّعون من القلب صدى كل كلمة عساها تحمل رسالة جديدة لحياتهم؛ يقفون عند كل معنى جديد ويتدربون على الوقفات القصيرة حتى يتلقى فيها القلب رَجْعَ الصدى لكل كلمة.

٧٩١ . ليتك تقتنع جداً أن كل كلمة وبالأخص التي تلفظها في الصلاة هي ذات قيمة حقيقية، متذكراً على الدوام أن واضع الكلمة هو الله الكلمة! لذلك لم يُكتَب كلام الله جزافاً بل كل كلمة فيها قوة روحية داخلها: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة!!!» (يو ٦: ٦٣). لذا شدَّد الله على المتكلمين بالباطل «كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» (مت ١٢: ٣٦).

٧٩٢ . حينما نقف لنصلي يجب أن نُخضِع قلبنا لإرادتنا ونقدمه إلى الله بكل يقظة وحفظ، فلا يميل منا إلى البرودة والشرود في الأفكار الباطلة، أو يعود إلى مسراته الأرضية. فما الفائدة من صلاتنا؟ هل نريد أن نسمع صوت غضب الله: «هذا الشعب يكرمني بشفتيه أما قلبه فمبتعد عني» (مت ١٥: ٨)؟ ليتنا لا نقف في الكنيسة بأرواح خائرة بل يجب أن نُشغِل أرواحنا في خدمة الله.

لأن الشعب يفتر وتبرد روحه عندما يرى الإكليروس يصلي بفتور وعدم غيرة كأنه يقدم شيئاً من وحي العادة.

والله طالبٌ قلوبنا، أي مركز حرارتنا وغيرتنا بل مركز كل حيويتنا، فمن لا يصلي من قلبه لم يصلِّ البتة، بل تكون صلاته حركات جسدية وكلاماً فقط. والجسد بدون عقل ليس هو أكثر من تراب!

الأب يوحنا (ك.)

٧٩٣ . انتباه العقل وضبط الفكر يهيئان للصلاة بلا انقطاع، والصلاة بلا انقطاع تشدد الانتباه وتساعد في تكوين أقصى جمع للفكر.

حزقيوس الأورشليمي

٧٩٤ . إذا وقفنا للصلاة برزت لنا أفكار كثيرة، أشنعها فكر التجديف الذي لا يستطيع الإنسان في كثير من الأوقات أن يبوح به، فلذلك شاخ هذا الفكر مع أناس كثيرين. فإذا استكملنا الصلاة ذهب الفكر المارد إلى حاله.

ومعروف أن هذا الفكر يحارب من يحاربه، حتى أن هذا الشقي يفتري على الطبيعة الإلهية، ويتكلم فينا بكلام أشد قباحةً وافتراءً لكي نهمل صلاتنا ونيأس من أنفسنا ونمتنع عن التقدم للأسرار المقدسة، ومن شدة ضغط هذه الأفكار تذوب أجسام الناس من الغم ويشككهم في عبادتهم.

فمن يؤذيه هذا الروح الشرير ويشاء أن يتخلَّص منه، فليضع في نفسه أول كل شيء أن نفسه ليست هي علة هذه الأفكار وأنه ليس هو المتكلم بكلام هذه التجاديف والأفكار الخبيثة بل هي من صنع الشيطان مباشرةً.

ذلك النجس الوقح الذي تقدم للرب يسوع المسيح تبارك اسمه وقال له بوقاحة وجه: «أُعطيك ممالك العالم إذا خررتَ وسجدتَ لي»!

وقد علَّمنا السيد الرب كيف نرد عليه قائلين: «اذهب يا شيطان لأنه مكتوبٌ للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد». ليرجع تجديفك على رأسك ويرتد سخطك على هامتك. «لينتهرك الرب يا شيطان» (يه ١: ٩).

ونقول إن الذين ينتصب الشيطان لمحاربتهم بأفكار التجاديف لا يكون من ترفُّعهم وتعظُّمهم بل من الشيطان. ويليق بهم أن يزدروا به ولا يلتفتوا إلى محاربته لئلا يشتد عليهم ويورد عليهم أفكار افتراء وتجاديف أكثر فأكثر.

وقد حدثني راهب قديس متمكن من الفضيلة جداً أنه ظل يعاني من حرب الشيطان بأفكار التجاديف عشرين سنة، حتى أن هذا الراهب المجاهد أذاب جسده بكثرة الأصوام والسهر ولكن لم ينتفع شيئاً البتة، فذهب وكتب هذه الأفكار في ورقة من شدة خجله وقدمها لرجل قديس وجثا أمامه طريحاً على وجهه. ولما قرأها ذلك الشيخ ابتسم وأقام الأخ وقال له: ضع يا ولدي يدك على عنقي، فصنع الراهب كما قال له الشيخ، ثم قال الشيخ: هذه الخطية يا ابني على عنقي وما فعَلَته فيك هذه العشرين سنة، فلا تعُد تعطيها بالاً ولا فكراً ولا همّاً. وقد قابلت هذا الأخ وقصَّ عليَّ خبره بنفسه وقال لي: إني ما خرجت من قلاية هذا الشيخ إلا وأنا أشعر أني ارتحت من هذا الفكر والداء الذي ظل يصارعني وأصارعه عشرين سنة. ورأيته شاكراً الله كثيراً.

٧٩٥ . عدم الحس وبرودة النفس أثناء الصلاة هو بسبب زوال الخوف من النفس ومن كثرة التواني والكسل، ويؤول بالإنسان إلى نسيان خطاياه وموت همَّته من جهة الصلاة، ويبدد الخشوع.

ومن يتأصل في برودة النفس وبلادة الحس تجده في كلامه يقاوم نفسه: فكأعمى يعلِّم غيره، ويخاطب الناس في المحافظة على الجروح، وفي أثناء كلامه لا يكفّ عن حكِّ جرحه بأظافره. يتكلم عن الصوم وإمساك البطن ويجاهد في أكل كل ما يقابله. يقرأ في المحاكمة والدينونة الرهيبة ولا يكف عن الضحك. يحث الناس على اجتناب الكبرياء ويتكبر هو بتعليمه! يتكلم عن أصول السهر وفي الحال يغوص هو في نوم عميق. يمدح الصلاة ويهرب منها كهارب من السوط! يطوِّب الطاعة وهو أول العاصين. إذا شبع ندم، وبعد قليل يقوم ليأكل. يعلِّم فضل الوداعة ويغتاظ أثناء تعليمه! إذا فاق إلى نفسه يتحسَّر ولكنه يزداد تشبُّثاً بدائه. يذم ذاته في حضرة الناس لكي يكتسب بمذمته شرفاً لذاته، بينما هو في وسط العالم يعلِّم بمحبة الهدوء والصمت ويطوِّب الذين آثروا الوحدة والاعتزال وما يفطن أنه بكلامه يدين نفسه ويُخزي ذاته.

هؤلاء هم الذين ماتت نفوسهم وعقولهم قبل أن تموت أجسادهم!

هؤلاء إذا وقفوا في الصلاة صارت قلوبهم كحجر لا يؤثر فيها سيف الكلمة ذو الحدين!

٧٩٦ . الفكر اليقظ الشجاع هو صديق رجل الهدوء والصمت، يقف عند قلبه الصامت بغير نعاس، إما أن يقتل ما يقترب إليه وإما أن يطرده في همَّة وشجاعة. ومن ذاق الصمت يعرف قيمة يقظة الفكر.

والصامت اليقظ الفكر لا يحتاج إلى أقوال كثيرة لأن أعماله تنيره، ... وهو الذي يصح أن يقول عن نفسه إنه نائم وقلبه متيقظ.

٧٩٧ . الذين تعلَّموا كيف يصلُّون بعقول صاحية، هؤلاء يكلمون ربنا وقوفاً بحضرته كمن يكلم الملك في أذنه؛ والذين يصلُّون بلسانهم كمن يتوسلون إلى الملك خارجاً، من وسط ألوف الشعب والرعية.

٧٩٨ . من يريد أن يرصد عقله ويضبط أفكاره، يكون كالرقيب يسهر ليعرف من هم السُرَّاق وكيف يدخلون وكيف يسرقون عناقيد الثمر ومتى يأتون. يلزم للرقيب الهدوء والسهر والشجاعة وعدم الضجر ودوام الصلاة، وألا يستريح حتى يضبط السارق.

٧٩٩ . القراءة تضيء العقل وتجمعه ليس جمعاً يسيراً، لأنها أقوال الروح القدس، فهي تقوِّم الذين يتلونها خصوصاً متى كانوا يتلونها بفهم وعمل.

٨٠٠ . صُنْ لسانك بعد خروجك من بيت صلاتك، فإنه من عادته أن يجدد عليك أتعاباً كثيرة بأكثر سرعة.

٨٠١ . لا تُكثر أقوالك في الصلاة لكي لا يتشتت عقلك؛ وها كلمة واحدة من العشار جعلته ينزل مبرَّراً إلى بيته؛ وكلمة واحدة بإيمان من اللص أدخلته الفردوس، لأن كثرة الكلام في الصلاة تبدد الفكر. فإذا صادفك فكر أو قول يجذبك إلى الخشوع فدُمْ فيه، لأنه يكون من إرشاد روح النعمة.

٨٠٢ . جاهد أن تحفظ همَّة عقلك في ألفاظ صلاتك. ومتى شرد منك عقلك بسبب طفولتك الروحية فاجذبه إلى الصلاة واطلب من ضابط الكل أن يضبطه معك إليه.

٨٠٣ . ابتداء الصلاة: هواجس كثيرة وعِراك مع الفكر وطرد الأفكار الغريبة، وتوسُّط التقدم في الصلاة: تمييز أفهام المعاني التي نقولها، وتمام الصلاة: إختطاف العقل إلى ربنا والإبتهاج الكامل بالله، وهذا من نصيب المقيمين في الرفقة الرهبانية.

٨٠٤ . صلاة الراهب مرآته، فمهما كان العمل الذي بيديه إذا أتى وقت الصلاة ويشتغل به عنها فهذا تهزأ به الشياطين، لأن غرض الشيطان لا أن يسرقنا دفعة واحدة بل مرة بعد مرة.

٨٠٥ . كل عقل يُطالَب وقت الصلاة بالقوة التي أخذها من الله، فيجب أن نتيقظ لأنفسنا بكل قوتنا.

٨٠٦ . اغتصاب الماء من فم العطشان صعب؛ وأصعب منه منع النفس الممتلئة خشوعاً من وقوفها في الصلاة. لأن الصلاة محبوبة عندها ومفضَّلة على كل عمل آخر.

٨٠٧ . كما أنه يكون مرفوضاً عند الملك الأرضي من يكون واقفاً بحضرته ويحوِّل وجهه عنه ليتحدث مع أعدائه، هكذا ربنا يرفض من يكون واقفاً في صلاته وهو منهمك بأفكار خبيثة.

الأب يوحنا الدرجي

٨٠٨ . من يدور عقله أثناء الصلاة ولا يلتفت إلى أقوال الصلاة لا يأخذ مسألته بل ويحلُّ عليه غضب الله. بقدر قوتك اضبط فكرك واجتهد لئلا تصير صلاتك خطية.

فإذا كنتَ في الابتداء لا تقدر أن تصلي بغير تشتُّت عقل، فاغصب نفسك حسب طاقتك وابذل كل قوتك في أن تجمع عقلك في الصلاة، فإذا رأى الرب أنه لا تتوانى أو تتهاون أو تزدري بالصلاة فمن أجل ضعفك يعطيك كيف ينبغي أن تقف أمامه.

٨٠٩ . سُئل القديس باسيليوس الكبير كيف يستطيع الإنسان وقت الصلاة أن لا تتشتت أفكاره؟

أجاب:

إذا تيقَّن أن الله دائماً في كل مكان وأنه أمام عينيه. وكما لو كان واقفاً قدام ملك أرضي ولا يستجرئ أن يميل بنظره إلى أحد غيره ويكلمه في حضرته، بل يبقى ناظراً إلى جهته منصتاً لما عساه يقوله له هكذا أمام الله لأنه فاحص القلوب، فواجب أن لا يميل الإنسان بفكر قلبه عنه إلى شيء آخر.

باسيليوس الكبير

٨١٠ . لا يُستطاع ضبط الفكر في الصلاة بدون الاحتراس الكثير في الكلام والأعمال وحفظ الحواس على الدوام.

٨١١ . لا تطلب من البدء أن تكون صلاتك بلا تشتُّت فتتوقف عن الصلاة حتى تنقِّي أفكارك، بل داوم على الصلاة ومن كثرة المداومة والتعب في الصلاة تتنقَّى أفكارك وتبعد عنك الأفكار.

٨١٢ . إذا صمَّمت أن لا تصلي حتى تبتعد عنك الأفكار فلن تصلي أبداً، لأن الأفكار تضعف وتتلاشى من كثرة الصلاة ذاتها. ومن يطلب الكمال من قبل العمل والتعب لن ينال شيئاً.

٨١٣ . وإذا كنت تريد أن تهدأ أفكارك وقت الصلاة، وتجد فرصة للصلاة النقية، ابتعد عن الماديات وشهوتها والاهتمام بأمور العالم والطموح في نوالها. فكلما هدأت فيك حركة العالم وزهدت فيها، وَجَدَتْ الصلاة فيك مكاناً.

٨١٤ . لسنا نُدان من أجل تحرُّك الأفكار فينا، بل على العكس ننال نعمة إذا احتملناها و لم نوافقها وقاومناها بكل إرادتنا، فإذا تلذذنا بالأفكار الردية وأعطيناها وقتاً وقبولاً في فكرنا نُدان من أجلها.

٨١٥ . اعمل ما أقوله لك: كل وقت تبتدئ الشياطين أن تحرك في قلبك فكراً شهوانياً أو غضباً أو مجداً عالمياً، لا توافقهم لا بالفكر ولا بالعمل ولا تدع الأفكار تدخل قلبك ليتلذذ بها، بل اطردها واذكر السعادة المعدَّة لك باحتمالك وصبرك، وانتهر هذه اللذة الضارة واقفل قلبك وفكرك من هذه الأفكار الشيطانية. واغصب نفسك للهروب من لذة الخطية، منتقلاً بشهوتك لحب الله، طالباً منه العون والنصرة. فمتى نظر الله إرادتك أنه حتى ولا بفكرك تريد أن تتلذذ بالخطية من أجل محبتك وخوفك له، يشير إلى الملاك الحارس لك فيطرد عنك الشياطين المقاتلة فيفرُّون كالغبار قدام الرياح العاصفة. وعوض الأفكار الشريرة الكثيرة التي تضنك نفسك يملأك أفكاراً روحانية، ويُبهج قلبك كل حين بالتأمل في الله وفي طبيعة الثالوث الأقدس وفي حب المسيح وفي ترتيب الملائكة وذكر الفردوس وأرواح الصديقين الذين انتقلوا.

٨١٦ . الله لا يطلب من الإنسان أن لا تجوز في نفسه أفكار قط إذا ما صلَّى، بل يطلب منه أن لا يلتفت إليها أو يتلذذ بها. وأنت، أيها الأخ، لا تطمع أن لا يتشتت فكرك قط ولكن انقله من فكر الشر إلى فكر الخير. فإذا انشغل فكرك في أمور الله، هذا أعلى درجة من الصلاة، ولكن لا يدوم الفكر في التأمل بالله إلا من كثرة المداومة في الصلاة.

٨١٧ . الله لا يتخلَّى عنا بسبب أفكارنا الردية وتشتُّتنا في الصلاة إلا إذا داومنا الفكر فيها. لأن الحركة الفكرية التي ليست بإرادتنا نحن لا نُحاسَب عليها، حتى وإن مال إليها الفكر بعضاً من الوقت ورجع وحزن وندم على تفريطه وغفْلته لا يُعاقَب عليها. أما إذا قبلها العقل وداوم عليها و لم يتخلَّ عنها، يُحاسَب ويُدان من أجلها.

٨١٨ . طوبى لمن كان حاضر الذهن عندما يصلي أو يخدم!

طوبى لمن درَّب ذهنه على الهذيذ في الكتب وتأمل في أقوالها بفهم!

٨١٩ . ألا تفهم أيها الإنسان الشقي أمام من أنت واقف تصلي؟ ألعلك لم تسمع عن غيرة رب الجنود وكم هو شديد في غضبه على الذين يتقدمون إليه برخاوة وإهمال، أو بجرأة وهم مملوءون إثماً وخطية، إنه لا يرجع عن سخطه ولو سألته كثيراً!!

٨٢٠ . عقل كثير التشتت في الشر لا يخلو من النسيان، والحكمة لا تفتح بابها لمثل هذا!

٨٢١ . لا يُستطاع قهر العلل النفسية إلا بجهاد الفضيلة؛ وأما طياشة (تشتت) العقل فليس أحد يتغلب عليها إلا بمحبة المعرفة الروحانية.

٨٢٢ . من لم يُخضِع جسده لا يقوى على إخضاع فكره. فإن أردت أن تملك زمام أفكارك فاصلب جسدك.

٨٢٣ . من لم يستطع أن يُخضِع نفسه وفكره لإرادته لا يستطيع أن يُخضِع ذاته لله.

٨٢٤ . الإنسان الذي يلوم نفسه ويضع أخطاء الآخرين على نفسه، ويغصب ذاته ويقوّم عثراته وزلاته يؤهَّل لحرية الفكر في الله وينعتق من تشتت الفكر.

٨٢٥ . الفكر الذي يتولد من الظنون والأخبار والحكايات وسير الآخرين أن فلاناً طيب وفلاناً شرير، وقال فلان وقول فلان، ويحب سماع أخبار الناس ويتلهف على الأخبار من بعيد؛ لا يُعتَق من الغيرة والحسد والاضطراب وتكدُّر الضمير ولا يؤهَّل قط لطهارة الضمير أو ضبط الأفكار.

مار إسحق السرياني

٨٢٦ . اجعلوا هذا الجسد الذي أنتم لابسونه مجمرة تحرقون فيها جميع أفكاركم وظنونكم الردية، وتقدمون ذواتكم للرب ليرفع قلوبكم إليه، وبسلطة العقل النقي تطلبون منه أن يُنعِم عليكم بإتيان ناره العلوية غير المادية لتحرق ما في المجمرة وتطهرها. وحينئذ تنظرون إنسانكم الجديد وهو خارج من الماء من الينبوع الإلهي.

أبا أنطونيوس الكبير

٨٢٧ . على الإنسان أن يداوم الجهاد والحرب مع أفكاره، لأن الرب يطلب منك أن تغصب نفسك لكي لا ترتضي بالأفكار الشريرة ولا توافقها. أما استئصال الخطية فلا يتم إلا بالقوة الإلهية.

٨٢٨ . أساس الصلاة الصحيح هو أن نضبط أفكارنا، لأنه يقتضي أن يكون حرص الإنسان كله على أفكاره وقت الصلاة، لقطع كل الظنون والوساوس الخبيثة، ولا يتبع هوى أفكاره بل يردها ويميز بين الأفكار الطبيعية والأفكار الشريرة.

٨٢٩ . هكذا في أيام إسرائيل لما كانت عقولهم وأفكارهم مائلة إلى العصيان على الله الحي وإلى الرجوع

إلى الأصنام، أُلزِم هارون أن يقول لهم أن يأتوا بأوعيتهم وحليِّهم الذهب؛ فلما طرحوها في النار صارت صنماً، فكأن النار صورت نيتهم وأفكارهم!! (خر ٣٢: ٢٤). وكان ذلك أمراً عجيباً لأنهم لما طلبوا بأفكارهم الصنمية صنماً صيَّرت النار الأواني التي أُلقيت فيها صنماً، وبعد ذلك لم يقصِّروا في عبادة الأوثان جهراً!!

أما الفتية الثلاثة فلما كانت أفكارهم متعلقة بالبر صارت لهم النار مكاناً للعبادة والتسبيح وحلول ابن الله في وسطهم!

٨٣٠ . حيث يكون الكنز هناك يكون القلب أيضاً. والشيطان يريد أن يربط قلوبنا بالأرض؛ أما الرب فيود أن نرفض أفكار الأرض والتعلق بها جميعاً حتى نستطيع أن نطلب خيرات السماء ولو كان ذلك ضد ميلنا الطبيعي. وقد أمرنا أن نصير فقراء ونبيع كل ما لنا، حتى إذا رجعت قلوبنا إلى شهوة الأرضيات لا يكون لها شيء. إذن فعلينا أن نفحص قلوبنا ونضبط أفكارنا عالمين أنه ليس لنا على الأرض شيء وكنزنا الحقيقي إنما هو في السماء.

٨٣١ . فعليك، إذن، بالصلاة. وافحص قلبك وضميرك، واشتهِ أن تكون صلاتك نقية. واحذر أن يعترضها ما يخلُّ بها بل اجعلها نقية، واربطها بالله كما يربط الفلاح عقله في فلاحته والتاجر عقله في تجارته، ولا يتشتت عقلك إذا ما جثوت للصلاة.

أبا مكاريوس الكبير

ملخص المبادئ الهامة:

(١) العقل مسئول عن شرود الفكر، فيجب تدريبه لكي يكون رقيباً على الأفكار.

(٢) الصلاة بعقل مشتت في الأمور الجسدية تُعتبر خطية.

(٣) الصلاة بعقل مشتت تكون فرحاً للشياطين.

(٤) تشتُّت الفكر أثناء الصلاة هو من حيل العدو ليحرمنا من قوة الصلاة.

(٥) وقوفنا في الصلاة هو وجود في حضرة الله، فشرود الفكر يُعتبر ازدراءً بهيبة الله والخروج من لدنه.

(٦) كثرة الحديث مع الله يدربنا على ضبط الفكر في الله.

(٧) المداومة على الصلاة تُعتبر أهم وسيلة لضبط الفكر.

(٨) علينا بالجهاد في الصلاة حتى بعد أن نكون قد بلغنا حد ضبط الفكر.

(٩) كثرة القراءة في الكتب الروحية تساعد على ضبط الفكر أثناء الصلاة.

(١٠) علامة الوصول إلى درجة الصلاة النقية هو أن يشعر الإنسان بفرح وغبطة أثناء الصلاة، وأن يُسرَّ عند حلول ميعادها.

(١١) قوة الصلاة في معاني كلماتها. إجعل عقلك يلازم معاني الكلمات التي تتلوها.

(١٢) اهتمام الفكر بمعاني الكلمات في الصلاة ودوام التصاقه بها، هو بدء الدخول في درجات الصلاة العليا.

(١٣) إن فضيلة حضور الذهن في حضرة الله على الدوام يمكن التدريب عليها باستعمال صلاة قصيرة تناسب الحالة، ومحاسبة العقل على شروده.

(١٤) الصلاة النقية التي بدون شرود الفكر لا يمكن الحصول عليها بسرعة، فهي تحتاج إلى صبر وجهاد، فلا تملّ ولا تيأس.

(١٥) لا تستعجل في صلاتك من أجل ميعاد أو عمل أو حديث، بل اجعل لصلاتك كرامة أكثر من كل عمل. وحاول أن تُخلي نفسك تماماً من كل اهتمام إذا وقفت للصلاة.

(١٦) السرعة في الصلاة مدعاة لبرودة القلب وتشتت الفكر. اعلم أن كل كلمة من كلمات الصلاة هي روح وحياة.

(١٧) إحذر أن يقع عليك إنذار المسيح: «هذا الشعب يكرمني بشفتيه أما قلبه فمبتعد عني بعيداً» (مت ١٥: ٨)، وخصوصاً أثناء وقوفنا بالكنيسة.

(١٨) أفكار الشكوك والتجاديف التي تعرض لنا هي ليست منا ولكن هي من عمل إبليس لكي يبلبل أفكارنا ويُضغطنا بالحزن على أنفسنا، فلا تهتم بها ولا تحزن من أجلها.

(١٩) التدقيق في الحديث مع الناس وعدم الضحك وحفظ اللسان من العثرات والأمانة في تأدية الواجبات الدينية خير معين للصلاة النقية.

(٢٠) الخلوة والصمت عاملان ضروريان للتدريب على الصلاة الحارة.

(٢١) لا تُكثِر الكلام في الصلاة، ولا تُخرِج الكلمات جزافاً، لأن ذلك يُنهي الصلاة بسرعة ويحرم الإنسان من لذة استماع صوت الله.

(٢٢) مجرد عبور الأفكار علينا لا يُعتبر خطية، ولكن الخطية هي أن ندوم في هذه الأفكار ونتلذذ بها.

(٢٣) الإقتصاد في الأناقة والتدريب على التجرُّد وعدم الاقتناء ينفع جداً لربط القلب والفكر بالله، لأنه حيث يكون الكنز هناك يكون القلب أيضاً.

(٢٤) الرضى بالواقع وعدم الطموح مدعاةٌ لهدوء النفس والتسليم لله.

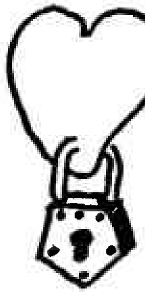

الفصل السابع

الصمت المقدس

+ «جيد للرجل أن يحمل النير في صباه، يجلس وحده ويسكت»

(مراثي ٣: ٢٧ و ٢٨).

+ «سكون النفس هو أحد أسرار الحياة الآتية»

(مار إسحق السرياني)

إذا ألقينا نظرةً فاحصة متسعة على حياتنا، لأدركنا مقدار الجذب الذي نعانيه رغماً عنا لمسايرة الناس في تمسكهم بأمور هذا العالم الزائلة.

عجيب حقاً أن نرى خطأ الناس واضحاً في سلوكهم هذا، ولا نكفُّ نحن عن مسايرة هذا الخطأ بعينه، بل نتمادى في الزج بأنفسنا في وسط موكب البشرية الصاخب كأنما مسَّنا نوع من جنون الحياة، ولا نحاول أن نستخلص أنفسنا من وسط هذا التيار الجارف، بل على النقيض نحاول أن نسرع في طريقنا وندعو الآخرين أيضاً ليشاركونا في ذلك السير المبهم نحو المصير المجهول.

ولعلك أيها القارئ هو من أقصده بالذات، ويستوي عندي أكنتَ راهباً أو كاهناً أو خادماً أو مخدوماً، لأني لا أتكلم عن الإنسان حسب الظاهر، بل أخاطب نفسك عاريةً عن كل هذه المظاهر الزائلة: ما هو مقدار الثمر الروحي الذي أتيت به كغصن في الكرمة؟

لا تقل إني واظبتُ على كنيستك وأقمت لك الذبائح كل يوم وقدمت لك البخور كل مساء وكل صباح، لئلا تسمع تعنيف القول: «لماذا لي كثرة ذبائحكم؟ البخور هو مكرهة لي» (إش ١: ١١ و ١٣)!! «لأنه لِعلَّةٍ تطيلون صلواتكم» (مت ٢٣: ١٤)!!

هذه كلها ليست ثماراً ... إنها أوراق خضراء وجميلة لازمة لنا إلى حين، ولكنها ستجف يوماً وتتركنا في خريف الحياة عراةً.

نفسك أيها الحبيب هي الغصن، والثمرة التي يفتش فيها الكرَّام هي مقدار نمو نفسك في النعمة وترقيتك في مدارك الحياة الروحية. فانظر جيداً وفتش عن ثمارك، لئلا يكون تعب الكرمة فيك باطلاً، واستخدامك للعصارة لم يأتِ بثمر، فتكون نهايتك للقطع والحريق.

إن أردت أن تعرف ثمارك فادخل مخدعك واغلق بابك واجلس صامتاً مصلياً وافحص أعماق نفسك، وحينئذ سوف تدرك مقدار عريك وخزيك وأنك لست غنياً كما كنت تتوهم

بل أنت الفقير الشقي العريان!!

سوف ترى غصن حياتك التي هي نفسك فارغة من كل ثمر الروح، وأما أعمالك وخدماتك التي ملأت الجو بها صياحاً فسوف تظهر أمامك كخرقة مدنسة.

حينما تخلو إلى الله تماماً، حينما تجلس في حضرته صامتاً صمتاً مقدساً، ترى صورتك في مرآة الله! وتكتشف قبح منظرك وأنك لست تشبهه في شيء.

ومن فرط حنان الله عليك، لا يريك كل خزيك وعريك مرة واحدة، لئلا تُبتَلع نفسك من فرط الحزن. وإنما يكشف لك الرب قليلاً قليلاً صفحات من قضايا زناك وكبريائك وغضبك وتمردك وسرقتك ونميمتك وحسدك وغيرتك؛ ويريك أنها لا زالت قائمة ضدك إنما تحت الحفظ مختومة بدم يسوع المسيح في انتظار توبة صادقة وعهد مقدس.

إن اكتشاف الإنسان لخطاياه نعمة كبرى لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى الشفاء منها.

في الصمت سوف ترى عيوبك وخطاياك واضحة تتقدمك للقضاء.

في الصمت أيضاً ستجد فرصةً للتوسل والبكاء لتغسل بدموعك قذر أعمالك. فإنك لا تخرج من لدن الله إلا وقد أُعطيت كل مرة زوفا جديدة تغسل بها نفسك حتى تبيض جداً أكثر من الثلج.

ولكن لا تحسبنَّ أن الابتعاد عن الناس فقط خلوة، أو الدخول إلى المخدع المغلق هو الصمت ... كلا، فالخلوة تكون في القلب أولاً والصمت يبدأ من العقل قبل الفم. الإنسان الذي دخل إلى الخلوة قد أفرغ قلبه من كل شيء: من الفرح ومن الحزن، من الأمل ومن اليأس، من الحب ومن البغضة، قد أهمل كل اهتمام وكل تفكير وسلَّم كل شيء كمن استعد لدخول القبر.

ليس في الخلوة والصمت نصيب لنشاط الجسد، فهي مجال للنفس المحبوسة لتنطلق منفردة وتباشر نشاطها.

في بدء التمرين على الخلوة سيتململ الجسد ويثور العقل لأنهما سيشعران بظلمة القبر، حيث تكون النفس أيضاً لا تزال تعاني آلاماً وضيقاً في التحرر من سجن الجسد وظلمة حواسه. وهكذا ربما يواجه المختلي بعض الضيق في بدء الخلوة، ولكن هذه هي النقطة الحرجة

التي تحتاج إلى صبر وإيمان. وليس عسيراً على النفس اجتيازها، إذ أنها تشعر أن النور قريب وأن وراء ظلمة القبر مجد القيامة.

والخلوة ليس فترة نقضيها في هدوء بعيداً عن الناس ثم تنقضي، فنعود إلى سابق عهدنا بثرثرة الكلام والنقاش والمجادلات والضحك والتحدث في السياسة وقراءة الجرائد ودينونة الآخرين. إن الخروج من الخلوة هو بمثابة القيامة من القبر تحتاج فيها النفس إلى هدوء واحتراس وصمت والبعد عن الناس بقدر الإمكان «لا تلمسيني» (يو ٢٠: ١٧)، ولكن لا تحتاج إلى كبرياء وترفُّع أو الإزدراء بالآخرين: «جِسُّوني وانظروا ... وأكل قدامهم!!» (لو ٢٤: ٣٩ و ٤٣).

احفظ فكرك وحواسك ومشاعر قلبك نقية بقدر الإمكان وأنت بين الناس، حتى إذا دخلت إلى خلوتك سهل عليك الانطلاق والوجود في حضرة الله بلا خزي.

في بدء تدريبك في الخلوة لا تحاول أن تُجهِد حواسك للشعور بالقداسة أو محاولة رؤية شيء عن الله، لأنك بهذا سوف تُجهِد عقلك وجسدك بلا طائل، فالله لا يُرى بالجسد ولا يُدرَك بالحواس.

العمل الوحيد الذي تقوم به أثناء خلوتك هو أن لا تعمل شيئاً ... انتظر الله بهدوء ولا تسعى وراءه لا بالخيال ولا بالبحث عنه في الخليقة المنظورة لأن كل هذه المحاولات سوف تعطل انطلاق النفس والوجود في حضرة الله.

وإن كان هناك ثمة عمل يمكن أن يقوم به الإنسان فهو أن يتأمل في نفسه بانسحاق واتضاع كثير، بحزن وتألُّم على الخطايا التي سببت وجود هذه الحجب الكثيفة التي فصلت النفس عن الله. هذه المشاعر المتواضعة ربما تصلح لتمهيد الطريق لانطلاق النفس.

حينما تتدرب على الخلوة ستجد فيها فرصاً نادرة للوجود في حضرة الله وكشف النفس أمام خالقها لإصلاح كل عيب أو خطأ فيها، وإعدادها لحلوله المقدس العجيب، وبذلك يثبت الغصن في الكرمة ويؤهَّل لحمل الثمار التي لشجرة الحياة: «محبة . فرح . سلام . طول أناة . لطف . صلاح . إيمان . وداعة . تعفف.» (غل ٥: ٢٢ و ٢٣).

أقوال الآباء في الصمت المقدس:

٨٣٢ . قبل كل شيء يجب أن نلاحظ بكل اعتناء مبادئ الإنجيل التي ترشدنا إلى الصلاة المغبوطة: ندخل مخدعنا ونغلق بابنا ونصلي. ولكن كيف نتمم هذا الأمر عملياً؟ أليس بأن نعزل أفكار العالم والاهتمامات الباطلة وندخل في عِشرة ملتصقة بالرب! وما معنى الأبواب المغلقة في الصلاة؟ أليس هو الهدوء والصمت الكامل المقدس والشفاه المغلقة المتخشعة أمام فاحص القلوب!

وما معنى الصلاة لله في الخفاء؟ أليس هو كتمان أمر سؤالنا وطلبتنا بحيث لا نكشفها إلا لله وحده!

لذلك يجب أن نصلي في صمت كامل لا لكي نتحاشى فقط التشويش على الإخوة الملازمين لنا وعدم إزعاجهم بتمتماتنا؛ بل ولكي نخفي أمر صلاتنا وسؤالنا عن أعدائنا بل وأقرب المقرَّبين إلينا وحينئذ نتمم الأمر: «إحفظ أبواب فمك عن المضطجعة في حضنك» (مي ٧: ٥).

الأب إسحق في حديثه مع كاسيان

٨٣٣ . الصمت هو كفُّ العقل عن الهمِّ بالعالم، نسيان ما هو أسفل، معرفة سرية بالأمور العلوية، ترك أفكار الحصول على ما هو أعلى منها. الصمت هو النشاط الحق، والسير الحثيث نحو الله، والصعود إليه بالتأمل.

والصمت هو العلامة الدالة على صحة النفس؛ والتأمل هو ثمرة هذه الصحة التي بها يصير الإنسان شريكاً لطبيعة الله الفائقة غير الملموسة.

الصمت هو تطهير القلب وإعداده للدخول في منطقة النور الإلهي غير المنطوق به الذي يفوق كل شعور وإحساس وتصوير.

٨٣٤ . والدة الإله اتحدت عقلياً بالله بدوام الصلاة والتأمل، وفتحت طريقاً نحو السماء جديداً سمت به فوق كل المبادئ والظنون الذي هو الصمت العقلي أو الصمت القلبي:

«وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها» (لو ٢: ١٩).

«وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها» (لو ٢: ٥١).

رأت عظمة الله في نعمة الألوهية وتلامست معها عن قرب دون أن يكون للخيال أو التصور أو الشعور دخلٌ في تحقيقها للاطلاع على أسرار ابنها العجيب ... كانت صامتة وظلت كذلك وتحدَّت كل ضعف البشرية فاستأهلت بذلك أن يتجسد منها إله العالم.

غريغوريوس پالاماس

٨٣٥ . بداية الصمت العزلة عن كل ضوضاء مزعجة للنفس ... ونهاية الصمت قلة الاكتراث بأي ضوضاء وعدم التأثر بها. فيخرج الإنسان ويدخل وكله دعة وحب دون كلمة يلفظها.

٨٣٦ . الرجل الصامت يحتفظ في نفسه بإلهامات سماوية.

٨٣٧ . مع الرجل الصامت تقف القوات السمائية لتشترك معه في التسبيح والعبادة بل وتتوق أن ترافقه على الدوام.

٨٣٨ . شعرة صغيرة تزعج العين، واهتمام صغير يفسد الصمت، لأن الصمت عدوُّه الأفكار والاهتمامات حتى التي تظهر أنها للخير.

لاحظتُ أثناء تلحين المزامير أن أحد الإخوة يقف بانسحاق وتخشُّع كبير أكثر من باقي الإخوة، وبالأخص عند بدء الصلاة، ويظهر كأنه يخاطب أحداً ما. فسألته أن يشرح لي معنى هذه العادة، ولما عرف أنه لا فائدة من إخفاء الأمر قال لي: يا أبي يوحنا عندي عادة أن أستجمع أفكاري وأستحضرها عند بدء الصلاة منادياً لها: «هيا تعالي لنعبد، هلمِّي إليَّ لنخر أمام المسيح إلهنا».

٨٣٩ . الصمت بمعرفة هو صلاة. الصمت يحفظ حرارة القلب ويدبر الأفكار ويرصد الأعداء. يُعلِّم الدموع. يذكِّر بالموت. الصمت هو نمو المعرفة ومهيِّئ الأفكار الروحانية.

٨٤٠ . الذي قد عرف مرارة سقطات اللسان يحذر من الكلام. أما كثير الكلام فلم يعرف نفسه بعد كما ينبغي.

الذي أحب السكون فقد اقترب من الله، وكلما اقترب إليه كلما استنار منه فزاد صمته.

أفضل للإنسان أن يسقط من مكان عالٍ على الأرض ولا يسقط من لسانه!!

٨٤١ . اغلق باب المخدع على الجسد، وباب الفم على اللسان، وباب القلب عن الشهوات والأفكار الكثيرة.

٨٤٢ . أُذُن الساكت تسمع من الله العجايب!

٨٤٣ . صاحب السكوت هو الذي يفرُّ من جميع الناس بغير بغضة.

الأب يوحنا الدرجي

٨٤٤ . بالصمت تحيا النفس وتستنير بنور مجد الله فترتفع من أمامها كل اهتمامات هذا العالم الزائلة. فتتحد بالله بغير إدراك.

إفهم أنت الآن أيها المفرَز أيهما تختار. افحص وانظر أي الطريقين تتبعه ليدوم معك إلى الأبد. أما إذا اخترت لنفسك طريق الحياة والنور فتمسَّك به بكل حذر في كل حين وفي كل مكان إلى أن تعبر إلى هناك.

الروح أشار لي خفياً أن حدود هذا الطريق هو الصمت. آه، مَن يعطي يميني سلطاناً لأكشف هذا السر بالأحرف المكتوبة للذين يتعذبون من أجل حب يسوع!

٨٤٥ . في خدمتي وصلاتي ما أعرف جهداً أو تعباً لأني لا أتحرك بهواي، بل أنا أنصت فقط وأستمع إلى الروح القدس فيَّ، فأشتعل حرارةً وحباً ... وهذا هو ما قيل إن الروح القدس يصلي فينا بأنَّاتٍ عجيبة لا يُنطَق بها!

٨٤٦ . إن كان لسانك متعوداً على كثرة الكلام فقلبك منطفئ من حركات الروح النيِّرة. أما إذا كان فمك ساكتاً بهدوء فقلبك يشتعل دوماً من حرارة الروح.

إن كنت تتكلم بلسانك وقلبك لا يتحرك بالصلاة، فكلامك هو خسارة.

سكِّت لسانك ليتكلم قلبك ... وسكِّت قلبك ليتكم الله!

الشيخ الروحاني

٨٤٧ . فالضرورة تُلجئ الذين يهتمون بخلاص أنفسهم ويتشوقون لمحبة ربنا ولتكميل وصاياه المقدسة، أن يتدربوا على السكوت كل واحد حسب قدرته.

٨٤٨ . ما وجدتُ غبطة في الفضائل مثل أن يهدأ الإنسان ويكفَّ عن جميع الأعمال ويصمت عن كل حديث. أما كمال هذا العمل فهو مخفى عن معرفة الكثيرين.

٨٤٩ . إذا انقطع الإنسان عن كثرة الحديث مع الناس، فهو يرجع إلى ذاته ويقوِّم بتدبير سيرته حسناً أمام الله.

٨٥٠ . السكوت يبرِّد حرارة الآلام الوحشية من القلب ويميت الشهوات الباطلة ويجدد العقل.

٨٥١ . صلاة واحدة يصلي بها الإنسان وحده، خير من مائة صلاة يصنعها مع الناس.

٨٥٢ . كل تدبير له تمهيد بتدبير يسبقه، فالصلاة لابد أن يسبقها خلوة، والخلوة رفض العالم.

٨٥٣ . كل إنسان لم يأخذ تجربة في السكون زماناً طويلاً لا ترجو أن تتعلم منه شيئاً عن الأمور المختصة بالملكوت ولو كان حكيماً ومعلماً وله كثرة أعمال.

٨٥٤ . قبل كل شيء نحن نكلف أنفسنا أن تهدأ وتسكت وحينئذ من السكوت تولد لنا رغبة تدفعنا إليه.

٨٥٥ . كل من هو كثير الكلام حتى ولو كان عالماً بأمور كثيرة، اعلم أنه فارغ من داخل.

٨٥٦ . إن كنت محباً للحق، كن محباً للصمت. فالصمت يجعلك تنير كالشمس وينقيك من عدم المعرفة.

٨٥٧ . اليوم الذي لا تجلس فيه ساعة مع نفسك وتفكر في أي شيء أخطأت وبأي أمر سقطت وتقوّم ذاتك لا تحسبه من عدد أيام حياتك.

٨٥٨ . أحب السكون يا أخي، لأن فيه حياة لنفسك. بالسكون ترى ذاتك، وخارجاً عن السكون ما ترى إلا ما هو خارج عنك. وما دمت تنظر غيرك فلن ترى نفسك.

هدِّئ حواسك الخارجية حتى يمكنك أن تهدِّئ الداخلية.

٨٥٩ . السكوت يُكسِب الحكمة ويجمع ملكات الفكر للمعرفة.

٨٦٠ . الأفضل لك أن تكون قليل الكلام مع أنك عالِم ومحنَّك وذو معرفة بتجربة الأشياء بداخلك، من أن تفيض أنهار تعاليم مع عقل مرتبك وحواس مضطربة.

٨٦١ . الفرق بين حكمة الروح وحكمة العقل أن الأولى تقودك إلى الصمت والثانية تدفعك إلى التبجُّح والملاججة. والصمت الحكيم يقودك إلى الاتضاع، أما التبجُّح والعناد فيقودك إلى الصلف والكبرياء.

٨٦٢ . إذا كان لسانك يغلبك فصدقني أنك لن تقدر أن تتحرر من الظلمة التي تحيط بك.

٨٦٣ . الإنسان الذي يطلق لسانه على الناس بالجيد والرديء لا يؤهَّل لنعمة الله.

٨٦٤ . إذا أردت أن تعرف رجل الله: استدل عليه من دوام سكوته.

مار إسحق السرياني

٨٦٥ . أطلب إليكم أن تتركوا إرادتكم الحسية وتلزموا الهدوء.

٨٦٦ . إذا انفرد العقل عن الناس وصار في هدوء الوحدة فإن الله يقويه ويثبِّته ليمكنه أن يسأل ويبحث في ماهية الله. وحينئذ يؤهَّل إلى نظر عظمة الله وقوته ولاهوته وبهائه في خلائقه.

٨٦٧ . قال ربنا يسوع المسيح: «ادخلوا من الباب الضيق»؛ فما هو ذلك الباب الضيق إلا حفظ اللسان من الخطأ! إذن لنجاهد ونضع حافظاً قوياً على أفواهنا حتى لا ننطق بنطق شرير.

يا أولادي اهربوا من النميمة ولازموا السكوت. لأن الساكت مقامه عند الله في زمرة الملائكة.

أبا أنطونيوس الكبير

٨٦٨ . كثيراً ما تكلمتُ وندمت وعن السكوت قط ما ندمتُ.

أبا أرسانيوس

٨٦٩ . يا ليت يكون للكلام منفعة كمقدار منفعة السكوت!

٨٧٠ . أما أنا فإذا نظرت لنفسي لا أجد فيها شيئاً واحداً حسناً ما خلا أمراً واحداً أعتقد أنه ليس ردياً، وإن كان الناس يسمونه هواناً، وهو أني آثرتُ أن أموت في كل وقت عن العالم وأعيش للمسيح في حياة مكتومة؛ وأكون تاجراً مخاطراً، قد اشتريت بجميع ما عندي الجوهرة الكريمة. بعت الأشياء الزائلة واشتريت الأشياء السمائية الثابتة.

٨٧١ . انزل يا أخي عن الكراسي واتركها لمحبيها وكن مثلي فقد آثرتُ أن أكون صبياً وتلميذاً في سائر عمري.

٨٧٢ . حينما غُصِبتُ على الكلام وجدتُ أن لا أتكلم إلا عن الصمت حتى أقود الناس إلى الصمت بالصمت والكلام! هذا هو رأيي في السكوت وهذه هي فلسفتي في الكلام.

٨٧٣ . إن عندي لكم كلاماً أفضل من السكوت فاسمعوه:

لماذا تحبون الباطل وتبتغون الكذب؟

لماذا تثقل قلوبكم؟

لماذا تتوهمون أن هذا العالم شيء عظيم وهو غبار تذريه الريح ودخان يظهر قليلاً ثم يضمحل، ومنام كاذب وظلٌّ يحول؟

لماذا لا تسعون نحو الغِنى الحقيقي والسعادة الدائمة والخير الذي لا يتزعزع؟

غريغوريوس ثيئولوغوس

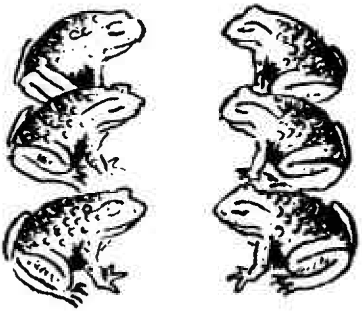

الفصل الثامن

صلّوا كل حين

+ «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُملَّ» (لو ١٨: ١).

الحياة في أعمق معناها تتلخص في فعلين دائمين بسيطين غاية البساطة، أولهما المحبة، وهذه مصدرها الله؛ وثانيهما العبادة، وهي تختص بالخليقة: «الله محبة» (١يو ٤: ١٦)، «أما أنا فصلاة» (مز ١٠٩: ٤).

وهذان الفعلان دائمان بلا انقطاع؛ فلا الله يكفُّ عن حُبِّه للخليقة، ولا الخليقة تكفُّ عن عبادة الله: «لأنه إن سكت هؤلاء فالحجار تصرخ» (لو ١٩: ٤٠).

وكل أفعال هذه الحياة وأعمالها العديدة سوف تفنى وتتلاشى وذلك بعد أن نُدان عليها أو نُثاب؛ ولن يبقى منها جميعاً إلا هذان الفعلان العجيبان، وهما محبة الله لنا، وعبادتنا له! هذان لا ينتهيان، حتى بعد انتهاء هذه الحياة، بل إنهما يدومان إلى الأبد في الحياة الأخرى؛ فالله لا يكفّ عن حبنا، ولا نحن نكفّ عن عبادته، لأن الله يرى مسرته في حبه لنا: «لذَّاتي مع بني آدم» (أم ٨: ٣١). أما نحن فنرى سعادتنا كلها في عبادته.

هذه العبادة إلهام إلهي وضعه الله في طبيعة الإنسان ليحيا سعيداً بعبادته لمصدر السعادة الحقة. وقد لمسنا ذلك فعلاً واختبرناه مراراً عديدة، وعلمنا يقيناً أن في الصلاة والعبادة سعادة أبدية. فهل من طريق يوصلنا إلى حياة كلها عبادة وصلاة مستديمة لا تنقطع؟ فنجعل الله مركزاً لتفكيرنا والمحور الذي تدور حوله كل أعمالنا وتصرفاتنا، نحيا في حضرة الله من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح!

يقيناً إن هذا العمل ليس بالقليل، وهو يحتاج من جانبنا إلى عزم ومثابرة وتدقيق شديد، ولكن لا ننسى أننا في ذلك إنما نتمم منتهى إرادة الله ومقصده، ولا نشكُّ أننا سنلاقي في تتميم مشيئة الله معونةً وحباً وإرشاداً.

ونلخص ما تنطوي عليه دقائق هذا التدريب كما يأتي:

أولاً: هدف حياة الصلاة الدائمة:

. دوام الوجود في حضرة الله.

. إشراك الله في جميع أعمالنا وأفكارنا ومعرفة إرادته.

. الوصول إلى حياة سعيدة بالقرب من الله مصدر السعادة، والتمتع بحبه.
. معرفة سامية من نحو الله في ذاته.
. إهمال لذيذ للحياة الأرضية بلا ندم.

ثانياً: إرشادات عملية للوصول إلى حالة الصلاة الدائمة:

. تنبيه الشعور بوجود الله أمامنا وأنه يرى ويسمع كل ما نعمله ونقوله.
. محاولة التحدُّث إليه من حين لآخر بجمل قصيرة تعبِّر عن حالتنا.
. إشراك الله في أعمالنا بطلبه للحضور معنا أثناء العمل وتقديم تقريرنا إليه بعد انتهائه. فإن كان بالنجاح نشكره، وإن كان بالفشل نعتذر له ونبحث في أسباب فشلنا، فربما تكون بسبب ابتعادنا عنه أو نسيان طلب معونته.
. محاولة تسمُّع صوت الله من خلال أعمالنا. فكثيراً ما يتكلم هو إلينا من الداخل، ولكننا بتشاغلنا عنه نفقد توجيهاته الحكيمة.
. في وسط الأوقات الحرجة وعند ورود أخبار مزعجة وفي مهاجمة الناس أو الرؤساء لنا، نطلبه في الحال لاستشارته فهو أعزُّ وأحكم صديق في أوقات الشدة.
. عندما يبتدئ القلب أن يضطرب وتهتاج مشاعرنا، نلتفت إليه محاولين تسكين هذه المشاعر المفسدة حتى لا تجد مجالها في القلب، لأن الغيرة والغضب والدينونة والأخذ بالثأر وردِّ الشر بالشر، تُفقدنا في الحال نعمة الوجود في حضرته، لأن الله لا يساكنه شر.
. محاولة عدم نسيان الله كلما أمكن، وذلك بالرجوع إليه حالاً عندما نضبط الفكر شارداً بعيداً عنه.
. عدم الإقدام على عمل أو إجابة إلا بعد ورود الدافع من الله. أما كيفية تمييز هذا الدافع فإنه ينكشف قليلاً قليلاً بقدر أمانة سيرنا أمامه واستقامة أغراضنا في الحياة معه.

ثالثاً: مبادئ أساسية لحياة الصلاة الدائمة:

. أَلك إيمان بالله؟ إذن ضعه أساساً لكل تصرفاته، وقابل به كل ما يعترضك في الحياة من فرح أو حزن. لا تدَعْ إيمانك يتغير كل يوم حسب الظروف. لا تجعل النجاح يُزيد إيمانك بالله كما لا تجعل الفشل أو الخسارة أو المرض يذهب بإيمانك ويُضعفه.

. هل قبلت أن تحيا مع الله؟ إذن ضع كل ثقتك فيه مرة واحدة، ولا تحاول أن ترجع أو تتقهقر قط. كن أميناً له حتى الموت.

. سلِّم لله كل أمورك الجسدية والروحية، فإن فيه الكفاية أن يدبر كل أمورك. واعلم أن الحياة مع الله تحتمل كل شيء، تحتمل المرض والجوع والإهانة، فلا تستغرب هذه الأمور إذا أتت عليك، لكن اصبر وأنت ترى كيف تتحول هذه كلها في صفك لخيرك.

. ركِّز حبَّك في الله ولا تجعل العوارض التي تقابلك تسبب نقصاً في حبك له، بل بالحري استعذب كل ألم من أجله. فالحب الحقيقي يحوِّل الألم إلى لذة.

. حوِّل اللوم إلى العالم المادي لأنه هو مصدر شقاءنا وأحزاننا، فآلام هذه الحياة تجعلنا بالحري نزدري بالعالم ونحتقره ونزداد قُرباً من الله وتعلُّقاً بالحياة الأبدية.

. علامة حبك لله والتصاقك به هو استعدادك دائماً أن تتخلى عن كل ما يتعارض مع وصاياه وقداسته.

. كن مدققاً، وراقب شهواتك، وحاسب نفسك، واطلب على الدوام نوراً من الله تكشف به سقطاتك وعثراتك.

. إياك وأن يكون هدف أعمالك أو أقوالك أو صلاتك لإرضاء الناس، فإن ذلك يبعدك بعيداً عن الله.

. في كل احتياجاتك اتجه لله رأساً بعزم وثقة.

. كن شجاعاً ولا تَهَبْ الأخطار، لأنه في اللحظة المناسبة سوف يمد يده وينقذك، لأنه مستحيل أن يخدعنا الله أو يتخلى عنا.

. ما أسعد الذين حُسِبوا أهلاً أن يتألموا من أجل اسمه. وأسعد من هؤلاء هم الذين يشتاقون أن يتألموا من أجل اسمه!

لمحة تاريخية عن الصلاة الدائمة:

الصلاة الدائمة منهج نسكي قائم بذاته، له خواصه المؤثرة تأثيراً مباشراً على قوى النفس الباطنية وعلى مراكز معينة من المخ للوصول إلى حالة سكون داخلي يهيئ الإنسان للدخول في حالة يقظة روحية دائمة وإحساس بالله مستمر مع سيطرة كاملة على الأفكار والشهوات.

ولذلك فهو يُعتبر من أهم وأسمى الأعمال الروحية، التي يمكن إذا نجح فيها الإنسان أن يصل بواسطتها إلى نتائج واضحة صحيحة غايةً في الروعة الروحانية.

وهذا المنهج النسكي الخاص والفريد من نوعه أول ما نسمع عنه، نسمعه في تعاليم ثلاثة من أكبر القديسين الأوائل في مصر وهم: القديس مكاريوس الكبير، والقديس إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس، والقديس ثيؤناس تلميذ الأب يوحنا الخادم رئيس ذياكونية نتريا. وهؤلاء عاشوا جميعاً منذ بداية القرن الرابع حتى نهايته، وتسجَّلت أقوالهم على يدي كاسيان السائح الفرنسي قبل نهاية القرن الرابع. وقد أفردناها في مستهل أقوال الآباء في هذا الفصل.

ومن أقوال هؤلاء الآباء نستخلص، بغاية الوضوح، أن هذا المنهج النسكي الفريد من نوعه كان من أهم التقليدات النسكية التي تسلموها هم بدورهم من آبائهم الذين سبقوهم. فيقول القديس إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس في حديثه لكاسيان: [ولأن هذه الطريقة قد تُسلِّمت لنا على يد بعض الآباء القلائل الذين تبقوا لنا من العصور السالفة لذلك نحن لا نفرط في تسليمها إلا للقلائل الذين يُثبتون أنهم حاذقون].

أما من حيث مفاعيل هذا المنهج النسكي في قوى النفس والعقل فكانت معروفة لدى الآباء منذ البدء، إذ يقول عنها القديس إسحق المذكور: [إن هذه الطريقة تواجه وتحيط بكافة الحواس والمشاعر المغروسة في الطبيعة البشرية، ويمكن أن تُستَخدم بكفاءة ناجحة إزاء كل حاجة وكل إثارة].

ويعود نفس القديس ليذكر تأثيرها على العقل: [هذه الطريقة إذا داوم عليها العقل فإنه يتقوى ويغلب كافة الأفكار المتزاحمة عليه ويطرحها عنه].

ومنذ ذلك الحين، أي منذ القرن الرابع، امتدت الصلاة الدائمة في مصر لتحتل مكانة هامة جداً في اللاهوت النسكي عند كافة الكنائس الشرقية، فنجد التركيز عليها يستمر واضحاً في تعاليم نيلس السينائي وابنه ثيؤدوسيوس في سيناء (٤١٠ . ٤٣٠م)، ثم في تعاليم القديس يوحنا الدرجي حتى بداية القرن السابع (٥٧٠ . ٦٤٠م)، ومن بعده حزقيوس الأورشليمي، ثم يأخذ هذا التركيز في الزيادة التي تبلغ أقصاها في تعاليم القديس إسحق السرياني أسقف نينوى عند نهاية القرن السابع (٧٠٠م).

وظلت هذه التعاليم آخذة طبعها المنفرد الآبائي دون أن يجمعها منهج موحَّد حتى جاء سمعان اللاهوتي (١٠٢٢م)، ومن بعده غريغوريوس السينائي، فجعلا لها منهجاً تصوفياً ذا طابع بيزنطي خاص، ونقلها غريغوريوس السينائي إلى جبل آثوس في اليونان في نهاية القرن

الثالث عشر. ومن بعده جاء كاλليستوس تلميذه الذي صار بطريرك القسطنطينية الذي جعل من منهج الصلاة الدائمة منهجاً تصوفياً أرثوذكسياً أساسياً في الطقس البيزنطي عامةً، بعد أن جمع كافة أقوال الآباء في هذا الموضوع وبوَّبها وفسرها.

وبمجيء «نيل» الذي من سورسكا بروسيا إلى جبل آثوس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، انفتح أمام منهج الصلاة الدائمة باب عريض في روسيا، إذ عن طريق «نيل» الذي من سورسكا انتقل كل التراث الشرقي القديم بكل غناه إلى الآباء الروس الذين تباروا في تطبيقه بكل أمانةٍ وإخلاص وشغف حتى بلغ شأواً كبيراً في محيط الأجيال المتلاحقة، وهذا سوف يتبينه القارئ بكل وضوح في قصة السائح الروسي التي نقدمها في نهاية هذا الفصل كعينة عملية لهذه الصلاة الدائمة.

غير أن منهج الصلاة الدائمة، بانتقاله من موطنه الأصلي في مصر، فقد كثيراً جداً من بساطته الأولى التي كانت تجعل المصلِّي يعيش في عمق مفاعيله الروحية دون أن ينتبه إليها، ويجني ثماره دون أن تسترعي طموحه وأطماعه الروحية.

فقد انتقل هذا المنهج من وضعه النسكي كممارسة اتضاعية في حد ذاتها، إلى وضع تصوفي ذي برامج وشروط وقواعد فنية وميكانيكية ودرجات وأهداف ونتائج، يضعها المصلِّي في ذهنه قبل أن يُقدِم على ممارسته، مما أدخل على منهج الصلاة الدائمة شيئاً كثيراً من التعقيد والافتعالية. ولكن على كل حال، لا يزال للصلاة الدائمة عشاقها وروادها الهواة، وهي لا تزال تدرُّ على محبيها مفاعيل نعمة وبركة غزيرة الفوائد. والكاتب يعترف ببركات هذه الصلاة عليه شخصياً.

شرح نظرية السكون الداخلي (الهيزوخيا) الملازم للصلاة الدائمة:

تعتمد الصلاة الدائمة على تهيئة وتمرين أعضاء خاصة في الجسم ومراكز خاصة في المخ ذات صلة بمراكز باطنية للنفس حتى يبلغ الإنسان إلى حالة يمكنه فيها مداومة الصلاة بذهن متيقظ وحواس منتبهة وسكون داخلي، معطياً بذلك الفرصة لنفسه لمواجهة عمل النعمة ومتابعتها عن كثب شديد.

ولأن هذا المنهج النسكي يعتمد على الجسد وعلى النفس لبلوغ حالة روحانية، فهو يسمى: «سيكوسوماتيك» أي نفساني جسدي.

ونحن لو تتبعنا تاريخ طريقة السيكوسوماتيك في المنهج النسكي في العهد القديم، نجد أصولها الأولى واضحة في وصية الرب لبني إسرائيل أن يجعلوا علامة حسِّية ظاهرة على اليد ربما بخيط قرمزي أو خلافه(١). كما يجعلون عصابة على الجبهة على هيئة لفافة تتثبت بين الحاجبين، مكتوب فيها قصة خروجهم من أرض مصر حتى تكون تذكاراً أبدياً لا يُنسى لصنيع الرب معهم من جيل إلى جيل: «فيكون علامة على يدك وعصابة بين عينيك لأنه بيد قوية أخرجنا الرب من مصر» (خر ١٣: ١٦).

وهنا يتضح أن قصد الله من العلامة التي على اليد هو أن يصبح تذكار قوة يد الرب على الخلاص والنعمة حاضراً في كل لحظة عندما يقوم الإنسان بأي عمل، أما العصابة التي بين العينين فلكي ينتبه العقل لوجود ملاك الله المخلِّص باستمرار سواء في المشي أو الجلوس، عند الراحة أو عند النوم، كما كان عمود السحاب والنار يرافق ويتقدم بني إسرائيل!

ثم مرة أخرى بأكثر وضوح يكرر الله نفس الطريقة وذلك بالنسبة للإيمان بالله وحفظ وصاياه: «ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم **على قلبك**، **وقُصَّها** على أولادك، **وتكلم بها حين تجلس** في بيتك **وحين تمشي** في الطريق **وحين تنام وحين تقوم**، واربطها علامة **على يدك**، ولتكن عصائب **بين عينيك**، **واكتبها على قوائم أبواب بيتك**» (تث ٦: ٦ - ٩). وهنا يزيد الله على طريقة الحفظ الدائم عضوين آخرين بالإضافة إلى اليد والعينين، وهما استخدام لهج **القلب**: «لتكن هذه الكلمات على قلبك»، واستخدام الترديد المستمر **بالفم**: «تكلم بها حين تجلس، وحين تمشي، وحين تنام، وحين تقوم». وبذلك فإننا نواجه عمق المنهج «النفساني الجسدي» النسكي في العهد القديم، حيث اليد والعينان والفم والقلب التي هي أبرز أعضاء الجسم تُعطَى تنشيطاً خاصاً لتصبح آلات بر تخدم حقيقة الخلاص والإيمان بالله وحفظ وصاياه.

وفي نفس الوقت نجد أن كل عضو من هذه الأعضاء الجسدية له عمل ذو صلة مباشرة قوية وفعالة مع مركز عصبي خاص في المخ. وهكذا يدخل أيضاً العقل والتفكير جنباً إلى جنب مع الجسد في تذكار هذه الوصايا وحفظها.

أما القلب فيمتاز فوق كافة أعضاء الجسد الأخرى بكونه ذا صلة إضافية عميقة مباشرة مع

(١) لا يزال المسيحيون في الشرق وخاصةً في مصر يتوارثون هذه الوصية بصنع علامة صليب على اليد بواسطة الوشم.

النفس، فهو يُعتبر القاعدة الجسدية للوجدان والأحاسيس النفسانية وذلك عن طريق ارتباطه بالغدَّة الصنوبرية التي في مؤخرة الدماغ التي تُعتبر المركز العصبي للبصيرة الفائقة والأحاسيس الوجدانية. فالإنسان عندما ينفعل عاطفياً يتركز كل إحساسه ووجدانه في عمق قلبه.

إذن، فالوصية الإلهية بهذه الكيفية تكون قد شملت المفهوم الدقيق الكامل للمنهج النفساني الجسدي النسكي، كنوع من العبادة المخلصة الأمينة والتقرُّب الدائم لله.

وعلى نفس النمط يبرز منهج الصلاة الدائمة في العهد الجديد لمناداة الله والرب يسوع وتذكار الخلاص والرحمة باستمرار. هكذا بدأت الصلاة الدائمة بتكرار اسم الرب يسوع باستمرار: «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ»، مع استخدام الفم والعقل والقلب وكافة الحواس حتى والجسد أيضاً وذلك كنوع من العبادة المخلصة والتقرُّب الدائم بكل الكيان الداخلي للإنسان. وبالخبرة تحقق أن مداومة الصلاة مدداً طويلة بنفس هذه الكلمات وبهدوء وبدون تغيير تُكسِب الإنسان نوعاً من الهدوء أو السكينة الداخلية أو السكون الداخلي، الذي سماه الآباء «هيزيخيا»، لأنه هدوء وسكينة يصحبهما يقظة روحية وانتباه عقلي.

وهذه في الواقع حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن البال، لأن انشغال الإنسان بالصلاة بهذه الكيفية الدائمة هو ببساطة متناهية تحرُّر من الدنيا، وفي نفس الوقت إشغال الجسد بكل أعضائه مع العقل والنفس أيضاً في التوسل والصلاة. وهذا حتماً يوصل الإنسان إلى حالة هدوء وسكينة التي هي أصلاً من طبيعة النفس والتي كان يشوشر عليها العالم والجسد والنفس بعواطفها المربوطة بالجسد، حيث الهدوء والسكينة أو الصمت الداخلي لا يعني الكفّ عن العمل والجهاد، بل يعني التخلُّص من القلق والارتباك والانقسام، وانطلاق النفس تعمل مع القلب والعقل والجسد عملاً واحداً في أُلفة منقطعة النظير.

وعندما تحقق الآباء المتأخرون من هذه النتيجة الباهرة أي الحصول على السكينة الداخلية (هيزيخيا) بواسطة صلاة «يا ربي يسوع» المستمرة، ابتدأوا يعتبرون هذه الطريقة منهجاً للوصول إلى السكينة الداخلية، مع أنها أصلاً صلاة تعبُّدية للتقرُّب الدائم إلى الله في بساطة وانسحاق وينبغي أن تظل كذلك في مفهومها العام.

وباكتشاف أن صلاة «يا ربي يسوع» الدائمة طريق يوصل إلى السكينة، احتُسِبت كدرجة هامة من درجات النمو في الصلاة لبلوغ حالة التأمل، باعتبار أن التأمل يحتاج حتماً إلى سكون

داخلي ويقظة قلبية وتخلُّص كامل من شوشرة العالم والجسد والعواطف.

وإن كنا نقبل هذا الاستخدام لهذه الصلاة المباركة لبلوغ حالة التأمل، إلا أننا في الواقع نجزع من فكرة الاصطناع والافتعال. فنحن لا نؤمن قط ولا نجيز بأي صورة من الصور أنه يمكننا بوسائلنا الخاصة الوصول إلى الله أو حتى الاقتراب منه. فإن كل مجهود الإنسان لا يمكن أن يحركه خطوة واحدة فوق ذاته، فالله هو الذي يجذبنا إليه، والله وحده هو الذي يتحنن ويأتي إلينا. أما نحن فآخر كل مجهوداتنا لا يزيد عن أن يجعلنا في حالة استعداد فقط لجذب الله أو حضوره.

والحقيقة أن صلاة المداومة باسم الرب يسوع المسيح هي بنفسها تُدخلنا في حالة الهدوء والسكينة الداخلية، ثم هي بنفسها ترفعنا إلى حالة التأمل كنعمة.

أما مفهوم الهدوء والانتباه واليقظة وانجماع الفكر التي تصاحب هذه الصلاة والتي تُعتبر أهم وأقوى نتائجها بالنسبة لحياة الصلاة والتأمل، فهي ليست نوعاً من كبت الأفكار الإرادي ولا هي عملية تركيز الأفكار الاضطراري، ولكن هي عملية أكبر من ذلك بكثير. فصلاة «يا ربي يسوع» عملية روحانية نفسية عظمى، يتم فيها توحيد كيان الإنسان الداخلي بجمع شمل كل قوى النفس العقلية والعاطفية والحسية، حيث يصبح الجسم والعقل والقلب وحدة واحدة تتحرك بتعاون وأُلفة كحركة واحدة وكنبضة واحدة، تقودها جميعاً عين واحدة تُحدِّق في الله في لحظة الحاضر دون أن يصيبها إعياء، في حب مفرط وتقوى.

وفي هذه اللحظات يتحقق لنا بالفعل والتأكيد وببرهان الإحساس الواقعي، أن مراكز العقل وكافة الحواس والمشاعر العاطفية أصبحت كلها متركزة في بؤرة واحدة داخل قلب الإنسان، ونقصد القلب الحي النابض في صدر الإنسان.

وعندما تحقق الآباء المتأخرون من هذه الحقيقة ابتدأوا ينتبهون إلى قيمة التركيز نحو القلب، فجعلوه تدريباً يبتدئ به المصلِّي حيث يداوم بكل صبر على إنزال عقله وإدخاله داخل القلب وجمع عواطفه وتركيزها داخل القلب وربط الإحساسات الجسدية بالقلب، وذلك أثناء تلاوة صلاة «يا ربي يسوع» بانتباه. وهذا العمل وإن كان بالفعل يتم حقاً وينجح، ولكن لم يكن قصد الآباء الأوائل أن يجعلوا النتائج الطبيعية التي تتم بالصلاة من تلقاء نفسها غايات محتَّمة توضع كفروض نحققها بالإرادة، لأن عملية توحيد القوى الداخلية للنفس حتى ولو أمكن

تتميمها بالإرادة والتدريب فلا يمكن رفعها إلى الله وربطها به إلا بالنعمة.

أي أن بلوغنا النجاح في الوصول إلى تركيز كافة الأفكار والأحاسيس والوجدان داخل القلب بالتدريب، حتى ولو وصلنا إلى السكينة نفسها، فهذا ليس كل شيء، إذ لا يزال يكون أمام النفس هوة هائلة تفصلها عن الله لا يختزلها إلا جسد المسيح السري بالإيمان والحب.

أي أن الصلاة الدائمة باستخدامها كافة الوسائل السيكوسوماتيك، تظل في أشد الحاجة ومنذ أول لحظة إلى الإيمان الراسخ مع الحب الملتهب حتى يبلغ الإنسان إلى السكينة الإلهية التي تنطلق فيها النفس فوق ذاتها لتحدق في الله بعين واحدة طاهرة بسيطة في عبادة حقيقية وتقوى.

وهكذا نرى أنه إذا تلاقت السكينة الداخلية المتحصلة من صلاة «يا ربي يسوع» مع الإيمان والحب، لا يعود أمام النفس ما يحجزها عن الانطلاق في التأمل الخالي من كل العوائق.

لذلك أصبحت صلاة «يا ربي يسوع» باباً ذهبياً جميلاً للتأمل.

أقوال الآباء في الصلاة الدائمة:

مختصر الفصل العاشر والحادي عشر والثالث عشر
من حديث الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس الكبير مع كاسيان:

٨٧٤ . سنعرض عليك هذه الطريقة لبلوغ ذلك التدبير الروحاني الذي تهواه كل نفس تسعى لتذكُّر الله على الدوام مع ضبط العقل.

أول كل شيء إنسَ نفسك واترك أفكارك وهيا تقدم معى نحو الله عارياً من كل اهتمامات الجسد، وثق أن الطريق الذي ستسير فيه قد جازه آباؤنا الشيوخ الذين تمكنوا من معرفة أسرار الروح.

عليك بهذه الصلاة: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني» (مز ٦٩).

أما هذه الآية فلم تُنتَخب جزافاً بل بعد خبرة، لأنها تتوافق مع كل ظروف الحياة البشرية. فهي تحمل تضرعاً إلى الله مقابل كل الأخطار والضيقات، وتحمل أيضاً اعترافاً منسحقاً بالعجز واهتماماً متيقظاً ومخافة دائمة. فهي تشير إلى إحساس الفرد بضعفه مع ثقة في الاستجابة وتأكيد بأن المعونة حاضرة سريعة. وهي تشير خفياً إلى قرب الله منا وأنه كل حين حاضر معنا يستمع إلينا.

إن هذه الصلاة القصيرة حرب شعواء ضد عدونا. فعندما يصرخ بها المسكين حينما تحوط به الأعداء يأتي القدير سريعاً ليبدد مشورتهم ويفرق شملهم. إن هذه الصلاة لهي بمثابة اثني عشر جيشاً من الملائكة بمركبات وفرسان من نار!

في تلاوتها ثقة وسلام وأدوية شفاء من الهموم والأحزان والضيقات، وليس في الحزن والضيق فحسب بل وأيضاً حينما يصيب الإنسان نجاحاً روحياً أو ينال نعمة من هبات الروح القدس، فعندما يتلوها تذكِّره أن لا يظن في نفسه شيئاً، لأن الأعداء لا يزالون يجولون حولنا ولا زالت الخطية رابضة بالباب ولا خلاص إلا بالرب ولا دوام للسلام إلا بمعونته.

هي صلاة نافعة لكثير، فكما تعبر بنا وادي الضيق والدموع تصعد بنا إلى قمم الفرح والسلام. كم هي تلائم طبيعتنا البشرية المتقلبة بين الحزن والفرح والضيق والسلام.

إذا ما كَلِفتُ بشهوة بطني وجاء العدو يعرض عليَّ موائد الملذَّات والشهوات وذكَّرني وأنا في القفر بطعام العالم حينئذ أسرع فأقول: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني». إذا طلَبَتْ نفسي الطعام في غير ميعاده وغرَّتني شهوة بطني لآكل قبل أن يحل أوان الأكل أصرخ وأقول: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

إذا ما ابتدأت الخوار يدب في أعضائي ليعوقني عن الاستمرار في قانون صيامي ... ويثور جسدي محتجاً ويجف جوفي ويلتصق لساني بحنكي وتهدد طبيعتي بالإمساك المخيف ... فلكي أسير في طريقي مثبّتاً وجهي نحو الصليب لأصل إلى وفاء نذوري أقول: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

حينما أتقدم إلى المائدة وتعاف نفسي نوعاً من الطعام وأتكرَّه أن أسند جسدي باليسير مما قُدِّم لي، عليَّ أن أدعو: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

حينما أرغب في تقويم القلب والفكر بالقراءة والمزامير ويبتدئ الصداع ينغِّص عليَّ سهري ويستدرجني لطلب النعاس في غير ميعاده. وتثقل رأسي ويلتصق عقلي بالصفحة التي أمامي وأجد نفسي وقد غُمِرتُ في بحر عميق من التراخي تجوز عليَّ لججه، لجة تنادي لجة؛ ويتقدم تيار النوم ليجرفني ويلقيني في ذلك العمق فأُحرَم من صلاتي ومزاميري، في ذلك الحين أصرخ هاتفاً: أما يهمك يا رب أني أغرق؟ «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

حينما يطير النوم من عيني وأقضي الليالي تباعاً وأنا مُسهَد قد دبَّ فيَّ الهزال من الأرق وقد أحكم عليَّ الشيطان شباكه ليلقيني في جو من الإنزعاج والقلق أتنهد وأقول: ألا تُعطي يا رب أحباءك نوماً؟ «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

عندما أكون في جهادي ضد الخطية وقد التهب جسدي بشهوة اللذة وقد سرى في أعضائي إحساس خفي بوجع الزنى الرديء؛ وقد وقف الشيطان مقابلي يجذبني جذب اليأس المتوقح؛ فلكي لا تحرق هذه النار الثائرة زهور العفة فيَّ أصرخ: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

وعندما يتحنن القدير فيرفع هذه الضغطة عني ويطفئ لهيب الشهوة مني أناديه لكي تدوم راحتي فيه ويبقى سلامي فيَّ طويلاً: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

حينما تسري فيَّ لذعة الغيرة المرة وتخيِّم على عقلي سحابة من الحسد والبغضة، وأجد نفسي وقد دفعني العدو من علو سلامي وأخرجني من هدوئي المحبب لي الذي تمنيتُ لو عشتُ فيه أبداً، أصرخ بأنَّاتٍ عميقة: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

إذا ما تآمرَتْ عليَّ نفسي وبحَّدَتْ ذاتها وطلبَتْ المديح وسعَتْ وراء الثناء والإعجاب، وجدَّتْ وراء

الكرامة والشهرة، واستبدَّتْ بنفسي الآمال والظنون؛ أرجع في الحال أستغيث: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

وإذا ما أشرقَتْ عليَّ نعمة التواضع والبساطة وبإماتات كثيرة أخضعتُ روحي للتحرر من نفخة الكبرياء، فلكي لا ينوء عليَّ الكبرياء بثقله مرة أخرى عندما تزهو نفسي بنجاحها والعدو واقف يراقبني ليحطمني بلا شفقة، أدعو: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

عندما أكون مبدَّد النفس بأفكار طائشة وقد استبدَّت بي جيوش الظنون والأوهام وقد تاه قلبي ولم أعد أجد في نفسي سلاماً؛ أحاول أن أجمع نفسي للصلاة فتتراكم عليَّ أثقال الهموم كالجبال، وتتراءى أمام ناظري صور سخيفة من ذلك الماضي البعيد الأثيم! تتزاحم في مخيِّلتي كأنما يريد الشيطان أن يعرضها كلها في لحظة، وتنبري لي آثامي وهي تسخر مني كأنها أشباح وظلال تطبق عليَّ فأشعر بأنفاسي وقد انحصرت داخلي، ونفسي قد جفَّت حتى عزَّ عليَّ أن أذكر حسنة واحدة من حسنات الحياة، حينئذ أخرج من ذلك الجو الخانق صارخاً: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

وإذا ما شعرت بفاعلية الروح القدس، وقد أدركت خفياً غوامض من حكمة الله وابتدأ قلبي يتدرج في الحكمة والفطنة والمعرفة وأدركت الفرحة التي لا يُعبَّر عنها باللفظ، وانحلَّ عقلي من رباط الماديات فأخذ يطوف حراً طليقاً في أجواء النعمة العليا، وقد غمرَتْ نفسي مشاعر سرية وأُهِّلتُ فجأة أن أُستَدعى للدخول في ذلك النور العجيب وأدرك بالرؤيا استعلانات القدير، فلكي أدوم هناك طويلاً ولكي أشرب حتى أرتوي، أُلِحُّ باشتياق: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

إذا داهمني رعب الليل فارتجفتُ، وأفزعتني خيالات الشياطين حتى يطغوني بخوفهم لأنسى إله خلاصي أقول: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني». حينئذ يغيثني الله بربوات الملائكة وأجد في نفسي شجاعة وغيرة حتى أستطيع أن أجد الجرأة والشجاعة أن أقتحم جيوش أعدائي ولا أرجع حتى أفنيهم وأتقوى بالرب جداً على هؤلاء الذين منذ لحظة كنت أفزع وأرتعد منهم فَرِقاً، فلكي تدوم شجاعتي لي وتزداد أهتف قائلاً: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني».

إذن، علينا أن نصلي بهذه الصلاة بلا انقطاع سواء في شدة بلوانا لكيما يزول الكرب عنا أو في بهجة نصرتنا حتى تدوم علينا بالأكثر وتُحفَظ من سقطة الكبرياء، جاعلين ذكر هذه الصلاة القصيرة لا ينقطع من فكرنا مهما كان العمل الذي في أيدينا أو المهمة الملقاة علينا. نعم، فلنجعلها أنشودة الحياة وصلاة الطريق! كلما نذكرها ترفعنا وكلما نتمسك بها تحملنا على أجنحتها القوية لتطير بنا إلى أحضان الصلاة الحارة.

ليت النوم يأتيك وهي على شفتيك فتنطبع في قلبك كآخر طلبة لك في يومك، حتى إذا غاب العقل في سحب النوم الكثيفة ظل القلب يرددها ترديداً. فإذا ما عاد العقل من رحلته وأيقظ حواسك، تكون لك أول

طلبة في يومك! وحينئذ تدعوك والجسد لا زال في نشوته للركوع أمام الله وتقديم باكورة قوته!

اجعلها لك رفيق الطريق، اجعلها على عتبة فمك، واربطها على صفحات قلبك.

ومن دوام ترديد هذه الصلاة يكتسب العقل قوة وتركيزاً مع مسكنة الروح ويشعر أن ليس فيه قوة أو كفاية أن يدافع عن نفسه، ويسأل بلحاجة معونة الله وسرعة إنقاذه، وحينئذ يتأكد أنه مُحاط بمعونة الله فيتمسك به أكثر فأكثر ويزداد اتكالاً عليه. وهكذا تزداد أيضاً معونة الله له.

الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس في حديثه مع كاسيان

٨٧٥ . ما هي غاية أعمال النسك التي إذا وصل إليها الإنسان يدرك أنه وصل إلى قمة الطريق؟ ... هي إذا استحق الإنسان أن يكون أهلاً للصلاة بلا انقطاع.

إذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة فإنه يكون قد بلغ نهاية طريق النسك والفضائل وصار مسكناً للروح القدس. وإذا حلَّ الروح القدس في إنسان، فإنه في الحال لا يستطيع أن يتوقف عن الصلاة باستمرار دون انقطاع وبلا ملل، لأن الروح سيصلي فيه على الدوام سواء كان آكلاً أو شارباً أو مستريحاً أو منشغلاً، وحتى إذا كان غارقاً في النوم فإن عبيق رائحة الصلاة ينبعث من تنفسه في كل لحظة.

مار إسحق السرياني

٨٧٦ . الصلاة بلا انقطاع هي استمرار وجود الإنسان في حضرة الله بوقار، وهي التهاب سري داخلي على الدوام مع يقظة دائمة في إلقاء الخشب (كلمات الصلاة) في ذلك الأتون المستعر لكي لا يُطفَأ.

٨٧٧ . إني أذكر سؤالاً عرض في أقوال القديس باسيليوس الكبير في كيف أن الرسل كانوا يصلُّون بلا انقطاع؟ فكان الجواب هكذا: في كل أعمالهم كانوا يتفكرون في الله، وعاشوا في تسليم دائم له فكانت هذه الحياة الروحية هي صلاتهم الدائمة!

٨٧٨ . والمطلوب ليس فقط أن نهتم بترديد الصلوات القصيرة، لأن ذلك سنتوقف عنه حتماً أحياناً، ولكن المطلوب أيضاً هو شعورنا بوجود الله معنا دائماً حتى أثناء تأديتنا الأعمال البسيطة أيضاً، ولكن عليك بصلاة «ربي يسوع»، استمر فيها وهي من ذاتها توسع دائرة اختصاصها وتبلغ بك إلى هذا الشعور الدائم بوجود الله.

٨٧٩ . صلِّ بلا انقطاع، واجتهد في صلاتك وأنت حتماً تصل إلى الشعور بحضرة الله. وحينئذ تجد أن ترديد اسم الله في الصلاة يكمل في القلب من تلقاء ذاته بدون جهد.

والسر في كيف نداوم على الصلاة بلا انقطاع في البدء، هو في مقدار حبنا ليسوع حباً شديداً صادقاً أميناً.

٨٨٠ . أنظر في نفسك هل تحب يسوع؟ هل أنت مشغول به حقاً؟ هل قد ملأ فكرك بآياته وكلماته ووعوده لك؟

هكذا النفس التي تعلقت بحبيبها يسوع تثبت فيه على الدوام بلا انفصال وتتحدث معه سراً في حديث قلبي ملتهب. أليس كل من التصق بالرب قد صار معه روحاً واحداً (١كو ٦: ١٧)؟

الأسقف ثيوفان الناسك

٨٨١ . في كل شيء يجب أن نشكر الله ونسلم ذواتنا لإرادته، وعلينا أيضاً أن نقدم له كل أفكارنا وحديثنا وأعمالنا محاولين أن نستخدم كل شيء لمسرته الصالحة.

الأب صاروفيم (ص)

٨٨٢ . يسوع المسيح صلّى من أجلنا قائلاً: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو ١٧: ٢٦)، وأيضاً «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ١٧: ٢١).

حينما يمس حب الله الكامل قلوبنا بفاعلية هذه الصلاة التي قدمها يسوع لأجلنا والتي لا بد أنها قد استُجيبت في الحال، حينئذ يصبح الله ذاته هو كل حبنا واشتياقنا ورجائنا وجهدنا وكل فكر فينا وكل كلمة ننطق بها وكل نسمة حياتنا.

وحينئذ أيضاً نصير في رابطة سرية مع الآب بالابن بذلك الحب الخالص الذي يظلل على قلوبنا وعقولنا.

إن هذا الحب وهذا الرباط وهذه الوحدة هي هدف حياتنا الذي نسعى إليه وهو سَبْقُ تذوُّق عربون الحياة السماوية.

وحينما ندرك هذا الحب فينا سوف تصير حياتنا صلاة واحدة مستمرة.

الأب إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس في حديثه مع كاسيان

٨٨٣ . إنها بالحقيقة نعمة عظيمة أننا تعلمنا بالاختبار كيف ننادي بلا انقطاع اسم الرب يسوع لتنقية قلبنا وأفكارنا.

بترديد «صلاة الرب يسوع»، نحن نقاوم كل أفكار الشر ونقترب إليه بعقولنا وقلوبنا، فنحن لا نردد اسم الله باطلاً!

٨٨٤ . إذا داومت على «صلاة يا رب يسوع» مع فكر متضع وتذكار الموت وملامة الذات وأجزت أيامك سائراً في ذلك الطريق الضيق، فسوف يشرق عليك وجه الله بالفرح والبهجة وتدخل في التأمل الروحي المقدس الذي للقديسين وتستنير بمعرفة أسرار حكمة المسيح.

٨٨٥ . مغبوط بالحق من اتصل عقله بالله بدوام ترديد هذه الصلاة. لأنه كما تمر أشعة الشمس على الأرض فتبدد ظلمة الليل وتعطي نهاراً؛ كذلك اسم ربنا يسوع فإنه بدوام إشراقه على العقل تتبدد أفكار الشر وتنبع أفكار نيرة للخير.

حزقيوس الأورشليمي

٨٨٦ . على الإنسان أن يردد على الدوام صلاة «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ» سواء أثناء عمله أو سيره أو أكله أو راحته حتى يتغلغل اسم ربنا يسوع المسيح في أعماق القلب ويحطم كبرياء الحية القديمة الرابضة في الداخل لإنعاش الروح. لذلك داوم بلا انقطاع على ترديد اسم الرب يسوع حتى يحتضن قلبك فيصير الإثنان واحداً.

٨٨٧ . لا تفصل قلبك عن الله. داوم معه حارساً قلبك من كل فكر يبعدك عنه بدوام ذكر الرب يسوع المسيح حتى يتأصل اسم الرب في قلبك ولا يفكر في شيء آخر سوى تمجيد المسيح.

يوحنا ذهبي الفم

٨٨٨ . بداية طريق محبة الله من كل القلب ومن كل الفكر وبكل القدرة هو مناداة اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح بإيمان، وليكن فينا أثناء الصلاة سلام وحب لكل الناس حتى ندوم في الصلاة أكثر فأكثر لأن «الله محبة والذي يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه» (١يو ٤: ١٦). فبدوام الحب والسلام تدوم لنا الصلاة وفي دوام الصلاة دوام لثبوت الحب والسلام، فتنمو الصلاة مع الحب ليسيرا معاً نحو الكمال.

كاليستوس بطريرك القسطنطينية

٨٨٩ . كل من يثابر على صلاة يسوع بلا ملل وبوقار لائق، مردداً الكلمات بفمه إما بصوت مسموع أو هامساً بشفتيه، ويغلق على عقله ليشتغل مفكراً في معنى كلمات الصلاة: «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ» رافضاً كل فكر آخر يعرض على ذهنه سواء للشر كان أو للخير فإنه لن يطول به الوقت كثيراً إلا ويُعطَى من الرب الرحوم تذوُّق الصلاة الروحانية في العقل والقلب.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٨٩٠ . إجلس، وفي هدوء وصمت احنِ رأسك واغلق عينيك، وتصوَّر نفسك ناظراً إلى قلبك، وانقل أفكارك من عقلك إلى قلبك وقل مع كل نسمة تخرج منك: «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني»، قُلها بتحريك شفتيك ببساطة، أو قُلها فقط في عقلك محاولاً أن تدع كل الأفكار الأخرى جانباً، وكن هادئاً صبوراً وكرر هذه الطلبة في أحيان كثيرة.

سمعان اللاهوتي

٨٩١ . إذا لم تنجح بعد عدة محاولات لتصل إلى دوام اللهج القلبي بهذه الصلاة، فاعمل ما سأقوله لك

وبمعونة الله ستصل إلى مرادك: إن مَلَكة النطق تقع في الفكر، فلكي تشغل الفكر بالصلاة فقط إسمح لهذه المَلَكة أن تردد على الدوام بصوت مسموع «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ»، واغصب نفسك أن تقولها دائماً. فإذا نجحت إلى زمن، حينئذ سيُفتَح قلبك للصلاة المستمرة.

من أقوال الآباء

٨٩٢ . صلاة «يا ربي يسوع» لا يمكن تتميمها مرة واحدة أو في اختبارات قليلة، فلكي نؤديها بالعقل والقلب بانتباه ويقظة دون فكر آخر، فهي تحتاج إلى مران وصبر.

ففي البدء تكون بمجهود وتغصُّب وتهاجمها أفكار أخرى كثيرة، ولكن عامل المداومة والصبر باجتهاد لابد أن يأتي بنتيجة، حتى تُؤدَّى من تلقاء ذاتها دون جهد أو تعب.

ولنلاحظ أن الأفكار ستهاجمنا بشدة في البدء، ولكن بصبرنا أيضاً سوف تُعطَى مكاناً وترحل.

ويلازم هذا الاختبار الشيق حرارة خاصة مبهجة عندما ينجح العقل في الاتصال بالقلب ليعملا معاً مشتركين في الصلاة كجبهة واحدة متحدة ضد كل الأفكار المضادة.

وهذه الحرارة تنمو قليلاً قليلاً على قدر تمسُّك العقل والقلب بالصلاة ضد أي فكر آخر، إلى أن تملأ القلب تماماً، حينما يرتبط العقل مع القلب بحركة الصلاة بلا تشتُّت أو فتور منادياً باسم الرب يسوع.

ومن هذه الحرارة يتولد حب شديد للرب ودموع حلوة تُذرَف بدافع الحنين ليسوع. هذه هي الصلاة بلا انقطاع.

كاليستوس بطريرك القسطنطينية

٨٩٣ . صلاة يسوع تنقسم إلى نوعين: صوتية وعقلية.

والذين اختبروا هذا التدريب يسهل عليهم أن يجوزوا من الصلاة الصوتية إلى الصلاة العقلية بسهولة كل حين من تلقاء ذواتهم حينما تتوفر هذه الشروط:

(١) يجب أن يلازمها الانتباه.
(٢) حبس العقل في معنى كلمات الصلاة فقط.
(٣) الهدوء الكامل وأقصى ما يمكن من عدم التسرُّع.
(٤) انسحاق وشعور بالخطية.
ويكون العقل منشغلاً في فكر واحد: مغفرة يسوع للخطاة.

وهذا النشاط الروحي ولو أنه يظهر نظرياً أنه عمل جاف، ولكن بالتمرين قد أثبت أنه أقوى تدريب روحي يفوق إنتاجه عن جميع أوجه النشاط الروحي الأخرى.

٨٩٤. في الأول اسمح لنفسك أن تقول مائة مرة صلاة «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ» بانتباه وبلا تسرُّع، كما قلنا سابقاً. وبعد ذلك إذا رأيت أنك تستطيع أن تقول أكثر فأضيف مائة أخرى، وهكذا بمضي الزمن يزداد عدد المرات إلى أن تصل إلى درجة الاستمرار.

ولكي تقول صلاة يسوع مائة مرة بانتباه وبلا تسرُّع، فإنك تحتاج إلى ٣٠ دقيقة أي ما يقرب من نصف ساعة، ولكن بعض النسَّاك يحتاجون إلى وقت أطول. والمهم أن لا تُسرع بل تكون بهدوء المرة بعد المرة، واجعل وقفة قصيرة بين الواحدة والأخرى؛ وهكذا ركِّز عقلك في الصلاة؛ واعلم أن الوقفات القصيرة بين كل مرة وأخرى مهمة للغاية إذ أنها تربط العقل بالصلاة وتمنعه من التشتيت.

ليكن تنفسك باعتناء وانسجام وبتؤدة، وعندما تفرغ من تدريبك حاول أن تشغل نفسك بقراءة مقدسة أو ترتيل إلى أن يحين وقت النوم، وعندما تذهب للفراش كرر هذه الصلاة وانعس وهي على شفتيك، كذلك عند استيقاظك تكون أولى كلمات ينطق بها فمك.

الأسقف أغناطيوس (ب.)

٨٩٥ . الآباء المتمرنون على الصلاة العقلية يعتبرون تهيئة الجسد وتكييف وضعه أثناء الصلاة مفيداً، وأحياناً يكون لازماً إلا أنه بعيد كل البعد عن جوهر الموضوع.

فكل ما يرشد به الآباء هو في الواقع توجيهات ووسائل للوصول بها إلى جوهر الموضوع، أي الاتصال القلبي والعقلي بالله في الصلاة.

وهذه الإرشادات ربما تكون نافعة لكثيرين:

(١) قف كيفما تشاء ولكن اثبت على الوضع الأخير بانتباه ويقظة في القلب، مع نشاط في جميع عضلات الجسد.

(٢) لا تسمح بأي مؤثر خارجي أن يشتت انتباهك، فلا تهتم بالأصوات الخارجية أو بحديث الناس.

(٣) يُستحسن أن يكون المكان منعزلاً وقليل الضوء جداً حتى تجد الحواس راحتها وتتخلص من كل المؤثرات الخارجية على الأقل. ولكن إذا أمكنك أن تتخلص من هذه المؤثرات وأنت في وسطها فابقَ في مكانك.

(٤) اجلس على كرسي صغير بدون مسند أو ظهر حتى لا يكون هناك مجال للتراخي والنعاس.

(٥) احتمل هذا الوضع واحتمل الألم الذي تعانيه أكتافك ورقبتك وظهرك حتى تستطيع أن تبقى منتبهاً نشيطاً. ولكن إذا أمكنك عمل هذا بطريقة أخرى أو إذا أمكنك شدّ عضلاتك بتأثير داخلي عليها فليكن، إعمل ما يوافقك، فقط لا تُرخِ عضلات جسدك.

(٦) بتأثير داخلي اسحب عقلك إلى أسفل نحو قلبك، وحاول أن تصلي من هناك من داخل قلبك بهذه الصلاة: «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ».

يمكنك أن تختصر من كلمات الصلاة أو تغير كلماتها أو تستعيض عنها بالأخرى أو حتى تقف أمام الرب عقلياً بدون كلام. لأن القوة ليست في نطق الكلام ولكن بوضع العقل في القلب أمام الرب بعيداً عن كل المؤثرات والأفكار.

ولكن صلاة يسوع وُجدت بالاختبار أنها ذات فائدة، وكذلك الوضع الجسدي المشار إليه كأنسب ما يكون للخروج بنتيجة واضحة من الصلاة.

ولكن بمجرد النجاح في هذا التدريب والوصول إلى الصلاة المستمرة بلا انقطاع، فإن كل هذه الوسائل والأوضاع تصبح بلا قيمة ولا داعي لها بالمرة كما تُرفَع السقالة حينما يتم البناء.

٨٩٦ ـ ليس شيء مُربِك في هذا. فنحن نبحث وراء التدريب من حيث أوضاعه الظاهرية، ولكن قصدنا هو الوصول إلى حالة الوقوف بانتباه أمام الله في الصلاة والتغلُّب على كل الأفكار والتأثيرات التي تشتت عقلنا في الصلاة.

أما الذين اعتمدوا فقط على مظاهر الوقوف في الصلاة أو تكرار الكلام باطلاً، فهؤلاء لن يستطيعوا الوصول إلى جوهر الموضوع الذي هو اتحاد العقل بالقلب في صلاة منتبهة. إذ أن هذا لا يأتي من استعدادنا نحن فقط بل وأيضاً من عمل النعمة.

الأسقف ثيوفان الناسك

٨٩٧ ـ نحن نعرف على وجه التحقيق أن القلب هو عضو الفكر الأساسي، فالسيد يسوع المسيح يقول: «من القلب تخرج الأفكار».

غريغوريوس

٨٩٨ ـ العقل مكانه في الرأس، والذين يشتغلون بعقولهم هم بجملتهم إنما يعيشون في هذا الرأس، ولكن العقل لا يكفّ ولا يهدأ من التفكير في أمور كثيرة أكثرها غير نافع وهو لا يثبت على حال إطلاقاً. لذلك إذا أردنا أن نثبت في فكر واحد فقط مع الله، فيحسن بنا أن نغادر هذا الرأس وننزل إلى القلب حيث منبع الفكر الحقيقي ونحيا بقلوبنا لا بعقولنا؛ وندوم هناك في يقظة القلب وحرارته حيث يبقى العقل خاضعاً لإرادة القلب في الصلاة.

٨٩٩ ـ تسأل ما معنى أن نكون بعقلنا في داخل القلب؟

أتعرف أين يوجد القلب؟ طبعاً تعرف. ألم تشعر يوماً بالفرح والسرور؟ أين كان هذا الفرح منك؟ هذا هو مكان القلب!

قف بانتباه وركِّز مشاعرك وفكرك ولا تشرد أو تعطي بالك للمؤثرات الخارجة عنك، وأنت تكون بذلك قد وضعت عقلك في قلبك.

هي حالة انتباه مطلق مع تركيز المشاعر والفكر.

الأسقف ثيوفان الناسك

٩٠٠ . أتريد أن تقتني الصلاة الدائمة؟ اجتهد في الصلاة، وحينما يرى الرب غيرتك وهمتك وسعيك في الصلاة يعطيك إياها.

أبا مكاريوس الكبير

٩٠١ . «صلاة يسوع» حينما تُؤدَّى بإيمان في بساطة قلب، تكون دائماً خلاصاً للنفس. ولكن إذا دخلت في ممارستها أغراض أخرى للبر الذاتي فإنها تكون مؤذية وضارة.

٩٠٢ . أثناء هذه الصلاة لا يرجع بعض الناس عن خطاياهم وعاداتهم الأثيمة التي يشتكي من أجلها ضمير الإنسان ويتألم، فيكون نتيجة ذلك أن يشبَّ في النفس قتال داخلي عميق فيطرد كل سلام الإنسان الداخلي ويرتبك ويقع الذهن في حيرة وانقسام.

٩٠٣ . إنه مفيد جداً أن يكشف الإنسان أفكاره مع دوام الاطلاع على الكتب المقدسة والنافعة، أما في الأحوال الخاصة فيحسن استشارة أحد الآباء الروحيين.

الأسقف ثيوفان الناسك

٩٠٤ . الذين يندفعون إلى التشوُّق الزائد في اختبار الصلاة بدون تروٍّ وتؤدة ما يستفيدون شيئاً.

يوحنا كارباتيسكي

٩٠٥ . جناب الأم الموقرة الراهبة ت ...

قد كلمتكِ عن صلاة يسوع ... وأقول أيضاً إن تأديتها باستمرار دون انقطاع لا يتأتى هكذا سريعاً، لأنه يلازم التدريب شعور بالحب والفرح بالله، فإلى أن يكمل هذا الحب وهذا الفرح في داخل القلب يظل التدريب على الصلاة ناقصاً.

ولكن أول وأهم كل شيء، أن تعتبري ذاتك كغير مستحقة للتلفُّظ بهذا الاسم الكريم الذي هو في أفواه الشاروبيم والساروفيم وطغمات الملائكة في السماء وعلى الأرض. بل خذي لنفسكِ الأحزان واسعي وراء المشقات، لأن هذا هو كنزكِ الذي يعينكِ على التدريب في صلاة يسوع.

ألا تذكرين ما أنذرتكِ به قديماً أن كل مسيحي ابتدأ يمارس هذه الصلاة بجدٍ وعزم يعاني أتعاباً

ومضايقات كثيرة من عدو الخير، لأنه لا يحتمل هذا الاسم القدوس؟

٩٠٦ . إن هذا الطريق لا يُلقَّن بالتعليم أو بالكتب وإنما بالعرق والدم. جاهدوا حتى الدم فتنالوا عطية الروح!

أنظر في الكتاب المقدس كله ترى أن اسم الرب ذو قوة واقتدار عظيم، وقد صار به الخلاص لكل من التجأ إليه: «اسم الرب برج حصين يركض إليه الصدِّيق ويتمنَّع» (أم ١٨: ١٠). اسم الرب رعب للشياطين: «أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها، فخرج في تلك الساعة» (أع ١٦: ١٨).

وإذا رجعت إلى قوانين الكنيسة الأرثوذكسية ترى أنه معيَّن على جميع أولادها الأميين، سواء كانوا رهباناً أو علمانيين، أن يكون قانون صلاتهم عبارة عن ترديد صلاة يسوع بدل الصلوات الأخرى والمزامير.

٩٠٧ . إذا أردت أن يكون لك سلام، خذ اسم يسوع المسيح في قلبك وفي فمك.

أناتوليوس

٩٠٨ . ماذا نعمل إزاء النفوس التي تحصَّنت وراء الطقوس والشكليات؛ وقبل أن تصل إلى حياة الصلاة الروحانية، بردت وجمدت واستترت وراء النظام المألوف للصلوات الموضوعة؟

إن صلاة يسوع والتدريب عليها كفيلة أن تعيد إليهم حرارة العبادة وتُخرِجهم من حياة الجمود إلى حياة التقدُّم والخلاص.

الأسقف ثيوفان الناسك

٩٠٩ . أيها الأخ ليس حسناً لك أن تحصل على مواهب الصلاة القلبية قبل الأوان. حتى التلذُّذ بفرحة الصلاة ومذاقة حلاوة النعمة السابق لأوانه هو ليس من صالحك أيضاً. لأنك إذا حصلت على هذه قبل أن تعرف كيف تحافظ عليها وتنمِّيها وتسترها، فإنك حتماً سوف تستخدم هذه المواهب للتفاخر والبر الذاتي.

٩١٠ . يقول الكتاب: «لا يأتي ملكوت الله بمراقبة» (لو ١٧: ٢٠). الذين عللوا أنفسهم بالحصول على المواهب وتشاغلوا بمثل هذه الأفكار، خضعوا للكبرياء وسقطوا. أما نحن فدعنا نرتب قلبنا في أعمال الندامة والتوبة وفي حياة ترضي الله. ودع مواهب الله تأتي من ذاتها إذا سُرَّ الله واختار هيكلنا لتقديسه.

ولكن كل طلب منا لمواهب الله العليا مع ترقُّبها، ترفضه مبادئ الكنيسة. لأن هذا ليس دليلاً منا على حب الله بل بالعكس هو دليل على مرض النفس. وكيف نطلب لأنفسنا مواهب الله العليا في حين أن بولس الرسول مع القديسين كانوا يفتخرون بالشدائد ويعتبرون أن الاشتراك في آلام المسيح أعظم موهبة من الله؟

٩١١ . وكما أن التفكير الخاطئ يقود إلى خديعة النفس والوهم الباطل، هكذا أيضاً في عمل القلب، فإن شهوة رؤية المناظر والسعي وراءها قبل أن يتطهر العقل من الشهوات العالمية وقبل تجديده وخلقته بيمين

الروح القدس، يكون عملاً مملوءاً كبرياءً، ويكون أكبر دليل على عدم لياقة مثل هذا القلب لحلول النعمة فيه.

٩١٢ . والعقل عندما يسعى وراء هذه المناظر والمشاعر الروحية، يقع في ضلالة. إذ أنه عندما يعجز عن بلوغ قصده فإنه يصطنع لنفسه منظراً من عنده حسب ما يشتهي فيغش ذاته.

الأسقف أغناطيوس ب.

٩١٣ . يجب علينا لا أن نصلي فقط بلا انقطاع باسم يسوع المسيح، ولكن نحن ملزَمون أن نظهرها (هذه الصلوة) ونعلمها للآخرين، لكل إنسان على وجه العموم، إذ أنها لائقة ونافعة للجميع: لرجل الدين ولرجل العالم، للخادم والمخدوم، للعالِم والأُمّي، للرجل والمرأة، للشيخ والطفل. نوحي إليهم جميعاً بأهمية هذه الصلاة وندربهم على الصلاة بها بغير انقطاع.

غريغوريوس الكبير

٩١٤ . ليس حسناً أن يحتفظ الإنسان بأسرار النعم السماوية طالما هي في متناول عمل الآخرين. فكل ما يكتسبه الإنسان في تأملاته مع الله وكل ما يكتشفه من إحساناته الفائقة، عليه أن يحدِّث بها السائرين معه في ذات الطريق، أو على الأقل يدوِّنها لمنفعة الآخرين مع كل دقائق الإختبارات من أجل المحبة.

كاليستوس بطريرك القسطنطينية

٩١٥ . إذا كنتَ عالِماً أو طالباً أو موظفاً أو ضابطاً أو باحثاً أو عاملاً، فاذكر أن أول وأهم ما يجب أن تتعلمه في الحياة يتركز في معرفتك الخلاص بالمسيح، وإيمانك بالثالوث الأقدس، وصلاتك كل يوم مع الله، ومواظبتك على الخدمات الكنسية، وترديدك اسم يسوع المسيح في قلبك لأنه قوة الله للخلاص.

الأب يوحنا ك.

اختبار للصلاة الدائمة

صلاة يسوع

«ليس لي فضة ولا ذهب ولكن الذي لي فإياه أعطيك: باسم يسوع المسيح الناصري قُمْ وامشِ» (أع ٣: ٦).

تقديم:

لم أجد أبدع من قصة السائح الروسي لكي أقدمها إليك أيها القارئ العزيز. إذ فيها يقص هذا السائح قصته المشوّقة عن اختباره لصلاة يسوع اختباراً عملياً محضاً.

ويظهر في هذه القصة جمال الحياة الأرثوذكسية الحقيقية وسمو الحياة المسيحية العملية. وسنقتصر على تقديم الباب الأول من هذه القصة إذ فيه الكفاية من حيث موضوع الصلاة.

أما هذا السائح الروسي فهو أحد الذين اشتعلت قلوبهم بنار محبة يسوع المسيح، فلم يعد يطيق الوجود بين الناس، فذهب هائماً على وجهه يجوب بقاع المناطق الشمالية في روسيا وسيبريا لا يحمل من همٍّ هذه الحياة الزائلة شيئاً قط.

وقد دوَّن هذا القديس السائح كيف ابتدأ بتدريب صلاة يسوع على يد أحد الرهبان حتى وصل إلى اختبار الصلاة بلا انقطاع.

وقد اكتفشِفت هذه المخطوطة ضمن حياة أحد رهبان جبل أثوس في دير القديس ميخائيل في قازان عام ١٨٨٤ م:

❁ ❁ ❁

إنني بنعمة الله مسيحي، ولكن بأعمالي أرى نفسي أكبر الخطاة. وإذ أُسمَّى بالسائح الذي لا منزل له، أجول من مكان لآخر لا أحمل إلا سلة على ظهري بها من الخبز اليابس ما قلّ أو كثر، والتوراة في جراب على صدري.

ذهبتُ إلى الكنيسة في الأحد الرابع والعشرين بعد العنصرة لأصلّي، فسمعتُ من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي هذه الآية: «صلُّوا بلا انقطاع»، فنفَذَت هذه الكلمات عن كل ما عداها إلى الأعماق، وفكَّرتُ: كيف يمكن أن أصلّي بلا انقطاع بينما أنشغل بمهام كثيرة لأقوم بأَوَد حياتي!؟ رجعتُ إلى الكتاب المقدس فقرأت هذه الكلمات بعيني، وفهمتُ منها أنه يجب أن نصلي على الدوام في كل الأوقات وفي كل مكان! ... فكرتُ كثيراً ولكن لم أصل إلى نتيجة. سألتُ ماذا ينبغي أن أفعل؟ وأين أجد من يفسّر لي هذا الأمر؟ لسوف أذهب إلى الكنائس ولأقصدنَّ أشهر الوعاظ والمرشدين فربما أسمع منهم ما يلقي ضوءاً على فكري ...

مضيتُ وسمعتُ عظات كثيرة مدهشة عن الصلاة. وفهمت ما هي الصلاة وإلى أي حد نحتاج إليها وما هي ثمارها؟ ولكني لم أجد من يتكلم عن كيف ننجح في ممارسة الصلاة. وسمعت عظة عن الصلاة القلبية وعدم انقطاعها، ولكن لم يشر إلى كيفية ممارستها؛ لذلك لم أستفد كثيراً من سماع العظات، فعوَّلتُ على خطة أخرى بأن أتجه إلى بعض المختبرين فأناقشهم في هذا الأمر الذي ملك على عقلي وتفكيري!

سِحْتُ كثيراً سائلاً في كل مكان عن ذلك الأمر. وقيل لي عن إنسان في إحدى القرى يسعى إلى خلاص النفوس، ويخصص اجتماعاً في منزله ويقضي كل وقته في الصلاة وقراءة الكتب المقدسة، فجريت إليه أكثر مني ماشياً ووجدته وأخبرته بما سمعته عنه، وطلبت منه أن يخبرني عما يقصده الرسول بقوله: «صلوا بلا انقطاع»، وكيف يمكن ذلك؟ فسكتَ، ثم قال: «الصلاة الداخلية غير المنقطعة هي رفع دائم للنفس البشرية أمام الله، ولكي تنجح في هذا الأمر يجب أن تصلي كثيراً لتختبر العذوبة التي يعلمنا الله بها كيف نصلي بلا انقطاع ... صلِّ كثيراً وصلِّ بحرارة، فالصلاة نفسها هي التي ستعلن لك كيف تصلّي بلا انقطاع ... لكن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت!». ثم قدَّم لي زاداً ونقوداً لأجل سياحتي وصرفني. ولكن اعتراني شعور باليأس إذ أنه لم يفسر لي كما أريد ... عدت إلى القراءة والتأمل مفكراً في كل ما قاله لي ذلك الأب، ولكن لم أصل إلى الحقيقة، ولست أعلم لماذا بدأت لا أنام الليل...

مشيتُ ما يقرب من ١٢٥ ميلاً حتى وصلتُ ديراً سمعتُ أخباره، فعلمت أن هناك أباً محباً طيب القلب، فقصدتُ إليه فقابلني في صداقة عميقة. رجوته أن يرشدني روحياً إلى الطريقة التي بها أُخلِّص نفسي، فدُهِش وأجاب: «سِرْ حسب أوامر الله واتْلُ صلواتك فتخلص». فأجبتُ: «ولكني سمعتُ أنه ينبغي أن أصلي بلا انقطاع وهذا هو ما لستُ أعرفه أو أقدر عليه، فأرجوك أن تفسر لي هذا الأمر». فأجاب: «بأن عنده كتاباً للقديس ديمتري عن التعليم الروحي للإنسان الداخلي؛ فقرأت فيه أن كلمات بولس الرسول بخصوص الصلاة

بلا انقطاع يجب أن تُفهَم كإشارة إلى الصلاة الموصلة إلى الفهم وهذا الفهم يوصلنا إلى الله. فيعيش الإنسان بذلك في حياة الصلاة بلا انقطاع!»

ولكن سألتُ عن الطريق التي بها يتجه الذهن إلى الله دواماً وبدون أن ينشغل بعيداً. فأجابني الأب: «إن هذا الأمر صعب حتى على الذين وُهِبوا من الله تلك العطية».

فلم أستفد شيئاً. وازددتُ اضطراباً وقضيتُ الليل عنده ثم عاودتُ السير في الطريق العام مدة خمسة أيام مواظباً على قراءة الكتاب المقدس لأُريح نفسي.

أخيراً قابلتُ أحد رجال الدين عند اقتراب المساء وسألته، فأخبرني أنه من دير يبعد عن المكان نحو ستة أميال، وسألني أن أذهب معه وأخبرني أنهم يضيفون الحجاج ويهيئون لهم قسطاً من الراحة. فأجبتُ بأن راحتي القلبية لا تستدعي راحة الجسد، ولستُ أجري وراء الأكل لأن عندي الكثير من الخبز الجاف في السلة. فهدَّأ من اضطرابي وأخبرني بوجود أب كبير مختبر في الدير يستطيع أن يهديني الطريق الصالح على ضوء كلمة الله وكتابات القديسين. قلتُ: «حسناً يا أبي، إني سمعتُ في قراءات الكنيسة من الرسائل الأمر بأن نصلي بلا انقطاع. ولكني لم أفهم كيف يمكن ذلك وسط مشغوليات العالم»

فأجابني: «إن هذا الأمر صريح، فينبغي أن نصلي بلا انقطاع في كل مكان وفي كل زمان وليس فقط وسط المشغوليات العالمية. بل وحتى أثناء النوم أيضاً حسب قول الكتاب: «أنا نائمة وقلبي مستيقظ». فدُهِشتُ كثيراً واضطربتُ وازدادت غيرتي لأفهم. واستطرد الأب في الحديث:.

. «إنني أشكر الله يا ابني العزيز على تلك الغيرة التي غرسها الله في قلبك نحو الصلاة المستمرة، وثق أنها دعوة من الله لك، فهدِّئ روعك لتتأكد من إرادة قلبك أنها تتفق مع كلمة الله الذي وهبك أن تفهم النور السماوي الذي يشع في الصلاة غير المنقطعة. إن هذا النور لا يأتي بحكمة هذا العالم ولا يأتي من الرغبة الخارجية في المعرفة. ولكن يأتي للمساكين بالروح الذين يريدون أن يختبروا كل شيء عملياً في بساطة قلب.

«أما عدم فهمك لكيفية الصلاة المستمرة فليس فيه أي غرابة! لأنه بالرغم من أنه قد كُتِب كثيراً عن الصلاة وكثرت الإرشادات التي قيلت في هذا الصدد، إلا أنه في أكثر الأحوال تُبنى هذه الكتابات على الحكمة الطبيعية. والغالبية تعظ دائماً عن صفات الصلاة دون التكلم عن طبيعتها وطريقة ممارستها.

«والبعض يتكلم عن قوتها وهباتها، والبعض الآخر يتكلم عن الوسائل التي تمهد لها دون شرح ما يتعلق بها ذاتها.

«ولكن ما هي الصلاة المستمرة، وكيف يتعلم المرء أن يصلي؟ مثل هذا السؤال لا تجد له جواباً عند وعاظ الوقت الحاضر، لأنه سؤال يحتاج إلى دراية وفهم روحي ولا يحتاج إلى تعليم المدارس، كما أن الفشل في هذا الفهم وعدم الخبرة يجعلهم يستخدمون حكمة العالم غير المجدية في شرح الأمور الإلهية. فالكثير من

الناس يفتكر فكراً خاطئاً بأن الأعمال الصالحة هي التي تجعلنا نصلي، ولكن الأمر على العكس فالصلاة هي أم الفضائل والأعمال الصالحة. ومن يقول بغير ذلك فإنه يهضم حق الصلاة وقيمتها، كما يخالف قول الرسول بولس إلى تيموثاوس: «فأطلب أول كل شيء أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات ...» (١تي ٢: ١). فالصلاة هي أول كل شيء. وعلى المسيحي أن يقوم بالخدمات والأعمال الصالحة ولكن قبل الكل يجب أن يصلي. لأنه بدون الصلاة لا يتم عمل صالح. ولن يجد الطريق إلى الرب بدون الصلاة.

«كذلك لن يفهم الحق ولن يستطيع أن يصلب أهواء جسده وشهواته بغير صلاة، ولن يستضيء قلبه بنور المسيح أو يتحد بإرادة الله ما لم يشرع في اختبار حياة الصلاة الدائمة ... وأقول «الدائمة» لأنها هي كمال الصلاة. تعلم أولاً أن تطلب قوة الصلاة، حينئذ ستمارس بسهولة جميع الفضائل».

ووصلنا إلى الدير أثناء هذا الحديث، فسألته أن يتفضل ويخبرني عن كيفية الصلاة بلا انقطاع، فقَبِل سؤالي بلطف وأدخلني إلى صومعته وأعطاني لأقرأ في مجلّد لأقوال الآباء. واستطرد قائلاً:

«إن الصلاة غير المنقطعة هي مناداة اسم الرب يسوع بالشفاه وبالفكر وبالقلب مع تكوين صورة عقلية لحضوره الدائم الثابت، وطلب رحمته خلال كل مشغولية وفي كل وقت وفي كل مكان حتى أثناء النوم.

«وتُغرَس هذه العاطفة بترديد هذه الكلمات: يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ. فمن يعوِّد نفسه على ذلك يختبر أعمق الوسائل التي تزرع الرغبة في أن تدوم الصلاة، وسوف تستمر هذه الطلبة دافعةً لنفسها في أعماق قلبه.

«والآن اسمع ما يقوله سمعان اللاهوتي عن الصلاة بلا انقطاع:

[إجلس، وفي هدوء وصمت احنِ رأسك، واغلق عينيك، وتصور نفسك ناظراً إلى داخل قلبك وانقل أفكارك من عقلك إلى قلبك وقُلْ مع كل نسمة تخرج منك: يا سيدي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ. قلْها بتحريك شفتيك ببساطة أو قُلها فقط في عقلك محاولاً أن تدع كل الأفكار الأخرى جانباً، وكن هادئاً صبوراً وكرر هذه الطلبة في أحيان كثيرة]».

وإذ فسر لي الأب هذه الكلمات شرعنا نقرأ الليل كله، ثم مضيتُ في الصباح إلى البلدة المجاورة بعد أن باركني وأخبرني بأن أعود إليه ليرى مدى تقدُّمي، ولأعترف له بكل شيء في صراحة، لأن التحوُّل الداخلي لا يكمل بدون إرشاد روحي. ولما دخلتُ الكنيسة طلبتُ معونة الله. ثم شرعتُ في البحث عن عمل ومسكن في البلدة، لأنه لا يُسمَح لزوار الدير بالبقاء أكثر من ثلاثة أيام. ولأجل عناية الله بي استأجرني أحد الفلاحين لأعتني بحديقته طول الصيف، وأعطاني كوخاً منفرداً لأعيش فيه، فليتمجد اسم الله! ... لقد وجدتُ مكاناً هادئاً وعملاً منفرداً فيه بدأتُ أتعلم الصلاة الداخلية، لكني تعبت جداً في بحر الأسبوع، وشعرت بتكاسل

واعتراني نوم وغشيتني سحابة من الأفكار الأخرى.

فمضيتُ حزيناً إلى أبي وأخبرته بسوء حالي، فحياني في شوق وقال: «يا ابني، إنها هجمة عالم الظلمة عليك، ولكن عدو الخير لا يستطيع أن يعمل إلا ما يسمح به الله في حدود احتمالنا، فليس أسوأ من أن نشعر أننا نصلي، فإن هذا الشعور يحاول بكافة الطرق أن يحولك عن الصلاة ... إنه يبدو لي أنك **في احتياج لأن يُختَبر اتضاعك، لأنه على قدر ازدياد عاطفتك لتختبر الصلاة من أعماق القلب على قدر احتمال سقوطك في الطمع الروحي**».

ثم شرع يقرأ لي من أقوال الآباء ما يلي: [إذا لم تنجح بعد عدة محاولات لتصل إلى اختبار الحقيقة التي تعلمتها، فاعمل ما سأقوله لك وبمعونة الله ستصل إلى مرادك: إن مَلَكَة النطق تقع في الفكر، فاسمح لهذه المَلَكة أن تردد على الدوام هذه الكلمات بعينها أي: «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ»، واجبر نفسك على أن تقولها دائماً. فإذا نجحت إلى زمن، حينئذ سينفتح قلبك للصلاة الدائمة]. واستطرد الأب قائلاً: «إن هذا هو تعليم الآباء، فأَطِع إرشادي من الآن فصاعداً، وكرر صلاة يسوع ثلاثة آلاف مرة في اليوم أثناء قيامك وجلوسك ورقادك ومَشْيَك، وعملك وراحتك. قلْها بهدوء وبدون إسراع، ولا تحاول أن تُنقص أو تزيد في العدد والله سيساعدك، وبتلك الطريقة تصل إلى صلاة القلب غير المنقطعة».

فقبلتُ هذا الأمر بسرور ومضيتُ إلى منزلي أُنفذه بمنتهى الأمانة والدقة، فوجدت الأمر صعباً في اليومين الأولين، ولكن بعد ذلك سهُل عليَّ بدرجة أني كلما توقفتُ أشعر بما يدفعني على الاستمرار ... فذهبتُ إلى أبي فأمر بالمزيد وأضاف قائلاً: «كن هادئاً وجرِّب بأمانة حتى يعينك الله في تدريبك.»

❁

وهناك في كوخي الموحش رددتُ هذه الصلاة أسبوعاً آخر دون أن أتضايق، وتعلمتُ كيف أركز ذهني وكيف لا يتشتت عقلي إلى الأفكار الأخرى. وشعرتُ فعلاً بأني إذا توقفت عن الصلاة أكون كمن فقد شيئاً ... ولما قابلت مرشدي أخبرته عن فرحي وارتياحي لما اعتاده قلبي وفكري ولساني، فمجَّد الله قائلاً: «إنها نتيجة طبيعية للمجهود المتواصل والروح اليقظة، فالعجلة يدفعها قصورها الذاتي فتستمر في السير، إلا أنها تحتاج إلى زيت ليسهل حركتها كما يحسن دفعها من حين لآخر. فتأمل مراحم الله الذي أعطانا كيف ندرب طبيعتنا البشرية!

«والآن أترك لك مطلق الحرية لتصلي كيفما تريد، فقط حاول أن تكرس أوقات يقظتك للصلاة، وأن تسلم نفسك باتضاع لإرادة الرب طالباً منه المعونة. وأنا متأكد أنه لن ينساك بل سيقودك إلى الطريق المستقيم!»

وهكذا قضيت الصيف كله في سلام مع الله وصلاة مستمرة ليسوع المسيح، كما كنت أحلم في ليلي بأني أصلي. وإذا قابلت إنساناً في يومي، أشعر كما لو كان عزيزاً غالباً لديَّ أو أقرب الأقربين إليَّ ... ولكني لم أشغل نفسي بالناس كثيراً. وهدأت كل أفكاري و لم أفكر في شيء إلا في الصلاة. وإذا ذهبت إلى كنيسة الدير تبدو لي الخدمة الطويلة كأنها قصيرة غير مملة ... وتراءى لي كوخي الحقير كأنه قصر عظيم، و لم أعرف كيف أعبِّر عن شكري لله الذي أرسل لي أنا الخاطئ التائه الهداية والإرشاد، إذ قد غمرتني سعادة الصلاة حتى أني كنت أقطع ما يقرب من الأربعين ميلاً يومياً بدون تعب. وإذا هاجمني البرد أنادي باسم يسوع المسيح فأشعر بالدفء. وحين مرضتُ بالروماتزم كنتُ أصلي باسم يسوع فأنسى كل آلامي. وإذا أهانني أحد كان عليَّ فقط أن أفكر في صلاة يسوع فيتلاشى الغضب. وأصبحتُ إنساناً في نصف وعيه، لم أعد أهتم بشيء مما في معيشة هذا العالم المضطربة، بل كل ما أريد هو أن أصلي وأصلي بلا انقطاع وأن أفرح بالرب دائماً.

لقد سِحتُ في بقاع كثيرة مختلفة بينما صلاة يسوع ترافقني، وفكرتُ في تحويل غايتي إلى السياحة في سهول سيبيريا الفسيحة حيث يسهل عليَّ الاختلاء وحيث أقصد معبد القديس «إينوسنت».

وبعد وقت ليس بطويل شعرتُ كما لو أن كلمات الصلاة تخرج من شفتيَّ لتدخل إلى قلبي في توافق عجيب. أعني أن **كل كلمة تُقال تكون كما لو كان ينطق بها القلب مع دقاته**. وحينئذ أبطلتُ تحريك شفتيَّ لأن قلبي ينطق؛ وتمنيت لو أرى سيدي يسوع المسيح فأطرح نفسي عند قدميه وأُطوِّقهما وأُقبِّلهما شاكراً بالدموع لأنه وهبني بمحبته أن أعيش باسمه في سلام أنا المخلوق الخاطئ غير المستحق.

(إنتهى)

الفصل التاسع

الدموع

+ «قد غسَلَتْ رجليَّ بالدموع ... من أجل ذلك أقول لك قد غُفِرَت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً» (لو ٧: ٤٤ و ٤٧).

من الصعب أن نتحدث عن الدموع! أَليست هي علامة قصور الكلام؟ فحينما يعجز اللسان عن التعبير متحيراً يتحدث القلب فتنطق العيون بكلام الدموع!

من يستطيع أن يفسر هذه اللغة؟ إنها المشاعر كلها مُذابة في نقطة! هي لسان يتكلم بجميع اللغات! إنها لغة النفس المفعمة بأصدق المشاعر.

هي عزاء المظلوم، ووطن الغريب، وأبو اليتيم، وراحة المتعبين. هي تكفير الذنوب، وعلامة الندامة، وعهد التوبة.

هي غسل القلب، وتطهير الأعضاء، وشفاء النفس المريضة.

هي لغة الروح، وصلاة الصامت، واحتقار العالم، والحنين إلى السماء، وانتظار الموت.

وإن كانت الدموع سخرية عند ذوي القلوب المقفلة برباط المشاعر الحديدية، إلا أنها إذا اصطدمت بالقلوب الرحيمة أذابتها ذوباناً!

ولكن ما لنا وقلوب البشر، أَلا يكفي الدموع فخراً أنها تدخل إلى حضرة القدير لتتحدث أمامه؟ «سمعتُ صلاتك. قد رأيتُ دموعك» (٢مل ٢٠: ٥).

وهي وإن كانت تتساقط على الأرض كشيء حقير إلا أنها تُجمَع في زِقِّ الله: «إجعل دموعي في زِقٍّ عندك» (مز ٥٦: ٨).

وإن كانت لا تحرك قلوب القساة فهي تزلزل أعتاب السماء! «وبينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيتي ... وأطرح تضرعي أمام الرب إلهي، وأنا متكلم بعد بالصلاة، إذا بالرجل جبرائيل ... مُطاراً ... وقال: يا دانيال إني خرجتُ الآن لأُعلِمك ... **في ابتداء تضرعاتك خرج الأمر** وأنا جئت لأُخبرك» (دا ٩: ٢٠ . ٢٣).

وهي وإن كانت لا تقوى أن تغيِّر صلابة الرؤساء إلا أنها تستطيع أن تغلب تحنن الله! «حوِّلي عني عينيكِ فإنهما قد غلبتاني» (نش ٦: ٥).

إيه أيتها الدموع! كم أنتِ حقيرة في أعين الفلاسفة وعلماء النفس حتى جعلوكِ علامة الضعف وانحلال الشخصية! ولكن ألا يكفي الدموع فخراً أن السيد الرب طوَّب العيون التي تتحلَّى بها! «طوباكم أيها الباكون» (لو ٦: ٢١).

يحدثنا القديس يوحنا الدرجي عن اختباره للدموع فيقول: «إنها أُمُّ وبنت الصلاة»! وهذا حق، فالدموع تسوقنا إلى مخادع الصلاة، وهناك نُؤتَمَن على ينابيع الدموع الحية لنذرف منها ما شاء لنا البكاء! «يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع فأبكي نهاراً وليلاً ...» (إر ٩: ١).

الدموع أُمُّ الصلاة:

حينما نقف لنتراءى أمام الله في بدء حياتنا الروحية تصطدم نفوسنا المحمَّلة بالشرور والآثام بلهيب قداسة الله «إلهنا نار» (عب ١٢: ٢٩)؛ فلا تلبث خطايانا ونجاستنا إلا أن تذوب كما تذوب جبال الثلج أمام حرارة الشمس المحرقة، وهكذا تنفتح العيون لأول مرة لتسكب فيضاً من دموع التوبة. وما دموع التوبة إلا جليد الخطايا الذي تراكمت كُتَله على القلب، فلما أشرقت عليه شمس البر أذابته فحوَّلته إلى ماء للتطهير والشفاء! وهكذا نغسل بدموعنا أعضاءنا التي تدنست من فعل الشهوة والخطية، وحينئذ نستطيع أن نتقدم إلى الصلاة: «رافعين أيادي طاهرة» (١تي ٢: ٨)، «مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير، ومغتسلة أجسادنا بماءٍ نقي» (عب ١٠: ٢٢).

ولكن دموع التوبة ليست مقصورة على فترة معينة من حياتنا، فهي ينبوعنا الدائم الذي نجد فيه شفاءً لنفوسنا التي أمرضتها الخطية، وهو الذي نخرج منه إلى الصلاة كل حين لنقف أمام الله بلا لوم! «كل ليلة أُعوِّم سريري، بدموعي أبلُّ فراشي» (مز ٦: ٦).

الدموع بنت الصلاة:

سعيد ذلك الإنسان الذي تفتقده النعمة أثناء تضرعه في الصلاة الباكية الحزينة. فبينما تكون دموع الألم والندم منحدرة من عينيه بمرارة وقد «تعكرت عيناه» من البكاء، إذ بنور المسيح ينسكب في قلبه الداخلي وتشمله فرحة سرية عجيبة، فتمتزج دموعه بابتسامة حلوة فتنهمر دموع الفرح كأنها فيض من الينابيع العليا.

هذه الدموع السعيدة هي إحدى هبات الصلاة المنسحقة، وكل من تذوَّق لذة الدموع

المتولدة من الصلاة لا يكفُّ عن أن يطلبها بلجاجة كل حين. يشهد على ذلك القديس أرسانيوس العجيب الذي لم يكفّ لحظة عن البكاء حتى ذبلت جفونه وتساقطت رموشه، لأن الدموع كانت تسبحته الصامتة الدائمة؛ حتى فارق هذه الحياة وجفونه مبللة بالدموع!! «صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً ... ومزجتُ شرابي بدموعٍ» (مز ٤٢: ٣؛ ١٠٢: ٩).

كلنا يبكي ويستطيع أن يذرف الدموع، ولكن القليل من يستطيع أن يوجه هذه الدموع لتدخل زِقّ الله: «اجعل دموعي في زِقّ عندك» (مز ٥٦: ٨).

أما الدموع التي تنسكب بعيداً عن زق الله فهي محسوبة عليك لا لك! تُعرِّضك لصغر النفس والحزن المفسد وتتركك فارغاً من تعزية الروح.

فحينما تهتاج نفسك وتلتهب مشاعرك وتستجيب عيناك لذرف الدموع، إفحص ذاتك واختبر شعور لئلا يكون الدافع لها أمراً جسدانياً تافهاً لا يرضي الله، فلا تصيب دموعك فوهة زق الله وتسقط بعيداً عنه في تربة العالم لتنبت لك شوكاً بدل حنطة.

افحص دموعك لئلا يكون الدافع لها محبة جسدانية زائلة أو حنيناً إلى وطن أرضي أو لإستدرار عطف الآخرين أو للشكوى من ضيق أو مرض أو جوع أو فقر أو اضطهاد، فتُحسَب عليك كأنها احتجاج على تدبير الله وإرادته.

إن الذين تمرنوا على حياة الصلاة يعرفون كيف يحولون مثل هذه الدموع لتدخل أمام الله، ينقلون مشاعرهم من التأثر بحب الآخرين إلى حب الله، ومن الحنين لوطن أرضي زائل إلى الحنين نحو السماء حيث الوطن الأبدي مع الله؛ وبدل أن يستدروا عطف الناس بالدموع، يتقدمون مباشرةً إلى الله ليسكبوا أمامه الدموع كأب حنون رحيم؛ وبدل الشكوى يقدمون دموع الرضى والشكر.

وأنت أيها الحبيب إذا أؤتُمِنتَ على دموع التعزية في الصلاة فاحترس من هذه الأمور الثلاثة:

(١) لا تلهيك الدموع عن واهبها، فتصير كالطفل الذي يفرح بالحلوى أكثر من فرحه بأبيه الذي أعطاها له.

(٢) لا تظن أن هذه الدموع هي لاستحقاقك أو لكثرة تقواك وإلا فإنها تغادرك ولا تعود إليك.

(٣) إن الدموع لا تميزك عن الآخرين، بل هي لتشجيعك للنمو في محبة الله والخضوع لوصاياه

والسلوك بالتواضع تجاه أولاده. فالأب الحكيم يعطف على الولد الضعيف أكثر من إخوته ليزداد في الطاعة والمحبة له ولإخوته.

المكانة الصحيحة للدموع في اللاهوت النسكي عند الآباء الأوائل:

قد يُقال في تسرُّع إنَّ الدموع موهبة، ولكن هذا التسرُّع في الحكم يحرمنا من أنواع كثيرة من الدموع ليست موهبة، وهي في نفس الوقت ذات قيمة وذات عمل قد يكون إيجابياً مفيداً وقد يكون سلبياً هدَّاماً خطراً.

ومن الآباء الأوائل جداً الذين يعطوننا تعليماً مبسطاً عن الدموع هو القديس إسحق الذي من نتريا (القرن الرابع)، وقد كان تلميذاً لأنبا أنطونيوس ولكنه رحل إلى نتريا وأقام فيها بعد وفاة معلمه. وتعليم الأب إسحق وإن كان في غاية البساطة إلا أنه قوي ورصين ومتكامل ومملوء صحة، وقد ترجمناه بكامله وها نحن نورده قبل أن نخوض في شرحه:

٩١٦ . **الأب إسحق**: ولكن من ذا الذي يستطيع مهما أوتى من كفاءة أن يعطي تقريراً مفصلاً عن أنواع الأسباب والدوافع التي تدفع العقل للصلاة النقية وتشعله إشعالاً بحرارتها؟ غير أننا على أية حال سنعطي هنا بعض النماذج القليلة ... ولكن ثمة أمر آخر هو كيف تسري هذه الدوافع والأسباب وتنطلق من أعماق النفس لتدفع العقل للصلاة الحارة الملتهبة بهذه القوة؟ هذا أيضاً ليس أمراً أقل صعوبة! لأنه غالباً ما تنبعث هذه الدوافع الصحيحة القيِّمة كمجرد مسرَّة مفرطة ويقظة مفاجئة، دون أن يستطيع الإنسان أن يتعرف على شرحها أو حتى التعبير عنها، إذ فجأة يجدها تنفجر من الأعماق كزَخِّ المطر من شدة الفرح الذي يصعب ضبطه، حتى أنه من فرط فرحة القلب وقوة تهليله قد يتسمعه جار الإنسان من على بُعد بوضوح.

ولكن غالباً ما يتقبل العقل الحكيم هذه الدوافع في صمت كامل ويستقبلها بسرية كبيرة وهدوء، غير أنه من فرط التعجُّب بسبب الاستنارة الداخلية المفاجئة تتجمد الكلمات ويختنق الصوت في النفس المتأثرة فلا يملك الإنسان إلا أن يسكب اشتياقاته أمام الله في أنين لا يُنطَق به. وعندما تمتلئ النفس بهذه الدوافع لا يمكنها التعبير عنها إلا بفيضان من الدموع.

جرمانوس: إن نفسي الضعيفة لا تجهل هذه الأحاسيس حقاً، لأنه عندما تنهمر دموعي عند تذكري خطاياي أنتعش في الحال بزيارة الله في فرح لا يوصف مثل الذي ذكرته أنت، حتى أنه من فرط هذا السرور أقتنع أنه يتحتم عليَّ أن لا أيأس من غفران هذه الخطايا. وأقول في نفسي إنه لا يوجد حقاً ما هو أسمى من هذا. ولكن كيف نستعيد هذه الدوافع بإرادتنا؟

لأنه حينما أشتاق أن أرفع نفسي وأدفعها بكل قوتي لكي تبلغ هذا المستوى من الإقناع الداخلي وهذه

الحالة من الدموع واضعاً أمام عينيَّ كل خطاياي وعثراتي، لا أستطيع أن أحصل على هذه الدموع الغزيرة وأجد عينيَّ جافة جامدة كالصوَّان لا يفلت منها حتى ولا دمعة واحدة. وهكذا بقدر ما أغبط نفسي على سكبها الدموع عندما تفيض منها فيضاناً بقدر ما أنوح كيف أني لا أملك أن أستعيد هذه الدموع وأستزيدها عندما أشاء!

الأب إسحق: ليس كل ذرف للدموع منشأه إحساس واحد أو فضيلة واحدة، فذرف الدموع من جراء نخس الشعور بالخطايا الذي يكسر القلب نوع، وهو الذي نقرأ عنه: «لقد تعبتُ في تنهدي، أُعوِّم سريري وأغسل فراشي بدموعي كل مساء» (مز ٦: ٧).

ونوع آخر، هو الذي يكون من جراء التأمل في الصالحات وترقُّب المجد الآتي، وهذا تكون ينابيعه أغزر وأوفر لسكب دموع بلا حصر في مسرة ونشوة تنفجر من الأعماق دون ضابط ولا رابط فتكون النفس في أقوى عطشها نحو الله الحي تهتف: «متى أجيء وأتراءى أمام الله، لقد صارت دموعي هي خبزي وشرابي نهاراً وليلاً!» (مز ٤٢: ٢ و ٣)، حيث لا يكفّ الإنسان عن الصياح والنواح كل يوم: «ويلي ... فقد طالت غُربتي عليَّ» (مز ١٢٠: ٥ و ٦).

ونوع ثالث، هو الذي يكون من خوف جهنم وتذكُّر رعبة الدينونة المزمعة دون أن يكون للإحساس بالخطايا دخل في هذه الرعبة التي مِن هولها يصرخ النبي بقلب محطَّم متضرعاً: «لا تدخل في المحاكمة مع عبدك فإنه يستحيل أن يتزكَّى في حضرتك إنسان حي!» (مز ١٤٣: ٢).

ويوجد أيضاً نوع رابع من الدموع، يكون لا من جراء اكتشاف الإنسان لنفسه مباشرة بل عندما يصطدم بالنفوس الأخرى ويكتشف قساوتها أو مرارة خطيتها، كالذي حدث للمسيح عندما نظر إلى أورشليم من بُعد وبكى عليها، أو عندما أحس إرميا النبي بنفس الشعور فتأوَّه قائلاً: «يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع فأبكي ليلي ونهاري على قتلى بنت شعبي» (إر ٩: ١)، أو كالذي حدث لداود النبي (عندما بكى بسبب أعدائه الذين يتمنون له الخسارة والبوار): «سهدتُ وصرتُ كعصفور منفرد على السطح، اليوم كله عيَّرني أعدائي الحنقون عليَّ حلفوا ضدي، فأكلت التراب كما يؤكل الخبز ومزجت كأسي بالدموع» (مز ١٠٢: ١٠٧).

ونوع خامس آخر من الدموع، يتكلم عليه عنوان المزمور المائة والثاني بقوله: «صلاة للمسكين عندما كان في الضيقة وسكب صلاته أمام الله». وواضح أن هذا النوع يخص الأبرار الذين يكون لا من جراء توبة ولكن من ضغطة هذه الحياة وقلاقلها وخسارتها عندما تحيط بالنفس وتضيِّق عليها.

وفضلاً عن هذه الأنواع كلها يوجد نوع آخر يختلف عنها إطلاقاً، تلك التي يحاول الإنسان أن يعتصرها من عينيه الجامدتين عندما يكون قلبه متقسياً، ومع أننا لا نعتقد أن مثل هذه الدموع تكون بلا ثمرة نهائياً،

بسبب الغرض الطيب الذي يدفع الإنسان لمحاولة ذرف هذه الدموع، ولو أنه يكون بسبب إحساس . غير ناضج . بالخطايا السالفة أو الحاضرة، إلا أننا نعتقد أنه لا يصح للناضجين في المحبة العمَّالين بالفضيلة أن يغصبوا أنفسهم ويدفعوها لذرف الدموع، كما لا ينبغي أبداً أن يجاهد الإنسان ليُلزِم الإنسان الخارجي بالبكاء!!! وحتى لو نجح الإنسان في ذلك بطريق الجهد فإنه لن يبلغ إلى غزارة فيض الدموع التي تنهمر تلقائياً، بل وعلى النقيض فإن هذه المحاولات والمجاهدات حتماً تطرح النفس على الأرض وتُدخلها في صغر النفس وتحرمها من التحليق في أجواء السماء العليا التي يكون العقل محلقاً فيها أثناء الصلاة، وبذلك تنحصر النفس على ذاتها وترتد، وتنحل من رباط الصلاة. وتذهب تمرض من يوم إلى يوم بسبب محاولة تغصُّبها على ذرف الدموع التي إن نزلت فسوف تنزل عقيمة!

ولكي تدركوا صفات الصلاة الحقيقية لن أورد لكم في ذلك رأيي الخاص، وإنما رأي المغبوط أنطونيوس، الذي عرفناه أحياناً مدمناً على الصلاة مستديماً فيها (طول الليل) إلى الدرجة التي يبلغ فيها حالة انخطاف العقل حتى إذا ما أشرقت الشمس كنا نسمعه في حرارة روحه يقول لها: «لماذا خرجتِ لتعوِّقيني وتحولي بيني وبين النور الحقيقي؟» وإليكم قوله عن غاية أو كمال الصلاة، وفي هذا القول تسمعون قولاً سماوياً بالحق وليس بشرياً: «لا تُحسَب الصلاة صلاة حقيقية . أو كاملة حقاً . إن كان الراهب يستشعر نفسه فيها أو يتعقل كلماته».

الأب إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس في حواره مع كاسيان

(الحوار ٩: فصل ٢٨ ـ ٣١)

ونستطيع الآن أن نلخص أهم مبادئ الأب إسحق كالآتي:.

أولاً: تُعتبر الدموع تعبيراً ملازماً للدوافع الصحيحة للصلاة التي تنبثق من أعماق النفس وتظهر فجأة فتغمر النفس وتملأها بسرور مفرط يصعب ضبطه كما يصعب التعبير عنه أمام الله إلا بالدموع الغزيرة التلقائية.

ثانياً: ولأنه توجد دوافع كثيرة صحيحة للصلاة، فبالضرورة أصبح يوجد أنواع كثيرة للدموع لأن كل دافع صحيح للصلاة يلازمه إحساس معين له ما يناسبه من الدموع!

ثالثاً: توجد خمسة أنواع رئيسية من الدوافع الصحيحة للصلاة، وبالتالي أصبح يوجد خمسة أنواع صحيحة من الدموع المثمرة:

(١) دموع الشعور بنخس الخطايا، وهي دموع تكسر القلب باعثةً للحزن.

(٢) دموع التأمل في صلاح الله والأمجاد المزمعة المعدَّة لنا، وهذا النوع من الدموع ينابيعه غزيرة ووافرة ومبهجة للقلب وباعثة للرجاء.

(٣) دموع الرعبة من جهنم والدينونة التي لا يكون لها أي صلة بدموع نخس الخطايا.

(٤) دموع على الآخرين، وهي شديدة الكآبة (على أن تكون خالية من أي دينونة أو نقمة).

(٥) دموع الضيقة التي يعانيها مساكين الله من جراء تعسُّف العالم والظالمين.

رابعاً: هذه الخمسة أنواع من الدموع يربطها جميعاً صفتان أساسيتان: الأولى: أن دوافعها صحيحة فبالتالي هي أيضاً صحيحة. والثانية: لا يمارس الإنسان أثناءها أي نوع من التغصُّب أو المجاهدة أو الاصطناع لكي يذرف هذه الدموع أو لكي يستديمها أو يستزيدها بأي حال من الأحوال، فهي دموع تلقائية تتبع بالضرورة دوافعها وأسبابها الصحيحة ولا تنفصل عن هذه الدوافع أو تتقدم عليها.

خامساً: يوجد نوع واحد من الدموع ليس تلقائياً يحاول الإنسان ويجاهد أن يذرف فيه الدموع، وهذا النوع ولو أنه لا يُعتبر صحيحاً من الوجهة النسكية الصحيحة إلا أنه يمكن التجاوز عن ذلك باعتبار أن الذي يمارس هذا النوع من الدموع هم الأشخاص المبتدئون غير الناضجين في المحبة، إذ أن تغصُّبهم لسكب الدموع يكون بدافع طاهر هو إذلال النفس وتوبيخها، وهم يجبرون أنفسهم على ذلك نظراً لأن إحساسهم بالخطيئة لا يكون قد بلغ حدوده الناضجة التي فيها تنسكب الدموع من تلقاء ذاتها.

سادساً: وأخيراً يبرز القديس نوعاً خطيراً من الدموع يعتبره هدَّاماً للنفس وهو كفيل أن يحلها من ربط الصلاة الحقيقية بسبب كونه أنه لا يتبع أي دافع صحيح من الدوافع الخمسة السابقة، بل يحاول الإنسان السائر في الفضيلة أن يذرف الدموع رغبةً في ذرف الدموع كأنها هبة يريد أن يتصيدها أو كأنها ضرورة في حد ذاتها، وهذا كفيل أن يوقع الإنسان في صغر النفس ويسوقه إلى المرض. وهذا النوع من الدموع يعتبره القديس مفسداً وعقيماً.

ومن هذه المبادئ الأساسية عن الدموع ينكشف لنا أمر بالغ الأهمية كفيل بأن يزحزح المفهوم النسكي الحديث عن الدموع، الجاري الآن على ألسنة وأقلام العلماء والكتَّاب والمفسرين المحدثين المشتغلين بالآباء والنسكيات، والمأخوذ عن أوغريس[١] دون حذر. وإذ

(١) لقد حرمت الكنيسة الشرقية كل تعاليم أوغريس، وذلك في مجمع سنة ٥٥٣م. لتلوثها بالأُوريجانية.

لا نجد هنا مكاناً لبحث هذا الموضوع بالتفصيل يكفي أن نوضح أن أوغريس يقول بضرورة سكب الدموع في الصلاة، ويحتم ويقطع بهذه الضرورة بحيث يعتبر أن الصلاة لا تُعتبر مثمرة إلا إذا رُويت وغُسِلت بالدموع وامتزجت معها وذابت فيها، ويمشي أوغريس، ومعه من أخذ بمأخذه في هذا الاتجاه إلى آخره ليجعل من الدموع شرطاً أساسياً للصلاة، ويحض على استعمال الدموع. في حين أن الحقيقة النسكية للدموع. الواضحة بأجلى بيان في شرح القديس إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس. تتركز في أن الدموع تتبع في أصولها أسباباً ودوافع نسكية أخرى صحيحة تلتزم بها وتسير خلفها تلقائياً ودون افتعال، ويستحيل أن تتجاوزها أو تنفصل عنها وإلا انحرفت لتتبع دوافع أخرى مُضلَّة وكاذبة تكون في حقيقتها من صُنع كبرياء النفس.

فالإنسان الذي يعيش في نخس الضمير من جراء خطاياه وعثراته يصلي فيذرف الدمع مدراراً ولا يستطيع أن يمنع نفسه. ولكن يستحيل على الإنسان أن يذرف الدمع ليعيش في نخس الخطية أو يذرف الدمع ليصلي أو يذرف الدمع لتصير صلاته نقية!!

نخس الضمير هو الدافع الصحيح للصلاة النادمة، وهذا الدافع الصحيح يلازمه إحساس حزين جارف لا يمكن أن يعبِّر عنه الإنسان إلا بفيض من الدموع لا يعرف لها الإنسان كيلاً ولا حداً. هنا نتجاوز الحقيقة قليلاً فنقول: إن الدموع نعمة أو عطية أو هبة، ولكن إن شئنا التدقيق والأصالة في التعريف يلزمنا أن نقول إن الإحساس بنخس القلب بسبب الخطيئة هو النعمة وهو الموهبة وهو السر. أما الدموع فهي علامة النعمة وشهادة بوجودها وفاعليتها. فهل يمكن أن نجعل الدموع بحد ذاتها عملاً إرادياً؟ أو نجعلها تتقدم في الصلاة على دوافعها؟

إن خطأ أوغريس في جميع أقواله وتعاليمه هو أنه جعل المواهب مناهج، وصنع من أعمال النعمة وثمارها تدريبات إرادية خططها بالمنطق العقلي الأفلاطوني وألبسها ثوباً من الاتضاع المنمَّق بالألفاظ، وحشر كلمة «النعمة» في أماكنها المفروضة جاعلاً من النعمة إحدى مكوِّنات منهاجه العقلاني.

ولكن لكي نحيط بقيمة الدموع ومكانها الصحيح من اللاهوت النسكي يلزمنا أن نعرض لقديس آخر برع في الاختبار النسكي هو مار إسحق أسقف نينوى.

وهذا القديس ولو أنه يعرض اختباراته بطريقة منهجية تشبه إلى حدٍّ ما طريقة أوغريس إلا أن الفارق بين الإثنين هائل. فاختبارات القديس مار إسحق في حد ذاتها لا تتبع أي تخطيط

عقلي وليس فيها أي اصطناع وهي من وحي النعمة وبقيادتها، وتطابق في أصالتها وقوتها وصحتها اختبارات الآباء الأوائل الذين أخذ عنهم بكل تدقيق وأقرَّ هو بذلك في مواضع عديدة من كتاباته، لذلك فالذي يعنينا في تعاليم مار إسحق ليس المنهج المصنوع الذي يضع اختباراته الحية ولكن اختباراته الحية في ذاتها.

ونحاول هنا باختصار تقديم ملخص كامل لتعليم مار إسحق عن الدموع مستخدمين نفس ألفاظه وتعابيره. على أننا سنكتفي بهذا الملخص دون أن نورد أقوال القديس مرة أخرى:

أولاً: وضع الدموع في الحياة النسكية بصفة عامة:

إن الدموع في وضعها النسكي الكلي قد وَضعت حداً فاصلاً بين الحياة حسب الجسد والحياة حسب الروح (الجسدانيات والروحانيات)، أي بين مرض الخطية (التألم) وبين صحة النفس (الطهارة). فإذا لم يؤهَّل الإنسان لنعمتها يكون هذا دليلاً على أنه لا يزال يعيش ويعمل من أجل الإنسان البراني، كما يُعتبر دليلاً قاطعاً أنه لم يبلغ بعد إلى الإحساس بالعمل الخفي الذي للإنسان الجواني. فإذا بدأ الإنسان يترك جسدانية العالم ويعبر حدوده ليدخل في حدود الطبيعة الروحانية التي للإنسان الجواني فإنه في الحال يُعطَى هذه النعمة، أي نعمة الدموع. فإذا لازم الإنسان هذه المنزلة التي للتدبير الداخلي وسار في السيرة الروحانية المكتومة، تَظل تلازمه هذه الدموع حتى يصل إلى كمال محبة الله.

على أنه بمقدار ما يتقدم في السيرة، على قدر ما يتوفر حظه من هذه الدموع، حتى أنه يشربها في كأسه وفي غذائه بسبب استمرارها على الدوام. حيث يُعتبر هذا علامة أكيدة أن العقل انصرف من هذا العالم وبدأ يحس بالعالم الروحاني.

فإذا عاد الإنسان واقترب بفكره من العالم، تبدأ تجف دموعه ويخسر دوامها، فإذا انصبَّ عقل الإنسان وراء العالم بالكلية فإنه يُعدَم هذه الدموع بالكلية، ويُعتبر هذا دليلاً أن الإنسان عاد فاندفن في قبر أسقام الخطية[٢].

---

(٢) مار إسحق. الجزء الثالث: الباب الرابع.

ثانياً: تَشكُّل الدموع بشكل المراحل النسكية:

يقسم القديس مار إسحق الدموع إلى نوعين رئيسيين:.

النوع الأول: دموع من أجل تذكُّر الخطايا وهفوات القلب، وهي دموع مؤلمة يحس الإنسان بألمها في دماغه عند نزولها، ويكون من نتيجة ذلك أن الجسد يتأثر بها فيكف عن أهوائه وتذبل شهواته، وكأنها تحرق الخطايا وتجفف ميوعة الجسد. وهذه هي دموع المبتدئين، فإذا لم يفقدها الإنسان بتوانيه وإهماله أو طموحه وكبريائه فإنها تظل معه تهديه إلى أن تبلغه رتبة المتقدمين أي الرتبة التي يقبل فيها الإنسان الرحمة[٣].

النوع الثاني: دموع تفيض من جراء دخول العقل في أفهام روحانية ينعم بها الله على الإنسان فجأة فتنهمر دموعه من غير تكلُّف ولا تغصُّب ولا إكراه، وهي دموع مبهِجة تجعل الجسد يزهر زهوراً روحانية بعد أن تذبل خطاياه، وكأنه تدسم الجسم وتجعله في نضارة حتى أن منظر الإنسان يتغير بسبب فرح القلب. وهذه الدموع هي الحد الفاصل بين رتبة الجسدانيين ورتبة الروحانيين، أو هي الحد الفاصل بين الأعمال النسكية التي يكملها الإنسان بالجسد والأعمال الروحانية التي تكمل بالفكر أي التأمل. لذلك تُعتبر هذه الدموع البِهجة علامةً على إثمار النفس الداخلية.[٤]

ثالثاً: القيمة النسكية للدموع في حد ذاتها ومما تنشأ:

(١) البكاء بحد ذاته عازل يعزل النفس عن أسقام الخطية[٥]، وبالتالي حينما يذرف الدمع يكون في وضع يعزله عن أي ميل نحو الخطية، لأن أسقام الخطية وميولها لا يمكن أن تضغط إنساناً يبكي.

(٢) إذا سألتَ ممَّ ينشأ البكاء وكيف يدوم؟ أقول لك إن المملوء جراحات كيف يسكت؟ أو كيف يصبر دون أن يبكي؟ فهل نكون مملوئين من أسقام الخطية ولا نبكي؟ وهل الذي له ميت ملقى أمامه يحتاج إلى من يعلِّمه كيف ينتحب أو بأي فكر يذرف العبرات؟

---

(٣) نفس المرجع.

(٤) نفس المرجع.

(٥) نفس المرجع.

نفسك ميتة بالذنوب وملقاة بين يديك وهي أفضل لك من كل العالم، وتقول لي كيف أبكي وتظن أنك فقير من البكاء؟[٦]

(٣) اهدأ إلى نفسك واصمت وتعلم السكوت واصبر على ضيقته وأنت تحس بالملامة وتوبيخ الضمير وحينئذ يأتيك البكاء ويلازمك.[٧]

(٤) نحن محتاجون أولاً وقبل كل شيء أن نجعل الله أمامنا وفي فكرنا باستمرار، وحينئذ هو يمنحنا هذا الأمر أي الدموع.[٨]

(٥) فإذا ظفرنا منه بهذه النعمة، أي بالدموع، التي هي أفضل من كل النعم فحينئذ هي توصلنا إلى الطهارة، وهذا هو سر قول الرب: «طوبى للباكين الآن لأنهم يتعزون»؛ لأن البكاء يأتي بالإنسان إلى الطهارة، فإذا استحق الإنسان أن يجوز مرحلة أسقام الخطية وأوجاعها بتوسط الدموع ويأتي إلى مرحلة الطهارة، فإنه حتماً يصادف هذا العزاء الذي يقول الرب عنه. وهكذا نفهم أي ثمرة أثمرت الدموع!![٩]

(٦) فإذا كانت الدموع تقدر أن تنقل عقل الإنسان النوَّاح من الإحساس بالخطيئة وتصوراتها، فماذا يمكن أن تفعل في الذين أصبحت الدموع تلازمهم ليلاً ونهاراً؟ ومَن الذي يعرف مقدار المعونة التي يحصل عليها هؤلاء الملازمون للبكاء إلا إذا لازم هو البكاء؟ كل القديسين بتوسط البكاء انفتح أمامهم باب العزاء، فدخلوا في الاستعلان وساروا في آثار الله.[١٠]

(٧) الدموع تتولد أيضاً من الهذيذ الحقيقي الذي يكون بغير طياشة. فعندما يقع فهم جديد في الذهن فيتأثر به القلب، تنهمر الدموع.[١١]

(٨) على قدر ما يغتذي الإنسان بالروح من الداخل على قدر ما تكون زيادة الدموع[١٢].

(٦) مار إسحق. الجزء الثالث: الباب الرابع.
(٧) نفس المرجع.
(٨) نفس المرجع.
(٩) نفس المرجع.
(١٠) نفس المرجع.
(١١) مار إسحق. الجزء الثاني: الميمر التاسع.
(١٢) مار إسحق. الجزء الثالث: الباب الحادي عشر.

رابعاً: الدموع ليست حتمية في الحياة النسكية:

(١) بالنسبة لبداية الطريق:

لقمع حركات الخطيئة نقول إنه إذا كان الإنسان ليس كفؤاً لمداومة البكاء بسبب ضعف طبيعة الجسد (إما بسبب مرض أو بسبب عارض وظيفي في العين أو بسبب نقص أو عيب تركيبي في الجسد)، فهناك ما يساوي الدموع ويحل محلها خصوصاً بالنسبة للآلام العارضة من الخطيئة، وهو تفريغ القلب من محبة العالم ومداومة الصلاة. فالإنسان الذي قلبه خالٍ من العالم ومهتم بتكميل صلواته وله قراءة مستضيئة في الكتب الروحية لتساعده على بلوغ الأفهام الروحانية لا يمكن أن تطغى عليه أفكار الخطيئة وأسقامها.[١٣]

(٢) بالنسبة لنهاية الطريق:

في الوقت الذي تكون فيه قد بلغتَ إلى الاتضاع وأنت عمَّال في السكون، وتكون نفسك قد قربت أن تخرج من الظلام، تكون لك هذه العلامة: وهي أن قلبك يلتهب ويسخن كالنار ليلاً ونهاراً حتى يصير العالم كله أمام عينيك مثل الكناسة أو الرماد، ولا تعود تشتهي الغذاء ولا يلذُّ لك الطعام وذلك بسبب شدة العزاء من الأفكار الجديدة التي تملأ قلبك. وحينئذ يُعطَى لك ينبوع دموع يفيض كالنهر بدون عنف أو تغصُّب، ويختلط بكل أعمالك إن كان صلاة أو هذيذاً أو خدمة أو أكلاً أو شرباً، وبالجملة فالدموع تكون ممزوجة بكافة أعمالك.

فإذا رأيت هذه في نفسك فثق وتشجع واعلم أنك قد قطعت البحر، وزد من أعمالك واحترس لتتكاثر النعمة يوماً بعد يوم. فإذا لم تكن حتى الآن قد بلغت هذه العلامة فاعلم أنك ما كملت طريقك بعد.

فإن كفَّت الدموع بعد ذلك وتوقفت، فهذا يكون علامة على أنه إما ستحدث لك تغيرات جديدة أفضل، وإما أنك رجعت إلى خلف بسبب تعظمك أو تهاونك.

أما التغير إلى حالة أفضل فتكون علامته أن الحرارة تزداد، وحينئذ تتوقف الدموع ويتخلَّف النوْح، لأنه متى استؤمِنَت النفس على حرارة الروح يزول منها انسحاق النوح، وتُعطَى المسرة والبهاء.[١٤]

(١٣) مار إسحق. الجزء الثالث: الباب الرابع.

(١٤) مار إسحق. الجزء الثالث: الباب الثالث.

إذا دخلَت النفس مرحلة السلام الداخلي أي سلامة الأفكار، حينئذ يُنتزَع منك تواتر الدموع ولا تأتي بعد ذلك إلا بمقدار وقياس، وهذا هو الحق الذي تعلمته من فم لا يكذب وأعمال وجهادات ليست قليلة وتعليم آباء حاذقين ورؤساء للبيعة مجاهدين.[١٥]

خامساً: ماذا تعني الدموع؟

(١) الدموع **دليل أن النفس البشرية قد حظت بالرحمة الإلهية**، كما تفيد أن النفس قُبِلت لدى الله عن طريق التوبة، كما تشير أن النفس بدأت تدخل مرحلة النقاوة.[١٦]

(٢) إن إحساس الإنسان سريعاً بخطاياه هو موهبة من الله تقع في الضمير. فإذا اقتنى الإنسان الدموع بسببها، خصوصاً أثناء الصلاة، **فكأنه يقدم قرباناً عظيماً للملك السمائي** فيقتني أمامه وجهاً مرفوعاً ويغفر له خطاياه.[١٧]

(٣) توجد دموع تأتي جزئياً للعمَّالين بالروح مع الله، لعزائهم؛ وتوجد دموع لا تكفّ نهاراً وليلاً حيث عينا الإنسان تكونان شبه ينبوع ماء، وتدوم هذه الحالة مدة سنتين أو أكثر، وهذا يشير إلى أن الإنسان يجوز مرحلة العبور السري التي من بعدها يدخل في السلام الكلي وأمان الأفكار، حيث تُنتزع منه الدموع الدائمة، ويتعزى بالله، ويحس بالتغير الداخلي الذي هو شبه العتيد أن يقبله الجميع في تجديد القيامة العامة، ويكون إحساسه بهذا التغيير إحساساً متوارياً كالرمز.

(١٥) مار إسحق . الجزء الثالث: الباب الحادي عشر.

(١٦) مار إسحق . الجزء الثاني: الميمر التاسع.

(١٧) مار إسحق . الجزء الثاني: ميمر عن كيف يُقتنى غيار الحركات الخفية.

أقوال الآباء في الدموع:

٩١٧ . ما هي العلامات الصادقة غير المشكوك فيها التي تدل على أن الأعمال ابتدأت تُخرِج ثمارها الخفية داخل النفس؟

هي أن يصبح الإنسان مستحقاً لموهبة الدموع، تفيض من عينيه بغزارة وبلا تغصُّب، فالدموع هي الحد الفاصل بين حالة السلوك بالجسد والسلوك بالروح، أي حالة التلذذ بشهوات العالم وحالة الطهارة والعفة.

وطالما أن الإنسان لم ينل هذه العطية فجهاد خدمته لا زال في الإنسان الخارجي، وهو إلى حدٍّ ما لم يتذوق بعد فاعلية عمل الروح في الإنسان الخفي.

وحينما يتقدم الإنسان في الطريق الروحي بعيداً عن ماديات هذا العالم ومسراته الزائلة ليتخطى حدود هذه الطبيعة المنظورة، فحينئذ يدخل في حيز عمل النعمة حيث تقوده موهبة الدموع في الحال إلى كمال حب الله. فإذا ما وصل إلى هذا الميناء السعيد تصير له الدموع غزيرة حتى أنها تختلط بطعامه وشرابه على الدوام بكثرة.

هذه هي علامة صادقة أن العقل تعرَّى من هذا العالم.

ولكن على قدر ما يقترب مرة أخرى من هذا العالم على قدر ما تشح دموعه في الحال. حتى إذا ما استقر فكره في الأمور العالمية، تجف دموعه وتنتهي. وهذه علامة أنه قد صار في يد العالم وشهواته.

٩١٨ . الدموع الدائمة أثناء الصلاة علامة على الرحمة الإلهية التي وُهِبت للنفس كنتيجة لقبول توبتها. بهذه الدموع تؤهَّل النفس للدخول في نور صفاء الأبدية.

٩١٩ . توجد دموع تحرق وتلهب وأخرى تبهج وتزهر، فالتي تنحدر من القلب بانكسار من أجل الخطايا فإنها تيبِّس وتحرق تنعمات الجسد! ويحس الإنسان بألم عند انحدارها من عينيه ... ولكن هذه الدموع المحرقة تفتح الباب للدخول في الرتبة الثانية للدخول في أرض المسرة التي فيها يقبل الإنسان الرحمة حيث الدموع الحلوة الرقيقة التي تزين وتبهج الجسد والنفس التي تنبع من ذاتها بلا انقطاع دون تغصُّب.

٩٢٠ . طوبى للباكين من أجل الحق، لأنه من خلال دموعهم يرون باستمرار وجه الله.

مار إسحق السرياني

٩٢١ . الدموع أثناء الصلاة هي علامة الحياة الطيبة، هي موهبة كبيرة. اسألوا هذه النعمة من الله، اسكبوا أمامه الدموع لتصير صلاتكم كالبخور قدامه.

٩٢٢ . مجاري المياه لوقت الحريق؛ ومجاري الدموع في زمن التجربة.

الماء يخمد لهيب النار؛ والدموع تطفئ شهوة الشر!

مار أفرام السرياني

٩٢٣ . حينما تفيض منك الدموع أثناء الصلاة لا تستكبر في ذاتك كأنما قد صرتَ أعلى من الآخرين، ولكن اعلم أن الصلاة هي التي وهبتك هذه الدموع لتمهد لك طريق الاعتراف باشتياق، وتُحنن قلب القدير عليك! ولكن حذار أن تجعل الدموع شهوتك لأنها قد وُضِعَت لتكون ضد الشهوات فلا تشتهيها في ذاتها لئلا تُغضِب معطيها!!!

٩٢٤ . كثيرون قد نسوا الغرض الذي من أجله قدموا دموعهم، فتكبروا وانحرفوا عن طريق الحق الذي ابتدأوا به وعاشوا في كبريائهم.

نيلوس السينائي

٩٢٥ . قد جمع الآباء القديسون كل نشاط الراهب في كلمة «حياة البكاء».

حينما يسكن الروح القدس في إنسان، فإنه يشفع فيه بأنَّات لا يُنطَق بها (رو ٨: ٢٦). وما معنى «أنَّات» إلا تنهدات البكاء من أجلنا!! كم بالحري يجب أن نبكي نحن على أنفسنا فنصير أهلاً لحلول ذلك الزائر العظيم! يجب أن يصير البكاء لازمة من لوازم صلاتنا ورفيقاً دائماً مدى الحياة حتى نهاية الطريق.

٩٢٦ . كل من يُقرن الصلاة بالدموع فقد جنى أول ثمارها واستحق قبول بقية ثمارها. أما مَنْ عَدِمَ البكاء في الصلاة فقد عدم ثمارها أيضاً.

الأسقف إغناطيوس (ب)

٩٢٧ . إن العيون التي أفاضت دموع الرحمة والشفقة قد استأهلت أن تشرق عليها شمس البر لتضيء لها الحياة.

الأب صاروفيم (ص)

٩٢٨ . من الدموع ما يُعصَر عصراً حينما تكون العيون جافة والقلب قاسياً، ولكن بالرغم من ذلك فمثل هذه الدموع لن تسقط بلا ثمرة، فهي وإن كانت شحيحة إلا أنها تدل على نية القلب للاغتسال من دنس الماضي وزلل الحاضر.

ولكن من المؤكد أن الدموع لا تُذرَف بتغصُّب أو تعب عند الذين أدركوا محبة الحق والسير بالطهارة.

لا تغصب نفسك على الدموع فهي لا تأتي بالعنف لئلا تسوقك إلى صغر النفس من كثرة المحاولات الفاشلة.

ارفع عقلك في الصلاة واتركه ينبسط بحرية الإرادة ليحلِّق في السماء، وترفَّع عن الدموع العواقر التي بالتغصُّب.

الأب يوحنا كاسيان

٩٢٩ . اجتهد للسير في الطريق الضيق لتدخل مدينة السلام أورشليم المهيَّأة كعروس لعريسها!

ولكن الطريق إليها تعوزه دموع تُذرَف ليلاً ونهاراً.

- «كل ليلة أُعوِّم سريري، بدموعي أبل فراشي!!» (مز ٦: ٦).
- «صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً!!» (مز ٤٢: ٣).
- «قد أكلتُ الرماد مثل الخبز ومزجتُ شرابي بدموعي!!» (مز ١٠٢: ٩).
- يا رب «لا تسكت عن دموعي لأني غريب عندك!» (مز ٣٩: ١٢).
- يا رب «اجعل دموعي في زقٍّ عندك، أَمَا هي في سِفرِك؟» (مز ٥٦: ٨).

٩٣٠ . إن الدموع التي تُذرَف من شدة البلية في وقت الحزن مع التهاب الأحشاء والتطلع لمعرفة الحق تكون غذاء للنفس لشفائها، كما اغتذت مريم منذ القديم عندما بكت حتى بللت أقدام السيد بالدموع فغفر لها خطاياها الكثيرة لأنها أظهرت حباً كثيراً!

إيه أيتها اللآلئ الثمينة المنحدرة من العيون الباكية! لقد حنَّنتِ قلب السيد حتى فاض بالرحمة عليكِ، وكما كان للنفس النادمة الحزينة لهفة نحو العريس الطاهر كذلك تأجج قلب العريس بالحب المفرز نحو عروسه المتطهرة!!!

يا للشركة العجيبة التي ربطت العريس بعروسه!

أبا مكاريوس الكبير

٩٣١ . إن كانت المعمودية قد طهرتنا من الخطية المتوارثة فينا من آدم، فالدموع هي تجديد لقوة تطهير المعمودية لغسل الخطايا التي عملناها في أنفسنا.

المعمودية التي أخذناها أطفالاً قد دنسناها كلنا!

والعين الباكية هي جرن دائم لمعمودية التوبة والتجديد.

لو لم يهبنا الله نعمة الدموع لتعذَّر خلاص الكثيرين.

٩٣٢ . مَن اقتنى الدموع النابعة من العين النفسية الداخلية فقد ضبط النوح وأحكم استعمالاته!

أما من تعوَّد البكاء بالعين الظاهرة فقط فعليه أن لا يهدأ حتى يعبر إلى معرفة أصول الدموع ومناقبها!

٩٣٣ . الكنز المستور يصعب سرقته؛ أما الظاهر فهو عُرضة للسلب والنهب. هكذا الدموع، فالبكاء في الخفاء يبقى ويدوم؛ أما الظاهر فعُرْضَة للضياع.

٩٣٤ . كل من يغصب نفسه على الدموع بغير معرفة وبغير هِمَّة وعمل وتوبة وندامة فهو يقدم تقدمة جسدية فحسب.

يا حبيبي تذكر نومة القبر حينما تأوي إلى فراشك!
تذكر الدود الذي سيولم وليمة على جسدك حينما تتقدم إلى طعامك!
فنم قليلاً، وكُلْ قليلاً، واغصب على كل حال طبيعتك.
وابكِ بمشيئتك بدل أن تبكي بغير مشيئتك.

٩٣٥ . رأيت عيوناً بالوجع تبكي وتذرف الدمع بالتعب. ورأيت عيوناً تنهمر منها بلا كيل، فطوبت الأولى وغبطت الثانية.

٩٣٦ . الجدل في الأمور اللاهوتية لا يلائم النائحين لأنه يبطل الدموع ويحل النوح!!! لأنه يليق بالجالسين على كراسي التعليم جلوس المعلمين. أما النوح فهو يلائم الجالسين على التراب اللابسين المسوح؟

٩٣٧ . ليس من بكى على ما شاء قد وصل إلى البكاء؛ وإنما الباكي حقاً هو من بكى بمشيئة الله!

٩٣٨ . الذي اقتنى الدموع قد بغض حياته وهجر جسده كما يهجر الإنسان عدواً له وصار يشتاق إلى البكاء كاشتياق العطشان إلى الماء البارد.

٩٣٩ . لا تصدق يا أخي دموعك قبل أن تبلغ حد الطهارة الكاملة.

٩٤٠ . ليس للمسجونين سرور في سجنهم، وليس للراهب الحقيقي عيد على الأرض، لأن عيده في دموعه وسروره في بكائه!

٩٤١ . من لبس النوح السعيد كمنطقة على حقويه فقد كتب لنفسه الفرح الدائم مع القديسين في الحياة الأبدية.

٩٤٢ . قد رأيت كثيرين من الفقراء والمساكين الخالين من الفضائل، اغتصبوا ملكوت السموات بكثرة بكائهم وصيامهم أمام الله!

٩٤٣ . من افتخر بدموعه وبكائه وازدرى بالآخرين لعدم بكائهم، يشبه إنساناً التمس من الملك سلاحاً

ليقتل به عدوه فقتل به نفسه!

٩٤٤ . يا أحبائي، الله لا يُسرُّ ببكائنا ووجع قلبنا، بل هو يريد أن نفرح معه دائماً ولا أحد ينزع فرحنا منا.

فهو لم يخلق آدم باكياً، ولا جعل البكاء من طبيعتنا بعد القيامة، وإنما طوَّب الباكين الآن لأن البكاء يغسل جرح الخطية ويجففه!

٩٤٥ . الدموع للجاهل توقعه في الصلف والكبرياء، لهذا لا تُعطَى للجهال.

٩٤٦ . تضحك الشياطين حينما ترى إنساناً متكبراً يبكي، لأن البكاء يُزيده تكبراً على تكبره!

٩٤٧ . إن النفس وقت خروجها من العالم لا تجد ما يعزيها ويشجعها إلا ما قدمته من التوبة والدموع!

أما هؤلاء السعداء الذين استعدُّوا لهذه الساعة وبكوا من أجلها بغير فتور لا تجدهم يرفعون صوتهم أو يشتغلون بالألحان قط ... وأنت إذا ظننت أنك تستدعي النوْح باللحن فقد أبعدت النوح عنك.

٩٤٨ . رأيتُ دموعاً كاذبة يسوقها الشيطان للذين تركوا دياراتهم وآثروا السكنى في العالم حتى يوهمهم أنه ليس من ضرر في إقامتهم بين الناس!

الأب يوحنا الدرجي

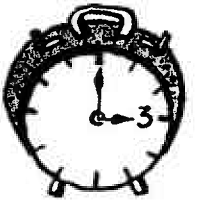

الفصل العاشر

الصوم

+ «متى صمتم فلا تكونوا عابسين» (مت ٦: ١٦).
+ «لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء»
(مت ٦: ١٨).
+ «إعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية»
(يو ٦: ٢٧).
+ «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله»
(يو ٤: ٣٤).
+ «ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون!» (لو ٦: ٢٥).

الصوم هو تدريب عملي للتقدم في الحياة الروحية، وهو إحدى الوسائل المستحبة والعلامات الظاهرة للدخول مع الله في عهود متجددة.

هو ليس فترة محدودة تنتهي ويأتي غيرها وهكذا، وإنما هي فترات متصلة اتصالاً وثيقاً كل منها يقدمنا درجة في حياتنا الروحية، وفي مجموعها تنشئ لنا حياة نسكية فيها تستشفي نفوسنا من عيوب وأمراض وأخطاء كثيرة على طول الزمن.

وإن كنا ندعو إلى الصوم في هذا الكتاب فلا ندعو إليه كما فهمناه من أفواه العامة أو من صفحات الجرائد التي صورته في أفكارنا تصويراً خاطئاً معيباً من الناحية الروحية الحقيقية.

فليس هو حرماناً ولا كبتاً ولا جوعاً وعطشاً؛ ولا هو جهاد ضد النفس أو تعذيب للجسد، ولا شيء آخر من هذه المعاني السلبية المخيفة.

والذين يمارسون الصيام على أساس هذه المعاني المعيبة لا يجنون من الصوم ثمرته الروحية بل يعذبون ذواتهم بلا طائل، وحينما ينتهي بهم الصوم أو ينتهون هم منه - بفارغ الصبر - يرتدُّون ارتداداً شديداً نحو الأخذ بأسباب الانحلال والترف والنهم حتى تختل أجسادهم من فرط انغماسهم في المآكل والمشارب. لأن هذا هو ما يحمله معنى العيد عندهم!!

إذن فممارسة الصوم على أساس هذه الأوصاف السلبية التي تحمل معنى الحرمان والكبت والجهاد تؤول بنا إلى حياة مختلة جسدياً ونفسانياً، وتصور لنا الصوم كعبء قاسٍ وفريضة كنسية ثقيلة نود لو نتخلف عنها أو حتى نُعتَق من بعضها! أَليس هذا هو صوت الأكثرية في هذا الجيل.

إننا لم نفهم الصيام بعد من ناحيته الروحية السامية ولم نمارسه كما يجب بأوضاعه الكنسية السليمة. ولكن يوم ندرك حقيقة الصيام سوف ندرك أن العيب ليس هو في الصيامات وكثرتها وإنما العيب فينا. فعندما نختبر قوة الصيام ونتائجه النفسانية حينئذ سوف نتمنى من كل قلوبنا لو امتدت بنا الصيامات إلى كل الأيام.

معاني روحية للصوم:

- ليس الصوم حرماناً من بعض الأطعمة، وإنما هو زهد اختياري عنها.
- هو ليس إذلالاً للجسد، وإنما هو إنعاش للروح.
- هو ليس تقييداً أو سَجناً للحواس، وإنما انطلاق بها بغير معطل نحو التأمل في الله.
- هو ليس كبتاً لشهوة الطعام، بل هو تخلية إرادية عن هذه الشهوة للإعلاء بها نحو حب الله.
- والصيام لا يحمل معنى الحصر والضيق، بل يهدف إلى السرور والاتساع في القلب.
- هو طقس كنسي عام كما هو اختبار فردي شيق.
- هو ليس حملاً ثقيلاً نلقيه عن كاهلنا يوم العيد، بل سرُّ نجاحه يكون في استمرار آثاره يوم العيد وبعد العيد.
- هو ليس ضرورة أو فرضاً موضوعاً علينا، وإنما هو احتياج لازم ولا غنى لنا عنه قط.
- وليس هو أمراً متعلقاً بالجسد بقدر ما هو متعلق بالروح والملكوت.
- كذلك هو ليس موضوعاً للتكفير عن الذنوب والخطايا بقدر ما هو إعداد للنفس للاتصال بخالقها والوجود في حضرته.

ممارسته:

لا يوجد صيام بدون فترة انقطاع، فجميع الصيامات لا بد أن تُمارَس بالانقطاع أولاً عن الأكل مدة محدودة ثم تناول أطعمة خاصة بالصيامات. هذه الفترة هي المحور الذي يرتكز عليه الصيام سواء في معناه أو تدريبه أو في نتائجه، فصيام بدون فترة انقطاع لا يصح قطعاً اعتباره صياماً بمعناه الروحي المقصود، وإنما يمكن أن يُقال إنه امتناع عن بعض الأطعمة فحسب.

وقد رتب الآباء الرسل والبطاركة الأولون بإرشاد الروح القدس فترات محدودة لأيام الصيام اهتموا فيها أشد اهتمام بمسألة مدة الصوم الانقطاعي في كل منها.

ونظراً لأهمية الصيام الانقطاعي من الناحية الروحية التأملية في الصلاة، سنعرض عليك هنا

عرضاً شاملاً دقيقاً لأنواع الصيامات كافةً وقانون كل منها من حيث فترة الصوم الانقطاعي كما رتبه الآباء الرسل في الدسقولية، وكما حدده الآباء البطاركة في قوانين مجامعهم الأولى المأخوذ بها في عرف كنيستنا:-

(١) الصيامات المفروضة على الجميع ذات العقوبة الصارمة عند الاستهانة بها:

هي ثلاثة أنواع من حيث مدة الصوم الانقطاعي:

النوع الأول:

نص: [وهي صيام الأربعين المقدسة التي صامها السيد المسيح **ويُصام فيها إلى آخر النهار** ولا يؤكل فيها حيوان ولا ما هو من الحيوان].

النوع الثاني:

نص: [صوم يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع «إلا إذا اتفق وقوعهما في الخماسين أو في عيدي الميلاد والغطاس». **وهذان يُصامان إلى الساعة التاسعة** من النهار «أي الساعة الثالثة بعد الظهر».]

النوع الثالث:

نص: [في أسبوع البصخة «أسبوع الآلام» وهو الأسبوع الذي يلي الأربعين المقدسة، وفيه يُصام على الخبز والملح والماء فقط **إلى ما بعد الغروب**. أما يوما جمعة الصلبوت والسبت **فصوموهما معاً دون أن تذوقوا فيهما شيئاً إلى وقت صياح الديك ليلة الأحد**. وإذا لم يقدر إنسان أن يصوم اليومين معاً فليصم يوم السبت كله.]

العقوبة:

نص: [أيما أسقف أو قس أو شماس أو إيبوذياكن أو أناغنوستس أو مرتل لا يصوم صوم الأربعين المقدسة وصوم يومي الأربعاء والجمعة فليُقطَع. أما إذا كان عاماً «من الشعب» فليُفرَز].

الاستثناء:

نص: [إذا كان أحد مصاباً بمرض جسدي فيُسمَح له بأكل السمك].

(الدسقولية: الأبواب الثامن عشر والحادي والثلاثون والثامن والثلاثون؛ والمجموع الصفوي: الباب الخامس عشر).

(٢) أصوام مستقرة في البيعة:

وهي على ثلاثة أنواع، فمنها ما يجري حكمه كحكم الأربعين المقدسة: أي صومها الإنقطاعي حتى الغروب. ومنها ما يجري حكمه كحكم صوم يومي الأربعاء والجمعة: أي صومها الانقطاعي إلى الساعة التاسعة من النهار (أي الساعة الثالثة بعد الظهر). ومنها ما ليس له حكم خاص:-

النوع الأول:

نص: [الأصوام المستقرة في البيعة والتي تنطبق عليها شروط صيام الأربعين المقدسة:-

(أ) الأسبوع السابق للأربعين المقدسة «أي الأسبوع الأول من الصوم الكبير».

(ب) صوم أهل نينوى، وهو ثلاثة أيام.

(جـ) برامون الميلاد، أي اليوم الذي يسبق عيد الميلاد.

(د) برامون الغطاس، أي اليوم الذي يسبق عيد الغطاس.

فهذه الأيام تُصام إلى آخر النهار «أي الغروب»].

النوع الثاني:

نص: [أصوام مستقرة في البيعة وتنطبق عليها شروط صيام يومي الأربعاء والجمعة، وهي:-

(أ) صوم الميلاد.

(ب) صوم الرسل.

وهذه تُصام إلى الساعة التاسعة من النهار «أي الساعة الثالثة بعد الظهر».]

النوع الثالث:

نص: [أصوام مستقرة في البيعة وهي أقل حفظاً «من جهة مدة الصوم الانقطاعي»، وهي صوم عيد السيدة العذراء.]

تحذير:

نص: [هذه الأصوام قد صامها البطاركة الأولون المعاصرون للمجامع المسكونية الأولى المقبولة قوانينها، فيجب حفظها بغير نقص. أما من صام زائداً على المفروض والمستقر فله ثوابه، ولا صوم في يومي السبت والأحد إلا عن الزهومات].

نص: [وكل من تكبر ومن غير ضرورة جسدانية يحل الصيامات المسلَّمة عند العامة ومحفوظة في الكنيسة ويصمم على ذلك، فليكن ملعوناً]. (مجمع غانغرا: قانون رقم ١٩)

(الدسقولية: الباب الحادي والثلاثون؛ والمجموع الصفوي: الباب الخامس عشر)

وهنا نرى أن الصيامات غير المفروضة فرضاً والتي استقرت في البيعة لم يوضع عليها عقوبات رادعة كالصيامات المفروضة، ولو أنها أخذت صيغة الفرض على طول الزمن.

(٣) صيامات خاصة:

للأساقفة: «الدسقولية: البابان الثالث والثامن والثلاثون»:

نص: (١) [ومن بعد رسامة الأسقف وإقامته فليصُم ثلاثة أسابيع، ولا يَذُق شيئاً في كل أسبوع منها إلى يوم السبت – هذا إذا لم يكن أيام خماسين].

(٢) [يصوم بقية سنته ثلاثة أيام ثلاثة أيام، والطعام الذي يستعمله تلك السنة هو خبز وعسل وبقولات الأرض].

(٣) [بقية أيام حياته يصوم كقدرته وينال من الطعام الضروري بقدر وبخوف الله وشكر، **ولا يَذُق اللحم أو الخمر كليةً**، ليس لأنه إذا أكل يتنجس، لكن لئلا يقسو قلبه ويظلم عقله، بل ليكون خفيفاً ويقدر أن يسهر براحته، لأنه ليس له ربح إذا ما نال شيئاً يقوِّي جسده].

(٤) [ليكن الأسقف ينال طعامه وشرابه بقدر ما يكفيه حتى لا يتواني أن يعلم غير المتعلمين، ولا يكون كثير النفقة ولا تائهاً ولا تكون سيرته التلذذ ولا يأكل شيئاً مختاراً.] (الدسقولية: الباب الثالث)

(٥) [في أيام الأعياد التي تتفق في وسط الأسبوع: إن اتفق يوم عيد في يومي الصوم اللذين هما الأربعاء والجمعة فليصلُّوا ويتناولوا من السرائر المقدسة ولا يحلوا الصوم إلا الساعة التاسعة].

للرهبان: (المجموع الصفوي: الباب العاشر: مجمع نيقية وتعاليم باسيليوس.)

نص: (١) [المقام في البرية، ولباس الصوف، وشد الوسط بسير، وترك المآكل اللحمية على الإطلاق وما لا تدعو الضرورة إليه، والاقتصار في الأغذية على ما يقوم بأَوَد الحياة الجسدانية].

(٢) [صرف العمر جميعه صوماً].

(٣) [إن كان الرهبان الذين في الدير فلاحين «أي يزرعون ويحصدون غلات الأرض بأيديهم» فليطعموا إذن مرتين في اليوم: الأولى في السادسة «أي في الساعة ١٢ ظهراً»، والثانية آخر النهار.

أما إذا لم يكونوا فلاحين فليقنعوا بمرة واحدة إما في الساعة التاسعة «أي في الساعة الثالثة بعد الظهر»، وإما في آخر النهار].

(٤) [من يتناول لحماً بحجة المرض فإن ذلك يكون عثرة له غير أنه ليس خطية، وإنما يُعتبر ذلك نقصاً].

ومن هذا العرض القانوني الكنسي لمسألة الصوم نرى أهمية خاصة موضوعة على فترة الصوم الانقطاعي، وهي تتراوح من مدة بسيطة غير محدودة - كما في صيام عيد العذراء - إلى أطول مدة مفروضة وهي طي يومين كاملين بدون أكل أو شرب، وهما يوما الجمعة العظيمة (جمعة الصلبوت) مع السبت حتى سحر الأحد.

ونرى أن هذا التدرج قد وُضِع بحكمة خاصة لتدريب المؤمنين قليلاً قليلاً لممارسة الصوم الانقطاعي.

ثم إن هذه القوانين لم تأخذ شكلها كفرض إلا بعد أن مارستها الأجيال الأولى واختبرت أهمية ممارستها على حياة الفرد والجماعة، فلما رأت ثمرة الصوم واضحة جلية لعموم المؤمنين، لم تتوانَ عن إدخاله بشكل فرض كنسي وذلك لكي ترقى بحياة المؤمنين الروحية وتضمن تقدمهم في حياة العبادة.

والآن لم يعد أمامنا إلا أن نبدأ حياتنا الروحية تحت ظل طاعة هذه القوانين المقدسة، فلا يتردد أحد أو يخشى صعوبة، فلم يوضع شيء من قِبَل الروح القدس جزافاً، فالمسألة تحتاج إلى إيمان وثقة برب الكنيسة المدبر لكل أحوالها والمستعد أن يرعى كل خروف مقدس من قطيعه. ولو علمت أن هذه القوانين يبدأ تطبيقها على المؤمنين الذين بلغوا سن الثانية عشر فما فوق، لأخذ منك الخجل كل مأخذ! فابدأ الآن وعوِّض «عن السنين التي أكلها الجراد» (يوء ٢: ٢٥) و «تشدد وكن رجلاً» (انظر ١صم ٤: ٩) واعلم أن «الذين في اللباس الفاخر والتنعُّم

هم في قصور الملوك» (لو ٧: ٢٥).

واعلم أنه لا يصح للإنسان أن يفوق الحد الموضوع له في صيامه الانقطاعي إلا بحِلٍّ خاص من الأب الروحي، ويشترط أن يكون الأب الروحي قد اختبر بنفسه هذه الحدود سواء التي للغروب أو التي بطيِّ الأيام قبل أن يسمح بها لأولاده.

كذلك لا يستحسن أن يقوم الصائم بمجهودات جسدية أو عقلية كثيرة في أيام صيامه كالتي يقوم بها في أيام إفطاره إذا كان ذلك في استطاعته، أما إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعته فيستطيع أن يحصل على حِلٍّ خاص من أب الاعتراف للتقليل من فترة الصوم الانقطاعي. أما الضعفاء والمرضى فقد نصت القوانين على أن لا يحرموا من الصيام فيحل صيامهم بأكل السمك وتنقيص فترة الصوم الانقطاعي إلى الحد المستطاع، حتى لا يُحرموا من هذه البركة الروحية التي تحمل في نتائجها شفاء النفس والجسد جميعاً من الخطية وآثارها وعللها.

تحذير:

عند البدء في الصيامات الانقطاعية يعتري الإنسان بعض العوارض المزعجة، كالصداع والدوخة والخمول وضيقة نفسية وعدم القدرة على بذل مجهودات روحية أو جسدية. ولكن معروف عند الذين تدربوا على الصوم أن هذه الأعراض تزول جميعاً بعد أيام قليلة من بدء الصوم فيتكيف الجسد على وضعه الجديد ويصير في غاية من النشاط والتوقد الذهني وحرارة الروح.

كمال التدريب:

الصوم في ذاته ليس هو فضيلة بل ليس شيئاً بالمرة، فهو إذا لم يقترن بالصلاة يصبح عقاباً جسدياً محضاً يقودنا إلى الجفاف الروحي وضيق الخلق، كذلك الصلاة إذا لم تقترن بالصوم فإنها تفقد قوتها بل تفقد ثمرتها.

فإذا شبهنا الصوم بجمر النار فالصلاة هي اللبان، ولن يَجْدِي نفعاً أحدهما بمفرده! أما إذا تآزرا واتحدا فإن عبيق رائحة بخورهما يفوح جلياً.

فالصوم يهدئ حركات الجسد ويحد كثيراً من توقد الحواس وشهوتها ويضع حداً لثرثرة اللسان، وبذلك يكون الصوم قد مهد تمهيداً مهماً لعمل الصلاة وانطلاق الروح من ربقة

عبودية الجسد وحواسه لتأمل حقائق الأبدية والحياة الأخرى.

ولا نقصد بالصلاة الوقوف ورفع اليدين وتركيب بعض الكلمات، وإنما نقصد الصلاة ذات التمهيد وذات الأثر البعيد والقريب، وذلك بتحديد فصول للقراءة لفترة الصيام وتجزيئها على الأيام وتعيين أوقات للقراءة التأملية، لا للحفظ ولا للبحث ولكن لاستيعاب مقاصد الإنجيل والخضوع لصوت الوحي حينما يحدثنا من وراء مادة الإنجيل، ثم نستخدم هذه القراءة لمتابعة تأملنا بقية النهار ما بين تحقيق وتطبيق. فتصير حياتنا حسب قول داود النبي في المزمور الأول: «في ناموسه يهذ نهاراً وليلاً» (مز ١ : ٢).

معطل شديد: (المكيفات):

إن أكبر ضربة أصاب بها الشيطان جيلنا الحاضر هي سيطرة المكيفات على الغالبية العظمى من الناس وأقصد بالمكيفات السجاير والقهوة والشاي.

هذه الثلاثة استطاعت أن تسلب من الكثيرين أغلى ما يملكون على الأرض وهو حرية إرادتهم الداخلية!!!

ويكفي لتعلم مقدار الضرر الذي أصاب الكنيسة من جراء هذه المكيفات، حينما تعلم أنه ما من أسير لإحدى هذه المكيفات يستطيع أن يشارك الكنيسة مشاركة روحية فعلية في صياماتها الإنقطاعية، وإن هو حاول ذلك فإنما بإعياء وجهد مرير يبلغ فيه إلى أقصى حالات الجفاف الروحي، وهكذا يفقد التدريب قيمته ولا يعود إلا مغالبة ومصارعة مع الكيف فحسب!

أَرأيت معي كيف استطاعت السجاير والقهوة والشاي أن تقوّض ركناً هاماً بل أهم ركن من أركان الصيام، أي فترة الصوم الانقطاعي، التي قد تطول إلى الغروب وإلى طي اليومين!؟

ترى في هذه الأيام أن الكنائس تنهي صلواتها قبل ميعادها المرسوم لها في أيام الصيام والأعياد المشهورة كيوم جمعة الصلبوت!

وليس السر هو الحاجة إلى الطعام ولكن الحاجة إلى الكيف!

انظر كيف تحكَّمت السجاير والقهوة في ميعاد الكنائس!

تدخل الهيكل أيام الصيامات فلا تجد متناولين! إنها هذه المكيفات التي حرمت الشعب المسكين من جسد الرب ودمه!

وليس الشعب فقط فالكهنة يدخنون والرهبان يدخنون والرؤساء يدخنون، إنها ضربة أصابت جسم الكنيسة من أخمص القدمين إلى هامة الرأس، إنه جرح في جسد المسيح ينزف وليس من «يعصر أو يعصب أو يلين بالزيت.» (أنظر: إش ١: ٦).

إن أردت أن تتهذب بفضائل الحياة الروحية فضع حداً لمكيفاتك من أي نوع كانت، ولتبدأ من هذه اللحظة، وإله السلام الذي حفظ دانيال من الأسود والفتية من نار الأتون يستطيع لو أردت أن يحميك من سطوة الكيف وناره المحرقة.

أقوال الآباء في الصوم:

٩٤٩ . مائدة الإنسان الذي يداوم الصلاة هي أحلى من كل عطر المسك وأزكى من أريج الزهر؛ ومحب الله يتوق إليها ككنز فائق القيمة!

خذ لنفسك شفاءً لحياتك من على مائدة الصوَّامين السهارى أولئك العمَّالين في الرب، وانهض نفسك من مواتها.

بين هؤلاء يتكئ الحبيب ويقدسهم، محولاً مرارة ريقهم إلى حلاوة تفوق حد التعبير، ويجعل السمائيين يعزُّونهم ويقوونهم ... إني أعرف أحد الإخوة رأى ذلك ظاهراً بعينيه.

٩٥٠ . حينما ينحط الجسد بالأصوام والإماتة تتشدد النفس روحياً في الصلاة.

٩٥١ . الجوع أكبر معين على تهذيب الحواس.

٩٥٢ . في بطن امتلأ بالأطعمة لن يوجد مكان لمعرفة أسرار الله.

٩٥٣ . كل جهاد ضد الخطية وشهواتها يجب أن يبتدئ بالصوم، خصوصاً إذا كان الجهاد بسبب خطية داخلية.

٩٥٤ . إذا ابتدأت بالصوم في جهادك الروحي، فقد أظهرت بغضتك للخطية وصرت قريباً من النصرة.

٩٥٥ . الصوم هو بداءة طريق الله المقدس، وهو صديق ملازم لكل الفضائل.

٩٥٦ . الصوم متقدِّم على كل الفضائل، بداية المعركة، تاج النصرانية، جمال البتولية، حفظ العفة، أبو الصلاة، نبع الهدوء، معلم السكوت، بشير الخيرات.

٩٥٧ . بمجرد أن يبدأ الإنسان بالصوم، يتشوق العقل لعشرة الله!

٩٥٨ . إحذر لئلا تُضعِف جسدك بالتمادي في الصوم، فيقوى عليك التراخي وتبرد نفسك. زنْ حياتك في كفة ميزان المعرفة.

٩٥٩ . في الوقت الذي يكون فيه جسدك شديداً وممتلئاً احذر أن تعطي ذاتك حتى ولا قليلاً من الحرية.

٩٦٠ . لقد تعلمتُ بالاختبار أن أساس كل الخيرات وخلاص النفس من أسر الأعداء والطريق إلى الله هو أمران اثنان: الثبات في مكان واحد فقط، ودوام الصوم.

فالإنسان يجب أن يقنّن بطنه باعتدال ولكن بحزم وتعقل، ويداوم السكنى في مكان واحد بفكر مشغول بلا انقطاع مع الله، وحينئذ يحصل على انتباه العقل ويصل إلى إخضاع حواسه وتسكين شهواته الجسدية المتحركة فيه.

٩٦١ . الشيطان يحاول من الابتداء أن يوقف من القلب عمل الصلاة. وبعد ذلك يقترح إهمال المواعيد المخصصة للصلاة والقوانين المحددة للعبادة، ثم يُخضِع الفكر عن ضعف لكي يتذوق قليلاً من الطعام قبل ميعاده مع إهمال أشياء أخرى بسيطة ... ولكن كل هذا يسهِّل قيام شهواتنا مرة أخرى.

٩٦٢ . إن أول وصية وُضِعت على طبيعتنا في البداءة كانت ضد تذوُّق الطعام، ومن هذه النقطة سقط رئيس جنسنا، لذلك فإن أولئك الذين يجاهدون من أجل خوف الله يجب أن يبدأوا البناء من حيث كانت أول ضربة.

مخلصنا الصالح حينما أظهر نفسه للعالم عند الأردن ابتدأ من هذه النقطة، فحينما اعتمد، قاده الروح إلى البرية مباشرةً فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة؛ وكل الذين يريدون أن يتبعوا خطواته يجب أن يضعوا أساس جهادهم على نموذج عمله.

هذا السلاح «الصوم» قد صقله الله فمن ذا الذي يجترئ على احتقاره؟

إن كان معطي الناموس قد صام بنفسه فكيف لا نصوم نحن الذين وُضِع الناموس من أجلنا؟

٩٦٣ . ليس سلاح أقوى من الصوم يعطي شجاعة للقلب في معركة الأرواح الشريرة. إن من يداوم على الصلاة يكون في كل وقت مشتعلاً بالغيرة كالنار.

٩٦٤ . بسلاح الصوم نال جميع القديسين الأتقياء إكليل النصرة على أعدائهم! لأنه أثناء الصوم يكون العقل مستعداً أن يحتمل أشد الضربات وأسوأ الحوادث المفاجئة دون أن يهتز.

٩٦٥ . يُقال بخصوص الشهداء إنهم حينما كان يبلغهم خبر اليوم الذي سينالون فيه إكليلهم إما بإعلان روحي أو بواسطة أحد أصدقائهم، كانوا لا يذوقون شيئاً البتة في الليلة السابقة ولا يتناولون طعاماً ما ولكنهم ينتصبون من المساء حتى الفجر في الصلاة متيقظين في شكر وحمد، بتراتيل وتماجيد وتسابيح وألحان روحية شجية، مسرورين منتعشين مترقبين هذه اللحظة كما يشتاق الناس إلى دخول بيت العرس. يتوقون وهم صائمون إلى ضربة السيف ليُكلَّلوا بإكليل الشهادة.

٩٦٦ . نحن أيضاً أيها الإخوة يجب أن نكون هكذا على الدوام مستعدين، متوقعين الشهادة الخفية ونوال إكليل الطهارة.

مار إسحق السرياني

٩٦٧ . تأكد تماماً أن العدو يهاجم القلب عن طريق امتلاء البطن.

الأب يوحنا (ك.)

٩٦٨ . إنه أمر عجيب فبينما نهتم بصحتنا ونكثر من اعتنائنا بأنفسنا ومن تناول الطعام الشهي المفيد للصحة ونختار الشراب الصافي ونتنزه في الهواء الطلق، نجد أنفسنا في النهاية معرَّضين للأمراض والأوجاع، مع أن القديسين الذين احتقروا أجسادهم وأماتوها بالعمل والصلاة الدائمة كانوا أكثر صحة وسلامة!

وبينما أجسادنا المعتنى بها تفسد وتنتن وتنبعث منها رائحة كريهة بعد الوفاة، إذ بأجساد هؤلاء القديسين المهملة عندهم والمزدرى بها جداً تبقى عطرة وتفوح منها روائح زكية حتى بعد الوفاة!

إنه أمر عجيب حقاً، إذ بينما نظهر كأننا نبني نهدم دون أن ندري، وبينما هم يهدمون، نجدهم بالعقل يبنون! «من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها» (مت ١٠: ٣٩).

٩٦٩ . إننا لا نخشى عدواً خارجياً، لأن عدونا هو داخلنا، وكل يوم تقوم الحرب داخلنا بنا وعلينا. فإذا كنا منتصرين فيها كجنود للمسيح تهون علينا كل الأمور الخارجية ويعم السلام، وتخضع كل حواسنا لنا، وحينئذ لا نخشى عدواً من الخارج إذا ما كان الداخل مُخضَعاً لنا ومغلوباً لإرادتنا.

وليتنا لا نعتقد أن الصوم الخارجي عن الطعام وحده يكفي لكمال وسلامة القلب ونقاوة الجسد إلا إذا كان يعينه من الداخل صيام النفس، لأن النفس لها أيضاً أنواع خطيرة من الطعام، فإذا ما اعتادت عليها هوت إلى مهاوي الفُجر والضلال. فالنميمة وحِدَّة الغضب والغيرة والحسد والبغضة هذه أطعمة الشقاوة التي تورد النفس إلى الهلاك.

كذلك كل شهوة وطياشة منحرفة للقلب تُعتبر طعاماً للنفس تغذيها كما من لحم فاسد ثم تتركها بعد ذلك بلا نصيب في الخبز السمائي. فإذا كنا نوقف كل قوانا للامتناع عن كل هذه بصوم مقدس شديد مع مراعاة الصوم الجسدي، حينئذ يصير الجسد مع النفس ذبيحة مقبولة والقلب مكاناً طاهراً للقداسة.

أما إذا كنا نصوم بالنسبة للجسد فحسب ونحن مقيدون بخطايا ورذائل نفسية معيبة، فلن يفيدنا توضيعنا للجسد شيئاً طالما أن الجزء المهم فينا متدنس.

علينا إذن حينما يكون إنساننا الخارجي صائماً أن نضبط الإنسان الداخلي ونمنعه من كل طعام يفسده، فإن هذا الإنسان الداخلي هو هو الذي يحثنا الرسول أن نقدمه طاهراً أمام الله قبل كل شيء حتى يكون أهلاً

لحلول السيد المسيح فيه.

الأب يوحنا كاسيان

٩٧٠ . أعطِ بطنك طعاماً مشبعاً سريع الهضم، لكيما بالشبع تزيل عنها شهوة الحنجرة، وبسرعة هضمه تهرب من الحرارة المتولدة من دسمه.

الأب يوحنا الدرجي

٩٧١ . إذا أضعفنا الجسد وأنهكناه لدرجة انحطاط الروح أيضاً، فإن ذلك يُعتبر عدم إفراز ورعونة حتى ولو كنا نسعى بذلك للحصول على الفضيلة.

الأب صاروفيم (ص.)

٩٧٢ . وكما أن الإفراط في الأكل ضار كذلك الإفراط في الصوم، لأن الضعف الناتج منه يعيقنا من تأدية الصلوات كما هو مفروض علينا.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

٩٧٣ . إنه أفضل أن نتخلف عن الخدمة «الصلاة» بسبب الضعف الناتج عن الصوم من أن نتخلف بسبب الكسل والوخم الناتج عن الامتلاء.

مار إسحق السرياني

٩٧٤ . يلزم أن نهب عناية كافية نحو الصوم كوسيلة نصل بها إلى نقاوة القلب وليس كغاية.

الأب يوحنا كاسيان

٩٧٥ . رأيتُ في زماننا هذا عوائد ذميمة قد تأصلت في المسيحيين، إذ رأيتُ الشعب وحتى بعض الكهنة يحلون رباط الصوم الذي فرضه الروح القدس على الكنيسة، أعني صوم الأربعاء والجمعة والأربعين المقدسة والميلاد والرسل والعذراء. يقومون باكراً في الصباح ويستعملون «شرب الدخان» والقهوة، متخذين في ذلك عللاً فارغة: واحد يقول إذا لم أشرب القهوة لا أعرف أن أرفع رأسي، وآخر يقول إذا لم أشرب القهوة لا أستطيع أن أفتح عيني، وآخر يقول إن الدخان يطرد البلغم من على قلبي (أي من صدري). وآخر يقول إذا لم أشرب الدخان لا أعرف أن أقضي حاجة الطبيعة. يا لها من ارتباطات فارغة ارتبط بها هؤلاء الأشقياء، فحُرِموا من نعمة الحياة المسيحية المتحررة من كل ارتباطات الخطية والجسد: «لا تملكنَّ الخطية في جسدكم» (رو ٦: ١٢).

٩٧٦ . إذا كنتم يا متقدمين في الشعب من رؤساء وأراخنة تفطرون باكراً في الصباح أمام الشبان والأطفال فقد صرتم عثرة لهذا الشعب وعلة برودتهم من حرارة العبادة والصلاة. ألا تستحون من قول الرب: «ويل لكِ أيتها الأرض إذا كان ... رؤساؤكِ يأكلون في الصباح.» (جا ١٠: ١٦)؟

٩٧٧ . وأنتم يا كهنة الرب واجب عليكم التعليم ورعاية الشعب والتشديد عليهم بالصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر.

وأنتم يا أولادنا المسيحيين وبالأكثر يا رؤساء الشعب والأراخنة، فليترك كل واحد منكم عادته الرديئة التي تعطل صومه، أي شرب القهوة والدخان في الصباح، وثابروا على الصوم والتجلُّد ولو كان فيه تعب لكم، فتعب هذا الدهر لا يساوي المجد المزمع أن يوهب لنا.

والإنجيل يقول: «من لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستحقني»، وحمل الصليب يشمل تعب الصوم، لأن الصوم يذلل النفس الحيوانية فتموت وتُصلَب الشهوات. وبذلك تطهر النفس العقلية وتنبت لها أجنحة روحانية.

٩٧٨ . ثم بعد هذا أتانا الابن الوحيد منحدراً من السماء إلى الأرض ولبس جسداً وعرَّفنا الطريق إلى الخلاص، عاملاً ومعلِّماً. وأول درس عمله وعلَّمه لإنارة طريق الخلاص الذي يعتقنا من سلطان السقطة التي هوت بآدم رئيس جنسنا، أي كسر الوصية بشهوة الأكل، هو انفراده في البرية وصيامه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم تقدم إليه العدو ليحاربه فحاربه وغلبه وأظهر لنا السر كيف نغلبه بالصوم، مصرِّحاً: «هذا الجنس لا يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم».

٩٧٩ . إذا أفطرنا يا إخوتي والكنيسة صائمة نكون قد أفرزنا أنفسنا وصرنا عثرة لغيرنا وسبب انحلال للضعفاء. فلا تفطروا قبل أن تفطر الكنيسة، كذلك لا تصوموا بعد أن يتم الصوم وتفطر الكنيسة، إلا أن يكون قانوناً موضوعاً من معلم التوبة أو بمشورة معلم مدبر، لئلا يكون صومكم غير مقبول ويجلب عليكم العظمة والافتخار ويولِّد فيكم الدينونة.

٩٨٠ . لا تصُمْ بالخبز والملح وأنت تأكل لحوم الناس بالدينونة والمذمة. لا تقل أنا صائم صوماً «نظيفاً» وأنت متسخ بكل الذنوب.

إن أردت أن تصوم صوماً نظيفاً تعال وأنا أريك كيف يكون:

خذ لك مرشداً حكيماً، وإذا أمرك بالصوم فاغسل وجهك وادهن رأسك ولا تظهر للناس صائماً فيضيع أجرك من مديحهم. لا تصوِّم فمك من الأطعمة ولسانك يأكل في أعراض الناس! لا تفتخر على غير الصائمين. واضبط لسانك من الكذب والحلفان وذم الناس والافتراء عليهم في غيابهم أو حضورهم، ولا تضرب الواحد بالآخر وتقف كمُصالِح بينهما.

صوِّم يدك وعينك وأذنك من كل أمر قبيح يُغضب الله وحينئذ يكون صومك نظيفاً!!

٩٨١ . لا تدقق في صوم وتتهاون في آخر، لأني رأيت كثيرين يفطرون الأربعين المقدسة وفي صوم العذراء

يصومون صياماً فائقاً عن وضع الكنيسة بأهوية قلوبهم وبدون مشورة معلمي البيعة.

أنبا يوساب الأبح

٩٨٢ . احذر من خداع البطن إذ تكون مملوءة وتصيح أنها جائعة. احذر من النهم الذي يشير عليك أن تبتلع كل شيء دفعة واحدة، واعلم أن الشبع من الطعام هو أبو الزنا.

٩٨٣ . يفرح اليهودي بسبته، ويسر الراهب النهم البطن بيومي السبت والأحد، يجلس يحسب يوم العيد قبل وقته، ويستعد للأطعمة قبل أوانها.

٩٨٤ . اضحك على الشيطان الذي يحضك على زيادة ساعات الصوم، فإذا حانت ساعة الإفطار أنكر موقفه.

٩٨٥ . إذا قسونا قليلاً على بطوننا تذللت قلوبنا وانغلقت أفواهنا. أما إذا لذذناها بالمآكل فرحت ومرحت عقولنا وانسابت ألسنتنا.

٩٨٦ . اعرف أن الشيطان في أكثر أوقاتنا يجلس في معدتنا ويجعل الإنسان لا يشبع ولو أكل مصر كلها وشرب نيلها! ثم ينصرف هذا الشيطان البطني ويرسل لنا شيطان الزنا بعد أن يخبره بما جرى قائلاً له أدركه فإن بطنه موثق فلن تتعب معه كثيراً ... فإذا ما وافانا تبسَّم وربط بالنوم أيدينا وأرجلنا وعمل كل ما شاء فينا.

٩٨٧ . إن كنت عاهدت المسيح أن تسلك الطريق الضيقة فضيِّق بطنك أولاً، لأن البطن العريض الواسع يستحيل أن يسير في طريق الرب الضيقة، فإذا اتسعت بطنك بعد ضيق فقد خالفت عهودك.

٩٨٨ . إذا جلست على المائدة فضع ذكر الموت أمامك ومن خلفه ضع موقف يوم الدينونة الرهيب، وأنت بذلك تقطع الطريق على شيطان الشره.

٩٨٩ . إذا تناولت الكأس لتشرب فاذكر الخل والمرارة اللتين شربهما يسوع من أجلك وبذلك تضبط نفسك.

٩٩٠ . الصوم هو غصب الطبيعة وتكليفها بمراد النفس، وقطع تلذذ الفم وحرمان الجسد من الحرارة.

٩٩١ . فتح شيطان شره البطن فمه وقال: إن ابني البكر هو خادم الزنا، وأخوه هو قساوة القلب، وثالثهم كثرة النوم والتلذذ بالفراش، أما بناتي فهنَّ الثرثرة والنكتة وحب التزين، أما آخر أولادي فهو قطع الرجاء.

الأب يوحنا الدرجي

٩٩٢ . عمل النسك ضروري، وهذا ظاهر من قول بولس الرسول، إذ أنه عدَّ النسك ثمرة للروح قائلاً: بجوع وعطش، بصوم كثير إني أقمع جسدي وأجعله لي عبداً.

فالفضيلة لا تُقام إلا بالنسك لأن النسك يلجم الشهوات، والطعام لا ينفع الجاهل، هكذا قال سليمان الحكيم. ولا تهتموا لأجسادكم بماذا تأكلون، هكذا قال المسيح. وقد قرن الرسول الضلالة بقلة النسك إذ يقول: «وفي آخر الأيام تكون أزمنة صعبة ويكون الناس محبين لشهواتهم». كذلك أظهر الرسول أن لعنة عيسو قد حلت عليه بسبب شهوة بطنه.

وعلى العكس فإن الفضيلة قُرِنت دائماً بأعمال النسك. فموسى صام أربعين يوماً ثم صعد على الجبل وتكلم مع الرب كما يتكلم الرجل مع صاحبه، وأخذ من الرب لوحي الوصايا مكتوبة بأصبع الله! ودانيال صار في الرؤيا بعد ما صام واحداً وعشرين يوماً؛ والفتية الثلاثة لم تؤذهم نار الأتون المحمى بسبب صومهم وصلاتهم؛ ويوحنا المعمدان أقام حياته كلها في تقشف وزهد، وأعلن الرب للعالم نوع غذائه ولباسه وهذا كان يخفيه عن الناس، ليكون لنا منه عظة.

٩٩٣ . ولستُ أعني بالنسك ترك الطعام الضروري لأن هذا يؤدي إلى الموت، ولكن أعني ترك المآكل التي تجلب لنا اللذة وتسبب تمرد الجسد.

والقانون الضروري في طعام النسك هو الخبز والماء والخضر.

٩٩٤ . وقد تكون هناك أشياء كثيرة ليس فيها خطية ومع ذلك يجب أن نتنسك عنها إذا كان في ذلك ربح لنا وللآخرين كما قال الرسول: «إن كان طعام يعثر أخي فلن آكل لحماً إلى الأبد لئلا أعثر أخي» (١كو ٨: ١٣)، وأيضاً قال: «حسن أن لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً أو شيئاً يصطدم به أخوك أو يعثر أو يضعف» (رو ١٤: ٢١).

٩٩٥ . والمتنسك بالحقيقة هو من يتغرب من كل الآلام (أخطاء الشهوة) الجسدانية حتى الطبيعية. والنسك هو رأس الحياة الروحية وهو يقلع شهوة اللذة. أما اللذة فهي خدعة الشرير والصنارة التي يصيد بها أتباعه ويسوقهم مكبلين بقيودها إلى الموت.

٩٩٦ . أما فضائل الناسك فهي مخفية لا تظهر للناس، ومع ذلك فهي تُعرَف من معاملة الناسك لجسده. وفي هذا ربح ليس بقليل لكل الذين ينظرونه حتى أثناء أكله، كما يقول الرسول: «حتى إذا أكلتم أو شربتم أو عملتم أي عمل آخر يكون الكل لمجد الله».

٩٩٧ . ولكن لا نعدُّ مع أعداء الله الذين ينحرفون بنياتهم السيئة ويحرِّمون بعض الأطعمة التي خلقها الله ليأكلها الإنسان بالشكر، يجب علينا أن نذوق من كل طعام يُقدَّم لنا، كل نوع في زمنه دفعة واحدة (خاص للرهبان) حتى نُظهر للجميع أن كل شيء طاهر للأطهار، وأن كل ما خلقه الله هو حسن وأن ليس شيء نجساً في ذاته إذا تناولناه بالشكر، لأن كل شيء يتطهر بكلمة الله.

ولكن مع هذا لنحفظ صورة النسك ونهرب من امتلاء البطن، لأن النسك ترتعب منه الشياطين كما قال

مخلصنا: «إن هذا الجنس لا يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم».

باسيليوس الكبير

٩٩٨ . لقد جرب آباؤنا الصوم كل يوم فوجدوا أنه نافع وموافق لنقاوة النفس، ونهونا عن امتلاء البطن من أي طعام كان حتى ومن الخبز البسيط، أو من الماء أيضاً.

الأب يوحنا كاسيان

٩٩٩ . إن كنا لا نستطيع أن نصوم إلى العشاء فلنشارك الضعفاء ونصوم إلى التاسعة أو إلى نصف النهار على الأقل، وإنما لا نأكل من باكر وهذا لا يحتاج إلى قوة جسد.

مار إسحق السرياني

١٠٠٠ . وهكذا ظلّ القديس أنطونيوس زهاء عشرين عاماً يدرب نفسه في الوحدة، لا يخرج قطعاً ويندر أن يراه أحد. بعد هذا لما كثر الذين أرادوا برغبة حارة أن يقلدوا نسكه، وبدأوا يقتحمون بابه خرج إليهم متعمقاً في الأسَرار ممتلئاً من الروح القدس. ولأول مرة رُئي خارج الحصن، وعندئذ تعجبوا من منظره عندما رأوه، لأنه كانت له نفس هيئة جسمه السابقة فلم يكن بديناً كرجل بغير تمرين، ولا نحيفاً هزيل الجسم بسبب الصوم والصراع مع الشياطين، بل كان كما عهدوه قبل اعتزاله.

سيرة أبا أنطونيوس الكبير بقلم أثناسيوس الرسولي

الباب الثالث

معوّقات الصّلاة

توجد معوِّقات للصلاة عند المبتدئين ومعوِّقات للصلاة عند المتقدمين.

أما فيما يختص بالمبتدئين فلا تخرج عن عدم تعود الصلاة في البداية من تشتت الفكر في الأمور التي لا يزال الإنسان يهتم بها أكثر من الله، وكذلك عدم الانتظام في الأوقات، والشكوى من عدم فهم كلام الصلاة سواء كانت المزامير أو حتى الكتاب المقدس، وهذه كلها يجدها القارئ مشروحة على مدى الأبواب التي في هذا الكتاب وقد اعتنينا بتوضيح كل علة في موضعها.

وسنقتصر في هذا الفصل على توضيح معوقات الصلاة عند الذين نجحوا في ممارستها، أي السائرين في حياة الصلاة. على أننا نلفت النظر منذ البداية إلى أنه كثيراً ما تُعاق صلواتنا بسبب ضعف الجسد وانحطاط قواه ونشاطه نتيجة المرض كالأنيميا بنوع خصوصي أو الهبوط في الطاقة العصبية نتيجة إرهاق فكري أو ضيق نفساني أو كثرة الصوم فوق الطاقة أو ربما الإمساك الشديد المزمن أو كثرة الأعمال اليدوية أو الجسمانية أو الفكرية؛ فهذه كلها تحتاج إلى بصيرة نافذة من الإنسان أو من المرشد الذي يدبره لكي يكتشفها في الحال ويدبر علاجها لئلا تسوء حالة النفس ويرتبك الإنسان معتقداً أن تعوُّقه في الصلاة يعود إلى إهماله أو توانيه أو برودته أو خطيئته، فيبتدئ الإنسان في اليأس نظراً لأنه سيكون معرضاً للإخفاق المحتم بسبب مرضه الجسدي أو العصبي أو النفسي، مع أن حقيقة حاله هي ما قاله المسيح نفسه لتلاميذه الذين انحلوا من التعب والسهر وناموا مع أنه كان ينبغي أن يصلوا: «أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف» (مت ٢٦: ٤١).

وأما العوامل الأساسية التي تختص بتعويق الصلاة عند المتقدمين، فتنحصر في ثلاثة اختبارات معروفة ومهمة:-

الأول هو: **الجفاف الروحي**، والثاني هو: **الفتور الروحي**، والثالث هو: **ضياع هدف الصلاة من قلب الإنسان**. وسوف نعالج الاختبارين الأولين أي الجفاف والفتور معاً تاركين

الاختبار الثالث، أي ضياع الهدف، بمفرده في نهاية الباب.

أما الفرق بين الجفاف الروحي والفتور الروحي فهو كبير، فالجفاف الروحي اختبار يلازم الإنسان أثناء الصلاة ولا يمنع الإنسان من الاستمرار في الصلاة أو القراءة أو السهر، ولكنه يجعل هذه خالية من أي عزاء أو مسرة أو لذة.

أما الفتور الروحي فيصيب العمل نفسه، فتتوقف الصلاة ويفقد الإنسان القدرة على مواصلة أي عمل روحي، فتصبح القراءة عسيرة والسهر غير ممكن وينصدُّ الإنسان حتى عن مواصلة الجهاد في الخدمات البسيطة العادية.

ففي أثناء الجفاف الروحي يمكننا أن نصلي بسهولة ونتابع المعنى ويكون عقلنا منتبهاً ومشاعرنا حاضرة، ونستطيع أن ندرس الكلمة ونعكف على القراءة والكتابة، ولكن نكون في أثناء ذلك كله فاقدين العزاء الداخلي.

أما في الفتور الروحي فإذا وقفنا للصلاة أو جلسنا للقراءة يكون العقل مشتتاً والقلب متغرِّباً عنا، فتصبح متابعة الصلاة والنشاط الروحي أمرين فوق أنهما عسيران جداً فإنهما يكونان أيضاً بلا أدنى تحصيل.

الفصل الأول

الجفاف الروحي

«إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب، في الليل أدعو فلا هدوَّ لي ...
يبسَتْ مثل شَقْفَةٍ قوتي، ولصق لساني بحنكي» (مز ٢٢: ٢ و ١٥).

حينما تدخل النفس في اختبار الجفاف الروحي لأول مرة تجزع جداً، خصوصاً إذا كانت متوفرة على العبادة بإخلاص وتدقيق، ويبدأ الإنسان يضطرب ويتساءل ويفتش عيوبه لعله يجد السبب.

ولكن الحقيقة أن الجفاف الروحي ليس هو علامة على فقدان أي شيء في علاقتنا الطيبة مع الله، وإنما هو مرحلة هامة لازمة لتهذيب النفس وإعدادها لحياة روحية أكثر تقدماً لا تعتمد على مشجعات نفسانية أو مسرات ذاتية.

فهو بمثابة غذاء عسير الهضم نوعاً ما، إلا أنه بليغ الفائدة. فإذا خضعنا لهذا الاختبار وجُزْناه برضى ووعي وصبر ولم تذبل أرواحنا بسبب عدم التعزيات والمشجعات واكتفينا بالاعتماد على صدق مواعيد الله، فنحن ندخل بواسطته إلى قامة الأبناء الكاملين ونُؤهَّل للمحبة العالية التي لا تطلب ما لنفسها والتي لا تعتمد على الأخذ بل تكتفي بالعطاء والبذل.

وإذا فحصنا هذا الاختبار الروحي بدقة، نجد أنه يخلو في طبيعته من أي اضطراب ولا يصيب القلب بضيق، فالجفاف يعم الروح من جهة المشاعر والعواطف فقط ولكنه لا يمس سلام النفس وهدوءها، غير أنه يكون سلاماً بلا حرارة عاطفية وهدوءاً بلا جاذبية أو مسرة.

لذلك لا يتأثر في الواقع من تجربة الجفاف الروحي إلا ذوو النفوس المدللة الذين يعيشون على التعزيات والمشجعات والذين التقوى عندهم مرتبطة بالأخذ، ونموهم في نظرهم يعتمد على البراهين الحسية.

وخطر هذه المرحلة هو أن يتشكك الإنسان في الطريق ويعتقد أن علاقته بالله قد انقطعت، فيتوقف عن الصلاة، مع أن حدود هذا الاختبار - أي الجفاف الروحي الذي تسوقه النعمة على الإنسان - يسمح بوجود واستمرار الصلوات، فهو لا يسلب من الإنسان القدرة على الصلاة والمداومة فيها ولكن يسلبه فقط التعزيات الفرعية التي كان يعتمد عليها في الصلاة.

فإذا أوقف الإنسان الصلاة بحجة الجفاف الروحي وفقدان التعزية فإنه يتقهقر روحياً، ويدخل بدون داعٍ في تجربة سلبية خطرة وهي التذمر على الله.

إذن، من الخطأ أن يضطرب الإنسان عند عبوره مرحلة الجفاف؛ كذلك من الخطر أن يتوقف الإنسان عن الصلاة بحجة أنه لا يجد مسرة في الصلاة، فالجفاف جزء حي من طبيعة الصلاة قادر لو استوعبناه بنفس راضية واعية أن يرفعنا إلى درجة أعلى في الصلاة وهي الصلاة النقية التي لا تعتمد على العواطف والمشاعر والمشجعات من أي نوع!!

فمهما شعر الإنسان بتخلية النعمة ظاهرياً فليكتفِ بعملها السري، وليعتمد على قوة الدفع السابقة التي اقتناها في حياته مع الله، فهي تكفيه لعبور المراحل الأولى من هذا الاختبار حتى تبتدئ تستقر نفسه في الله بدون مشجعات ووسائط.

كذلك فليعتمد السائر في الطريق أثناء هذا الاختبار، على مشورة المرشد واتِّباع أوامره بتدقيق لأنها ذات قيمة كبيرة خصوصاً في هذه المرحلة. ولكن لعل أعظم وصية تفيد الإنسان في هذا الإختبار هي قبول الإنسان الجفاف الروحي بداعي الاتضاع واكتفاؤه بأن يكون أقل الناس وأنه ليس أهلاً للتعزيات. وحتى لو اعتبر أن الجفاف الروحي تأديباً، فهذا أمر جيد لنفسه (مع أن الجفاف ليس تأديباً ولكنه تهذيباً).

ولن ينفع الإنسان في هذه المرحلة أن يقف ليفحص حاله ويفتش عن الأسباب والدواعي ويحاول أن يضع خططاً للخروج من هذا الإختبار، بمضاعفة السهر أو الصلاة أو الصوم، فإن هذا كله جهد ضائع ويُخرِج الإنسان خارج خط تدبير النعمة. أما أعظم عمل يمكن أن يعمله، فهو أن يقبل الجفاف ويداوم أثناءه على عمله الروحي برزانة ووعي، مستجيزاً العناء والجهد الزائد لمتابعة مسيره بنفس السرعة كالسائر في دروب الصحراء لا يثنيه فقدان مسرات المدينة عن المسير في جوف الصحراء القاحلة حتى النهاية.

وأوقع ما في الاختبار الروحي هو أن نقبله في ذاته، لا من أجل شيء ورائه. فالجفاف الروحي تجربة روحية موضوعة لذاتها كلازمة من لوازم الطريق الضيق.

والتجارب الروحية، على وجه العموم، لا نجوزها طمعاً في بلوغ الكمال لأن هذا فيه معنى تأليه الذات، ولكننا نخضع لكل تدبير الله حتى نكمل مشيئته؛ لأن طاعتنا لله هي أساس حياة شركة معه، وهي وحدها التي توصلنا إلى الكمال.

علاقة الجفاف بالإرادة:

يلزمنا أن نفرق بين جوهر النفس البشرية وبين الصفات والانفعالات الناتجة عن نشاطها. فالنفس في صميمها شيء غير العاطفة الصادرة عنها والمؤثرة فيها.

كذلك أيضاً التصورات والأفكار قد تكشف عن حالة النفس ولكن ليست هي النفس ولا تمثلها، لا يوجد شيء يعلن عن النفس ويمثلها إلا الإرادة الحرة، لذلك فالإنسان لا يُسأل ولا يُدان عن تصوراته ولا عن أفكاره أو عواطفه وإنما يُسأل ويُدان عن ما تعلنه إرادته.

وفي حالة الجفاف الروحي نجد أنه يختص بتوقف في قدرة ملكات النفس عن استقبال التعزيات والمشجعات الروحية الفائقة التي كانت تتحصل عليها النفس بالنعمة عن طريق التصورات والأفكار والعواطف. أما النفس في حد ذاتها فلم تتوقف إرادتها أثناء الجفاف عن اشتهاء وقبول هذه التعزيات والمشجعات. لذلك فالجفاف الروحي يظل تجربة خارجة عن الإرادة!

هذه الحقيقة غاية في الأهمية لأنها تخلي الإنسان من مسئولية وهمية، يحاول أن يضعها الضمير على الذات بسبب توقف حالة العزاء والمسرة الداخلية التي ترافق تجربة الجفاف الروحي.

ومن هذا يتبين بوضوح أن علاقة النفس (الإرادة) بالصلاة يمكن أن تظل سليمة بالرغم من وجود حالة الجفاف، لأن الجفاف لا يتعلق بالإرادة أصلاً. أي أنه يمكن أن تستمر الصلاة بكل قوتها ونشاطها بالرغم من وجود حالة الجفاف الروحي.

واستمرار الصلاة بدون الاعتماد على التعزيات والمشجعات العاطفية التي كانت تتقبلها النفس عن طريق التصورات والعواطف والأفكار، هو القصد الأساسي من تجربة الجفاف الروحي التي تسوقها النعمة على الإنسان أثناء مسيره على الطريق الروحي، حتى يتخلص من الارتباطات التي تربط النفس بالمحسوسات والعواطف البشرية والتصورات العقلية التي تعطل اتصال النفس بالله مباشرةً. فالجوهر النفسي لا يمكن أن يستقر في الله استقراراً كاملاً طالما كان النشاط العاطفي أو التصوري أو العقلي يستطيع أن يلعب بالنفس.

وفي اللحظة التي تتحرر فيها الصلاة من هذه الارتباطات فإنها تدخل في درجة الصلاة النقية. والصلاة النقية إذا بلغها الإنسان، فلا شيء في الوجود يستطيع أن يفصله عن الله لأن

جوهر النفس يكون قد تركز في الله بدون مؤثرات خارجية. وتستطيع النفس أن تشخص في الله أثناء الصلاة بدون عائق وبدون تنبيهات نفسية قابلة للخطأ.

وبهذا يتبين أن الجفاف الروحي اختبار تدفعه النعمة على النفس لتزيد من قدرتها على الشخوص مباشرةً في الله، وذلك بسدِّ جميع المنافذ الأخرى الفرعية التي يتشتت منها الإبصار الروحي أي التعزيات والمسرات والمشجِّعات.

الجفاف فرصة للطياشة الشريرة:

من مخاطر مرحلة الجفاف انطلاق الحواس الفكرية والتصورات لتعمل في جو بعيد عن الرقابة الروحية، فيستأسرها العدو ويُسقِطها من علوِّها الأول لإرتياد المناظر والأفكار الشريرة والتصورات الخاطئة التي لم تكن تخطر على بال الإنسان. وذلك لأن توقف التعزية الروحية التي كانت تغذي بها النعمة ملكات النفس من تصور وتفكير وعاطفية، يعطي فرصة للعدو أن يستعرض شروره على هذه الملكات.

وبذلك صار من المحتمل أثناء مرحلة الجفاف الروحي أن يطيش عقل الإنسان، دون أن ينتبه، في تصورات شريرة لا نهاية لها قد تصل إلى منتهى الإذلال للنفس. هنا يلزم أن ننتبه غاية الإنتباه إلى الدور الذي ستقوم به الإرادة. فطالما أن الإرادة لا ترتاح ولا تتوافق بل ولا تحتمل هذه الطياشة وتُبدي استنكارها وحزنها واحتجاجها لدى الله في الصلاة، فإن الصلاة تظل في حدود طهارتها دون أن تستطيع هذه الطياشة الفكرية والتصورات الشريرة أن تخدشها من أي ناحية!!

فالمسئول الأول والأخير عن طهارة الصلاة هو الإرادة فوق كل اعتبار.

وقدرة الإرادة على الاستمرار في رفض هذه التصورات والأفكار الباطلة وعزمها على النضال، مهما طالت التجربة، هو الذي يضع حداً لها في النهاية.

والذي ينبغي أن نثق به وثوقاً تاماً هو أن الله لا يحاسبنا قط عن أي شر يسري في فكرنا أو تصورنا طالما نكون غير موافقين له ولا راضين عنه، على أن نقدم برهان ذلك بواسطة الصلاة على الدوام دون أن نكلّ. فإذا ثبتت الإرادة في احتجاجها و لم تتنازل النية في الداخل، بمعنى أننا لم نُلقِ السلاح، فكل تعذيب العدو للفكر والضمير يُحسَب في النهاية ذبيحة طاهرة.

أما الخطر الناشئ من اعتياد الفكر على هذه التصورات الشريرة والطياشة الباطلة بسبب طول زمن التجربة، فلا خوف منه البتة، طالما تظل الإرادة حية قوية تغذيها الصلاة، لأنه في لحظة واحدة ستكف الحرب كفاً نهائياً حينما يتنازل الله ويضم إليه النفس بعد أن تكون قد تجرَّدت من أنانيتها وعاطفيتها.

أما لماذا يسمح الله للعدو أن يعذِّب فكر الإنسان وضميره هكذا بهذه القسوة التي عبَّر عنها بعض القديسين بأنها تشبه الجحيم، فالرد على ذلك هو بسبب طبيعتنا التي فسدت بالخطيئة وأصبحت مستهدفة للشرور. فلولا أن فكرنا قد سبق واعتاد بحريته على تصور الشر والتفكر فيه ولو مرة واحدة، ما أمكن للعدو أن يرغمه بعد ذلك على تصور الشر والتفكر فيه مجبراً مهزوماً.

فالله بعد ذلك عندما يهملنا لحظة لنذوق مرارة سلطان إبليس لا يكون ظالماً، غير أنه في نفس الوقت لا يمكن أن يتخلى عنا بل في اللحظة المعينة يتدخل ويحول كل ما أُسيء به إلينا إلى عوامل قوة وخلاص ومجد.

فبعد أن تنصهر عواطفنا وأفكارنا وتصوراتنا في محنة الجفاف الروحي، نُؤهَّل في النهاية لدرجة النقاوة التي بها نعيش مع الله.

الفصل الثاني

الفتور الروحي

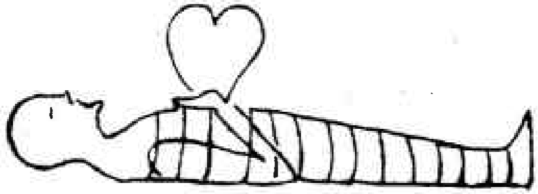

«العدو قد اضطهد نفسي، سحق إلى الأرض حياتي. أجلسني في الظلمات مثل الموتى منذ الدهر» (مز ١٤٣: ٣).

في تجربة الجفاف الروحي لا تقف الصلاة ولا يوجد ما يستدعي وقوفها لأن النفس تكون بكامل إرادتها منعطفة نحو الله والصلاح؛ ولا تفقد النفس قدرتها وإرادتها على الاستمرار في الصلاة والجهاد، لأن الجفاف الروحي لا يكون له تأثير إلا من جهة توقف العزاء والمسرة والتشجيعات العاطفية التي كانت تلازم الصلاة وتنتج منها.

أما الفتور الروحي فيصيب الإرادة نفسها، فالضربة هنا موجهة أساساً نحو القيام بالصلاة واستمرارها. فإذا وقف الإنسان في الصلاة لا يجد ما يقوله ولا يجد القدرة على متابعة الصلاة. وإذا جلس يقرأ يكون الكتاب في يده، كما يقول مار إسحق، شبه الرصاص، وربما يظل مفتوحاً أمامه يوماً كاملاً ولا يستطيع أن يستوعب منه سطراً واحداً.

العقل يكون مشتتاً فاقد القدرة على التركيز ومتابعة المعنى، والإرادة المهيمنة على كل النشاط منحلة. فالرغبة في الصلاة موجودة ولكن القدرة والإرادة منحلة، وقد تُصاب الرغبة في الصلاة أيضاً في النهاية فيصبح الإنسان غير قادر وغير راغب في الصلاة ولكنه متألم وحزين على هذا الحال ولا حول ولا قوة له على إصلاح شيء.

إذا حاول الإنسان الدخول إلى أعماق نفسه يتوه سريعاً، فلا يبلغ أعماق نفسه!! وكأنه قد تاه عن قاعدة روحه وتغرَّب عن جوهر حياته!! وإذا حاول الإنسان أن يختبر إيمانه ويقيسه سراً في قلبه، يجد أنه غير حي وغير موجود!!

وإذا قرع باب الرجاء والتمسك بمواعيد الله التي كان يحبها ويعيش عليها، يجد الرجاء قد تجمد ووقف عند نقطة الحاضر الباردة لا يريد أن يتعداها.

وينتهز العدو هذا الظرف المواتي له ويضرب بشدة محاولاً أن يقنع الإنسان بالفشل وضياع كل جهاده وتعبه هباءً، وأن كل منهجه الروحي لم يكن صحيحاً ولا حقيقياً بل كان مجرد أوهام وانفعالات، ويضغط على الفكر لكي ينكر الحياة الروحية كلها دفعة واحدة.

ولكن من وسط هذه الحروب الداخلية الطاحنة للنفس تحس النفس من وراء الستار أن هذا كله غير صحيح، وأن وراء هذه الظلمة يوجد شيء! كما تحس النفس أنها لا تزال مربوطة رغماً عنها بالله الذي تخلى عنها، وأنها تعبده أيضاً دون أن تحس وحتى دون أن تريد!! وأنه لا تزال تُقام صلاة داخل القلب في الأعماق بعيداً جداً عن إحساس العقل وتمييزه بل ودون أن يتلقى عنها الضمير أي عزاء أو تأكيد.

وحينما يحاول العدو أن يضرب ضرباته الأخيرة القاضية لكي تنكر النفس إيمانها أو رجاءها لا يجد العدو أي استجابة عملية، فالنفس تتنازل بالفكر مع العدو إلى أقصى ما يريد وإلى أبعد حدود الخطأ، ولكن أن تعمل فهذا مستحيل، فعند نقطة الانتقال من التصورات والأفكار إلى حيز التنفيذ تنبري الإرادة كالأسد الذي يهبُّ من رقدته فتفزع كل الثعالب المفسدة.

إذن، فوراء الفتور الروحي علاقة بالله غير عاملة ولكن موجودة، وقوية جداً أقوى من كل وساوس الشيطان ولكن نائمة لا تستيقظ إلا عند حدود الخطر!

غير أن هذه العلاقة العظيمة تكون مستورة عن النفس وعبثاً نحاول أن نقنع النفس بوجودها لكي تعتمد عليها أو تطمئن لوجودها. لأنه قد وُضِع على النفس في هذه التجربة أن تقف بمفردها!!

ولكن حزن النفس الشديد والمستمر على حالها الذي صارت إليه بعد النشاط والحرارة والاجتهاد الفائق إلى هذا الحال، كفيل أن يكون دليلاً حسياً وبرهاناً عملياً على بقاء النفس في مجال الله وعلى مسيرها دون أن تدري في مسارها الصالح تقودها يد لا تراها وتحملها قوة لا تحسها.

إذن، لا يظن السائر في طريق الله أن حركة الإيمان التي وُلِدت يوماً داخل القلب وأشعلته بنور الله كمصباح يتقد بالحب والغيرة ليدفع النفس كلها للمسير، يمكن أن تنسحب من الأعماق وتترك الإنسان مرة واحدة فارغاً بهذا المقدار.

غير أن نور الله وحرارته لا يلزم أن يراهما الإنسان أو يحسهما دائماً فهما يظلان يعملان في نور الحياة الحاضرة وظلامها، في برودتها وحرارتها، في سرورها وحزنها، دون توقف.

فالطريق الروحي لا يُقاس بأوقات النور والحرارة والسرور وبالنشاط المثمر فقط، فإن

أوقات التوقف والظلمة التي تحيط بالنفس والحزن الذي يضغط على القلب والبرودة التي تشل كل حركة العواطف الروحية، هذه أيضاً جزء لا يتجزأ من الطريق الروحي الضيق.

وكيفية مواجهتنا لهذه الظروف التي تبدو معاكسة ومؤلمة ومميتة، هي التي تقرر استحقاقنا للمضي في الطريق وتكميلنا للسعي المبارك حتى نتكلل.

الأسباب:

الله لا يسوق هذه التجربة على النفس جزافاً، فهناك أسباب تحتم دخول النفس في هذه الخبرات، لكي يتعدل ميزان تقديرها للروحيات ويستقيم مسيرها في الطريق الصاعد إلى فوق ويتقوى إيمانها بغير المنظور.

أولاً: الفتور الروحي حينما يكون لتهذيب النفس الطموحة:

حينما تنشغل النفس الطموحة بتقدمها فإنها تجتهد لمضاعفة سرعة مسيرها أكثر مما تحتمل وأكثر مما يوافق بناءها، وتبتدئ تطلب المزيد من المعرفة أكثر من احتياجها الفعلي وأكثر من قامة رؤيتها الحقيقية، وتتوقح بنوع من الجرأة الروحية على اعتبار أن هذا من الإيمان، وتقتحم مجالات الخبرات العالية وتفحص في النور بدون مؤهل كافٍ من البصيرة ولا سند من العمل والخبرة فتكون النتيجة أنها تتوقف دفعةً واحدة.

وإن كان يبدو حسب المنطق أن هذا التوقف طبيعي بسبب استنزاف الطاقة الروحية المذخرة وعدم موازنة الرصيد الإيماني مع سرعة اقتحام هذه المناطق العالية الخطرة، إلا أن العلة الأساسية هي تدخُّل رحمة الله وعطفه وإشفاقه على النفس، بسحب قدرتها على الارتفاع حتى لا ترتفع أكثر من إمكانية اتزانها واحتمالها فتسقط وتتحطم. فالفتور هنا تأمين لحياة النفس وضمان لحفظها من الكبرياء الروحي الذي لو سارت فيه خطوة واحدة بعد ذلك لأصابها ما أصاب البنائين في برج بابل.

هنا الفتور نافع للنفس لأنه يجردها من الطموح نهائياً، ويوقف انشغالها الزائد بالتقدم الخاطئ الناشئ من خداع الإرادة لتعظيم الذات ويردَّها إلى الدرجات الحطيطة التي للمبتدئين، فتنحجز النفس عن المصاعد الخطرة إذ تنشغل بحزنها وغمها وهوان حالها وضياع فخر آمالها، وتعود تتحسس البداية بمذلة واتضاع، هما لها ضمان لخلاصها أكثر من اجتراح الآيات وصنع المعجزات والتأملات العليا.

وعلامة هذا النوع التأديبي من الفتور الروحي الذي يكون بسبب الطموح هو الحزن المفرط والغم الذي ينتاب النفس على ما أصابها، فهذا الحزن والغم دليل على صحة العملية التي يكون قد أجراها الله للنفس لتبقى في اتضاعها.

ثانياً: الفتور الروحي حينما يكون لتعديل فهم العلاقات التي تربطنا بالله:

حينما تستغرق النفس في جهادها الروحي وإتقانها للصلوات وتدقيقها في الممارسات الروحية الأخرى ينشأ فيها شعور يربط بين هذا النشاط والاجتهاد وبين علاقتها بالله، فيتهيأ للنفس كأنما اجتهادها وأمانتها في الصلوات هي التي تؤهلها لحب الله استحقاق البنوة عنده، وإذ لا يشاء الله أن تتوه النفس في هذا المنهج الخاطئ الذي يبعدها نهائياً عن استحقاق محبة الله والحياة معه يضطر أن يحرمها من هذا النشاط والاجتهاد اللذين سيصيران سبباً في خرابها.

فبمجرد أن يسحب الله من الإنسان هذه الإمكانيات التي هي النشاط والقدرة على العمل الروحي التي كان قد وهبها من نفسه للإنسان كعربون لمحبته ورضاه، تقعد النفس بدون قوة ولا قدرة على أي عمل روحي، وحينئذ تُصدَم بالحقيقة المذهلة، التي تظل رافضة لها وغير مستجيزة حدوثها، وهي أن الله في أبوته ومحبته لنا غير محتاج لصلاتنا وأعمالنا!!

ويظل الإنسان في البداية متشبثاً بفكرة أن أُبوَّة الله توقفت حتماً بسبب توقف الصلاة؟ وأن الله قد هجر النفس وأهملها بسبب أن أعمالها واجتهادها يُظهران أنها لم تكن بالقدر الكافي للتوازن مع محبته؟!! وتحاول النفس عبثاً أن تقوم من انطراحها وحزنها لتعاود اجتهادها ونشاطها ولكن تضيع كل عزائمها مع أدراج الرياح.

وأخيراً، وشيئاً فشيئاً، تبتدئ النفس تدرك أن عظمة الله لا ينبغي أن تُقاس بتفاهة الإنسان، وأن أُبوَّته العالية جداً قبلت أن تتبنى أبناء التراب من فرط حنانها وجلالها وليس ثمناً لأعمال الإنسان واجتهاده، وأن بنوتنا لله حقيقة مصدرها الله وليس نحن، وهي قائمة - بالرغم من عجزنا وخطيئتنا - تشهد على وجود الله وسخائه.

وبذلك يعود الفتور الروحي لمثل هؤلاء بتعديل جوهري في فهم الله وتقدير العلاقات الروحية التي تربط النفس البشرية به، وتتعدل نظرة الإنسان للاجتهاد والنشاط وكل عمل روحي فيما بعد، لا كأنه ثمن لمحبة الله وأبوته بل استجابة لمحبته واستجابة لأبوته.

وعلامة هذا النوع من الفتور الروحي هي الأسئلة الحائرة التي يرددها الإنسان كل يوم وعلى مدى هذا الاختبار، هل تركني الله؟ هل خطيئتي هي السبب؟ هل أغضبتُ أُبوَّته بتوانيَّ وكسلي؟ هل رفضني الله لأن صلاتي غير مقبولة عنده؟

فبينما أشخاص الصنف الأول الذين يصيبهم الفتور الروحي بسبب طموحهم نجدهم متألمين بسبب توقف الصلاة فقط، إذا بأشخاص الصنف الثاني الذين يصيبهم الفتور الروحي بسبب فهمهم الخاطئ لمحبة الله وأبوته نجدهم خائفين لا من توقف الصلاة بل من ضياع مركزهم كبنين لله وفقدانهم لثقته ومحبته، وبقدر ما يزداد خوفهم وقلقهم تزداد محنتهم وجفافهم حتى تُستَعلن لهم الحقيقة في النهاية فتتوثق صلات المحبة والبنوة فوق كل اعتبار.

والواقع أن وجود هذا الخوف أثناء الفتور الروحي لهو أكبر دليل على وجود صفات الأمانة البنوية لله عند النفس، غير أن النفس لا تكون حينئذ واثقة من هذه الحقيقة وتظل خائفة إلى أن تتحقق من أبوة الله لها بالرغم من كل شيء وفوق كل شيء.

ثالثاً: الفتور الروحي حينما يكون لتقوية الإيمان بالله فوق المحسوسات:

يحدث أن يكون الإنسان في غاية السعادة والسلام بسبب عناية الله به عناية شاملة من جهة كافة أعوازه الجسدية ورعايته في الداخل والخارج وحمايته له حماية ملموسة في كل المواقف، فيطمئن الإنسان جداً أنه محفوظ بيد الله وملحوظ بعنايته، وتزداد ثقة الإنسان ويتقوى إيمانه بالله على أساس الدليل المادي الواضح والبرهان الملموس.

فتكون النتيجة أن الله يحبس دفعة واحدة جميع معوناته المنظورة ويوقف حمايته الملموسة ويسحب عنايته الظاهرة بالإنسان، فتبتدئ الضيقات تتوالى على النفس ويصير الإنسان مكشوفاً لأعدائه هدفاً لكل ضارب ومتقوِّل ومستهزئ، ليس من الأعداء الظاهرين فقط بل ومن العدو غير المنظور أيضاً مخترع كافة الشرور والمحن ... فتبتدئ تقترن الأتعاب الخارجية بالأتعاب الداخلية حتى ليكاد يُذهَل الإنسان من كثرة الضربات وتنوُّعها، وفي البداية يحسب الإنسان أنها أمور عابرة وأنه سريعاً ستنقشع الغمامة وتعود الحياة إلى سلامها واستقرارها الأول، ولكن إذ بهذه الضيقات تزداد عنفاً وتتسع حلقاتها بدلائل يتضح منها أن الأمر فوق الطاقة وفوق التصور، فيجلس الإنسان في التراب محطَّماً عاجزاً عن أن يفهم شيئاً من هذا كله!! ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ وما هي النهاية؟

يعود الإنسان إلى نفسه لعله يجد فيها بارقة أمل لمعاودة الحياة الأولى، فلا يجد إلا حطاماً في حطام ونفساً ممزقة مشدودة بألف تجربة. فليس هو مجرد فتور أو جفاف أو فقدان العزاء بل فقدان الإحساس الروحي كله[١]، وضيق وتذمر وحيرة وتجديف ورُعبة تغطي النفس من هول ما أصابها، تحاول النفس أن تردَّ على التجاديف الصادرة في أعماقها فلا تجد قدرة على الرد، تحاول أن تستنكر شيئاً من الشرور والقبائح التي يقذفها الشيطان على الفكر فلا تملك إلا أن تتأمل فيها وتنساق معها وكأنها أسيرة لكل إثم وخطيئة! حتى تستقر النفس على حافة اليأس، اليأس من كل شيء.

ولكن ما يُذهِل النفس حقاً ليس خسائرها أو فشلها أو توقفها عن الصلاة أو الجهاد أو خوفها من هجران الله بل شعورها بوقوف الله نفسه كعدو لها يُسرُّ بآلامها وحزنها وتمزقها!!

هذه المحنة نراها على أشُدِّها في تجربة أيوب الصدِّيق، فالذي استرعى انتباه أيوب ليس الخسائر المريعة التي أصابته في أملاكه كلها وفي أولاده كلهم وفي جسده كله وفي هُزء كل الناس منه حتى زوجته! وإنما في توهمه من شدة الضيقة وظنِّه أن الله قد وقف منه موقف الإهمال والعداء والشماتة!!

- «أنا أيضاً لا أمنع فمي، أتكلم بضيق روحي أشكو بمرارة نفسي: أَبَحْرٌ أنا أم تنين حتى جعلت عليَّ حارساً، إن قلتُ فراشي يعزيني ومضجعي ينزع كربتي تريعني بالأحلام وترهبني بالرؤى، قد ذُبتُ ... كُفَّ عني ... ريثما أبلع ريقي! لماذا جعلتني عاثوراً لنفسك؟ حتى أكون على نفسي حِملاً؟ ... لأن سهام القدير فيَّ وحُمَتها (أي سُمُّها) شاربة روحي، أهوال الله مصطفَّة ضدي ... لماذا لا تغفر ذنبي؟ ... ذلك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثر جروحي بلا سبب، لا يدعني آخذ نفَسي ولكن يشبعني مرائر ... قد كرهَت نفسي حياتي ... أتكلم في مرارة نفسي ... **فهِّمني لماذا تخاصمني؟ ... أَحَسَنٌ عندك أن تظلم؟** ... إني شبعان هواناً وناظر مذلتي ... تصطادني كأسد؟ ثم تعود وتتجبَّر عليَّ؟ ... كُفَّ عني ... أَبْعِدْ يديك عني ولا تدع هيبتك ترعبني، لماذا تحجب وجهك وتحسبني عدواً لك؟ إليك أصرخ فما تستجيب أقوم فما تنتبه إليَّ، تحولتَ إلى جافٍ من نحوي!! هاأنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك وغرباً فلا أشعر به، شمالاً فلا أنظره جنوباً فلا أراه» (أي ٧: ١١ - ٢٠؛ ٦: ٤؛ ٧: ٢١؛ ٩: ١٧ و ١٨؛ ١٠: ١ و ٢ و ١٥ و ١٦ و ٢٠؛ ١٣: ٢١ و ٢٤؛ ٣٠: ٢٠ و ٢١؛ ٢٣: ٨).

(١) لأنه إحساس مبني على تقديرات خاطئة.

كان أيوب صادقاً جداً في وصف مشاعره ولكنه كان مخطئاً في شعوره بأن الرب تركه، فالحقيقة أن الرب لم يكن بعيداً عن أيوب، فليست كل الخسارات التي خسرها وكل الضيقات والمحن التي حلَّت به تصح أبداً أن تكون برهاناً على تخلية الله عنه أو عن أي إنسان!! كما أنه لا يصح أبداً أن تؤخذ الخبرات والمعونات والعناية والحماية التي يتلقاها الإنسان من الله أنها دليل على رضى الله فيعتبرها سبباً ومنطلقاً للإيمان والرجاء!!

إن الإصابات التي أصابت أيوب لم تنجح كلها في جعله يتخلى عن كماله، ولكن بمجرد أن أحس إحساساً خاطئاً بأن الله نفسه تخلى عنه وواقف ضده اختل توازن إيمانه، وبهذا في الواقع تنكشف علة تجربة أيوب وعمقها وسرها الرهيب. فالله أراد أن يعلن للإنسان كله من خلال تجربة أيوب أن الإيمان به يلزم أن يحتمل كل حالات التخلِّي مهما بدت مخيفة وخطيرة ومؤلمة، بل ويلزم أنّ يرتفع الإيمان أيضاً فوق هذه التخليات جميعاً فيثق الإنسان بوجود الله وبرحمته وعنايته بالرغم من كافة الشدائد التي يجوزها.

إن هذا الصنف من خبرات الجفاف الروحي لهو أقسى أنواع التجارب وقمة الاختبارات المطهِّرة للنفس كالموت ذاته، تلك التي لا يمكن أن يجوزها الإنسان إلا تحت عناية فائقة من القدير لأن في أثنائها تبلغ النفس إلى اشتهاء الموت حزناً وكمداً كأيوب:

- «يا ليت طلبتي تأتى ويعطيني الله رجائي أن يرضى الله بأن يسحقني ويطلق يده فيقطعني!! ما هي قوتي حتى أنتظر وما هي نهايتي حتى أصبِّر نفسي، هل قوتي قوة الحجارة؟ هل لحمي نحاس؟ ... المساعدة مطرودة عني!! ... الليل يطول وأشبع قلقاً حتى الصبح ... لا أبالي بنفسي رذلتُ حياتي ... قد كرهَت نفسي حياتي ... أصمت الآن وأسلم الروح» (أي ٦: ٨ و ٩ و ١١ - ١٣؛ ٧: ٤؛ ٩: ٢١؛ ١٠: ١؛ ١٣: ١٩).

ولكن في كل هذا لا يعدم الإنسان المجرَّب في هذه الساعات من أن ينظر رجاءً في رحمة الله. لذلك لا يكف حتى وهو على حافة اليأس من أن يتطلع إلى الله وينتظر خلاصاً عظيماً وعجيباً، فبقدر ما تثقل عليه التجربة بقدر ما تصفو نفسه وتنكشف الرؤيا عن عظمة القدير وشدة حبه وأمانته للنفس البشرية، فتبدو الآلام السابقة وكأنها قشور تتساقط من عين النفس، وحينئذ تبتدئ النفس تبني إيمانها بالله لا على أساس الخيرات الزمانية ولا على أساس الحماية والرعاية المنظورة ولا على أساس الأدلة الملموسة والبراهين المعقولة، بل على أساس الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى!!:

- «لأنه يعرف طريقي، إذا جربني أخرج كالذهب، بخطواته استمسَكَتْ رجلي، حفظتُ طريقه ولم أَحِدْ، من وصية شفتيه لم أبرح ... لا أنتظر شيئاً، فقط أُزكِّي طريقي قدامه فهذا يعود إلى خلاصي ... أما أنا فعلمتُ أن وليي حي والآخر على الأرض يقوم، وبعد أن يُفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله - (هنا يظهر كيف انتقل إيمان أيوب من الاعتماد على الأمور التي تُرى إلى الأمور التي لا تُرى) - أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر ... حيٌّ هو الله الذي نزع حقي والقدير الذي أَمَرَّ نفسي، أنه ما دامت نسمتي فيَّ ونفخة الله في أنفي لن تتكلم شفتاي إثماً ولا يلفظ لساني بغش ... حتى أُسلم الروح لا أعزل كمالي عني» (أي ٢٣: ١٠ - ١٢؛ ١٣: ١٥ و ١٦؛ ١٩: ٢٥ - ٢٧؛ ٢٧: ٢ - ٥).

وهكذا حتماً تتزكى في النهاية كل نفس أحبت المسيح، ومهما جازت في مرائر التجربة الروحية تظل تدرك نصيبها وتسير وهي شاخصة نحو المسيح بنظرة الجريح الذي يزحف على يديه، تناديه كحبيبة مهجورة لا تتزحزح قط عن ثقتها في حبيبها الذي اشتراها بدمه.

نعم قد تختفي الثقة ولكن لا تضيع، قد يتوقف الإيمان ولكن لا يزول، وتغوص مشاعر الحب فلا توجد ولكنها تنحفظ في الأعماق لتنبثق في نهاية التجربة بقوة لا تُقهَر.

أقوال الآباء في الجفاف والفتور في الصلاة:

أولاً: لمار إسحق السرياني:
في ضرورة التجارب الروحية التي يرافقها حتماً الجفاف والفتور في الصلاة:

١٠٠١ . الخليق بنا أيها الأحباء أن نتأمل في أنفسنا في وقت الصلاة إن كان لنا تصور بألفاظ المزامير والهذيذ بالصلاة لأن هذا يحدث من السكون الحقيقي (الداخلي)، والجدير بنا أن لا نقلق في الوقت الذي يحدث فيه ظلام للنفس ولا سيما متى لم يكن السبب منا.

واعلم أن ورود ذلك إنما يكون بسياسة من الله تعالى يعلمها الله وحده، في هذه الأوقات تختنق نفسنا وتصير كأنها غارقة في اللجة تلاطم الأمواج، ويصير الإنسان في ظلام منوط بظلام، يذهب صنف ويأتي صنف، إن قرأ في كتاب أو خدم أو مهما باشر وصنع، وفي غالب الأمر لا يملك الإنسان قدرة أن يدنو من قراءة أو خدمة أو عمل ما ... حتى أن الإنسان وهو في هذه الحالة لا يعود يؤمن البتة أنه يمكن أن يتخلص من هذه الحالة، أو أن يعود له سلامه!

هذه الساعات مملوءة من كل يأس وخوف، لا يوجد فيها ثقة بالله تعالى أو عزاء الإيمان بل يكون هناك كل شك وتقسُّم وجَزَع!

والذين امتُحنوا بضغطة هذه الساعة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يعرفوا كيف يمكن أن تتحول في النهاية وتتغير!

وإذا طالت هذه الحالة فليعلم الإنسان أنه سيحدث في النهاية تغير هام للحياة.

هذا الضرب من التجارب يُمتَحَن به المؤثرون أن يتصرفوا حسناً بسيرة تدبير الصلاة المشتاقون إلى عزاء الأمانة وبلوغ كمال سيرتها، ولذلك تجلب عليهم هذه التجربة وجعاً وحزناً بسبب تقسُّم الفكر، إذ يتبعها تجديف قوي حتى أنه يعرض للإنسان الشك في حقائق الإيمان كالقيامة وأشياء أخرى لا يليق وصفها هنا.

وقد تجربنا بهذه كلها مراراً عديدة، والذي بعثنا على تدوين هذا الجهاد هو تعزية السائرين في الحياة

الروحانية، أما الذين لا يزالون في دور الأعمال الجسدانية فإنهم لا يفقهون هذه الأمور. وعلى كل حال فإن هذا الجهاد لا يزول في ساعة ولا يذهب بسرعة، وكذا أيضاً النعمة لا تأتي بالكمال دفعةً واحدة في نهاية التجربة وتسكن في النفس بل قليلاً قليلاً إذ يعبر الإنسان في نهاية التجربة على وقت عزاء ثم وقت ضيقة ولا يزال الإنسان ملازماً لهذا التغير إلى أن يحل أوان الخروج من التجربة!

وسبيلنا أن لا نتوقع التغرب من هذه الضغطات بالكمال طالما نحن عائشون هنا ولا أن نتوقع أيضاً أن نتعزى بالكلية، فإن الله تعالى رأى أن يدبر حياتنا بهذه وتلك وأن يكون السالكون في الطريق الضيق مباشرين دائماً لهذين الأمرين.

مار إسحق (الجزء الثالث: الباب الثلاثون)

١٠٠٢ . إن الفضائل يخلف بعضها البعض، فمنهج الفضيلة ليس مستثقلاً ولا باهظاً والتثقيف بها يكاد يكون على نظام واحد، لذلك فهي تخفّ من هذا الوجه.

وكذلك صارت المصاعب من أجل الخير مستحبَّة كالخير ذاته.

وليس أحد يتمكن من احتمال الضوائق والصبر عليها دون أن يؤمن أن الشيء المرجو هو أشرف من الراحة الجسمانية.

إذن كل من أعدَّ نفسه لفضيلة ما فأول ما يتحرك فيه هو محبة المحنة المقابلة لها، وحينئذ يلم به فكر الزهد في قنايا (جمع قِنية) العالم. وكل من اقترب من الحزن فإنه يتقوى بالأمانة التي تهيؤه لمباشرة الدخول فيه.

التجربة ليست أن يلاقي الإنسان الصعاب ويترصدها من غير أن يكون قد أدرك في ذاته علمها، بل التجربة الحقيقية هي أن يحس الإنسان بمنفعتها ومضرتها إحساساً واقعياً بطول معاناته لها زماناً.

وكثيراً ما تكون التجربة في الظاهر مؤذية وأما في الحقيقة فتكون ذات منفعة.

الذي له تجربة حقيقية في كل أمر تجده لا يحب ذاته لأنه يكون قد انعتق من العوارض الجالبة التعبُّد (للناس) فهو لا يخاف مذمة ولا يخشى وقيعة.

إذا وجدت في طريقك سلاماً دائماً لا يتغير، فخَفْ لأن ذلك معناه أنك سائر بعيداً عن السبل المستقيمة التي وطأتها أقدام القديسين ذات التعب!

بحسب ما تسير في طريق الملكوت وتقترب من بلدة الله تعالى لتكن لك هذه العلامة: وهي أن التجارب تُلم بك إلماماً قوياً، وبقدر ما تنجح على ذلك الحد تتوفر عليك التجارب.

متى أحسست في نفسك بتغير المحن المختلفة الآتية عليك بقوة اعلم أن نفسك على وجه التحقيق قد قبلت في هذه الأوقات عينها درجة روحية عالية، قبولاً خفياً. إذ يكون ذلك علامة أيضاً أن النعمة قد ازدادت لك

أكثر من الرتبة الأولى التي كنت قائماً فيها.

لأن الله بحسب قياس الموهبة يُدخِل النفس إلى ضنك التجارب. لستُ أقصد بالتجارب تلك التجارب العالمية التي تكون لإلجام الرذيلة أو الأمور الأخرى الظاهرة، كما ينبغي أن لا تُفهم أنها تجارب تخص إرجاف الجسد، بل أقصد المحن الروحية التي تليق بالنفوس الساعية للملكوت.

إن كانت نفس ما ضعيفة وليست كفواً لمصادمة التجارب العظيمة والتمست من الله جل اسمه أن لا يدخلها إليها واستمع الله لها، فاعلم علماً واضحاً أنه بمقدار ما هي غير ناهضة بحمل الضيقات الصعبة على هذا الحد هي أيضاً غير كافية بالظفر العظيم للمواهب والنعم. وكما منع عنها وقود الشدائد الهائلة هكذا تنعاق عنها الفوائد الجليلة.

لأن الباري سبحانه وتعالى قد رأى بحسن حكمته أن تكون النعم بمقدار المحن، ولا تكون الموهبة عظيمة إذا كانت التجربة هينة.

فإذاً، من الصعوبات والضوائق العارضة لك بتدبير الله عز وجل تستطيع أن تدرك نفسك ما قبلته من النعمة، والعزاء دائماً يكون على قياس الحزن.

فإذا سألت قائلاً: إذن ما الحال؟ أجبتك:

أولاً تَفِدُ التجربة وبعد ذلك المواهب والنعم، أو ربما تَفِد النعمة أولاً ويعقبها حدوث التجربة، ولكن لا يمكن أن تَفِد التجربة دون أن تقبل النفس أولاً في داخلها زيادة (قوة من الله) على منزلتها الأولى. والشاهد بحقيقة هذا تجربة الرب، وكذلك أيضاً تجارب الرسل لأنهم ما دخلوا إليها إلا بعد أن قبلوا المعزّي أولاً!

والأمر منذ البدء كان على هذا النمط أن النعمة تأتى قبل التجربة، إلا أنه يتحتم ولا بد أن يتقدم الإحساس بالمحنة على الإحساس بالنعمة حتى تُختَبر حرية الإنسان، (أي أن النعمة تُخفي ذاتها مع أنها تكون مرافقة للإنسان حتى يواجه التجربة بنفسه أولاً). لأن النعمة لا تتقدم إلى أحد البتة (تُظهر ذاتها) إلا بعد أن يذوق التجارب، **فالنعمة إذن تتقدم في العقل وتبطئ في الحس!!**

فجدير بنا أن نجعل في أوقات المحبة أمرين متضادين لا يتشابهان وهما الفرح والخوف!!

أما الفرح فلأننا نثق أننا ماشون على الطريق التي وطأتها أقدام محيي الكل وجميع القديسين بدليل المحنة التي لا تصادف إلا السائرين!!

وأما الخوف فهو أن لا تكون تجربتنا بسبب العظمة!! لأن التجارب تتميز بعضها عن بعض، فمنها ما يأتي بعثاً للسيرة وتربية النفس للنمو في الصلاح، ومنها ما ينجم عن التخلية تأديباً لتعاظم النفس. وكافة المحن الوافدة من جهة العصا الأبوية تحرك النفس على الاتضاع والنجاح والفلاح لأن بها ترتاض النفس وتُدرَّب

وتزداد خبرتها.

ومن أمثلة التجارب التي يسوقها الله على النفس السائرة في الطريق لتربيتها ونموها في الصلاح ورفع مقدار تحنكها بالأمور الروحية وتنبيهها لإيثار الله عز وجل فوق كل شيء تكون بهذا الوصف:

كسل (فتور الروح)، ثقل الجسم (توقف عن الصلاة)، إنقطاع الأمل، ظلمة الأفكار، تخبط الذهن (التشتت المستمر)، ضجر، نقصان المعاضدة الإنسانية، عوز الأشياء الضرورية، وما شابه ذلك.

من هذه التجارب يقتني الإنسان نفساً متوحدة في ذاتها (الاتصال المباشر بالله)، متضعة (عدم الاعتماد على قدرتها ونشاطها)، وقلباً مائتاً (فقدان الاعتماد على المسرات والمشجعات الوقتية).

وفي هذه التجارب، يتبادل العزاء مع الحزن، والنور مع الظلام، والحروب مع المعونات، والضيق مع الفرح، وهذه تكون علامة المسير والنجاح في النهاية.

فأما التجارب الوافدة عن تخلية الله تعالى بسبب توقح النفس وترفُّعها بالصلاح، فهي تكون بإطلاق تجارب الشيطان وتكون بإحساس قوي بحركات الزنا، سرعة الغضب، الاعتداد بالذات، تنفيذ المشيئة، محبة الغلبة بالكلام، الانتهار بشدة، تهاون القلب، ضلالة العقل، أفكار تجديف، ضمائر سخيفة مملوءة ضحكاً، الإزدراء بالناس، إحتقار كرامة الآخرين، محبة الخلطة والتصرف في العالم، الهذر بكلام جهالة، القطع في الأمور بنبوات كاذبة، التبشير بوعود فوق المقدرة. هذه هي التجارب النفسانية.

أما التجارب التي تصيب الجسد فالإنسان يعرض له عوارض مؤلمة وعسرة الأغلال وتمكث معه دائماً وتلازمه، وتصادفه شرور كثيرة، ويقع في أيدي أشرار يحزنونه، ويتحرك قلبه دائماً بالخوف الذي بلا سبب وعدم القدرة على الاستناد على العناية الإلهية أو الثقة بالإيمان.

هذه هي تجارب تعظُّم النفس التي تلم بالإنسان حينما يبتدئ يعتقد في ذاته أنه حكيم ولبيب وعالم ويتشخص لدى عينيه أنه كذلك. والإنسان الذي تتحرك فيه هذه الأفكار ويقبلها يدخل في هذه الشرور حسب مقدار قبوله لأفكار العظمة.

فإذا ابتدأ الإنسان يرفض هذه الضيقات والأحزان ولا يكون له صبر إزاءها ولا يقبل احتمالها فإنها تتضاعف عليه! أما صبر الإنسان فيزيل مصائبه، والصبر قوة تتولد من سعة القلب، وهذه القوة عسير أن يحصل عليها الإنسان وهو في محنته بدون توسط النعمة الإلهية التي يقبلها الإنسان من مواصلة الصلاة والدموع والطلبة.

ومتى أراد الله أن يُحزن النفس كثيراً (لتنقيتها) فإنه يسمح أن تدخل في صغر النفس، وهذا الأمر يولِّد في الإنسان ضجراً قوياً **يذوق به الاختناق النفساني، وهذا هو ذوق جهنم**. ويأتي عليه روح الحيرة والاختباط

(عدم اتزان التفكير) والغضب والافتراء ومحبة الدم (الانتقام)، وانقلاب الآراء والأفكار، والتنقل من مكان لمكان ... وإن سألت عن علة هذا كله أجبتك أنه هو توانيك لأنك ما حرصت على التماس شفاء نفسك!!

وطِبُّ هذه كلها واحد الذي به يمكن للإنسان أن يسترد عزاء نفسه وهو تواضع العقل، الذي بدونه لا يفلت الإنسان من هذه الشرور بل تتجبَّر عليه.

ولا تحقد عليَّ في قولي الحق لك، لأنك لم تطلب شفاء نفسك. فإن أردت العودة إلى الحق فاذهب إلى بلده وستعاين حينئذ كيف يُزيل عنك الشرور، لأنه بمقدار اتضاعك ينعم عليك بالصبر في أحزانك، وبحسب احتمالك يخف عليك وِقْر شدائدك وتحظى بالعزاء، وبقياس العزاء تعظم محبتك لله (هنا يشير مار إسحق إلى عودة النفس لحالة الاتصال المتضع بالله بدون افتخار الصلاح).

وأولاد الله متى أراد الله أبوهم الرؤوف أن يريحهم من تجاربهم فإنه لا يرفعها عنهم ولا يُنقصها لهم بل يجود عليهم بالصبر قليلاً تكميلاً لنفوسهم، فيحظون بكل الخيرات بصبرهم على تجاربهم. ونحن نسأل المسيح إلهنا أن يؤهِّلنا بجوده للصبر على الشرور بشكر قلب لأجل محبته تعالى آمين.

مار إسحق (الجزء الثالث: الباب الحادي والعشرون)

١٠٠٣ . إن الله – تبارك اسمه – إنما يؤدب بمحبة لا على جهة الانتقام، حاشا، إنما يطلب أن يشفي صورته.

١٠٠٤ . لا يظن أحد أن الاستفادة في خدمة الصلوات ونقاوة الضمير والتنعم بسرور القلب والعزاء الذي من الدموع والحديث مع الله تُحسَب أموراً روحانية إلهية فقط، بل بالحق وبحسب رأيي أقول إنه حتى فكر التجديف والمجد الباطل وحركات الزنا السمجة التي تحدث للإنسان قهراً، وتألم الإنسان بسببها ولم يوجد الإنسان مغلوباً قدامها ويصبر ويتجلد وما يخرج من قلايته (الخروج من القلاية كناية عن جحد الإنسان للجهاد وترك التمسك بالله وحده)، حتى وهذه كلها تُحسَب له ذبيحة نقية وعملاً إلهياً، ما خلا العظمة فقط (هنا إشارة إلى تجارب الفتور الروحي بكل وضوح).

١٠٠٥ . بمقدار ما يتهاون الإنسان بهذا العالم ويجتهد في خوف الله تدنو منه العناية الإلهية. ويحس بمظافرتها إحساساً لطيفاً بالخفي، وتُعطَى له علامات تزيد من فهمه. وحتى ولو دخل الإنسان في تجربة فقدان الخيرات العالمية كرهاً من غير إرادته فبمقدار ما يُعدَم منها تتبعه رحمة الله وينتشله جوده.

١٠٠٦ . الذين يقصرون في تثقيف نفوسهم وفي اقتناء الحياة الأبدية بمحض إرادتهم وعزمهم فإنه بالأحزان التي من غير إرادتهم تُقوِّم نفسهم بالفضيلة!

١٠٠٧ . أما إذا اختفى عنك حب المسيح والاشتياق إليه وألمت بك الأحزان وأحسست بانفصالك عنه، فاعلم أن العالم لا يزال حياً فيك أكثر من المسيح!

١٠٠٨ . أما إذا كان المرض والعوز وهلاك الجسم والخوف من الأشياء المؤذية يزعج فكرك ويخرجك عن بهجة أملك ورجائك ويصرفك عن الهذيذ بالله والثقة فيه، فاعلم أن جسدك حي فيك وليس المسيح.

١٠٠٩ . أما إذا كنتَ غير معتاز لشيء وكل ما تحتاجه عندك، وجسدك صحيح، وليس لك أضداد، وتقول حينئذ إنك تسير نحو المسيح سيراً طاهراً، فاعلم أنك مريض العقل وعادم لذوق أمجاد الله تعالى، وليس قولي هذا لك على سبيل الدينونة لك بل لكي تعلم فقط مقدار ما عدمته من الكمال (القديس مار إسحق يشير هنا إلى أن التجارب الروحية علامة على صحة المسير).

مار إسحق (أقوال متفرقة)

ثانياً: للشيخ الروحاني: في أن تجارب الجفاف والفتور بالنسبة للمجتهدين هي من عمل النعمة:

١٠١٠ . فإذا ثبتَّ يا أخي داخل الباب واحتملت الشدة حتى الموت، حينئذ فالروح القدس يعطيك ما تطلبه رتبتك ... والملائكة تهديك إلى الميناء.

ويكون متى يحلو لك تكميل هذه الفضائل: الصوم المرتَّب، الطعام الحقير، السهر المضيء، القراءة الحارة، اتضاع القلب، دموع الوجع، صلوات وسجدات دائمة، فاعلم أن ذلك ليس فقط عمل النعمة بل وأيضاً طياشة الأفكار وضعف الأعضاء من التجربة التي تدبرها عليك النعمة التي قد تقطع وتبطل كل فضائلك!

يا إخوة لا يكون إنسان بسبب عدم صبره يجدِّف في زمان صعوبة تجاربه ويتذمر، بل ليطرح همَّه على المهتم بحياته ويقول لله: «يا رجائي ومتكلي، مثل مشيئتك دبِّر حياتي، حلو هو المر الذي تريده أنت أفضل من الشهد الذي أريده أنا».

لأنه في وقت التجربة ينطق شيطان الزنا في النفس كلاماً وأفكاراً صعبة، ويبدِّل شهوتها الفاضلة بشهوة الكلاب ...، كثيرة هي حيل هذا الشيطان أكثر من جميع الشياطين النجسة، فهو يثير الأعضاء ويعصر القلب ويخنق النفس بظلمة حالكة ويحرمها من كل عزاء ويبردها من الصلاة والتزمير والقراءة ويملأ الإنسان كسلاً، ويمسك الرأس بألم شديد!

أمام هذه استعمل الصبر أيها الأخ، ولا تجاهد بقوة في صدها لئلا تشتد عليك بالأكثر، لكن هدِّئ نفسك وادْعُ المسيح بقلبك.

كما أن شيطان التجاديف يتكلم مع النفس ملامات على الله وتجاديف وشكوكاً على الأسرار الإلهية وعلى البتول الطاهرة والدة الإله مريم، ويظن الإنسان أن نفسه هي التي تتكلم بهذه التجاديف حتى تيبس عظامه من الضيقة ويتعذب بالحزن على نفسه.

لا تضطرب يا أخي ولا تعذِّب نفسك فنفسك ليست هي المتكلمة ولا يمكن أن تقع في الله بل هي تسمع

فقط ما يقوله الشيطان فيها، وهي لا تشاء هذا، والدليل على ذلك أنه حينما تتوقف هذه التجاديف تفرح النفس وتستنير وتثبت.

ويظهر هذا التجديف وقت الصلاة بالأكثر وإذا رتل الإنسان أو إذا قرأ ... وهكذا يحس الإنسان بهذه التجاديف بينما تكون النفس راغبة في التمجيد. هذه لا تُحسَب للنفس تجاديف، فالله يفرز تماجيد النفس المحبوبة الطاهرة من تجاديف الشيطان الغاش ... النفس تبلغ بسبب ذلك إلى الضيقة العظيمة ومرارة القلب وتطلب الموت ويتعكر جسدها كله ... ويحاول الشيطان أن يبلغ بالنفس إلى قطع الرجاء ... فكل من يحتمل ولا يقطع رجاءه في هذه التجربة فطوباه، لأنه أية عطايا عظيمة سوف يأخذ!

وهذا أيضاً عمل شيطان الغضب ذي الفعل المر، فإنه يوقظ الغضب في النفس ويسقيها من كأس السخط بكلام داخلي، مع أن النفس لا تريد حتى أن تسمعه أو تنطقه، ولكنه يخطف العقل ويطيش به من مكان لمكان ومن بيت لبيت ... انظر إن أجر الثبات في الحرب هو أفضل من الأعمال الفاضلة ... أُنظر لا تُخلي قلبك من الحزن قبل أن تحل عليك النعمة وتفكك من رباطات الأوجاع.

الشيخ الروحاني

ثالثاً: لأبا مكاريوس الكبير:

١٠١١ - إن قوة نعمة الله الكائنة في النفس تعمل عملها بأناة وحكمة وبتدبير سري، ولكن يحتاج عملها في بعض الأوقات إلى ما ينغص الإنسان، ولكن عليه أن يحتمل بصبر كثير. لأنه في النهاية ينكشف له كمال عمل النعمة جهراً، عندما يجوز أصناف التجارب بحزم إرادته ويظهر أخيراً أنه مُرْضٍ للروح، حيث يبرهن الإنسان على خبرته وصبره حيناً بعد حين. وسنبين كيف يكون ذلك بأمثلة من الكتب:

مضمون ما قلته يظهر من واقع حياة يوسف واضحاً جداً، فإنه بعد مدد متطاولة تمت فيه إرادة الله وكملت له الرؤيا، بعد أن تتابعت عليه سعايات ومصائب وضيقات تعينت لتنقيته!! أما هو فتجلَّد واحتملها جميعها!!

فلما وجده الله عبداً أميناً ومقبولاً في كل شيء صيَّره ملكاً على مصر وأعال عشيرته وكملت له النبوة والرؤى حسب إرادة الله بعد زمن طويل وتدابير متنوعة.

كذلك حال داود أيضاً، إذ عينه الله ليكون ملكاً على يد صموئيل النبي، ولكنه بعد أن مُسِح هرب من أمام شاول الذي طارده ليغتاله. فأين كانت المِسحة في هذا الوقت؟ وأين الوعد الذي قصد الله أن يتممه فيه؟ لأنه بعد أن مُسِح، حل به كرب عظيم وصار تائهاً في القفار محروماً حتى من الخبز وهارباً ملتجئاً إلى الأمم الغريبة بسبب ما أضمره شاول ضده، فهنا نرى أن الإنسان الذي مسحه الله ليكون ملكاً ألمت به هذه المصائب الشديدة، وأخيراً بعد تعاقب الأزمنة بعد أن امتُحِن وتضايق وتجرَّب وصبر صبراً طويلاً مؤمناً بالله

مرةً واحدة واثقاً من الغاية التي وعد بها وثوقاً كاملاً، تمت له مشيئة الله بعد طول أناة وبعد بلايا كثيرة وتملَّك داود حقاً كوعد الله! ... وحينئذ ظهرت قوة كلمة الله وتبرهنت صدق المسحة التي مسحه بها الله جهاراً ... وكذلك موسى وإبراهيم ونوح وغيرهم ...

وقد استخرجنا هذه البراهين من الكتب المقدسة لكي نوضح بلا نزاع أن قوة نعمة الله في الإنسان وموهبة الروح القدس لكي تُحسَب النفس أمينة لقبولها يلزم أن يتبعها جهاد عظيم وصبر كثير وطول أناة مع تجارب وبلايا تُمتَحن بها الإرادة ليظهر صدقها بكل أصناف الشدائد الملائمة، فإذا توافقت الإرادة مع الروح القدس و لم تحزنه في شيء من الوصايا تُحسَب في النهاية أهلاً لأن تُفَكَّ من شدائدها وتنال ملء التبني بالروح في السر مع الغِنَى الروحي والحكمة التي ليست من هذا العالم، وهذه جميعها يشترك فيها المسيحيون الحقيقيون!!

أبا مكاريوس الكبير (العظة التاسعة)

١٠١٢ . إن النفوس التي تحب الله بالحق، وتشتهي أن تلبس المسيح بسبب كثرة إيمانها ورجائها لا تحتاج إلى تذكير من الناس فهي لا تكون خالية من محبة الرب بشهوة إلهية، ولو أنها **تصير أحياناً في حالة فراغ** (الجفاف الروحي). ولكن بسبب أنها تكون قد تسمَّرت بكليتها في صليب المسيح فإنها تستشعر يوماً فيوماً، بإحساس اختباري، تقدُّمها الروحاني نحو العريس السمائي.

أبا مكاريوس الكبير (العظة العاشرة)

١٠١٣ . ولكن ما كُتِب عن أيوب أن الشيطان طلب أن يجربه ليس هو بدون غاية، لأنه بدون إذن مخصوص ما كان يقدر الشيطان أن يفعل شيئاً من ذاته ... فلأن أيوب نال العون الإلهي واستعد بعقله واحتمى بالنعمة طلبه الشيطان قائلاً للرب: إنما هو يخدمك لكونك تساعده وتعينه، ولكن كُفَّ الآن وسلِّمه لي وهو في وجهك يشتمك! ... **هكذا لم يكن بد من أن النعمة التي كانت تتعزى بها النفس تمتنع وتسلم النفس إلى التجارب، فيأتي الشيطان ويجلب عليها شروراً لا نهاية لها نحو اليأس والكفر والأفكار الخبيثة ويعذب النفس لكي ينقلها إلى سلطانه ويضلها عن الرجاء بالله.** وأما النفس الحكيمة فإنها تظل في وسط المصائب والشدائد قائمة ولا تيأس أبداً بل تثبت فيما تعلقت به وتتحمل كل ما يحل بها من التجارب التي لا تُحصى قائلةً على الدوام: ولو متُّ فلا أطلقه!!

فإن صَبِر الإنسان إلى المنتهى فحينئذ يغطي الخجل وجه الشيطان ولا يعود يرد لله جواباً، وهكذا يخزى الشيطان من الذين يحتملون البلايا والتجارب.

وحرب الشيطان لا تبطل أبداً ما دام الإنسان على قيد الحياة ....، ولكن المسيحيين إذا حاربهم العدو فلهم المسيح ملجأ يتقلدون منه القوة والسلام من العلاء ولن يبالوا بالحرب ... فإن ثارت الحرب من الخارج

(أي الجسد) فهم مكتسون بالروح القدس ومحصَّنون في الداخل (أي في الروح) بقوة الرب ... لأن المسيحيين مملوءون في الداخل بالطبيعة الإلهية ولا يؤذَوْن، وكل من أدرك هذه الدرجات (في المعرفة) فإنه يبلغ إلى محبة المسيح الكاملة وملء اللاهوت، وأما من لم يبلغ إلى هذا (اليقين) فلا تبرح الحرب من داخله فتجده تارةً يهنأ بالصلاة وأخرى في حال شدة وحرب لأن هكذا هي إرادة الرب.

ومن حيث أن النفس تكون كالطفل لذلك يدربها (الرب) بالحرب: بالنور والظلمة والراحة والشدة، ساعةً صلاةٌ وهدوءٌ وساعةً قلقٌ عظيمٌ.

وثورة الحرب عليك ليس هذا معناه أنه بسبب ذنب فيك، ولكن عليك أن تبغض أعمال العدو.

فإذا رأى الرب عقلك ودفاعك على قدر جهدك ومحبتك له بكل روحك، فحينئذ يبطل الموت من نفسك في ساعة ويأخذك إلى حضنه ويُدخِلك نوره، وفي لحظة يخطفك من الظلمة وتُنقَل إلى ملكوته، لأن الله يطلب من الإنسان الاجتهاد بسبب اتحاد النفس مع الطبيعة الإلهية.

أبا مكاريوس الكبير (العظة السادسة والعشرون)

رابعاً: لأبا أنطونيوس الكبير:

١٠١٤ . اعلموا يا أولادي الأحباء بالرب أن الروح القدس أزلي سرمدي يفوح رائحة زكية لا توصف بلسان، كما قيل، ولا يعرف لذة الروح وحلاوته إلا الذين استحقوا أن يحل فيهم، وهذا معلوم أن كثيرين لم يستحقوه لا لشيء إلا لأنه روح التوبة، وهو لا يسكن في نفوس التائبين إلا بعد أتعاب كثيرة جداً، فإذا سكن فيها يحل فيها السلام، وهو لا يسكن في نفس متكبرة بل في نفوس المتواضعين الذين أفكارهم كلها تكون قد انحصرت في الكمال، وهؤلاء يرسلون شكراً عظيماً وتمجيداً متواصلاً للرب ولسانهم لا يكف: «مبارك الرب الذي علمني».

ولكن التجارب لا تأتي بقوة إلا على الذين قبلوا الروح القدس، لأن بمجرد قبولهم الروح تأتي عليهم التجارب من الشيطان، ولكن الروح القدس هو الذي يطلقه عليهم لأن العدو ليس له سلطان أن يغصب أحداً من المؤمنين إلا إذا أُعطي ذلك من جهة الروح القدس، والرب يسوع المسيح نفسه لما أخذ ما يختص بنا (الجسد) صار مثالاً لنا لكي يعلمنا كل حين أن نعرف الحق، فإنه لما اعتمد حل الروح القدس عليه وفي الحال اقتاده الروح القدس إلى البرية ليُجرَّب من إبليس، ولكن إبليس لم يقوَ عليه، **ولما أكمل كل التجارب** مضى عنه إلى حين ورجع يسوع إلى الجليل بقوة الروح (حيث تجربة المسيح الثانية كانت هي التخلية والصليب).

وهكذا كل الذين ينالون الروح القدس يمنحهم قوة عظيمة بزيادة **ويرفعهم** (إلى درجات في الروح أعلى) ويحفظهم من كل الأشياء.

فيا أولادي الأحباء أنا كنت أشتهي أن تكونوا بقربي لتعرفوا تجربتي الأخيرة التي تشبه تجربة ربنا يسوع المسيح الأخيرة (أي التخلية الإلهية والآلام والموت والنزول إلى الجحيم). لأن المسيح لما أكمل تدبيره وعرف انتقاله قال: يا أبتاه إن كان يُستطاع أن تعبر عني هذه الكأس (تجربة التخلية بكل درجاتها) ولكن ليس كإرادتي بل كإرادتك، وكان ذلك بصلوات وطلبات، ليس خوراً أو خوفاً أو عجزاً، بل مثالاً لنا في كل شيء لتعليمنا كما كانت تجربته الأولى.

فالتجربة التي أتت عليَّ أخيراً يا أولادي كادت توصلني إلى الجحيم (تخلية و يأس) لأن أعداء الخير أرادوا أن يلقوني بكثرة تحيلهم، لهذا كان تعبي وجهادي وضيقتي واضطرابي ... ولكنه لم يتخلَّ عني (إلى النهاية) بل عضَّدني وخلصني من ظلمة الأعداء وردني إلى درجتي الأولى ...

وتجربتي الأخيرة تشبه تجربة يوسف الأخيرة، لأن يوسف الطوباني جُرِّب أولاً بتجارب كثيرة (بغضة إخوته، إلقاؤه في البئر، بيعه كعبد، مراودة امرأة رئيسه). ولكنه لم يضطرب في هذه كلها، ولكن في الآخر لما أُلقي في السجن الذي هو شبه الجحيم (وطال به الزمن) اضطرب لهذه التجربة الأخيرة، (لأنه أحس بتخلية الله وهي أمرُّ من كافة التجارب).

ولكن الله بتحننه لما رأى حسن جهاده أعطاه كرامة جزيلة وصيَّره مشيراً لفرعون ولم يرجع يوسف يتجرب بعد ذلك أصلاً!

فحقاً يا أولادي المحبوبين أنا لا أُخفي عنكم مقدار ما كنت فيه من التجربة ولكن سيدي خلصني منها. وحقاً إن الذي يشترك مع المسيح في الهوان فهو يشترك معه في المجد؛ وكل من يشترك في الأتعاب والشتائم والتعيير والهوان يتمجد، والابن الصالح يرث أتعاب آبائه كما يرث بركتهم!!

أبا أنطونيوس الكبير (الرسالة التاسعة عشرة)

١٠١٥ . وأنا أُريكم عملاً آخر يثبت معكم من البداية إلى النهاية: وهو أن يحب الإنسان الله من كل نفسه ومن كل قلبه ومن كل نيته ويتعبَّد له، فعند ذلك يعطيه الله قوة عظيمة وفرحاً وتحلو له جميع أعمال الله وتخفُّ عليه كل أتعاب الجسد أيضاً والهذيذ بالإلهيات والسهر، وكل نير الرب يصير خفيفاً عليه وحلواً. ولكن لأجل محبة الله للبشر يطلق عليهم أشياء مضادة لهذه المسرات حتى لا يتعظم الإنسان بل يثبت مجاهداً فيزداد نموه، وأثناء ذلك تصيبه أتعاب، فعوض القوة يكون ثقل وضعف، وعوض الفرح حزن، وعوض الراحة والهدوء قلق، وعوض الحلاوة مرارة، وبكثير مثل هذه يُصاب محب الله!

ولكنه بجهاده يتقوَّى، وإذا غُلِب فإن روح الله يكون معه في كل شيء ويقويه فلا يعود يخاف من شيء البتة.

أبا أنطونيوس الكبير (الرسالة الثامنة عشرة)

الفصل الثالث

ضياع الهدف

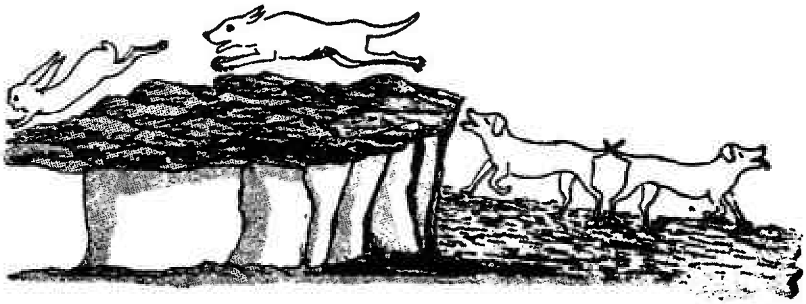

«مالك تحدِّث بفرائضي وتحمل عهدي على فمك؛
وأنت قد أبغضتَ التأديب وأَلقيتَ كلامي خلفك!»
(مز ٥٠: ١٦ و ١٧).

توقف الصلاة بسبب توقف الدوافع الصحيحة أو بسبب ضياع الهدف الحقيقي:

الصلاة عمل روحي، وكل عمل روحي تحركه دوافع وتُزكِّيه أهداف.

لذلك يلزمنا دائماً فحص صحة الأسباب التي تدعونا للصلاة والتأكد من حقيقة الهدف أو الغاية التي نسعى وراءها بالصلاة.

فالدافع الصحيح للصلاة يضمن بقاء الصلاة.

والهدف الحقيقي من الصلاة يجعلها حارة ثم يجدد نشاطها ويزكيها في قلب الإنسان.

فإذا سألتني: «ما هو الدافع الصحيح الذي يدفعك للصلاة؟»، أستطيع أن أقول لك: هو أمر الله ووصيته المتكررة لنا لكي نصلي: «صلُّوا ... ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُملّ ... اسهروا وصلوا» (مت ٦: ٦ و ٩؛ لو ١٨: ١؛ مت ٢٦: ٤١).

فوصية الله هي التي تدفعني بقوتها للصلاة؛ وطالما أنا متمسك بالوصية من كل قلبي وبأمانة ومخافة نحو الله، فأنا سأصلي باستمرار لأن في الوصية قوة دافعة خفية من النعمة.

وإذا سألتني: «ما هي الغاية أو الهدف الذي تصلي من أجله لكي تناله بالصلاة؟» أستطيع أن أقول لك إنه رغبتي الشديدة في أن أعيش في حضرة الله باستمرار، أو هو تقديم نفسي ذبيحة محبة لله، أو لأني أشتهي أن أحيا معه في حياة تسليم كلي واتضاع، أو لأني أسعى أن أطرح نفسي أمامه باستمرار لكي أتخلص من سلطان الخطيئة برحمته. وطالما أنا واضع هذا الهدف أو ذاك نصب عيني كما تزكيه النعمة في قلبي، فإن حرارة الصلاة تدوم وتتجدد كل حين؛ لأن الهدف الذي أضعه أمامي والذي أشتهيه وأسعى نحوه، يجعل الصلاة أمراً محبوباً ووسيلة مقدسة لبلوغ قصد الله.

لذلك فالاعتماد على الدوافع وحدها بدون وضوح الغاية في قلب الإنسان، يجعل الصلاة بدون حرارة، ولا يجد الإنسان غيرة كافية على الانسكاب الحقيقي أثناءها.

كما أن الاكتفاء بهدف معين للصلاة بدون وجود الدوافع الصحيحة لا يكفي لاستمرار الصلاة، لأن الأهداف تتغير وربما تتوقف على الطريق حيث تكون الدوافع هي المحرك الوحيد للصلاة وربما إلى فترة طويلة. فعندما يتوقف هدفي من الصلاة، يكفيني أن أؤديها، لأنها أمر إلهي.

ولكن قد تدخل في الصلاة دوافع وأهداف غير صحيحة دون أن ينتبه الإنسان، وذلك بسبب الجهل بالحقائق الروحية، أو بسبب شهوة الذات البشرية للتمجيد والتعظيم بالروحيات، أو بسبب ميل النفس إلى العالم أكثر من ميلها إلى الله وعطفها على الجسد أكثر من تمسكها بالرجولة الروحية.

فربما يكون الدافع للصلاة نوال خيرات زمنية للتمتع بها، وهنا تصبح الدوافع أرضية غير روحية.

أو يكون الدافع للصلاة هو النجاح في مشاريع وأعمال ومواقف وذلك ليتمجد الإنسان في العالم، وهنا تصبح الدوافع نفسانية عالمية وليست إلهية روحية.

أو قد يكون الدافع للصلاة التخلص من الأعداء وذلك بروح النقمة والحقد والعداوة ورغبة الإنتقام، وهنا تصبح الدوافع شريرة شيطانية وليست لمجد الله.

وهذه الدوافع المنحرفة كفيلة أن تلهب الإنسان بالحرارة والغيرة الكاذبة في الصلاة لدرجة الصوم والدموع والانسحاق، ولكن هذه كلها دوافع كاذبة تغذيها عوامل نفعية ذاتية. فبالرغم من استمرار الصلاة وحرارتها، فالصلاة ليست صحيحة أو مستقيمة الرأي حسب مشيئة الله.

لذلك فالدوافع المنحرفة الغاشَّة لا تُبطِّل (أي توقف) الصلاة ولكن تجعلها باطلة.

أي أن توقف الدوافع يبطل الصلاة بعد حين، حتى ولو كانت الأهداف صحيحة.

أما دخول دوافع غاشة فإنه لا يُبطل الصلاة، ولكن يجعلها باطلة.

ولكي يكون الطريق واضحاً أمام الإنسان نحاول هنا أن نجمع كل الدوافع الصحيحة، التي ينص عليها الإنجيل أي التي حسب مشيئة الله:

أولاً: نحن نصلي لأن الصلاة وصية وأمر إلهي واجب الطاعة بدون فحص وبدون مناقشة وبدون تسويف.

ثانياً: نحن نصلي لأن الصلاة هي الصلة الوحيدة التي بواسطتها يدخل الإنسان في حضرة الله، وبدونها يستحيل أن يتصل الإنسان بالله. فبدون الصلاة نفقد صلتنا الروحية بالله وتموت نفسنا فينا، موتاً روحياً.

ثالثاً: نحن نصلي لأن الصلاة جعلها الله فرصة لنا لنحتمي فيه، وبذلك نتَّقي الوقوع في التجارب الشيطانية. فإذا حدث أن وقعنا فيها، نحتملها ونتغلب عليها فتصير تزكية لنا بدل دينونة: «اسهروا وصلُّوا لكي لا تدخلوا في تجربة» (مت ٢٦: ٤١).

رابعاً: نحن نصلي لأن الصلاة جعلها الله الفرصة الوحيدة ليسمع فيها طلباتنا وينظر فيها برحمته إلينا: «لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتُعلَم طلباتكم لدى الله» (في ٤: ٦).

خامساً: نحن نصلي لأن الصلاة هي الواسطة السرية لتقديم المساعدة والمعونة الروحية لأي إنسان آخر في ضيقة أو خطر أو مرض أو ضلال: «صلوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا» (يع ٥: ١٦).

سادساً: نحن نصلي لأن الصلاة هي خدمة الشكر والحمد لله وخدمة الشكر حتمية على العبد وعلى الابن سواءً بسواء: «إن كنتُ أنا أباً فأين كرامتي وإن كنتُ سيداً فأين هيبتي؟» (ملا ١: ٦).

سابعاً: نحن نصلي لأن الصلاة عمل مفروض علينا تجاه الأعداء الذين يناصبوننا العداء والإساءة.

ولكن من هذه الدوافع السبعة الإلهية هناك ملحقات أساسية لا يمكن تجاهلها:

فالدافع الأول: كون الصلاة أمراً إلهياً، يتحتم أن يرافقها **طاعة** لروح الوصية، عنيدة لا تعرف التسويف.

والدافع الثاني: كون الصلاة هي الصلة الوحيدة التي تربطنا بالله، يتحتم أن يرافقها **خوف واهتمام** فوق كل اهتمام آخر لئلا تنقطع هذه الصلة.

والدافع الثالث: كون الصلاة اتقاءً للتجارب وقوة للتغلُّب عليها، يتحتم أن يرافقها **سهر دائم ويقظة**.

والدافع الرابع: كون الصلاة واسطة لتقديم طلباتنا لله، يتحتم أن يرافقها **توسُّل منسحق** حتى يرفعنا في زمن الافتقاد.

والدافع الخامس: كون الصلاة وسيلة لمساعدة الآخرين، يتحتم أن يرافقها **تحنُّن وبذل.**

والدافع السادس: كون الصلاة خدمة إلهية لله، كسيد وأب، يتحتم أن يرافقها **وقوف وسجود وخشية وتكريم لائق.**

والدافع السابع: كون الصلاة كسراً لحدة العداوة، يتحتم أن يرافقها **غفران وصفح وصفاء قلب بنقاوة ضمير.**

ولكن هذه المفاعيل السرية الداخلية هي، في حقيقتها، صفات متعددة لقوة واحدة هي قوة النعمة التي تحل في القلب وتوجهه لتكميل وصايا الله. فالإنسان بمجرد أن يفتح قلبه لها بكل نيته واشتياقه، تنسكب فيه بلا كيل.

وعلى العموم نجد في هذه السبعة الاتجاهات التي يقدمها الإنجيل بصفتها الدوافع الصحيحة للصلاة، أنه يتشدد في كونها وصية وأمراً ليس لنا أن نقبل واحداً منها ونرفض الآخر؛ بل يتحتم علينا أن نتمسك بجميعها لتكون مصدراً دائماً نستمد منه القوة على الاستمرار في الصلاة.

فإذا كانت هذه الدوافع راسخة في قلب الإنسان وإيمانه، فهي تصبح قوة إلهية للتغلُّب على كافة العوائق التي تعترض حياة الإنسان وتهدد بتوقف الصلاة.

وعلى سبيل المثال نقول إنه إذا واجهت الإنسان مطالب دنيوية ضرورية أو مواقف خطرة، فهي كفيلة أن توقف صلاته لأنها تبتلع حياة الإنسان وتشغل باله وفكره وتمتص كل طاقته. وهنا الإنجيل يتدخل بحكمته الروحية ويقول: «لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة ... لتُعلَم طلباتكم لدى الله» (في ٤: ٦)، وبذلك نجح الإنجيل في تحويل العائق الأساسي للصلاة إلى دافع قوي للصلاة!!

ولكن لاحظ هنا أن الصلاة من أجل هذه المطالب - الهامة والضرورية والخطرة - **ليست غاية للصلاة بل دافعاً للصلاة.** فأنا، طاعةً لأمر الإنجيل ومشورته الروحية الحكيمة، أُصلِّي من أجل هذه المطالب الهامة لا لكي ينفذ لي الله ما أريده ولكن لتُعلَم هذه الأمور لدى الله وهو ينفذ منها ما يريده.

أما إذا خرجت الصلاة عن **حدود الدوافع** المأمور بها من الله وهي هنا: «لتُعلَم طلباتكم لدى الله»، ودخلت في مجال **الغاية الشخصية** أي أن يصلي الإنسان لكي يحصل على ما يشتهيه وما يراه لائقاً لنفسه؛ فحينئذ تخرج الصلاة عن صفتها كعمل إلهي أو وصية وبالتالي تفقد قوتها ومفعولها.

وعلى سبيل المثال أيضاً نقول: إذا قام ضد الإنسان أعداء ظالمون وأساءوا إلى الإنسان وأهانوه، فالمعروف أن الإنسان إذا استسلم إلى غرائزه وأفكاره وعواطفه فإنه حتماً سيضطرب ويفقد هدوءه وسلامه وراحته، وهذه كلها كفيلة أن توقف صلاة الإنسان بل وتطرحه في خطايا قلبية وفكرية شنيعة. وهنا يتدخل المسيح بحكمته الإلهية قائلاً: «باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، **وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم**» (مت ٥: ٤٤).

وبذلك يحول الإنسان عوائق الصلاة إلى دافع للصلاة، فبمجرد أن يبدأ الإنسان أن يصلي ويغفر لأعدائه لكي يرحمهم الله ويُحسِن إليهم ويغفر لهم، تتقوى صلاته جداً ويسمو فوق هذه العواطف ويستمر في صلاته بدون عائق.

وهنا يقدم لنا المسيح **حدود هذه الصلاة** التي من أجل الأعداء قائلاً: «**لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات**» (مت ٥: ٤٥).

وهنا ينقلنا المسيح من مستوى الوقوف قبالة الأعداء إلى الوقوف قبالة الله، ويغير مجال انحصار النفس من محيط الأفكار الشريرة والبغضة والحقد والإحساس بالانتقام إلى محيط السلام والهدوء في حضن الله بالرغم من كل الإساءات والمظالم التي تكون قد وقعت علينا أو التي لا يكفُّ الأعداء عن إيذائنا بها!

إذن، فالدافع الذي وضعه المسيح للصلاة من أجل الأعداء ينحصر في نقل الإنسان من جو الأعداء والعداوة الزائل إلى جو حضرة الله وسلامه الأبدي.

فإذا نظرنا نحن بجهالة إلى الصلاة من أجل الأعداء أنها كفيلة أن تنصرنا عليهم وتوقفنا **أمامهم** كغالبين، فهذا يشكل تجربة خطرة للنفس مع الله. إذ يجوز أن الله يسمح بأن يستمر ظلمهم لنا وإساءتهم إلينا، فلا يبلغ الإنسان من صلاته هذه **الغاية** التي وضعها للصلاة وهي انتصاره على الأعداء!! وحينئذ تنهار نفسه وتبطل صلاته؛ وذلك لأن الصلاة تكون قد

خرجت من حدود دوافعها الإلهية الصحيحة والتي هي هنا: «لكي تكونوا أبناء أبيكم»، إلى غاية شخصية يضعها الإنسان من نفسه للصلاة وهي دحر أعدائه وانتصاره عليهم.

وفي هذه الحالة تكون الصلاة قد خرجت عن طبيعتها كعمل إلهي محدود بدوافع إلهية، وهكذا تصبح الصلاة بدون قوة وبدون مفعول، وبالتالي تتعثر، وأخيراً تتوقف.

إذن، فلكي يضمن الإنسان أن تبقى صلاته مستمرة وتبلغ إلى أقصى قوتها ومفعولها، ينبغي أن يلتزم بحدود الدوافع الصحيحة للصلاة ولا يتحول بها إلى غايات يضعها لنفسه.

الغاية الصحيحة:

ولكي يكون الطريق واضحاً أمام الإنسان نحاول هنا أن نوضح الغاية الحقيقية للصلاة التي هي حسب مشيئة الله:

لقد جعل الله هدفاً نهائياً لحياة الإنسان الروحية تتجمع فيه وتنتهي إليه كل الوصايا الإلهية وهو: حياة الشركة مع الله إلى الأبد التي تبدأ منذ اللحظة التي يقبل فيها الإنسان سر الإيمان بالمسيح الفادي والمخلص، ويُختَم بختم الروح القدس. هذه الشركة تنمو وتتقوى من يوم إلى يوم بواسطة الصلاة التي فيها يُعلَن للإنسان ماذا ينبغي أن يعمل حتى تكمل شركته مع الله.

ولكن هذه الغاية النهائية، التي تُحسَب هدفاً حقيقياً إلهياً للصلاة بل ولكافة الأعمال الروحية على وجه العموم، قد لا تنكشف مرة واحدة لقلب الإنسان الساعي في طريق الخلاص، بل تكتفي النعمة بكشف جزء صغير من هذا الهدف حتى لا يرتبك الإنسان في سعيه وجهاده. فمن عادة النعمة أن تتدرج مع الإنسان السائر في الطريق فتكشف له أهدافاً تتناسب مع قدرته وتناسب جهاده أولاً بأول، فبقدر ما يتقدم في حياته الروحية تظهر له درجات أعلى تناسب تقدمه حتى لا يتعرقل مسيره.

فمع أن الهدف النهائي من حياة الصلاة والعبادة واحد وهو حياة الشركة مع الله، أي الاتحاد في حياة أبدية معه، إلا أن النعمة تجزئ هذا الهدف إلى درجات كثيرة.

فأول درجة تكشفها النعمة للإنسان المبتدئ في حياة توبته لتكون هدفاً مناسباً له، هي الاشتياق لحياة التخلص من رباطات الخطيئة وعاداتها وأفكارها وآثارها المترسبة في القلب والفكر، حيث تجعل النعمة كل شهوة الإنسان وكل آماله وتفكيره وجهاده يتركز في انتظار

خلاصه من عبودية الخطية وسلطانها، وحينئذ لا تفارقه صورة خطاياه وهفواته فتلهبه وتحرك قلبه بالوجع على ما فات، وتجعل صلاته كنار متقدة لا تخمد الليل والنهار، ولا يهدأ عن تقديم التوسل والدموع لكي تنحلَّ رُبُط خطاياه؛ كما تمده النعمة بقدرة على فحص وتفتيش ضميره حتى يستأصل كل جذور الخطية الدفينة وأسبابها.

وفي وقت معين، وحين تستكمل النعمة مع الإنسان غسله وتطهيره من الداخل، تبطل عنه حرارة الفحص والتفتيش عن الخطايا تمهيداً لنقله إلى درجة أعلى من الصلاة تتناسب مع حالته الجديدة. وقد يخطئ الإنسان في هذه المرحلة ويظن أن النعمة تخلَّت عنه بسبب انطفاء حرارة البكاء على الخطايا وعدم قدرته على الاستمرار في تذكُّر هفواته وتقديم أعمال التوبة المناسبة كالأول؛ ولكن الحقيقة هي أن هدف الصلاة قد انتقل من أمامه، بدون إرادته، من درجة الفحص عن الخطايا إلى درجة أعلى تتناسب مع نفسه في حالتها الجديدة، وحينئذ دون أن يشعر الإنسان يرى هدفاً جديداً مصوَّراً في قلبه وذهنه قد بدأ يشع حرارة جديدة ويلهب الصلاة لتتحول إليه بكل قوتها، هذا الهدف هو شهوة إنكار الذات والاتضاع ورفض الظهور أو تمجيد الناس، وهذا يكون بمثابة بدء الدرجة الثانية من الهدف الحقيقي للصلاة.

وبنفس الطريقة والأسلوب، إذا ظل الإنسان أميناً على تحريكات النعمة للضمير وقيادتها للنفس فإنه يبتدئ يتنقل من درجة إلى درجة كما يقول الكتاب: «من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢كو ٣: ١٨)، حتى يبلغ نهاية كل سعي وكل صلاة الذي هو الحياة الوثيقة المتحدة بالله.

ودرجات النعمة التي يتدرج فيها هدف الصلاة مع بداية التخلص من سلطان الخطية حتى نهاية حياة الشركة الكاملة مع الله، كثيرة ويصعب إخضاعها للأرقام والتحديدات كما أن تدرجها يختلف من واحد لآخر، فلواحد يُعطَى الصليب بمرارته في بدء حياته، ولآخر يُعطَى الصليب في آخر حياته، ولواحد يُعطَى فرح العشرة مع الله منذ أول خطوة، ولآخر ينحجب عنه هذا الفرح كثيراً. وليس في مقدور الإنسان، مهما بلغ من الدالَّة والقداسة، أن يقدم خطوة على خطوة في هذا السعي المملوء أسراراً.

ولكن، على سبيل المثال وليس الحصر، عُرِفَتْ درجة النعمة التي يتدرج فيها المختارون كهدف لصلواتهم حتى بلغوا منتهى الغاية كالآتي:

أولاً: الشوق إلى الخلاص من رُبُط الخطايا بدموع وندم: «إغسلني فأبيض أكثر من الثلج» (مز ٥١: ٧).

ثانياً: الشوق إلى إنكار الذات والاتضاع والابتعاد عن مواقف الأضواء والكرامة: «أما أنا فدودة لا إنسان، عارٌ عند البشر» (مز ٢٢: ٦).

ثالثاً: الشوق إلى تسليم الحياة كلها لله والتخلي عن كل مشيئة الذات مرة واحدة.

رابعاً: الشوق إلى نقاوة القلب والبساطة الطفولية والاعتماد الفعلي على مشيئة الله فقط.

خامساً: الشوق إلى الدخول في أعماق سر محبة الله الذي فيه يتم الاتحاد بدون سعي أو إرادة.

ولكن النعمة تظل حرة تتنقل بالإنسان كما تريد هي وليس كما يريد الإنسان، فقد ترفعه إلى درجات لا يستحقها وقد تخفضه إلى درجات لا ينتظرها. وكثيراً ما تمسك النعمة بيد الإنسان وتتمشى معه بين هذه الأهداف جميعاً فيحس ذلك الإنسان كأنه يتمشى في الجنة فيمتلئ بهجةً وعزاءً وسروراً، ويظن أنه بلغ النهاية، ولكن في لحظة تعود به النعمة إلى درجته التي يعيش فيها، تضبطه حرارتها وتحدُّه مطاليبها حتى يكمِّل حقوقها.

وقد ركز جميع الآباء على جعل نقاوة القلب كهدف ينبغي أن يكون أمام الإنسان في كل وقت وخاصةً وقت الصلاة. فنقرأ عن ضرورة نقاوة القلب كهدف حيوي أساسي لدى الآباء العظام الأوائل واحداً بعد واحد بدون استثناء، وقد أفاض في شرح ضرورة هذا الهدف كل من أبَّا موسى المعاصر لأنبا أنطونيوس، وأبَّا إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس موضِّحَين أنهما استلما هذا التدبير الروحي عن الآباء السابقين.

ولكن في هذه الدرجات جميعها من أولها إلى آخرها تلهب النعمة قلب الإنسان بصورة مبسطة، ولكن كاملة، للهدف الحقيقي من الحياة والصلاة، وهي إحساس حار وشوق شديد لتقديم النفس ذبيحة لله بحالتها كما هي سواء كانت في درجتها الحطيطة الأولى أو في درجتها العليا الأخيرة. هذا الإحساس عام ومشترك في جميع درجات النعمة التي يتدرج فيها الإنسان نحو هدف حياته وصلاته، مما يثبت فعلاً أن الإنسان مدعو لبلوغ الغاية الأخيرة التي هي الاتحاد بالله.

ويُعتبر هذا الإحساس العام المشترك في كافة الدرجات، أي شوق الإنسان في تقديم نفسه ذبيحة محبة الله، برهاناً على أن السعي مقدس والصلاة هي في وضعها الإلهي المناسب.

ووجود هدف للصلاة أمر ذو أهمية قصوى، لأنه بدون هدف حقيقي يصعب أن يكون للصلاة حرارة وقوة، خصوصاً إذا علمنا أن الهدف يتناسب مع درجة الإنسان الروحية، وأن الحرارة المتولدة من شوق النفس نحو بلوغ الهدف الذي تكشفه النعمة لها هو الذي يرفع النفس ويعبُر بها من درجة إلى درجة.

كذلك، فإن إحساس الإنسان بارتباطه بهدف روحي يشتاق إليه ويتقدم فيه قليلاً قليلاً بمؤازرة النعمة يُنشئ في قلب الإنسان «الفرح الروحي». ومعروف أن الفرح الروحي يشد أزر النفس المبتدئة ويزكي الصلاة في عين الإنسان، فالفرح ينمي النفس، كما يقول القديس أنطونيوس:

[هكذا النفس إذا لم تقبل الفرح السمائي لا يمكنها أن تنمو وتصعد إلى العلاء، وأما النفوس التي قبلت الفرح السمائي فهي التي تستطيع أن تنمو إلى العلاء](1).

فإذا فقد الإنسان هدف الحياة الروحية التي يعيشها أمام الله وتوارى عن عينيه قصد صلاته وغايتها، كان ذلك إشارة خطرة أن الصلاة مهددة بالانحصار في حيز ضيق داخل اهتمامات النفس، ومآلها إلى الضمور وعدم التقدم أو النمو، هذا إذا بقيت الدوافع سليمة. ولكن الحاصل فعلاً أن توقف النفس عن التطلع إلى هدف حي حقيقي للصلاة كفيل أن يتسحَّب بعد مدة، طالت أو قصرت، على كل الحياة الروحية ويتسبب في توقف الدوافع التي تدفع الإنسان في الصلاة.

ومن هذا يتبين أن الدوافع الصحيحة للصلاة مرتبطة في النهاية بالغاية الحية الحقيقية التي تكشفها النعمة للنفس لتكون مصدر حرارة لجهادها في الصلاة، فبمجرد توقف الغاية تؤثر تأثيراً شديداً على الدوافع أيضاً وفي النهاية تبطلها حتماً.

وللتدليل على هذه الحقيقة نقدم هذا المثل الذي ورد في كتابات الآباء: (الأرنب والكلاب):

[سُئل القديس هيلاريون (رئيس رهبنة فلسطين) عن تعليل رجوع بعض الإخوة إلى العالم

(١) الرسالة الثالثة عشر.

بعد أن يكونوا قد ساروا في الحياة الرهبانية، وكيف يتحاشى الإنسان المجاهد التأثر بهم؟ فقال: «إنه يليق بنا أن نأخذ مثلاً لذلك من كلاب الصيد التي تنطلق وراء الأرانب البرية، فإنه يحدث أن أحد الكلاب يلحظ أرنباً بعيداً فينطلق وراءه، وإذ ترى الكلاب الأخرى التي معه أنه يجري فإنها تنطلق تجري معه - دون أن تكون قد رأت الأرنب - فتظل تجري معه ولكن إلى فترة ما، وحينما يصيبها التعب والإجهاد فإنها تتوقف وتعود، بينما الكلب الذي يرى الأرنب يظل يتعابعه بمفرده لا يعوقه التعب والجهد عن تكميل مشواره الطويل، فيستميت في تقدمه لا يعطي لنفسه راحة ولا يتعطل بسبب الكلاب الأخرى التي تخلَّفت وراءه، بل يظل يجري حتى يفوز بما كان يراه غير عابئ لا بالعثرات التي تصادفه في طريقه سواء كانت حجارة أو أشواكاً ولا بالجروح التي تصيبه. هكذا الإنسان الذي يتبع وراء محبة المسيح ينبغي عليه أن يثبِّت نظره على الصليب حتى يفوز بالذي صُلِب عليه، حتى ولو رأى الكل قد تخلَّفوا ورجعوا إلى الوراء»[٢].

في هذا المثل تظهر بوضوح قيمة الدوافع وقيمة الأهداف!

فالكلب الأول كان الدافع له على الجري وراء الأرنب البري جوعه وغريزته في الافتراس وحب الجري والمتابعة، أما هدفه فكان الأرنب الحي وهو يجري أمامه فيُجسِّم في مخيلته أكلة لذيذة غاية اللذة. وهنا نجد الهدف يشد أزر الغريزة ويجذبه الجوع، فيكاد ريقه لا يجف بطول الجري من لذة تصوُّر لحم الأرنب وهو في فمه. لذلك نجد سرعته ظلت تتزايد بالرغم من الجهد والإعياء والجروح والعثرات.

أما الكلاب الأخرى فنجد أن جريها كان بتأثير الدوافع الغريزية فقط وهي حب الجري والمتابعة، وفي حالتها نجد اختفاء الهدف تماماً، فهي لم ترَ الأرنب لذلك ظلت مستمرة في جريها وظل تباطؤها يزداد بقدر تعبها وجهدها إلى اللحظة التي تغلَّب فيها الجهد والتعب على الدافع فأبطله وحينئذ توقفت نهائياً!

في هذا المثل الواقعي نرى كيف أن الهدف يستطيع أن يحفظ الدافع على أقصى درجته وقوته، كما نرى تآزر الهدف مع الدافع لركوب المصاعب والمشقات والتغلُّب على الصعاب بدرجة هائلة تفوق القدرة العادية في الظروف العادية. فوجود هدف حي مفرح ومناسب وفي نطاق الإمكانيات الموعود بها من الله مع إضافة المعونة المقدَّمة من النعمة للإنسان المجتهد كفيلة

(2) Apoph. Patr. B. II, No. 211.

أن تخلق في الإنسان قدرات إضافية وطاقات جديدة على الدوام تجعله قادراً أن يتغلّب على كافة الصعاب والعراقيل، ويستهين بالخسائر والأتعاب بلا حدود.

كما يتبين لنا أيضاً ما ينتج عن فقدان رؤية الهدف وكيف يفتُّ في عضد الإنسان فيجعل الجهل والتعب فوق احتمال النفس، وإذ يوقعها في حالة بؤس وملل تنتهي بأن يبلغ الإنسان درجة اليأس ويتوقف؛ مع أن القدرات البشرية والطاقة والإمكانيات وكافة الظروف واحدة، والذي فرَّق بين مَنْ نجح في جهاده ومن فشل هو رؤية الهدف من عدم رؤيته.

وقد يحدث أن تقتحم حياة الإنسان الروحية أهداف مزورة من صُنع الذات البشرية، ويرتبط بها الإنسان بسبب ما تخلقه من شغف ذاتي ومسرة كاذبة، وتكون مشابهة تماماً للأهداف الحقيقية من حيث قدرتها على بعث الحرارة في الصلاة والجهاد.

ويصعب في البداية التفريق بين إنسان يصلي لغاية حقيقية حسب مسرة الله ومن تدبير النعمة، وبين إنسان يصلي لغاية مزورة حسب مسرة الذات البشرية ومن صنع النفس. ولكن بعد مدة تبدأ المفارقة تظهر، وبمضي الزمن يزداد الفارق وفي النهاية تبحث عن المجاهد الذي كان يصلي ويجاهد من أجل غايات ذاتية مزورة فلا تجده، لأن الغاية الغاشة التي تضعها الذات من نفسها للجهاد كفيلة إما أن تُستَنفد بسرعة فلا يعود لها طعم ولا قيمة، وإما تكون سراباً كاذباً غير موجود بالمرة؛ وفي كلتا الحالتين إذ تواجه النفس هذه الحقيقة تنزوي وتخرج عن دائرة الجهاد والصلاة.

والأهداف الغاشة للصلاة التي تُستَنفد بسرعة هي مثل أن يصلي الإنسان وهدفه أن يُمتَدح ويُكرَّم ويُعظَّم في عيون الناس، فهذه بعد أن يصل إليها الإنسان ويمتلئ بلذتها يكتشف أنها كانت له كالعسل المخلوط بالسم، فبقدر ما تلذذ بها تسمَّم.

والأهداف البعيدة الكاذبة للصلاة هي مثل أن يصلي الإنسان ليصير قديساً وصانع معجزات، فهذه يظل الإنسان يجري في الصلاة ويجاهد من أجلها بكل اجتهاد، ثم يكتشف في النهاية أنها أهداف غير موجودة، وبقدر ما يظن أنه اقترب منها يجد أنها قد ابتعدت عنه!

وعلى العموم فإن الأهداف الغاشة المزورة للصلاة تقع تحت ثلاثة أبواب:

الأول: أن يصلي الإنسان ليتمجد في عين الناس.

الثاني: أن يصلي ليتزكى في عين الله.

الثالث: أن يصلي ليتبرر في عيني نفسه.

ولكي يؤمِّن الإنسان طريقه وصلاته، عليه دائماً أن يفحص الهدف الذي يسعى نحوه ويفتش في مصدر الحرارة والغيرة التي تمتزج بصلاته لئلا يكون قد انحرف وراء أحد الأهداف المزيفة المضلِّلة. ومن السهل جداً أن يكتشف الإنسان مقدار انحرافه لو راجع الهدف الذي ينجذب نحوه باشتياق قلبه على الأهداف الحقيقية التي ذكرناها والتي هي بحسب مشيئة نعمته.

والحادث أنه بمجرد أن ينحرف الإنسان وراء إحدى هذه الأهداف المضلِّلة تبتدئ الصلاة تفقد تركيزها وتصير بلا معنى ولا قيمة ولا قوة، ولا يتبقى منها إلا شكلها الذي يدقق فيه الإنسان غاية جهده حتى يحصل على هدفه الكاذب. وتظل هذه الصلاة المزيفة مرتبطة بهدفها المزيف تستمد منه دوامها وشكلها وحرارتها المصطنعة، وبقدر ربح الإنسان من هدفه الذاتي بقدر ما تدوم صلاته وتتقوى بل وتكون لذيذة ومفرحة عند نفسه لأنها تتحول إلى صنعة مربحة، أما أجرها السمائي فيكون دون أجر أية صنعة شريفة أخرى، لأن كل صنعة تثمر بمقدار رأس مالها الذي يدفعه الإنسان من جيبه أو عافيته فيكون الربح حلالاً عليه، أما صنعة الصلاة المزيفة فرأس مالها مسروق من الله وربحها بدل أن يعود إلى الله يسلبه الإنسان لنفسه.

ولكن قد يكون الإنسان الذي فقد هدفه الحقيقي وسار وراء هدف فرعي غاش، غير منتبه إلى الخديعة التي وقع فيها وهذا عليه أن يدرك ذلك من مستوى قوة صلاته ومقدار مثابرته فيها، لأنه حتماً سيفقد حرارته ومسرته وتصير صلاته عبئاً على نفسه سواء كانت صلواته الخاصة أو الجماعية، إذ يشعر أنها ضياع للوقت إذ لا يستثمر منها أي فائدة بل على العكس فصلاته الخاصة تزيده تشتتاً وثقلاً ومللاً، وصلاته الجماعية تزيده دينونة للواقفين والمصلين والصلاة، فيخرج منها غارقاً في الخطيئة معتبراً أن ضعف الآخرين وسوء تصرفاتهم هو السبب، مع أن السر الحقيقي هو أن نفسه فاقدة لروح الصلاة وغير مرتبطة بهدف يشدُّها ويركِّزها في الله.

وهكذا يتضح لنا أن عدم ارتباط الإنسان بهدف حقيقي حسب مشيئة الله وتدبير النعمة كفيل أن يُفسِد الصلاة ويُفقدها حرارتها، وفي النهاية يجعلها ثقلاً على النفس لا تحتمله وتتمنى لو تتخلص منه؛ كالتلميذ الكسول الذي يفقد هدفه من الدراسة والتعليم فتصبح العلوم في نظره ثقيلة وفاقدة لكل معنى وقيمة ولا تساوي الجهد المفروض أن يبذله من أجل تعلُّمها.

أقوال الآباء في أهداف الصلاة ودوافعها:

أولاً: حديث أبا موسى[٣]، الذي كان بإقليم نتريا (شمال إقليم القلالي وشيهيت) مع كاسيان عن **قيمة الهدف في حياة الراهب:**

١٠١٦ . كل الفنون وكل العلوم لها هدف، أوحدٌ، ولها غاية أو غرض في ذاتها. وكل طالب يجهد لفن من الفنون يضع عينه على هذه الغاية ويحتمل من أجلها كل أنواع المشقات والمخاطر والخسارات بسرور وهدوء.

فالفلاح مثلاً لا يستعفي من حرارة الشمس اللافحة ولا من الصقيع والبرد، تارةً يعزق أرضه بلا ملل وأخرى يشقها بسكة المحراث مراراً وتكراراً، واضعاً نصب عينيه الهدف الذي يسعى نحوه، وهدفه أن يفك تربة الأرض ويستأصل منها الجذور الضارة والحشائش الغريبة، ويجهد في سبيل ذلك إذ يعتقد أنه ما من سبيل آخر أمامه يبلغ به غايته التي ينشدها سوى ذلك. وهو ينشد أن يوفر لنفسه حصاداً جيداً ومحصولاً وفيراً ليعيش عليه بلا همٍّ أو لينمي أملاكه.

ثم أنه بينما يكون مخزنه مليئاً، نجده لا يتورع مرة أخرى عن أن يستنزف كل ما فيه بهمة وحزم، مستودعاً ما عنده من البذور إلى حفر الأرض غير مُبالٍ بما يحسه من النقص المفاجئ في مخازنه في الحاضر في نظير ما يؤمِّله من المحصول في المستقبل.

وأيضاً نجد الذين ينعكفون على التجارة لا يخشون البحار في تقلُّبها ومخاطرها ويستهينون بالأخطار عامةً، لأن الأمل الملحّ يستحثهم إلى الأمام دائماً من أجل الربح.

وبالمثل الذين تتحرق أشواقهم للحياة العسكرية، نجدهم حينما يتطلعون إلى الشرف والقوة ويجعلون ذلك غرضاً لهم لا يبالون بالخطر المحدق ولا بالهلاك أثناء جولاتهم، بل والحروب والخسارات أيضاً لا تستطيع أن تحطم همَّتهم، وذلك في سبيل حصولهم في النهاية على الشرف والكرامة.

---

(٣) وهو غير أبا موسى الأسود الذي كان قاطناً بجوار دير البراموس ببرية شيهيت. ومن حديثه الثاني في الفصل الثاني يتضح أنه كان معاصر لأنبا أنطونيوس في باكورة شبابه.

هكذا تماماً في طغمتنا نحن معشر الرهبان إذ لنا هدف أو غاية، ومن أجل الهدف والغاية نمارس كل صنوف الجهاد دون الإحساس بالعناء والمشقة بل نؤديها في مسرة حقيقية، مما يجعل حاجتنا إلى الطعام أثناء الصوم ليست شاقة علينا كأنها محنة أو تجربة، وأتعاب السهر الطويل تصير لنا مسرة، كذلك القراءة والتأمل المستمر في الأسفار الإلهية لا يوهناننا، ولا العمل المتواصل ولا إنكار الذات ولا عوز كل شيء ولا حتى رعب الصحراء يفزعنا.

وهذا بلا شك هو أيضاً ما جعلكم تستهينون بمحبة الأهل وموطن آبائكم ومسرات الدنيا وتعبرون البلاد كلها حتى تجيئوا إلينا، نحن معشر البسطاء السُذَّج، الذي نعيش كما ترون هذه الحياة المسكينة الحقيرة في هذا القفر (الكلام موجَّه إلى كاسيان وزميله چرمانوس).

ثم استدرك القديس كلامه سائلاً: أجيبوني وأخبروني ما الهدف وما الغاية التي استحثتكم هكذا لتحتملوا كل هذا بفرح؟

١٠١٧ . ولكن يلزم أن تعرفوا أولاً ماذا يجب أن يكون هدفنا القريب الآن، أو ما هي الحدود التي إذ نلتزم بها على الدوام نبلغ غايتنا النهائية.

أول ما يجب عمله في أي علم أو فن، كما سبق وقلت، هو أن يكون للمتقدم هدف أو خطة معينة في العقل وغرض يستمر في الفكر نحوها، لأنه إن لم يحتفظ الإنسان بهذا أمامه بكل اجتهاد وتصميم فهو لن ينجح في الوصول إلى الغاية أو إلى المكسب الذي يشتهيه.

فالفلاح الذي جعل غرضه أن يحيا بلا همٍّ وفي سعة، عندما تنمو محاصيله، فإنه يجعل غايته وهدفه في الحاضر أن يحتفظ بحقله نظيفاً من الحشائش الضارة، وهو لا يمكنه أن يضمن الغِنى والحياة الهادئة ولا يحلم بذلك إذا لم يتوفر أولاً على العمل والأمل معاً ليحقق ما يتلهف على الحصول عليه.

كذلك ورجل الأعمال أيضاً لا يمكنه أن يهمل في تحصيل السلع التي عن طريقها يزداد غناه، وهو إذا لم يختَرْ الطريق الموصل إلى الغِنى ويلتزم به يكون كمن يشتهي ربحاً ولا من وسيلة إلى ذلك.

والذين يتحرقون لحمل المؤهلات التي تمنحهم الشرف والكرامة في هذا العالم تجدهم يتدبرون أولاً كيف يكرسون أنفسهم لاضطرار الواجب ولما يُشترَط - لنيل هذه الأهداف - حتى يكون حصولهم على الكرامات المشتهاة يجري في مجرى الأمل الطبيعي.

هكذا نحن، فغاية طريقنا في الحياة هو ملكوت الله بالحقيقة، ولكن ما هو الهدف الحاضر الذي يلزم أن نطلبه أولاً باجتهاد؟ لأننا إذا لم نكتشفه فإننا سنجاهد ونُشقي أنفسنا بدون نتيجة، فالمسافر إذا ضلَّ الطريق فإنه يجمع لنفسه الشقاء كله ولن يحصل على رجاء رحلته الحسن!

ثم يقول كاسيان: فلما وقفنا مندهشين عند هذه الملاحظة المثبتة! ... استطرد الشيخ القديس:

– إن غاية عمل طغمتنا في الحقيقة هو ملكوت الله أو ملكوت السموات، كما قلت، أما هدفنا في الحاضر **فهو نقاوة القلب**، الذي بدونه لا يمكن لإنسان أن يبلغ الغاية. فإذا تثبَّت نظرنا على هذا الهدف باستقامة كما تُثبَّت العين على علامة محددة أمامها، علينا بعد ذلك أن نسير نحو الهدف مباشرةً على قدر إمكاننا. فإذا طاشت أفكارنا وضلت بعيداً عن الهدف، علينا أن نعود لنمتحن نظرتنا بدقة ونفحصها على الهدف كمقياس الغاية، فهذا يستطيع أن يرد كل مجهود مرة أخرى نحو هذا الهدف الواحد. وبذلك يظهر في الحال إن كان عقلنا قد مال وضل عن الاتجاه المحدد له، وسينكشف الميل مهما كان ضئيلاً!

١٠١٨ . الذين تستدعي مهنتهم أن يحملوا أسلحة الحرب عندما يستعرضون مهارتهم في فنهم أمام ملكهم، يتبارون في إطلاق سهامهم أو رماحهم نحو مرمى صغير معين وتكون الجوائز مرسومة أمامهم. ولعلمهم أنه ليس من طريق آخر ليضمنوا الغاية ويحصلوا على الجائزة، تجدهم يلتزمون بخط المرمى لأنهم لن يهنأوا بالجائزة التي يترجونها إلا إذا استطاعوا أن يصيبوا المرمى المنصوب أمامهم.

فإذا حدث أن رُفِع المرمى من أمامهم، فمهما كانت مهارتهم فإن خط الهدف سينحرف كيفما يكون عن الطريق المستقيم، وهم لا يكتشفون أنهم ضلوا عن الاتجاه المعين لأنه ليس أمامهم مرمى محدَّد حتى يُظهِروا فيه حذق نظرتهم أو ينكشف لهم عدم حذقها، وهكذا بينما يطلقون سهامهم جزافاً في الهواء لا يستطيعون أن يدركوا كم أخطأوا بل ولا يعرفون إن كانوا قد ضلوا نهائياً إذ ليس هدف يحكم عليهم!

هكذا، فالنهاية التي وضعناها أمامنا هي، كما يقول الرسول، **الحياة الأبدية**: «فلكم ثمركم للقداسة، والنهاية حياة أبدية» (رو ٦: ٢٢). أما هدف الحاضر فهو نقاوة القلب التي يدعوها بحق «قداسة»، التي بدونها لا يمكن بلوغ النهاية التي ذُكِرت. وكأنما الرسول يريد أن يقول بمعنى آخر إنه وإن كان هدفكم في الحاضر هو نقاوة القلب إلا أن النهاية هي الحياة الأبدية.

□□□

ثانياً: تعليم للقديس كاسيان نفسه، مما تعلمه عن الشيوخ في مصر عن أن التدرُّج في الهدف من مخافة الله إلى محبته أمر حيوي في الحياة الروحية:

١٠١٩ . بداية الخلاص وضمان الحصول عليه هو، كما سبق أن قلت، في الحصول على «مخافة الله»، لأنه بواسطة مخافة الله يستطيع السائرون في طريق الكمال (المسيحي) أن يحصلوا على بداية أولى للتحول الداخلي وللتطهير من الشرور والثبات في طريق الفضيلة.

فإذا وجد قلب الإنسان طريقه فعلاً إلى مخافة الله، فإنه يحدث أن يبتدئ الإنسان بأن يزدري بأمور العالم، وينحلَّ من رباط الأهل، وتدخله رعبة من جهة سلطان العالم (على النفس). وعندما يستهين الإنسان بفقدان

كل شيء في العالم يسكنه الاتضاع. أما الاتضاع فتكشف عنه هذه الأمور:

(١) تبتدئ شهوات الإنسان تخمد وتموت.

(٢) لا يستطيع الإنسان أن يُخفي عملاً أو فكراً ما عن مرشده.

(٣) لا يضع في نفسه أن يثق برأيه قط، بل يعود دائماً إلى حكم مرشده ويصغي باشتياق وحرية وعزم لتوجيهاته.

(٤) يكون مستعداً في كل شيء بالطاعة ولطف وصبر مستمر.

(٥) لا يسيء إلى أحد ولا ينزعج أو يتذمر إذا أساء أحد إليه.

(٦) لا يعمل شيئاً ولا يجازف بشيء لم يكن قد أُعطِي له بأمرٍ عام وبحسب تقليد الشيوخ.

(٧) يقتنع دائماً بالنصيب الأصغر مُعتبراً نفسه «العبد البطَّال» وغير مستحق لأي شيء يُمْنَح له.

(٨) أن لا يكتفي باعتراف شفتيه أنه أقل الجميع ولكن يكون له ذلك عقيدة وإيماناً قلبياً.

(٩) يضبط لسانه ولا يتكلم بأكثر مما يُطلَب منه.

(١٠) أن لا يسهل دفعه للضحك ولا يكون مستعداً لذلك.

فبهذه العلامات يدرك الإنسان اتضاع نفسه.

فإذا حصل الإنسان على هذه فإنها ترفعه إلى درجةٍ أعلى وهي «المحبة» التي لا تعرف الخوف، التي بها يسهل على الإنسان بدون جهد أن يكمل هذه الأعمال كلها، ليس بعد بناءً عن خوف أو عقوبة، بل بدافع المحبة والمسرة النابعة من الفضيلة.

وباختصار وبكلمات قليلة، اسمع الآن كيف يتسلق الإنسان إلى مرتفعات الكمال (المسيحي) بدون صعوبة:

+ فبداية الخلاص والحكمة حسب الكتاب المقدس هي «**مخافة الله**».

+ ومن **مخافة الله** تنبع المسرة بالحزن والندم المملوء سلاماً.

+ ومن **الندم** ينبع حب التجرُّد والزهد.

+ ومن **التجرُّد والزهد** ينبع حب الاتضاع.

+ ومن **الاتضاع** تموت الشهوات.

+ **وبالإماتة** تُقتَلع المعاثر والخطايا.

+ **وباقتلاع المعاثر** والخطايا ينبت بُرْعُم الفضيلة والنمو.

+ وببزوغ عِرْق **الفضيلة** في النفس تحل نقاوة القلب.

+ **ونقاوة القلب** توصل إلى **المحبة الرسولية** وهي الكمال.

كاسيان (الكتاب الخامس: الفصل ٣٩ و ٤٣)

□□□

ثالثاً: من تعاليم أبا مكاريوس الكبير:

(أ) وفيه يجمع أبا مكاريوس بين **ضرورة الدوافع وضرورة الأهداف التي نضعها نصب عيوننا،** كما بيَّن ضرورة تقديم النفس كلها ذبيحة لله حتى يبلغ الإنسان الاتحاد بروح الله:

١٠٢٠ . لم يُسمَع قط أن أي إنسان يستطيع أن «يقتني نفسه» ويقتني «روح المحبة» السمائي، بدون أن يبتعد (بقلبه) عن جميع الأشياء المختصة بهذا العالم، ويبذل نفسه في طلب حب المسيح، وينحلَّ عقله من الهموم الهيولية والقيود الأرضية، ليكون دائماً مشغولاً بذلك المرام (الهدف) الذي وضعه قدام عينيه، ويدبر أموره بالوصايا كلها؛ على أن يكون همَّه كله وسعيه وجهده وشغل نفسه الحصول على جوهر عقله نقياً وتزيينه بقواعد كل فضيلة وبالروح السمائي وشركة نقاوة المسيح وقداسته.

فيجعل اهتمام عقله كله ويُقصر اعتناءه وتلهُّفه على طلب نقاوة جوهر النفس العقلي وينتظر برجاء وأمل كلِّي مجيء الروح القدس عليه حسبما قال الرب: «بصبركم اقتنوا أنفسكم» (لو ٢١: ١٩)؛ «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه وهذه كلها تُزاد لكم» (مت ٦: ٣٣).

ومن الممكن للإنسان الذي يجتهد هذا الاجتهاد ويحرس نفسه بالصلاة والطاعة، أن ينجو من ظلام العالم (الشياطين)، لأن العقل الذي لا يهمل تفتيش نفسه ويطلب الرب، يستطيع أن يقتني نفسه؛ خصوصاً إذا كان بضمير صالح يقيِّد ذاته للرب متمسكاً بقوله: «مُستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢كو ١٠: ٥)، لأن بهذا يُحسَب العقل أهلاً أن يكون مع الرب روحاً واحداً، وهذه عطية المسيح ونعمته للنفس.

وإنه شيء مقبول، إن كانت النفس تُخصِّص ذاتها كلها للرب وتتمسَّك به وحده وتسير في وصاياه بدون نسيان وتُعطي روح المسيح حقه من الإكرام، لأنها بذلك تُحسَب أهلاً أن تصير معه روحاً واحداً وتركيباً واحداً كما نصَّ على ذلك الرسول قائلاً: «من التصق بالرب صار معه روحاً واحداً» (١كو ٦: ١٧).

أما إذا سلَّم أحد نفسه لهموم هذا العالم وأمجاده - (هنا تزييف الأهداف) - وبدأ يطلب كراماته والسيادة على الآخرين ويسعى وراءها؛ أو إذا تهاون الإنسان في أفكاره، فبدأت ترحب بخلطة الأفكار الأرضية وتشويشها، أو بدأ يرتبط بشيء من هذا العالم وتَقيَّد به، ثم بعد ذلك أراد أن ينطلق ويفرَّ من ظلمة هذه الشهوات والأهواء الخبيثة، يجد أنه لا يستطيع لأنه يكون قد ارتبط بحبها.

فسبيلنا أن نهيئ نفسنا للمجيء إلى الرب بعزم ثابت وإرادة لا تنحل، وأن نتبع المسيح من كل القلب، حتى يمكننا أن نعرف ونعمل مشيئته ونهتم بجميع وصاياه، ونُجنِّب أنفسنا محبة العالم، حتى تهتدي أرواحنا إلى المسيح وحده ونحصر فكرنا فيه؛ معتنين أن نفتش عقلنا باعتناء دائماً حتى لا يبتعد العقل أبداً عن حب الرب وطلبه باشتياق، حتى إذا سعينا هكذا بضمير مستقيم مهتمين بأنفسنا كل حين، حينئذ ننال موعد روحه القدوس ونُفدَى بالنعمة من تسلُّط الأهواء المفسِدة ونصبح أهلاً للملكوت السمائي، فنُحسَب مستحقين

للتنعُّم بالخلود مع المسيح ونمجِّد الآب والابن والروح القدس إلى الأبد آمين.

أبا مكاريوس الكبير (العظة التاسعة)

(ب) وفي موضع آخر يوضح القديس مكاريوس الكبير أهمية الهدف وشدة فاعليته وسلطانه على النفس:

١٠٢١ - إن النفوس التي تحب الله بالحق ويكون رجاؤها وإيمانها في المسيح أن تشتهي أن تلبسه كليًّا، لا تحتاج إلى تذكير الغير (أي لا تحتاج إلى دوافع خارجة عنها) لأنها لا تخلو أبداً من شهوة ومحبة إلهية للرب، ولو أنها تدخل أحياناً في حالة فراغ (جفاف روحي). ولكن من حيث أنها تكون مسمَّرة كليًّا في صليب المسيح، فإنها تستشعر يوماً فيوماً بحسٍّ إختباري، تقدُّمها الروحاني نحو العريس السمائي.

ولأنها تكون مجروحة بشهوة سمائية وجائعة لبرِّ الفضائل، فإنه يكون لها شوق عظيم إلى الروح القدس لا يخمد لكي يُضيء عليها.

ولو أنها تُحسَب بإيمانها أهلاً لقبول الأسرار الإلهية وتصير شريكة في بهجة النعمة السمائية، لكنها مع ذلك لا يكون لها ثقة بحالها أو اعتماد على ذاتها. بل بقدر ما تُحسَب أهلاً للمواهب الروحانية، يزداد بالأكثر إشتياقها إلى الله مصدر امتلائها وحرارتها، ولا تبرح مفتِّشة ذاتها باجتهاد وبلا ملل، حتى أنها بقدر ازديادها في النمو الروحاني تزداد جوعاً وظمأ إلى النعمة، وبقدر ما تزداد غِنىً بالروح بقدر ما تزداد شعوراً بالفقر إلى الله، تجذبها شهوة روحانية حارة إلى العريس السمائي كما قيل: «من أكلني عاد إليَّ، ومن شربني لا يزال ظمآناً» (يشوع بن سيراخ ٢٤: ٢١).

(ج) وفي موضع آخر يوضح القديس مكاريوس أثر انعدام الدوافع والأهداف الصحيحة على النفس:

١٠٢٢ . وأما النفوس الخالية من الهِمَّة (الدوافع الحسنة) ومن الجراءة (السعي وراء أهداف مقدسة) ولا تطلب شيئاً من هذا النوع، فإنها تستمر في وضعها الجسداني بسبب أنها لم تحصل على رجاء القداسة في قلبها و لم تتسلح بالصبر وطول الأناة، ولا أعني درجة من درجات الروح ولكن أعني كافة درجات الكمال (المسيحي)، التي ينبغي أن يرتبط بها القلب بغاية الإحساس والثقة للحصول على شركة الروح القدس بالكمال لكي يفديها تماماً من أَسْرِ الأهواء المفسدة الخبيثة!!

(د) ويكمل القديس مكاريوس شارحاً حالة النفوس التي بعد أن تسير قليلاً أو كثيراً في طريق الامتلاء الروحي ثم تزلُّ وتنخدع وراء الاكتفاء الذاتي فتتوقف عن النمو وتُحرَم من بركات الصلاة:

١٠٢٣ . والنفوس التي بعد أن حُسِبَت أهلاً للنعمة الإلهية ثم خدعها عنصر الخبث (الذاتي) وسلّمت ذاتها للإهمال والتغافل ... متكلة على ما أحرزته من نعمة الروح والتنعُّم بعزائها، فإنها تتشامخ وتغفل عن الحرص بسبب عدم **انسحاق القلب** وعدم **اتضاع العقل**، فتعطي لنفسها الحرية مع أنها لم تبلغ إلى الدرجة الكاملة أي درجة الحرية من الشهوات!

فالنفس التي لا تنتظر الامتلاء التام من النعمة باجتهاد وإيمان بل تكتفي بما تحصّله (في منتصف الطريق) وتثق بما تحسه من عزاء النعمة القليل، فإن النجاح الذي تكون قد حصلت عليه يتسبب لها في التشامخ عوض التواضع، وتكون النتيجة أنها تُجرَّد ثانيةً من تلك الموهبة التي أُسبِغت عليها أولاً لكونها رذلت التقدم بسبب غفلتها وتشامخ رأيها الباطل.

أما النفس المحِبَّة للمسيح بالحق، ولو أنها تعمل أعمال البر بلا عدد، إلا أنها تظهر بسيرتها أنها لم تفعل شيئاً البتة بسبب المحبة الحارة للرب التي فيها. ولو أنها تُميت الجسد بالصيامات والسهر إلا أنها لا تزال تتبع الفضائل كأنها لم تتعب من أجلها قط. وحتى ولو تُحسَب أهلاً لمواهب الروح أو الوحي الإلهي والأسرار السمائية، فبسبب وَجْدِها العظيم بالرب تظهر، بالرغم من ذلك، كأنها لم تمتلك شيئاً. ولأنها تظل جائعة عطشانة بالإيمان والمحبة، فإنها تبقى دائماً محمولة بروح الصلاة المستمرة حتى تبلغ إلى كل أسرار النعمة وإلى كافة الفضائل.

لأنه من حيث أنها توجد مجروحة بمحبة الروح السمائي، ملتهبة بشوق زائد إلى العريس السمائي بسبب فعل النعمة الحالّة فيها دائماً، فإنها تظل مشتهية أن تدخل حتى التمام في شركة المسيح السرية الفائقة الوصف بتقديس الروح، لأن هذه الشركة تكون مكشوفة أمام منظر النفس، والنفس تظل ناظرة إلى عريسها السمائي بعين القلب المستقيمة وجهاً لوجه في ذلك النور الروحاني الذي لا يوصف، وهكذا تصير مختلطة به بثقة كاملة، فتصبح مطابقة لموته، منتظرة باستمرار أن تموت من أجل المسيح، مترجّية بثقة الإيمان الكامل أن تنال فداءً كاملاً من الخطيئة وظلام الشهوات بهداية الروح القدس، حتى إذا تطهَّرت بالروح وتقدَّسَت نفساً وجسداً تُحسَب أهلاً أن تصير إناءً نقياً مُعَدًّا لقبول وسُكنى الروح القدس وحلول المسيح الملك الحقيقي.

أبا مكاريوس الكبير (العظة العاشرة)

(هـ) وفي موضع آخر، يوضح القديس مكاريوس خطورة الاكتفاء بدوافع الصلاة فقط دون أن يكون للإنسان أهداف روحانية يشتاق إليها ويطلبها ويسعى نحوها:

١٠٢٤ . وإن كان أحدٌ ما إذ يجد نفسه عارياً من الصلاة، فيبتدئ يغصب نفسه على الصلاة لكي يحصل على درجة من النعمة في الصلاة، ويكتفي بذلك دون أن يسعى في طلب الوداعة والتواضع والمحبة ووصايا الرب الأخرى (الأهداف الروحانية المطلوبة)، ولا يعتني ولا يتعب ولا يجتهد لأجل تدبيرها الواجب عليه؛

فالذي يحدث هو أنه بموجب اختياره ورضاه تُعطَى له أحياناً صلاة النعمة، ولكنها تبقى منفردة على حِدَتها حسب طلبه، إلا أنه يظل كما كان أولاً من حيث سلوكه وسيرته، فيبقى بلا وداعة لأنه لم يطلبها و لم يعدّ نفسه لها، ويظل بلا تواضع لأنه لم يسأل عنه و لم يسعَ في تحصيله، ويكون بلا محبة نحو الناس لكونه لم يبالِ و لم يتنهدْ في صلاته من أجل المحبة، ويكون أيضاً بلا إيمان ولا ثقة بالله في تكميل ما عليه من مطالب روحية، ولا يفطن أن هذه تعوزه لأنه لم يعرف نفسه.

ولكن الذي يأتي إلى الرب بالصلاة، عليه أيضاً أن يغصب نفسه إلى ما كان صالحاً حتى ولو كان قلبه مخالفاً لذلك، وأن ينتظر الرحمة من الله بإيمان لا يتزعزع ويغصب نفسه إلى المحبة إن كان خالياً منها، ويغصب نفسه إلى الحِلْم إن كان ناقصاً من نعمة الحِلم، ويغصب نفسه إلى الشفقة وإلى امتلاك قلب حنون، ويغصب نفسه إلى تحمُّل الذل والهوان بصبر جميل، وإن رُذِل وفُضِح فلا يتحرك بالغيظ على ذلك ....، ويغصب نفسه على الصلاة إن لم تكُ فيه الصلاة الروحانية. فإذا رآه الله في هذه المجاهدات معذِّباً نفسه بالاغتصاب، فإنه يمنحه روح الصلاة الحقيقية، وينعم عليه بالمحبة والوداعة بالحق مع أحشاءٍ مراحمٍ وحِلْم صادق، ويملأه من ثمار الروح.

وأما إن غصب أحد نفسه على الصلاة فقط، ولا يغصب نفسه على الارتباط بطلب الفضائل الأخرى المتقدم ذكرها ولا يسعى ويجتهد فيها ولا يعوِّد نفسه عليها، فهو لن يقدر أن يحوز على فعل الصلاة بنقاوة وبلا عيب أبداً. لذلك يلزم أن يربط الإنسان قلبه بالميل إلى الصلاح بقدر طاقته، لأن النعمة الإلهية تحل عليه وقت الصلاة وأثناء التضرعات، لأن الله صالح ومحسن، والذين يسألونه يمنحهم طلباتهم. أما الذي لم يعوِّد نفسه على ذلك و لم يَمِلْ بقلبه إلى الصلاح، فإنه وإن نال نعمة، فهو إما يَعدِمها ثانيةً ويسقط في الكبرياء، أو لا يتقدم ولا يترقَّى في النعمة الموهوبة له، لأنه لم يسلِّم نفسه لوصايا الله برضاه.

أبا مكاريوس الكبير (العظة التاسعة عشر)

□□□

رابعاً: من تعاليم أبا أنطونيوس الكبير:

(أ) في أن الهدف الذي نشقى من أجله يلزم أن يكون واضحاً قبل العمل وأثناء العمل، وأن يكون محبوباً لدينا؛ وعلينا أن نثابر في تزكية الدوافع الأولى التي دفعتنا لسلوك طريق الله:

١٠٢٥ - من يطرق قطعة من الحديد، يسبق أولاً فيمثِّل في فكره ما هو عتيد أن يفعله: إما منجلاً أو سكيناً أو فأساً وهكذا، فسبيلنا نحن أيضاً أن نفكر في كل شيء نبدأ في العمل به لئلا يكون عملنا باطلاً (بلا هدف).

+ ليكون خوف الله بين أعينكم دائماً (هدف)، واذكروا أنه يُميت ويُحيي، وابغضوا العالم وما فيه.

+ اذكروا ما وعدتم به الله (الدوافع الأولى) فإنه سوف يطالبكم به يوم الدينونة.
(بستان الرهبان)

١٠٢٦ - سُئل القديس: ما هو العمل الجيد؟ (أي الذي يصلح أن يكون هدفاً لحياتنا؟)

فأجاب: إن الأعمال الجيدة كثيرة، فالكتاب يقول إن إبراهيم **كان مضيفاً للغرباء** وكان الله معه، وإيليا كان **يؤثر سكنى البرية والوحدة** والله كان معه، وداود **كان متضعاً وديعاً** وكان الله معه، فالذي يحبه قلبك من هذه اعمله من أجل الله (يلزم أن يكون الهدف يحبه القلب).

(بستان الرهبان)

(ب) إن الدوافع التي تدفع الإنسان للدخول في حياة التوبة والصلاة والنسك ثلاثة، والله يتكفَّل بها جميعاً!!

أولاً: تصديق صوت الله القلبي وطاعته بسرعة وبدون توانٍ، وهؤلاء روح الله يرشدهم إلى الطريق.

ثانياً: تصديق الوصايا المكتوبة التي توضح الدينونة للخطاة والمواعيد الصالحة للتائبين، وهؤلاء نور الوصايا ينير لهم الطريق.

ثالثاً: الانتباه، على أثر المصاعب والشدائد التي تصيب الإنسان والتي يجلبها الله عليه قصداً.
(عن الرسالة الأولى)

(ج) ولكن يعود القديس فيوضح أنه تلزمنا معونة من الله وقوة إضافية لنكمل بها الدعوة:

١٠٢٧ - أنا لا أملُّ من الطلبة عنكم، لكي تعرفوا النعمة التي صارت لكم، لأن الله برحمته ينبِّه جميع الناس بأسباب من نعمته.

١٠٢٨ - فلا تملُّوا ولا تتكاسلوا، يا أولادي، عن الصراخ للرب نهاراً وليلاً، لتستعطفوا صلاح الله الآب حتى ينعم عليكم بمعونة من العلاء فتعلموا ما يجب عليكم.

(د) ويحذرنا القديس أنه لا يمكن للإنسان أن يضع هدفاً صحيحاً لحياته وصلاته، إلا من خلال الاتضاع والمسكنة ومعرفته أولاً لضعفه وعدم استحقاقه لشيء من ذاته:

١٠٢٩ - أطلب من الله أن ينير عيني قلوبكم لتعلموا وتنظروا خزيكم، لأن من يعرف خزيه (أولاً) فذاك هو الذي يطلب المجد المختار الحقيقي، لأن من يكون قد عرف (أسباب) موته هو الذي يعرف (أسباب) حياته الأبدية.

(الرسالة السادسة)

١٠٣٠ – لأني أنا الشقي أُعلِمكم أيضاً أن ربنا نبَّه عقلي من نوم الموت بنعمته، فصار لي تَوْحٌ وبكاء مدة ما بقي لي من هذا الزمان اليسير على الأرض، لأني أفكر ما هو الذي نعطيه للرب عوضاً عن الذي صنعه معنا.

(الرسالة السابعة)

(هـ) الأهداف المزيفة والخاطئة تجعل الصلوات والجهادات بلا أي ثمرة:

١٠٣١ – الذين لا يأتون إليه من كل قلوبهم بل يكونون ذوي قلبين، وجميع ما يصنعونه هو في الظاهر حتى ينالوا المجد من الناس، فهؤلاء لا يستمع الله لهم في شيء بل ويغضب عليهم، لأن أعمالهم رياء ويتم عليهم قول المزمور: «الله يبدِّد مشورة المرائين». ولا يسرُّ الله بطلباتهم بل يقاومها، لأنهم يصنعون أعمالهم بغير أمانة لمراءاة الناس، لذلك لا تفعل فيهم قوة الله، فتضعف قلوبهم إزاء كل ما يبدأون به من عمل ولا يذوقون حلاوة الخفة الإلهية وفرحها في مؤازرة الأعمال، بل تثقل عليهم أعمالهم وتصير حِمْلاً ثقيلاً على نفوسهم.

(الرسالة العاشرة)

١٠٣٢ – كل الذين ثمارهم ميتة فإنهم لا يكونون نصيباً لله، بل إنه يلومهم بالأكثر كما قال للنبي: «عرِّف شعبي بخطاياهم ... لأنهم سيطلبونني قائلين لماذا صُمنا و لم تنظر، ذلَّلنا أنفسنا و لم تلاحظ؟ ... فقُلْ لهم لأنكم في أيام صومكم توجدون صانعين لإرادة قلوبكم الشريرة والذين تحت سلطانكم تقسون عليهم ... وصومكم للخصومة والنزاع ... لستم تصومون لتسميع صوتكم في العلاء، أمثل هذا يكون الصوم الذي أختارُه؟» (إش ٥٨). يا أولادي، إن هذه هي الثمار المائتة، وكلُّ الذين يصنعونها لا يسمع لهم الله!

(الرسالة الخامسة عشر)

□□□

خامساً: بعض أنواع أهداف الصلاة يوضحها القديس مار إسحق:

(أ) مخافة الله هدف أساسي:

١٠٣٣ – مخافة الله تتقدم محبة الله؛ والذي يعمل بالوصايا لأجل محبة الله، يُعطَى له في الأول خوف الله! ... لأن خوف الله يلزم في البدء، لتكميل الوصايا التي تحتاج إلى تكلُّف وصعوبة، كما أن خوف الله يساعد في مقاتلة الخطيئة التي تقاوم الإنسان عند تكميله الوصايا. والعمل الذي به يصل الإنسان إلى كمال خوف الله هو أن لا يخطئ الإنسان خطية كبيرة أو صغيرة، حتى ولو لم يكن يوجد أصغر منها خطية، إلا ويسرع بالتوبة عنها. بهذا نكمل مخافة الله.

(الجزء الأول – ميمر ٦)

وفي موضع آخر يشرح مار إسحق حالة ضياع هذا الهدف وتزييفه بآخر:

١٠٣٤ - والذي من قبل الصعود على الجزء الأول (مخافة الله) يجسر على الثاني (محبة الله) بسبب اشتياق لذته أو بسبب ملله وكسله، فإن غضب الله ينهمر عليه، لأنه لم يُمِتْ أولاً أعضاءه الأرضية؛ أي أنه قبل أن يشفي سقم أفكاره بصبر على أتعاب الصلب ومحقرته، تجاسر أن يحصل على مجد الصليب!

(الجزء الثاني - ميمر ١)

(ب) فضائل القديسين يمكن أن تكون أهدافاً جزئية هامة تنقي الصلاة من الانحلال والكسل والطياشة:

١٠٣٥ - والهذيذ بالفضائل (أي اشتهاؤها في القلب) هو أن يتحرك القلب بحسن تدبير القديسين، لأن بهذا تتيقظ النفس وتشتهي أن تتزين بفضائلهم وتأخذ شبههم وصبرهم وفرحهم في الضيقات، وتجلُّدهم، وعفة أعضائهم، وازدراءهم بشهوة الجسد، واهتمامهم الدائم بالطهارة؛ **ويضع أمام عينيه (كهدف للصلاة) أن يكون غير محسوب بالكلية، لأن من هذه (أي من إنكار الذات) يتولد فيه عدم الغضب، لأن الغضب دليل العظمة الكائنة في داخل النفس.**

والإنسان بقدر ما يتصور فضائل القديسين في ذاته (أي يضعها أمامه كهدف) فإنه يسير متمثلاً بتذكار صبرهم، وهكذا تتنقى الصلاة من الانحلال والملل وطياشة الأفكار، ... ويتقوَّم العقل ويتشجع ويتطهر ويطرد الكسل ويتمسك بالفضائل كل أوقاته، وبسبب غيرتنا على الفضيلة يقبل الله صلاتنا!

(الجزء الأول - ميمر ١)

(ج) قيمة الدوافع القانونية (حسب الإنجيل والآباء)، والتمسك بها في دفع الصلاة دفعاً صحيحاً موفَّقاً لبلوغ أهدافها:

١٠٣٦ - قبل كل شيء، اعلم هذا جيداً أنه لا يُتوَّج أحد إذا لم يجاهد حسب زِيٍّ وشَرْعِ تدبير الجهاد، كقول بولس الرسول: «إن كان أحد يجاهد لا يُكلَّل إن لم يجاهد قانونياً». لأنه كما أن لكل شيء ناموساً وترتيباً، هكذا أيضاً في السيرة الروحانية.

وكل إنسان لا يجاهد حسب ترتيب ناموس الجهاد لا يتقدم تدبيره، وبالأخص في هذا الجهاد غير المنظور الذي يفوق العالم في صفاته وتدبيره.

والذي يتخلف عن هذا - (أي الاستهانة بالدوافع التي تدفع الإنسان للصلاة حسب أصول وناموس الجهاد المشروع) - فإن انغلابه يكون متوقعاً دائماً.

فالذي يضع مخافة الله - (كهدف لحياته) - **ينبغي لكي يتقدم في هذا الطريق أن يغصب نفسه في كل تدبير قانوني يقدمه إلى الله، سواء كان بالصوم أو بالصلاة أو ببقية الفضائل.**

وينبغي أن تعلم، أيها التلميذ، أننا لا نستطيع أن نثبت في الأمور الإلهية كما يلزم إذا لم نغصب أنفسنا كل وقت بالوسائل التي تقرِّبنا إلى الله.

علماً بأنه بقدر ما يشقى الإنسان من أجل الله (أي من أجل هدفه وهو مخافة الله)، فإن العون الإلهي يحيط به ويسهِّل عليه المسير، ويُصلح الطريق قدامه في كل موضع.

... وإذا اقترنت السيرة الحسنة بالصلاة، تكون مثل لهيب النار في قوتها وحركتها! ...

... والذي لم يقتنِ واجبات الصلاة، لا تصدِّق أن يكون له صلاة! ...

... وضبط العقل في الصلاة بدون الاحتراس السابق في الكلام والأعمال والحواس لا يمكن أن يكون! ...

وبمقدار الكرامة التي يُظهِرها الإنسان أثناء الصلاة ...، سواء كان ببسط اليدين إلى السماء، أو قياماً متعففاً، أو سقوطاً على الوجه إلى الأرض؛ وبمقدار تعظيمه لله بالوقار الذي يُظهره أثناء **تقديمه للذبيحة التي يقربها في أوقاتها القانونية بحريته**، فإنه يؤهَّل للنعمة الإلهية، وفعل الروح القدس (وهنا يُظهِر مار إسحق ضمناً هدف الصلاة الأساسي وهو تقديم النفس ذبيحة أثناء الصلاة).

أما الذين زلُّوا بأفكارهم، وظنوا أن الصلاة يكفي أن تكون في القلب فقط ولا يُراد منا شيء آخر، فيصلُّون وهم منضجعون على ظهرهم (إذا لم يكونوا مرضى)، أو وهم جالسون باستحقار، ولم يعتنوا أن يزينوا أنفسهم وقت الصلاة بأعمال حسنة وقيام حسب قوة الجسد وترتيب الحواس والتوقير اللائق، ولم يخرُّوا على وجوههم كمن يتقدم إلى لهيب نار، ولم يأخذوا أنفسهم بالقَسْر لتقديم الكرامة اللائقة بالرب، هؤلاء ما فطنوا إلى مكر العدو وقسوة حيله، لأنهم يسلمون أنفسهم إلى الزور والضلالة، ولا يُحسَبون إلا كمائتين، وحركتهم إنما هي نفسانية فقط ولا يبلغون إلى الدرجة الروحانية!

ليس لك عمل آخر ضروري لتكمله أعظم من الصلاة!

(الجزء الأول - ميمر ٢)

(د) نقاوة القلب هدف عام للصلاة:

١٠٣٧ - إن كنتَ بالحق تحب الله فإن اشتياقك إلى نقاوة القلب ينبغي أن يكون أكثر من كل شيء، وإلى هذا الهدف صوِّب جميع قصدك وغرضك وسيرتك، واسأل واقرأ وتعلم ما هي.

(الجزء الأول - ميمر ١)

(هـ) الاتحاد بالله هو غاية السعي كله:

١٠٣٨ - الاتحاد بالمسيح هو غاية مطلوبنا وليس شيء آخر سواه.

مار إسحق السرياني

الباب الرابع

نواحي النشاط الخارجي للصلاة

أهمية الطقوس في الصلاة

+ «كان يعلِّم الشعب في الهيكل» (لو ٢٠: ١).
+ «إصنعوا هذا لذكري» (لو ٢٢: ١٩).
+ «أخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه» (يو ١٢: ١٣).
+ «وجثا على ركبتيه وصلى» (لو ٢٢: ٤١).
+ «وخرَّ على وجهه وكان يصلي» (مت ٢٦: ٣٩).
+ «ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب» (يو ١٧: ١).
+ «فامتلأ البيت من رائحة الطيب» (يو ١٢: ٣).
+ «ثم سبَّحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون» (مر ١٤: ٢٦).

موضوع هذا الباب

قدمنا في الباب الأول موضوع الصلاة ودرجاتها وثمارها ولزوميتها في الحياة العملية.

وعرضنا في الباب الثاني موضوع الفضائل وأنواع النسك وصلة ذلك بحياة الصلاة.

وبحثنا في الباب الثالث معوقات الصلاة وطبيعتها وكيفية التغلب عليها.

وها نحن في هذا الباب الأخير نبحث مسألة الكنيسة وتأثيرها على حياة الفرد الروحية، كعامل هام في بناء شخصية الفرد وتوجيه مشاعره وحفظ كيان إيمانه وتقدمه في الصلاة.

ونقصد بالكنيسة كل ما يحيط بهذه الكلمة، سواء من جهة حضور اجتماعاتها أو الاشتراك في ممارسة طقوسها وأسرارها.

لأنه لا يكفي أن يتدرب الإنسان على حياة الصلاة بالتمرُّن على درجاتها والسلوك في أنواع التقشفات والنسك المختلفة، إذا ظلت المواقف الخارجية التي يواجهها الفرد كما هي من حيث تأثيرها السيء. كذلك لن يكون للصلاة قوتها أو ثمارها، إذا كانت مبادئ العقيدة عقلية جافة لا تتمشى مع انطلاق النفس المحرَّرة من قيود القياسات المنطقية وفلسفة العقل والمعقولات.

الصلاة داخل الكنيسة[1]

الصلاة داخل الكنيسة عموماً، حسب المفهوم الكنسي، هي «خدمة إلهية» – ليتورچيا، بمعنى أنها عمل جماعي روحي يختص بالله ويُقدَّم له كعبادة.

والله أظهر منذ البدء أنه يهمه جداً أن نجتمع معاً ونتراءى أمامه لنعرض عليه أمورنا، كما نسأل منه طلباتنا، لأنه مع كونه يعلمها سابقاً إلا أنه يشدد على أن يعلمها منا نحن، كذلك

---

(١) يمكنك الرجوع إلى كتاب «التسبحة اليومية ومزامير السواعي» للمؤلف لقراءة تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع.

يهمه أن نشكره على كافة ما قدمه لنا سابقاً عاماً وخاصاً.

والصلاة داخل الكنيسة - أي الليتورچيا - نوعان كبيران:

النوع الأول: ليتورچيا الصلوات والطلبات والتشكرات والتسابيح.

والنوع الثاني: ليتورچيا الأسرار ومركزها الإفخارستيا.

والكنيسة الأرثوذكسية بالرغم من اهتمامها الشديد بالنوع الأول أي بليتورچيا الصلوات والتسابيح، التي خصصت لها معظم ساعات النهار والليل على مدى أيام الأسبوع لتغطي كافة إحتياجات الإنسان وعلاقته بالله، إلا أنها لا تعتبر هذه الصلوات واسطة رسمية لحلول النعمة للتقديس. إذ أن الكنيسة تعتبر أن حلول النعمة وقبولها هو عمل محدد يختص بالأسرار وحدها، لأنها ترتبت من الله لهذا الغرض.

ولكن ليس معنى هذا أن الكنيسة تقلل من قيمة الصلوات والتسابيح، فالواقع أن هذه الصلوات تأخذ من الكنيسة معظم وقتها وجهدها واهتمامها، لأنها تعتبرها المدخل الرسمي الوحيد لخدمة الأسرار واستحقاق نوال النعمة المنسكبة منها!

وفي التقليد الآبائي يتضح ذلك على وجه العموم، حيث جعلوا خدمة الصلوات والسهر والتسبيح ذات قيمة عالية جداً في تدبير البيعة، واعتبروه أنه هو الركض في الميدان، أما نوال نعمة الله بالأسرار فهو كالجائزة أو المكافأة أو الجُعالة.

والنعمة التي ننالها بالأسرار تظل كامنة في النفس بدون فعل إلى أن تعمل معها حرية الإرادة بالصلاة والطلبة والدموع، وفقاً لمشيئتها:

فالنعمة تحل في النفس بالأسرار، ولكن تنمو مفاعيلها وثمارها بالصلاة والخدمة. وفي التقليد الكنسي لا يمكن الحصول على حالة نعمة إلا بالأسرار، لذلك يُقال للإنسان المعتمد أنه «نال نعمة»، وللإنسان الذي يشترك في الإفخارستيا أنه «نال نعمة»، وتقريباً في كل سر يحصل الإنسان التائب على حالة نعمة. فممارسة الأسرار هي في الحقيقة ممارسة حياة النعمة.

ويمكن أن نحدد العلاقة القائمة بين ليتورچيا الصلاة والتسبيح وليتورچيا الإفخارستيا في النقط الآتية:

أولاً: الصلاة والتسبيح مدخل رسمي للإفخارستيا، وهذا نراه مطبّقاً بصورة واضحة في الإعداد للقداس الإلهي منذ اليوم السابق، في قراءات العشية ومزاميرها وقراءات باكر مع تسابيحها. هكذا أيضاً داخل النفس، يتطلب هذا الإعداد نفسه استعداداً لائقاً لقبول الملك.

ثانياً: الصلاة والتسبيح يؤهلان لقبول نعمة الإفخارستيا والإحساس بها.

ثالثاً: الصلاة والتسبيح ينبثقان من نعمة الإفخارستيا، لذلك يستمدان قوتهما ويدومان في القلب بالمواظبة على الشركة.

رابعاً: الأسرار، وبالتالي النعمة، لا تُغني إطلاقاً عن الصلاة، والطِلبة، والتسبيح، وعمل الإرادة على الدوام حتى آخر يوم في حياة الإنسان.

خامساً: الصلاة والتوبة والتسبيح جهاد في حد ذاته تسنده النعمة، ولكن لا تعصمه من السقوط، تقيمه ولكن لا تحفظه قائماً بدون جهاد.

سادساً: الصلاة والتسبيح يحفظان الإنسان من التقهقر (التجربة)، ويحققان أمام عين الإنسان صورة رحمة الله وعنايته وقوته ووجوده كحالة لا تحتاج إلى برهان، أي أن الصلاة والتسبيح يُمسكان بالنعمة مسكاً.

١٠٣٩ - فلا يخدعنَّ أحد نفسه، لأنه إذا لم يكن الإنسان متحداً بالمذبح فهو محروم من خبز الله، لأنه إذا كان لصلاة اثنين أو ثلاثة قوة أن تجعل المسيح حاضراً في الوسط، فكم تكون الصلاة عندما تصير بواسطة الأسقف والكنيسة كلها، وتُرفع في توافق إلى الله؟ لذلك، فكل من يفصل نفسه عن الكنيسة ولا يجتمع مع الجماعة وقت تقديم الذبيحة فهو يُحسَب ذئباً مهما كان مظهره معتدلاً.

إغناطيوس الأنطاكي(٢)

الصلاة والتسبيح كطقس إلهي:

خدمة الليتورجيا بالصلاة والتسبيح عمل جماعي بطبيعته، وسيظل عملاً جماعياً حتى في الدهر الآتي.

لذلك فتحديد شكله ومضمونه مطلبٌ جوهري، يرفع عن كاهل الفرد صعوبة وخطورة ما يُقال وما يُعمل عند المثول أمام الله ويكون حسب مشيئته. فالكنيسة تسلمت أساس طقوسها

(2) Ignat. *To Ephes.*, V.

منذ البدء من الرب والرسل، وحافظت عليه كتقليد مقدس أضافت إليه بإرشاد الروح القدس في العصور الأولى ما يزيد وضوحه وما يحفظه من الإنحراف.

والطقس ضرورة طبيعية للإنسان، لأن الإنسان دائم التطلُّع بروحه إلى الله، وهو لا ترتوي روحه إلا إذا عبَّر بكل كيانه النفسي والعقلي والجسدي عن حبه وشوقه وإخلاصه. فالطقس تكتمل فيه حاجة الإنسان الملِحَّة من نحو الله. والإنسان حينما يبلغ فعلاً بالطقس إلى تحقيق شوقه إلى الله بإخلاص الصلاة والتسبيح والحمد، يصل إلى ذروة الاستعداد للاتصال بالله، وحينئذ يتم فيه سر الله، إذ يتنازل العظيم الأبدي ويسكب من روحه وحبه في قلب الإنسان.

لذلك يلزمنا أن لا نُجيز إطلاقاً تسمية الطقس بطقس، إلا إذا اكتمل فيه الإحساس الروحي بالله والشوق الصادق إليه والاستعداد الداخلي للاتصال بالله. لأن الطقس لا يُمثل علاقة مبتورة من جهة الإنسان نحو الله، بل علاقة كاملة متبادلة بين الإنسان والله، فيها صلاة واستجابة معاً، فيها مثول الإنسان أمام الله وحضور الله مع الإنسان:

- «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت ١٨: ٢٠).

عطايا الله للمواظبين على ممارسة خدمته بأمانة:

قانون الطقس يبدو في مظهره مجرد وصايا وأوامر وتحديدات. ولكن سر الطقس يتجلَّى في الأمانة عند التنفيذ والمواظبة بإخلاص حيث ينفتح على الإنسان باب العطايا الإلهية، فيذوق الإنسان من سخاء الله وغزارة نعمته. وحسب خبرة الآباء القديسين، تكون العطايا دائماً من نوع الجهاد:

- فنشاط الجسد في الصلاة والخدمة يجازيه الله بنشاط الروح وحرارة القلب.
- ووقوف الإنسان في الصلاة بعزم ورزانة يجازيه الله بصلابة الروح واستقامة الفكر.
- ورفع اليدين والعينين والقلب والنفس يجازيه الله بالاقتراب بنعمته إلى قلب الإنسان.
- والسهر بالليل يجازيه الله بيقظة في الروح واستنارة.
- والصلاة بفهم ووعي قلبي يجازيه الله بنعمة الإفراز والحكمة.
- والسجود متواتراً إلى الأرض يجازيه الله برفع روح الإنسان من الأرضيات.

- والتسبيح والحمد والشكر الدائم يجازيه الله بالفرح وبهجة النفس.
- وتمجيد الله وتقديس اسمه متواتراً يجازيه الله بتكريم روح الإنسان في السر والعلن.
- والدموع والبكاء والحزن على الخطايا والصغائر يجازيه الله بعزاء النعمة والفرح الباطني.

أي أن الطقس بقدر ما يضع علينا من أوامر ووصايا وفرائض والتزامات، يهيئ لنا، في الواقع وفي السر، العطايا الثمينة البهجة التي توازن أتعابه مائة ضعف. وكلما ثقَّل علينا بالتزامات تبدو للجهال والكسالى أنها زيادة وثقل، كلما أضمر لنا انفكاكاً من رُبُط الجسد والعالم وأعدَّنا لنكون روحانيين.

إذن، فالأمانة والمواظبة على ممارسة الطقس فترة طويلة مستمرة، فرصة منقطعة النظير لعطاء النعمة، لا كمواهب تُعطَى جُزافاً في يوم وليلة، ولكن كصفات حية للروح تغرسها النعمة في النفس غرساً، قليلاً قليلاً كبناء ينمو بالاجتهاد يوماً بعد يوم، على قدر الحب والأمانة وبذل الخدمة.

جوهر الطقس:

هو الطاعة المطلقة لترتيبات الله المعلَنة من قِبَلِه في كيفية عبادته.

إن قوة الطقس هي في كونه يوصلنا إلى الله ويوصل الله إلينا.

فهل يمكننا أن نقتحم الوصول إلى الله حسب مشيئتنا أو بأية صلاة؟

وهل الله يصل إلينا بدون ترتيب واستعداد واختبار؟

إن تاريخ العلاقات بين الله والإنسان على مدى العهدين القديم والجديد وأخبار الآباء، تكشف عن طبيعة الله فيما يختص فقط بمعاملته للإنسان وقبوله له أو رفضه إياه، بل إن كافة الأسفار تدور حول محور واحد هو هذه الحقيقة عينها.

فالأسفار تقص علينا كيف أحب الله إنساناً أو رفض الله إنساناً، ولماذا كان هذا القبول أو الرفض، أو تشرح لنا أوامرَ وفروضاً ووصايا وصلواتٍ أعطاها الله للذين أحبهم حتى يجعلوها شريعة محتمة لعبادة الله العامة والتقرُّب إليه.

وقد ثبت أن الإنسان لا يستطيع بمفرده وبدون إلهام أن يقترح وسيلة بها يتقرب إلى الله،

وذلك ليس بسبب ترفُّع الله ولكن بسبب جهلنا لطبيعته، وبالتالي جهلنا لمشيئته التي تفوق فكر الإنسان: «كما عَلَتْ السموات عن الأرض، هكذا عَلَتْ طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم» (إش ٥٥: ٩).

لذلك، فقد سبق الله وعرَّف الإنسان كيف يتقدم إليه، ويدخل في حضرته، وبأية صورة يتكلم، وبأية كلام يتوسل، وبأية أعمال يُرضي الله، وذلك بأحكام كثيرة متنوعة تكاد تغطي الكتاب المقدس كله.

والعجيب أيضاً أنه حتى هذه الأحكام لا يمكن وضع واحد منها بجوار الآخر وفحصها بالإستقراء، لإكتشاف دوافع الله وصفاته الداخلية، لذلك يقول الرسول: «ما أبْعدَ أحكامه عن الفحص وطرقه عن الإستقصاء» (رو ١١: ٣٣). فأحكام الله لا تحتمل فلسفة الإنسان، ولا تصلح إلا للخاضعين، ولا تظهر قوتها إلا بالطاعة البسيطة المؤمنة.

فمن ذا الذي يقول أو يعقل أن الغيرة على مقدسات الله والإسراع بضمير نقي لخدمة ضرورة إلهية، شيء يُغضب الله؟

ولكننا نقرأ في تاريخ نقل تابوت الله من أرض فلسطين، أنه بينما الكل في فرح وتهليل سائرين أمام التابوت، وإذ بالبقرات تفزع فيميل التابوت ليسقط، ويمد «عَزَّة» يده ليسند التابوت، فيغضب الله عليه ويُميته في الحال!! والسبب أن «عَزَّة» ليس من اللاويين المخصصين لخدمة التابوت أو لمسه!! مع أن التابوت نفسه كان مسبيًّا في بيت داجون الوثني وفي قرى الغُلف (٢صم ٦).

ومن ذا الذي يقول أو يعقل أن ابني هرون، وهما لاويان وكاهنان مسموح لهما بخدمة الهيكل، تخرج نار من القدس وتأكلهما وهما واقفان يبخران فيقعان ويموتان في الحال؟ وذلك لأن النار التي وضعاها في المجمرتين اللتين في أيديهما لم يأخذاها من على المذبح - كما أمر الرب - بل دخلا بها من الخارج (لا ١٠).

وشاول الملك فارقه روح الله وأصابه روح شرير بمجرد أن خالف أوامر الله وقرَّب ذبائح لله لم يأمر بها! (١صم ١٥ و ١٦).

وهكذا عخان بن كرمي وجيحزي تلميذ إليشع وحنانيا وسفيرة، أصابهم ضرر بليغ لأنهم استهانوا بالله وحسبوه لا يسمع ولا يرى!!

وقد يتهيأ للفكر البشري العاجز أن الله يُسترضَى بمجرد الصلاة أو الصوم الشديد أو الانسحاق والتذلل أو بالذبائح والعطايا أو حتى بحرق الجسد ... ولكن يستحيل أبداً على الإنسان أن يقتحم الله! لابد أن يعلن خضوعه أولاً برجوعه عن طرقه التي تغضب الله، ثم لا يتقدم بالصلاة إلا بحسب فروضها وواجباتها. أي لابد أن يطيع الإنسان أوامر الله طاعة عملية من كل القلب ولا يقدم إلى الله إلا ما يؤمر به، وحينئذ تُقبَل عبادته وصلواته وتقدماته: «فقال صموئيل: هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟ هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش، لأن التمرُّد كخطيئة العرافة، والعناد كالوثن والترافيم. لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك» (١صم ١٥: ٢٢ و ٢٣).

إذن، جوهر العبادة هو في اتِّباع أوامر الله؛ وجوهر الطقس هو في طاعة ترتيبه للأمور التي تختص بعبادته.

أي أن أداء الطقوس في حد ذاتها لا يفيد شيئاً، ولا يوصل إلى شيء؛ أما إذا كان الأداء بدافع الطاعة لله، صارت الطقوس عبادة، وصارت العبادة واسطة للدخول إلى الله.

منظر سمائي يشرح خدمة التسابيح والصلوات داخل الكنيسة:

من يقرأ سفر الرؤيا بإتقان، يطّلع على صورة سمائية دقيقة لكافة أنواع الطقوس التي تصحب الصلوات والتسابيح التي تمارسها الكنيسة كل يوم مع سر الإفخارستيا، من ملابس بيضاء، ومجامرَ وبخور وجمر نار على المذبح، وتيجان ذهبية ومنارات ومذبح وخروف قائم كأنه مذبوح وشاروبيم ورؤساء ملائكة وملائكة وقوات سمائية وأربعة وعشرين قسيساً وربوات المفديين، وتسابيح عامة وخاصة ومردات وأناشيد وتهليل وقيثارات وسجود وأسماء جديدة وأكاليل وتعزية ليست بقليلة.

ومن التعليقات السمائية قولهم لله: «مَن لا يخافك يا رب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس» (رؤ ١٥: ٤)، ومنها تظهر الضرورة الطبيعية لتمجيد الله بسبب استعلان قداسته!!

فحينما يُستعلَن مجد الله، لا يمكن أن توجد خليقة تقف أمامه صامتة: «وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر، كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ ٥: ١٣).

وحينما تهتف كل الخليقة بمجد الله، يرد الأربعة المخلوقات الحية (المسئولون عن كافة الخلائق) ويقولون: «آمين».

أَليست هذه صورة سمائية مبدعة للكنيسة وهي تسبِّح بكافة طقوسها؟ حينما يرد هذا قبالة ذاك ويقولون: قدوس قدوس قدوس آمين ألليلويا!

وحينما سعت الكنائس قديماً لتحصل على ذخائر الشهداء لتبني عليها مذابحها، أَليست هذه صورة للحقيقة السمائية التي نشرحها ونفك ختومها: «رأيتُ تحت المذبح نفوس الذين قُتِلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم» (رؤ ٦: ٩). فكما أن المذبح السمائي تحمله أرواح الشهداء، هكذا المذبح في الكنيسة تحمله الشهادة عينها، وكأنما دم الشهداء جزء حي في ليتورچيا الصلوات!!

وحتى تعليم الكنيسة بحقيقة مشاركة الملائكة وأرواح القديسين في إقامة الليتورچيا معنا بكافة أنواعها وصلواتها وتسابيحها، ووقوفهم حول المذبح، تظهر بلا لَبْسٍ في سفر الرؤيا عندما كُشِف ليوحنا عن منظر الملائكة الجليل وهم يخدمون أمام العرش جنباً إلى جنب مع كافة أرواح الأبرار المكمَّلين (رؤ ٥: ١١).

إذن، فالكنيسة لا تتبع خرافات مصنَّعة!

ولا هي وصايا وطقوس وتعاليم الناس!

ولا هي يهودية تحمل نفاية عبادات نافلة!

فسفر الرؤيا يقف شاهداً أبدياً على روحانية الليتورچيا، بكافة أصولها وفروعها، ويختم بالحق الأبدي على صلواتها وتسابيحها وبخورها وذبيحتها.

الفصل الأول

بيت الله

+ ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء ...
هوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة ... وهوذا الرب واقف ...

(تك ٢٨: ١٧ و ١٢ و ١٣)

[(١)]المسيح أحب الهيكل جداً، وكان في اعتباره «بيت أبي» الذي ينبغي له الكرامة لأن فيه تُقدَّم العبادة والصلاة لله الآب: «بيتي بيت الصلاة يُدعى» (مت ٢١: ١٣)، وقد اجتمع فيه المسيح مراراً كثيرة مع الشعب في مواعيد العبادة الرسمية للمشاركة في العبادة ولتقديم التعليم.

ووصْفُ الكنيسة بأنها «بيت الله» مأخوذ عن قول الرب نفسه عن الهيكل، وقد ورثنا عن المسيح الشعور اليقيني بسُكنى الله في الهيكل الذي هو الكنيسة الآن. لقد ارتاح الله قديماً أن يسكن مع الناس، إنما بغير منظر وبكيفية سرية، بل بواقعية فائقة للحواس والعقل. لقد قَبِل شعب اسرائيل هذه الحقيقة قديماً بيقين يفوق كل منطق وعقل ولا يقبل الجدل ولا مجرد السؤال؛ ولكننا ورثناها مضاعفة بسبب ظهور المسيح علناً.

وهكذا كان تدبير الله، منذ البدء، أن يبني الوجدان الإنساني بناءً عملياً محكماً على قبول شركة السُكنى الواقعية مع الله، وسهَّل الله للإنسان بكافة الطرق قبول الإحساس الفكري والروحي بالتحام الأبدي بالزمني وغير المحدود بالمحدود وإدراك الله كشخص كامل يُدرَك ولكن لا يُدرَك كماله، يحلُّ فعلاً بين الناس ويسكن وسطهم ويقبل دعاءهم ويسمع صلواتهم ويستجيب توسلاتهم، وهذا هو جوهر العبادة وسرها العظيم.

فسُكنى الله في قدس الأقداس هو من حيث طبيعته سر، ويمكن أن نسميه السر الذي ينبعث منه كل سر، هو سر وجود الكنيسة وسر قوتها وهو يشرح إمكانية وجود الأسرار في الكنيسة ويفسر طبيعتها وفعلها!

وتأسيس الشعور اليقيني بسُكنى الله في بيته جعل لبيته رهبة وجلالاً، وأضفى على البيت قداسة ليس بالنسبة للصلوات وحسب بل وحتى أبوابه وأعتابه مقدسة وحتى ترابه صار أيضاً مقدساً، وكل مَن يدخله يشعر أنه داخل ليتقابل شخصياً مع الله ويتراءى أمام وجهه.

---

(١) يمكنك الرجوع إلى كتاب «التسبحة اليومية ومزامير السواعي» لقراءة تفاصيل أكثر في هذا الموضوع.

كما أن حوادث ظهور الله بالفعل ودعوته وحديثه لأشخاص آباء كثيرين داخل الهيكل مثل موسى ويشوع وصموئيل وداود وزكريا وبولس، نبَّهت الشعور الباطني للإنسان الداخل إلى بيت الله لإحتمال ظهور الله في أية لحظة إما باطنياً أو علنياً، ومن هنا صارت الرعدة تأخذ الإنسان عند وقوفه أمام هيكل الله.

وإن كان بعض الناس قد انغلقت قلوبهم دون هذا الإحساس بسبب ضعف إيمانهم ورخاوة حياتهم وقساوة قلوبهم، إلا أن هذا لم يمنع أن يتحقق الكثيرون من صدق رؤيا إشعياء النبي: «رأيتُ السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع، وأذياله تملأ الهيكل، والسيرافيم واقفون فوقه؛ لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس رب الجنود، مجده ملء كل الأرض، فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً» (إش ٦: ١-٤).

كل هذا هيَّأ المكانة السامية لبيت الله بالنسبة لحياة الإنسان وسلوكه داخل الكنيسة. ومن هنا نشأت آداب الصلاة داخل الهيكل وشروط العبادة.

وكل ما اهتمت به الدسقولية (تعاليم الرسل) المعتبَرة وثيقة النظام والترتيب الرسولي للعبادة داخل الكنيسة، هو في الواقع امتداد لهذه الحقيقة السامية: أن الله ساكن في بيته.

- فتقبيل أبواب الكنيسة، في الدخول إليها والانصراف منها.
- والسجود على عتبة الكنيسة.
- ثم السجود أمام الهيكل وتقبيل تراب الأرض.
- ثم تقبيل يد الكاهن، وطلب بركته.
- ثم تقبيل ستر الهيكل ثم الأيقونات المقدسة، ثم ذخائر القديسين إن كانت موجودة.
- ثم الوقوف بصمت كامل وورع مطلق.

هذا كله وإن بدا لبعض الناس أنه ممارسات عتيقة وعبادة نافلة، إلا أنه في الحقيقة ميراث روحي ثمين جداً بالنسبة للنفوس التي آمنت أن الله يسكن في بيته وأن لبيته ينبغي التقديس كل الأيام.

وداود النبي الذي تشرَّف أن يكون المسيح من نسله، والذي شهد له الله بعد الفحص

والإمتحان أن قلبه كان حسب قلب الله، والذي شهد له المسيح أيضاً أنه قال مزاميره بالروح القدس: «داود قال بالروح»؛ كان يطرح نفسه على عتبة بيت الله عند دخوله وهو ملك، مرنماً:

(١) «فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب» (مز ١٢٢).

(٢) «وقفت أرجلنا في ديار أورشليم» (مز ١٢٢).

(٣) «أدخلوا أبوابه بالفرح ودياره بالتسابيح» (مز ١٠٠).

(٤) «إفتحوا لي أبواب البر لكي أدخل منها» (مز ١١٨).

(٥) «هذا هو باب الرب والصدِّيقون يدخلون فيه» (مز ١١٨).

(٦) إخترت أن أُطرح على عتبة بيت الله» (مز ٨٤).

(٧) «أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك وأسجد أمام هيكلك المقدس.» (مز ٥).

(٨) «لبيتك ينبغي التقديس يا رب طول الأيام» (مز ٩٣).

وهذه هي نفس الصلوات التقليدية المسلَّمة إلينا لنتلوها عند الدخول في الكنيسة والسجود فيها.

ومن هنا أيضاً نفهم تشديد الدسقولية على ضرورة التبكير والذهاب لبيت الله في أول ساعة من النهار، وفي الغروب آخر النهار لتقديم العبادة اللائقة، فهذا الترتيب يستمد قوته ومعناه من وجود الله في الكنيسة، فالإنسان يبدأ يومه بالسجود في حضرته وينهي يومه بالاعتراف والشكر أمامه.

[لا تتأخر عن الكنيسة بل بكِّر إليها قبل كل شيء، وعشية اجتمع هناك أيضاً، واشكر الله على ما أنعم به عليك لأجل قوام حياتك.]

الدسقولية (الباب الثامن)

ومن الملاحظات الهامة التي ينبغي التدقيق فيها، أن الجماعات المسيحية الأولى ظلت مدة تواظب على ذهابها إلى الهيكل لتتمم هناك صلواتها الطقسية فيه، حسب أصول العبادة والصلاة الإلهية المتبعة في الهيكل في ساعاتها المحددة. ولكن في نفس الوقت كانت تجتمع سراً في بعض البيوت وبالأخص في العِلِّية التي في بيت مرقس الرسول (أع ١: ١٤)، لتقيم صلوات أخرى مسيحية، جنباً إلى جنب مع الصلوات التقليدية الهيكلية، وخصصت يوم الأحد لإقامة صلاة

كسر الخبز أي سر الإفخارستيا. وهذا كله يتمشى مع أصول الحياة الطبيعية حسب الطقس اليهودي، لأن صلوات المزامير كانت تُقام في ساعاتها المحددة كل يوم في الهيكل، أما طقس كسر الخبز فلم يكن أصلاً مكانه الهيكل إنما كان يُقام في كل بيت. علماً بأن الجماعات المسيحية الأولى كانت تعتبر وجودها في الهيكل يدخل في صميم حقوقها باعتبار أن الهيكل كان في عرف المسيح «بيت أبي بيت صلاة».

والذي يهمنا في الأمر أن الجماعة المسيحية الأولى ارتبطت بخدمة الهيكل اليومية، فدخلت الصلوات والتسبيحات بالمزامير ورفع البخور والقراءة في الأسفار والوعظ والتفسير في صميم حياة المسيحيين، كجزء لا يتجزأ من عباداتهم اليومية قبل أن ينفصلوا نهائياً عن الهيكل ويبنوا لأنفسهم كنائس خاصة بهم يتممون فيها صلواتهم.

أقوال الآباء عن بيت الله:

١٠٤٠ . حينما ندخل الكنيسة ننسى هموم العالم وشهواته؛ وفي حضرة الله نمتلئ رهبةً وخشوعاً وتقديساً؛ نحس داخل نفوسنا بصلتنا بالحياة الأخرى، ونشعر ببنويتنا لله.

أي قداسة وحب ووقار تليق ببيتك يا رب. إن القديسين أحبوا بيت الله أكثر من كل شيء في هذا العالم.

١٠٤١ . بيت الله هو السماء على الأرض، لأنه حيث يوجد عرش الله وتقديس أسراره الإلهية واشتراك السمائيين مع البشر في تسبيح العلي، فحينئذ تكون هي السماء بل وسماء السماء.

إذن، فلندخل بيت الله حيث مقادس العلي، بخوف واحترام كثيرين ونقاوة قلب خالٍ من كل عيوب الشهوة والخطية بل ومن كل اهتمام جسدي، ونقف بإيمان منتبهين لتلقِّي المعرفة الروحانية بحب وسلام قلبي، فنخرج من لدن الرب مجدَّدين لنحيا في القداسة كأبناء الله القدوس غير مرتبطين بشيء مما في هذا العالم.

١٠٤٢ . إن النفوس البسيطة الوديعة المؤمنة حينما تدخل الكنيسة، تشعر تماماً أنها أُهِّلَت للدخول أمام الله، فتشعر بسعادة غامرة وحرية الأولاد في بيت أبيهم. هؤلاء المؤمنون هم سعداء بالحق لأنهم يذوقون بإيمانهم سعادة الحياة في الدهر الآتي.

إن هذا الشعور المبارك لا يمكن أن نحصل عليه إلا عند دخولنا بيت الله حيث نمجده ونسجد أمامه ونصلي إليه ونعاهده على حياة البر، ثم نخرج لنبدأ جهادنا لتتميم وعدنا.

١٠٤٣ . حينما نصغي إلى الألحان الشجية الصاعدة من أفواه المقدسين من داخل الهيكل تتجاوبها أصوات العابدين من الخارج، حينئذ تشملنا غبطة وهدوء يسريان إلى أعماق النفس.

وحينما نتابع كلمات قارئ الفصول وهو يتلوها بصوت شجي مؤثر، تنفتح قلوبنا إلى المعرفة وتستنير أذهاننا بكلمات الحياة. إن هذه المشاعر كلها هي عربون لتذوُّق سعادة الحياة الأبدية.

ليتنا نقدم تسبيحنا وقراءتنا في بيت الرب بغيرة حسنة.

١٠٤٤ . إن بيت الرب هو مكان الفرح وعريسنا السمائي ينتظرنا هناك بوليمة أعدَّها.

قفوا بهدوء وسكون كما يليق،

نقُّوا ضمائركم من داخل،

هنا شفاء النفس المتعبة،

هنا راحة الجسد المريض،

أطلبوا قوة وامتلئوا شجاعة،

لبيتك يا رب ينبغي الوقار والحب.

الأب يوحنا (ك.)

١٠٤٥ . الكنيسة هي سماء على الأرض، والذين يدخلونها ينبغي أن يقفوا حسناً كسكان السماء وبوقار الملائكة: عيونهم تكون شاخصة دائماً نحو المذبح. وأرجلهم واقفة باستقامة بغير ملل. أيديهم ممتدة إلى جانبهم بغير حركة. أفواههم لا تُفتَح إلا للتسبيح!

الأسقف إغناطيوس (ب.)

١٠٤٦ . إن نعمة الله لا تُفارق بيت الله قط.

لذلك يجب أن تكون لك الثقة حينما تقف هناك أنك واقف أمام نعمة الله، فلا تنشغل قط عن متابعة الصلاة والتسبيح، ولا تفتح فمك بالحديث مع أحد وإلا فأنت تحرم نفسك من عمل النعمة فيك. قف صامتاً منتبهاً مستعداً لقبول عمل النعمة فيك، كذلك لا تنشغل بشيء من أمور العالم في ضميرك أو فكرك، بل ألقِ عنك كل أفكارك وهمومك في هذه اللحظة لأن الرب مستعد أن يحملها عنك.

لا تنشغل عن متابعة الصلاة داخل الهيكل وخارجه، ولا تشغل نفسك بشيء خاص حتى ولو كان مقدساً ونافعاً كقراءة أو تلاوة أو خلافه، مما يحرمك من بركة الخدمة والاشتراك في التسبيح ...

لا تعمل حركات خاصة كسجود أو ركوع أو خلافه في وسط الكنيسة بل اشترك فقط في حركات الشعب في أوقاتها.

تابع صلاة الكنيسة إن كان من أجل سلامتها أو رؤسائها وخادمها أو من أجل الزروع والثمار أو المياه والهواء أو المرضى أو الراقدين، فاشترك أنت أيضاً في كل صلاة وضُمَّ قلبك ونفسك إلى قلوب المصلين لتكون الكنيسة كلها قلباً واحداً ونفساً واحدة.

الأسقف بوتين

١٠٤٧ . وما الفائدة من حياتك أن تظل معانداً لروح النعمة ومقاطعاً للكنيسة وممتنعاً عن تناول أسرارها والاشتراك في جسد المسيح ودمه فتموت غريباً عن الكنيسة والله؟ ألم تسمع من فم المسيح أن مَن ليس معي فهو عليَّ؟!

ديمتري (ر.)

١٠٤٨ . يا أحبائي، في وقت القداس يجب أن نعدَّ أنفسنا بالقداسة ولا نترك صدأ الأوجاع داخلنا لئلا يكون لنا موت عوض الحياة، كما قال بولس الرسول أن مَن لا يفرِّق بين عشاء الرب (أي تناول جسده ودمه) وبين المائدة العادية (أي الطعام العادي) فإنه يأخذ دينونة بدل غفران.

إن كان الملائكة ورؤساء الملائكة مع جميع الرتب السمائية يقفون برعب وخوف وقت تقديس الأسرار، فكم بالحري يجب علينا نحن الترابيين أن نشابههم في هذا الوقوف.

وإن كان الشياطين المعاندون المتكبرون المردة يصرخون بفزع وخوف شديدين من الصلاة داخل الكنيسة، فكم بالحري يجب أن نُخضِع كبرياءنا ونتضع ونقف بخشوع!

١٠٤٩ . إسمع يا أخي خبراً كريماً يؤول لعزائك وفرح نفسك: قال لي أخ صادق: إنني حينما تقدمت لأخدم الأسرار الإلهية، ولما وضعت الخبز والخمر على المذبح الطاهر وغطيتهما وبدأت الخدمة، نظرت وشاهدت وإذا بالمسيح نفسه قائماً يكهن بمجد عظيم لا يُنطَق به، وبُهِتُّ من الفرح وتغير قلبي، وإذا نفسي محترقة وجسدي يلتهب بفرح ومحبة. ومن التغيير الذي أدركني لم أعرف ماذا أصنع، فلما تقدمت لأعانق المنظر العجيب وقع عليَّ بغتة خوف ورعدة، وغرقت في اتضاع وخشوع كما في هاوية، ونسيت نوع التقديس ولغته، وبقيت ساعة طويلة صامتاً في دهشة وتأملات عجيبة بلا تقديس ولا كلام.

آه للذة التي اعترتني في تلك الساعة والفرح والحلاوة التي لذلك المنظر، وذلك المنظر الذي يُظهِر مجد عظمته للذين يطلبون نعمته ويعطي العزاء لمحبيه بنظره.

ولما تغير من قدامي واختفى هذا المنظر عن نظري، عُدتُ إلى اتضاعي وحقارتي وعرفت ضعفي، ورجعت فأكملت قانوني وتناولت الأسرار، ولكن حركاتي ظلت هادئة، وقيل لي إن الجسد والنفس كلاهما كانا مشتركين في ذلك النعيم، وبالحقيقة لا أعرف تماماً.

لكن عرفت أنه من حين يوضع القربان والخمر على المذبح يتقدسان بسرٍ خفي.

لذلك ينبغي لنا أيضاً أن نحفظ كرامة الخدمة لئلا نتغرب عن ميراث المجد.

١٠٥٠ . وقال لي هذا الأخ أيضاً إن هذه الرؤيا التي استُعلِنت له ظهرت له حينما كان جسد ربنا محمولاً على يديه بمجدٍ لا يُنطَق به.

١٠٥١ . وقال أيضاً إنه عند تقديس الأسرار وفي كل سجود دائماً، كان يرى نور الثالوث القدوس غير المنطوق به، فكان قلبه يمتلئ فرحاً.

الشيخ الروحاني

١٠٥٢ . قد رُتِّبت الكنيسة لكي تكون مشابهة في كل شيء لما هو في السماء، فجمال الكنيسة من

داخل يشبه عظمة عرش الله والقائمين حوله؛ والأنوار الكثيرة تشبه ضياء مجد الله وقديسيه؛ وعطر البخور يشبه جمال رائحة الحياة الأبدية؛ والبخور الصاعد من مجامر الأربعة والعشرين قسيساً، والألحان والتسابيح، تشبه تهليل الملائكة وترنيم الأربعة والأربعين ألفاً لترنيمة الخروف.

فيلارت (مطران موسكو)

١٠٥٣ . كل الصلوات والقراءات في الكنيسة هي من أقوال الله، فهي تعاليم حية؛ كذلك فيها تمجيد وتسبيح دائم وشكر وحمد لله، وفيها حث على محبة الآخرين وحضٌّ على التوبة بصلاة العشار «إرحمني». وهكذا كل مَن يفتح قلبه للصلاة في الكنيسة فإنه يمتلئ معرفة وحياة.

الأب يوحنا (ك.)

١٠٥٤ . الله موجود في كل مكان، ولكنه يحب الذين يسعون إليه ويأتون لبيته، وبالأخص الذين يتجشمون أتعاباً كثيرة في سبيل ذلك.

وهو في بيته مستعد لكي يسمع صلوات المحتاجين.

حِنَّة أخذت الوعد بميلاد صموئيل النبي وهي قائمة تصلي في الهيكل.

وحِنَّة النبية بنت فنوئيل التي مكثت نحو ٨٤ سنة لا تُفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً؛ هذه وقفت في الهيكل تسبِّح الرب وتنبأت عن ميلاد المسيح (لو ٢).

كذلك سمعان الشيخ أتى بالروح إلى الهيكل وهناك رأى يسوع مع أمِّه، فأخذه على ذراعيه وتبارك منه قبل أن يموت (لو ٢: ٢٥ - ٣٢).

في الكنيسة تُقام ذبيحة المصالحة، حيث يجتمع الشعب وحيث يأتي الرب حسب وعده ليحل في وسطهم.

فإذا كنت قد أغضبت الله في شيء، ففي الكنيسة بتصالح معه، لأن هناك تشفع فيك أرواح القديسين وربما أحد المؤمنين الأحياء أيضاً.

لذلك حينما تقف في الكنيسة لا تنسَ قط أنه يوجد معك مَن يصلي من أجلك دون أن تدري؛ وإذا كنت تشعر بضعف صلاتك فتشجع وخذ لك أحد القديسين ليشفع فيك.

كثيراً ما ندخل الكنيسة وقلوبنا باردة من جهة الصلاة وهناك فجأة نشعر بحرارة العبادة وقوة الصلاة، وما ذلك إلا معونة من القديسين ومن صلوات الكاهن أو من أحد المؤمنين المتواضعين.

وكثيراً ما وقفنا جامدين غير مكترثين، وفجأة تلمح عيوننا أحد المصلين وقد انسكب سكيباً في الصلاة أمام الله، فتلتهب قلوبنا بغيرة مقدسة وتسري فينا حرارة الصلاة.

الأسقف بوتين

١٠٥٥ . أيها الراهب! حينما تخرج من قلايتك وتتوجه للكنيسة، فاعلم أنك ذاهب لمقابلة الله. خذ الوقار في مشيتك، لا تهز يديك أو تسرع أو تجري، ولا تلتفت في سيرك يميناً ويساراً لتنظر هذا وتحيّي ذاك، بل ثبّت نظرك في الأرض واعلم مَن أنت وأمام مَن ستقف!

١٠٥٦ . وبالأكثر داخل الكنيسة، حافظ على النظام بكل احترام وهدوء معطياً الكرامة لرب البيت، ولا تحاول أن تلتفت إلى أحد ولا تلفت نظر الآخرين إليك، وذلك احتراماً لله ومنفعةً لنفسك ولعدم الشوشرة على الصلاة والمصلين. كُن متحلياً بآداب الرهبان القديسين ولا تتمثل بالذين لبسوا شكل الرهبنة خلسةً، لهم منظر الرهبان وهم ليسوا رهباناً، كلهم اضطراب وهوان واستهتار وعدم وقار.

لا تخرج وتدخل أثناء الصلاة، بل اضبط نفسك حتى نهاية الصلاة، ولا تخرج قبل إعطاء التسريح بأي حال، لأن في ذلك امتهاناً لكرامة رب البيت وتشبُّهاً بيهوذا الذي خرج دون إذن فدخله الشيطان.

لا يوجد سبب من الأسباب مهما كان هاماً في نظرك يستدعي خروجك وتركك للصلاة.

لا تعوِّد نفسك الاستهتار بالأمور الصغيرة، لأنها هي التي تجعلك تستهتر بأمور الكنيسة والله، فتصير مستبيحاً مثل عيسو.

لذلك اهتم بكل نظام وترتيب داخل الكنيسة ودقق في كل حركاتك بكل هدوء.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

١٠٥٧ . يجب أن تتوجه إلى خدمة الصلاة في الكنيسة قبل كل شيء وقبل كل عمل، كذلك يجب أن لا تغادر الكنيسة قط إلا في نهاية الصلاة.

١٠٥٨ . إني مندهش كيف أن البعض قد بلغ بهم قلة الحياء، حتى أنهم بلا سبب معقول يتركون الخدمة الإلهية في الكنيسة ويخرجون قبل إعطاء الحل بالخروج (التسريح).

وهل إذا دعاك رجل غني إلى العشاء، أتبلغ بك الجرأة أن تغادر العشاء وتخرج دون أخذ السماح من صاحب العشاء؟ أم أن العرف واللياقة يحتمان عليك البقاء حتى خروج الجميع فتخرج مودَّعاً بالبركة؟

مار أفرام السرياني

نص:

١٠٥٩ . [أيما أسقف أو قس أو شماس أو أحد من الزمرة الكهنوتية لا يتناول عندما يصير تقديم القربان، فليقل ما هو السبب لذلك؟ فإن كان العذر مُستصْوَباً فليُصفح عنه، وإن لم يقل السبب فليُفرَز بما أنه صار

سبب ضرر للشعب وسوء ظن في الذي قدم القربان].

قوانين الرسل

نص:

١٠٦٠ . [كل المؤمنين الذين يدخلون الكنيسة ويسمعون الكتب ثم لا يقيمون في الصلاة حتى إتمام القربان المقدس، ينبغي أن يُفرَزوا بما أنهم مسببون التشويش في الكنيسة].

قوانين الرسل

١٠٦١ . نعلم من الكتاب الذي وضعه القديس مكاريوس، أن الأخ المبتدئ لا يخرج من قلايته كليةً في وسط الأسبوع، ولا يزور الراهب أخاه في وسط الأسبوع أيضاً، وفي يوم السبت كانوا يخرجون من قلاليهم وقت العشاء ويأتون إلى المجمع وهم صيام لأنهم طول السنة صيفاً وشتاءً كانوا يجتمعون عشية السبت فقط، والذي كان يتهاون ولا يأتي إلى المجمع ليسمع القراءة والوعظ كانوا يقطعون عليه بحكم صعب.

يدخلون إلى المائدة جميعاً ويأكلون، ومن بعد الأكل يقفون للصلاة ليلة الأحد ساهرين بلا نوم من عشية إلى باكر بخدمة المزامير والتسابيح وقراءة الكتب وتفاسيرها ومسائل الإخوة وأجوبة الشيوخ الذين كانوا مرتَّبين للوعظ.

وما كانوا يعطون فُسْحةً لا للشيطان ولا لأحد الإخوة المنحلِّين أن يتكلم كلمة واحدة تجلب خسارة لأحد، ولا راهباً يثلب رفيقه، ولا آخر يحرك خصومة على أحد، ولا أحداً يحكي شيئاً من ذكر العالم وأموره أو من سيرته البطالة حتى لا يتأذى أحد من الإخوة الحريصين.

حتى أن الذي يكون في ضيق أو ضجر أثناء وجوده في القلاية، عندما يخرج إلى مجمع الآباء في الكنيسة كان ينتفع بمظهرهم وتسري فيه حرارة الغيرة مثل النار، منتفعاً من أعمالهم وأقوالهم ومشاهدة فضائلهم، فيتزوَّد بمعونة ومنفعة عظيمة في أعماله وجهاده داخل القلاية.

وبالرغم من المنفعة العظيمة التي كانوا يحصلون عليها من اجتماعهم يوم الأحد، إلا أنهم لم يسمحوا قط للإخوة أن يخرجوا من قلاليهم في وسط الأسبوع.

والآن يا إخوتي إن كان أحد يحفظ سكون الأسابيع ويحتفظ داخله بسكونه بضبط الحواس وقمع الأفكار بمقدار ما يستطيع، عندما يخرج إلى المجمع في عشية السبت إن رأى أنه لا يتقدم إلى الأمام ولا يساعده خروجه على حفظ سكونه بسبب انحلال الإخوة، فليسرع إلى السكون الكلي العديم الدخول والخروج؛ ولا أحد يلومه إذا هو تخلف عن حضور الصلوات.

مار إسحق السرياني

١٠٦٢ . كان أحد الرهبان يهمل حضور الصلوات بالرغم من وجوده في المجمع، وفي ذات ليلة بينما هو واقف يصلي رأى عمود نور مرتفعاً نحو السماء في المكان الذي يجتمع فيه الإخوة، وبجوار العمود النوراني رأى نقطة من نور صغيرة مرة تلمع بضياء ومرة يخبو نورها فلا تُرى، وبينما هو يتأمل في هذا المنظر متعجباً إذا بصوت الرب قائلاً: «لماذا تتعجب؟ هوذا عمود نور صلاة الإخوة الذين يجتمعون معاً بصلاة نقية، أما هذه النقطة الصغيرة فهي صلاة الذين يعيشون في المجمع ويتخلفون عن صلواته، والآن إذا كنت تريد أن تعيش في وسط المجمع فتمم كل قوانينه واجتماعاته المفروضة، وعندما تتقوى وتستطيع أن تحيا بمفردك بعيداً عن المجمع وتنقطع للصلاة فافعل ذلك ...»

بالليديوس

(كاتب سير الرهبان)

١٠٦٣ . حينما تتلو صلاة طويلة على مسامع الشعب كصلاة القداس أو صلاة البركة الأخيرة أو غيرها من الصلوات والقراءات الطقسية، فالشيطان يهمس في أذنك أن لا داعي لهذا التطويل وأن الشعب لا يفهم الكلمات وأنه مضيعة للوقت ولا ضرورة لذلك ويدعوك للتعجيل.

ولكننا بذلك نتغافل عن صوت النعمة وعمل الروح القدس. كم من مرة استخدم الروح القدس كلمات الصلوات والقراءات في الكنيسة لخلاص ألوف من الشعب! فإن الرهبنة الأنطونية (نظام القديس أنبا أنطونيوس) تدين بوجودها لآية واحدة سمعها القديس أنبا أنطونيوس في الكنيسة وقت قراءة الإنجيل، فنفذت إلى أعماق نفسه وكانت نواة الرهبنة القبطية: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب بعْ كل ما لك وتعال اتبعني» (مت ١٩: ٢١).

إذن فلنتلوا صلواتنا وقراءاتنا في الكنيسة بكل تأنٍّ ووضوح ولا نختصر شيئاً قط، وبذلك نُعطي فرصة للروح القدس أن يستخدم الكلمات لإنذار قلوب السامعين. عليك أن تلقي البذار واتركها للرب فهو ينميها حسب مسرته.

الأب يوحنا (ك.)

الفصل الثانى

إشارة الصّليب

شكل (٢)

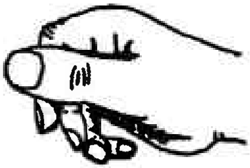

شكل (١)

+ «كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، وأما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله» (١كو ١: ١٨)

يعتقد الكثيرون أن الصليب هو علامة مجرَّدة أو إشارة رمزية لحادثة صلب المسيح، لذلك لا يجدون باعتقادهم هذا أي داعٍ لاحترام الصليب أو السجود أمامه، بل إنهم يتمادون في تحرُّرهم الممقوت الجاف إلى إنكار لزومية رسمه أو الإشارة به.

الصليب حامل لشخص المسيح:

ولكن الصليب ليس هو مجرد علامة أو إشارة بل هو أعمق من هذا بكثير، **فهو يحمل صفة شخصية ملازمة للمسيح.** كما يعرِّفه الملاك لمريم المجدلية: «إني أعلم أنكما تطلبان **يسوع المصلوب**» (مت ٢٨: ٥).

وكما يكرز به بولس الرسول: «نحن نكرز **بالمسيح مصلوباً**» (١كو ١: ٢٣).

إذن، فعملية الصلب لم تكن حادثاً وانتهى، بل هي حادثة استعدت لها كل الأزمنة السابقة لها وحملتها كل الأجيال اللاحقة، كبابٍ حي مفتوح للخلاص والعبور إلى الملكوت المعدّ.

ولا زال المصلوب يحمل في يديه ورجليه جروح الصليب حتى هذه الساعة.

«ورأيتُ فإذا في وسط العرش والحيوانات الأربعة وفي وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح! ... ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين ... عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح» (رؤ ٥: ٦ و ١١ و ١٢).

فإذا كان المصلوب لا زال دمه يقطر، فالصليب لا زال قائماً يعمل بقوة الدم المسفوك عليه! «عاملاً الصلح بدم صليبه» (كو ١: ٢٠).

ويلذ لنا أن نتأمل كيف حلت كلمة الصليب في الآية السابقة محل كلمة المسيح! فالصليب إذن هو حامل لشخص المسيح ونائب عنه.

هيبة الصليب:

والصليب كعَلَم الدولة الذي يحمل شخصية الملك والجيش والشعب معاً، فإذا رُفِع في أية

بقعة من الأرض فإنه يمثلهم جميعاً تمثيلاً حياً واقعياً، بحيث أن أي امتهان أو احتقار يوجه إليه فهو يكون موجهاً للدولة عموماً في شخص رئيسها وشعبها وجيشها، ويكون سبباً قانونياً لرد العدوان أو إعلان الحرب.

كذلك حينما يُراد إكرام دولة أو تحيتها، فإنه يُرفَع عَلَمُها وتُحنى أمامه الرؤوس وتُقدَّم الورود وتعزف له الموسيقى ويؤدَّى له السلام!

فهذا العلَم الصغير له هيبة جيش وكرامة ملك وبأس شعب بأجمعه. فإذا كان لعلَم الدولة مثل هذه الهيبة والكرامة والبأس التي لا تتوفر في شخص من أشخاص الدولة بمفرده، فالصليب الذي هو عَلَم المسيحيين الذي جمعهم من شتات الأرض إلى واحد، هو يحمل كرامة المصلوب عليه وقوته وسلطانه وجبروته. فإن كان يجب إكرام عَلَم الدولة بإحناء الرؤوس لأنه رمز الدولة، فيجب السجود أمام الصليب وأن يُقدَّم له كل ما يليق تقديمه للمصلوب عليه.

وإذا كانت تحيتنا للعلَم هي موجهة لشخص الدولة وليس للقماش أو ألوانه، كذلك فإكرامنا للصليب والسجود أمامه ليس هو للخشب أو الذهب وإنما للإله المصلوب عليه.

رسالة الصليب:

طلب منا السيد المسيح أن نحمل الصليب ونسير في إثره؛ ولكن ماذا يعني المسيح بحمل الصليب؟ إنه يعني:

بذل النفس: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ...» (يو ٣: ١٦).

أعظم الحب: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣).

تتميم إرادة الله حتى الموت: «إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو ٢٢: ٤٢).

إحتمال الخزي: «إحتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب ١٢: ٢).

إحتمال التعيير: «كان اللصان اللذان صُلِبا معه يعيِّرانه» (مت ٢٧: ٤٤).

إحتمال الآلام: «لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته» (في ٣: ١٠).

الاجتهاد إلى آخر نسمة: «قال قد أُكمل ونكَّس رأسه وأسلم الروح» (يو ١٩: ٣٠).

آخر درجة للطاعة: «أطاع حتى الموت موت الصليب» (في ٢: ٨).

قتل روح العداوة: «ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به» (أف ٢: ١٦).

العمل للصلح حتى الدم: «عاملاً الصلح بدم صليبه» (كو ١: ٢٠).

التحرر من سلطان الخطية: «إنساننا العتيق قد صُلِب معه ليُبطَلَ جسدُ الخطية كي لا نعود نُستَعبَد أيضاً للخطية» (رو ٦: ٦).

دفع الدين وتمزيق الحجة: «محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمِّراً إياه بالصليب» (كو ٢: ١٤).

شركة موت وحياة مع المسيح: «مع المسيح صُلبتُ فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢: ٢٠).

إفتخار: «حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح» (غل ٦: ١٤).

إفتضاح الشيطان: «جرَّد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب)» (كو ٢: ١٥).

حينما نؤمن بهذه المبادئ ونعمل بها، فحينئذ لا يكون حملنا للصليب باطلاً بل بحق نُدعى مع القديسين: «لابسي الصليب»، وهذه الكلمة تعني الجهاد في السير في إثر المسيح حاملين لفضائل الصليب.

❁ ❁ ❁

لمحة تاريخية عن تغلغل إشارة الصليب في العبادة:

إشارة الصليب تقليد كنسي قديم جداً يبتدئ بابتداء الإنجيل حيث يشير إليه متى الرسول بأنها علامة ابن الإنسان (مت ٢٤: ٣٠).

وأول إشارة بعد الإنجيل نجدها سنة ١٥٠ م في قول لترتليان العلامة الأفريقي:

[في جميع أسفارنا وتحركاتنا، عندما ندخل وعندما نخرج، عندما نلبس ملابسنا وعندما نخلعها؛ في الحمام وعلى المائدة، عندما نشعل مصابيحنا وعندما نطفئها لننام، في جلوسنا وفي كل أعمالنا، نرشم أنفسنا بعلامة الصليب.][١]

ثم نسمع عنها في قولٍ ليوليوس الأفريقي (١٦٠ - ٢٤٠ م):

[وحينئذ نرفع أيدينا ونرشم جبهتنا بعلامة الصليب.][٢]

وفي قول لأوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٤ م):

[ويقول أحد الشُرَّاح المؤمنين بالمسيح أن حرف «T» فيه شبه من الصليب، العلامة التي يصنعها المسيحيون على جبهاتهم سواء قبل الصلاة أو قبل قراءة الأسفار المقدسة.][٣]

ونجدها في تعاليم أمبروسيوس (٣٣٩ - ٣٩٧ م):

[وعلينا حينما نستيقظ أن نشكر المسيح ونبدأ نتمم أعمالنا اليومية بقوة الصليب.][٤]

وفي تعليم كيرلس الأورشليمي (٣١٥ - ٣٨٦ م) للموعوظين يقول:

[فلا نخزَ، إذن، أن نعترف بالمسيح مصلوباً، بل ليت إشارة الصليب تكون ختماً نصنعه بشجاعة بأصابعنا على جبهتنا وعلى كل شيء، على الخبز وعلى كأس الشرب، في مجيئنا وذهابنا، قبل نومنا وعند يقظتنا، وفي الطريق وفي البيت.][٥]

وفي قول مسهب للقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧ م):

[إن إشارة الصليب التي كانت قبلاً فزعاً لكل الناس، الآن يتعشقها ويتبارى في اقتنائها كل واحد، حتى صارت في كل مكان بين الحكام والعامة، بين الرجال والنساء، بين المتزوجين والعذارى، بين المخطوبين وغير المخطوبين، لا يكفُّ الناس عن رسمها في كل موضع كريم ومكرَّم، يحملونها منقوشة على جباههم كأنها علامة ظفر على سارية، نراها كل يوم على المائدة المقدسة، نراها عند رسامة الكهنة، نراها تتألق فوق جسد المسيح وقت التناول السري. وفي كل مكان يُحتفل بها في البيوت، في الأسواق، في الصحاري، في الطرق، على الجبال، في شقوق الأرض (مغاير الرهبان)، على التلال، في البحار، على المراكب، في الجزر، في المخدع، على الملابس، على الأسلحة، في الأروقة (المدارس)، في المجتمعات، على الأواني الذهبية، على الأواني الفضية، على اللؤلؤ، في الرسومات على الحوائط، على أجساد الذين مسهم الشيطان، في الحرب، في السلام، في الليل، في النهار، في رقصات المبتهجين، في جماعات المتنسكين، وهكذا يتبارى الجميع في اقتناء

---

(1) *De Cor. Mil.* C. iii.
(2) *Hist. Lib.* VI.
(3) *In Ezech.* cap. 9.
(4) *Serm.* 43.
(5) *Catech.* XIII, 36.

هذه العطية العجيبة كنعمة لا يُنطَق بها.][٦]

وفي قول لأوغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠ م):

[من أجل هذا فالرب نفسه يثبّت قوة الصليب على جبهتنا، حتى أن العلامة التي كانت للخزي تصير للإفتخار.][٧]

مواضع استخدام إشارة الصليب
في الكنيسة الأولى

أولاً:

١٠٦٤ . نحن نتعارف على أعضاء المسيح بواسطة علامة الصليب التي يحملونها.

أوغسطينوس[٨]

ثانياً:

١٠٦٥ . وحدث أنه بينما كان يقوم الكاهن بتقديس الذبيحة أن رشم مساعدوه الصليب على جباه بعض الناس الواقفين، فخرج الشيطان منهم هارباً، وحينئذ حدث هرج كاد يشوشر على الطقس.

لكتانتيوس[٩]

١٠٦٦ . ومع الصلاة إرشم نفسك بالصليب على جبهتك وحينئذلا تقربك الشياطين لأنك تكون متسلحاً ضدهم.

يوحنا ذهبي الفم[١٠]

١٠٦٧ . بواسطة الصليب يستطيع الإنسان أن يطرد كل خداعات الشياطين.

أثناسيوس الرسولي[١١]

١٠٦٨ . ومن يريد أن يختبر هذا عملياً فليأتِ وينظر كيف يبْطلُ خداع الشياطين والعرافة الكاذبة وعجائب السحر بمجرد رشم الصليب، فالشياطين تلوذ بالفرار.

أثناسيوس الرسولي[١٢]

١٠٦٩ . والشياطين لم تعد تضل الناس بعد بخداعها وعرافاتها الكاذبة وسحرها، فإن هذ تجرأت وأقدمت

(6) Chrysost., *contra Judaeous.*
(7) St. John. Hom. LIII.
(8) Serm. 53, De verb Die.
(9) Lib. de Mort. Persec.
(10) Hom. LV, in st. Matt.

(١١) تجسد الكلمة: ٤٧.
(١٢) تجسد الكلمة: ٤٨.

على ذلك فإنها تُضبَط بالخزي .

أثناسيوس الرسولي(١٣)

ثالثاً:

١٠٧٠ . نرسم الجسد بإشارة الصليب لكي يتقوى العقل والضمير بالإيمان.

ترتليان(١٤)

رابعاً:

كان القديس كپريانوس يشجع الشهداء ليحتملوا العذاب قائلاً:

١٠٧١ . إجعلوا وجوهكم تتقوى بالصليب، ولتُحفَظ علامة الله سليمة.

كپريانوس(١٥)

١٠٧٢ . الوجه الذي تقدَّس بعلامة الله لا ينحني للشيطان، ولكنه يحفظ نفسه لإكليل الرب.

كپريانوس(١٦)

خامساً:

١٠٧٣ . الصليب دواء الغضب.

يوحنا ذهبي الفم(١٧)

١٠٧٤ . **الصليب دواء الشهوة النجسة**.

أمبروسيوس(١٨)

سادساً:

١٠٧٥ . هذه العلامة المقدسة منذ أيام آبائنا حتى اليوم أبطلت مفعول السموم وحلت قوة العقاقير وشفت عضة الوحوش السامة.

يوحنا ذهبي الفم(١٩)

سابعاً:

١٠٧٦ . تُطهِّر الأماكن والكنائس والأواني والكؤوس والطعام والشراب، وكل ما كان نجساً بطبيعته

(١٣) تجسد الكلمة: ٥٥

(14) De Res. Cornis., ch. 8.
(15) Epp. 56, 58, ch. 6.
(16) De Laps., ch. 2, tom. 1, 121.
(17) On Matt., 27, 44.
(18) Exhor. ad. virg.
(19) On Matt., Hom. LIV.

كلحم الخنزير يصير طاهراً.

يوحنا ذهبي الفم[٢٠]

المراحل التي مرت فيها طريقة الرشم بالصليب

أولاً:

١٠٧٧ . الطريقة الأولى في رشم الصليب كانت بإبهام اليد اليمنى على الجبهة إما مرة واحدة أو ثلاث مرات.

يوحنا ذهبي الفم[٢١]

١٠٧٨ . ورسم علامة الصليب ثلاث مرات على الكأس.

صوفرونيوس[٢٢]

ثانياً:

١٠٧٩ . نرسم الصليب على جبهتنا ثم على قلبنا، نرسمه على جبهتنا حتى نعترف علناً بالمسيح وعلى قلبنا حتى نظل نحبه، ونرسمه على ذراعنا حتى يكون عملنا له.

أمبروسيوس[٢٣]

ثالثاً:

١٠٨٠ . أثناء رشم الصليب نذكر الثالوث لأن الإيمان يُختَم باسم الآب والابن والروح القدس.

ترتليان[٢٤]

رابعاً:

وفي بداية القرن السادس ابتدأ يستقر طقس رشم الصليب المعروف لدينا الآن، فاليد ترتفع إلى الجبهة ثم تنزل إلى القلب ثم إلى **الكتف الشمال** ومنه إلى الكتف اليمين. ويُجعَل الإبهام في صليب مع الأصبع التالي له[٢٥].

(20) On I Timoth. IV, Hom. 12 & Bede, Tom. III.
(21) Hom. ad. pop. Antioch, XI.
(22) In Part. Spirit.
(23) De Isaac et Anima VIII.
(24) De Bapt. cap., 6.
(25) Gretser. de Cruce bk., IV, c. 2.

خامساً:

وفي القرن السادس أيضاً ظهرت طريقة تقليدية أخرى ظلت متداولة، وهي رشم الصليب على الجبهة باسم الآب لأنه رأس الكل، ثم على الفم باسم الابن باعتباره كلمة الآب، ثم على القلب باسم الروح القدس باعتباره رباط الحب.

وفي هذه الطرق كلها إما يُستَخدم الإبهام بمفرده أو ثلاثة أصابع أو الخمسة الأصابع معاً:

فاستخدام الخمسة الأصابع تمثل الخمسة الجروح التي جُرِح بها السيد على الصليب؛

واستخدام الثلاثة الأصابع تمثل الثالوث الأقدس؛

واستخدام الأصبع الواحد يمثل الله الواحد.

ملاحظة:

الرسم رقم (١) على ص ٥٥٩ سبق أن بيَّنّاه أثناء كلامنا، الذي فيه يصنع الإبهام مع السبابة شكل صليب واليد تكاد تكون مغلقة، وهكذا يرشم الإنسان نفسه بهذا الوضع.

أما الرسم رقم (٢) فهو رسم تقليدي استلمته الكنيسة منذ العصور الأولى. وعندنا صور قديمة للقديس غريغوريوس النزينزي برسم يده لحادثة التجلي ولدعوة بطرس الرسول وأندراوس أخاه ولدعوة متى الرسول ولدعوة زكا، وصور أخرى محفوظة بمتحف اللوفر بفرنسا، فيها يبين القديس غريغوريوس (القرن الرابع) المسيح رافعاً يده بهذا الوضع تماماً ويسمى وضع البركة. كما توجد صور أقدم من هذه من القرن الثالث فيها أشخاص قديسون وأساقفة يرفعون أياديهم بهذا الوضع للبركة حينما يُراد الرشم على الآخرين بالصليب وإعطاؤهم الحِلّ أو البركة.

وقد حاول بعض المفسرين تفسير هذا الوضع عن اجتهاد، وليس عن تسليم، فاخترعوا أسباباً متعددة منها أن الأصبعين السبابة والوسطى يشيران إلى الطبيعتين والمشيئتين وهذا تعليل خطأ.

ودليلنا على ذلك وجود هذا الوضع في أيقونات قبطية صميمة من القرن الرابع من دير باويط بالصعيد، أنظر الأيقونات أرقام ٢ و ٣ و ٤.

ولكن حسب التسليم السري «Disciplina Arcani» المتداول في مصر يُشرَح هذا الوضع هكذا:

وضع الإبهام على طرف البنصر يحدد رقماً معيناً هو الرقم (١٠)، وهو عدد عُقَل الأصابع في

مجموعها من الإبهام والسبَّابة والوسطى، والعُقلة الأولى من البنصر التي يشير إليها الإبهام. هذا الرقم (١٠) هو حرف اليوطا اليوناني (ι) وهو الحرف الرسمي السري في الكنيسة الذي يعبِّر عن المسيح (الحرف الأول من اسمه)[٢٦]. ومعنى هذا أن الشخص حينما يصنع هذا الوضع بيده يكون بمثابة مَن يرفع يده باسم المسيح. أما في حالة المسيح نفسه فحينما يرفع يده بهذا الوضع فهو يعبِّر عن Ego Eimi أي «أنا هو».

هذا فضلاً عن أن الرقم (١٠) هو رقم البركة.

أما الأصبعان السبابة والوسطى فهما في وضعهما المنحني يكوِّنان حرف ني باليوناني (ν) وهو أول حرف من كلمة νικᾶ ومعناها: الغالب أو المنتصر. والملاحظ أن هذا الوضع الذي يُشكِّله الأصبعان لا يزال سارياً في أوروبا، حينما تُرفَع اليد ليشكِّل الأصبعان السبابة والوسطى حرف V أول حرف من كلمة: Victory أي النصر الذي هو نفس معنى الكلمة اليونانية المذكورة السابقة. وهذا هو أقوى تعبير للبركة، كما يكون وضع اليد بهذا الشكل معبِّراً عن أعظم معنى للبركة.

وهذا التقليد السري في كيفية رشم الصليب للبركة لا يزال يستلمه الكاهن الجديد حتى اليوم عند بدء استلام أصول رشم الذبيحة.

(٢٦) أنظر ثيئوطوكية الأحد القطعة الأولى التي تقول: «هذه العشر وصايا المكتوبة بأصبع الله، سبق أن دلَّتنا على اليوطا (التي هي أيضاً العدد عشرة) أي اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح».

أقوال الآباء عن إشارة الصليب:

١٠٨١ . أعطانا السيد المسيح إلهنا الصليب سلاحاً نافذاً ينفذ في النار والهواء والماء والأرض ولا يحجبه شيء أو يعترض قوته عارض. فهو قوة الله التي لا تُقاوَم. تهرب من صورته الشياطين حينما يُرسَم به عليها!

الصليب هو قوة المسيح للخلاص والملائكة يخضعون لقوته ويتبعونه حيثما شاهدوا رسمه ليعينوا الملتجئ إليه. ولا تحصل تخلية لمن حمل الصليب إلا للذي ضعفت أمانته فيه.

البابا أثناسيوس الرسولي

١٠٨٢ . حينما نرسم علامة الصليب بإيمان نكون قد اعترفنا وآمنَّا بموت المسيح وقيامته، ويكون عملنا بمثابة نُطْقٍ بالإيمان المقدس.

فيلارت (مطران موسكو)

١٠٨٣ . بدلاً من أن تحمل سلاحاً أو شيئاً يحميك، احمل الصليب واطبع صورته على أعضائك وقلبك، وارسم به ذاتك لا بتحريك اليد فقط بل ليكن برسم الذهن والفكر أيضاً، ارسمه في كل مناسبة: في دخولك وخروجك، في جلوسك وقيامك، في نومك وفي عملك، ارسمه باسم الآب والابن والروح القدس.

مار أفرآم السرياني

١٠٨٤ . لا تخجل يا أخي من علامة الصليب فهو ينبوع الشجاعة والبركات وفيه نحيا مخلوقين خلقة جديدة في المسيح... البسه وافتخر به كتاج.

يوحنا ذهبي الفم

١٠٨٥ . يقول الآباء أن الذي يرسم ذاته بعلامة الصليب في عجلة بلا اهتمام أو ترتيب، فإن الشياطين تفرح به. أما الذي في روية وثبات يرسم ذاته بالصليب من رأسه إلى بطنه ثم من كتفه الأيسر إلى الأيمن فهذا تحل عليه قوة الصليب وتفرح به الملائكة.

١٠٨٦ . إن الإهمال في تأدية رسم الصليب أمر ربما نُدان عليه. فإن رسم الصليب اعتراف بيسوع المسيح

مصلوباً، وإيمان بالآلام التي عاناها فوق الصليب. إنه اعتراف وذكرى لعمل الرب، ومكتوب في إرميا ٤٨: ١٠: «ملعونٌ من يعمل عمل الرب برخاوة».

١٠٨٧ . إن في إشارة الصليب كل روح الإيمان المسيحي:

فيه اعتراف بالثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس.

فيه اعتراف بوحدانية الله كإله واحد.

فيه اعتراف بتجسد الابن وحلوله في بطن العذراء.

في اعتراف بقوة عملية الفداء التي تمت على الصليب بانتقالنا من الشمال إلى اليمين.

إذن، فيليق بنا أن يكون رسمنا للصليب فيه حرارة الإيمان.

١٠٨٨ . إنه مدهش بالحق وغير مدرَك كيف أن قوة المسيح تحل في رسم الصليب لإطفاء الحريق وطرد الشياطين وتسكين الآلام وشفاء المرض، ولكنه بالضبط سرٌّ غير مدرَك كحلول الروح القدس في الخبز والخمر فيصيران لحماً ودماً.

وأيضاً إذا كانت قوة يسوع المسيح حالَّة في مكان وتستطيع أن تدعو الأشياء غير الموجودة إلى الوجود أي تخلقها من العدم خلقاً، فبالأولى أو بالأسهل أن تحل هذه القوة لتغيير الأشياء الموجودة من المرض أو الفساد إلى الحياة والصحة بإشارة الصليب المحيي.

ولكن لئلا يظن الناس أن قوة الشفاء كائنة في الخشب أو الذهب المصنوع منه الصليب أو في مجرد لفظ الاسم فقط، صارت قوته وفاعليته متوقفة ومحدودة على الذين يؤمنون فقط.

الأب يوحنا ك.

١٠٨٩ . نحن نكرم الصليب ونطلب قوته المحيية في صلواتنا قبل أن نطلب معونة القديسين أو شفاعتهم، وذلك لأن الصليب هو علامة ابن الإنسان ورسم تجسده وآلامه لخلاصنا. فعلى الصليب قدم السيد المسيح نفسه ذبيحة لله الآب من أجل خطايانا لكل من يؤمن به. لذلك صارت علامة الصليب هي الإشارة المشتركة بين جميع المؤمنين كرمز للخلاص والمحبة المشتركة.

١٠٩٠ . فلنُكرِّم الصليب المقدس الذي أُعطينا أن نغلب به العدو اللئيم، ونرشم به على جباهنا وقلوبنا وسائر أعضائنا لنطرد به الشيطان.

الصليب علامة الرب وخاتمه الذي به صار الخلاص لآدم وذريته من أسر إبليس عدونا.

الصليب هو موضوع فخرنا في هذه الحياة وهو علامة إيماننا، كما قال بولس الرسول: «وأما من جهتي

فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم.» (غل ٦: ١٤).

كذلك لا نستحي من الصليب لأنه مكتوب إن «كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله.» (١كو ١: ١٨).

بالصليب غلب قسطنطين الملك البار أعداءه وارتفع شأنه لما أظهر الرب له علامة الصليب مضيئة في السماء قائلاً له: «بهذه العلامة تغلب أعداءك». فغلب، وصار الصليب قوة الملوك وعزاءهم ونصرتهم، يضعونه فوق تيجانهم لكي يباركهم ويؤيدهم وينصرهم.

كذلك فالصليب هو قوة المجاهدين وسلاحهم، فقد أوصاهم الرب قائلاً: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني.» (مت ١٦: ٢٤).

١٠٩١ . إن كانت الحية النحاسية قد أبطلت سم الحيات في العهد القديم فكم بالحري صليب ربنا يسوع المسيح الذي رُفِع عليه، لا حية نحاسية، بل ربُّ المجد، وسكب دمه على الصليب ليصير لنا بالدم الحياة وبالصليب النصرة.

كيرلس الأورشليمي

١٠٩٢ . إن الشياطين توجه هجماتها المنظورة إلى الجبناء، فارسموا أنفسكم بعلامة الصليب بشجاعة ودعوا هؤلاء يسخرون من ذواتهم. أما أنتم فتحصَّنوا بعلامة الصليب.

١٠٩٣ . حيث وُجدت إشارة الصليب، ضَعُفَ السحر وتلاشت قوة العرافة.

أبًا أنطونيوس الكبير

١٠٩٤ . قدم أنبا أنطونيوس بعض المرضى المعذَّبين من الأرواح النجسة إلى بعض فلاسفة الهراطقة قائلاً لهم: هل تستطيعون تطهيرهم بالحجج أو بأي فن أو سحر تختارون داعين أصنامكم؟ وإلا كُفُّوا عن منازعتنا، إن عجزتم، وعندئذ ترون قوة صليب المسيح. قال هذا ودعا المسيح ورشم المرضى ثلاث مرات بعلامة الصليب، وفي الحال قام الرجال أصحاء وعقلهم سليم وقدموا الشكر للرب في نفس اللحظة.

سيرة أنبا أنطونيوس لأثناسيوس الرسولي

١٠٩٥ . حينما ترشم ذاتك بعلامة الصليب، أُذكر دائماً أنك تستطيع بقوته أن تصلب شهواتك وخطاياك على خشبة المخلِّص: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩)، عالماً أن في الصليب قوة إخماد الشهوة وإبطال سلطان الخطية برحمة المصلوب عليه.

١٠٩٦ . حينما ترفع نظرك إلى خشبة الصليب المعلَّقة فوق الهيكل، أُذكر مقدار الحب الذي أحبنا به الله حتى بذل ابنه حبيبه لكي لا يهلك كل من يؤمن به.

فأينما وُجد الصليب وُجدت المحبة، لأنه هو علامة الحب الذي غلب الموت وقهر الهاوية واستهان بالخزي والعار والألم!

فإذا رأيت الكنيسة مزدانة بصلبان كثيرة، فهذا علامة امتلائها بالحب الكثير نحو جميع أولادها.

١٠٩٧ . حينما يباركك الكاهن أو الأسقف ويرشمان بالصليب المقدس، إفرح واقبل ذلك كبركة من السيد المسيح. طوبى لمن قَبِلَ رسم الصليب على رأسه بإيمان. «فيجعلون اسمي على بني اسرائيل وأنا أباركهم» (عدد ٦: ٢٧).

١٠٩٨ . إن الشياطين ترتعب من منظر الصليب وحتى من مجرد الإشارة به باليد. لأن السيد المسيح له المجد ظفر بالشيطان وكل قواته ورئاساته على الصليب، وجرَّدهم من رئاساتهم وفضحهم علناً؛ فصارت علامة الصليب تذكيراً لهم بالفضيحة وإشارة إلى العذاب المزمع أن يُطرَحوا فيه.

الأب يوحنا ك.

١٠٩٩ . إن الشياطين إذا رأت المسيحيين، سيما الرهبان، مجدِّين بابتهاج ومتقدمين، فإنها تهاجمهم أولاً بالتجربة ووضع الصعاب لعرقلة طريقهم محاولة أن تنفث فيهم الأفكار الشريرة، ولكن لا مبرر للخوف من إغراءاتها لأن هجومها يرتد خائباً في الحال بالصلاة والصوم، ... سيما إن كان المرء قد سبق فحصَّن نفسه بالإيمان وعلامة الصليب.

١١٠٠ . إذا مدحت الشياطين نسككم ودعتكم مباركين فلا تصغوا إليها ولا تكن لكم معاملات معها، بل بالأحرى ارشموا ذواتكم وبيوتكم بعلامة الصليب، وصلُّوا، تجدونها قد انقشعت، لأنها في غاية الجبن وتخشى جداً علامة صليب الرب، لأن الرب قد جرَّدها بالحق وأشهرها جهاراً على الصليب (كو ٢: ١٥).

١١٠١ . جاء بعض الحكماء اليونانيين وطلبوا من القديس أنبا أنطونيوس أن يشرح لهم سبب الإيمان بالمسيح، ولكنهم حاولوا أن يحاجوه بصدد الكرازة بالصليب الإلهي قاصدين الاستهزاء (بالصليب). فوقف أنطونيوس قليلاً وأشفق على جهلهم، ثم خاطبهم بواسطة مترجم قائلاً:

- «إن ما اخترناه هو الاعتراف بالصليب علامة الشجاعة واحتقار الموت، أما أنتم فقد اخترتم شهوات الخلاعة. أيهما أفضل: حمل الصليب وقت مؤامرة الأشرار دون مخافة الموت مهما أتى في أي وضع من أوضاعه، أم الالتجاء إلى آلهة الأحجار؟!

ما الذي وُجِد في الصليب حتى يستحق الهزء؟»

من سيرة أنبا أنطونيوس بقلم أثناسيوس الرسولي

١١٠٢. **نص:** [من حيث أن الصليب المحيي قد أظهر لنا الخلاص، يجب علينا أن نبذل كل سعي واجتهاد في أن نوفي الكرامة الواجبة للذي بواسطته خلَّصنا من السقطة القديمة، لذلك نقدم له السجود بالعقل والقول والحواس.]

من القانون ٧٣ لمجمع القسطنطينية الثاني عند الروم

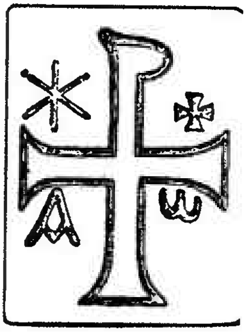

الفصل الثالث

الأيقونات

+ «رأوا الصبي مع مريم أُمّه فخروا وسجدوا له» (مت ٢: ١١).
+ «هو صورة الله غير المنظور» (كو ١: ١٥).
+ «هو بهاء مجده ورَسْم جوهره» (عب ١: ٣).
+ «قد رُسِم يسوع المسيح بينكم مصلوباً» (غل ٣: ١).
+ «أنا لا أنساكَ. هوذا على كفّي نقشتك» (إش ٤٩: ١٥ و ١٦).
+ «أذكروا مرشديكم» (عب ١٣: ٧س).

حينما تتأمل في الأيقونات لا تقف عند حدود الألوان والأخشاب أو جمال الفن من عدمه، لكن ارفع فكرك إلى ما وراء الألوان والمادة، إلى شخص صاحبها، إمزج مشاعرك بمشاعره حينئذ تقرأ فيها قصة حياته كلها في نظرة واحدة وتعود محمَّلاً بعواطف جديدة من حياته المنيرة. إن كان هؤلاء القديسون قد أضاءوا العالم بسيرتهم في حياتهم، فلا زال نورهم يضيء بفعل النعمة، بل سيظل يضيء إلى الأبد؛ وما تلك الصور إلا قصص حياتهم قد امتدت إلى جيلنا وسوف تعبره إلى ما بعده من الأجيال تنطق بجهادهم الذي قدموه، وتشهد لإكليلهم الذي نالوه، وتهتف بالمجد العتيد أن يتمجدوا به.

إن صورة القديس هي اسمه وإمضاؤه الذي تركه على الأرض كشاهد للمسيح، فإن قبلْتَها فأنت تقبله وإن كرَّمتها فأنت تكرمه وتكرم الذي أرسله:

«من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني».
«من يقبل نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ».
«من يقبل باراً باسم بار فأجر بار يأخذ» (مت ١٠: ٤٠ و ٤١).

أما قبولك وتكريمك لصورة القديس فهو في الواقع ليس قبولاً وتكريماً لشخص القديس فحسب، وإنما قبول وتكريم لمن قدَّسه وأرسله إلى العالم.

وثمة موضوع آخر هو في غاية الأهمية والدقة، فالأيقونات المقدسة التي تراها قائمة في الكنيسة قد أُجرِي لها طقس صلاة خاص يسمى بصلاة التكريس، وذلك أثناء القداس الإلهي، بالصلاة عليها ودَهنها من يد الأسقف بدهن الميرون المقدس الذي هو ختم الروح القدس (والذي لا يُدهَن به إلا الخارجون من جرن المعمودية فقط!)

وتُعطَى الأيقونة وقت التكريس نفخة الروح القدس من فم الأسقف أيضاً ليحلَّ فيها ويعمل بها للشفاء واستجابة الصلاة. بهذا الطقس تكون للصورة صفة الأقداس المقدسة في الكنيسة، ويكون لها هيبة تذكِّرنا بهيبة المذبح أو هيبة تابوت العهد في العهد القديم، وبذلك

يجب السجود والتوقير وتقديم البخور والعبادة لشخص الله فيها.

أما الصورة التي لم تُكرَّس بمسحة الميرون ونفخة الروح القدس من فم الأسقف، فيُكتَفى بتكريم شخص القديس فيها فقط ولا يجب لها سجود أو تقديم بخور أو صفة من صفات العبادة التي تُقدَّم لله وحده.

فلا تعجب إذن من المؤمنين الذين يتقدمون للأيقونات بوقار عظيم وسجود وسؤال وطلبة، ويلمسون أطرافها بأيديهم، لأنهم يكرمون الله ويلمسون الميرون المقدس الذي رُشِمت به الصورة والذي يحمل آثار الحنوط التي دُهِن بها جسد السيد المسيح له المجد.

أما المعجزات التي تحدث عن طريق الأيقونات المقدسة فتحدث بسبب ثلاثة عوامل هامة:

الأول إيمان المريض، والثاني شفاعة القديس، والثالث قوة الميرون المقدس.

والذين يعوزهم الإيمان بقوة عمل الأيقونات في الشفاء والاستجابة، يلزمهم أن يروا بأعينهم مقدار الرعب والفزع الذي يداهم الروح النجس وهو على أحد المرضى حينما يواجَه بصورة بطل من أبطال الإيمان أو الاستشهاد، كأيقونة مارجرجس أو مارمينا أو القديس مرقوريوس؛ فكأنما تكون هناك معركة واقعية بين القديس صاحب الأيقونة والشيطان تسمع فيها صراخ وفزع الشيطان من الحربة ومن طعن الرمح؛ بل وترى بعينيك أثر الدماء الذي غالباً ما يكون على ملابس المريض بعلامة صليب وبعدها يقوم المريض معافى في لحظة.

أجساد القديسين:

كثير من الكنائس الأثرية والأديرة تحظى باحتفاظها ببعض أجساد القديسين والشهداء. وقد صار لهذه الكنائس كرامة خاصة بسبب وجود هذه الأجساد التي ظلت مصدر بركة وشفاء الكثيرين حتى هذه الساعة.

والفكرة الروحية في استطاعة هذه الأجساد لعمل المعجزات والشفاء واضحة جداً من حادثة قيام الميت الذي لمس عظام أليشع النبي.

فالمسألة ليست عظاماً أو أجساداً ميتة وإنما مسألة نعمة وقوة الروح القدس التي لم تُفارق هذه الأجساد بعد موت أصحابها. لأن تقديس الروح القدس للآباء القديسين كان لأجسادهم وأنفسهم معاً، ولما انفصل الجسد عن النفس بالموت لم ينفصل تقديس الروح القدس لا عن

النفس ولا عن الجسد، فكل أثر من آثار هذه الأجساد المقدسة لازال يحمل فعل الروح القدس وقوته وتقديسه.

والموضوع لا يحتاج إلى شرح، ويكفي أن تقف أمام أحد هذه الأجساد المقدسة لتشعر بحقيقة هذا الكلام. لأنك سوف تشعر أنك في حضرة قديس، وسوف تأخذك رهبة خاصة تُنسيك أتعابك وهمومك، وسوف تجد نفسك مندفعاً لتقبيله وسؤاله المعونة والشفاعة.

إنها هبة من هبات الله الكثيرة التي خصَّ بها كنيسته المحبوبة أن تُحفَظ فيها هذه الأجساد المباركة بمعونته حتى هذه الساعة، لتكون عوناً للكنيسة في ضيقاتها وضيقات أولادها، وفي أتعابهم الكثيرة في هذه الحياة.

لمحة تاريخية عن الأيقونات في العبادة:

لقد فرَّق الله في وصاياه بين استخدام الأيقونات أي الصور في العبادة الرسمية التي تتبع تدبيره ويحددها هو بوصاياه، وبين صُنْع أيقونات لعبادة أمور خاصة يراها الإنسان ويرهبها من وجهة نظره الخاصة سواء كانت هذه الأمور سمائية أو أرضية. ففي الوقت الذي حَرَّم فيه تحريماً قاطعاً باتاً صُنع أي صورة أو تمثال بصفة عامة، عاد فأوصى موسى بصنع تمثالين للشاروبيم بأجنحة متقابلة لتغطي على غطاء التابوت **لِيُدلاَّ على الحضرة الإلهية** التي تكون بينهما بالفعل بشبه نور أزرق سماوي جميل (الشاكيناه). ثم عاد وأوصى موسى (خر ٢٦: ٣١) لكي يصور الشاروبيم مرة أخرى على الحجاب الحريري الذي يفصل قدس الأقداس عن القدس (الذي يقابله الأيقونوستات – حامل الأيقونات – في الكنيسة الآن)، وذلك **ليدل على مكان وجود الله في الداخل**.

ولكي يكون تمثالا الشاروبيم وصورتاه على قدر كبير من الإتقان والجمال، تدخَّل الله بنفسه وملأ رجلاً يهودياً فناناً موهوباً من روحه وحكمته وآزره بالفهم والمعرفة مع جماعة أخرى من المساعدين الفنانين الحكماء، وذلك لكي يكمل هذه التماثيل والصور والنقوش المختلفة على أحسن وجه: «وقال موسى لبني إسرائيل أنظروا. قد دعا الرب بَصَلْئيل بن أُوري بن حور من سبط يهوذا باسمه وملأه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صَنْعة، ولإختراع مخترعات، ليعمل في الذهب والفضة والنحاس ونقش حجارة للترصيع ونجارة

الخشب ليعمل في كل صنعة من المخترعات... وكل عمل النقاش والحائك الحاذق والطراز.» (خر ٣٥: ٣٠ - ٣٥).

ثم عاد الله وأمر موسى بصنع تمثال من نحاس لحيَّة محرقة أي نارية (صنف الحيات الذي يقطن منطقة وادي العربة حول خليج العقبة وهي حمراء اللون لذلك تبدو متقدة بالنار)، ووضعها على سارية لتكون مصدر شفاء لكل مَن يرفع نظره إليها.

ويعود العهد القديم في أيام سليمان الملك ليكرر الله نفس الترتيبات لصناعة التماثيل والصور، فيحتم بضرورة وجود رجل فنان مملوء بالموهبة والحكمة مع فنانين حكماء آخرين لتكميل متطلبات الدقة في صناعة الفن الروحي والعبادي الطقسي.

ولكن يمتاز عصر سليمان بالتدفُّق الروحي الغزير في شئون الفن الطقسي، فنجد أن صورة الشاروبيم تصبح وحدة فنية متكررة تملأ كل حيطان الهيكل المغشَّاة بالذهب: «وجميع حيطان البيت في مُستديرها رسمها نقشاً بِنقْر كروبيم ونخيل وبراعم زهور من داخل ومن خارج.» (١مل ٦: ٢٩).

وجعل تمثال الشاروبيم في قدس الأقداس ضخماً، طول التمثال عشر أذرع، ويقول الكتاب أن طول أجنحته في مجموعها عشر أذرع: «عشر أذرع من طرف جناحه إلى طرف جناحه. وعشر أذرع الكروب الآخر» (١مل ٦: ٢٤ و ٢٥)، ثم عاد وصوَّر الكروبيم كصورة على الحجاب الحريري الذي يفصل قدس الأقداس عن القدس.

وزاد سليمان بأن جعل المرحضة تقوم على **رؤوس تماثيل اثني عشر ثوراً** من نحاس. وجعل حافة المرحضة ترتكز على تماثيل **شبه ثمرة القثاء** وتنتهي الحافة من فوق بزهور مسبوكة من النحاس **على صورة زهرة السوسن**. وكانت الأخشاب كلها والحجارة منقوشة على شكل براعم زهور (١مل ٦: ١٨) وصور نخيل (١مل ٦: ٢٩).

وجعل وراء الحجاب الذي يفصل قدس الأقداس عن القدس باباً من الخشب نُقِشَ على مصراعيه رسم «نقش كروبيم ونخيل وبراعم زهور».

وكذلك عمل لمدخل البيت كله، أي للباب الخارجي، نفس النقوش والصور.

وجعل على رؤوس تيجان الأعمدة صفوفاً دائرية من التماثيل على شكل الرمان من

النحاس المسبوك عددها أربعمائة على صفين. أما التاج فكان على صورة زهرة السوسن.

أما المرحضة فأضاف إلى تماثيل الثيران التي تحملها تماثيل أسود. ثم عاد ونقش على النحاس المصنوع منه المرحضة صور كروبيم وأسود ونخيل وقلائد زهور مستديرة.

وهكذا نستدل بغاية الوضوح أن التماثيل والصور والنقوش بكافة أنواعها ورموزها ومدلولاتها كانت جزءاً لا يتجزأ من العبادة الطقسية.

كما نستدل أن هناك عاملين أساسيين في الفن الطقسي أعطاهما الله نفسه رعاية وأهمية خاصة: **أولاً**: المدلول الروحي، **ثانياً**: الإتقان الفني.

فمن حيث الإتقان الفني نجد أن الله لا يجيز لأي إنسان غير موهوب هبة خاصة أو مؤازَر بالإلهام الروحي أن يتجرأ على نحت أو نقش أو رسم وتصوير المقدسات، لأن الإتقان الفني في المفهوم الروحي الطقسي ليس هو مقدرة شخصية إنما هبة ونعمة وإلهام إلهي، فهو قطعاً ليس اجتهاداً أو تمريناً، لأن المقصود من الإتقان الفني هو نقل الإحساس الإلهي للشعب كجزء من العبادة وليس المتعة الفنية، فالمتعة الفنية لا وجود لها على الإطلاق في العبادة.

كذلك فإن الفن التصويري ليس في عُرف الله مجرد ملء فراغ أو تأدية طقس، فالصورة لا تُرسَم لملء زاوية معينة في الكنيسة مفروض أن تملأها ولكنها تُرسَم لملء روح الشعب وتحريك عواطفه وربطها بالعبادة وبالله!!

أما المدلول الروحي في الفن الطقسي فكان ولا يزال ينقسم إلى ثلاث مراحل أساسية متلاحمة:

فالمرحلة الأولى هي مرحلة الرمز، والرمز في الفن العبادي الطقسي يحمل نفس قوة الواقع، وهذا نجده بأجلى بيان في تمثال الحية النحاسية. فالموضوع رمزي محض، وقد انكشف هذا الرمز في العهد الجديد، وقد كشفه المسيح بنفسه حينما قال: «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفَع ابن الإنسان»!! (يو ٣: ١٤)، ولكن بالرغم من أن تمثال الحية كان رمزاً مبهماً غير مفهوم تماماً في وقته إلا أنه كانت له قوة الشفاء الكاملة!!

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الواقع، والواقع في الفن العبادي لا يقل إبهاماً ودهشة عن الرمز. وهذا نجده في تمثال الكروبيم الباسط جناحيه على الشاكيناه حيث يوجد بالفعل نور الله

وصوته المتكلم. فهنا أمر حقيقي وواقع بالفعل، ولكنه خطير ومغلَق، ويحتاج إلى مَن يفهمه، لذلك لم يكن يجرؤ أن يدخل إلى حضرة الله إلا رئيس الكهنة تعبيراً عن سمو الله الفائق. «لا أحدٌ يعرف الآب إلا الابن» (مت ١١: ٢٧).

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التاريخ: والتاريخ في الفن العبادي الطقسي ليس للتعليم والتذكرة فحسب، بل هو لنقل الحقيقة الإلهية من جيل إلى جيل، لأن الله هو كما هو أمس واليوم وإلى الأبد، وذلك من خلال الفن الرمزي والواقعي معاً. وهذا نجده حتى اليوم حينما نرسم الحية النحاسية المحرقة (النارية) المرفوعة على السارية، أو نسبكها بالنحاس الأحمر المجلَّى ونجعلها في طرف عصاة الأسقف، أو حينما نرسم إسحق حاملاً الحطب بجوار المسيح وهو حامل الصليب، فهنا رمز تاريخي ولكن له نفس قوة الواقع، والواقع القديم التاريخي له نفس قوة الواقع والحاضر والمستقبل أيضاً!! وهنا ينبغي أن ننتبه أن الفن التصويري الرمزي كان واسطة أساسية لشفاء الإنسان الذي لدغته الحية حينما كان يرفع نظره نحو تمثال الحية النحاسية المرفوعة على السارية، وعلى نفس النمط تماماً أو كاستمرار لهذا الواقع الرمزي التاريخي المصور نرفع أعيننا إلى المسيح المرسوم أمامنا في الصورة مصلوباً كواقع حقيقي في صميم الحاضر فنُشفى من عضة الحية القديمة المميتة التي هي عضة الخطيئة!! وسر الشفاء قديماً هو هو سر الشفاء حديثاً والواسطة واحدة لأن الرمز والواقع واحد ولا يفصلهما إلا عقل الإنسان؛ وسر الحقيقة القديمة وسر الحقيقة الحاضرة واحد ولا يفصلهما إلا انكشاف السر الإلهي بالتجسد.

إذن، فصورة الحية النحاسية وصورة المسيح المصلوب والحقيقة الإلهية المكملة لسر الشفاء لا يمكن التمييز أو الفصل بينها، فالرمز والواقع والحقيقة والسر الإلهي تتقابل كلها داخل الإنسان وليس داخل الصورة إنما بواسطتها!! والصورة هي الصورة قديماً وحديثاً!!!

بدء ظهور الأيقونات في العهد الجديد
وتطوُّرها على مدى العصور

أولاً: تأخُّر ظهور الأيقونات في القرن الأول:

لأسباب جوهرية تأخَّر ظهور الأيقونات في القرن الأول المسيحي نجملها في النقط الآتية:

(١) تأخر ظهور الكنائس كأمكنة مستقرة وثابتة للعبادة. ومعروف في التقليد الديني

المتوارث من العهد القديم أن الرسوم والتصاوير أمور رسمية متعلقة فقط بمكان الصلاة، سواء في الهيكل الكبير القديم أو في المجامع المحلية.

(٢) إنشغال الكنيسة وتعبئة كل طاقاتها الروحية للتبشير.

(٣) العصور الأولى للمسيحية كانت عصورَ ضِيقة وعدم استقرار خارجي فلم توفر الهدوء والسلام الكافيين للمناخ الفني.

(٤) عدم انسكاب مواهب روحية خاصة للفنون الطقسية بسبب شدة الحاجة إلى تأسيس أمور أخرى أهم.

(٥) عدم توفر الفنانين من اليهود المتنصِّرين، فلم تكن صناعة النحت والتصوير صناعة يهودية على الإطلاق خصوصاً منذ عصر المكابيين حينما ازداد التدقيق جداً بخصوص الوصية الثانية. ويقول العلامة أوريجانوس[1]:

[ولم يوجد بين اليهود حينئذاك أي صانع للتماثيل أو أي مصوِّر على الإطلاق.]

(٦) عدم توفر الفنانين من الوثنيين المتنصِّرين أو الإقبال على هذا الفن بسبب بغضتهم المرعبة للأصنام وكل تصاويرها. وحتى الفلاسفة الوثنيون الذين تنصروا من الفيثاغوريين وأتباع زينو كانوا بطبيعتهم يبغضون تصوير الآلهة ويزدرون بتماثيلها.

(٧) كانت أغلب أماكن العبادة في أماكن نائية ومخفية تحت الأرض وفي الظلام فلم تتوفر الفرصة لأعمال النقش أو التصوير.

(٨) الإعتقاد السائد والشديد بقُرب مجيء الرب الثاني كان عاملاً فعالاً في عدم الإهتمام بتأسيس كنائس كبيرة أو قوية أو جميلة.

(٩) إرتفاع درجة الحرارة الروحية عند المؤمنين والتهابهم بالمشاعر التَقَوية وقوة الإيمان وصفاء الرؤية الروحية أغنت الكنيسة الأولى عن كل وسائط التنشيط الروحي بالعوامل الفنية والتصويرية.

(١٠) الإقبال الشديد على بيع الممتلكات واختيار حياة الفقر المطلق وعيشة التجرُّد وبساطة الحياة، أضعفت جداً من حاجة الروح المسيحية إلى الفنون التصويرية.

(1) *Contr. Celc.* IV, 31.

ثانياً: القرن الثاني وما بعده وبداية الأيقونات الرمزية:

تُعتبر الرسومات والمنقوشات الموجودة في الأقبية وبعض الكؤوس والفخاريات، والتي يدل تاريخها بصورة قاطعة أنها من القرن الثاني، بداية عصر الأيقونات في الكنيسة المسيحية.

وقد اقتصرت على التعبير عن المسيح بصورة حَمَل يحمل صليباً أو بصورة راعٍ يحمل خروفاً (أيقونة الراعي الصالح)، أو بصورة سمكة باعتبار أن السمكة يتكون اسمها في اللغة اليونانية من خمسة حروف «ΙΧΘΥΣ» وهي بداية حروف ألقاب المسيح «إيسوس خرستوس ثيؤو إيوس سوتير» وتفسيرها «يسوع المسيح ابن الله المخلص»؛ أو بصورة كرمة.

كما اقتصرت على التعبير عن الروح القدس بحمامة.

ولكن كان الغنوسيون متقدمين نوعاً ما في تعبيرهم الفني، فقد رسموا المسيح بالألوان في أيقونات واضحة، كما يخبرنا عن ذلك القديس إيرينيئوس:

[وقد كانوا يمتلكون أيقونات (صوراً) بعضها مرسوم بالألوان وبعضها مرصع بمواد مختلفة (الموزاييك) مؤكدين أن صورة المسيح التي يملكونها هي أصيلة وأنها رُسِمت بمعرفة بيلاطس. وقد توَّجوا هذه الصور ووضعوها بجوار صور بعض الفلاسفة المشهورين في العالم، وكانوا يكرمون هذه الصور بطرق مختلفة كما يفعل الأمم (يقصد التبخير أمامها).][٢]

ويحقق القديس إيرينيئوس أن الزمن الذي بدأ ينشط فيه هؤلاء الغنوسيون كان في عهد البابا أنسيتوس (١٥٤ - ١٦٥م).

ولكن كان تمادي الغنوسيين في توقير الأيقونات وتكريمها بالتبخير أمامها منذ منتصف القرن الثاني سبباً في إثارة المؤمنين وإجماع رأيهم على مهاجمة الصور وتحريمها تحريماً قاطعاً في الكنيسة. وقد قاد هذه الحركة كل لاهوتيي القرنين الثاني والثالث على وجه العموم، وعلى رأسهم إيرينيئوس وترتليان وأوريجانوس، وچيروم وأوغسطينوس من بعدهم. وكان بعضهم يقول إنه يكفي ما عاناه الرب من ذلة الإتضاع في عملية التجسد وأخذه شكل العبد، فلا يليق أن نرسمه بالصورة لأن هذا إمعان في تحقيره.[٣]

ولكن هذه المقاومة المصطنعة للتعبير عن الإحساس الروحي بالصورة لم تتمكن من أن تمنع تدفُّق

(2) *Adv. Haer.* 1, 25, 6.
(3) Asterius of Amasea (*Hom. in Div*).

الإلهام في الكنيسة، فكانت الأيقونات تُرسَم وتُلوَّن وتوضع في الكنائس رغم كل هذه التحذيرات.

وحتى هؤلاء اللاهوتيون لم يمسكوا أنفسهم عن التعبير عن نفس هذه المشاعر. فترتليان عدو الأيقونات هو أول من تحمس لإشارة الصليب ورسمها على كل أعضاء الإنسان وفي كل مكان وزمان.(٤)

وهو نفسه يعود فيحبِّذ رسم الرموز التي تعبِّر عن أمثال المسيح فيقول:

[ونبدأ بالحديث عن أمثال المسيح، فمَثَل الخروف الضال الذي وجده صاحبه وحمله على منكبيه نعرفه جيداً من واقع النقوش التي ترونها بوضوح على الكأس (كأس الإفخارستيا) فهذه تعبير عن الراعي الصالح.](٥)

وكذلك يخبرنا كليمندس الإسكندري عن مَثَل الراعي الصالح ونقشه، كرمز عن المسيح، على أشياء كثيرة.(٦)

كما يخبرنا يوسابيوس الذي كان هو الآخر مناهِضاً للأيقونات، في بداية الأمر، كيف أن الأيقونات أصبحت تسلب لُبَّ الملوك، فيخبرنا كيف أمر قسطنطين الملك أن يصنعوا له تمثالاً للصليب وكيف وضعه بجوار تمثاله سنة ٣١٢م.(٧)

كما يخبرنا أيضاً كيف صنع قسطنطين الملك صورة للراعي الصالح وصورة أخرى منقوشة ومرصعة بالأحجار الكريمة تمثل الآلام المقدسة ووضعها في غرفته الخاصة بقصره.(٨)

كما يخبرنا بولينوس الذي من نولا نفسه عن كيف صنع موزاييك (بالأحجار المرصعة) داخل الكنيسة التي بناها في نولا، وهذا المنظر يمثل المسيح كحمَل والروح القدس كحمامة، كما رسم الاثني عشر رسولاً بصورة اثنتي عشرة حمامة ملتفة حول الصليب.(٩)

كما رسم أيضاً في كنيسة فوندي صورة تمثل الدينونة، والمسيح واقف يفصل الخراف عن الجداء.(١٠)

---

(٤) إرجع لكتاب «الصليب المقدس» للأب متى المسكين.

(5) De Pudic. 7, 10.

(٦) المربي ٣: ١١ و ٥٩.

(٧) يوسابيوس: ت. الكنيسة ٩: ٩.

(٨) حياة قسطنطين ٣: ٤٩.

(9) Epist, Paulini, XXXII, ch. 10.

(10) Ibid. ch. 17.

ثالثاً: المرحلة الواقعية والتاريخية وتداخلهما معاً:

وبعد ذلك انتقلت الأيقونات من مرحلة الرموز إلى مرحلة الواقعية والتاريخية (القرن الرابع)، وعلى سبيل المثال وُجد في مقصورة «برسكيلا» في روما أيقونة للعذراء حاملة طفلاً، ويظهر في الصورة إنسان يشير إلى نجم.

وهنا نجد إلتحاماً بين التصوير التاريخي والواقعي، فالعذراء حاملة الطفل يسوع تصوير واقعي، والإنسان المشير إلى النجم تعبير تاريخي عن النبي الذي قال: «يبرز كوكب من يعقوب...» (عد ٢٤: ١٧) متنبئاً عن ميلاد المسيح.(١١)

وفي نفس العصر تقريباً، عصر التحول من الرمز إلى الواقع (أوائل القرن الخامس)، نعثر على أيقونات تمثل المسيح يبارك طفلاً، وأيقونة أخرى له يقيم لعازر وفي يده قضيب يرفعه يمثل سلطانه كملك على الأحياء والأموات.(١٢)

وفي نفس العصر نجد صورة تمثل الرب حاملاً كتاباً مفتوحاً في يده (بصفته كلمة الله)، وعن كل من يمينه ويساره رجل حامل درجاً مطوياً يُظن أنهما يمثلان العهدين القديم والجديد. وهذه الصورة شائعة حتى الآن ومحبوبة، وفيها يظهر أيضاً الالتحام بين التصوير الواقعي والتصوير التاريخي.(١٣)

وهذا العصر أيضاً (القرن الرابع والخامس) يشهد تحولاً آخر في الأيقونات يتجه نحو الأشخاص لإبراز شخصياتهم التاريخية وحسب.

ويخبرنا القديس أوغسطينوس، عَرَضاً، عن اعتقاده في سبب الخطأ الذي وقع فيه بعض المزورين الذين زوروا رسائل من المسيح للقديس بولس الرسول وللقديس بطرس الرسول وذلك: [لأنهم تأثروا بمشاهدتهم المستمرة للأيقونات المرسوم عليها الرب مع بطرس الرسول.](١٤)

كذلك يخبرنا أوغسطينوس نفسه عن صورة شائعة في الكنائس تمثل إبراهيم وهو يُقدم إسحق:

(11) Marriott's, Vestiar. *christ* p. 234.
(12) Aringhi Roma subterram II, 33, 37 etc.
(13) Ibid. II, 91.
(14) *De consensu Evang*. 1. X, n. 16.

[هذا المنظر الجليل والنبيل حقاً المرسوم في كافة الأرجاء والذي يستحق أن يترنم به كل لسان.][(١٥)]

رابعاً: دخول الأيقونات في مرحلة التعبير الروحي الفائق (الإلهام):

ويخبرنا أيضاً القديس غريغوريوس النيسي عن صورة شاهدها بنفسه:

[لقد شاهدت بنفسي صورة آلام المسيح ولم أستطع أن أتحول عن الصورة بدون أن أذرف الدموع بغزارة لأن المصوِّر الفنان قد أبرز القصة أمام العين بدرجة رائعة.][(١٦)]

كذلك يخبرنا غريغوريوس النيسي أيضاً عن عدة مناظر مؤثرة صُوِّرت لتمثل حياة واستشهاد القديس ثيؤذوروس في كافة مراحلهما، وذلك على حائط الكنيسة التي بُنيت لتحمل ذكراه.[(١٧)]

بولينوس الأسقف الذي من نولا كتب أشعاراً سنة ٤٠٢م. يصف فيها كيف رسم عدة مناظر في كنيسته في نولا تمثل حوادث العهد القديم، وذلك ليشرح ويوضح التاريخ القديم للمتنصرين الجدد.[(١٨)]

وقد صُنعت أيقونة لبولينوس نفسه واقفاً مع القديس مارتن ووُضعت في مكان المعمودية في كنيسته التي في بريميولياك، وذلك أثناء حياته، وقد كتب هو بنفسه شعراً خاصاً وطلب من سلبيسيوس صديقه الذي اقترح رسم الصورة أن يكتبه على الصورة، والشعر عبارة عن مديح للقديس مارتن الذي اعتبره كنموذج ومثال للتوبة الحقيقية.[(١٩)]

ونعلم الكثير عن الأيقونات في القرن الخامس من أستيريوس أسقف أماسيا، وهو أحد الآباء الكبادوكيين الذي كان أصلاً محامياً، ففي إحدى عظاته المشهورة في التاريخ التي ألقاها في يناير سنة ٤٠٠ م في مديح الشهيدة إيفوميا القديسة يصف، بدقة، الأيقونة الخاصة بها ويقرظها ويقارنها بأعمال فنية أخرى لكبار الفنانين في ذلك العصر مثل إيوفرانور وتيموماخوس. وقد استعان مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧م بنص مقالته مرتين كبرهان ثمين على ضرورة توقير الأيقونات المقدسة.

---

(15) *C. Faust.* XXII, 73.
(16) *De Deit Fil. et sp. orat.*
(17) *Encom. Theod.*
(18) Poem. XXVII DE St. Fel.
(19) *Epist.* XXXII, ch. 2, 3.

ويخبرنا هذا الأب الجليل عن تحوُّل جذري كبير في فن رسم الأيقونات عند بداية القرن الخامس، وهو المحاولة الفنية الجادة في استخدام الأيقونة في الكنيسة للتعريف بالإنجيل وذلك عن طريق تصوير حوادث الإنجيل ومواضيعه ومعجزاته بدقة وإبداع فني ملفت للنظر، سواء التي أكملها المسيح أو الرسل أو التلاميذ، ولكنه يعود في عظاته ويعنف بدعة فنية جديدة ظهرت في أيامه توضح شدة ولع جيل القرن الخامس بالإنجيل أولاً وبالفن ثانياً، وهي رسم معجزات الإنجيل ومواضيعه على ملابسهم الخاصة.[٢٠]

وكذلك نعلم من الأديب والشاعر المسيحي الروماني المشهور برودنتيوس أوريليوس (٣٤٨ - ٤١٠م)، الذي انصبَّ في أواخر أيامه على العبادة المسيحية ودراسة الكتابات المسيحية وتأليف الأشعار المتقنة عن الشهداء والحياة النسكية والتسابيح اليومية المحبوبة، نعلم منه عن إحدى الأيقونات المشهورة التي عُرضت في روما للقديس والمعلم المدرسي كاسيانون.[٢١]

كما يصف أيقونة كانت مرسومة على قبر الشهيد هيپوليتس المشهور (١٧٠ - ٢٣٦م)، يظهر فيها القديس وهو يعاني آلام الإستشهاد والتعذيب بصورة فنية رائعة.[٢٢]

ونعرف، عَرَضاً، من محاجاة هيراكليداس أسقف نيسا (٤٤٠م)، في مقالتين ضد الميسَّاليين عن قدم توقير الأيقونات المقدسة في الكنيسة، خصوصاً في المقالة الثانية تحت عنوان «شهادة عن قدم توقير الأيقونات المقدسة» كتبها سنة ٤٣٠م.[٢٣]

خامساً: ظهور أيقونات القديسين:

وبحلول القرن الخامس أخذت الأيقونات التي تمثل الآباء البطاركة العظام والقديسين المشهورين تحتل مكانة أيضاً داخل الكنيسة جنباً إلى جنب مع الأيقونات المقدسة التي تصور المسيح والتلاميذ، وذلك بالرسم العادي على اللوحات أو بالموزاييك والمرصعات الثمينة. وفي رسالة للقديس نيلُس المشهور بالسينائي موجَّهة إلى أوليمبيودوروس، نجد القديس نيلُس يحضُّ على اقتناء الأيقونات في الكنائس بحماس وتقوى شديدين:

[إملأ الهيكل المقدس وكل جوانبه بالأيقونات التي تصور كل حوادث العهد القديم والعهد

(20) *De Div. et Lag.* u.s.
(21) *De Cornis Hymn.* IX. 9.
(22) *Ibid.* X. 126.
(23) Photius Bibl., cod. I.

الجديد، واستخدم في ذلك أمهر الفنانين المصورين حتى يتعرف الإخوة المؤمنون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة على فضائل الرجال القديسين الأتقياء الذين خدموا الله بأمانة عندما يتأملون في هذه الأيقونات فيتذكرونها باستمرار.][٢٤]

وفي الإنسيكلوبيديا المشهورة المعروفة باسم «السويداس»، يقص كاتب يُدعى مالخوس (٤٩٦م) قائلاً: إنه رأى في كنيسة القسطنطينية الكبيرة أيقونة بالموزاييك (المرصعات) كانت قد وُضعت في الكنيسة في عهد جناديوس (٤٥٨م)، وفيها يظهر البطريرك جناديوس وأكاكيوس خلفه مع الرب يسوع في الوسط. وانتشرت هذه الصورة بعد ذلك في الكنائس الصغرى.[٢٥]

كما يخبرنا المؤرخ المدرسي ايڤاجريوس (٥٣٦ - ٦٠٠م) - الذي عاش في سوريا وأكمل تاريخ يوسابيوس القيصري في ستة كتب مشهورة - عن صورة عظيمة مصوَّرة في سقف كنيسة أبامية تصف إحدى المعجزات التي حدثت في أيامه والتي يقول إنه رآها بنفسه.[٢٦]

وغريغوريوس الأسقف الذي كان أسقفاً على مدينة تور، وهو مؤرخ الفرنجة المشهور (٥٤٠ - ٥٩٤م) والمعاصر لإيڤاجريوس المؤرخ، يخبرنا عن أيقونة رآها في هيكل كنيسة رافِنَّا المشهورة تمثل الرسل وبعض القديسين.[٢٧]

ويسجل التاريخ منظراً مبدعاً ومؤثراً للغاية يصف فيه القديس أوغسطينوس (توفي سنة ٦٠٤م)، رسول إنجلترا وأول أساقفة كنتربري، في أول مقابلة له مع الملك «إيثلبرت» ملك «كِنت» في عام ٥٩٧م:

[قَدِموا على الملك وهم حاملون صليباً فضياً مرفوعاً كالعلم مع أيقونة كبيرة للرب المخلِّص مرسومة على لوحة.] [٢٨]

كما يخبرنا المؤرخ «بيدِه» عن أول أيقونات رسمية دخلت في كنيسة إنجلترا وكيف:

[استُحضرت سنة ٦٤٨م من روما هذه الأيقونات المقدسة، وأن إحديها كانت **للسيدة العذراء مريم وأخرى للرسل القديسين** مع أيقونات تمثل حوادث الإنجيل ورؤيا يوحنا

---

(24) Epist. IV, 61.
(25) Suidas in Acac. 1, 76.
(26) Hist. Eccl. IV, 26.
(27) Vitae P. P. XII, ch. 2.
(28) Bede, Hist. Eccl. I, 25.

الإنجيلي، ووُضعت في الكنيسة حتى أن كل مَن كان يدخل الكنيسة حتى ولو كان أُمِّياً ويلتفت في أية ناحية يستطيع أن يتقابل مع وجه ربنا الحبيب يسوع ويتأمل فيه ويستحضر في ذهنه نعمة التجسد الذي أكمله الرب.](٢٩)

ثم عادت إنجلترا في زمن هذا المؤرخ سنة ٦٨٥م واستحضرت صوراً أخرى من روما تمثل **قديسين كثيرين** ومواضيع إنجيلية وأيقونات من نوع جديد تمثل العلاقة بين العهد الجديد والعهد القديم: فمثلاً أيقونة تمثل الرب حاملاً الصليب وبجواره إسحق حاملاً حطب المحرقة! وأخرى تمثل المسيح معلَّقاً على الصليب وبجواره الحية النحاسية معلَّقة على السارية. وهذه الأيقونات كانت قد شاعت في روما في ذاك العصر.

وفي عصر سابق، كانت الأيقونات قد دخلت مرحلة الشيوع بين العامة، إذ يخبرنا ثيئودوريت (٣٩٣ - ٤٥٨م) أن صوراً **للقديس سمعان العمودي** (٣٩٠ - ٤٥٩م) شاع انتشارها بين الناس في كل الأرجاء حتى روما، وكانوا يعلقونها في البيوت والمحال العامة للبركة، وكانت تحتل مكانة عظمى في قلوب الناس.(٣٠)

والمؤرخ المشهور ثيئودور الملقب «لكتور» الذي عاش في مستهل القرن السادس في القسطنطينية يكشف لنا طرفاً من قصة صورة القديس لوقا الإنجيلي التي رسمها للعذراء القديسة مريم فيقول: «إن القيصرة إفدوخيا أرسلت إلى بُلخاريا سنة ٤٥٦م صورة العذراء مريم أُم الرب التي رسمها القديس لوقا»(٣١).

سادساً: دخول الأيقونات في عصر المعجزات:

كما يحقق لنا هذا المؤرخ ثيئودور، كفنان، عن الملامح الحقيقية التي كانت للرب يسوع والتي كان هو متحققاً منها، فيقول إن الأيقونات التي تحمل صورة الرب يسوع وهو بشعر مجعد قصير، هي الصورة الأصح له.(٣٢)

كما يخبرنا المؤرخ إيفاجريوس (٥٣٦ - ٦٠٠م) أنه بينما كان الملك خسرو الفارسي

(29) Hagiogr, sect. I.
(30) Hist. Belig. C. XXVI.
(31) Excerpta, i prop. init.
(32) Ibid. I : 554.

يُحاصر مدينة إديسا (الرها) سنة ٥٤٤م، واقترب من السور بمنجانيقاته لهدم السور رمى عليها أهل المدينة النار وزادوا النار لهيباً واشتعالاً بطريقة معجزية وذلك حينما ألقوا عليها أيضاً بعضاً من الماء الذي مرروه على أيقونة للمسيح التي قيل عنها إنها «صورة الإله التي لم ترسمها يد إنسان»، وهي التي أرسلها المخلّص إلى «أبجر» ملك إديسا في ذلك الزمان.

وقد قيل عن هذه الصورة أيضاً فيما بعد، حوالي سنة ٥٩٠م، أن الجيش الروماني في زحفه على الفرس أخذ معه في المقدمة هذه «الصورة الإلهية» فأعطت للعسكر شجاعة فائقة مكّنتهم من هزيمة الفرس.(٣٣)

وهنا نبتدئ ندخل في عصر المعجزات التي تتم بتوسط الأيقونات، ويخبرنا المؤرخ إيڤاجريوس وغريغوريوس الذي من تور عن ولد يهودي في القسطنطينية تنصَّر واشترك في الجسد والدم، ولما عرف أبوه اليهودي بذلك - وكان متعصباً - أخذه وألقاه في الفرن حياً. ولكن الولد وُجد في الفرن في اليوم الثاني كما هو حياً لم تمسسه النار، وأخبر الولد قائلاً: إن السيدة العذراء متدثرة بثوب أحمر أرجواني وهي حاملة طفلها، كالمرسومة في الأيقونة التي في الكنيسة التي تناول فيها، جاءت نحوه وغطته بردائها الأحمر فلم تمسه النار.(٣٤)

ومن الحوادث التاريخية المشهورة الذائعة في كل فرنسا والتي يرويها پول وارنفريدي في تاريخه(٣٥)، قصة شفاء المريضين بعينيهما اللذين شُفيا لما دُهنا بالزيت المخصص للقنديل الموضوع أمام أيقونة القديس مارتن بمدينة راڤنا، والتي تسجلت في كتاب معجزات القديس مارتن.(٣٦)

ومنذ ذلك الحين بدأ يتولد الإيمان في الكنيسة بإمكانية توسط الأيقونات في شفاء الأمراض وصنع المعجزات باعتبارها للقديس نفسه.

وحادثة أخرى يرويها غريغوريوس الذي من تور مؤرخ الفرنجة المشهور (٥٤٠ - ٥٩٤م.) عن صورة للمسيح نبع منها الدم عندما طعنها أحد اليهود.(٣٧)

(33) Theophyl. Simoc. Histor., II, 3, 70, ed. Bekker.
(34) Miracl. 1, 10.
(35) Hist. of Lombard, II, 13.
(36) Greg. of Tour : Miracl. St. Mart. I, 15.
(37) Miracl. I, 22.

وقد تكررت حوادث خروج الدم من الأيقونات، ونسمع عن ذلك كثيراً في الشرق. فيخبرنا لونديوس أسقف نيابوليس في قبرص سنة ٥٩٠م عن حوادث خروج الدم من الأيقونات مرات متعددة كثيرة.(٣٨)

ويخبرنا المؤرخون أيضاً وينقل عنهم بعد ذلك بكثير البابا غريغوريوس الثاني سنة ٧٢٦م عن أيقونة قديمة في القسطنطينية كانت تسمى «المخلِّص»، كان يحدث بواسطتها معجزات لا حصر لها.

ولكن بسبب ذيوع هذه الأخبار عن المعجزات التي تتم بواسطة الأيقونات بدأ العامة ينتحون ناحية تقديس الأيقونات لدرجة العبادة الصنمية، مما حدا ببعض الأساقفة أنفسهم أن يرفعوا الأيقونات ويحطموها مثل الأسقف سيرينوس أسقف مرسيليا، وكان معاصراً لغريغوريوس أسقف تور؛ ولكن البابا غريغوريوس الكبير استهجن هذا التصرف بقوله:

[قد بلغ إلى أسماعنا تحطيمكم لبعض الأيقونات ورفعها من الكنيسة عندما رأيتم بعض المصلِّين يتحولون إلى عبادة الصور نفسها. وفي الحقيقة وإن كنا نمتدح غيرتكم لئلا التي تُصنع بالأيدي تصير معبودة، إلا أننا نظن أنه ما كان يجب عليكم قط تحطيم هذه الأيقونات لأن التصوير مفيد على أي حال في الكنيسة حتى يتمكن الأُمِّيون أن يقرأوا بواسطة الأيقونات ما يعجزون عن قراءته في الكتب.] (رسالة ٧: ١١١).

[إن تقديس الصورة نفسها لدرجة عبادتها شيء، وشيء آخر أن يتعلم الإنسان من الصورة ما ينبغي أن يقدسه ويعبده!! ... فإذا وُجد إنسان يرسم أيقونة فلا تمنعه بأي حال من الأحوال، ولكن إن هو بدأ يعبد الأيقونة فامنعه على كل حال.] (رسالة ٩: ٩).

وفي هاتين الرسالتين يركز غريغوريوس الكبير على منفعة الأيقونة للتعليم، ولكن في رسالة أخرى يبرز ناحية جديدة هامة تستدعي توقير الأيقونة:

[نحن لا نسجد أمام أيقونة المخلِّص بالضبط كما نسجد للاهوت، ولكننا نحن في الواقع عندما ننظر الصورة نستحضر إلى الذهن مَنْ ينبغي أن نعبده، مولوداً أو متألماً أو جالساً على عرشه. فالأيقونة كالكتابة تستحضر إلى ذهننا ابن الله بسهولة. وبذلك فهي إما تُبهجنا إن

(38) Apol. in Act. IV Conc. Nic., II, Labb. VII : 240.

كانت للقيامة مثلاً أو تعزي نفوسنا إن كانت للآلام.] (الرسالة ٧: ٥٤).

وهكذا يقف البابا غريغوريوس الكبير موقفاً رزيناً معتدلاً بشأن الأيقونات.

أما في الطقس البيزنطي فنجد، بحكم العاطفة الشرقية، أن ميلاً أكثر نحو توقير الأيقونات والدفاع عن كرامتها قد بدأ مبكراً منذ أيام لونديوس أسقف نيابوليس في قبرص (سنة ٥٩٠م):

[أنا عندما أعبد وأسجد لصورة ابن الله لا أعبد مادة الخشب أو الألوان - حاشا - ولكني إذ ألتقي بالصورة التي ليس فيها حياة التي تمثل فقط شخص المسيح ألتقي عن طريقها بالمسيح الحي وأعبده من خلالها.][٣٩]

ويبتدئ هذا الأسقف في مقارنة توقير الأيقونة لدى المسيحيين بتوقير اليهود لكتاب التوراة. ولكنه حينما يعود إلى المعجزات التي تُستحدَث بتوسط الأيقونة وإلى قوة وفاعلية صورة الصليب، يقرر أن توقير الأيقونة وصورة الصليب أكثر عمقاً وأثراً في النفس من توقير كتاب التوراة عند اليهود.

□□□

أما في **الطقس القبطي** - الذي لم نُشِر إليه بعد والذي نرجئ الحديث في تفاصيله التاريخية إلى موضع آخر - فالأيقونة القبطية ذات مدلول روحي فائق، فالصورة في المفهوم التقليدي القبطي تحمل سر القيامة في أجمل معانيه.

وباختصار شديد نقول إن تاريخ تصوير الأشخاص لدى الأقباط يمتد ليلتحم بطقس فرعوني سحيق في القدم. فقد حرص الكهنة القدامى على رسم صورة دقيقة للشخص العظيم المتوفي سواء كان ملكاً أو كاهناً أعظم أو أميراً، هذه الصورة تكون بالألوان الزاهية الطبيعية المعبِّرة عن الملامح الرئيسية للشخص وخاصة وجهه حيث تُرسَم فوق غطاء التابوت، وذلك لكي تتعرف روح الشخص على جسد صاحبها في يوم القيامة العتيد.

والواقع أن الوجدان القبطي لا يزال يحمل أثراً عميقاً من هذا الإنطباع التقليدي القديم لمعنى الصورة ومدلولها ولكن في نور الحقيقة المسيحية، فالآن قد تمت بالفعل القيامة الأولى للأرواح

(39) *Ibid.*, VII : 237.

بقيامة يسوع المسيح من الأموات: «لقد أقامنا معه وأجلسنا معه في السمويات» (أف ٢: ٦). إذن، فالصورة التي نرسمها لا نضعها في القبور على التوابيت بل نضعها أمام عيوننا لأنها لم تعد تنتظر القيامة بل هي تعبِّر عن القيامة. فالأشخاص نرسمهم باعتبارهم أحياءً الآن كأرواح مباركة.

ولكي نوضح ذلك أكثر نقول إنه من التقاليد الفنية والروحية المتوارثة منذ القدم أن روح الإنسان لها صورة شكله تماماً. وهذه الحقيقة نجدها واضحة كل الوضوح في الصورة المرسومة في كنيسة السريان بدير السريان بوادي النطرون في الخورس الأول في نصف القبة البحري[٤٠]، وهي صورة تمثل نياحة العذراء، فإذا دقق الناظر في الرسم يجد السيد المسيح حاضراً في وقت نياحتها ليستلم روحها وهو بالفعل يحمل روحها على يديه، ونجد أن شكل الروح هو شكل العذراء نفسها تماماً إنما بصورة مصغَّرة ومضيئة.

نخرج من هذا بأن الفن القبطي في التصوير التقليدي الكنسي يعتمد على مبدأ لاهوتي هو أن الصورة لا تمثل في الواقع الشخص الميت بل الشخص الحي أي روحه، أي أن الأيقونة القبطية هي أيقونة روحانية تعبِّر عن حالة قيامة حقيقية تمت بالفعل للشخص المصوَّر بصفته قديساً وثقت الكنيسة من خلاصه وقيامته!!

وهذا المبدأ اللاهوتي في النظرة إلى الأيقونة عند الأقباط ولَّد فيهم إحساساً خاصاً مرهفاً بأن الأيقونة ما هي إلا تعبير عن روح القديس، الروح التي لا تُرى ولا تُحَس. لذلك عندما يقف الشخص القبطي أمام الأيقونة ليصلي ويطلب، تجده يغمض عينيه، وإذا أراد أن يقبِّل الصورة أو يتبارك بها تجده في خشية واستحياء يمد أطراف أصابعه ويلمس الجزء الأسفل من الصورة ثم يقبِّل أصابعه ولا يقبِّل الصورة نفسها مباشرةً؛ وهو بهذا التصرف يعبِّر دون أن يشعر عن البعد الروحي الذي يفصل الروح القائمة عن الإنسان الذي ما زال على الأرض بالجسد، فهو كمن يأخذ البركة من على بُعد، بركة الروح وليس بركة الصورة المادية أو خشبة الأيقونة!

---

(40) Evel. White : Monast. of Wadi Natroon, III, Plate, LXII.

أنظر اللوحة رقم (٦) في الملحق الخاص بالأيقونات في هذا الكتاب.

أقوال الآباء عن الأيقونات:

١١٠٣ . أمر الله عبده موسى أن يعمل تابوتاً من الخشب يصفِّحه بالذهب ويضع فيه لوحي الشهادة والقسط الذهبي المحتوي على المن وعصا هرون التي أفرخت. ويصنع للتابوت غطاءً ويثبِّت عليه كاروبين من ذهب شبه شخصين بأجنحة مفرودة قائمين على أرجلهما ووجهاهما نحو البيت الخارجي.

وكان موسى وجميع الشعب يخرُّون ويسجدون أمام التابوت، وكان الرب يكلم موسى من بين الكاروبين.

أما قول الله لا تتخذوا مثالات مصنوعة من ذهب أو فضة أو حجارة أو خشب ولا تسجدوا لها ولا تعبدوها فإنما كان لمنعهم من عبادة آلهة أخرى غيره.

وأما التابوت فكان كشخص الله:

كان عند ارتحال التابوت يقول موسى: «قم يا رب فلتتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك، وعند حلوله كان يقول إرجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل.» (عد ١٠: ٣٥ و ٣٦).

- «وسقط يشوع على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل.» (يش ٧: ٦).

- «فأصعد داود تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق.» (٢صم ٦: ١٥).

لأن الله لم يكن له شبه ومثال، ولما تجسد الإله وأخذ طبيعتنا وصار إنساناً أصبح له شبه ومثال «هو صورة الله غير المنظور.» (كو ١: ١٥).

«هو بهاء مجده ورسم جوهره» (عب ١: ٣) يسوع المسيح الذي رسمه أهل غلاطية أمام أعينهم مصلوباً كما يقول بولس الرسول: «أنتم الذين أمام عيونكم قد رُسم يسوع المسيح بينكم مصلوباً.» (غل ٣: ١).

من أجل هذا أمر معلمو الكنيسة برسم صورة المسيح مصلوباً.

وقال القديس بطرس السدمنتي عن ترتيب الصلبوت: فلتكن أيقونة الصلبوت مرتفعة خارج الخورس الأول لأن المسيح تألم خارج المدينة، ويلبس الكهنة برانس غامقة ويأخذون المجامر بأيديهم ويرفعون البخور أمام أيقونة الصلبوت.

كذلك أمر معلمو الكنيسة بعمل صورة الدفن لإجراء طقس الدفن فوق المذبح وأيقونة القيامة لزفة البشارة بقيامة المسيح، لأن المسيح أمر أن نعمل هذا التذكار: «اصنعوا هذا لذكري» (لو ٢٢: ١٩).

من أجل هذا رتبت الكنيسة كل الصور اللائقة بتذكار المسيح، وأيضاً صور الملائكة والقديسين، تذكاراً لهم كما سبق فرتب المسيح تذكار المرأة التي دهنت رجليه بالطيب الغالي الثمن: «الحق أقول لكم حيثما يُكرز بهذا الإنجيل في كل العالم يُخبَر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها» (مت ٢٦: ١٣).

١١٠٤ . تقولون كيف نسجد للألوان وكيف نقنع أفكارنا؟

يا أولادي أسألكم أن توسعوا عقولكم وتفهموا معنى قولي، لأن كل كلام أو سؤال لابد له من جواب، لأنه لم يُعمَل شيء في الكنيسة عبثاً. فالأواني التي للخدمة والمذابح والصور لابد من تكريسها، ليس من يد كاهن بل من يد رئيس الكهنة، ويمسحها بدهن الميرون، والميرون هو مثال الروح القدس. وقوانين الكنيسة تأمر أن الشماس يحل له أن يمسك الكأس ويناول المؤمنين منه، وأما الميرون فالقانون لا يجيز للشماس أن يحمله أو يقترب إليه لأنه ليس له سلطان أن يُعطي الروح القدس لغيره. ويشهد بذلك سفر أعمال الرسل حيث قال أنه لما عمد فيلبس الشماس أهل السامرة لم يستطع أن يعمدهم بمعمودية الروح القدس بل بمعمودية يوحنا فقط، ولما علم الرسل أرسلوا لهم بطرس ويوحنا فوضعا عليهم اليد وحينئذ قبلوا الروح القدس.

فالآن قد تحقق أن بوضع يد رئيس الكهنة يحل الروح القدس ويقدِّس. فانظروا إلى طقس الكنيسة كيف رُتب بحكمة دقيقة بإرشاد روح الله. فالمذبح والأواني والصور يجب ألا يُسجَد أمامها بل ولا تقبَّل أيضاً قبل أن يمسحها رئيس الكهنة بدهن الميرون.

ويأمر قانون الكنيسة أن تُحضَر الصورة فوق المذبح أثناء صلاة القداس، ويصلي عليها الصلاة المدونة في كتاب التكريس ثم يمسحها بدهن الميرون، وإذا فرغ من توزيع القربان ينفخ في وجه كل صورة قائلاً: «إقبلوا الروح» ثلاث مرات.

وربما تشكُّ وتقول كيف يحل الروح القدس في صورة! أقول لك إن لم تصدق أن الروح يحل بدهن الميرون ونفخة الأسقف فقد صار كل الإيمان باطلاً، فالروح إذن لم يحل على المذبح ولا القربان ولا الكنيسة، وسجودنا أمام الهيكل يكون باطلاً أيضاً.

ولكن حاشا لله، اسمع ما يقول الإنجيل المقدس: «مَن حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه ومَن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه» (مت ٢٣: ٢٠ و ٢١). فعرِّفوني مَن هو الساكن فيه إلا الروح القدس!

وربما تقول: ومَن هو الذي أسجد له؟ هل أسجد لروح الله الحال في الصورة أم أسجد للشهيد أو القديس صاحب الصورة؟

أقول: إنما السجود هو لروح الله، وأما صاحب الصورة فينبغي له التبجيل والسلام والإكرام، وسؤاله الصلاة والشفاعة قدام الرب.

أنبا يوساب الأبح

١١٠٥ . إنه ترتيب حسن جداً عند المسيحيين، وأمر يسرُّ الله كثيراً أن نحتفظ بأيقونة للمخلِّص ونصلي إليه أمامها. إنه نوع من التعطش الروحي ونداء النفس.

والسيد نفسه يتوق بحبه الطبيعي لنا أن يتصور في داخلنا، ولهذا يقول الرسول: «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم ...» (غل ٤: ١٩).

وكيف أتصور المسيح في قلبي إن لم أره أولاً بعيني؟ لذلك نحن نقتني صور المخلِّص وأم ربنا والملائكة والقديسين، وما ذلك إلا لفرط حبنا لهم ونود ألا تُفارق صورهم أذهاننا أو قلوبنا.

ولسبب وجودنا في الجسد، فحاجة الحواس دائماً مِلِحّة إلى شيء جسدي ملموس ينطبع عليها فتنقله إلى داخل القلب، لذلك نحتفظ بهذه الأيقونات أمام عيوننا وفي بيوتنا وكنائسنا.

وثمة أمر آخر ذي بال كثير، إذا نحن لم نلجأ إلى صورة متقنة لفنان موهوب، أفليس يتحتم على خيالنا أن نتصور صورة من الخيال للمسيح أو القديس؟ إن الكنيسة قد وفرت علينا هذا الجهد والعناء وسكبت في أولادها روحاً تأملياً مقدساً أوحى إليهم بتصوير الأيقونات التي نراها، والتي كثير منها رُسم بأيدي قديسين بل ورسل أيضاً.

أما كيف يستجيب لنا الله من الأيقونة فهذا ليس بالأمر الجديد في علاقات الله مع بني البشر. فالرب في القديم كان يستجيب بل ويتكلم مع موسى وهارون أمام تابوت العهد: «وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكاروبَيْن اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به!» (خر ٢٥: ٢٢).

وكثيراً ما صنع الرب معجزات وآيات بواسطة الأيقونات.

١١٠٦ . حينما تتأمل في الأيقونة وترى فيها السيد الرب شاخصاً إليك بعينيه، فهذا صورة ما هو حادث بالفعل. فهو الآن وكل أوان شاخص إليك بعينيه الفاحصتين الملتهبتين أكثر من الشمس. وليس مجرد النظر، بل إنه يفحص أعماق أفكارك وقلبك، ويتطلع إلى انسحاق نفسك وحزنك وتنهدك.

فالصورة لم تخرج عن كونها صورة، ولكنها تعبِّر لك عما لم يكن من السهل أن تدركه بمجرد تأملك البسيط بالخيال. وتطبع ذكرى صاحبها في العقل إلى الأبد: «أنا لا أنساك هوذا على كفَّي نقشتُك.» (إش ٤٩: ١٦).

إذا وقفت أمام الأيقونة فتصور نفسك أنك واقف أمام الله الحي وتكلم لأنه هو «سامع الصلاة وإليه يأتي كل بشر.» (مز ٦٥: ٢).

١١٠٧ . حينما نقف ونصلي أمام الأيقونة المقدسة فإن أُذُن رب الجنود تكون مصغية إلينا لأنه قريب إلينا، أقرب من الأيقونة ذاتها، وكثيراً ما يُستعلن أكثر وضوحاً من الصورة المرسومة أمام أعيننا.

فالأيقونة توحي إلينا أن الرب قريب ومتواضع يسمع الصلاة وينظر إلينا. كذلك أيضاً القديسون هم حولنا: «وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم، تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض، هؤلاء كلهم مشهود لهم بالإيمان... لذلك نحن أيضاً **إذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا** لنطرح كل ثقل والخطية المحيطة بنا بسهولة ولْنُحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا» (عب ١١ و ١٢). هم ينظرون إلينا كما ننظر إليهم ويسمعوننا ولو أننا لا نسمعهم بآذاننا اللحمية، وإنما نصغي إلى أقوالهم الحية وتعاليمهم النيرة وسيرتهم المقدسة هذه التي تعمل فينا بواسطة الروح القدس الذي يربطنا بهم، الذي يقودنا لنشترك في موكب نصرتهم: «أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله أنظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم.» (عب ١٣: ٧).

١١٠٨ . في أيقونة أثرية وُجد المخلِّص مرسوماً وفي إحدى يديه الكرة الأرضية واليد الأخرى ممدودة بالبركة. إن هذا الرمز مأخوذ من الحقيقة. فالرب يتطلع من السماء ويراقب هؤلاء الذين يجاهدون على الأرض من أجله، ويعينهم في حربهم ضد أعدائهم، ويباركهم بالسلام، ويهبهم إكليل الحياة بعد أن يكملوا جهادهم.

لذلك تقووا أيها المؤمنون بالمسيح «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع» (عب ١٢: ٢)، **فهو** يراكم ويراقب جهادكم، وفي اللحظة الأخيرة يُستعلَن لكم بمجد وبهاء عظيم، كما تراءى لأول شهدائه إسطفانوس ليقويه على ساعة الجهاد الأخيرة. وكما تراءى لشاول في الطريق معلناً له ذاته وأضاء حوله بنوره العجيب وكلمه بلغته. (أع ٢٦).

١١٠٩ . كل راهب في الدير عليه كواجب يومي أن يسجد أمام ذخائر القديسين (أي أجسادهم) ثلاث سجدات، ويقبِّلهم ويقبِّل الأيقونة المقدسة بوقار عظيم وصلاة منسحقة، طالباً من القديسين أن يساعدوه في تأدية عمله وواجباته الرهبانية.

١١١٠ . حينما نوقر أيقونات القديسين نحن نوقر الله الذي أرسل لنا ابنه، صورته الحية الناطقة الذي خلق به كل الموجودات حسب فكره الأزلي.

فصار لنا الحق أن نرسمه أمام عيوننا متذكرين على الدوام أي مجد صار إلينا حتى صرنا «شركاء الطبيعة الإلهية.» (٢بط ١: ٤).

كذلك نحن نوقر قوة الله التي حلَّت في قديسيه وأعانتهم على حفظ الإيمان وتكميل السعي والجهاد.

١١١١ . ليس حسناً أيها الأحباء أن نقتني صورة المسيح والقديسين في بيوتنا للزينة وتجميل مساكننا دون أن نحفظ واجبات الخشوع والإيمان والحب اللائق بها.

فالصور في البيوت أو الكنائس ليست هي قِطعاً فنية للعرض أو الزينة وإنما هي لتكميل حياة الصلاة بالمشاعر المنظورة، والإلتجاء إليها وقت الشدة والضيقة. فهي ليست صوراً مجردة، وإنما هي جنود معدة للحفظ والإرشاد. فهؤلاء القديسون هم شهادة يسوع الحقة، ويقدِّمون عينة حية من الإيمان القوي وحياة النسك والعبادة، ويقفون كشاهد قوي ضد روح هذا العالم المستهتر، يوبخون كل سيرة منحلة وكل تراخٍ في جهاد الصلاة أو الصوم.

١١١٢ . هؤلاء القديسون إنما يضيئون بنورك يا رب الذي سكبته على رؤوسهم، هم تقدَّسوا بنعمتك بعد أن جاهدوا وغلبوا الخطية. والآن هم يتمجدون عندك، ويرون المجد العظيم الذي لك. يتنعمون في عدم فسادك الذي أشركتهم فيه، إذ جعلتهم واحداً معك في قداستك ونورك وبهائك. المجد لك يا رب يا من أعطيت مثل هذا المجد والنور والرفعة لبني جنسنا.

هذه هي صور الرسل تلاميذك الأطهار صورتك الحية، الذين وصلوا إليك كسفراء عنا يشفعون في مذلتنا أمامك.

هذه هي صور البطاركة الذين رعوا خرافك المقدسة، يا رئيس الرعاة الأعظم، وجازوا عالمنا محمَّلين بخيرك وحكمتك وقوتك.

هؤلاء هم الشهداء الذين جازوا معركة العذاب واشتركوا في آلام صليبك وغسَّلوا ثيابهم وبيضوها بالدم.

هذه هي صور قديسيك الذين غسلوا ذواتهم بدموعهم، وطهروا أجسادهم بأصوامهم، فنالوا مواهبك العظمى، واستؤمنوا على أسرار المعرفة وشفاء المرضى. تقووا في جهادهم بشدة قوتك، وداسوا الخطية بأقدامهم، وكسروا فخاخ العدو بنعمتك... ها حُسنك وضياء وجهك ينبعثان من وجوههم بضياء عجيب.

الأب يوحنا (ك.)

١١١٣ . قام بعض القوم مدَّعين أنه من الخطأ أن نُشهر جراح الرب يسوع علناً في الصور وأن نجعل للقديسين صوراً.

يا للتضليل! إنما فكرة شيطانية تعمل لكي تُخفي عن أعين الناس حقيقة آلام المخلِّص وصلبه، وأن ينكر

جهاد الفضيلة وتكريم تلاميذ الرب.

لقد أعمى الشيطان قلوب المتحررين وجعلهم يفتخرون بمهازل العالم وفضائحه ويصورونها ويذكرونها، أما الرب وأعماله فيود لو أمكن أن يُخفيها عن أعين الناس.

١١١٤ . إذا حاولنا أن نعمل صورة ما لله غير المنظور، فنحن نكون قد أخطأنا حقاً، لأنه يستحيل أن نحيط الله غير المدرك غير المحوى بصورة ما، أو نرسم شبهاً لمن ليس له شبه أو جسد منظور.

ولو أقمنا تماثيل للناس وسجدنا لأشخاصها بقصد العبادة كآلهة فنحن نكون كافرين. ولكن حاشا لنا أن نعمل هذا أو ذاك.

أما إذا كنا قد صورنا الرب الذي أظهر لنا صورته جهاراً إذ تجسد وظهر على الأرض كإنسان بين بني البشر، آخذاً شكلاً ومنظراً محدوداً، فنحن لم نضل و لم نعبد شيئاً سوى الرب يسوع المسيح.

كل منا يشتاق أن يرى كيف كان منظره، والرسول يقول نراه الآن كما في مرآة ولكن أية مرآة يا ترى وأية رؤية؟ أَليست هي رؤيتنا له في شبه صورته المرسومة في الأيقونة؟

إن رؤيتنا له الآن في الأيقونة كرؤيتنا لشكله الذي كان به وإنما في مرآة معتمة! لأن عقلنا لن يستطيع أن يكف عن محاولته لتصويره بصورة ما.

يخزيك الرب يا شيطان ويخزي غضبك لأنك تحسدنا حتى على صورته التي وضعناها أمام أعيننا لنحيا في حضرته. فأنت لا تريد أن نتأمل في آلامه المحيية، أو نعيش بالقرب منه مسبحين عظمته ومحبته واتضاعه.

أنت تبغض القديسين وتحقد عليهم لأنهم اتضعوا وأخذوا المجد والكرامة من الله، فلا تطيق أن تنظر صورهم أو تجعلنا نخلد ذكراهم كما أوصى الرب متشبهين بإيمانهم ناظرين إلى نهاية سيرتهم!

نحن سوف نزدري باحتجاجاتك لأنك شرير ومبغض لجنسنا.

إسمعوا يا شعب المسيح يا مختاري الله: كل مَن يُعلِّمكم بغير ما تعلَّم به الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الأرثوذكسية التي استلمت تعاليمها من الرسل، فلا تسمعوا له ولا تقبلوا مشورة لإنسان، إنها ضلالة شيطان. وإذا علَّمكم ملاك أو سلطان بغير ما علَّمناكم فسِدُّوا آذانكم ولا تسمعوا لهم.

١١١٥ . إن التوقير والإكرام شيء والعبادة شيء آخر. فالله وحده هو المستحق العبادة من كل مَن في السماء من فوق ومَن في الأرض من تحت.

فنحن نسجد ونعبد الله، ونوقر قديسيه ونكرمهم إكراماً للروح القدس الذي ملأهم: «مَن يقبلكم يقبلني» (مت ١٠: ٤٠) لأنه «ليس نبي بلا كرامة.» (مت ١٣: ٥٧).

١١١٦ . في القديم لم يُعرَف سوى الله الآب غير المنظور وغير المحوى، فلم يكن ممكناً أن يصوَّر بصورة قط. ولكن الآن لما أخذ جسداً وصار منظوراً لبني البشر عُملت له صورة حسب حقيقة منظره.

ونحن لا نعبد الصورة المادية وإنما نعبد الله المرموز له بالصورة الذي أخذ جسداً من أجلنا، وتنازل وصار على هيئة بشر ليخلصنا.

أَلم تكن الصخرة التي أخرجت الماء لبني إسرائيل في البرية هي المسيح (١كو ١٠: ٤)؟ أَلم يكن المسيح نفسه ذا لحم ودم وعظام؟ «جسُّوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي.» (لو ٢٤: ٣٩).

إذن فلنتقدم بإيمان غير مرتابين لتقديس كل ما يختص بالله، معطين الكرامة لمن له الكرامة، منقادين بروح النعمة، ولا نحتقر شيئاً فيه أو عليه اسم الله.

١١١٧ . إذا كنت لا تعبد المسيح وهو مصوَّر أمامك، فأنت لا تعبد الله، لأن المسيح ذاته هو صورة الله غير المنظور ورسم جوهره الأزلي.

إبراهيم وموسى وإشعياء وكل الأنبياء رأوا صورة الله ولكن ليس جوهره.

العُلَّيقة المشتعلة بالنار كانت رمزاً ورسماً للعذراء مريم والدة الإله، وحينما أراد موسى الإقتراب منها ناداه الله لكي يخلع نعليه لأن الأرض التي كان واقفاً عليها صارت مقدسة بحلول الله. فكم وكم تكون مقدسة صورته مع أُمِّه العذراء؟!

١١١٨ . إن الصور قصة مقروءة وتذكار دائم.

لماذا أمر الرب بعمل تابوت مصفح بالذهب، وخشبه يكون غير قابل للتلف، ويوضع داخله علامات خاصة كقسط الذهب المملوء بالمن وعصاة هرون التي أزهرت وأثمرت، ولوحي العهد المكتوبَيْن بأصبع الله؟

أَلم يكن هذا الترتيب لحفظ تذكار عمل الله مع بني إسرائيل؟ مَنْ يقول إن التابوت بما فيه لم يكن صورة مبشِّرة ومعلِنة لقصة علاقات الله مع شعبه؟

أَلم يحل الله على غطاء التابوت بين الكاروبَيْن، وكلَّم موسى ويشوع ورؤساء الكهنة؟

أَلم يقع يشوع أمام التابوت ساجداً على وجهه من الصباح إلى المساء؟

أَلم يضرب الرب «عَزَّة» لأنه تجرأ ولمس التابوت لمساً، وأماته أمام التابوت لاستهانته بقداسة تابوت الله الذي لم يكن يحل لمسه إلا للكهنة وبني لاوي؟

أَلم يرقص أمامه داود مسبِّحاً بآلات الفرح وقال: إني رقصت أمام الرب؟ (٢صم ٦: ٥ و ٢١).

وواضح في هذا كله أن الشعب لم يكن يعبد الخشب الجيد أو الذهب المصفَّى اللامع أو المن أو الحجر.

وواضح أيضاً أن قوة الرب كانت حالَّة على التابوت بعد دَهنه بزيت المسحة.

١١١٩ . أمر الرب أن يؤخذ اثنا عشر حجراً من قاع نهر الأردن بعد أن انفلقت مياهه وعبر بنو إسرائيل، لتُقام كشاهد ومذكِّر للأجيال القادمة بعمل الله مع شعبه قائلاً: «تكون هذه علامة في وسطكم، إذا سأل غداً بنوكم قائلين ما لكم وهذه الحجارة؟ تقولون إن مياه الأردن انفلقت أمام تابوت عهد الرب فتكون الحجارة تذكاراً.» (يش ٤: ٦ و ٧).

كيف، إذن، لا نرسم آلام المسيح حتى إذا سألني ابني ما هذا، أقول له إن الله أخذ جسداً كما لنا وتألم وصُلب، ليس لكي يعبر بنو إسرائيل الأردن ولكن لكي تعبر البشرية جميعها من الموت إلى الحياة؟

١١٢٠ . إن مَن يرفض أن يعطي لصورة الله أو أحد قديسيه ما تستحق من كرامة، فإنه مؤيَّد بفكر شيطاني. لأن الصورة هي تذكار وإعلان عن أمر إلهي، وتسبيحٌ صامت له.

١١٢١ . إنه مستحيل أن يكمل فرحنا وتهليلنا الروحي بدون ذكر الرسل والقديسين وأعمالهم، لأنهم هم تعبوا ونحن دخلنا على تعبهم. وفي أثناء حياتهم كان الروح القدس هو العامل فيهم، وعندما انتقلوا بأرواحهم بقي عمل النعمة وأثره في أجسادهم؛ فعظام إليشع أقامت الميت وذلك ليس بطبيعتها المائتة وإنما بعمل النعمة الكائن فيها.

١١٢٢ . إن ظِلَّ الرسل وعصائبهم ومناديلهم كانت تشفي المرضى وتُخرج الأرواح الشريرة، فكيف لا تكون صورهم مقدسة وممجدة معاً؟!

١١٢٣ . إذا كانت صورة الملك تُحترَم كالملك، وعند ظهورها يقف الجميع إجلالاً وإكراماً، ومَن يستهزئ بها يُعاقَب بشدة، فكيف لا تكون صورة المسيح مستوجبة السجود والوقار، وصور القديسين مستحقة الاحترام والكرامة!

كان الشياطين يرتعبون من القديسين ويفرون من أمامهم، بل ومِن ظلِّهم إذا خيَّم عليهم؛ أفلا تكون صورهم كظلِّهم؟

إلى الآن ترتعب الشياطين من صور القديسين، وتفزع منها صارخة وتخرج من المصابين بخزي وفضيحة. كما تفزع أيضاً من صورة الصليب ومن الزيت المقدس والماء المصلَّى عليه.

١١٢٤ . إعلموا يا أحبائي أننا حينما نسجد للصليب فنحن نسجد للمصلوب وليس للخشب، وإلا كنا ملزمين أن نسجد لكل شجرة في الطريق.

إن الصليب والأيقونات ليست آلهة نعبدها وإنما هي تدعونا لعبادة الإله الحي وحده.

الذي يكرِّم والدة الإله فهو يكرِّم الله. والذي يكرِّم القديس فقد كرَّم القداسة. مكتوب أن جميع الأجيال

ستطوّب العذراء، وأن المسكونة كلها ستذكر المرأة التي دهنت قدمي المسيح بالطيب.

١١٢٥ . نحن لا نجرؤ أن نلمس الحديد المحمَّى بالنار؛ ليس خوفاً من الحديد بل خوفاً من النار. كذلك نمجد الله في صورته، ونكرم أشخاص القديسين في صورهم؛ ليس من أجل الورق والألوان، ولكن لأجل هيبة اللاهوت والقداسة.

مَن سمع أن إنساناً عَبَد الموت أو سجد للآلام؟ نحن لا نسجد للمنظر المحدود الذي تبرزه الصورة وإنما نعبد من تألم ومات.

١١٢٦ . حينما ندخل الكنيسة متعبين من أفكار كثيرة وهموم الحياة المتعددة، ونقف نتأمل في الأيقونات المقدسة، تمتلئ نفوسنا هدوءاً وسلاماً، وتعترينا نشوة الغيرة لحياة القداسة والسير في أثر هؤلاء المجاهدين الذين تكللوا بالمجد، ثم نسجد أمام الله باتضاع وانسحاق طالبين أن نتشبه بهم، وحينئذ نسمع من الداخل صوت التشجيع.

يوحنا الدمشقي

الفصل الرابع

الشموع

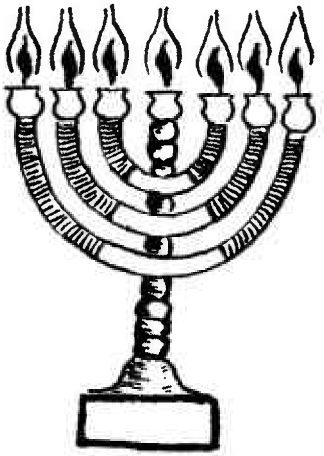

+ «رأيت سبع منایر من ذهب وفي وسط السبع المناير شبه ابن إنسان... المناير السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس» (رؤ ۱: ۱۲ و ۱۳ و ۲۰)

+ «يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجنا لاستقبال العريس» (مت ٢٥: ١)

+ «لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسُرُجُكم موقدة» (لو ١٢: ٣٥)

+ «كان هو (يوحنا) السراج الموقد المنير وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة» (يو ٥: ٣٥)

تعبِّر الشمعة تعبيراً تصويرياً دقيقاً عن وقفة العابد أمام الله! فهي تظهر هادئة ساكنة وقلبها يظل يشتعل اشتعالاً بنار ملتهبة تحرق جسمها البارد الصلب فتذيبه إذابة، وتسكبه من فوهتها دموعاً، تنحدر متلاحقة تاركة خلفها هالة من نور يسعد بها كل مَن تأمل فيها أو سار على هداها.

والشمعة كالعابد ليس لها فخر في ذاتها فهي معتمة لا نور لها باردة لا حرارة فيها وتظل كذلك إلى أن نلهب قلبها بشعلة من نار، حينئذ تلتهب وتضيء فتبدد حُجُب الظلام المحيطة وتبعث الحرارة والدفء إلى مَن حولها!

فطبيعتها بدون عمل النار تافهة مهملة كطبيعة الإنسان بدون عمل النعمة، حتى إذا اشتعلت بالنار صارت من طبيعة النار وأنارت لا بطبيعتها الأولى وإنما بطبيعة النار المتحدة بها.

إن شمعة موقدة في بيت الله هي دعوة للعبادة الهادئة الحارة المنيرة.

لمحة تاريخية عن إيقاد الشموع في البيعة الطاهرة:

أول ذكر لاستخدام الشموع في الكنيسة استخداماً طقسياً بعد ما جاء في سفر الأعمال (٢٠: ٧ و ٨) إنحدر إلينا من مخطوطات القرن الثالث، وذلك ضمن وصف طقوس إقامة الصلوات في ذكرى الشهداء تكريماً وتحيةً لأرواحهم التي أضاءت في العالم ساعة ثم انطفأت «لتضيء كالجَلَد في ملكوت الله».

ولقد أسرف المؤمنون أحياناً في إحراق الشموع في كنائس المقابر التي للشهداء مما أدى إلى إصدار قانون خاص رقم ٣٤ في مجمع إلليبريس Illiberis سنة ٣٠٥م، يمنع إحراق الشموع أثناء النهار في المقابر حتى لا يتضايق المؤمنون من كثرة النار. وقد مال بعض الشراح لتفسير هذا القانون على أنه إمعان في إخفاء إجتماعات المسيحيين عن أعين الوثنيين.

وعندما قام أحد العلماء الأسبان ويسمى «فيجلانتيوس»، الذي من برشلونة، بانتقاد عادة إحراق الشموع لتكريم أرواح الشهداء؛ انبرى له القديس چيروم وكتب رسالة ضد

فيچيلانتيوس، يحبذ إحراق الشموع في الصلوات والتذكارات التي للشهداء مشبهاً إحراق الشموع بإهراق قارورة الطيب على جسد المسيح.(١)

أما استخدام الشموع في طقس الصلوات داخل الكنيسة وخصوصاً في الأعياد، فنقرأ عنه في كتابات القديس پاولينوس الذي من نولا، والتي ترجع إلى سنة ٤٠٧م، وقد وصف كيف كان يقدم الشموع بنفسه:

[فالمذبح كان بهياً مضيئاً بشموع كثيرة، وكانت تحُرَق بخور ممزوجة بشمع وببيرس، وكانت تضاء بالليل والنهار فكان الليل كأنه نهار والنهار يصير بهياً كالسماء.](٢)

وفي إحدى كتابات القديس إبيفانيوس قصة يظهر فيها كيف كانت الكنائس تتميز بالشمع المضيئة في أيامه (القرن الرابع):

[بينما كان سائراً وجد بيتاً مضيئاً بالنهار فلما سأل عن هذا المكان أخبروه أنها كنيسة.] (رسالة إلى يوحنا هيروس)

وفي القرن السابع نسمع في إيطاليا عن حمل الشموع في مسيرة الأسقف عند دخوله الهيكل لبدء الصلاة وأمامه سبعة شمامسة حاملين شموعاً مضيئة(٣)، وعند لحظة دخول الهيكل ينقسم الشمامسة أربعة إلى اليمين وثلاثة إلى اليسار ليعبر الأسقف في الوسط ويدخل الهيكل، وعند خروج الشماس لقراءة الإنجيل يسبقه شماسان حاملان شمعتين مضيئتين كرامةً للإنجيل.(٤)

وفي تاريخ بابوات روما نقرأ عن الترتيبات الفصحية التي رتبها البابا زوسيموس سنة ٤١٧م عن كيفية صلاة تكريس الشموع ليوم سبت النور وشموع الفصح(٥). وفي أخبار غريغوريوس الكبير سنة ٦٠٥م وُجدت رسالة فيها يرتب كيفية الصلاة على الشموع(٦)، وضرورة إضاءة جرن المعمودية ليلة الفصح بشموع تُضاء من قناديل الكنيسة وليس من خارجها.(٧)

وفي خطاب لهدريان الأول سنة ٧٧٢م يُفاد أنه كان محظوراً على الكهنة لبس ملابسهم

(1) *Contra vig.*, ch.8
(2) Poem XIV,
(3) Ordo. Rom., 1, 5
(4) *Ibid.*, 1, 11.
(5) *Biblioth.* pp. VII, 1358.
(6) *Epist.* XI, 28, al. 33.
(7) *Epist.* XII

للخدمة لليلة الفصح قبل أن تُضاء الشموع المخصصة لهذا المساء والمكرسة بصلوات مخصوصة.

كما نسمع عن ضرورة طقس إيقاد الشموع ليلة الفصح في الطقس الأسباني في مجمع توليدو . في مؤرخات إسيذور الأشبيلي سنة ٦٣٣م . بترتيب بديع يدخل في صميم معاني الفصح، إذ يبتدئ الأسقف الصلاة باحتفال إيقاد الشموع ثم يدخل الكنيسة مع خورس من المسبِّحين قائلين: «أيها النور الحقيقي». ويشرح الأسقف إسيذور الأشبيلي القيمة السرية لمعني تقديس الشموع وإنارتها بالنسبة لمضمون القيامة والنور الذي انبعث منها على العالم.

وفي إحدي المخطوطات التي تسرد أخبار رحالة إنجليزي زار روما سنة ٦٩٨م، يذكر أن شمعة الفصح الكبيرة كان يُحفر عليها عدد السنين التي مضت منذ الفصح الأول، ويذكر أنه رأى الشمعة مكتوباً عليها: «قد مضى ٦٦٨ عاماً على قيامة المسيح».(٨)

وأما في طقس المعمودية فنقرأ أيضاً عن تقديس الماء بشمعة الفصح، إذ تُستَحضر شمعة الفصح الكبيرة وتُغمس من أسفلها في الماء علامةً على حضور الروح القدس.(٩)

كما يُعطَى لكل معتمد بعد عماده شمعة مضاءة من شمعة الفصح تعبيراً عن الإستنارة التي حصل عليها بالعماد.

وبانتهاء المعمودية وحمل الشموع المضاءة يبدأ قداس الفصح مباشرةً، وإلى مدة سبعة أيام بعد الفصح يواظب المعمدون على الحضور إلى الكنيسة للإشتراك في الإفخارستيا بملابسهم البيضاء، ويدخلون الكنيسة وفي أيديهم الشموع المضاءة.(١٠)

وطقس هذه الشموع المضاءة في المعمودية ومعناه الروحي قديم جداً، تبدأ أخباره عندنا منذ القرن الرابع في عظات القديس كيرلس الأورشليمي سنة ٣٥٠م، وفي أقوال للعلامة زينو الذي من فيرونا سنة ٣٦٠م، في رسالة للقديس أمبروسيوس سنة ٣٧٤م لعذراء انحرفت فيقول لها فيها:

[هل نسيت يوم القيامة المقدس الذي فيه قدَّمتِ نفسكِ إلى مذبح الله؟ هل نسيتِ هذا الإحتفال المهيب في الكنيسة بين الأنوار الكثيرة المتلألئة في أيدي المعمَّدين وكنتِ واحدة بين المجنَّدات للملكوت

(٨) المؤرخ: Bede

(9) Pseudo - Alcuin de Div. off.

(10) Alcuin Ep. ad. car. magn.

الله وكعروس للملك؟](١١)

ونقرأ لغريغوريوس النزينزي سنة ٣٨٥م:
[... إن ملابسنا البيضاء وحَمْلَنا للشموع المضاءة في احتفالنا الذي عيَّدنا له بالأمس عامة وخاصة بكافة الرتب الكبيرة والصغيرة وقد أضأنا الليل بأنوار الشموع الغزيرة...](١٢)

أما عن علاقة الشمعة المضيئة بالإنجيل فنقرأ عنها مبكراً جداً في أقوال القديس چيروم سنة ٣٧٨م كأمر مستقر في الشرق منذ القدم:

[في جميع كنائس الشرق عندما يُقرأ الإنجيل تضاء الشموع حتى ولو كان نور الشمس يملأ الكنيسة، فالإضاءة ليست لتبديد الظلمة وإنما لإعلان الفرح، ولكي يكون النور المنظور إعلاناً وشهادة عن نور الإنجيل غير المنظور].(١٣)

ولكن أول إشارة عن طقس النور الذي يسبق الإنجيل في الغرب نقرأ عنه من ساقيل الأشبيلي سنة ٦٣٦م، ومن أسبانيا انتقل الطقس إلى روما.

أما بخصوص طقس إيقاد الشموع في مراسيم الجنازات فهو قديم في الشرق أيضاً، ونقرأ عنه في تاريخ يوسابيوس عن «حياة قسطنطين الملك»: [وأضاءوا شموعاً في شمعدانات من الذهب ووضعوها حول جثمانه].

وغريغوريوس النيسي يصف مشهد جنازة أخته القديسة ماكرينا سنة ٣٧٠م:
[واصطف أمام النعش عدد غفير من الشمامسة ومساعدي الشمامسة في صفين، ملازمينه من المنزل في نظام والكل يحمل شموعاً مضاءة.](١٤)

والقديس چيروم يصف مشهد جنازة القديسة پولا سنة ٣٨٦م بوصف مؤثر للغاية:
[وحُمِلت جثتها بيد الأساقفة أنفسهم ووضعوها في النعش وأبوا إلا أن يحملوا النعش على أكتافهم في حين كان باقي الرتب يحملون الشموع أمام النعش.](١٥)

(11) De Laps. virg. V. 19.
(12) Ins. Pascha XIV, 2.
(13) Cont. Vigilant ch. III.
(14) De Vit. S. Macr.
(15) Ad. Eustoch. Ep. CVIII, ch 29.

ويوحنا ذهبي الفم يقول في مسيرة الشموع أمام الراحلين الأتقياء:

[قل لي لماذا نسير بالشموع أمام هؤلاء، أليس لأننا نستودعهم كأبطال؟][١٦]

ويقص علينا المؤرخون الكنسيون في الشرق والغرب على السواء قصصاً واقعية لا حصر لها تفيد أن الشموع والقناديل التي كانت تُضاء أمام أجساد الشهداء والقديسين، وبالأخص عندما تُكتَشف لأول مرة وتُعمل لها كنائس خاصة، كانت المعجزات التي تُجرَى بواسطة الزيت المتبقي منها شيئاً يفوق الحصر.

ومن الأخبار الطريفة قصة ذلك الأعرج الذي دهن رجله بزيت قنديل في كنيسة للقديس اسطفانوس الشهيد فشُفي في الحال، فأضاء شمعة وترك عكازه هدية للقديس، فصار مزاراً خاصاً في الكنيسة.[١٧]

أما بخصوص طقس إيقاد الشموع أمام الأيقونات، فكان بطبيعة الحال البديل الوحيد لتكريم سيرة هؤلاء الشهداء والقديسين الذين لا نعرف مقر أجسادهم الطاهرة.

وعندنا قصة محققة لغريغوريوس الذي من تور من القرن السادس تصف حالة شفاء تمت بواسطة زيت القنديل المضاء أمام أيقونة القديس مارتن في كنيسته براڤنا.[١٨]

كما يذكر أنه كان للقديس مارتن مذبح مكرَّس لذكراه وأمامه شباك صغير معلَّق فيه قنديل مضاء باستمرار.[١٩]

وفي أخبار المُرج ليوحنا موسخوس سنة ٦٣٠م نقرأ عنه أنه كان إذا ما دخل أية كنيسة يوقد شمعة أمام أيقونة العذراء (فصل ١٥٥).

وفي رسالة للبطريرك جرمانوس الذي كان على القسطنطينية سنة ٧١٥م يقول لأحد الأساقفة:

[ينبغي أن لا يعثر أحد في هذه الشموع المضاءة والبخور الزكي الذي يُعطَى أمام الأيقونات، لأن هذه الطقوس إنما جُعِلت لتكريمهم... فالنور المنظور يعبِّر عن عطية النور الإلهي الذي كان فيهم، وحرق البخور الزكي أمامهم يرمز إلى إلهامهم ومعرفتهم الطاهرة والكاملة وامتلائهم من الروح القدس.][٢٠]

(16) Epist. Heb., Hom. 4.
(17) Evodius Miraches, I: 4.
(18) De Meracl. St. Martin I, 15.
(19) De Gest. Longal., II, 13.
(20) Epist ad thomam in Labbe. conc., VII., 313.

كما نقرأ في تاريخ الكنيسة باستمرار قصصاً لا حصر لها عن استخدام إيقاد الشموع وتقديم البخور أمام الأيقونات كاعتراف بالشكر على معروف أكمله أحد القديسين مع أحد الناس.

وفي تاريخ البابوات قصة عن البابا سرجيوس الأول سنة ٦٨٧م، وكان من أصل سرياني في أنطاكية، فقد رتب يوم ٢ فبراير عيداً للقديس سمعان الشيخ سُمي بعيد «هيبابنتا». وكانت تُقدَّم فيه الشموع بكثرة حتى سُمَي بعد ذلك بعيد الشموع. وهو العيد الموافق لتطهير العذراء حسب الناموس (لو ٢: ٢٢-٢٤).

وقد عثرنا على صلاة طقسية قديمة العهد لتبريك مقدمي الشموع والأنوار، وهي من ترتيب كنيسة تور بفرنسا من القرن السابع تقول: [أيها الرب الأبدي النور الحقيقي صانع النور وواهبه، أسكب نورك الحقيقي الدائم في قلوب المؤمنين بك. واسمح بأن كل مَن يزين هيكل مجدك المقدس بنور (شمعة أو قنديل) أن يخرج مطهراً من كل الشرور حتى يصبح قادراً أن يتراءى أمامك بعد ذلك ومعه ثمار أفضل بالأعمال الصالحة في هيكل مجدك السمائي في مسكنك الأعلى.][٢١]

والمشتغلون بالحفريات والآثار يخبروننا عن مجموعات هائلة من القناديل الفخارية والزجاجية والبرونزية التي وجُدت، وعليها كتابات تفيد أنها من استخدام الكنائس وأزمانها تبتدئ من القرن الرابع فصاعداً. وقد اختصت الحفريات المصرية بالعدد الهائل منها الذي تزدحم به متاحف أوروبا. وقد وُجدت على أشكال ورموز لتعبِّر عن أمور روحية، فمنها ما هو على شكل كأس الإفخارستيا إشارة إلى النور المنبعث من جسد المسيح ودمه، ومنها ما هو على شكل نخلة أو غصن نخلة إشارة إلى الآية الطقسية المستخدمة: «الصديق كالنخلة يزهو»، ومنها ما هو على شكل نجمة إشارة إلى النور الذي أضاء في العالم بالميلاد. ومنها ما هو على شكل سفينة نوح إشارة إلى الكنيسة كمصدر خلاص.

أما الكتابات التي وُجدت عليها فعديد منها:

(١) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «القديس بولي إيڤاكتو» مع نجمة تتوسط الرسم، وقد وُجِد في كنيسة قفط بالصعيد.

(٢) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «الأبَّا القديس سرجيوس».

(21) Martene de Ante. Eccl. Rit., IV, 15, 5.

(٣) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «الأمّا القديسة كرستينا».

(٤) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «القديس سيرياكوس».

وهذه المصابيح موجودة حالياً بالمتحف البريطاني، كتالوج الفخار (١: ص٥٢).

وفي متحف ليدين يوجد مصباح قنديل مصري محفور عليه باليونانية كلمة معناها «نور الأنوار». ومصباح قنديل مصري آخر مكتوب عليه باليونانية كلمة معناها «معرفة اللاهوت نعمة الله».

وفي Bib. Imper. p. 107 مصباح قنديل مصري وُجد في مجموعة الأب جربو وعليه حفر على شكل ضفدعة وأمامها صليب وكلمات يونانية ترجمتها: «أنا هو القيامة»، حيث الضفدعة ترمز إلى القيامة بسبب كونها لما تموت يظهر مكانها ضفدعة حية أخرى (حيث أن البيضة التي تُفقَس منها الضفدعة لا يمكن أن يلاحظها أحد).

وفي متحف اللوفر بفرنسا عينات كثيرة من المصابيح التي كانت تُستخدم كقناديل في الكنائس، وقد جُمعت من الجزائر وتونس وعليها رسومات على شكل الفتية الثلاثة وهم في أتون النار ومعهم الملاك الرابع شبه ابن الله، وأخرى عليها رسومات بهيئة المجوس والنجم يتقدمهم.

ومن هذا العرض المختصر لأنواع الكتابات المحفورة على المصابيح والقناديل يتبين لنا مكانة النور في العبادة والرموز السرية العميقة التي تشير إليها.

والمعروف في الطقس الكنسي القديم أنه أثناء إيقاد الشموع أو القناديل كانت تُقال صلوات خاصة في كل مناسبة مثل: «لأنك أنت يا رب سوف تضيء شمعتي أيها السيد الرب إلهي، أجعل هكذا ظلمتي نوراً».

«الرب نوري وخلاصي ممن أخاف».

أقوال الآباء عن الشموع:

١١٢٧. توقد الشمعة وتضعها أمام الأيقونة المقدسة وتعقد في قرارة نفسك أنك قدمت خدمة لله. ولكن ما معني هذه الخدمة؟ وكيف يكون في هذا العمل مسرة للّه أو للقديس؟

إنه هو أنت، يا عزيزي، لأنك قدمت برهاناً على غيرتك الروحية المتقدة وإيمانك العميق!

فيلارت (مطران موسكو)

١١٢٨ . الشموع الموقدة على المذبح هي علامة نور الثالوث الأقدس. لأن الله لا يسكن إلا في النور، ولا يقترب إليه الظلام، لأنه ناراً آكلة تحرق كل ما هو خطية أو شر.

الشمعة الموقدة أمام أيقونة المسيح تعلن أن المسيح نور العالم: ينير لكل إنسان آت إليه (يو ١ : ٩).

والشمعة الموقدة أمام أيقونة العذراء تعلن أن هذه هي أم النور.

والشمعة الموقدة أمام أيقونة القديس تعلن أن هذا هو السراج المزين المنير الموضوع على المنارة في أعلى البيت ليضيء لكل مَن فيه.

نوقد الشموع كعلامة رمزية لاشتعالنا بغيرة قداستهم وحبهم وتقديم آية ملموسة من آيات التكريم والوفاء والتسبيح الصامت والشكر على ما يقدمونه نحونا من شفاعة أمام منبر المسيح.

١١٢٩. إنه حسن أن نوقد الشموع أمام الأيقونات، ولكن يجب أن يكون ذلك مقترناً بغيرة القلب واشتعاله بالقداسة كالشمعة التي تلتهب لتضيء.

وما المنفعة أن نقدم الشموع الكثيرة أمام الأيقونات وليست فينا محبة عملية نحو الله، أو نكون مبغضين لأحد الناس، أو طماعين ومحبين للمال؟

١١٣٠ . لا تحتقر أو تستصغر إيقاد شمعة أمام الأيقونة أثناء الصلاة، واذكر أنك تقدمها لرب العظمة الساكن في النور غير المقترَب إليه. وهذه الشمعة ذاتها ما هي إلا هبة من هباته، فمن يديه تأخذ وتعطيه!

تقديم الشمعة هو بمثابة ذبيحة شكر، كناية عن تقديم النفس كذبيحة حية مقدسة طاهرة أمامه؛ كما قيل عن يوحنا السابق أنه كان كمصباح ينير أمامه.

١١٣١. نقدم الشموع أمام الأيقونات توسلاً أن تكون حياتنا منيرة، متشبهين بالعذارى الحكيمات ذوات المصابيح المضيئة، ومتممين وصية الرب أن تكون سُرُجنا موقدة لتحفزنا على الصلاة والسهر.

حينما أُشعل الشمعة بالنار، أرجو أن يمنحني الله قلباً مشتعلاً بنار الغيرة المقدسة والحب الطاهر لتحرق الشهوات والخطايا في داخلي.

حينما أثبِّت الشمعة في موضعها فتظل تشتعل وتضيء، أودُّ من كل نفسي أن أدوم هكذا منيراً لمن هم حولي ومعي.

هذا هو شعوري حينما أقدم الشمعة، واثقاً أني حتماً سأنال نعمة ومعونة من هؤلاء القديسين المكلَّلين بالمجد. ألم يذكر الكتاب قانون تبادل العطية: «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم ويُفاض!» (مت ٧: ٢).

١١٣٢. إني إنسان ضعيف وجسدي مملوء خطية ولا أستطيع أن أقدم كل حين قلباً مضطرماً بالغيرة ونار القداسة. فأنا بالأقل جداً أقدم تقدمة جسدية ترمز لاشتياق نفسي الداخلي لحياة القداسة والفضيلة حتى ينظر الرب من السماء إلى هذه الشمعة الموقدة ويجعلني أنير مثلها «بنورك يارب نعاين النور»، فهو الغني وحده وأنا المسكين البائس والعريان. هو الساكن في النور الأعظم وأنا الجالس في ظلمة الخطية.

كل ما أملك هو اشتياقي للفضيلة وغيرتي من نحو القداسة.

الأب يوحنا ك.

١١٣٣. ليت قلبنا يضطرم بنار وحياتنا تضيء كنور أمام الرب الإله كشمعة موقدة أمام أيقونته المقدسة.

الأب صاروفيم ص.

الفصل الخامس

البخور

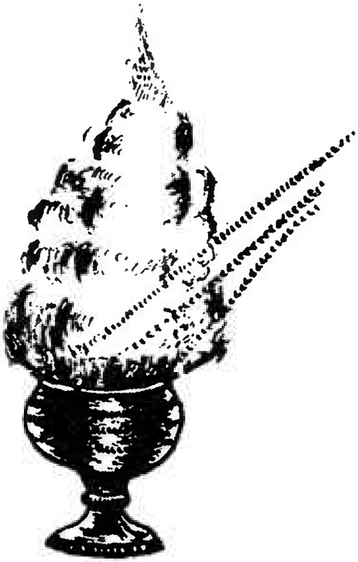

+ «فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين» (رؤ ٨: ٤)
+ «لترتفع صلاتي كالبخور قدامك» (مز ١٤١: ٢)
+ «فتنسم الرب رائحة الرضى» (تك ٨: ٢١)
+ «لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يُقرَّب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة. لأن اسمي عظيم بين الأمم قال رب الجنود» (مل ١: ١١)
+ «ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته» (نش ١: ١٢)

للبخور قيمة عملية في الصلاة. لذلك أمر الرب موسى أن يُقدِّم في العبادة اليومية بخوراً طيباً بحرقه على مذبح من ذهب في مجمرة من ذهب:

«تصنع مذبحاً لإيقاد البخور... تغشيه بذهب نقي سطحه وحيطانه حواليه وقرونه. وتصنع له إكليلاً من ذهب حواليه... يوقد عليه هرون بخوراً عطراً كل صباح... وفي العشية يوقده بخوراً دائماً أمام الرب في أجيالكم.» (خر ٣٠: ١.١٠)

«وقال الرب لموسى خذ لك أعطاراً مَيْعَة وأظفاراً عطرةً ولُبَاناً نقياً، تكون أجزاءً متساوية، فتصنعها بخوراً عطراً صَنْعة العطار مملَّحاً نقياً مقدساً. وتسحق منه ناعماً وتجعل منه قدام الشهادة في خيمة الإجتماع حيث أجتمع بك.» (خر ٣٠: ٣٤.٣٦)

وأمر الرب أن لا يُقدَّم بخور إلى أحد سواه فجعله قدساً له: «قدس أقداس يكون عندكم والبخور الذي تصنعه على مقاديره لا تصنعوا لأنفسكم. يكون عندك مقدساً للرب. كل مَن صنع مثله ليشمه يُقطَع من شعبه.» (خر ٣٠: ٣٦.٣٨)

لذلك صارت رائحة البخور دائماً مقترنة بالشعور بوجود الله، توحي إلى الإنسان بحلوله.

فبمجرد أن تفوح رائحة البخور تبتهج النفس وتتهلل الحواس الداخلية إيذاناً للشعور بالوجود في حضرة الله.

وكأنما رائحة البخور الزكية هي رائحة الرب كما يقول سفر نشيد الأنشاد: «ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته!» (نش ١: ١٢)

لذلك حينما يستنشق الإنسان رائحة البخور، تمتد النفس في تأملها بحواسها الداخلية نحو الله لتنعم برائحة صفاء الأبدية.

هكذا الله بتحننه لم يحرم الإنسان من استخدام حواسه الظاهرة في الامتداد بها لسبق تذوُّق أنعام الخلود.

كم من نفس متعبة دخلت الكنيسة، فَسَرَتْ فيها موجة من الهدوء حينما غشيتها سحابة البخور المقدس المتصاعد من المجمرة في يد الكاهن!

كم من نفس مرتبكة بهموم هذه الحياة، أحست برفعة خاصة حينما تابعت حلقات البخور وهي ترتفع صاعدة نحو السماء!

وإن كانت العين الساذجة لا ترى في البخور إلا مجرد دخان طيب الرائحة تختفي حلقاته في الهواء، إلا أن عين النفس المكسوفة التي وُهبت روح التأمل تراه صاعداً حتى السماء محمَّلاً بصلوات القديسين ترفعه أيدي جماهير الملائكة المقدسين بتهليل وتسبيح:

. «وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأُعطي بخوراً كثيراً لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذي أمام العرش فصعد **دخان البخور** مع صلوات القديسين من يد الملاك أمام الله» (رؤ ٨: ٣و ٤).

لمحة تاريخية عن البخور في العبادة:

كان لترتيب الله لاستخدام البخور في العهد القديم مكانة أولى وعظمى في العبادة الطقسية، وكعمل روحي صميمي يشرح ويعبِّر عن روح الصلاة والانسكاب وتقديم أفخر ما لدى الإنسان للّه بسرور وشكر ورضا. وتقْدمة البخور لا ترمز في حد ذاتها إلا إلى الصلاة الشاكرة الراضية.

وبتحوُّل العبادة من العهد القديم إلى العهد الجديد لم يتحول مفهوم تقديم البخور في الصلاة كصلاة، بل بقي كما هو يعبِّر عن العلاقة الأساسية التي تربط الإنسان بالله.

أما الذي دعا بعض علماء الطقوس ونُقَّادها إلى الشك في استخدام البخور في الكنيسة في القرون الأربعة الأولى، معتمدين في شكِّهم على عدم ورود أي تفصيلات في كتابات الآباء عن هذا الطقس أو أي ذكر واضح للبخور واستخدامه في العبادة، فهذا الشك لا ينبني على أساس للأسباب:

أولاً: لأن من الأمور المعروفة لدارسي التقليد الكنسي أنه كان ممنوعاً بل ومحرماً تحريماً قاطعاً كتابة أية تفصيلات عن كافة الأسرار الكنسية حتى لا يطَّلع عليها الوثنيون ويتخذونها مجالاً للطعن والتشكيك، حتى أن الموعوظين المتقدمين للمعمودية لم يكن يجوز أن يُلقَّنوا أي

شيء عن سر العماد حتى إلى ما قبل عمادهم بليلة واحدة!! وظل هذا التقليد سارياً حتى القرن الرابع، لذلك كان من الطبيعي أن تخلو كتابات الآباء من ذكر البخور بالتفصيل.

ثانياً: كل التفصيلات عن الأسرار وشرحها وممارستها كانت تدخل ضمن التقليد الشفاهي السري في الكنيسة، وكان لا يجوز تسليمها إلا للمؤمنين فقط، وكانت تُلقَّن بالفم والممارسة تلقيناً فردياً وليس جماعياً. وكان يؤخذ عهد على المؤمن أن لا يبوح بهذه الأسرار. لذلك ظل طقس البخور سارياً ومستمراً دون أن يكون للشعب أو العلمانيين على وجه العموم أية معرفة خاصة بتفصيلاته لأنها كانت لا تُسلَّم إلا للكهنة فقط باعتباره أنه يدخل في سر الكهنوت.

ثالثاً: بخصوص ذكر استخدام البخور في العبادة داخل الكنيسة عثرنا على بعض شهادات آبائية واضحة من القرون الثلاثة الأولى تثبت أن البخور كان مستخدماً في الكنيسة، وها نحن نقدمها للقارئ:

(١) عند تولي القديس ديمتريوس الأول الكرَّام البطريرك الإسكندري الثاني عشر (١٩١ - ٢٢٤م) الخلافة المرقسية، وكان ذلك في سنة ١٩١م، تذمر الشعب لكونه متزوجاً، فأوحى إليه الملاك أن يُثبت للشعب بتوليته، فأخذ المجمرة (الشورية) وهي متقدة ناراً وقلَبها مع بخورها في كُمِّه وكُمِّ زوجته، وطافا البيعة كلها أمام المؤمنين دون أن يحترق قماشهما، فهدأ الشعب ومجَّد الله وعلم أنه مستحق بالفعل لكرامة البطريركية. وفي هذه القصة المدوَّنة في المخطوطات القديمة في «تاريخ البطاركة» ما يؤيد استخدام البخور في الطقس الكنسي.

(٢) في الكتاب المعروف باسم «تعاليم الرسل» (من مدوَّنات القرن الرابع) الذي يحتوي على جزء هام من مدوَّنات القرن الثاني والمنسوب ليهود الإسكندرية المتنصرين (الثيرابيوتا)، تحتوي الترجمة العربية له على تعاليم الرسل مضافاً إليها ترتيب الخدمة الكنسية في ذلك الوقت، ويشرح بكل وضوح وتفصيل استخدام البخور في الكنيسة في أوقاته المعينة، وفيه ينص على أنه كان على الأسقف أن يبخر الهيكل بنفسه أما الكاهن فيبخر البيعة. فمهما قيل بأن هذا الطقس أضيف على المخطوطات في القرن الرابع فهذا مجرد ظن لا يؤيده أي برهان. ومعروف أن التقليد الكنسي استلمه الرهبان في مصر منذ بدايته ولم يتزحزح عن حدوده. وكان من المستحيل إدخال طقس كامل برُمَّته كطقس رفع بخور باكر وعشية داخل الكنيسة بعد مرور ثلاثة أو

أربعة قرون من تداول التقليد بدون قرار مجمع أو تدخل سلطان إلهي واضح، فهذا يُعتبر أمراً مُحالاً.

(٣) مما لا شك فيه أن الكنائس لم تكن في مجموعها في درجة واحدة من النضوج الطقسي وترتيباته، فالكنائس التقليدية، التي كانت نواتها كثرة من اليهود المتنصرين مثل مصر، بدأ التقليد الطقسي فيها قوياً ناضجاً منذ أول يوم. أما الكنائس التي كانت نواتها كثرة من الوثنيين والفلاسفة مثل شمال أفريقيا، فظل الطقس فيها بدائياً ضعيفاً حتى نهاية القرن الرابع، أي زمن التحام الكنائس جميعها بواسطة قوانين المجامع.

(٤) لذلك نجد أن غالبية الرجال الكنسيين الذين لم يهتموا بالبخور وانتقدوا استخدامه كانوا من الوثنيين والفلاسفة المتنصرين مثل أثيناغوراس وترتليان وكليمندس الإسكندري وأرنوبيوس ولكتانتيوس وأوغسطينوس، ولكن هذا لا يفيد على الإطلاق أن كنائسهم لم يكن فيها رفع بخور.

(٥) ولكن حتى ومن بين هؤلاء الفلاسفة المنكرين لأهمية البخور في العبادة، هناك مَن نجده يميل إلى تحليل قيمة البخور تحليلاً فلسفياً كشيء ذي أهمية. مثل ترتليان (سنة ١٩٨م) الذي يقول: [ولكن إذا كانت رائحة المكان غير مناسبة فأنا أضطر أن أحرق شيئاً من اللبان العربي ولكن بالكيفية والهيئة التي يُقدم بها للأوثان.](١)

كذلك يقول هذا العلاَّمة الفيلسوف مقارناً بين العبادة المسيحية والوثنية: [فإن كنا حقاً لا نشتري البخور، وإن كانت بلاد العرب تشتكي بسبب هذا، فالسبائيون (جنوب بلاد العرب) يشهدون بأن معظم تجارتهم الهامة (بخور من نوع آخر غير اللبان العربي المستخدم للأوثان) يستنزفها المسيحيون في دفن موتاهم أكثر مما يستخدمها الوثنيون في التبخير للآلهة.]

والملاحظ أن هؤلاء الفلاسفة الذين من أصل وثني يحاولون جميعاً بأقصى جهدهم أن يتساموا فوق الطقس الكنسي ليحولوه إلى روحيات مجردة، وهذا لسبب لا يخفى عن الباحث وهو عقدة الطقس الوثني الذي كانوا رازحين تحت اضطراراته، فنسمع مثلاً في لغة كليمندس الإسكندري سنة ١٩٢ م ما يفيد أنه يحاول إلغاء المفهوم الطقسي بأكمله

(1) De Cor. Mil. 10.

عند قوله: [إن المذبح المقدس الحقيقي هو النفس البارة والبخور الحقيقي هو الصلاة المقدسة.][٢]

[فإذا قال البعض إن الكاهن الأعظم، الرب، يُقدم الله بخوراً طيباً ورائحة لذيذة فليتهم لا يتوهمون أن هذا يعني أن الرب يقدم الذبيحة والرائحة اللذيذة كبخور، بل ليتهم يعلمون أن الرب يقدم على المذبح (السمائي) هبة المحبة المقبولة ورائحة الروح العطرة.][٣]

فهل يُفهم من ذلك أن كنيسة شمال أفريقيا التي كان يخدم فيها ترتليان لم يكن فيها مذبح أو هيكل أو صلاة بخور طقسية؟

(٦) وهناك شهادة صريحة لطقس رفع البخور في كتابات ديونيسيوس الأريوباغي التي يقطع العلماء بأنها من مدونات ما قبل سنة ٥٠٠ م إن لم يكن قبل ذلك بكثير، تقول: [أما الأسقف فعندما ينتهي من الصلاة المقدسة على المذبح الإلهي يبدأ التبخير عليه ثم يدور دورة كاملة حول المكان المقدس كله.][٤]

فهل يصف القديس ديونيسيوس بهذه الكلمات طقساً حديثاً في الكنيسة اخترعوه في أيامه أم طقساً مستقراً في الكنيسة منذ القدم؟

(٧) وهناك أيضاً شهادة من أقوال هيبوليتس الأسقف العام اللاهوتي والمشرِّع الكنسي المشهور (١٧٠ . ٢٣٦م) يقول فيها عند وصفه للأيام الأخيرة في محنة الكنيسة: [والكنائس أيضاً ستنوح وتولول ببكاء كثير لأنه لا يكون ذبيحة قربان ولا بخور يُقدَّم ولا خدمة مقبولة أمام الله بل تصبح الهياكل كناطور الكروم، ولا يكون جسد ولا دم وتتوقف الخدمة العامة ويبطل التسبيح بالأبصلمودية ولا تسمع قراءة أسفار، بل يكون ظلام للناس ونوح على نوح وويلات فوق ويلات.][٥]

(٨) كما توجد شهادة مماثلة من أقوال القديس باسيليوس الكبير سنة ٣٧٠م يصف فيها حالة الخراب والدمار الذي حل بالكنائس أيام الإضطهاد فيقول: [هدموا بيوت

---

(2) Stromata lib. VII, C VI, ch. 32
(3) Paedag. II, 8, 87.
(4) Hierarch. Eccl. (III sect. 2, sect. 3, ch.3).
(5) A.N. F., Vol. 5, p. 251.

الصلاة بأيديهم النجسة وحطموا المذابح وتوقف تقديم القربان والبخور عليها و لم يوجد مكان للذبيحة، والحزن المرعب خيَّم على الجميع كسحابة.](٦)

(٩) وشهادة أيضاً من أقوال القديس أمبروسيوس توضح هذا الطقس يقول فيها عندما يصف ظهور الملاك لزكريا الكاهن وقت تقديم البخور: [فليته يقف بجوارنا أيضاً ملاك يؤازرنا وقت حرق البخور على المذبح.](٧)

(١٠) وشهادة أيضاً من أقوال أفرآم السرياني (٣٠٦ . ٣٧٣م) المِلْفان الكنسي المشهور: [أتوسل إليكم أن لا تدفنوا جسدي بالأطياب، فالروائح الطيبة تليق ببيت الله، أحرقوا بخوركم في بيت الرب كرامةً له ومديحاً!](٨)

(١١) وفي ختام هذه الشهادات نقدم شهادة يوحنا الرسول، حسب الرؤيا التي رآها في حوالي نهاية القرن الأول، ووصف فيها كيفية تقديم البخور بطريقة جديدة وليس كالطريقة اليهودية القديمة. وهذا إشارة واضحة إلى الطريقة التي كانت مستخدمة في رفع البخور في الكنيسة في نهاية العصر الرسولي: «وقف **عند** المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأُعطي بخوراً كثيراً لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم.» (رؤ ٨: ٣)

(6) In Gordium Mart. Hom. XIX.
(7) Exp. Evang. St. Luke., 1, 28.
(8) Test. St. Ephr. Vit. Sanct. Feb., 1.

أقوال الآباء عن البخور:

١١٣٤. إن البخور الذي نرفعه على المذبح المقدس ونطوف به على الشعب والأيقونات المقدسة وأجساد القديسين يحمل معنى سامياً.

(١) فالبخور فوق المذبح يشير إلى عمل الروح القدس في تقديس الأمكنة وحلول نعمة الرب في هيكل قدسه؛ وهو إشارة إلى التطهير الذي تم بواسطة ذبيحته المقدسة التي قدمها عن جنس البشر؛ كذلك هو تنبيه لحلول الرب: «وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب. ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب. حينئذ تكلم سليمان: قال الرب إنه يسكن في الضباب.» (١مل ٨: ١٠-١٢).

(٢) وحينما نبخر أمام أيقونة القديسين فنحن نعبِّر عن أشياء كثيرة، منها:

. كيف صارت صلاتهم مقبولة أمام الرب كرائحة البخور العطر.

. وعن شركة صلاتنا معاً كاتحاد بين الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة في السماء: «فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين.» (رؤ ٨: ٤)

. وهو علامة توسُّل أن يذكرونا ويرفعوا صلواتنا أمام الجالس على العرش في السماء.

. وهو تكريم للروح القدس الذي عمل فيهم وقدسهم.

(٣) والبخور حول الشعب هو لتقديسهم ولرفع غضب الله عنهم بسبب الخطية:

. «فكلم الرب موسى قائلاً إطلعا من وسط هذه الجماعة فإني أفنيهم في لحظة، فخرَّا على وجهيهما. ثم قال موسى لهرون: خذ المجمرة واجعل فيها ناراً من على المذبح وضَعْ بخوراً واذهب بها مسرعاً إلى الجماعة وكفِّر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب فقد ابتدأ الوبأ... فوضع البخور وكفَّر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوبأ» (عدد ١٦: ٤٤-٤٨)

وحينما يضع الكاهن يده على رؤوس الشعب بالبخور فإنه يمنحهم بركة ليكفُّوا عن خطاياهم ويثبتوا في الكنيسة كأولاد في حضن أمهم.

(٤) إعطاء البخور للكهنة هو لأخذ بركة صلواتهم لتُرفَع مع صلوات الشعب كأعضاء في جسد واحد.

الأب يوحنا (ك.)

١١٣٥. حينما يبخر الكاهن أمام رئيس الكهنة فهل هو يبخر لله أم له كإنسان؟ بولس الرسول يقول أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم.

ورئيس الكهنة ليس شخصاً عادياً، وإنما هو مُفضَّل جداً إذ أنه ليس فيه روح الله فقط بل ويعطي الروح القدس للآخرين. وقد أعطي سلطاناً أعلى ليحل ويربط، ويكون ذلك نافذاً في الأرض وفي السماء ويغفر الخطايا فتُغفَر، ويمسكها على أصحابها فتُمسَك.

لذلك فالبخور إنما يُقدَّم لروح الله والسلطان الإلهي الذي يحمله لمجد الله.

أنبا يوساب الأبح

١١٣٦ . حينما نطوف بالبخور حول المذبح ونقدمه للأيقونات وأجساد القديسين والشعب، فإنما نحن نجمع صلوات الجميع كصوت واحد يحمله البخور المقدس، وترفعه الملائكة المنوطة بالخدمة مع صلوات وتشفعات العذراء الطاهرة مريم.

وهكذا تتقوى صلواتنا بصلوات وتشفعات القديسين.

١١٣٧ . حينما نشم رائحة البخور الزكية تجتمع حواسنا وتأخذ النفس نشوة روحية بتنسُّم رائحة الفضيلة والتقوى وحلاوة بيت الله. فنتنهد على خطايانا المرة، ونتذكر قول بولس الرسول:

. «شكراً للّه الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين ويُظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان لأننا رائحة المسيح الزكية لله.» (٢كو ٢: ١٤ و١٥)

الأب يوحنا (ك.)

١١٣٨ . قد جعلتُ ذاتي كنيسة للمسيح، وقرَّبتُ له داخلها بخوراً وطيباً بأتعاب جسدي.

مار أفرآم السرياني

الفصل السادس

التسبيح بالمزامير

+ «سبع مرات في النهار سبَّحتُك.» (مز ١١٩: ١٦٤)

+ «في نصف الليل نهضت لأشكرك على أحكام عدلك.»

(مز ١١٩: ٦٢)

+ «**إن كان أحد يجاهد لا يُكلَّل إن لم يجاهد قانونياً**»
(٢تي ٢: ٥)

(*) الله يُخدَم بالتسبيح والحمد والشكر، وسر المسيح الأعظم الذي هو سر الكنيسة ومركز وجودها وعملها هو: «سر الشكر»، أي الإفخارستيا الذي ينتهي بصلاة الكاهن: «فمنا امتلأ فرحاً ولساننا تهليلاً بتناولنا من أسرارك غير المائتة يارب».[1]

الصفة الغالبة للصلاة في الترتيب الكنسي هي تسميتها بالتسبحة، فكل الصلوات تقريباً تُقدَّم داخل الكنيسة بالترتيل واللحن حتى وإن كانت في مناسبات حزينة كأسبوع الآلام، وبالحقيقة يليق بالله أن يُخدَم بالتسبيح مهما كانت ظروف الإنسان: «أنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل». (مز ٢٢: ٣)

ومن الأمور الثابتة في الأسفار المقدسة أن معظم حالات حلول الروح القدس للمتكلم بكلام الوحي المقدس، كان على صورة أشعار موزونة، فالعلاقة بين التسبيح وبين حلول الروح القدس هي علاقة وثيقة في حياة خدمة الله.

فالمزامير، التي هي منبع الصلوات والتضرعات، قدمها داود بنغم موزون على آلات الموسيقي! والصلوات التي رتبتها الكنيسة منذ العصر الرسولي لتُتلى في أوقات النهار والليل هي مزامير في جملتها، وهي لا تخلو أيضاً من التضرعات الحزينة، وبالرغم من ذلك اعتبرتها الكنيسة تسابيح. فأنت تقرأ في كتاب الأجبية (أي صلوات السواعي) وفي بداية أية ساعة، مكتوباً هكذا: «تسبحة الساعة السادسة أو التاسعة من النهار»، فالصلاة دُعيت تسبحة مع أنها هنا تذكار لصلب الرب وموته على الصليب! والأصل في ذلك أن داود النبي الذي أخذت عنه الكنيسة صلواتها كانت صلواته عبارة عن تسبيح ونشيد: «سبع مرات في النهار سبَّحتك...» (مز ١١٩: ١٦٤)

(*) هذا الموضوع مكتوب بأكثر تفصيل في كتاب: «التسبحة اليومية ومزامير السواعي» للمؤلف، فيمكن الرجوع إليه.
(١) الخولاجي المقدس: من أوشية سرية للكاهن بعد التناول .

وفي الحقيقة، حينما يفعَم القلب بحركة الروح تنفك عقدة اللسان فينطق الإنسان بنغمات تعبِّر عن أعماق نفسه أشد مما تعبِّر عنها الكلمات!

والواقع أن التسبيح هو الذي يعطي الصلاة الصفة الرسمية كخدمة تُقدَّم لله، لذلك فكلمة «الليتورچيا» من العسير انطباقها على مجرد الصلاة الصامتة التي لا يرافقها حمد وتسبيح.

وهذه الحقيقة تزداد وضوحاً، إذا علمنا أن كلمة «تسبيح» لا تعني حالة السرور فقط، بل تشمل الشكر والحمد للّه حتى ولو كان الإنسان في أشد حالات الحزن والغم واليأس، بل إن التسبيح والشكر في مثل هذه الحالات يرفع الصلاة إلى مستوي الطاعة والخضوع، فتصير تمجيداً للّه واعترافاً بحكمة تدبيره وتأخذ مضمون الخدمة الأمينة أو أمانة الخدمة.

أليس بهذا الوصف تماماً انطلق بولس وسيلا في ظلام السجن وآلام المقطرة وتمزيقات الجسد ينشدان للرب أنشودة جديدة؟: «ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا **يصليان ويسبِّحان الله** والمسجونون يسمعونهما». (أع ١٦: ٢٥)

وللقديس أثناسيوس تعليم واضح بخصوص الألحان والترنم بالمزامير نلخصه كالآتي باختصار:

١١٣٩. ولا يفوتنا أن نوضح السبب الذي يوجب ترتيل المزامير بالنغم واللحن لا بالتلاوة المجردة... لأنه من المناسب تسبيح الله بالأسفار الشعرية، لأن صياغتها الحرة تؤكد كيف ينبغي للناس أن يعبِّروا عن محبتهم لله بكل قواهم، كما أن الترتيل بالمزامير يُضفي أثراً على المرنم نفسه.

والترنيم بالمزامير يتطلب من الإنسان أن يتركز في معناها وينحصر فيها بكل كيانه، وهكذا يزول عنه كل تشتُّت كانسجام الأصوات نفسها.

والرب نفسه أوصى بترنيم بالمزامير وتلحينها كي يكون النغم معبِّراً عن التوافق الروحي الداخلي مثلما تعبِّر الكلمات عن أفكارنا تماماً... وهكذا بواسطة الترتيل ندخل إلى إحساس أنفسنا، فنحس بظلمة الحزن عندما نرتل: «لماذا أنتِ حزينة يا نفسي ولماذا تضايقينني»، وحينئذ تستنير أرواحنا من الداخل، وعندما نرنم: «لولا قليل لزلت قدماي» نحس بخطر الفشل، وعندما نرنم: «الرب عوني فلن أخاف ماذا يستطيع أن يعمله بي الإنسان» نحس بالرجاء ويتبدد الخوف.

فلا شك يخطئ الذين لا يقرأون الأسفار بهذه الطريقة مترنمين بها بنشيد مقدس وفهم...

حيث يصدر النغم طبيعياً من توافق النفس واتحادها بالروح، هؤلاء يرنمون باللسان وبالفكر معاً ولا ينتفعون وحدهم، بل والذين يسمعونهم أيضاً.

وكذلك كل مَن يرنم يقوِّم روحه مصحِّحاً بالتدريج نشازها، حتى تصبح بالنهاية وهي متجددة حسب طبيعتها الحقيقية غير خائفة من أي شئ إذ تكون قد تحررت بسلام من كل الهواجس الزائلة، وتكون قد تدربت على تأمل ورجاء الأمور الصالحة... فالروح المستقرة تنسى آلامها وبترتيل الكلمات المقدسة تتطلع بفرح إلى المسيح وحده.(٢)

ترتيب طقس السواعي وتحديدها في الكنيسة القبطية:

كانت الكنيسة في الشرق والغرب على وجه العموم حتى زمان قسطنطيوس الملك تتمتع بوحدة الإيمان والعقيدة، فكانت الكنائس. كما يقول المؤرخ الأرشيمندريت چيتي. تؤلف وحدة متناسقة يسبحون الله بنفس التسابيح الواحدة إنما بلغات مختلفة.

ولكن بظهور الحياة النسكية في مصر منذ بداية القرن الثالث، دخلت الصلوات والتسابيح والألحان في الكنيسة مرحلة جديدة، تتسم بثلاثة مظاهر:

. النظام والتدقيق في المواعيد المحددة لها.

. استطالة التسابيح وتحديد كمياتها والسهر طول الليل يوم السبت.

. الروح الجماعية وما يتبعها من تنظيم الخوارس.

والفضل في معرفتنا لمنشأ وتاريخ هذا النظام النسكي الكنسي والظروف التي عبر عليها في الكنيسة القبطية، هو الأب الناسك الراهب كاسيان الذي سجل كل ما رآه وما سمعه ومارسه في مصر على يدي الآباء النساك العظام فاحتفظ به لنا على حقيقته وبصورته الأولى الأصيلة.

فالتسبيح وطريقة الخدمة سواء بالانتيفونا أو بالمردات أو بطريقة التراكتوس، وأعداد المزامير التي تُقال، وخدمة سهر الليل، كل هذه الترتيبات الكنسية استقرت في مصر منذ القرن الأول، ومن مصر وعن طريق الرهبان الأجانب الذين جاءوا وتتلمذوا على أيدي الآباء بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون انتشر هذا النظام والترتيب الكنسي؛ في فلسطين على يدي الراهب القديس **هيلاريون**، وفي ما بين النهرين على يدي الراهب القديس **باسيليوس**، وفي فرنسا وإيطاليا على

(2) Athanas. to Marcel., on Ps.

يدي **أثناسيوس الرسولي** أولاً أثناء منفاه الثاني هناك (٣٤٠ . ٣٤٦م) ثم على يدي **كاسيان؛** هؤلاء جميعاً جاءوا وزاروا مصر ونقلوا عنها نظامها وترتيبها المحكم في العبادة والنسك عموماً وفي الصلاة وطرقها وفي التسبيح خصوصاً، وذلك بالإضافة إلى مئات وألوف الرهبان الذين جاءوا من كافة أنحاء الأرض وعاشوا في مصر وتنسكوا فيها، من اليونان وروما وآسيا الصغرى وأسپانيا وإيرلنده وأرمينيا والحبشة وليبيا وشمال أفريقيا وسوريا وفلسطين وما بين النهرين، وجميعهم كتبوا بأيديهم وأقروا أنهم رأوا في مصر العبادة الصحيحة والنسك والتسبيح الحقيقيين، وافتخروا بأنهم نقلوا إلى بلادهم ما رأوه ومارسوه على أيدي شيوخ مصر، بل واعتبروا أن نظام مصر حجة ثابتة يؤخذ بها كقانون، ويتضح هذا من المادة ١٨ من مجمع تور الثاني (٥٦٧م)...

قانون البنين:

ليس على البعيدين عن الله قانون... هؤلاء لا يرتبطون بشيء من جهة الله، تقودهم ضمائرهم ويقودهم تفكيرهم المنحل إلى الباب الواسع والطريق الرحب الذي يؤدى إلى الهلاك.

وكثيرون فهموا المسيحية فهماً خاطئاً سقيماً إذ اعتبروها دعوة إلى الحرية المطلقة غير المقيدة، هؤلاء أيضاً أقبلوا على الدين متحررين من كل شيء حتى من واجباته والتزاماته، فخلت حياتهم من أبسط قواعد العبادة والصلاة، وتمادوا في ذلك وارتدوا عن تراث آبائهم واحتجوا وتمادوا في احتجاجهم حتى صارت عبادتهم فكرة تتغير كل يوم وتُستحدَث كل يوم، فصارت شيعهم من الكثرة بمقدار ما يمكن أن تتعدد الأفكار أو تُستحدَث.

غير أن هناك نوعاً ثالثاً من صميم مجتمعنا الصغير يكاد قوامه الآباء والأمهات في هذه الأيام، هؤلاء ينكرون علينا الاشتغال بالدين وينكرون علينا القيام بواجباته الفردية، إذ لا يرون الدين شيئاً يستحق أن يكون موضوع شغلنا ولا يرون في الدين واجبات تستحق أن نمارسها. هؤلاء فهموا العبادة فهماً خاطئاً وأنكروا الطريق والحق بل والحياة. هؤلاء لا يروعهم إلا قول إشعياء النبي: «اسمعي أيتها السموات واصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم: ربيّتُ بنين ونشَّأتُهم أما هم فعَصَوْا عليَّ. الثور يعرف قانِيَه والحمار مَعْلف صاحبه أما... شعبي لا يفهم!... تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل ارتدوا إلى الوراء...» (إش ١: ٢.٤)

هؤلاء يدعون الله أباً ولكن ينكرون عليه حقوق الأُبُوة، ويدعون أنفسهم عبيداً له ولكنهم

لا يقدمون له هيبة السيد.

هؤلاء يسألهم ملاخي النبي لائماً: «الإبن يكرم أباه والعبد يكرم سيده فإن كنت أنا أباً فأين كرامتي وإن كنت سيداً فأين هيبتي، قال لكم رب الجنود؟» (ملا ١: ٦)

إذن، فإن اعتبرنا أنفسنا بنيناً فعلينا أن نقدم عبادة البنين وخضوعهم، وإن اعتبرنا أنفسنا عبيداً فعلينا أن نقدم خوف العبيد وأمانتهم. ولكن إذا لم نقدم عبادة البنين و لم نقدم خوف العبيد فلن يكون نصيبنا إلا أن نُطرد من البيت وننحط دون البنين ودون العبيد!!! فعلاقتنا بالله لابد أن يحدَّها واجبات حتى نحظى بحقوق البنين أو بحقوق العبيد.

وإن كان المسيح قد نقلنا من العبودية إلى البنوية فليس ذلك مدعاة إلى إنكار حقوق الله كأب وسيد، بل إن هذا حافز لنا لأن نقدم عبادة أكثر لأن قانون عطية الله هو: «مَنْ أُعطي كثيراً يُطلَب منه كثير ومن يودعونه كثيراً يطالبونه بأكثر.» (لو ١٢: ٤٨)

هبة قانون الصلاة:

ممارستنا لواجبات الصلاة كقانون عبادة ينشئ لنا علاقة مع الله، فهو يحدد موقفنا تجاه الله كأولاد يشكرون ويسبِّحون ويسألون، ويهيىء لنا فرصة استجابة الله لنا واستماعه وإصغائه لتسبيحنا وحمدنا.

فقانون الصلاة إذن يشرح علاقة مزدوجة بيننا وبين الله، ويهيئ لنا سبباً لقبول هبات الله وعطاياه.

منشأ قوانين الصلاة:

إن أول نواة لأول قانون للصلاة، كانت من وضع السيد المسيح إذ أمرنا أن نتلو صلاة خاصة محدودة من كلماته وهي الصلاة الربانية التي فيها ندعو الله أباً.

كذلك سلَّم تلاميذه برامج خاصة للصلاة، فكثيراً ما كان يأخذهم إلى أمكنة منفردة ويعلِّمهم الصلاة والتسبيح: «ثم سبَّحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون». (مر ١٤: ٢٦)

وكثيراً أيضاً ما كان يقضي الليل كله في الصلاة، وبذلك سلَّم المسيح الصلاة للكنيسة كعنصر لازم لقيام الحياة الروحية بين أولادها، وابتدأت الكنيسة منذ العصر الرسولي الأول وما تلاه من عصور المجامع المقدسة في وضع أنظمة للصلاة على مثال ما تسلموه من السيد المسيح

وبإرشاد الروح القدس حسب حاجة المؤمنين الروحية، ثم فُرِضَت عليهم هذه الأنظمة حتى لا تنحرف حياتهم بعيداً عن الله.

درجات:

طوَّب السيد المسيح أولئك الذين سهروا إلى الهزيع الثاني وأولئك الذين سهروا إلى الهزيع الثالث من الليل، فسأله بطرس عن هذا الجهاد الممتاز وهذا السر الممتد هل هو أمر عام على الجميع أم هو خاص بهم كتلاميذ وقادة للشعب؟ فأجاب السيد بوضوح أن هذا عمل الوكيل الأمين.

اذن، فقانون الصلاة له درجات، ولكلٍّ من الأشخاص قانونه في الصلاة على قدر علاقته بالله وعلى قدر قامة بنوَّته ومقدار نذره ووكالته.

وهناك علاقة هامة بين حالة الشخص ونذره ومقدار ما يصليه من الصلوات، لذلك وجب التبصر جيداً في اختيار درجة الخدمة أو نوع النذر الذي يربطنا بالله لأنه حسب هذا الوضع ستكون درجة صلاتنا. فالمؤمن العادي غير الكاهن، والكاهن غير الأسقف، والراهب في الدير غير الراهب في الوحدة، إذ لكُلٍّ من هؤلاء جهاد خاص ودرجة خاصة من الصلاة.

لأنه كما أن هناك أنواع مواهب مختلفة وأنواع خدم مختلفة وأنواع قوات مختلفة (١كو ١٢: ٤-٦)، كذلك هناك أنواع درجات وواجبات مختلفة من جهة خدمة العبادة والصلاة.

كل واحد له دعوته التي يُدعي فيها وعليه أن يتمسك بها (١كو ٧: ٢٠)، ولا يمكن لأحد من هؤلاء أن يُكلَّل إذا لم يجاهد حسب قانون دعوته.

محبة القانون:

إذا عرفنا أن الصلاة هي الدالة الأولى التي تقربنا إلى الله وتثبِّت بنوتنا له، لأقبلنا على قوانيننا بفرح وسرور لا عن حزن أو اضطرار.

كم مرة أهملنا في قوانين صلواتنا وذُقْنا نوعاً من الحرمان من الدالة التي تربطنا بالله، فاضطربت حياتنا كلها ثم رجعنا نادمين وعكفنا على صلواتنا بدقة فرجع إلينا سلامنا!! أَليس هذا كفيلاً بأن يرفع من تقديرنا ونظرتنا لقانون الصلاة ويُشعرنا بأن كياننا الروحي متوقف على مقدار ممارستنا لقوانين الصلاة!

أقوال الآباء في التسبيح وصلوات المزامير:

حدود القانون:

١١٤٠. يجب أن نحفظ باحتراس عدد سبعة أوقات الخدمة التي حددها مجمع نيقية في الكنيسة المقدسة.

١١٤١. حاشا لنا نحن المتوحدين أن نخرج عن الطاعة لحدود قوانين البيعة المقدسة ورؤسائها وسُننهم. ولأجل هذا نحن نحفظ حدود أوقات الخدمة السبعة حسب ما وَضعت علينا الكنيسة كبنين.

ولكن لا نحدد لأنفسنا عدداً خاصاً من المزامير في كل صلاة فنصير تحت عبودية الأعداد فنرتبط بها كل أيام حياتنا، بل ينبغي لنا في كل صلاة أن نثبت حسب الإمكان وعلى قدر الوقت ومعونة النعمة على كل صلاة.

١١٤٢. كُن متقدماً في صلاة أوقاتك على الدوام لكي لا تتجمع فتثقل عليك، وإن اتفق أن فاتك وقتٌ من الصلاة بسبب عارض لا تضطرب ولكن لا تهمل الصلاة ولا تتهاون في تكميلها.

فلو كانت صلاة باكر هي التي فات وقتها وقد مضت من النهار ساعتان أو أكثر أو حتى إلى وقت العشاء! تقدم وكملها بلا نقص بجميع واجباتها بهدوء بلا تسرُّع أو اضطراب. فليس لك عمل آخر ضروري لتكميله أعظم من الصلاة.

١١٤٣. إن كان الراهب يتهاون بقانون الصلاة المفروض فلا يستحق أن يجلس في قلاية، وحتى لو أراد أن يثبت فيها لا يقدر، لأن عمل الرهبنة هو الصلاة، فلو تخلَّف أحد عنها فلماذا يُدعى بعد راهباً؟

١١٤٤. ليكن لك محبة بلا شبع لتلاوة المزامير، لأنها غذاء الروح.

١١٤٥. مع كل لفظة في المزمور فيها ذِكْرُ السجود أسجد أو احنِ رأسك بالسجود.

١١٤٦. إغصب نفسك في صلاة نصف الليل **وزِدْها مزامير**. لأنه بقدر ما تغصب ذاتك في المزامير تأخذ معونة من عند الله وقوة خفية من الروح القدس.

١١٤٧. لا تنظر في الوقت وتسوِّف في الساعات وتتكاسل، بل اغصب نفسك وقم في نصف الليل حتى ولو كان النوم ثقيلاً عليك والجسد مُتعباً لأن هذا هو الوقت المقبول وهذه ساعة المعونة.

١١٤٨. جميع الآباء كانوا يصلُّون بالليل حسب المثال الذي أخذوه من ربنا يسوع المسيح الذي كان يقضى الليل كله في الصلاة. لأن الليل مفروز لعمل الصلاة.

١١٤٩. كل صلاة تقدِّمها بالليل هي مكرَّمة أكثر من عمل النهار، ومعونة النهار هي بسبب خدمة الليل.

١١٥٠. الذي يتهاون في الصلاة ويظن أن له باباً آخر للتوبة هو مخدوع من الشياطين.

١١٥١. ينبغي أن لا نُبطل شيئاً من الصلاة المفروضة ولو كان في أعلى درجات الحياة الروحية.

١١٥٢. ليس لك عمل ضروري آخر لتكميله أعظم من الصلاة.

نتائج الإهمال:

١١٥٣. مستوجب كل ملامة الذي يتهاون في قراءة المزامير ويتخلف عنها من أجل العظمة.

١١٥٤. أما تعلم يا أخى أن حياتنا تنقرض ساعة بساعة ويوماً بعد يوم، فلو اجتهدنا كل أيامنا لكي نسترد يوماً واحداً من الأيام التي مضت لا نستطيع! خسارة عظيمة إذن أن نتغافل عن الصلاة ولو يوماً واحداً نجوزه بلا ثمرة دون أن نقدم فيه الصلوات والتضرعات أمام الله.

١١٥٥. أول ظلمة العقل تبتدىء حينما تشعر أنك ابتدأت تكسل في خدمة أوقات الصلوات. فإذا أهملت أوقاتها وتكاسلت عنها تفارقك المعونة الإلهية التي كانت ترافقك فتميل نفسك إلى الشر شيئاً فشيئاً، لأن الإنتقال من ناحية اليمين معناه الإتجاه نحو الشمال.

١١٥٦. ولو وصل الإنسان إلى أعلى درجات الروح والاستعلان وتهاون بالمزامير فإنه يضعف ويقع في يد الشيطان؛ لأن العظمة تبدأ في رمي بذورها، كأنه قد ارتفع عن رتبة الذين يستعملون المزامير.

ترتيب الصلاة:

١١٥٧. على قدر الإهتمام بالزي المحترم والوقار والحشمة في الصلاة، وبسط اليدين إلى السماء والقيام بعفة والسجود بخشوع، يكون افتقاد النعمة، لأنه معظَّم في عيني الرب الوقار الذي يقدمه الإنسان أثناء ذبيحة صلاته التي يقدمها في ميعادها بحرية الإرادة.

مار إسحق السرياني

١١٥٨. مهم جداً، يا إخوتي، أن نقدم وقاراً وحياءً واهتماماً في الصلاة، لأن الله طالبٌ الساجدين له بالروح والحق.

١١٥٩. كثيرون زلُّوا بأفكارهم، لأنهم ظنوا أنه يكفي للصلاة أن تكون في القلب فقط وأن الله لا يريد منا أكثر من هذا. لذلك يصلُّون وهم مضطجعون على ظهورهم أو وهم جالسون في عدم اكتراث. لا يقدمون ذبيحة الوقوف الحسن حسب قوة الجسد ولا يخرون ساجدين كما تقتضي كرامة الله. إن هذا من مكر العدو وغشه لكي لا يبلِّغهم قط إلى درجة الروحانية.

ولا يشمل قولي هذا المرضى والضعفاء في أجسادهم، لأن الله رحوم متحنن ولا يحاسب الإنسان وهو ضعيف غير قادر، ولكنه يدين على الشيء المستطاع لدينا والمهمَل بإرادتنا.

١١٦٠. إن شئت أن تقوم في خدمة الليل إعمل بمعونة الله ما أقوله لك:

أسجد ثم قِفْ ولا تسارع إلى خدمتك، بل بعد صلاتك «أبانا الذي» صلِّب على قلبك وعلى أعضائك وارشمها بعلامة الصليب المحيي، ثم قف مقدار لحظة صامتاً إلى أن تستريح حواسك وتسكن حركاتك، وبعد ذلك ارفع نظرك الداخلي إلى الرب واطلب منه باتضاع أن يقوِّي ضعفك بإرادته، وقبل أن يتحرك لسانك بالمزمور قل: يا ربي وإلهي مدبر الخليقة كلها، العارف بضعف طبيعتنا وآمالنا وقساوة عدونا، نجِّني يا رب من شر حيله، وخلِّصني من تشتت الفكر، واجعلني أهلاً لهذه الخدمة المقدسة لئلا أفقد جمال تذوقها، وأوجد أمامك كمتجاسر.

١١٦١. ينبغي لنا أن نسير في خدمتنا بلا تقيُّد أو ضغط، وإذا وجدنا أنه ليس لدينا متسع من الوقت نترك مزمورين أو ثلاث مما جرت به العادة ولا نجعل التسرع يكدر صلاتنا الأولى.

١١٦٢. إحذر أن ترتبك في صلاتك. فإذا تشتت فكرك أثناء التلاوة عُد وارجع إلى خلف مزموراً أو أكثر. وكل آية تقابلك وتحلو لك ردِّدها بتأمل.

١١٦٣. إذا اشتدت عليك الأفكار و لم تستطع أن تصلي بفكر منجمع أترك الصلاة واسجد قائلاً: أنا لا أريد أن أعد ألفاظاً ولكنني جئت لأطلب معونة الله.

١١٦٤. إذا شئت التمتع بحلاوة قراءة المزامير في خدمتك، والتنعم بمذاقة الروح القدس فيها، دع عنك الكمية، ولا يهمك معرفة عدد المزامير التي صليت بها؛ يكفي أن يكون عقلك فاهماً معاني الصلاة فيتحرك فيك شعور بتمجيد الله. وكلام المزامير قلْه دائما على نفسك، وليس كأنه من قول غيرك.

١١٦٥. الله لن يحاكمنا أو يديننا بسبب تركنا لبعض المزامير.

١١٦٦. إن كنت تتعب من الوقوف في سهرك من أجل كثرته ويقول لك العدو كالحية: لم تعد فيك قوة للقيام نَمْ وانشرح واسترح، قل له: أنا أجلس وأصلي ولا أنام، واعبر وقتك جالساً وتالياً مزاميرك.

١١٦٧. لا تتلُ كلام المزامير بشفيتك فقط، بل جاهد واعتنِ أن تكون أنت ذاتك كلام الصلاة. لأن التلاوة ليس فيها نفع إلا إذا كان الكلام يتجسم بك ويصير عملاً فتصير إنساناً روحانياً.

مار إسحق السرياني

١١٦٨. حينما تقف لتتلو صلواتك المقررة في كتاب الصلاة (الأجبية) فلا تسرع من كلمة إلى كلمة دون أن تشعر بما تحمله من الحق، ولكن حاول أن تفهم قصد كل كلمة وتلمسها بقلبك لتحس بحقيقة معناها المستتر.

واعلم أن نفسك سوف تقاوم فكرة التأني في الصلاة إما بإعراض عن المعنى وإما بالشك أو بشرود الذهن في أمور تافهة أو قصة قديمة أو عمل مؤجَّل إلخ إلخ...

لذلك قف في بدء الصلاة عالماً أنك ستواجه هذه جميعها، وتشدَّد مقابلها محاولاً أن لا تلتفت لشيء منها جميعاً واسأل الله المعونة معطياً إياه قلبك.

١١٦٩. إذا ابتدأت الصلاة ولاحظت أن قلبك غير مستجيب للصلاة وقد شملته برودة، أوقف الصلاة وحاول أن تُدخل الحرارة في قلبك، إما بذكر خطاياك واعترافك عنها، وإما بذكر إحسانات الله عليك بالرغم من جحودك وشرودك الكثير.

الأب يوحنا (ك.)

١١٧٠. احفظ الصلوات الكنسية وصلوات المزامير وأكثِر ما يمكن من الصلوات المرتبة للمناسبات عن ظهر قلب، فإن ذلك سيجعلك مشبعاً بروح الصلاة وتصبح مسرتك في تلاوتها.

١١٧١. حاول بكل الوسائل أن تمنع الصلاة الباردة التي بتحريك اللسان فقط.

الصلاة عمل يؤدَّى بحرية النية الخالصة عن حب، وإذا خرجت عن هذا المعنى فهي ليست صلاة.

سِرْ تبع قانون الصلاة **بكل دقة ولكن بكل حرية ووقار**، وحينئذ سوف تخرج من قلبك الكلمات بقوة وبتنهدات حارة، وهذه هي علامة الصلاة الفعَّالة! حينئذ يكون الروح القدس مشتركاً معنا في الصلاة ليكمل عجزنا، ويحس القلب بذلك، فيلتهب جداً ولا يهدأ من الصلاة والتضرع والسجود بفرح لا يُنطق به.

سئل مرة القديس إبيفانيوس: كيف نرتب ساعات الصلاة؟ فكان رده: ليس للصلاة ساعة فكل الساعات وكل الدقائق هي للصلاة!

ولما سئل القديس باسيليوس بذات السؤال أجاب: اقتنوا داخلكم روح الصلاة وحينئذ تعرفون معنى الصلاة بلا انقطاع.

الأسقف ثيوفان الناسك

١١٧٢. عوّد ذاتك واغصب نفسك لجمع الفكر في خدمة المزامير وبالأكثر في الليل، ليأخذ عقلك إحساس الروح وفرحه المكنوز في المزامير، فإذا تذوقت هذه النعمة فلن تشبع من المزامير.

١١٧٣. إتعب جسدك كثيراً في الصلاة التي بلا فتور، ولو تشتت عقلك في المبتدأ إلا أنك بعد ذلك تؤهَّل للصلاة التي بلا تشتت.

١١٧٤. لا تهدأ من الصلاة والطلبة حتى تحس خفياً بنوع الرجاء أن قد غُفرت لك خطاياك، واشتعلتْ نار المسيح في قلبك، وأخذتَ قوة خفية لتكميل الوصايا، وتشجعتَ ضد الآلام والأفكار. وهدأَتْ كل حواسك في الصلاة.

١١٧٥. لا يمكن أن يدوم العقل في الصلاة بدون فكر، ولكن نريد أن يكون فكره في الصلاة نفسها وفي معاني كلماتها.

١١٧٦. صدقني يا أخي إن الملل والضجر والكسل وثقل الأعضاء وطياشة العقل وبقية الأحزان التي تحدث للإنسان وقت الصلاة هي تُحسب كعمل الله، إذا لم يُغلب لها بل يصبر عليها ويقاوم ضدها فهي تُحسَب له ذبيحة وعملاً إلهياً، ما خلا العظمة فقط إذا ثبتت فيه بسبب احلاله واهماله.

١١٧٧. يمكن لضعيف الجسد أن يخدم مزامير قليلة وقت الستار (أي ستار الظلمة) وينام.

١١٧٨. إذا لم يمكنك بسبب ضعف الجسد أن تقف في الصلاة تستطيع أن تتممها وأنت جالس (إستثناء في حالة المرض أو الضعف أو عدم القدرة).

١١٧٩. إذا لم تخدم مزامير كل ساعة كاملة في سبع الساعات التي للخدمة مثل الأقوياء، تستطيع أن تخدم الصلاة ولو بمزمور واحد ولا تعبر ساعة الصلاة بإهمال (إستثناء في حالة الضعف أو كثرة العمل).

١١٨٠. إذ ملَّ ضميرك المزامير والصلوات، إشغله بالألحان لأن جمال اللحن الحزين يثير في النفس الندامة على الإهمال ويهبها نشوة جديدة للصلاة.

مار إسحق السرياني

١١٨١. أحياناً نجد بعض الناس يتقنون حفظ الصلوات القانونية ويواظبون على تلاوتها، ولكن حياتهم من الداخل فارغة خالية من ثمار الروح، ما السبب في هذا؟

السبب هو أنهم يداومون على الصلاة وهم لا زالوا متمسكين ببعض الخطايا الداخلية و لم يقدموا عنها توبة واعترافاً كاملاً، فبقيت في قلوبهم وحرمتهم من حلول المسيح في هيكل قلبهم.

لذلك يلزمنا في تدقيقنا في الصلوات الطقسية المفروضة أن ننقي قلوبنا باستمرار ونتوب عن خطايانا

بالإعتراف والندامة والدموع بانسحاق واتضاع حتى تصير قوانين صلواتنا مقبولة وذات فاعلية في حياتنا.

ويستحسن جداً أن نفحص ضميرنا أثناء الصلاة ونفتش عن الخطية الرابضة وعن الحقد والكراهية والعثرات والزلات اليومية، وندقق في محاسبة أنفسنا على الكلمات الردية التي خرجت من أفواهنا.

١١٨٢. حينما نقرأ أية صلاة أو مزمور لأول مرة نقرأه بإقبال وسرور وبشعور متأثر من المعاني العميقة التي تصادفنا. ولكن بتكرار قراءته يقل هذا الشعور حتى ينعدم فنفقد تعزيتنا الأولى وفرحتنا بالتلاوة وتصبح الصلاة آلية باردة.

لذلك وجب مراعاة الآتي:

(١) استحضر ذهنك قبل البدء في الصلاة كأنك ستتلو مزاميرك لأول مرة متذكراً قيمة التعزية التي تمتعت بها من هذه الصلوات في بدء معرفتك لها.

(٢) حاول أن تُخرج من كل آية معنًى جديداً، واثقاً أن هذه الكلمات تحمل لك رسالة جديدة كل يوم لأن «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة». «وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة.» (رؤ ٢٢: ١٩).

(٣) اعلم أن عدم ثبوتك في الصلاة وكثرة شرود ذهنك هو علامة لعدم ثبوتك في الحق وفي المسيح، لأن كل مَن يثبت في المسيح فالمسيح يثبت فيه. وعدم الثبوت في ا لحق لا يظهر فقط في شرود الفكر أثناء الصلاة بل وفي علاقتنا بالله، فمرة يزداد إيماننا فنريد أن نكون كأحد الشهداء ومرة يضعف إيماننا لدرجة أننا نُخفي الحق بالكذب وننكر المسيح من أجل سبب تافه.

كذلك يظهر عدم الثبوت في الحق في معاملتنا للناس، فمرة نحبهم ونمدحهم ومرة نذمهم ونبغضهم. لذلك إن أردنا أن نصل إلى الصلاة الحارة القوية فعلينا أن نثبت في الحق ونتمسك بالإيمان ونحب الجميع بلا تفريق.

الأب يوحنا (ك.)

١١٨٣. إياك أن تظن أن تأدية صلوات السواعي القانونية بمجرد التلاوة سينفعك بشيء، بل ثق أنه لن تقدمك خطوة واحدة مع الله إلا إذا قرنتها بتدريب الوجود مع الله؛ فكل قيمة الصلاة متوقف على مقدار مساعدتها لنا في تقدمنا الروحي وحياتنا مع الله.

الأسقف ثيوفان الناسك

١١٨٤. كثيرون يعتقدون أنهم بتتميمهم فروض الصلاة المفروضة في السواعي قد أدُّوا الواجب الذي عليهم نحو الله وأنهم بذلك قد أصبحوا مبرَّرين.

ولكن هؤلاء تعبهم باطلاً واعتقادهم وَهْمٌ، فالصلاة مفتاح لخزانة كنوز الروح ومسكين مَن يحمل هذا المفتاح ويعتني به جداً ولا يدخل إلى كنزه ليحصل على ثمار الروح المعدَّة له.

الصلاة وسيلة لفحص القلب وإصلاح عيوبه وإعداده لحلول المسيح وعمل النعمة.

الصلاة كلمات، وإن لم نقتن من هذه الكلمات قوة الروح فباطل تعبنا كله لأن «ملكوت الله ليس بكلام بل بقوة» (١كو ٤: ٢٠)

١١٨٥. الدقائق القليلة التي نقفها قبل الصلاة لها تأثير هام في روح الصلاة ويجب أن لا نغفلها.

فنطلب أن يعطينا الله استحقاق الوقوف أمامه والشعور بوجوده ونذكر كم أخطأنا في حق الله وكم هو سامحنا فنشعر بالإتضاع أمامه ونطلب معونة الروح القدس ليعين عجزنا.

ثم إبدأ الصلاة بصوت منخفض وديع لأن الله يحب أن يسمع مثل هذا الصوت: «إلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي». (إش ٦٦: ٢)

الأب يوحنا (ك.)

الصلاة الإرتجالية:

١١٨٦. ينبغي ألا نقول في كل صلاة ما نقوله في الأخرى ولا نقول صلاة واحدة محفوظة في سائر الأوقات التي نجتمع فيها، لأن النفس تمل وتقلق من التكرار. فينبغي أن نغير الكلام حسب حاجة نفوسنا في كل ساعة ونقول في كل وقت ما يليق في الصلاة.

باسيليوس الكبير

١١٨٧. خصِّص وقتاً للصلاة التي ترتبها من ذاتك أكثر من المزامير ولكن لا تُبطل المزامير.

مار إسحق السرياني

١١٨٨. يستحسن أحياناً أثناء الصلاة أن نقول بعض كلمات من عندنا لتعبِّر عن حرارة إيماننا وتنفِّس عن حبنا المتأجج للّه.نعم ليس دائماً نتحدث مع الله بكلمات الآخرين فنبقي أطفالاً في إيماننا وآمالنا، بل علينا أن نُظهر ما في صدورنا وما يختلج في قلوبنا من مشاعر فنؤلف مادة حسنة من صنعنا نخاطب بها الله؛ لئلا نشب معتادين على كلمات الآخرين فتسري البرودة في صلواتنا. كم يكون سرور الله بكلماتنا المتعثرة (التي تكون شبيهة بمناغاة الطفل الرضيع لأبيه!) لأنها تكون حينئذ معبِّرة عن شعور صادق من قلب مؤمن محب شكور! إنه يستحيل أن نوضح الأمر أكثر من هذا غير أنه يلزم أن نقول إنك حينما تصلي إلى الله بكلماتك فأنت تشعر بقيمة هذا الأمر وترى كم يكون فرح نفسك والانتعاش والسرور اللذان يسودان عليك. فأنت تتقوى

بكلمات قليلة متقطعة متعثرة ولكنك ستختبر بها نوعاً من الغبطة لا تحصل عليها قط من تلاوة محفوظاتك المعتادة التي من وضع الآخرين مهما استطالت ومهما بلغت من التأثير.

١١٨٩. أشكر الله كل يوم من قلبك لأنه أعطاك حياة حسب صورته كشبهه، حياة ذكية خالصة غير مائتة. أشكر الله لأنه جددك واقتادك مرة أخرى للحياة الأبدية بعد أن سقطت في الموت! هو لم يمنحك هذا بسهولة أو باستخدام سلطانه وقدرته على كل شيء لأن هذا لا يكون موافقاً لعدله، ولكنه قدَّم لفدائنا ابنه الوحيد الحبيب الذي تألم وذاق مرارة الموت من أجلنا.

أشكره من أجل تخليصه إياك من أمراضك، أنت الذي برعونتك وقلة بصيرتك رميت نفسك فيها. فأنقذك من الموت مراراً لكي تأخذ فرصة جديدة تصلح فيها أخطاءك إذ هو يعلم أنك لا زلت غير مستعد لمستقبل الحياة الأبدية.

أشكره من أجل ترتيب جميع ظروف حياتك من أفراح وأحزان، لأنها صدرت كلها من لدنه لفائدتك، لأنه أبونا الكلي الرحمة الذي منه وبه وله كل شيء، أصل الحياة الذي قسم وأعار الحياة للجميع.

الأب يوحنا (ك.)

١١٩٠. أنت تتمم كل خدمات الكنيسة، هذا حسن. ولكن عليك أن تدرك أن هذا لا يعدو أن يكون تمهيداً للصلاة ليس إلا. وهذا يشبه شخصاً يتعلم لغة جديدة، فهو يحفظ بالذاكرة مقطوعات منها ليتدرب على أسلوبها وآدابها. هكذا أيضاً لغة الصلاة هي لغة خاصة نتعلمها من الكتب التي تحتوي على عينات من الصلاة لأشخاص تدربوا على المحادثة بهذه اللغة مع الله. وكما في تعلُّم اللغات بعد أن يصل الشخص إلى إتقان اللغة ويستطيع أن يعبِّر بها بطلاقة، لا يلزمه أن يستمر في حفظ جمل منها ليست من تعبيره وإنما يضع جانباً كل هذه المتون، وهكذا في تعلُّمنا الصلاة علينا أن نضع أمامنا الهدف الذي نسعي إليه وهو الوصول إلى اعتياد إقامة حديث مرتب يعبِّر عن شعورنا وحبنا وإيماننا تجاه الله من كلماتنا بدون كتاب، وهذا يحدث حينما تمتلئ النفس بأفكار الصلاة وعواطف ومعاني نستمدها من كتب الصلوات المرتبة.

الأسقف ثيوفان الناسك

الشرود وتشتُّت الذهن:

١١٩١. لا تشته أن تصلي إلا عندما تنقي نفسك من طياشة الأفكار، بل اعلم أن من مداومتك في الصلاة وكثرة التعب فيها تبطل الطياشة وتنقطع من القلب.

١١٩٢. إننا لا نُدان من أجل تحرُّك الأفكار والصور فينا؛ بل نجد نعمة إذا لم نوافقها، وقاتلنا ضدها.

١١٩٣. إذا ما تعبت من تشتت الأفكار أترك المزامير وانشغل بالألحان.

١١٩٤. عندما تنقص الحرارة من قلبك اقرأ الكتب لتجمع ذهنك من الطياشة وحينئذ ارجع إلى الصلاة لأن بها يُطهَّر العقل بالأكثر.

١١٩٥. وأنت أيها الأخ لا تطمع أن لا يطيش العقل لأن هذا غير مستطاع، بل إطمع أن تكون طياشته في صلاح. والطياشة الصالحة هي أن يتصور الفكر كل مدة الصلاة في الله وفي مجد عظمته التي تأتي من تذكُّر ما قُرِىء في الكتب والأقوال الإلهية المقدسة. وذلك بأن يتصور الفكر أثناء الصلاة صوراً من حياة السيد المسيح أو الأنبياء القديسين حتى يستمر الفكر محصوراً في الله أثناء الصلاة ولو لم توافق الصور معاني الصلاة نفسها. فهذه هي الطياشة الصالحة المقبولة.

مار إسحق السرياني

الفصل السابع

السجود

+ «الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له... بالروح والحق.»
(يو ٤: ٢٣و ٢٤)

+ «لكي تجثو باسم يسوع كل رُكبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض.» (في ٢: ١٠)

السجود تعبير صادق عن مشاعر الخضوع والإتضاع، لذلك فهو لائق جداً بالله، إذ أنه سبحانه صاحب الحق الأول في خضوعنا له واتضاعنا أمامه.

ولكن ليس هذا معناه أن السجود حركة عبادية فحسب كما قد يتطرق إلى أذهان الكثيرين؛ فهو إذا قُدِّم يكون عبادة حقاً ولا يصح أن يُقدَّم بهذه الصفة لأحد آخر سوى الله.

غير أنه يصح أن يُقدَّم للآخرين وإنما في معاني أخرى غير العبادة. والإنجيل يحدثنا عن صور شتى لأنواع السجود:

فسجود الابن الضال لأبيه، يحمل معنى التوبة والندامة من ابن لأبيه.

وسجود يعقوب لعيسو أخيه سبع مرات إلى الأرض كما يقول الكتاب،كان لاسترضاء وجه أخيه وصرف روح الغضب؛ وقد نجح يعقوب في ذلك إذ لما رآه أخوه ركض إليه وعانقه (تك ٣٣).

وسجود بني يعقوب ليوسف أخيهم وهو رئيس لمصر، كان علامة الولاء الواجبة لرئيس الأرض.

وسجود إبراهيم المبارك من فم الله لبني حث الشعب الوثني، كان علامة اتضاع شديد ودعة نفس إمتاز بها إبراهيم (تك ٢٣).

وسجود المرأة الشونمية لأليشع أمام قدميه إلى الأرض، كان إعترافاً بالجميل وتكريماً لروح النُبوَّة التي أقامت ابنها الميت حياً.

هكذا نرى للسجود معاني أخرى غير العبادة تنحصر في أشخاص الناس.

فإذا انحرفنا بالسجود أمام بعض الأشخاص مهما كانت صفتهم لكي نشركهم في نوع السجود الذي نقدمه لله، كان ذلك شططاً منا بل كُفراً وامتهاناً لله. فعل ذلك يوحنا الرسول في رؤياه همَّ بالسجود للملاك من فرط تأثره فمنعه الملاك: «فخررتُ أمام رجليه لأسجد له،

فقال لي: أنظر لا تفعل، أنا عبد معك ومع إخوتك الذين عندهم شهادة يسوع. أُسجد للَّه.» (رؤ ١٩: ١٠)

ونحن لسنا مختارين في سجودنا للَّه كما يتوهم المتحررون أو المحتجون في هذه الأيام. فالسجود للَّه أمر حتمي، وليس لمخلوق قط اختيار في الامتناع عن تقديمه؛ كقول القديس كيرلس رئيس الأساقفة وصاحب القداس الكيرلسي في صلاة الصلح: «اللهم يا من تجثو له كل ركبة ما في السموات وما على الأرض وما تحت الأرض، الذي الكل مذلول وخاضع بعنق العبودية تحت خضوع قضيب مُلكه».

السجود في الطقس الكنيسي:

يقدِّم الإنسان في العبادة حركات خشوعية أمام الله ليعبِّر بها عن خضوعه وخشيته. وهذه الحركات على ثلاثة أنواع:

الأول: وتسمى إحناء الرأس (كما ينادي الشماس: «احنوا رؤوسكم»، وباليوناني «تاس كيفالاس ... إكليناتيه»)، وهي لها مواضع خاصة في العبادة.

الثاني: وتسمى احناء الركب (كما ينادي الشماس: «فَلْنُحنِ رُكبنا»، وباليونانية: «كلينومين تاجوناتا»)، ولها أيضاً مواضع خاصة في العبادة.

الثالث: وتسمى السجود على الأرض (كما ينادي الشماس: «اسجدوا»، وباليونانية: «هبوبيتو»، وبالقبطية («أُوشت»)، ولها أيضاً مواضع خاصة في العبادة.

أما إحناء الرأس فيتم أثناء الوقوف مع إحناء الظهر قليلاً إلى الأمام.

وإحناء الركب يتم بالركوع وملامسة الركب للأرض مع بسط اليدين نحو السماء.

والسجود يتم بالركوع مع انطراح الوجه ليلامس الأرض أيضاً عند الجبهة.

وهذه الأوضاع العبادية، تقليدية تستمد أصولها من العهد القديم ولو أنها في العهد الجديد أصبحت ذات أهمية أكثر بسبب ازدياد الإحساس بالله لا من جهة الرهبة والخوف كسيد فقط بل ومن جهة كثرة مراحمه وبذله وشدة اتضاعه الذي أسر قلوبنا وجعلنا نذوب ذوباناً عند الوقوف أمامه أو أمام صليبه.

وفي العهد القديم كانت العبادة تتم إما في المجامع المحلية أو في الهيكل الرئيسي في أورشليم. ففي المجامع كان لا يجوز السجود إذ كان يُكتفي بإحناء الرأس فقط أو الركوع في اتجاه مكان الهيكل، أما في الهيكل نفسه فكانت العبادة تحتم الركوع والسجود على الأرض بسبب حضور الرب (في قدس الأقداس): «صعدتُ لأسجد في أورشليم» (أع ٢٤: ١١)، (ثم جثا سليمان على ركبتيه تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه نحو السماء وقال: أيها الرب...» (٢أي ٦: ١٣)

«فلما رأي جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا: الرب هو الله الرب هو الله.» (١مل ١٨: ٣٩)

وقد استلمت الكنيسة هذه الأوضاع العبادية التقليدية الهامة من الرسل والتلاميذ أنفسهم، فنجد بطرس الرسول يجثو على ركبتيه في الصلاة: «فأخر ج بطرس الجميع خارجاً وجثا على ركبتيه وصلى.» (أع ٩: ٤٠)

ونجد بولس يجثو أيضاً في صلاته: «ولما قال هذا جثا على ركبتيه مع جميعهم وصلى.» (أع ٢٠: ٣٦)

ومن لغة بولس الرسول نفهم أن الركوع يعبِّر عن عمق صلاة الإبتهال: «بسبب هذا أحني ركبتيَّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح... لكي يعطيكم...» (أف ٣: ١٤و ١٦)

أما عند ذكر العبادة في الهيكل فنسمع بولس الرسول يقول: «صعدتُ لأسجد في أورشليم».

وهنا نستطيع أن نلمح الفرق بين الركوع والسجود، حيث السجود يقدَّم للّه كعبادة خالصة بخوف وهيبة ووقار بدون طلب شيء أو انتظار نوال شئ.

والتفريق بين إحناء الرأس وإحناء الركب والسجود الكامل نجده واضحاً جداً أثناء صلاة القداس:

فعند صلاة التحليل ينادي الشماس: «احنوا رؤوسكم للرب»، حيث ينال الشعب الحِلَّ من الأسقف أو الكاهن وهم واقفون أو جالسون بإحناء الرأس فقط.

أما في أيام الصوم عند الإبتهال والطلبات (كل أيام الصوم في الأربعين المقدسة)، فينادي الكاهن على كل الشعب: «احنوا رُكَبَكُم»، ويبتدئ يقول الطلبات والتوسلات، وفي كل طلبة ينادي قائلاً: «وأيضاً احنوا رُكبكم».

أما في وقت حلول الروح القدس على الجسد والدم فيصرخ الشماس: «اسجدوا للّه بخوف ورعدة»، حيث يتم السجود أمام الله للجسد ثم للدم.

وهكذا ينبغي أن نفرِّق بين نداءات الشماس، لأن كل حركة في العبادة سواء بإحناء الرأس أو إحناء الركب أو السجود تعبِّر تعبيراً طقسياً ذا معنى عميق فيما يختص بالصلاة ودرجاتها.

والخلط بين الركوع والسجود في العبادة أمر شائع حتى في أقوال بعض الآباء، وقليل مَن يفرِّق بين الوضعين. ولكن لو علمنا المدلول الروحي لكل وضع لسهل علينا دائمًا التفريق بين الركوع والسجود.

فالركوع يدل على أننا نتوسل ونبتهل في الصلاة من أجل أنفسنا أو الآخرين، ونطلب من الله رحمةً أو حِلاًّ أو غفراناً منه رأساً أو من فم الأسقف أو الكاهن. ولكن السجود يدل على الخضوع والتوبة سواء للّه فيكون برهبة وانسحاق وخوف عظيم، أو لمن أخطأنا إليه، عظيماً كان أو غير عظيم، ويكون باتضاع فقط. والسجود في هذه الحالة يسمي: «ميطانيا»، ومعناها البسيط: توبة.

وفي الركوع يقول القديس أمبروسيوس:

[نحن نُحني ركبنا، لأن الركب المنحنية أكثر من جميع حركات الجسد الأخرى تهيء للإنسان السماح من الله وزوال نقمته وقبول نعمته.](١)

وفي السجود يقول القديس ديونيسيوس الأريوباغي:

[وكل أصحاب الدرجات الكهنوتية أو المرشَّحين لها يلتزمون بالتقدُّم أولاً نحو المذبح الإلهي ثم السجود لكي يعلنوا خضوعهم وتسليم حياتهم للّه الذي منه سينالون تكريسهم.]

وفي قول للقديس ديونيسيوس الأريوباغي نجد تفريقاً بين سجود الكاهن وسجود الشماس أثناء الرسامة:

[وبينما يركع الأساقفة والكهنة أثناء الرسامة على كلتا الركبتين يركع الشماس أثناء الرسامة على ركبة واحدة.](٢)

(1) Hexam. Lib., VI, C. IX, n. 74.
(2) De Eccl. Hier., C. V., ch. II.

ولكن من العسير فصل الركوع عن السجود عندما يلتهب قلب الإنسان في الصلاة وينتقل من مجرد التوسل إلى تقديم الكرامة الواجبة. ولكن لا ينبغي أن ننتقل من الركوع إلى السجود دون أن ننتقل روحياً وقلبياً من حالة التوسل والطلب إلى حالة التسليم والخضوع.

ويقول القديس كليمندس الروماني:

[ليتنا نسقط أمام الله متوسلين بالدموع.][٣]

ويقول هرماس في كتابه: «الراعي»:

[فجثوتُ على ركبتيّ وبدأت أصلي للّه معترفاً بخطاياي.][٤]

ويقص القديس هيجيسبُّوس سنة ١٧٠ م عن القديس يعقوب الرسول البار:

[إنه كان قد اعتاد أن يدخل الهيكل «في أورشليم» وحده ويظل ساقطاً على ركبتيه.][٥]

ويضيف يوسابيوس عن هيجيسبُّوس، أن ركبتي هذا البار صارتا من كثرة الركوع خشنة وصلبة مثل ركب الجمال.

ويصف الشماس يونتس القديس كبريانوس الأسقف الشهيد عندما كان ذاهباً لمكان الإستشهاد:

[فركع على الأرض وانطرح ساجداً في الصلاة أمام الله.][٦]

ويقص لنا يوسابيوس عن قسطنطين الملك [إنه كان يذهب إلى مخدعه المخصوص داخل القصر في ساعات معينه من النهار ويغلق على نفسه ليناجي الله ويظل ساقطاً على ركبتيه متضرعاً من أجل شئون مملكته.][٧]

كما يذكر يوسابيوس أيضاً عن قسطنطين أثناء مرضه الأخير: [إنه كان يركع على الأرض ويظل متوسلاً.][٨]

(3) Espist. 1 ad. cor., C., 48.
(4) Vis. I, I, I.
(5) Ecc. Hist., II, C., 23.
(6) Vita opp. praefixa.
(7) Vita Const., IV, C., 22.
(8) Ibid., IV, C., 61.

ويقص علينا القديس غريغوريوس النزينزي عن أخته القديسة:

[إن رُكَبَها تصلَّبت من كثرة الركوع وأصبحت منحنية.][٩]

ويقص القديس أوغسطينوس (في كتابه «مدينة الله»)، قصة عن معجزة شفاء تمت أثناء ما كان يصلى مع آخرين، وكيف أن الروح دفع المريض ليشارك الآخرين في الركوع والصلاة:

[وبينما كنا راكعين على الأرض كالعادة، وإذا بالمريض ينطرح أيضاً بقوة خفية ويبتدئ يصلي، مع أنه لم يكن قادراً على الركوع أو الكلام قبلاً.]

ويقول أيضاً القديس أوغسطينوس عن وضع الصلاة المناسب:

[والذي يصلي ينبغي أن يقدِّم من أعضاء جسده ما يناسب التوسل، فعليه أن يركع ثم إما يبسط يديه إلى أعلى أو ينطرح على الأرض.][١٠]

وهنا يفرِّق القديس بين الركوع والسجود.

وفي قول لأرنوبيوس، يلمِّح على أن تقديم السجود للمسيح كعبادة خالصة أمر طبيعي في حد ذاته:

[ونحن نسجد للمسيح طبيعياً لنعبده بصلاة متحدة.][١١]

وفي قول آخر للقديس إبيفانيوس، ويشدد أن العبادة بالسجود إلزام:

[الكنيسة تأمرنا أن نرفع الصلوات للّه بلا انقطاع وبكل مداومة بكل توسل راكعين في الأيام المحدد ليلَ نهار.][١٢]

والقديس چيروم يعتبر السجود تقليداً كنسياً:

[إنه تقليد كنسي أن نحني ركبنا أمام المسيح.][١٣]

وأول تقليد وصلنا عن متي ينبغي السجود ومتى لا ينبغي جاءنا على يد القديس إيرينيئوس، ويقول عند سؤاله أنه منحدر بالتسليم من الرسل:

(9) Orat., VIII, 13.
(10) De Crura Pro Mortuis, C. V.
(11) Adv. Gent. Lib., IC., 27.
(12) De Fide, ch., 24.
(13) Comm. in Isi., CXIV, V, 23.

[وبما أنه واجب علينا ولائق أن نذكر على الدوام سقوطنا في الخطايا وكذلك نعمة المسيح التي بواسطتها قمنا من سقطتنا، لذلك فإن ركوعنا على ركبنا في اليوم السادس (الجمعة) هو إشارة إلى سقوطنا في الخطايا، أمام عدم ركوعنا في يوم الرب (الأحد) فهو إشارة إلى القيامة التي حصلنا عليها بنعمة المسيح التي خلَّصنا بواسطتها من خطايانا ومن الموت.]

وهذا الكلام قاله القديس إيرينيئوس في حديث له يوم عيد القيامة، إسمه «سؤال وجواب للأرثوذكس.»(١٤)

وفي توسل لطيف نسمع أحد أساقفة فرنسا سنة ٦٠٢م، وهو الأب الكبير سيزاريوس أسقف ومدبر «آرلز» المشهور، يحض الشعب على حركات السجود كطقس ضروري للعبادة:

[إني أتوسل إليكم وأُنذركم يا إخوتي الأحباء أنه بمجرد أن تبدأ الصلاة على المذبح بواسطة الكاهن أو عندما ينادي الشماس على الصلاة، فعليكم أن تنحنوا بأمانة ليس بقلوبكم فقط ولكن بجسمكم أيضاً، لأني لاحظت بمزيد الأسف أنه عندما كان يُنادي الشماس: «إحنوا رُكَبكُم» ظل غالبيتكم واقفين كالحيطان، لا يحزنكم هذا فإن كان أحدكم ضعيفاً عن أن ينحني بركبتيه فليحنِ ظهره أو بالأقل يحني رأسه!!

كذلك أُنبّه عليكم محذِّراً أنه عندما ينادي الشماس عليكم، يا أعز أحبائي، لكي تنحنوا لأخذ البركة (أو الحِلّ) فعليكم أن تنحنوا بكل أمانة بكل أجسادك ورؤوسكم أيضاً، لأن البركة وإن كانت تُعطَى لكم بواسطة إنسان (الكاهن) إلا أنها ليست من إنسان (أي من الله).](١٥)

(14) Quast., II, 5.
(15) Serm Caes., IXXXV, I, 5 & sim. IXXXIV, 1, 2.

أقوال الآباء في السجود:

١١٩٦. كل مرة نسجد فيها إلى الأرض نشير إلى كيف أحدرتنا الخطية إلى الأرض، وحينما نقوم منتصبين نعترف بنعمة الله ورحمته التي رفعتنا من الأرض وجعلت لنا نصيباً في السماء.

باسيليوس الكبير

١١٩٧. أما ترتيب السجود وعدد مراته فالمرتَّب في كنيستنا هو أن المصلي يبدأ الصلاة بسجدة واحدة أو ثلاثة سجدات، وفي آخر كل مزمور وتسبحة، وأثناء الصلاة عندما يَرِدْ ذكر السجود لله.

أما الأوقات الممنوع فيها السجود إلى الأرض إذ يُكتفى بالانحناء أو الركوع فقط فهي أيام السبوت والآحاد والخماسين والأعياد السيدية وبعد تناول القربان.

قوانين الكنيسة

١١٩٨. أُسجد في مبدأ صلاتك واسأل الله بانسحاق وتذلل أن يعطيك الصبر في الصلاة وضبط الفكر.

١١٩٩. وعلى الأقل ينبغي للراهب أن تكون المطانيات في كل دفعة ثلاثين، وبعدها يقبِّل الصليب المكرَّم، ويأخذ في الركوع. وقوم يزيدون على هذا العدد حسب قوتهم.

١٢٠٠. إغصب نفسك للسجود أمام الله (ضرب المطانيات) لأنه هو محرك روح الصلاة.

١٢٠١. لا تظن أن السجود أمام الله هو أمر هيِّن. لا شيء من الأعمال الصالحة يوازي المواظبة على تكميل خدمة الصلاة بضرب المطانيات.

١٢٠٢. إذا ضايقتنا الأفكار أثناء الصلاة وشعرنا بالملل، فلنخرّ على الأرض وكتاب الصلاة في أيدينا ونضرع ونحن ساجدون أن يهبنا الله نشاطاً لنكمل خدمة الصلاة.

١٢٠٣. الفضائل التي تُقتني بالراحة تكون دائماً في النهاية من نصيب الشيطان.

١٢٠٤. كلما استنار الإنسان في الصلاة كلما شعر بضرورة وأهمية ضرب المطانيات ويحلو له الثبات فيها. كلما يرفع رأسه ينجذب من فرط حرارة قلبه للسجود لأنه يحس بمعونة قوية في هذه الأوقات ويزداد فرحه وتنعمه.

١٢٠٥. أعطِ نفسك للصلاة وأنت تحصل على لذة المطانيات وتداوم فيها بسرور.

١٢٠٦. رائحة عرق التعب في الصلاة هي أذكي من رائحة البخور والعطور.

مار إسحق السرياني

١٢٠٧. إذا كان تشتت الفكر يلازم السجود دلَّ ذلك على أن العقل لم يتحد بالله بعد. أعرف إنساناً بعد أن أتعب ذاته في الصلاة صار كل مرة يسجد فيها في الصلاة يُبتلَع عقله بالدهش.

١٢٠٨. محبة دوام السجود أمام الله في الصلاة دلالة على موت النفس عن العالم وإدراكها سر الحياة الجديدة.

١٢٠٩. رأيتهم في صلواتهم حينما ينتهون من تلاوة كل مزمور لا يستعجلون في السجود كواجب يُراد إنهاؤه كما يعمل الكثير منا الآن، بل رأيتهم على خلاف ذلك، فبعد أن يفرغوا من المزمور يقفون برهة يرفعون فيها صلاة قصيرة، ثم ينحنون في خشوع ويسجدون إلى الأرض بوجوههم بورع كثير وتقوى شديدة، ثم ينتصبون بخفة ونشاط ويعودون إلى وقفتهم المنتصبة وأفكارهم كلها منحصرة في الصلاة.

الأب يوحنا كاسيان

(يتحدث عن رهبان مصر)

١٢١٠. المداومة على السهر مع ضرب المطانيات بين الحين والآخر لا تتأخر كثيراً عن أن تُكسِب العابد المجتهد فرحة الصلاة.

مارإسحق السرياني

١٢١١. من كثرة ضرب المطانيات يُجهَد الجسد ويسخن تنحل معه كثرة الأفكار، ويصل القلب إلى حالة اتضاع ، ويكون الإنسان في نشوة روحية عالية.

الأسقف إغناطيوس (ب.)

شخصيات أهم الآباء
الذين وردت أقوالهم في الكتاب

(١) البابا أثناسيوس الرسولي
(٢٩٦ . ٣٧٣م)

أسقف الإسكندرية الذائع الصيت في القرن الرابع، وهو البابا العشرون من باباوات الإسكندرية. وهو المعروف بحامي الإيمان، إذ كرَّس نفسه للشهادة عن حقيقة لاهوت المسيح في مجمع نيقية وبعده. معرِّضاً نفسه للنفي والتشريد والإضطهاد والمؤامرات مراراً كثيرة وسنوات عديدة، حتى ثبَّت الإيمان واستقرت النفوس بجهاده وعرقه وأتعابه وآلامه، فكان إناءً مختاراً استخدمه الروح القدس للشهادة للحق كما استخدم الرسل في القرن الأول، ولذلك استحق لقب «الرسولي» عن جدارة.

وُلِد في الصعيد سنة ٢٩٦م، وكان والده كاهناً بإحدى كنائس الصعيد، ثم إتخذه البابا إسكندر تلميذاً له وألحقه بمدرسة الإسكندرية اللاهوتية. قضى عدة سنوات في شبابه المبكر متتلمذاً للقديس أنطونيوس في البرية وصبَّ ماء على يديه.

ألَّف كتابي «الرسالة إلى الوثنيين» و«تجسد الكلمة» وهو في سن العشرين تقريباً.

سيم شماساً عام ٣١٩م، ثم رئيساً للشمامسة، ورافق البابا إسكندر إلى مجمع نيقية عام ٣٢٥م، حيث قام بالدور الرئيسي الفعَّال في دحض بدعة أريوس الموجَّهة ضد شخص المسيح ولاهوته الأزلي.

سيم أسقفاً للإسكندرية عام ٣٢٦م في سن الثلاثين. وبسبب أمانته للحق وثباته على الإيمان المستقيم ودفاعه المجيد عن لاهوت المسيح، لقي اضطهادات لا تُحصى من الأريوسيين ومن الأباطرة الذين أيَّدوهم، فقد تعرَّض في خلال فترة بطريركيته للنفي خمس مرات، تبلغ في جملتها حوالي عشرين عاماً من جملة ٤٧ عاماً قضاها بطريركاً للإسكندرية. وتعرَّض لعداء عدد كبير من الأساقفة الأريوسيين الذين استطاعوا التأثير على الملوك والأباطرة وعلى كثير من الأساقفة في الشرق وفي مصر نفسها حتى وُجِّهت إليه إتهامات باطلة تطعن في عفته، وفي ولائه للدولة، وغيرها من الإتهامات، وحاولوا في عدة مجامع أن يشهِّروا به وحكموا بتجريده وإبعاده عن كرسيه، ولكن كان الله يُظهر الحق في حينه.

وفي سني نفيه كان القديس أثناسيوس يتنقل بين تريف في فرنسا وبين روما وغيرهما من المدن. وصنع صداقات روحية مع أسقف روما وأسقف تريف وإيلاري أسقف بواتييه وكثير من أساقفة الغرب. وكانت فترة وجوده في أوروبا فرصة مناسبة لتعريف الغرب بالرهبنة المصرية، فكتب سيرة القديس أنطونيوس لهذا الغرض، فلقيت إعجاباً من كثيرين من الغربيين.

وقد مرت فترات صعبة في جهاد القديس أثناسيوس لأجل الإيمان صار يُقال له فيها: «العالم كله ضدك يا أثناسيوس»، ولكنه كان بثقة اليقين والإتكال على المسيح الذي يخدمه ويجاهد لأجل حقه، يرد قائلاً: «وأنا أيضاً ضد العالم».

وبعد جهاد أليم مستميت لأجل الحق والإيمان ومحبة المسيح المخلِّص التي ملكت قلبه، لم يحرم الله أثناسيوس من أن يرى بنفسه بداية ثمر تعبه في سنوات حياته الأخيرة، إذ بدأ الإيمان المستقيم يترسخ في الكنائس، وبدأت شوكة الأريوسية تنكسر من الشرق وترك وراءه

عدداً كبيراً من المجاهدين معه لأجل الإيمان. ثم انطلق ليستريح مع القديسين إذ تنيح في عام ٣٧٣م.

وتعيِّد له الكنيسة في ٧ بشنس الموافق ١٥ مايو من كل سنة.

وقد ترك كتابات لاهوتية هامة في مواضيع متعددة وله رسائل كثيرة وعظات أهمها رسائله عن «الروح القدس».

(٢) أبَّا أرسانيوس الكبير
المشهور بلقب «معلم أولاد الملوك»
(٣٥٤ ـ ٤٤٥م)

وُلِد في روما من عائلة غنية فاضلة تقية. وتربى في أحضان الكنيسة من صغره. وأتقن العلوم واللغتين اليونانية واللاتينية. كما أتقن الفضيلة والتقوى ولما تملَّك الإمبراطور ثيئودوسيوس الكبير على القسطنطينية سنة ٣٧٨م، أخذ يبحث في الإمبراطورية الرومانية عن رجل جمع بين التقوى والعلم والحكمة ليعلِّم ولديه أركاديوس وهونور يوس، فلم يجد البطريرك أفضل من أرسانيوس فأوفده إلى الملك الذي أكرمه جداً وأعطاه السلطة الكاملة لتربيتهما. وذات يوم صلى أرسانيوس إلى الله ليرشده إلى طريق الخلاص فأتاه الصوت: «أرساني أرساني، إهرب من الناس فتنجو»، فترك أرسانيوس البلاط في سن الأربعين إلى حياة النسك التي أحبها، وسافر إلى الإسكندرية ومنها إلى الأسقيط حيث قابل القديس مكاريوس الكبير الذي رهبنه وأعطاه قلاية في طرف الأسقيط لحبه للعزلة. فأتقن الصمت والزهد والتقشف والتواضع.

ولما تخرَّب الأسقيط ذهب مع تلاميذه إلى جبل أطراوس وهو جبل المقطم شرقي طرة، فسكن في مغارة في الجبل عشر سنوات. ولما كثر زواره سافر إلى الإسكندرية وعاش في كينو بيون (مجمع للرهبان)، وبعد سنة عاد إلى تلاميذه في جبل طرة، حيث تنيح سنة ٤٤٥م. وأمر الملك ثيئودوسيوس الصغير ابن أركاديوس بنقل جسده إلى القسطنطينية.

وله «توجيهات للرهبان». وتعيد له كنيستنا في ١٣ بشنس.

(٣) مار إسحق السرياني
أسقف نينوى
في أواخر القرن السادس الميلادي

دخل مع أخيه دير القديس متى في نينوى، ثم توحد في مغارة . ولما اشتهر علمه وقداسته اختير أسقفاً لمدينة نينوى.

وفي أول يوم من أسقفيته أتاه دائن ومدين يحتكمان إليه. فطلب المدين من الدائن أن يمهله قليلاً إلى أن يجمع له المال ويوفي الدين. فأبى الدائن وأصرَّ على تسليمه للحاكم. فأجابه القديس مارإسحق: «إن الإنجيل المقدس يأمر بأن الذي يأخذ مالك لا تطالبه، فلا أقل من أن تصبر عليه». فأجاب الدائن: «دع عنك كلام الإنجيل»، فقال مار إسحق: «إذا كانوا لا يستمعون لكلام الإنجيل فماذا أتيتُ لأعمل؟»

ولما رأى أن تدبير شئون الأسقفية سيُفسد عليه عمل وحدته، ترك الأسقفية وهرب إلى برية الأسقيط وأكمل جميع أيام حياته فيها.

وبلغ حداً عالياً من القداسة. وكان معلماً ومرشداً للرهبان وميناء خلاص لكل أحد. ووضع أربعة كتب غايةً في الروحانية في تعليم النسك والتوحد، تُرجمت إلى العربية. وله كتب أخرى بالسريانية لم تُترجم بعد إلى العربية.

(٤) أبَّا إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس
(القرن الرابع)

تتلمذ للقديس أنطونيوس فترة من الزمن ثم رحل إلى نيتريا، واستقر فيها مع رهبان القديس مكاريوس الإسكندري. ويقول عنه پالليديوس أنه كان يحفظ الكتب المقدسة عن ظهر قلب، وكان يمسك بالثعابين المميتة دون أن تؤذيه. وقد عاش خمسين سنة في الوحدة وتتلمذ له ١٥٠ راهباً.

وقد سجل له كاسيان أحاديث قيّمة وهامة عن الصلاة. وقد تنيح في أوائل القرن الخامس.

(٥) الأسقف أوغسطينوس الأفريقي
(٣٥٤ - ٤٣٠م)

وُلِد أورليوس أوغسطينوس سنة ٣٥٤م. في تاجست بشمال أفريقيا. وكان أبوه «باتريكس» وثنياً منغمساً في الشهوات، وأمه «مونيكا» مسيحية مولداً وخُلُقاً. وكان لعنايتها بتربية ابنها رغبتها الملحة في تقدمه الروحي، أثر كبير في حياته.

إلتحق بالمدرسة في البلدة المجاورة «مادورا» حيث بدأ يتأثر بالعادات السيئة التي لزملائه. وقد أعان عائلة أوغسطينوس جارُها الغني «رومانيانوس» لإلحاقه بمدرسة العاصمة «قرطاجنة». فكان عمره ١٦ سنة حينما بدأ يدرس البلاغة.

وهناك تدهورت أخلاقه مع أقران السوء حتى وقع في علاقات غير شرعية مع فتاة أنجب منها ابناً سنة ٣٧٢م سماه «أدوديتس»، ومع كل ذلك فمستواه الأخلاقي كان أعلى من مستوى طلبة قرطاجنة.

ولما توفي أبوه سنة ٣٧١م استمر صديقهم رومانيانوس في مساعدته مالياً لإكمال تعليمه في قرطاجنة. وكان أوغسطينوس توّاقاً لأن يحصل على مركز ممتاز في المجتمع، إلا أن دراسته أقنعته بحاجته الملحّة «للحكمة». ومن ذلك الوقت بدأ يبحث عن «الحق». فاتجه إلى دراسة الكتاب المقدس، ولكن بساطة أسلوبه ردّته عن ذلك. ثم اعتنق المانوية.[1]

ولما أكمل دراسته عاد إلى تاجست مدرساً للنحو. وقد اضطربت أمه لاعتناقه بدعة المانوية ورفضت قبوله في بيتها. فعاش مع رومانيانوس.

وأخذت أمه تبكي من أجل خلاص نفسه. وفي الليل ظهر لها الأسقف أمبروسيوس في رؤيا وقال لها: «ثقي أن ابن الدموع لن يهلك». فاطمأنت وقبلت أوغسطينوس في البيت ثانيةً.

وعاد إلى قرطاجنة مدرساً للبلاغة، وكتب أول مؤلفاته وبدأ إيمانه بالمانوية يتزعزع. ثم نزح إلى روما ثم إلى ميلانو مدرساً للبلاغة حيث تعرَّف بالأسقف أمبروسيوس الذي عامله بمنتهي العطف والمحبة. فأحبه أوغسطينوس وبدأ يستمع إلى عظاته، لا لكي يتعظ بها، ولكن لكي يدرس ما فيها من بلاغة؛ ولكنها في النهاية قادته إلى مراجعة مبادئه. فأخذ يدرس مع أمبروسيوس العهد القديم ثم رسائل معلمنا بولس.

وفي يوم من الأيام استمع إلى قصة أنبا أنطونيوس وكيف أنه لما سمع الآية (مت ١٩: ٢١) ترك كل شئ وذهب إلى البرية. وحينئذ إلتهبت روحه فيه وخرج إلى الحديقة يقول لنفسه: «ليته يكون الآن...». وفي صراع نفسي عميق وبكاء ودموع صرخ إلى الله لكي لا يسمح بتأجيل تجديده. فسمع من البيت المجاور صوت طفل يقول: «خذ واقرأ»، فاعتبره صوتاً من السماء. أخذ الكتاب المقدس وفتح فإذا بالآية: «لنسلك بلياقة كما في النهار لا بالبَطَر والسكر، لا بالمضاجع والعَهَر، لا بالخصام والحَسَد. بل إلبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات» (رو ١٣: ١٣ و١٤). ولم يكمل القراءة، إذ ملأ سلام الله قلبه. وكان ذلك في خريف سنة ٣٨٦م، ففرحت أمه جداً لاستجابة الله لصلواتها. وبعد فترة من الاستجمام والدراسة عمَّده أمبروسيوس هو وابنه أدوديتس في ميلانو. وماتت أمه في إيطاليا، فمكث في روما إلى سنة ٣٨٨م، ثم عاد إلى قرطاجنة.

وقضي ثلاث سنين في الصلاة والدراسة، ثم باع كل ممتلكاته ووزعها على الفقراء، وبدأ يبحث عن مكان يصلح لإقامة دير. فذهب إلى «هِبُّو» سنة ٣٩١م. ولكنه ما أن دخل الكنيسة حتى رشحه الشعب بالإجماع، فسامه الأسقف فاليريوس قساً للمدينة.

---

(١) هي بدعة ذات أصل هندي، إذ أراد صاحبها «ماني» أن يخلط بين المسيحية والبوذية والزرادشتية. وتقوم البدعة على مبدأين متعارضين أو على وجود إلهين: إله الخير وإله الشر ولذلك جاءت تطبيقاتها العملية مجموعة متناقضات.

ولمعرفة الأسقف برغبته في الرهبنة خصص له ديراً في حديقة الأسقفية حيث تجمَّع بعض الإخوة وعاشوا عيشة مشتركة. وكان هذا أول دير في أفريقيا الشمالية (خلاف مصر طبعاً) وأصبح الدير مدرسة لاهوتية لإعداد رجال الإكليروس.

وفي سنة ٣٩٥م سيم أسقفاً «لهِبُّو» فحارب البدع المنتشرة. وكان يعمل ويعلم. وتنيح سنة ٤٣٠م. عن ٧٦ عاماً، تاركاً مؤلفات تُعتبر من الكنوز اللاهوتية والروحية والتفسيرية الثمينة. أشهرها: «الإعترافات» و«مدينة الله».

(٦) الأسقف إغناطيوس بريانتشانينوف
(١٨٠٧ - ١٨٦٧م)

وُلِد في سنة ١٨٠٧م في مدينة سان بطرسبرج بروسيا. وتلقي تعليمه في كلية الهندسة بنفس المدينة وبعد تخرجه اشتغل مدة من الزمن مهندساً ثم استقال ودخل الدير وترهب. وقد كتب مؤلفات نسكية ولاهوتية كثيرة. ومن أشهر مؤلفاته كتاب عن «صلاة يسوع» الذي تُرجم من اللغة الروسية إلى عدة لغات أوروبية. وقد سيم أسقفاً على إيبارشية بريانتشانينوف في روسيا، وقد اقترن اسمه باسم إيبارشيته، فقد كان أميناً في رعاية شعبه بإخلاص ومحبة وتضحية. وتنيح سنة ١٨٦٧م.

(٧) مارأفرآم السرياني
(٣٠٣ - ٣٧٣م)

وُلد سنة ٣٠٣م بمدينة نصيبين فيما بين النهرين من أبوين مسيحيين سريانيي الجنس، وتشرَّب منهما حب التقوى والإلتصاق بالكنيسة. وقد تتلمذ للقديس يعقوب أسقف نصيبين وحضر معه مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. وبعد سقوط نصيبين في أيدي الفرس عام ٣٣٧م غادرها مار أفرآم واستقر بمدينة الرها حيث تتلمذ على يد راهب شيخ يُسمى ماريوليان، ثم عمل مدرساً في مدرسة الرها اللاهوتية الشهيرة. وقد تبحَّر في دراسة الكتب المقدسة وعلوم الكنيسة وكَتَب تفسيرات كثيرة لأسفار من الكتاب المقدس. وفي أثناء اشتغاله بالتعليم بمدرسة الرها قاوم كثيراً من البدع التي كانت شائعة في ذاك الوقت ونظم لهذا الغرض أناشيد عذبة ضمَّنها حقائق الإيمان المستقيم ولقَّنها للفتيان والفتيات وكانت هذه وسيلة فعَّالة في مقاومة آراء المبتدعين في وسط الشعب.

وقد اجتذبت شهرة القديس باسيليوس الكبير مار أفرآم لزيارة قيصرية كبادوكية لكي يرى ذلك الشخص الذي استُعلن له في حلم على هيئة عمود من نار ممتد من الأرض إلى السماء. فانطلق مار أفرآم إلى قيصرية بصحبة مترجم. ولما دخل إلى الكنيسة، وبعد أن استمع إلى عظة القديس باسيليوس، أرسل القديس باسيليوس شماسه ليأتي إليه بمار أفرآم إذ أن القديس باسيليوس عرفه بالروح، ولما التقيا تعانقا وقد قام القديس باسيليوس برسامته شماساً. وأثناء الرسامة أعطى الروح القدس لكل منهم لسان (لغة) الآخر، فصلى القديس باسيليوس بالسريانية ومار أفرآم باليونانية.

وقد شهد القديس باسيليوس أنه تعلم بعض أشياء مهمة ودقيقة من مار أفرآم في فهمه للوحي الإلهي، وقد كانت حياته النسكية وزهده وتجردُّه من أهم الأسباب التي جعلت القديس باسيليوس يثق في آرائه وتفسيراته.

وقد زار مار أفرآم البراري المصرية وقضى في أديرتها ثماني سنوات. وتوجد شجرة في دير السريان من المتواتر أنها كانت عصا مارأفرآم السرياني.

وفي عام ٣٧٣م حدثت مجاعة مهلكة شملت الرها كلها مما جعل مار أفرآم يخلي نفسه من مشاغله ويتفرغ لإغاثة المنكوبين والمرضى فكان يطوف بدور الأغنياء ويجمع منهم الأموال لأجل إغاثتهم.

وقد أغنى مار أفرآم الكنيسة السريانية بأناشيده وقصائده التي بلغت من أهميتها درجة جعلت الكنيسة السريانية تستعملها في خدماتها الطقسية قبل انتقاله. وبلغت قصائده الشعرية بالسريانية اثنتي عشر ألفاً، وفيها تحدث في كل أمور الإيمان المسيحي عن الثالوث والتجسد والبتولية والتوبة والكهنوت والرهبنة وما بعد الموت. وبسبب كثرة مؤلفاته وتفاسيره وقصائده الدينية

سفّي «الملفان» أي «المعلم» و«المفسر» وسُمِّيَ أيضاً «قيثارة الروح القدس» و«نبي السريان». وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى اليونانية قبل انتقاله، ثم إلى مختلف اللغات فيما بعد. وهو يُعتبر من أعظم آباء الكنيسة السريانية.

وفي يوم ٩ يونيو عام ٣٧٣م تنيح مار أفرآم، فشيعته مدينة الرها كلها لأنه كان بمثابة الأب المحب لجميع الشعب. وتعيِّد له كنيستنا في يوم ١٥ أبيب.

(٨) أبّا أنطونيوس الكبير
أب الرهبان

وُلِد سنة ٢٥١م ببلدة قِمَن العروس بمحافظة بني سويف، ومات والده وهو حديث السن. فباع أملاكه ووزعها على الفقراء على أثر سماعه فصل الإنجيل القائل: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهبْ وبعْ كل أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء.» (مت ١٩: ٢١). وانعزل في منزل بجوار القرية للتعبُّد مسترشداً بأحد الشيوخ المتعبدين. ثم توغل بعد ذلك في البرية الشرقية سنة ٢٨٩م، وبعد أن قضى عشرين سنة في عزلة تامة، رضي أخيراً أن يجلس إلى الزائرين الذين أتوا إليه وتتلمذوا على يديه، فعلَّمهم حياة التوحد. وهكذا إجتمع له تلاميذ كثيرون وصار أباً لجميع الرهبان. وكان لسيرته تأثير على كثيرين، كما كانت المعجزات التي أجراها الله على يديه سبباً في تثبيت الإيمان وخلاص النفوس، وفي أواخر حياته زار القديس بولا السائح.

وقد كتب البابا أثناسيوس سيرة أنبا أنطونيوس، وكان لهذه السيرة تأثير كبير في تغيير حياة أوغسطينوس حتى صار قديساً.

وللقديس أنطونيوس عشرون رسالة وأقوال أخرى متناثرة جاءت في كتاب أقوال الآباء وبستان الرهبان[٢].

وتعيِّد له كنيستنا في ٢٢ طوبة.

(٢) أنظر كتابي «القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي»، و«رسائل القديس أنطونيوس» مع تعليقات روحية عليها، للأب متى المسكين.

(٩) الشهيد إيرينيئوس أسقف ليون
(١١٥ ـ ٢٠٢م)

وُلِد حوالي سنة ١١٥م. في سميرنا (أزمير) بآسيا الصغرى. نشأ وتربي فيها، وتمتع بامتياز تتلمذه على يد القديس پوليكارپوس (أسقف سميرنا) تلميذ القديس يوحنا الرسول. وقد لازم معلمه پوليكارپوس حقبة طويلة من الزمن تشرَّب فيها روح التعليم الرسولي المسلَّم لپوليكارپوس من يوحنا الرسول. ويقول إيرينيؤس نفسه: «إن ما سمعته من پوليكارپوس هو منقوش على قلبي، وبنعمة الله أستعيد إلى ذهني ما سمعته منه على الدوام». لذلك يُعتبر إيرينيئوس مصدراً هاماً من مصادر التقليد الرسولي.

وقد رافق إيرينيئوس معلمه پوليكارپوس، في رحلته إلى روما سنة ١٥٤م. لأجل الإتفاق على تحديد موعد عيد الفصح. ثم ذهب بعد ذلك ليبشر في جنوب فرنسا (بلاد الغال). وبعد استشهاد الأسقف بوتين الشيخ أسقف ليون، اختير إيرينيئوس خلفاً له سنة ١٧٨م. وجعل يجاهد بغيرة رسولية لأجل نشر الإيمان في بلاد الغال ولأجل المحافظة على وديعة الإيمان من الانحرافات والبدع التي كانت قد بدأت تنتشر في ذلك الوقت. ومن أجل هذا الغرض ألَّف إيرينيئوس بعض الكتب التي صارت مصدراً هاماً في التعرُّف على التعليم الرسولي النقي. وقد اجتذب إيرينيئوس كثيرين من الوثنيين إلى الإيمان بالمسيح.

ثم ختم حياته كشهيد في اضطهاد الإمبراطور ساڤيروس سنة ٢٠٢م.

(١٠) الأسقف إيلاري من بواتييه
(؟ ـ ٣٦٨م)

وُلِد في بواتييه عاصمة مقاطعة اكريتين ببلاد الغال (فرنسا). ودرس الآداب اللاتينية. وأدت دراسته للكتاب المقدس إلى اعتناق المسيحية سنة ٣٥٠م.

ولما خلا كرسى بواتييه إختاروه أسقفاً له. فقاد الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الأريوسية في بلاد

الغال. ولذلك يسمونه «أثناسيوس الغرب»، فنُفي إلى فيريجيا في آسيا الصغرى. وهناك انتهز فرصة نفيه وعمل على تقريب وجهات النظر بين أساقفة آسيا الصغرى والغال، كما كتب بعض مؤلفاته هناك. وبعد أربع سنوات في النفي ذهب إلى القسطنطينية ومنها عاد إلى بلاد لغال وفي سنة ٣٦٢م زار إيطاليا. وبعد أن عاد مكث في كرسيه ثلاث سنوات في سلام. وتنيح سنة ٣٦٨م بعد أن ترك تفاسير وكتباً كثيرة.

(١١) باسيليوس الكبير رئيس الأساقفة
(٣٢٩ ـ ٣٧٩م)

وُلِد سنة ٣٢٩م بمدينة قيصرية من أسرة غنية وعريقة في التقوى والعلم. وبعد أن تلقى مبادئ الفلسفة من والده إلتحق بمعاهد قيصرية فلسطين ثم القسطنطينية ثم أثينا. واستمر بالأخيرة من نحو سنة ٣٥١ إلى سنة ٣٥٥م. وإمتاز في كل منها بنبوغه. وقابل في أثينا زميله غريغوريوس الثيئولوغوس. وبعد رجوعه إلى وطنه، انكب على دراسة الفلسفة. وفي سنة ٣٥٧م جال وسط رهبان وادي النطرون ثم عاد إلى بلاده، وتوحَّد في كبادوكية للعبادة، ووافاه هناك القديس غريغوريوس للإشتراك معه في التنسك وفي فلاحة قطعة أرض ليقتاتا من محصولها.

ويُعتبر القديس باسيليوس مؤسساً لنوع من الشركة الرهبانية في بلاد البُنْطُس (آسيا الصغرى)، حيث تجمَّع حوله عدد كبير من راغبي النسك والتعبُّد من كل المنطقة المحيطة وليس من الرجال فقط، بل أيضاً من النساء تكونت جماعات من الراهبات بقيادة القديسة ماكرينا أخت القديس في نفس هذه البقعة.

والنظام الرهباني الذي أسسه هذا القديس يشبه إلى حد كبير نظام الشركة المعروف في صعيد مصر والذي أسسه القديس باخوميوس. وكان رهبان الشركة الباسيلية يقومون بالتبشير وتثبيت المؤمنين على إيمان مجمع نيقية إلى جانب الصلاة والدراسة والعمل اليدوي.

وفي سنة ٣٧٠م سيم رئيس أساقفة على قيصرية كبادوكية، وكان هذا إنتصار كبيراً للأرثوذكسية أمام الرياح الأريوسية. وقد تعرَّض مع المسيحيين للضيقات والاضطهادات التي وقعت عليهم من الإمبراطور ڤالِنس الأريوسي، وظل صامداً مشدِّداً رعيته ومدافعاً عن الإيمان الأرثوذكسي حتى تنيح بسلام سنة ٣٧٩م.

وللقديس باسيليوس كتابات كثيرة هامة وعميقة في مختلف المجالات المسيحية. فله في تفسير الكتاب المقدس كتاب هكساميرون وهو شرح وافٍ وتأملات عميقة عن ستة أيام الخليقة، وله أيضاً شروحات لكثير من المزامير وتفسير لجزء من إشعياء، ومن أشهر مؤلفاته اللاهوتية كتابه عن الروح القدس. وله رسائل كثيرة بلغت ٤٠٠ رسالة. هذا بالإضافة إلى مؤلفات كثيرة عقائدية وروحية وفي القانون الكنسي. وله كتابات نسكية شهيرة؛ هذا بخلاف القداس الإلهي المعروف باسمه.

وتعيِّد له كنيستنا في ٦ طوبة.

(١٢) الأسقف بالليديوس
كاتب تاريخ الرهبان
(٣٦٤ ـ ٤٣١م)

وُلِد في غلاطية حوالي سنة ٣٦٤م. وترهب في سن العشرين. وعاش مع القديس إينوسنت على جبل الزيتون ثلاث سنوات من سنة ٣٨٦م، وزار مصر المرة الأولى من سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٩م، حيث عاش مع رهبان برية شيهيت لدراسة الحياة النسكية وليتدرب على الفضائل التي اشتهروا بها. ثم عاد إلى بيت لحم ثم إلى أورشليم وسيم أسقفاً لهلينوپوليس سنة ٤٠٠م.

وكان من المدافعين عن القديس يوحنا ذهبي الفم. فنُفي إلى أسوان سنة ٤٠٦م ومكث في مصر العليا منفياً ست سنوات إلى ٤١٢م، وعندما عاد إلى غلاطية كتب تاريخاً عما رآه وسمعه عن رهبان الأسقيط حوالي سنة ٤٢٠م في كتاب «تاريخ الرهبان»، وأهداه إلى لوزاس أمين الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثاني.

وقد اشتهر هذا الكتاب باسم «التاريخ اللوزياكي» لپالليديوس، وهو يُعطي في هذا الكتاب وصفاً للحركة الرهبانية في مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى

في القرن الرابع. ولذلك يُعتبر كتابه هذ أحد المصادر الهامة جداً عن تاريخ الرهبنة الأولى. وهو يجمع في هذا الكتاب بين ما رآه ولاحظه بنفسه في حياة الرهبان الذين عاشرهم وبين ما استلمه من آخرين عن حياة الرهبان بقصد منفعة القارئ وبنيانه روحياً. وهو لا يحاول أن يدافع عن الرهبنة ولكنه يذكر الحقائق كما رآها وسمعها. وكان يمقت الكبرياء والعجرفة مقتاً شديداً حتى أنه قال في مقدمة كتابه هذا: «أن تشرب خمراً بتمييز أفضل من أن تشرب ماءً بكبرياء».

وقد تنيح سنة ٤٣١م قبل انعقاد مجمع أفسس بفترة قصيرة.

(١٣) العلأمة ترتوليان
كاهن قرطاجنة بشمال أفريقيا
(١٥٠ . ٢٢٠م)

وُلِد سنة ١٥٠م من عائلة وثنية ودرس الفلسفة والقانون كما ألمَّ بالتاريخ والطب. ومارس المحاماة ونبغ فيها، وكان يكتب باليونانية وباللاتينية بسهولة.

وقد إتَّبع العادات الوثنية، وشرب من كأس الملذات العالمية إلى سن الرجولة. ولما رأى قوة احتمال المسيحيين للإضطهادات وإقبالهم على الاستشهاد بفرح في روما، آمن واعتمد في سن الأربعين. وهو صاحب القول المأثور: «دماء الشهداء بذار الإيمان».

ولما عاد إلى قرطاجنة وبدأ يدافع عن الإيمان سيم قساً واتفق مع زوجته على اعتزال الحياة الزوجية وبدأ في ممارسة النسك والتقشف. وله مؤلفات عديدة. وتنيح بعد سنة ٢٢٠م.

(١٤) الأسقف تيخون زادونسكي
(١٧٢٤ . ١٧٨٣م)

وُلِد عام ١٧٢٤م في قرية كورتسك إحدى قرى إيبارشية نوفوجورود في روسيا، وبعد أن تخرَّج من معهدها اللاهوتي عُيِّن مدرساً بنفس المعهد في سن الثلاثين. وفي إحدى ليالي شهر مايو خرج بمفرده يتأمل الطبيعة ويفكر في السعادة الأبدية. ويصف هو ما حدث في تلك الليلة فيما بعد لتلميذه قائلاً:

«فجأة بدت لي السماء كأنها تنفتح أمامي ويشرق منها شعاع ذو لمعان فائق يعجز أي لسان بشريٍّ عن وصفه وأي عقل عن تصوُّره. وهذا اللمعان الفائق كان لمدة قصيرة لا تزيد عن دقيقة ثم رجع منظر السماء إلى صورته المألوفة. وهذا المنظر العجيب جعلني ألتهب بشوق جارف نحو حياة الإعتكاف. وظللت مدة طويلة بعد تلك الليلة مأخوذاً بحالة من الدهش بسبب هذه الظاهرة المذهلة. وإلى الآن، كلما أذكر تلك الليلة، فإن قلبي يمتلئ فرحاً وسروراً».

وفي سنة ١٧٥٨م ترهب بدير القديس أنطونيوس القريب من مدينته، ثم بعد ذلك بسنة انتُدِب رئيساً لدير آخر، وفي سنة ١٧٦١م رسُم أسقفاً على نوفوجورود وفورنيز. وظل تيخون في الفترة من سنة ١٧٦١ . سنة ١٧٦٧م يجاهد في توعية كهنة الإيبارشية وتعليم رعيته والعناية بها. وقد ألَّف لهذا الغرض عدة كتب أشهرها «المسيحية الحقيقية»، ولكنه اضطر في سنة ١٧٦٧م إلى التخلي عن أسقفيته بسبب مرضه وضعف صحته، واعتكف بقية حياته في دير زادونسك حيث كان يقضي وقته في الصلاة والتأمل في الكتب المقدسة إلى أن تنيح سنة ١٧٨٣م.

(١٥) الأسقف ثيئوفان الناسك
(؟ . ١٨٩٤م)

أحد أساقفة روسيا المشهورين في القرن التاسع عشر، وهو الذي قام بترجمة الفيلوكاليا اليونانية إلى اللغة الروسية، وله كتابات لاهوتية كثيرة، وقد تنيح عام ١٨٩٤م.

(١٦) الأسقف ثيئوفيلس الأنطاكي
(؟ . ١٨٢م)

وُلِد في بلاد ما بين النهرين من أبوين وثنيين. ونشأ محباً للعلم والدراسة ودرس علوم عصره باليونانية وتفقَّه في فلسفتها، ولكن قلبه لم يسترح بالفلسفة ثم عكف بعد

ذلك على دراسة الأسفار المقدسة فاشتعل قلبه شوقاً إلى المسيح وتحول وأعلن إيمانه المسيحى، اعتمد.

ثم كرَّس كل جهوده وحياته للتبشير بالمسيح بين الوثنيين وخصوصاً بين المثقفين والفلاسفة منهم. ولما خلا كرسي أسقفية أنطاكية سنة ١٦٩م أجمع المؤمنون على اختياره أسقفاً لأنطاكية فصار الأسقف السابع على الكرسي الأنطاكي . منذ عصر الرسل، فازداد في جهاده في نشر الإيمان والدفاع عن التعليم الصحيح في مواجهة البدع المعاصرة.

وكتب تفسيرات لبعض الأسفار المقدسة، وألَّف كتباً في تعليم الإيمان عن الثالوث الأقدس عن معرفة الله. وألَّف كتاباً لاجتذاب الوثنيين للمسيحية بيَّن فيه سمو التعليم المسيحي وطهارة سلوك المسيحيين وعيشهم بالسلام والمحبة وطاعة الله.

ثم تنيح عام ١٨٢م. وتعيِّد له الكنيسة الأنطاكية في ٢٣ يوليو من كل عام.

(١٧) الأب حزقيوس الأورشليمي
(؟ . ٤٣٨م)

وُلِد في أورشليم . في النصف الأخير من القرن الرابع . وتعلم في نفس المدينة، وتتلمذ على يدي القديس غريغوريوس النزينزي. وبكثرة تأمله في الكتاب المقدس إقتنى معرفة واسعة بالأمور الإلهية، واشتهر بتفاسيره الدقيقة للكتاب المقدس. وفي سن الرجولة توحَّد في الصحراء حيث جمع الفضائل من قديسي البرية كما تجمع النحلة العسل من رحيق الزهور، وسامه بطريرك أورشليم قساً رغماً عن إرادته. وتنيح حوالي سنة ٤٣٨م. وله تفاسير لكثير من أسفار العهدين القديم والجديد.

(١٨) أبَّا سمعان العمودي
(٣٨٨ . ٤٥٩م)

وُلِد سنة ٣٨٨م بقرية الصيص بالقرب من مدينة نيفوبوليس على حدود سوريا الشمالية. وفي عمر ١٦ سنة ترهب في دير «يوز يبونا» في تل «عدَّا» بمنطقة أنطاكية، وأهدى ميراثه وماله للدير والأديرة الأخرى. ومكث بالدير عشر سنوات.

ولمبالغته في التقشف، طرده رهبان ديره، فعاش على عمود مرتفع. ثم عاد فبني خلال سبعة أعوام ثلاثة أعمدة كان إرتفاع الأخير منها ٢٠ متراً وكانت مساحة قاعدته العليا متراً واحداً مربعاً. وقد عاش فوق عموده الأخير ثلاثين عاماً دون أن يهبط إلى الأرض، وكان تلاميذه يحملون إليه احتياجاته، وفوق هذا العمود كان القديس ينام ويصلي ويقوم بالتبشير لردِّ كثيرين عن الوثنية إلى النصرانية كما كان يشترك في توجيه سياسة الكنيسة. واستشاره ملوك من أوروبا وأساقفة وكان يرسل لهم رسائل بالردود حسب ما يوحي إليه الروح.

تنيح في السبعين من عمره سنة ٤٥٩م . ودُفن في أنطاكية. وتعيِّد له كنيستنا في ٣ مسرى.

(١٩) الأب سيرافيم ساروفسكي
(١٧٥٩ . ١٨٣٣م)

وُلِد سنة ١٧٥٩م في مدينة كورسك في روسيا من عائلة تقية تشتغل بالتجارة. وقد اعتراه في طفولته مرض خطير، وكان يرى السيدة العذراء تتحدث معه أثناء مرضه وتَعِدْه بالشفاء. وكان يحس في نفسه أنه مدعو إلى الحياة الرهبانية. ولما بلغ سن العشرين تخلى عما ورثه من والده ووزع كل ما يملكه على الفقراء وترك مدينته وهو لا يحمل معه إلا كيساً صغيراً وعصا. وكان كنزه الثمين الوحيد صليباً من نحاس احتفظ به طوال حياته.

وفي سنة ١٧٧٩م دخل دير ساروف وعاش فيه كمبتدئ إلى سنة ١٧٨٦م، وكان طائعاً لأبيه الروحي طاعة مطلقة. عمل أولاً في فرن الدير ثم نجاراً. ورغم إنشغاله بالأعمال اليدوية لم يكلّ من الصلاة وتلاوة الكتاب المقدس وكتابات الآباء القديسين، وكان اسم الرب يسوع لا يُفارق شفتيه. كان ميالاً للصمت، قليل الكلام، يتجنب الإختلاط بالناس. وفي أوقات فراغه كان يذهب إلى الغابة المجاورة للدير حيث يقضي وقته في الصلاة. ومع ميله للإعتزال، فلم يكن عبوساً مقطباً

بل بشوشاً يشجع المحزونين إما بكلمة تخرج من فمه أو بابتسامة على شفتيه. وهذه البشاشة والطمأنينة التي كانت تبدو عليه لم تُفارقه حتى في وقت مرضه وأوجاعه. فقد أصيب مرة بمرض مزمن استمر ثلاث سنوات لم يتذمر خلالها قط ولم يستشر طبيباً. وظهرت له في أثناء مرضه السيدة العذراء للمرة الثانية. وكان نتيجة ظهورها أن شُفي من علَّته، وسمعها تقول وهي تشير إليه: «إن هذا من جماعتنا».

وفي سنة ١٧٨٦م لبس بروخور (وهو اسمه الأصلي) الإسكيم الرهباني وأصبح اسمه «سيرافيم ثم سيم شماساً فكاهناً. واشتهرت هذه الفترة من حياته باشتراكه إشتراكاً روحياً حاراً في الصلوات الكنسية. وحدث مرة أثناء خدمة الجمعة العظيمة أن ظهر له الرب يسوع وعلى وجهه سيماء «ابن الإنسان المتألم».

وفي سنة ١٧٩٤م بدأت تظهر في حياته تباشير ظواهر جديدة. فقد حصل سيرافيم على إذن بالإعتزال في مكان بعيد عن الدير، فانزوى في كوخ صغير حقير في بطن الغابة.

ومنذ ذلك الوقت بدأت صلواته الطويلة الإنفرادية وانطلاقة الروحي غير العادي، الذي ظهرت ثماره فيما بعد قرب نهاية حياته. ورغم هذا كان يعود إلى الدير كل يوم أحد للإشتراك في القداس الإلهي والتناول.

وفي وحدته كان يسعى جاهداً ليحيا روحياً حياة المسيح الأرضية. وهكذا تحولت المنطقة المحيطة بكوخه الصغير إلى «مواضع مقدسة». فأصبحت إحدى الزوايا «مدينة الناصرة» يترنم فيها بتحية الملاك للعذراء، وكان يتأمل في إحدى المغائر القريبة منه ويتصور ولادة المخلِّص فيها، ويلذ له تلاوة العظة على الجبل فوق قمة هضبة قريبة. وكان له في أحد جوانب الغابة «جبل تابور» و«جثسيماني» و«الجلجثة» حيث كان يجتهد أن يشترك في آلام المسيح. وفي وحدته خضعت له وحوش الغابة وكانت تأنس إليه وتأكل من يده كأنما حملان.

وفي مكان عزلته هاجمته عصابة من قطَّاع الطرق وضربوه بالعصي وجرحوه جراحات أدت إلى إصابته بعاهة مستديمة اضطرته أن يمشي مقوس الظهر معتمداً على العصى كشيخ مسن. وتسببت هذه الحادثة في تركه العزلة وعودته إلى الدير، إلا أن السيدة العذراء ظهرت له في رؤيا كي يرجع إلى صومعته، وطلبت منه أن يستعد للسير في جهادات روحية جديدة.

ولما اعتقلت الحكومة رجال العصابة التي هاجمته وعزمت على معاقبتهم، رفع سيرافيم صوته مطالباً السلطان بالعفو عنهم.

وقد قضى سيرافيم ألف ليلة كاملة وهو واقف على صخرة في الغابة رافعاً يديه صوب السماء بشكل صليب مردداً بلا انقطاع: «إرحمني يا رب أنا الخاطئ». وفي أثناء النهار كان يعلِّم من يأتيه من الزائرين ليطلب المشورة. ومنذ سنة ١٨٠٧م إنقطع سيرافيم عن الكلام ولزم الصمت، وكان يجيب تلاميذه الروحيين الذين تألموا لهذا التصرف أنه يليق بنا أن نتكلم من أجل الله لكن الأكثر لياقة أن نُظهر نفوسنا من أجله. وبقي في حالة الصمت الكامل مدة ثلاث سنوات حتى سنة ١٨١٠م حيث رجع إلى الدير بأمر رئيسه نتيجة لدسائس بعض الرهبان. ومع هذا عاش حبيساً في غرفة ضيقة داخل الدير، ملازماً للصمت.

وفي سنة ١٨٢٥م ظهرت له رؤيا كان لها تأثير كبير في تغيير طريقة حياته ودوي كبير في حياة الآلاف من الرهبان والعلمانيين في كل روسيا. وفي هذه الرؤيا خاطبته السيدة العذراء طالبةً إليه أن يخرج نهائياً من عزلته ليخدم النفوس. وفي هذه الفترة الأخيرة من حياته كان هو الأب الروحي والمرشد للألوف من الرهبان والراهبات والعلمانيين الذين اتجهوا إليه بطلب إرشاداته. وبدأت تظهر ثمار الحياة الخفية التي لم تكن معروفة حتى ذاك الحين. فكان يقابل زائريه بتواضع وفرح قلب ومحبة شديدة. كان يسكب نفسه كلها لكل واحد منهم ويعطيه الكلمة الخاصة التي تناسبه ولا تناسب غيره. وكان كل مَن يزور سيرافيم يشعر بحقيقة وجود ملكوت السموات. وكان الفرح والهدوء والسلام يفيض من قلبه على كل مَن قابله فيحصل على العزاء.

وقبل نياحته بسنوات قليلة رآه أحد تلاميذه (نيقولا موتوفيلوف) في حالة تجلي باهرة إذ صار وجهه مضيئاً أكثر من الشمس. وقد كتب تلميذه الحوار الذي جرى بينه وبين القديس سيرافيم عندما رآه في هذا المنظر البهي (راجع صفحة ٢٢٢).

إن القديس سيرافيم كان يؤكد دائماً أن «غاية المسيحية هي إقتناء الروح القدس». وقد عاش هو فعلاً حياة إمتلاء بالروح القدس.

وفي صبيحة الثاني من شهر يناير سنة ١٨٣٣م وُجد سيرافيم في غرفته وقد فارق الحياة جاثياً على ركبتيه أمام أيقونة السيدة العذراء المعروفة باسم «سيدة الحنان»، وبيده شمعة مضاءة أخذ لهبها يلتهم صفحات الكتاب المقدس.

(٢٠) غريغوريوس الثيؤلوغوس (الناطق بالإلهيات) أو النزينزي (٣٢٨ - ٣٩٠م)

أحد الآباء الكبادوكيين الثلاثة المشهورين وهم:

(١) القديس باسيليوس الكبير (صاحب القداس الباسيلي).

(٢) القديس غريغوريوس النيصي شقيق القديس باسيليوس.

(٣) القديس غريغوريوس الثيئولوغوس (صاحب القداس الغريغوري).

وثلاثتهم عاشوا في عصر واحد وكانوا من إقليم واحد هو كبادوكية بآسيا الصغرى. إثنان منهم كانا شقيقين بالجسد، والثالث وهو الثيئولوغوس كان صديقاً حميماً بالروح للشقيق الأكبر أي القديس باسيليوس.

وكان للآباء الكبادوكيين الثلاثة أكبر الأثر في تاريخ المسيحية بعد القديس أثناسيوس في محاربة الأريوسية والإنهاء على باقي آثارها وتثبيت الإيمان بلاهوت المسيح والثالوث الأقدس.

وبسبب براعة القديس غريغوريوس النزينزي بنوع خاص في الحديث عن الثالوث الأقدس باقتدار وإلهام فائق وموهبة نادرة من الروح القدس أُطلق عليه اسم «الثيئولوغوس»: أي «الناطق بالإلهيات». فإنه لم يكن يتكلم في الإلهيات - أي اللاهوت - من مجرد معرفته بالكتب أو البحث والدرس العقلي الضيق، وإنما من حياة عشرة عميقة كان يحياها في عبادته للثالوث الأقدس.

فكتاباته وعظاته تدلان على أنه يتكلم عن اختبار حي للثالوث الأقدس، إذ كان يتكلم بمحبة شديدة للآب والابن والروح القدس فكان الثالوث هو موضوع حياته.

وجدير بالذكر أنه لم ينل أحد من الآباء هذا اللقب من بعد يوحنا الرسول (الملقب باللاهوتي - أي الناطق بالإلهيات) إلا هذا القديس.

وُلِد هذا القديس سنة ٣٢٨م بقرية من أعمال نزينزا بإقليم كبادوكية بآسيا الصغرى. وكانت أمه «نونا» مثالاً للتقوى المسيحية في العبادة والسلوك. وقد نذرت ابنها وهو لا يزال في بطنها لخدمة الله وقد كان والد غريغوريوس أسقفاً على مدينة نزينزا وكان اسمه غريغوريوس أيضاً (وقد كان لأمه «نونا» الفضل في تحويل زوجها من البدعة التي كان يتبعها إلى الإيمان المستقيم بتأثير صلواتها وقدوتها وذلك قبل سيامته أسقفاً بأربع سنوات).

نشأ غريغوريوس الطفل تحت رعاية أم قديسة ربّته على قراءة الكتاب المقدس وحفظ وطاعة وصايا الله. وعرَّفته منذ سن صغيرة بأنه مكرَّس للرب كذبيحة مثل إسحق. ولما شبَّ غريغوريوس، سافر مرة إلى قيصرية كبادوكية حيث تعرَّف بباسيليوس وتصادق معه ثم إلتحق بعد ذلك بمعاهد قيصرية فلسطين لدراسة الخطابة. ومن قيصرية سافر إلى الإسكندرية حيث كان ديديموس الضرير ناظراً لمدرستها اللاهوتية، ومنها ذهب إلى أثينا بحراً، وفي الطريق إلى أثينا هبت عاصفة استمر ٢٢ يوماً كادت تُغرق السفينة ولكن كُتبت النجاة لكل الركاب بواسطة صلاة رفعها غريغوريوس فآمن بحارة السفينة بالمسيح. وفي أثينا إلتقى بصديقه باسيليوس مرة أخرى وعاشا معاً حياة مشتركة في وحدة الروح حتى قيل

عنهما أنهما صاراً «عقلاً واحداً في جسدين». ومكث في أثينا عشر سنوات، وفي طريق عودته مرَّ على القسطنطينية وتعمَّد هناك وكان في سن الثلاثين تقريباً. ثم عاد إلى وطنه نزينزا. وقصد أن يعيش حياة خلوة كراهب يعكف على العبادة ودراسة الكتاب المقدس الذي يحبه ويعشق قراءته كثيراً. ثم دعاه صديقه القديس باسيليوس ليعيش معه في الدير الذي أسسه في بنطس. فذهب إلى هناك حيث قضى ٣ سنوات عاد بعدها إلى نزينزا حيث سامه والده الأسقف قساً سنة ٣٦١م رغماً عنه بسبب إصرار الشعب وإلحاحه في طلب الرسامة، الأمر الذي كان يتهرب منه غريغوريوس ويرتعد منه ويتحاشاه منذ سنوات.

وفي سنة ٣٧٢م سامه صديقه القديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية كبادوكية أسقفاً على سازيما، ولكنه لم يدخل الإيبارشية الجديدة لأنها كانت موضع صراع بين باسيليوس والأسقف المجاور، فعاد غريغوريوس إلى خلوته في الجبال، ولكن والده الأسقف طلب مساعدته في نزينزا فعاد إلى هناك. واستمر يعاون والده في الخدمة حتى وفاته في سنة ٣٧٤م، ولحقته والدته «نونا» في نفس السنة إذ انتقلت وهي راكعة تتناول الأسرار المقدسة. وبعد وفاة والديه صار هو الوارث الوحيد لكل الممتلكات إذ كان والده غنياً، فوزع كل شيء على الفقراء. وفي سنة ٣٧٥م إختفى متوحداً في سلوكية متعبداً في دير باسم القديسة تكلة، وفي سنة ٣٧٩م ألحَّ عليه المؤمنون في القسطنطينية مع عدد من الأساقفة أن يأتي إلى القسطنطينية ليرعاها في ظروفها الصعبة وسط البدع والهرطقات فقَبِل، بعد أن أحس بالروح القدس في داخله يحمِّله هذه المسئولية.

ذهب إلى القسطنطينية بينما كانت البدع المختلفة مثل الأريوسية هي السائدة على شعب المدينة وكان المستقيمو الإيمان قليلين مرذولين. فظل يعظ ويعلِّم بموهبة نادرة وإلهام إلهي، ويجاهد طوال سنتين، حتى أنتصر الإيمان في عاصمة الإمبراطورية وصارت الكاتدرائية الكبيرة تمتلئ بالسامعين من مختلف البدع الذين تحولوا إلى الإيمان المستقيم. وقد كان له أكبر الأثر في تثبيت الإيمان بالثالوث الأقدس، وتثبيت حياة القداسة وأهميتها بقدوته ومحبته وطهارته ووداعته وبعظاته المؤثرة. وبسبب مقدرته الفذة في التعبير عن الثالوث الأقدس في عظاته التي ألقاها في القسطنطينية أُطلق عليه لقب «ثيئولوغوس» أي «الناطق بالإلهيات». وله خمس عظات مشهورة ألقاها في القسطنطينية عن الآب والابن والروح القدس.

وفي سنة ٣٨١م لما اجتمع مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني واشترك فيه غريغوريوس. كان الإتجاه السائد في المجمع أن يثبِّت غريغوريوس على القسطنطينية ولكن خوفاً من حدوث انقسام بسبب إعتراض بعض الأساقفة المصريين، أعلن غريغوريوس إصراره على عدم قبول كرسي القسطنطينية، حباً بالسلام والوحدة، ثم ترك المدينة بعد أن ودع الأساقفة والشعب بخطاب مؤثر. واعتزل عاكفاً على الصلاة والتأمل طيلة السنوات الباقية من حياته وانتقل إلى راحة القديسين سنة ٣٩٠م وتعيِّد له كنيستنا في ٢٤ توت (الموافق ٤ أكتوبر)، والقداس الغريغوري المستعمل في كنيستنا منسوب إليه.

وقد ترك كنزاً ثميناً من الكتابات اللاهوتية غايةٍ في الدقة والعمق الروحي مع مجموعة من الرسائل والعظات الرائعة.

(٢١) غريغوريوس الكبير
(٥٤٠ - ٦٠٤م)

وُلِد في روما سنة ٥٤٠م من عائلة غنية متدينة. وكان والده أحد أعضاء مجلس الشيوخ في روما. نشأ ميَّالاً للتقوى، نبغ في المنطق والبلاغة والنحو، ودرس القانون. وحينما بلغ من العمر ٣٣ عاماً إختاره الإمبراطور «قاضياً للقضاة»، حيث تجلت مبادؤه الدينية عملياً. ولما توفي والده جورديانوس، باع ممتلكاته الواسعة ووزع ثمنها على الفقراء وعلى الأعمال الخيرية وعلى تأسيس الأديرة، فأسس سبعة أديرة، ثم استقال من عمله وترهب وازداد في التقشف إلى حد كان سيؤذيه لولا تدخل أصدقائه ليخففوا من شدته. وكان ذلك ربما من أهم أسباب إعتلال صحته باقي أيام حياته.

وفي سنة ٥٧٨م سامة البابا بنديكت الأول شماساً وأرسله إلى القسطنطينية كمندوب عنه لدي بلاط الإمبراطور، حيث مكث عدة سنوات كتب أثناءها جزءاً من كتابه المشهور في شرح سفر أيوب. ثم عاد إلى روما حيث سُمح له بالرجوع إلى ديره مع استمراره سكرتيراً للبابا، ثم صار رئيساً للدير وعاود تقشفه وعبادته لعدة سنوات.

ولما انتقل البابا بلاجيوس الثاني استقر رأي الشعب ومجلس الشيوخ على اختياره للبابوية، فأرسل للإمبراطور يعتذر إلا أن الأمبراطور أقر الإختيار فهرب غريغوريوس ولكنهم أحضروه إلى روما وسيم أسقفاً لروما سنة ٥٩٠م.

وبعد سيامته استمر راهباً بقلبه وأحاط نفسه بالإكليروس بدلاً من الخدم العلمانيين وعاش بينهم عيشة الرهبنة والنسك.

وكان يُعتبر قائداً روحياً قبل أن يكون رئيساً إدارياً للكنيسة الرومانية. وقد اهتم جداً برفع مستوى الرهبان والكهنة روحياً، ونظم الحياة الرهبانية، وقاوم السيمونية، وحرَّم عادة دفع الأساقفة مبالغ من المال كعادة سنوية للبابا. وأصدر قراراً مجمعياً بذلك سنة ٥٩٥م.

وقد اشتهر جداً بحسناته الكبيرة وحبه للفقراء، فكان لا يتناول طعامه اليومي إلا إذا تأكد أن كميات من الأكل قد وُزعت على الفقراء. وكان لديه كشف دقيق بأسماء فقراء المدينة ليرسل لهم احتياجاتهم.

ومن أهم الأعمال التي قام بها غريغوريوس إرساله بعثة تبشيرية قوامها ٤٠٠ راهب من رهبان ديره بقيادة الراهب «أوغسطينوس» في سنة ٥٩٦م لإعادة نشر الإيمان المسيحي في الجزر البريطانية. وفعلاً كان لهذه الإرسالية الفضل في نشر المسيحية من جديد وفي بريطانيا بعد أن كادت المسيحية القديمة تتلاشى على يد السكسون الذين غزوا بريطانيا في نهاية القرن الخامس.

ومن أهم آثار غريغوريوس الروحية هو كتابه المشهور في «الرعاية» وهو مليء بالتوجيهات اللازمة للأسقف في رعايته لشعبه، وهو ينظر للأسقف كراع للنفوس قبل كل شيء. ويتكلم في هذا الكتاب كثيراً عن خطورة مسئولية الراعي. ويبدو أنه نقل كثيراً من أفكار القديس غريغوريوس الثيئولوغوس عن الرعاية.

وبعد حياة حافلة بالخدمة والجهاد والنشاط، إنتقل البابا غريغوريوس سنة ٦٠٤م ودُفن بروما.

(٢٢) الأسقف غريغوريوس (بالاماس)
أسقف تسالونيكي في القرن ١٤

وُلد في القسطنطينية سنة ١٢٩٦م من أسرة غنية مثقفة ذات صلة وثيقة بالقصر الإمبراطوري، ونبغ في دراسة العلوم والفلسفة في سن مبكر، ولما بلغ من العمر ٢٠ عاماً، ترك العالم وهجر دراسة الفلسفة وترهب هو وشقيقاه في جبل آثوس في دير «بابيكون» ثم في دير «فاتوبيدى» وتتلمذ، في حياة النسك، على يد راهب شيخ اسمه نيقوديموس. وأخذ يتدرب على ممارسة الصلاة الدائمة (ترديد اسم يسوع) حتى تقدم في هذا الطريق. وكانت هناك جماعة من الرهبان في جبل آثوس تسمى جماعة «الهيزيخيا» أي «الهدوئيون»، يمارسون هذه الصلاة بطريقة خاصة، فسلك طريقهم وأصبح من زعمائها، وتولى الدفاع عن هذه الجماعة الرهبانية ضد مَن اتهموهم بالهرطقة.

وقد ظهرت براعته اللاهوتية من خلال دفاعه وكتاباته النسكية واللاهوتية فذاعت شهرته في جبل آثوس وفي أوساط كنيسة القسطنطينية.

واتُهم من حاسدية بالهرطقة. وكان غريغوريوس بالاماس يتمسك بعدم إقحام الحكمة العالمية في أمور الحياة الروحية واللاهوتية. وهذا أحد الأسباب الهامة في الإضطهادات الكثيرة التي تعرض لها.

سيم رئيس أساقفة لتسالونيكي عام ١٣٤٧م. وتنيح في عام ١٣٥٩م بعد أن ترك كتابات روحية ولاهوتية كثيرة. وهو يُعتبر أعظم لاهوتي في الكنيسة البيزنطية في العصور الوسطي.

(٢٣) الأسقف فيلوكسينوس المنبجي
(؟ . ٥٢٣م)

من مشاهير القديسين السريان الذين عاشوا وكتبوا في القرن السادس المسيحي، وكان معاصراً للقديس يعقوب السروجي.

وُلد في قرية «تحل» فيما بين النهرين. وترهب في دير قرتمين حيث درس آداب السريانية واليونانية والعلوم الدينية. ثم انتقل إلى مدرسة الرها وأتم دراسته للعلوم الفلسفية واللاهوتية وسيم قساً.

وهاجم النسطورية لكسر شوكة الدعاية القوية التي كانت تبثها المدرسة الفارسية في الرها لعقيدة أصحاب الطبيعتين.

وسيم أسقفاً على منبج (٤٨٥ . ٥١٩م) وهي مدينة في الشمال الشرقي من حلب على نهر الفرات.

ونُفي إلى فيليبوبوليس في تراقيا، ثم حُبس في بيت في جنجرا أُوقدت فيه النيران وسُدَّت عليه المنافذ فاختنق في حجرته ومات شهيد الإيمان سنة ٥٢٣م.

(٢٤) فيلارت مطران موسكو
(١٧٨٢ . ١٨٦٧م)

إسمه الأول باسيل ميخائيلوفيتش دردذروف، وُلد بالقرب من موسكو سنة ١٧٨٢م، وكان والده كاهن الكاتدرائية. وإلتحق بمدرسة اللاهوت حيث درس اللاهوت والفلسفة. ثم عُين مدرساً للغتين العبرية واليونانية بمدرسة اللاهوت ثم أستاذاً للبلاغة.

وأحب حياة النسك فترهب سنة ١٨٠٨م ثم دُعي للتدريس بالمعاهد اللاهوتية الكبرى. ثم سيم مطراناً لموسكو. وخلف مؤلفات كثيرة، وتنيح سنة ١٨٦٧م.

(٢٥) الأسقف كيرلس الأورشليمي
(٣١٥ . ٣٨٦م)

وُلد بأورشليم أو إحدى قراها سنة ٣١٥م. ويبدو من كتاباته أنه كان غزير العلم واسع الإطلاع. فقد كانت له دراية بعلوم الطبيعة والمنطق والطب وغيرها علاوة على دراسته المتقنة للكتاب المقدس.

سيم شماساً سنة ٣٣٥م ثم قسيساً سنة ٣٤٥م. وبالرغم من حداثة القس كيرلس فقد عَهد إليه الأسقف بمهمة تعليم الموعوظين لتأهيلهم للمعمودية، كما منحه امتياز الوعظ في أيام الآحاد والأعياد الذي لم يكن يُمنَح عادةً إلا لنوابغ القسوس أمثال ذهبي الفم وأوغسطينوس.

سيم أسقفاً للكرسي الأورشليمي سنة ٣٥١م. وتوالت عليه التجارب فنُفي ثلاث مرات خلال المدة من (٣٥٧ . ٣٧٩م). ولما عاد إلى كرسيه رعي شعبه في الثماني سنوات الباقية من حياته، حضر خلالها المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١م. وتنيح سنة ٣٨٦م. وتعيَّد له كنيستنا في ٢٢ برمهات. وله كتابات هامة في تعليم الموعوظين وفي الأسرار.

(٢٦) البابا كيرلس الإسكندري
(٣٧٧ . ٤٤٤م)

وُلد بالإسكندرية حوالي سنة ٣٧٧م، وقد اعتنى بتربيته خاله ثيوفيلس البطريرك الثالث والعشرون فأرسله في شبابه المبكر إلى شيوخ البرية ليتتلمذ على أيديهم، فبقي ٥ سنوات في جبل نتريا عاد بعدها إلى الإسكندرية حيث رسمه أنبا ثيوفيلس قسيساً.

وبدأ يشتهر كواعظ ومفسر مقتدر للأسفار المقدسة. وفي سنة ٤١٢م اختير بطريركاً للإسكندرية خلفاً لخاله ثيوفيلس، فصار بذلك البابا الرابع والعشرين للكرسي المرقسي الإسكندري.

وفي سنة ٤١٩م ألغي الحرم الذي كان قد أصدره البطريرك ثيوفيلس ضد القديس يوحنا فم الذهب ووضع اسمه في عداد الآباد القديسين الذين تُذكر أسماؤهم في صلاة المجمع في كل قداس.

وقد ارتبط اسم البابا كيرلس الإسكندري بالدفاع عن الإيمان المستقيم في مواجهة بدعة نسطوريوس الذي

أنكر وحدة شخصية المسيح الكلمة المتجسد وكان يرفض تلقيب العذراء «بوالدة الإله» «ثيئوتوكس». وقد رَأس القديس كيرلس الكبير مجمع أفسس المسكوني الثالث الذي حُكم فيه على تعليم نسطوريوس وتثبّت الإيمان الأرثوذكسي ولذلك لُقب «بعمود الدين».

وقد دوّن البابا كيرلس عمود الدين قداس مار مرقس الرسول وأضاف إليه بعض الصلوات، ولذلك عُرف فيما بعد باسم القداس الكيرلسي. وقد فسر القديس كيرلس كثيراً من أسفار العهدين القديم والجديد، إذ كان ذا مقدرة خاصة في التفسير. وتظهر إتجاهاته الروحية واللاهوتية السليمة بنوع خاص في شرحه لإنجيل يوحنا.

وله كتابات هامة عن الثالوث الأقدس والتجسد الإلهي.

وقد تنيح سنة ٤٤٤م وله من العمر حوالي ٦٧ عاماً. وتعيِّد له الكنيسة في ٣ أبيب.

(٢٧) أبّا مقاريوس الكبير
أب برية شيهيت[٣]
(٣٠٠ - ٣٩٢م)

وُلد سنة ٣٠٠م في شيشير منوفية ونشأ نشأة مسيحية، فسامه الأسقف شماساً. ولميله إلى العزلة إنطلق إلى برية شيهيت بقيادة الشيروبيم سنة ٣٣٠م، ثم زار أنبا أنطونيوس الذي ألبسه إسكيم الرهبنة.

وفي الأسقيط إلتف حوله كثيرون فأسس لهم ديراً سنة ٣٤٠م (في منطقة دير البراموس حالياً). ثم سيم قساً وبني دير آخر (دير أبو مقار)، ونفاه الإمبراطور ڤالنس مع رؤساء الأديرة سنة ٣٧٥م إلى أسوان. ولم يمكث هناك إلا سنة واحدة ثم عاد إلى ديره وتنيح سنة ٣٩٢م بعد أن تلمذ مجموعة كبيرة من مشاهير الرهبان. وتعيِّد له الكنيسة في ٢٧ برمهات. وله ٥٠ عظة معروفة باسمه، وله أقوال كثيرة في كتاب «أقوال الآباء» وفي بستان الرهبان وبعض رسائل للرهبان.

(٣) أنظر كتاب «الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار» للمؤلف.

(٢٨) الأب نيلوس السينائي
(؟ - ٤٣٠م)

وُلد في غلاطية . كان حاكماً لمدينة القسطنطينية ثم استقال سنة ٣٩٠م، وذهب إلى سيناء هو وابنه ثيئودولوس حيث ترهب هناك.

ولما هجم البربر على صحراء سيناء قبضوا على المتوحدين والرهبان، فنجا بأعجوبة. أما ابنه ثيئودولوس فباعوه. فذهب نيلوس يبحث عن ولده فوجده عند أحد الأساقفة الذي اشتراه. ولما مكث نيلوس وابنه عند الأسقف مدة أختبر فيها تقواهما سامهما كاهنين. ثم عادا إلى سيناء واستأنفا تقشفاتهما ثانية إلى أن تنيح نيلوس سنة ٤٣٠م. وترك كتابات مختلفة في شتى المواضيع.

(٢٩) أبّا يوحنا الدرجي
(٦٢٥ - ٧٠٥م)

ويسمي بالسُلّمي، أو كليماكوس نسبةً إلى كتابه: «سلم السماء أو درجات الفضائل».

وُلد بفلسطين سنة ٦٢٥م. وترهب في دير بطور سينا وهو ابن ست عشرة سنة. وبعد وفاة معلمه مرتيروس توحد في قلاية منفردة ومكث ٤٠ سنة يمارس التقشفات. ثم عينوه رئيساً لرهبان طور سيناء ومدبراً لحياتهم الروحية. وبعد أربع سنوات ترك الرئاسة إلى خلوته ليستعد للموت. وتنيح في سن الثمانين.

ويُعتبر كتابه «سلم السماء» من أهم الكتب في الأدب الرهباني.

(٣٠) الأب يوحنا الدمشقي
(القرن الثامن)

وُلد في سوريا من عائلة مسيحية والتحق بخدمة الخليفة. ثم ترك العالم، ودخل دير مار سابا في فلسطين حيث تنيح بعد عام ٧٥٤م.

وحارب بدعة مقاومة الأيقونات في الفترة بين ٧٢٦ - ٧٢٧م وكتب عن ذلك ثلاث مقالات هامة.

وله مؤلفات كثيرة، ويُعتبر من كبار معلمي كنيسة الروم في أنطاكية.

(٣١) الشيخ الروحاني (يوحنا سابا)
(القرن السادس)

من نينوى .عاش في القرن السادس الميلادي وترهب في دير دلياثا (على الشاطئ الغربي لنهر الفرات).

من مشاهير الكتّاب السريان الأرثوذكس الذين كتبوا في النسكيات، وله ٣٠ مقالة و٤٨ رسالة.

(٣٢) البطريرك يوحنا ذهبي الفم
(٣٤٧ ـ ٤٠٧م)

وُلد بأنطاكية سنة ٣٤٧م من عائلة غنية. مات أبوه وهو صغير فربَّته أمه تربية صالحة. ورُشح لوظيفة قاضٍ، ولزهده في الدنيا توحد في أحد الأديرة وسكن مغارة متفرغاً لدراسة الكتاب المقدس. ولما انحرفت صحته إضطر للرجوع إلى أنطاكية فسيم شماساً سنة ٣٨١م. ثم قسيساً سنة ٣٨٦م. ولما ذاع صيته لقوة وعظه وتأثيره سيم أسقفاً على القسطنطينية سنة ٣٩٧م.

ولشجاعته في الحق وبَّخ الملكة أفدوكسيا على أعمالها فنفته ولكن زلزالاً حدث عند خروجه من القسطنطينية فخافت وأرجعته. وبعد مدة نفته ثانيةً إلى جبال القوقاز، ومن مشقة الطريق وسوء المعاملة تنيح سنة ٤٠٧م، بعد أن خلف للكنيسة تراثاً رائعاً من العظات والتفاسير التي شملت معظم العهد الجديد وأجزاء كثيرة من العهد القديم. وهو يُعتبر من أقدر وعاظ الكنيسة في التاريخ المسيحي كله.

(٣٣) الأب يوحنا كاسيان[٤]
(٣٥٠ ـ ٤٣٥م)

وُلِد في المدة بين سنة ٣٥٠ و٣٦٠م، ويُظن أنه من فلسطين أو شرق أوروبا. كان ناسكاً في دير ببيت لحم، ولما ذاع صيت الرهبان الأقباط في الأسقيط ذهب إليهم. فزار برية شيهيت ثم عاد إلى بيت لحم التي لم يمكث فيها طويلاً بل بشوق زائد عاد إلى برية شيهيت. وبعد ذلك ذهب إلى القسطنطينية. وانضم إلى المدافعين عن يوحنا ذهبي الفم الذي سام كاسيان كاهناً.

ولما زار كاسيان مرسيليا أسس دير القديس ڤيكتور (بقطر) وديراً آخر للراهبات. وقد اعتُبر بذلك أول مؤسس للرهبنة الغربية التي حمل أصولها من برية شيهيت.

وقد ألَّف كتباً لاهوتية منها: «المواعظ» و«المعاهد» ضمَّنها زبدة ما درسه في الصحراء على أيدي رهبان شيهيت، وتنيح سنة ٤٣٥م.

(٣٤) الأب يوحنا كرونستادت
(١٨٢٩ ـ ١٩٠٨م)

كاهن رعية متزوج عاش في روسيا في القرن التاسع عشر. وقد كرَّس حياته كلها لخدمة الشعب في بذل وحب وتفانٍ منقطع النظير، فكان يواسيهم ويرعاهم ويشفي مرضاهم ويعالج مشاكلهم، وفي نفس الوقت كان رجل صلاة وألفة دائمة مع الله. ترك مؤلفات وعظية روحية كلها من خبرات حياته أهمها: «حياتي في المسيح» و«دقائق الحياة الروحية التأملية» و«سلام الله» و«مشاعر تخشعية» و«أحاديث عن الله الخالق ومدبر العالم». وقد تُرجم كتابه «حياتي في المسيح» إلى عدة لغات. وكان الشعب الروسي يُجلُّه ويقدسه حتى قبل وفاته. وكانت له مواهب الكشف والنبوة والشفاء.

ويُعتبر الأب يوحنا من رجال الصلاة المعدودين في روسيا، وتنيح في العشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٨م، وقد حدثت معجزات كثيرة بشفاعته بعد انتقاله. وأعلنت الكنيسة الروسية خارج روسيا الإعتراف بقداسته في أول نوفمبر سنة ١٩٦٤م تحت اسم القديس يوحنا كرونستادت العجايبي.

---

(٤) لمعرفة أهمية يوحنا كاسيان في تاريخ الرهبنة، أنظر كتاب: «التسبحة اليومية ومزامير السواعي» للمؤلف. الباب الرابع.

(٣٥) أنبا يوساب الأبح
(١٧٣٥ - ١٨٢٦م)

وُلِد يوسف بالنخيلة سنة ١٧٣٥م من عائلة غنية محسنة تقية وتعلم بكتَّاب القرية. ولحبِّه للنسك ترهب بدير أنبا أنطونيوس في سن الخامسة والعشرين. واشتهر بالقراءة والبحث والعلم والتقوى، فاستدعاه البابا يؤانس الفيومي (الـ١٠٧) إلى القلاية البطريركية بحارة الروم وسامه أسقفاً لكرسي جرجا وأخميم رغماً عن أرادته سنة ١٧٩٦م، وسمَّاه أنبا يوساب.

وقد بذل جهداً كبيراً في رد الشعب إلى أحضان الكنيسة القبطية بعد أن استمالتهم الإرساليات الرومانية الكاثوليكية، وله مقالات في الرد على الكاثوليك، وله مقالات كثيرة في اللاهوت والتفسير. فاختاره البطريرك للقيام بحملة قوية ضد الإرساليات الكاثوليكية التي كانت تحاول بجهد عظيم ضم الكنيسة القبطية إليها، فقامت بطبع محاضر مجمع خلقيدونية فأخفقت في تحقيق غرضها بل أيدت بها صحة دعوى الكنيسة القبطية وبراءة البابا ديوسقورس.

وأرسل بابا روما رسالة إلى أنبا يؤانس بطريرك الإسكندرية يدعوه فيها للإنضمام إلى الكنيسة الرومانية، فعهد البطريرك إلى أنبا يوساب بالرد عليها وتفنيدها.

وله كتاب ثمين في العقائد والتعاليم القبطية إسمه «سلاح المؤمن»، وله كتب أخرى نسبها إلى أنبا يؤانس البطريرك.

وقد اشتهر بالرحمة على الفقراء والتقشف، فلم يكن يملك إلا ما يستر جسده. وما تبقي من مال الإيبارشية كان يرسله إلى الأديرة الفقيرة. كما إشتهر بحُسن رعايته لشعبه.

ولما مرض ذهب إلى ديره بالبرية، حيث أسلم روحه الطاهرة في ٢٤ يناير سنة ١٨٢٦م بشيخوخة صالحة إذ عاش ٩١ سنة، وذُكِر في السنكسار.

إختصارات بعض الأسماء

الأب يوحنا من كرونستادت	الأب يوحنا ك.
الأسقف إغناطيوس بر يانتشانينوف	الأسقف إغناطيوس ب.
الأسقف تيخون من زادونسك	الأسقف تيخون ز.
الأب صاروفيم صاروفسكي	صاروفيم ص.
الأب ديمتري من رستوف	ديمتري ر.

فهرس أقوال الآباء

(الأرقام المذكورة هي أرقام الأقوال)

البابا أثناسيوس الرسولي

٢٦٩ . ٢٧٠ . ٢٧١ . ٢٧٢ . ٢٧٥ . ٢٧٦ . ١٠٠٠ . ١٠٦٧ . ١٠٦٨ . ١٠٦٩ . ١٠٨١ . ١٠٩٤ . ١٠٩٩ . ١١٠٠ . ١١٠١ . ١١٣٩.

أبّا أرسانيوس الكبير

٨٦٨.

مارإسحق السرياني

١٠ . ٢٢ . ٣٩ . ٦٠ . ٦١ . ٦٢ . ٦٣.٦٤ . ٦٥ . ٦٦ . ٧٦ . ٧٧ . ٧٨ . ٧٩ . ٨٠ . ٨١ . ٨٢ . ٨٣ . ٨٤ . ٨٥ . ٨٦ . ٨٧ . ٨٨ . ٨٩ . ٩٠ . ٩١ . ٩٢ . ٩٣ . ٩٤ . ٩٥ . ٩٦ . ٩٧ . ٩٨ . ٩٩ . ١١٦ . ١١٧ . ١٢٤ . ١٢٦ . ١٢٧ . ١٢٨ . ١٢٩ . ١٣٠ . ١٣١ . ١٣٢ . ١٣٣ . ١٣٤ . ١٣٥ . ١٣٦ . ١٣٧ . ١٦٠ . ١٦٣ . ١٧٧ . ١٧٨ . ١٧٩ . ١٨٠ . ١٨١ . ١٨٢ . ١٨٣ . ١٨٤ . ١٨٥ . ١٨٦ . ١٨٧ . ١٨٨ . ١٨٩ . ١٩٠ . ١٩٨ . ٢٠٠ . ٢٦١ . ٢٦٢ . ٢٦٣ . ٣١٦ . ٣٣٥ . ٣٣٦ . ٣٣٨ . ٣٤٢ . ٣٤٩ . ٣٥٠ . ٣٥٤ . ٣٥٦ . ٣٩٦ . ٤١٨ . ٤١٩ . ٤٢٠ . ٤٢١ . ٤٢٢ . ٤٢٣ . ٤٢٤ . ٤٢٥ . ٤٢٦ . ٤٢٧ . ٤٢٨ . ٤٢٩ . ٤٣٠ . ٤٣١ . ٤٣٢ . ٤٣٣ . ٤٣٤ . ٤٣٥ . ٤٣٦ . ٤٣٧ . ٤٧٢ . ٤٧٣ . ٤٧٤ . ٤٧٥ . ٤٨١ . ٤٨٤ . ٤٩١ . ٤٩٢ . ٤٩٣ . ٤٩٤ . ٤٩٥ . ٤٩٦ . ٤٩٧ . ٤٩٨ . ٤٩٩ . ٥٠٠ . ٥٠١ . ٥٠٢ . ٥٠٣ . ٥٠٤ . ٥٠٥ . ٥٠٦ . ٥٠٧ . ٥٠٨ . ٥٠٩ . ٥١٠ . ٥١١ . ٥١٢ . ٥١٣ . ٥١٤ . ٥١٥ . ٥١٦ . ٥١٧ . ٥١٨ . ٥٢٩ . ٥٣٠ . ٥٣١ . ٥٣٢ . ٥٣٣ . ٥٣٤ . ٥٣٥ . ٥٣٦ . ٥٣٧ . ٥٣٨ . ٥٣٩ . ٥٤٠ . ٥٤١ . ٥٤٢ . ٥٤٦ . ٥٤٧ . ٥٤٨ . ٥٧٩ . ٥٨٠ . ٥٨١ . ٥٨٢ . ٥٨٣ . ٥٨٤ . ٥٨٥ . ٥٨٦ . ٥٨٧ . ٥٨٨ . ٥٨٩ . ٥٩٠ . ٥٩١ . ٥٩٢ . ٥٩٣ . ٥٩٤ . ٥٩٥ . ٥٩٦ . ٥٩٧ . ٥٩٨ . ٥٩٩ . ٦٠٠ . ٦٠١ . ٦٠٢ . ٦٠٣ . ٦٠٤ . ٦٠٥ . ٦٠٦ . ٦١٥ . ٦١٦ . ٦١٧ . ٦١٨ . ٦١٩ . ٦٢٠ . ٦٢١ . ٦٢٢ . ٦٢٣ . ٦٢٤ . ٦٢٥ . ٦٢٦ . ٦٢٧ . ٦٢٨ . ٦٢٩ . ٦٣٠ . ٦٣١ . ٦٣٢ . ٦٣٣ . ٦٣٤ . ٦٣٥ . ٦٣٦ . ٦٣٧ . ٦٣٨ . ٦٣٩ . ٦٤٠ . ٦٤١ . ٦٤٢ . ٦٤٣ . ٦٤٤ . ٦٤٥ . ٦٤٦ . ٦٤٧ . ٦٤٨ . ٦٤٩ . ٦٥٠ . ٦٥١ . ٧٠٢ . ٧٠٣ . ٧٠٤ . ٧٠٥ . ٧٠٦ . ٧٠٧ . ٧٠٨ . ٧٠٩ . ٧١٠ . ٧١٥ . ٧١٦ . ٧١٧ . ٧١٨ . ٧١٩ . ٧٤٩ . ٧٥٠ . ٧٥١ . ٧٥٢ . ٧٥٣ . ٧٥٤ . ٧٥٥ . ٧٥٦ . ٧٥٧ . ٧٥٨ . ٧٥٩ . ٧٦٠ . ٧٦١ . ٧٦٢ . ٧٧١ . ٧٧٢ . ٧٧٣ . ٧٨٣ . ٧٨٥ . ٨١٠ . ٨١١ . ٨١٢ . ٨١٣ . ٨١٤ . ٨١٥ . ٨١٦ . ٨١٧ . ٨١٨ . ٨١٩ . ٨٢٠ . ٨٢١ . ٨٢٢ . ٨٢٣ . ٨٢٤ . ٨٢٥ . ٨٤٧ . ٨٤٨ . ٨٤٩ . ٨٥٠ . ٨٥١ . ٨٥٢ . ٨٥٣ . ٨٥٤ . ٨٥٥ . ٨٥٦ . ٨٥٧ . ٨٥٨ . ٨٥٩ . ٨٦٠ . ٨٦١ . ٨٦٢ . ٨٦٣ . ٨٦٤ . ٨٧٥ . ٩١٧ . ٩١٨ . ٩١٩ . ٩٢٠ . ٩٤٩ . ٩٥٠ . ٩٥١ . ٩٥٢ . ٩٥٣ . ٩٥٤ . ٩٥٥ . ٩٥٦ . ٩٥٧ . ٩٥٨ . ٩٥٩ . ٩٦٠ . ٩٦١ . ٩٦٢ . ٩٦٣ . ٩٦٤ . ٩٦٥ . ٩٦٦ . ٩٧٣ . ٩٩٩ . ١٠٠١ . ١٠٠٢ . ١٠٠٣ . ١٠٠٤ . ١٠٠٥ . ١٠٠٦ . ١٠٠٧ . ١٠٠٨ . ١٠٠٩ . ١٠٣٣ . ١٠٣٤ . ١٠٣٥ . ١٠٣٦ . ١٠٣٧ . ١٠٣٨ . ١٠٦١ . ١١٤٠ . ١١٤١ . ١١٤٢ . ١١٤٣ . ١١٤٤ . ١١٤٥ . ١١٤٦ . ١١٤٧ . ١١٤٨ . ١١٤٩ . ١١٥٠ . ١١٥١ . ١١٥٢ . ١١٥٣ . ١١٥٤ . ١١٥٥ . ١١٥٦ . ١١٥٧ . ١١٥٨ . ١١٥٩ . ١١٦٠ . ١١٦١ . ١١٦٢ . ١١٦٣ . ١١٦٤ . ١١٦٥ . ١١٦٦ . ١١٦٧ . ١١٧٢ . ١١٧٣ . ١١٧٤ . ١١٧٥ . ١١٧٦ . ١١٧٧ . ١١٧٨ . ١١٧٩ . ١١٨٠ . ١١٨٧ . ١١٩١ . ١١٩٢ . ١١٩٣ . ١١٩٤ . ١١٩٥ . ١١٩٨ . ١١٩٩ . ١٢٠٠ . ١٢٠١ . ١٢٠٢. ١٢٠٣ . ١٢٠٤ . ١٢٠٥ . ١٢٠٦ . ١٢١٠.

أبّا إسحق

٣٧ . ٥٠ . ٤٠٤ . ٥٠٤ . ٤٠٦ . ٤٠٧ . ٤٠٨ . ٤٠٩ . ٤١٠ . ٤١١ . ٤٣٢ . ٨٧٤ . ٨٨٢ . ٩١٦.

الأسقف أوغسطينوس

٢٣ . ٣٥ . ٤٨ . ٤٩ . ١١٥ . ١١٨ . ١٤٢ . ١٤٣ . ١٤٤ . ١٤٥ . ١٤٦ . ١٤٧ . ١٦٢ . ١٦٤ . ١٦٥ . ١٦٦ . ١٧٤ . ١٧٥ . ١٧٦ . ١٩٤ . ١٩٥ . ١٩٦ . ٢٠٣ . ٢٢٦ . ٢٢٧ . ٢٢٨ . ٢٢٩ . ٢٣٣ . ٢٣٤ . ٢٣٥ . ٢٣٨ . ٢٣٩ . ٢٤٠ . ٢٤١ . ٢٤٢ . ٢٤٣ . ٢٧٩ . ٣٤١ . ٣٥٧ . ٣٥٨ . ٣٥٩ . ٣٦٠ . ٣٦١ . ٣٦٢ . ٣٦٣ . ٣٦٤ . ٣٦٥ . ٣٨٨ . ٣٨٩ . ٣٩٠ . ٣٩١ . ٣٩٨ . ٣٩٩ . ٤٠٠ . ٤٠٣ . ١٠٦٤.

إغناطيوس (أو إغناتيوس) الأنطاكي

٢٦٦ . ١٠٣٩ .

الأسقف إغناطيوس بريانتشانينوف

٧ . ٣١ . ٣٤ . ٤١ . ٤٢ . ٦٩ . ٤٨٣ . ٦٨٩ . ٦٩٠ . ٦٩٢ . ٦٩٣ . ٧٧٤ . ٧٧٥ . ٨٨٩ . ٨٩٣ . ٨٩٤ . ٩٠٩ . ٩١٠ . ٩١١ . ٩١٢ . ٩٢٥ . ٩٢٦ . ٩٧٢ . ١٠٤٥ . ١٠٥٥ . ١٠٥٦ . ١٢١١ .

مار أفرآم السرياني

٣٦ . ٤٧ . ٤٧٩ . ٧٦٦ . ٧٦٧ . ٩٢١ . ٩٢٢ . ١٠٥٧ . ١٠٥٨ . ١٠٨٣ . ١١٣٨ .

العلامة كليمندس الإسكندري

٢٦٨ .

الأسقف أمبروسيوس

١٠٧٤ . ١٠٧٩ .

أناتوليوس

٩٠٥ . ٩٠٦ . ٩٠٧ .

الأب أندريانوس

٤٨٨ .

أبَّا أنطونيوس الكبير

٦ . ٤٠ . ٢٠٤ . ٢٠٥ . ٢٢٤ . ٣٠٩ . ٣١١ . ٣١٢ . ٣١٣ . ٣١٨ . ٣٢١ . ٣٢٢ . ٣٣٤ . ٣٥١ . ٤٥٤ . ٤٥٥ . ٤٥٦ . ٥١٩ . ٥٢٠ . ٦٠٧ . ٦٠٨ . ٦٠٩ . ٦١٠ . ٦١١ . ٦١٢ . ٧١١ . ٧١٢ . ٨٢٦ . ٨٦٥ . ٨٦٦ . ٨٦٧ . ١٠١٤ . ١٠١٥ . ١٠٢٥ . ١٠٢٦ . ١٠٢٧ . ١٠٢٨ . ١٠٢٩ . ١٠٣٠ . ١٠٣١ . ١٠٣٢ . ١٠٩٢ . ١٠٩٣ .

الشهيد إيرينيؤس أسقف ليون

٢٠٩ . ٢١٠ . ٢١١ . ٢١٢ . ٢١٣ . ٢١٤ . ٢١٥ . ٢١٦ . ٢١٧ . ٢١٨ . ٢١٩ . ٢٣٢ . ٢٦٧ .

الأسقف إيلاري

١٠٨ . ٦٩٤ .

باسيليوس الكبير رئيس الأساقفة

١٥ . ١٦ . ١٧ . ١٨ . ١٩ . ٢٠ . ٢١ . ٢٦ . ٢٨ . ١٢٢ . ٤١٢ . ٤١٣ . ٤١٤ . ٤١٥ . ٤١٦ . ٤٦٢ . ٤٦٣ . ٤٦٤ . ٦٥٥ . ٦٩٨ . ٦٩٩ . ٧٠٠ . ٧٠١ . ٧٤٥ . ٧٤٦ . ٧٦٤ . ٧٦٨ . ٧٦٩ . ٨٠٨ . ٨٠٩ . ٩٩٢ . ٩٩٣ . ٩٩٤ . ٩٩٥ . ٩٩٦ . ٩٩٧ . ١١٨٦ . ١١٩٦ .

الأسقف پالليديوس

١٠٦٢ .

الأسقف بوتين

١٠٤٦ . ١٠٥٤ .

العلاَّمة ترتوليان

٧٠ . ١٠٦٥ . ١٠٧٠ . ١٠٨٠ .

الأسقف تيخون زادونسكي

٣٢ . ٤٧١ . ٦٩١ .

الأسقف ثيئوفان الناسك

١٠٥ . ١٠٦ . ١٠٧ . ٤٨٠ . ٥٢١ . ٥٤٣ . ٨٧٦ . ٨٧٧ . ٨٧٨ . ٨٧٩ . ٨٨٠ . ٨٩٥ . ٨٩٦ . ٨٩٨ . ٨٩٩ . ٩٠١ . ٩٠٢ . ٩٠٣ . ٩٠٨ . ١١٧٠ . ١١٧١ . ١١٨٣ . ١١٩٠ .

الأسقف ثيئوفيلس

٢٠٦ . ٢٠٧ . ٢٠٨ .

الأسقف حزقيوس الأورشليمي

٧٧٠ . ٧٧٨ . ٧٨١ . ٧٨٢ . ٧٨٣ . ٧٩٣ . ٨٨٣ . ٨٨٤ . ٨٨٥ .

الأب ديمترى من رستوف

١٠٤٧ .

ديوناسيوس الأريوباغي

١٧١ . ١٩٢ . ١٩٣ . ٢٥٩ . ٢٦٠ .

أبَّا سمعان العمودي

٤١٧ .

سمعان اللاهوتي الجديد (المتكلم بالإلهيات)

٧٦٥ . ٨٩٠.

الأب سيرافيم صاروفسكي

١٦٧ . ٢٣١ . ٢٥٦ . ٤٧٦ . ٤٨٢ . ٧٦٣ . ٨٨١ . ٩٢٧ . ٩٧١ . ١١٣٣.

صوفرونيوس

١٠٧٨.

غريغوريوس الثيؤلوغوس

٨٦٩ . ٨٧٠ . ٨٧١ . ٨٧٢ . ٨٧٣.

غريغوريوس الكبير

١٢٠ . ١٤٨ . ١٤٩ . ١٥٠ . ١٥١ . ١٥٢ . ١٥٣ . ١٥٤ . ١٥٥ . ١٥٦ . ١٥٧ . ١٥٨ . ١٧٢ . ١٩٩ . ٢٢٥ . ٢٣٠ . ٢٤٤ . ٢٤٥ . ٢٤٦ . ٢٤٨ . ٢٤٩ . ٢٥٠ . ٢٥١ . ٢٥٢ . ٢٥٣ . ٢٥٤ . ٢٥٥ . ٢٥٦ . ٢٦٤ . ٢٨٠ . ٣١٤ . ٣١٥ . ٣٢٠ . ٣٢٧ . ٣٢٨ . ٣٢٩ . ٣٣٠ . ٣٤٧ . ٣٤٨ . ٣٦٦ . ٣٦٧ . ٣٦٨ . ٣٦٩ . ٣٧٠ . ٣٧١ . ٣٧٢ . ٣٧٣ . ٣٧٤ . ٣٧٥ . ٣٧٦ . ٣٧٧ . ٣٧٨ . ٣٧٩ . ٣٨٠ . ٣٨١ . ٣٨٢ . ٣٨٣ . ٣٨٤ . ٣٨٥ . ٣٨٦ . ٣٨٧ . ٣٩٢ . ٣٩٣ . ٣٩٤ . ٣٩٥ . ٤٠١ . ٤٠٢ . ٦٥٦ . ٦٥٧ . ٦٩٥ . ٧٧٩ . ٨٩٧ . ٩١٣.

الأسقف غريغوريوس پالاماس

٨٣٣ . ٨٣٤.

غريغوريوس (من سينا)

٣٣.

فيلارِتْ مطران موسكو

٥٥٤ . ١٠٥٢ . ١٠٨٢ . ١١٢٧.

الأسقف فيلوكسينوس

٣٠٣.

كالليستوس بطريرك القسطنطينية

٨٨٨ . ٨٩٢ . ٩١٤.

كبريانوس أسقف قرطاجنة

١٠٧١ . ١٠٧٢.

البابا كيرلس الإسكندري

٢٢٠ . ٢٢١ . ٢٢٢ . ٢٢٣.

الأسقف كيرلس الأورشليمي

١٠٨٩ . ١٠٩٠ . ١٠٩١.

لكتانتيوس

١٠٦٥.

أبَّا مقاريوس الكبير

١ . ٤ . ٢٧ . ٣٠ . ٧١ . ٧٢ . ٧٣ . ٧٤ . ٧٥ . ١٠٠ . ١٠١ . ١٠٢ . ١٠٣ . ١٢٥ . ١٣٩ . ١٤٠ . ١٤١ . ١٧٣ . ٢٦٥ . ٢٧٧ . ٢٧٨ . ٢٨١ . ٢٨٢ . ٢٨٣ . ٢٨٤ . ٢٨٥ . ٢٨٦ . ٢٨٧ . ٢٨٨ . ٢٨٩ . ٣٠٤ . ٣٠٥ . ٣٠٦ . ٣٠٧ . ٣٠٨ . ٣١٩ . ٣٢٣ . ٣٢٤ . ٣٢٥ . ٣٣٣ . ٣٣٩ . ٣٤٠ . ٣٤٣ . ٣٤٤ . ٣٤٥ . ٣٤٦ . ٣٥٢ . ٣٥٣ . ٤٣٨ . ٤٣٩ . ٤٤٠ . ٤٤١ . ٤٤٢ . ٤٤٣ . ٤٤٤ . ٤٤٥ . ٤٤٦ . ٤٤٧ . ٤٤٨ . ٤٤٩ . ٤٥٠ . ٤٥١ . ٤٥٢ . ٤٥٣ . ٤٥٧ . ٤٥٨ . ٤٥٩ . ٤٦٠ . ٤٦١ . ٤٨٥ . ٤٨٦ . ٥٢٢ . ٥٢٣ . ٥٢٤ . ٥٢٥ . ٥٢٦ . ٦١٣ . ٦١٤ . ٧١٣ . ٧٢٦ . ٧٢٧ . ٧٢٨ . ٧٢٩ . ٧٣٢ . ٧٣٣ . ٧٣٤ . ٧٣٥ . ٧٣٦ . ٧٣٧ . ٧٣٨ . ٧٣٩ . ٧٤٠ . ٧٤١ . ٨٢٧ . ٨٢٨ . ٨٢٩ . ٨٣٠ . ٨٣١ . ٩٠٠ . ٩٢٩ . ٩٣٠ . ١٠١١ . ١٠١٢ . ١٠١٣ . ١٠٢٠ . ١٠٢١ . ١٠٢٢ . ١٠٢٣ . ١٠٢٤.

أبَّا موسى من نتريا

١٠١٦ . ١٠١٧ . ١٠١٨.

الأب نيلوس السينائي

٥٤٥ . ٧٧٦ . ٧٧٧ . ٩٢٣ . ٩٢٤.

أبَّا يوحنا الدرجي

٣ . ٥١ . ٥٢ . ٥٣ . ٥٤ . ٥٥ . ١٢٣ . ٥٤٤ . ٥٥٥ . ٥٥٦ . ٥٥٧ . ٥٥٨ . ٥٥٩ . ٥٦٠ . ٥٦١ . ٥٦٢ . ٥٦٣ . ٥٦٤ . ٥٦٥ . ٥٦٦ . ٥٦٧ . ٥٦٨ . ٥٦٩ . ٥٧٠ . ٥٧١ . ٥٧٢ . ٥٧٣ . ٥٧٤ . ٥٧٥ . ٥٧٦ . ٦٥٢ . ٦٦٢ . ٧٤٢ . ٧٤٣ . ٧٨٦ . ٧٩٤ . ٧٩٥ . ٧٩٦ . ٧٩٧ . ٧٩٨ . ٧٩٩

. ٨٠٠ . ٨٠١ . ٨٠٢ . ٨٠٣ . ٨٠٤ . ٨٠٥ . ٨٠٦ . ٨٠٧ . ٨٣٥ . ٨٣٦ . ٨٣٧ . ٨٣٨ . ٨٣٩ . ٨٤٠ . ٨٤١ . ٨٤٢ . ٨٤٣ . ٩٣١ . ٩٣٢ . ٩٣٣ . ٩٣٤ . ٩٣٥ . ٩٣٦ . ٩٣٧ . ٩٣٨ . ٩٣٩ . ٩٤٠ . ٩٤١ . ٩٤٢ . ٩٤٣ . ٩٤٤ . ٩٤٥ . ٩٤٦ . ٩٤٧ . ٩٤٨ . ٩٧٠ . ٩٨٢ . ٩٨٣ . ٩٨٤ . ٩٨٥ . ٩٨٦ . ٩٨٧ . ٩٨٨ . ٩٨٩ . ٩٩٠ . ٩٩١.

الأب يوحنا الدمشقي

٢ . ١٠٤ . ٦٥٨ . ٦٥٩ . ١١١٣ . ١١١٤ . ١١١٥ . ١١١٦ . ١١١٧ . ١١١٨ . ١١١٩ . ١١٢٠ . ١١٢١ . ١١٢٢ . ١١٢٣ . ١١٢٤ . ١١٢٥ . ١١٢٦.

البطريرك يوحنا ذهبي الفم

٥ . ٨ . ٩ . ٢٩ . ٤٣ . ٤٤ . ٤٥ . ٤٦ . ٥٧ . ٥٨ . ٥٩ . ٦٧ . ٤٦٥ . ٤٦٦ . ٤٦٧ . ٤٦٨ . ٤٦٩ . ٤٧٠ . ٥٢٨ . ٦٦٠ . ٦٦١ . ٦٩٦ . ٦٩٧ . ٧٣١ . ٧٤٤ . ٨٨٦ . ٨٨٧ . ١٠٦٦ . ١٠٧٣ . ١٠٧٥ . ١٠٧٦ . ١٠٧٧ . ١٠٨٤.

يوحنا سابا الشهير بالشيخ الروحاني

١٠٩ . ١١٠ . ١١١ . ١١٢ . ١١٣ . ١١٤ . ١١٩ . ١٢١ . ١٦١ . ١٦٨ . ١٦٩ . ١٧٠ . ١٩١ . ٢٠١ . ٢٠٢ . ٢٣٦ . ٢٣٧ . ٢٥٧ . ٢٥٨ . ٢٦٠ . ٢٩١ . ٢٩٢ . ٢٩٣ . ٢٩٤ . ٢٩٥ . ٢٩٦ . ٢٩٧ . ٢٩٨ . ٢٩٩ . ٣٠٠ . ٣٠١ . ٣٠٢ . ٣١٧ . ٣٢٦ . ٣٣٧ . ٣٥٥ . ٤٨٩ . ٤٩٠ . ٨٤٤ . ٨٤٥ . ٨٤٦ . ١٠١٠ . ١٠٤٨ . ١٠٤٩ . ١٠٥٠ . ١٠٥١ . ١٢٠٧ . ١٢٠٨.

يوحنا كارباتيسكي

٩٠٤.

الأب يوحنا كاسيان

١٥٩ . ١٩٧ . ٣١٠ . ٣٣١ . ٣٩٧ . ٥٧٧ . ٥٧٨ . ٦٥٤ . ٧٤٧ . ٧٤٨ . ٧٨٠ . ٩٢٨ . ٩٦٨ . ٩٦٩ . ٩٧٤ . ٩٩٨ . ١٠١٩ . ١٢٠٩.

الأب يوحنا كرونستادت

١١ . ١٢ . ١٣ . ١٤ . ٢٤ . ٢٥ . ٣٨ . ٥٦ . ٦٨ . ٤٧٧ . ٤٧٨ . ٤٨٧ . ٥٢٧ . ٥٤٩ . ٥٥٠ . ٥٥١ . ٥٥٢ . ٥٥٣ . ٦٥٣ . ٦٦٣ . ٦٦٤ . ٦٦٥ . ٦٦٦ . ٦٦٧ . ٦٦٨ . ٦٦٩ . ٦٧٠ . ٦٧١ . ٦٧٢ . ٦٧٣ . ٦٧٤ . ٦٧٥ . ٦٧٦ . ٦٧٧ . ٦٧٨ . ٦٧٩ . ٦٨٠ . ٦٨١ . ٦٨٢ . ٦٨٣ . ٦٨٤ . ٦٨٥ . ٦٨٦ . ٦٨٧ . ٦٨٨ . ٧١٤ . ٧٢٠ . ٧٢١ . ٧٢٢ . ٧٢٣ . ٧٢٤ . ٧٢٥ . ٧٣٠ . ٧٨٧ . ٧٨٨ . ٧٨٩ . ٧٩٠ . ٧٩١ . ٧٩٢ . ٩١٥ . ٩٦٧ . ١٠٤٠ . ١٠٤١ . ١٠٤٢ . ١٠٤٣ . ١٠٤٤ . ١٠٥٣ . ١٠٦٣ . ١٠٨٥ . ١٠٨٦ . ١٠٨٧ . ١٠٨٨ . ١٠٩٥ . ١٠٩٦ . ١٠٩٧ . ١٠٩٨ . ١١٠٥ . ١١٠٦ . ١١٠٧ . ١١٠٨ . ١١٠٩ . ١١١٠ . ١١١١ . ١١١٢ . ١١٢٨ . ١١٢٩ . ١١٣٠ . ١١٣١ . ١١٣٢ . ١١٣٤ . ١١٣٦ . ١١٣٧ . ١١٦٨ . ١١٦٩ . ١١٨١ . ١١٨٢ . ١١٨٤ . ١١٨٥ . ١١٨٨ . ١١٨٩.

أنبا يوساب الأبح

٩٧٥ . ٩٧٦ . ٩٧٧ . ٩٧٨ . ٩٧٩ . ٩٨٠ . ٩٨١ . ١١٠٣ . ١١٠٤ . ١١٣٥.

مراجع الكتاب

EEE

مخطوطات:

(١) أربعة كتب للقديس مار إسحق أسقف نينوى:

مخطوطة منقولة عن نسخة القمص مينا البرموسي المتوحد . المتنيح البابا كيرلس السادس (١٩٥٩ . ١٩٧١).

(٢) ميامر الشيخ الروحاني:

مخطوطة رقم ١٩ لاهوت بمكتبة دير السريان،

(٣) درجات الفضائل للقديس يوحنا الدرجي:

مخطوطة رقم ٥٢ لاهوت بمكتبة دير السريان، ومخطوطة مترجمة عن الأصل اليوناني باللغة الإنجليزية مهداة من الراهب لعازر مور.

(٤) ميامر وتعاليم مار افرآم السرياني:

مخطوطة رقم ٥٧ لاهوت بمكتبة دير السريان.

(٥) تفسير بشارة متى الرسول للقديس يوحنا ذهبي الفم:

مخطوطة رقم ٢٠ لاهوت بمكتبة دير السريان.

(٦) قوانين الكنيسة:

مخطوطة رقم ٣٥ لاهوت بمكتبة دير السريان.

(٧) البرهان لأثناسيوس الرسولي:

مخطوطة رقم ٢٣ لاهوت بمكتبة دير السريان.

مطبوعات:

(١) عظات القديس يوحنا ذهبي الفم.

(٢) مقالات القديس مقاريوس.

(٣) رسائل القديس أنبا أنطونيوس.
(٤) سيرة أنبا أنطونيوس بقلم أثناسيوس الرسولي.
(٥) كتاب القديس أنبا باخوميوس.
(٦) الآباء الحاذقون في ا لعبادة: الجزء الأول لمار فيلوكسينوس.
(٧) اختبارات روحية: مطبوعات مدارس الأحد الجيزة.

مصادر باللغة الإنجليزية:

(1) Some Aspects about Orthodox Prayer., by Father Lazar Moore.
(2) Orthodox Spirituality., by a Monk of Eastern Church.
(3) On the Psalms., by St. Athanasius.
(4) The Confessions of St. Augustine.
(5) Western Mysticism., by Dom Cathbert.
(6) Coptic Homilies in the Dialect of Upper Egypt., "Budge".
(7) Miscellaneous Coptic Texts., in the dialect of upper Egypt., "Bude".
(8) Apostolic Fathers., Vol., I & II, Loeb. Library.
(9) The Fathers of the Church., St. Basil Letters.
(10) Murray's Dictionary of Christian Biography & Literature.

(بالإضافة إلى المراجع المذكورة على هوامش الكتاب).

اللوحة (٢)

صورة فريسكو (حائطيات) – فن ما قبل الأيقونات – من دير باويط (القرن ٤/٦م).

يظهر فيها رب المجد في أعلى الصورة، وفي أسفلها الرسل مع العذراء القديسة. والصورة طقسية تقليدية ناطقة. ونلفت نظر القارىء إلى أن:

(١) رب المجد جالس على العرش، والعرش محمول على الشاروبيم (الأربعة خلائق غير المتجسدة). فهنا الإشارة إلى رؤيا حزقيال النبي التقليدية، وبذلك يشير المصوِّر إلى ربوبية المسيح الفائقة في المجد. كما يحاول المصوِّر الملهم أن يُبرز العجلات الأربعة في أسفل العرش، والنار اللامعة عن يمين ويسار، والعيون الكثيرة التي يحملها الشاروبيم على هيئة دوائر صغيرة لامعة.

(٢) العذراء القديسة مع الرسل جالسة في وسطهم بينما هم وقوف، وجلوسها إشارة إلى كرامتها، وكرامتها بسبب المسيح الطفل الذي تحمله على يدها اليسرى حسب الطقس الأرثوذكسي.

(٣) الصورة في مجملها تتجاوز الوزن التاريخي الزمني؛ فالعذراء تحمل الطفل يسوع وتجلس بين الرسل الذين لم يظهروا في الزمن التاريخي إلا بعد ذلك بثلاثين سنة. والمصوِّر يريد الإشارة إلى أن كرامة العذراء بين الرسل لا تزيد عليهم إلا بسبب المسيح الذي حملته.

اللوحة (٣)

صورة فريسكو (حائطيات) - فن ما قبل الأيقونات - من دير باويط بالصعيد (القرن ٤/٦م).

يظهر فيها رب المجد جالساً على عرشه في أعلى الصورة. والرسل مع العذراء القديسة في أسفل الصورة.

هذه الصورة عقائدية ناطقة. ونُلفت نظر القارىء إلى أن:

(١) رب المجد في الوضع الأسمي تحيط به هالة مجد كبيرة تفصله عن بقية الرسل والعذراء أيضاً. ويده اليمني تشير بالبركة التقليدية الأرثوذكسية.

(٢) العذراء في مصاف الرسل كأول وكأعظم بينهم، ودرجتها في المجد أقل من الرب بدون قياس.

(٣) هالة المجد التي حول رأس العذراء أعظم نسبياً من كل هالات مجد الرسل.

(٤) العذراء يداها مرفوعتان بالصلاة علامة التشفُع الذي امتازت به في الصورة على كافة الرسل.

(٥) درجة رفع يدي العذراء في هالتها الكبيرة (الهالة الكبيرة تكون على مستوي الجبهة، والدرجة الصغيرة تكون على مستوى الكتفين). وهذا التقليد كان إمتيازاً للكهنة الواقفين أمام الهيكل في العهد القديم.

لوحة (٣)

اللوحة (٤)

صورة فريسكو (حائطيات) من دير باويط بصعيد مصر (القرن ٤/٦م).

وفيها يظهر رب المجد جالساً على العرش ويده في وضع البركة حيث يظهر تشكيل وضع الأصابع بمنتهي الدقة، حيث يتلامس الإبهام مع الأصبع الرابع (البنصر) في الطرف النهائي أي على أول عُقلة من العُقل الثلاث للأصبع إشارة إلى العدد عشرة (عشرة عُقَل) أي حرف اليوطا الذي هو أول اسم يسوع (أنظر ص ٥٦٧)

لوحة (٤)

اللوحة (٥)

عتبة باب عليا من خشب الجميز كانت تزين أعلى أحد أبواب الكنيسة المعلقة الرئيسية، وعليها نقوش بارزة غاية في الإتقان تمثل دخول السيد المسيح إلى مدينة أورشليم ظافراً. وفي أعلى النقوش المذكورة كتابة بارزة بالأحرف اليونانية في خطوط أفقية بعضها فاقد أو مشوه، ومنها ما هو مقتبس إما من التوراة أو من الرسائل. ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي.

أما ترجمة النصوص بالعربية فهي:

«يلمع في بهاءٍ طاهر نقي لا عيب فيه، ويسكن حيث مجمع كل الروحانيين كالعلويين من سيناء السمائية».

«والملائكة يمجدونه دائماً بالتقديسات الثلاثة مرتلين قائلين: قدوس قدوس قدوس أنت يا رب، السماء والأرض».

«مملوءتان من مجدك الأقدس وجبروتك الفائق يا عظيم الرحمة غير المنظور في السموات بين القوات المختلفة، يا من قبلت راضياً أن تحل بيننا».

«لتعيش متجسداً ومولوداً من العذراء أم الإله. من شهر بشنس من الاندكتس الثالث لدقلديانوس ٥١(؟)».

ويلاحظ أنه بالرغم من صعوبة الحفر على الخشب فإن الصورة تموج بالحركة، وكل شخص يمثل وضعاً خاصاً حتى الأتان التي يركبها الرب تندفع إلى الأمام بحركة وإصرار بكل حيوية.

لوحة (٥)

اللوحة (٦)

صورة فريسكو (حائطيات) – فن ما قبل الأيقونات – من دير باويط بصعيد مصر (القرن ٤/٦م).

وتظهر فيها العذراء القديسة مريم ترضع الطفل يسوع، وتُعتبر هذه الصورة من الصور الفريدة التي تحمل الطابع القبطي الصميم لأن التقليد القبطي هو الذي ينفرد دون تقاليد كافة الكنائس الأخرى في جرأته الفريدة في تصوير هذا الوضع.

ويلاحظ القارئ جمال وجه الطفل يسوع وشدة مناسبة ملامحه لدور الطفولة... والصورة واقعية فريدة في واقعيتها الإلهية.

لوحة (٦)

اللوحة (٧)

صورة فريسكو (حائطيات). فن ما قبل الأيقونات. من دير السريان بوادي النطرون (القرن ٧/٩م)

ويظهر في النصف الأيسر منها الملاك جبرائيل يبشر العذراء مريم بالميلاد الإلهي. ويلاحظ كيف أن الفنان القبطي صوّر اضطراب العذراء في حركة عينيها المطرقتين ويدها المرفوعة إلى قرب فمها.

وفي النصف الأيمن من الصورة جمع الفنان كل ما صاحب الميلاد البتولي من أحداث، أهمها العذراء مع الطفل يسوع مقمطاً مضطجعاً في المذود، وهو المنظر الذي يحتل الجزء الأكبر من الصورة، يعلوها جمهور من الجند السماوي ومن أسفل يظهر إثنان من الرعاة يتحدثان بخصوص البُشرى، وحولهما قطعان الغنم. وفي طرف الصورة الأيمن يظهر المجوس الذين أتوا من المشرق يقدمون هداياهم.

لوحة (٧)

اللوحة (٩)

صورة فريسكو (حائطيات) – فن ما قبل الأيقونات – من دير باويط بصعيد مصر (القرن ٤/٦م).

ويظهر في الصورة الملاك المنقِذ المذكور في قصة الثلاثة فتية الواردة في سفر دانيال حينما نزل في وسط أتون النار لينقذهم.

وهذا الملاك يُعتبر من ظهورات ابن اللّه في العهد القديم «بشبه ابن الله».

ويلاحظ القارىء الإشارة إلى سمو هذا الملاك عن باقي الملائكة في كونه مرسوماً أكبر حجماً بالنسبة لحجم الإنسان تلميحاً إلى ربوبيته السريَّة.

والصورة آية من الإبداع الفني التعبيري، كما أنها تحمل آية من آيات عناية اللّه بأتقيائه.

وليلاحظ القارئ الغبطة البادية على وجوه الثلاثة فتية.

لوحة (٩)

رسوم حائطية قديمة

من كنيسة أنبا مقار الكبير بديره ببرية شيهيت

(ترجع إلى القرن العاشر / الحادي عشر)

(وهي كلها مرسومة على جدران هيكل يوحنا المعمدان بالكنيسة

فيما عدا اللوحة رقم ١٨)

اللوحة (١٠) أيقونة الشفاعة

تشتهر أيقونات الشفاعة والتوسل المسماة باليونانية *Deisis* بين الأيقونات الأرثوذكسية عموماً. وهي تمثل المسيح واقفاً يحمل بيده اليسرى كتاباً، بينما يده اليمني في وضع البركة، بينما تقف عن يمينه السيدة العذراء ترفع يديها في وضع التوسل والشفاعة، وعن يساره يوحنا المعمدان في نفس الموقف.

ويلاحظ في طقس الليتورجية القبطي أن طلب «الشفاعة» أو الـ «بريسفيا πρεσβεια » محفوظ للقديسة العذراء مريم والقديس يوحنا المعمدان فقط من بين القديسين البشر، حيث يلتمس العابدون «شفاعتهم» أي وساطتهم، بينما يقتصر الطلب للقديسين الآخرين على طلب صلواتهم: «إيفكي ευχη ».

اللوحة (١١) العذراء الشفيعة (أيقونة الشفاعة)

صورة مكبرة تفصيلية من أيقونة الشفاعة للعذراء القديسة مريم ويتضح على وجهها إمارات التوسل مع شيء من الفرح أو اليقين في إستجابة إبنها لتوسلها مع إنحناءة أمام ابنها المسيح الإله الكلمة المتجسد.

اللوحة (١٢) القديس يوحنا المعمدان (أيقونة الشفاعة)

صورة مكبرة تفصيلية من أيقونة الشفاعة للقديس يوحنا المعمدان.

وهو في نفس وضع العذراء القديسة مريم

لوحة (١١)

لوحة (١٢)

اللوحة (١٣) أيقونة البشارة

أيقونة البشارة، وفيها تظهر العذراء وهي تتلقى البشارة من الملاك جبرائيل ويظهر بجانبها بناء مكعب الشكل يعلوه قبة وفي واجهته مدخل له قوسان متقاطعان محمولان على عمودين عليهما أطراف ستارة مطوية، ربما رمز لإنفتاح السماء ونزول الملاك بالبشارة على العذراء.

وإلى اليسار جبرائيل الملاك، بغير لحية، له أجنحة وهالة نورانية ومتسربل بالبياض.

اللوحة (١٤) العذراء تتلقى البشارة (أيقونة البشارة)

صورة تفصيلية مكبرة للعذراء وهي تتلقى البشارة من الملاك وقد كُتِب فوقها: «القديسة مريم»، وهي في رداء أحمر قاني وعليها هالة النور، جالسة على كرسي مرتفع رجلاه متقاطعتانِ وظهره أسود مستدير.

وتظهر العذراء بوجه مشرق جميل الملامح غاية الجمال، بمسحة قبطية رائعة تخلو من أي أثر للروح البيزنطية التقليدية، وتُرى وهي تمسك بالمغزل في يدها اليسرى، وهو وضع يتكرر في معظم أيقونات البشارة التقليدية في العالم أجمع، بينما يدها اليمني مرتفعة تنم عن الدهشة من تحية الملاك لها: «كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً» (لو ١: ٣٤). بينما هي في الوقت نفسه تحني رأسها، معبِّرة عن حالتها بعد سماعها تفسير ا لملاك، «هوذا أنا أمة الرب ليكن لي كقولك.» (لو ١: ٣٨).

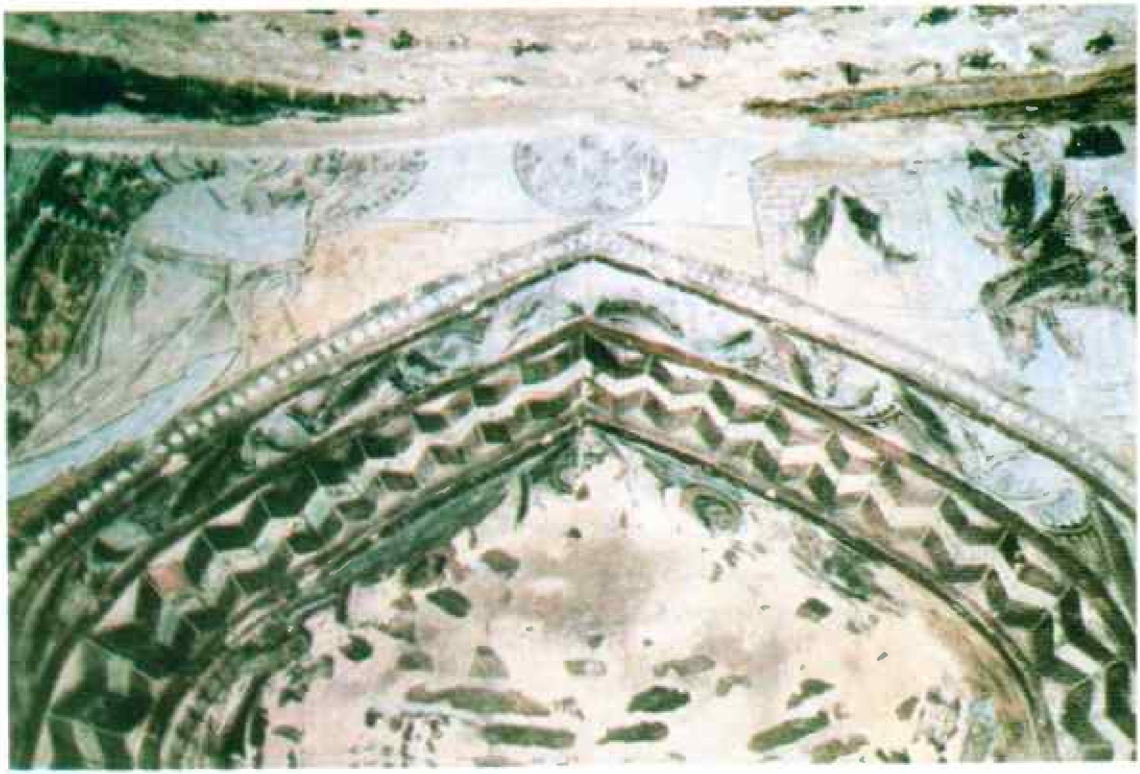

لوحة (١٣)

لوحة (١٤)

اللوحة (١٥) السيد المسيح (البانطوكراطور)

الضابط الكل

صورة مكبرة لرسم المسيح (في أيقونة الشفاعة. لوحة ١٠) وهو في وضع البانطوكراطور. أي ضابط الكل. ويُرى وهو يمسك بيده اليسرى كتاباً، بينما اليد اليمنى في وضع البركة. ويتسم وجه المسيح بالبساطة والهدوء، مع إمارات المجد والمُلْك، فهو الخالق والفادي والديّان معاً.

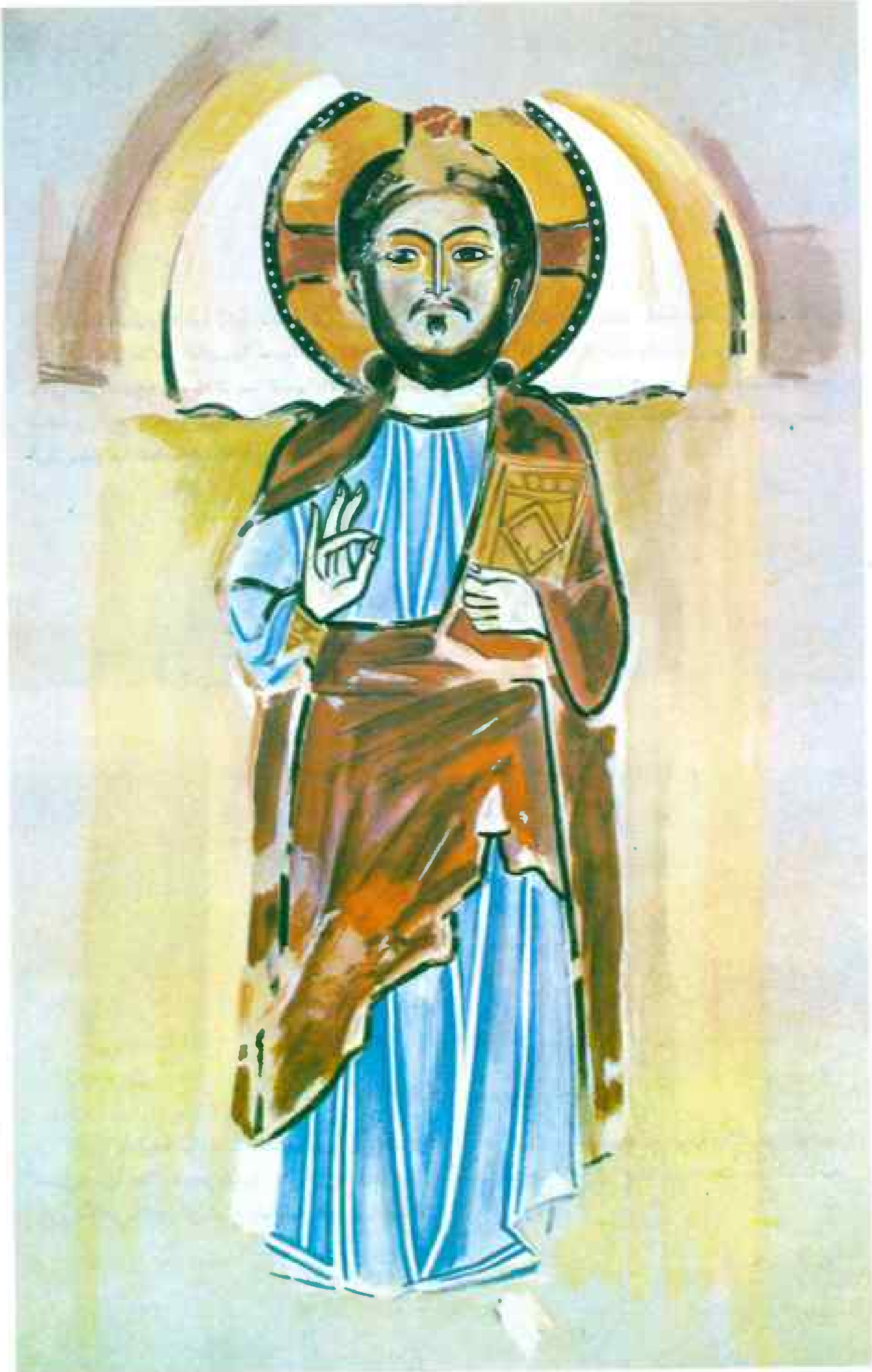

لوحة (١٥)

اللوحة (١٦) زكريا الكاهن يبخر

(أيقونة البشارة بميلاد يوحنا المعمدان)

صورة تفصيلية مكبرة لزكريا الكاهن أثناء البشارة بميلاد يوحنا المعمدان. وهو يظهر بلحية بيضاء، وقميص أحمر طويل، وفوق الملابس الكهنوتية ثوب كهنوتي قصير يرتديه الكهنة أثناء الخدمة الإلهية، وغطاء الرأس مثلث الشكل يتدلى على ظهره، وهو يحرك يده اليمنى بالمجمرة، ويمسك صندوقاً صغيراً بقمة هرمية في يده اليسرى، بينما يصعد سلماً من أربع أو خمس درجات يؤدي إلى الهيكل (وهو بناء بثلاثة عقود دائرية)، وفيه مذبح مستطيل مغطى بستر أزرق يعلوه قبة مخططة محمولة على أربعة أعمدة.

اللوحة (١٧) الملاك المبشر بميلاد يوحنا المعمدان

صورة تفصيلية مكبرة للملاك جبرائيل، وهو يبشر زكريا الكاهن بميلاد يوحنا المعمدان. صورة ملاك بهي، ووجهه مضيء جداً بجلال، وهو مسربل بالبياض وله أجنحة، ويبدو منظره وهو طائر في حركة سريعة وقد مدَّ يده ناحية زكريا الكاهن، كمن أتى ليبلغ بشارة ثم يعود إلى السماء.

اللوحة (١٦)

اللوحة (١٧)

اللوحة (١٨) صورة الشاروبيم

الشاروبيم هو القوة الإلهية التي رافقت القديس أنبا مقار كل أيام حياته، وصورته مرسومة بالركن الشرقي البحري لهيكل أنبا بنيامين في قاعدة القبة.

والشاروبيم هو الشكل الذي ذُكر في نبوة حزقيال ١: ٥، ٥: ١٠، على مثال الأربعة المخلوقات الحية. وهو عبارة عن كائن حي رأسه رأس إنسان تحيط به هالة نورانية، وشعر الرأس الغزير يحدده قوس صغير، اليدان بشريتان ممدودتان ربما في وضع عبادة رغم أن المرفقين ملتصقان بالجنبين.

والجسم بيضاوي يماثل شكل طائر، خاصةً مع الرجلين، وينتهي بطرف غريب على شكل بيضاوي.

ومن الكتفين يخرج زوج من الأجنحة المنبسطة تشغلان الزاويتين الخارجتين للبطنية المثلثة. سطح الجناح يبدو خفيف الريش قرب الجسم، ولكن عند الأطراف يبدو مرصّعاً بعيون دائرية، وهو تصوير مدهش للشاروبيم.

ويبرز من خلف الكتف الأيسر رأس ثور والكتف الأيمن رأس أسد، ويطل من فوق الهالة رأس نسر، وبين الهالة والجناح الأيسر تُرى رأس إنسان باهتة.

وقد ورد شرح روحي للشاروبيم في كتاب عظات القديس مقاريوس، العظة الأولى.

لوحة (١٨)

اللوحة (١٩) هارون الكاهن

رسم على الوجه الشرقي في مواجهة باب هيكل يوحنا المعمدان، فوق أيقونة الشفاعة (لوحة رقم ١٠). ويبدو فيه هارون الكاهن يمسك بعلبة أشبه ما تكون بعلبة البخور. في الجانب الآخر من الرسم (لا يظهر في هذه الصورة) مرسوم فيها موسى النبي يمسك بشيء أشبه بلوحي العهد.

اللوحة (٢٠) إشعياء والسيرافيم

وعلى نفس الوجه القبلي للمثمن، ولكن إلى اليسار، يظهر إشعياء النبي بلحية بيضاء ووشاح أحمر ويواجهه واحد من السيرافيم بأجنحة وجسم يشبه الطيور، والوجه واليدان هما لإنسان، يقف على مذبح مربع عليه ستر أزرق ويلمس شفتي النبي بجمرة بين طرفي ملقاط (إش ٦: ٦).

لوحة (١٩)

لوحة (٢٠)

اللوحة (٢١) القديس باخوميوس وقوانين الرهبنة

رسم للقديس باخوميوس، وعلى يمينه لوحه المشهور الذي يرمز إلى قوانينه الرهبانية التي استلمها من الملاك وبجوار أذنه اليمني مباشرةً ثلاثة مفاتيح معاً، وهي تمثل مفاتيح معرفة طريق «الثالوث» المؤدي إلى الحياة الأبدية، أو إلى النذور الثلاثة للرهبنة: الطاعة، الفقر، العفة.

اللوحة (٢٢) القديسان أنبا أنطونيوس وأنبا بولا

رسم للقديسين أنطونيوس الكبير وبولا أول السواح، الأيمن منهما في حالة صلاة، ملتحي بلحية طويلة وعليه مسوح من ليف النخيل وطائر يحمل إليه خبزاً. سمات هذا الرسم مع ما تبقي من الحروف تبين أنه صورة أنبا بولا أول السواح، وبصحبته شخص آخر هو أنطونيوس بلا شك، وعليه هالة نورانية وعلى رأسه قلنسوة رهبانية خفيفة، ويبدو أن يديه معقودتان علي صدره.

اللوحة (٢٣) مناظر من صورة الميلاد

في التجويف الذي في الزاوية البحرية الشرقية آثار رسم للوحة الميلاد، لا يظهر منها سوى منظ لأحد المجوس ومعه الهدايا (اللوحة أسفل)، وأحا الرعاة وملاك ينشد تسبيحة الميلاد (كما يُرى في اللوحة أعلى). وما تبقي من لوحة الميلاد ما زال يحتفظ ببهاء ألوانه وجمالها.